الدكتور عبد الإله الصائغ

الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب

(الأدبية وتحليل النص)

دار الفكر المعاصر - صنعاء

١٩٩٩ - ٢٠٠٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب

(الأدبية وتحليل النص)

الرقم الاصطلاحي: ٠٥٣,٠١١

الرقم الموضوعي: ٤٤٠

الموضوع: البلاغة

العنوان: الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب

التأليف: د. عبد الإله الصائغ

الإشراف والتنفيذ الطباعي: دار الفكر - دمشق

عدد الصفحات: ٥٨٤ ص

قياس الصفحة: ١٧X٢٥سم

دار الفكر المعاصر

اليمن - صنعاء - جولة الجامعة الجديدة

ص.ب: ٧٣٢٧، هاتف ٢٢٤٣٣٢

دار الفكر

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م

ـ أ ـ

أوّل الغيث

خطابنا في هذا الكتاب قائم على مُسَلَّمة منطقية ، نعرفها ولا نعترف بها !! نستسيغها نظرياً ولا نسوّغها تطبيقياً !! والمسلمة التي نعنيها هي : أن الأدب الجاهلي حالة إبداعية منفلتة ، تتشكّل بالتماهي مع الموهبة الفائقة ، والتجربة الحادة ، والعاطفة الحارة ، واللغة الانفعالية ، والحساسية المرهفة والتقاليد القارّة إزاء فضاءي الزمان والمكان ! وأيّ ضير في ذلك ؟!

أما دراسة (أدبية الأدب) فهي حالة مختبرية ، ميدانها الحقل العلمي ؛ وينبغي بقاء الفجوة عميقة وواسعة بين انفلات النص الأدبي وانضباط ديباجة الدراسة ، بين المبدع منتج نصّ انفعالي ، ومحلل النص منتج هامش علمي !!

وإذا كان الأمر كذلك ، فإن كوّة الاختصاص الفقهي ينبغي لها أن تضيق (بـ) و (عن) زحف الأقلام الشمولية ، التي تكتب في كل علم وفن ، فتؤلّف الكتب في النحو والعروض والبلاغة والفن التشكيلي ، والأدب الجاهلي وأدب صدر الإسلام والأدب الأموي والأدب العباسي والأدب الأندلسي وأدب الفترة المظلومة (المظلمة) ، والأدب الإحيائي والأدب الحديث و .. وو .. إلخ !!

إن دراسة الأدب الجاهلي القائمة على آليات تحليل النص حقل علمي معملي صعب ، يتطلّب اختصاصاً بحتاً ، وتجربة ميدانية كافية ، ووعياً مناسباً ، كما تتطلّب الدراسة تفرّغاً وصبراً تامّين ، مع متابعة يقظة للمستجدات في فقه الأدب ، فضلاً عن

التراكم الإبستمولوجي المتاح . إن حلم هذا الكتاب يتمحور حول النص ليضع ثماره في سلة واحدة تكون بمتناول أيدي ثلاثة أنماط من المستهلكين : هم عشّاق الأدب الجاهلي ، ومحلّلوه ، وطلبة الجامعة .

وكتابنا المنهج لم يتدن ولم يتعال ، جرياً وراء الانسجام مع مرجعية كل نمط وذائقته ومبتغاه ، لأن الذهنية والمنهج العلميين قمينان بإرضاء الكافة دون استثناء ، والتواصل معهم بحميمية ويسر . وعليه فقد توفّر مشروعنا على مفاصل الأدب الجاهلي ، التي شغلت وما زالت وستظل القارئ والدارس والمحلل ، متلبثاً عند الموضوعات والظواهر والأغراض والخصائص ، مستنداً إلى مساحة شاسعة وساطعة من النصوص الموثّقة ، منتفعاً بالتوصلات المبهجة ، التي نعم بها هذا الأدب الثمين ، من جهة المكتشفات الإيركولوجية الجديدة ، والدراسات التطبيقية الجادة ، والنظريات المعرفية الهامة .

ونسأل الله التوفيق .

عبد الإله الصائغ

أستاذ تحليل النص والأدب الجاهلي في الجامعة المستنصرية (العراق) وجامعة صنعاء (اليمن)

ـ ب ـ

الكشّاف المفصّل ، الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب

+ أوّل الغيث
+ سنابل بين يدي الكتاب (مقدّمة في المسوّغات) .

• الأطروحة الأولى (مهاد وإضاءات)

+ الفصل الأول (الأدب الجاهلي بين الكيف والكم) :

جدل الأجيال الأدبية والسابق واللاحق ـ جدل الأزمنة الثلاثة : المستقبل والحاضر والماضي ـ لماذا الأدب الجاهلي ـ عشر إجابات مقترحة : الجدل الحادّ بين أقاليم العصور الأدبية/الثروة اللغوية والصوتية/المعرفة التاريخية والجغرافية والنوئية والحضارية والتقاليد المبهظة بالعنجهية : الوأد والعصبية والغزو والعتوّ ومطاردة حريّات الآخرين !! ـ إضاءات متصلة بتحليل نصوص القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ـ الوهلات الإيقاعية الأولى ـ التلبيات الجاهلية ـ أفانين الخيال والمجاز ـ مفهوم الجمال ـ مناهل الرؤية العروبية والقيمية ـ رؤيوية النص الإبداعي ـ الصورة .

+ الفصل الثاني (عصور الأدب) :

حدود الجغرافية التاريخية لزمنية الأدب ـ تمييز الزمنية عن الفنية ـ العصور الأدبية كافة !! ابتداء من العصر الجاهلي وانتهاءً بالعصر الحديث ـ مقترحات لدراسة الأدب : الترتيب الزمني ـ الأغراض والغايات ـ القبائل ـ الأمكنة ـ الوضع السياسي والاجتماعي ـ منازل الشعراء ونجومياتهم ـ المصنوع والمطبوع ـ طبقات الشعراء الوبر والمدر ـ الولاءات

الدينية ـ مناهج مقترحة لدراسة الأدب الجاهلي ـ المنهج الفني ـ اللغوي ـ التاريخي ـ الجغرافي ـ النفسي ـ الاجتماعي ـ البنيوي (الوصفي) ـ الإيديولوجي ـ الدلالي ـ التكاملي .

+ الفصل الثالث (تفكيك المصطلحات) :

مستويات التفكيك (لغوية ـ تواضعية ـ تأسيسية)

ـ الأول يمتح من المعجمات اللغوية

ـ الثاني يمتح من كتب المصطلحات

ـ الثالث يمثّل وجهة نظر الكتاب أو الباحث ومستوى فهمه للمصطلح أو منهجه ـ أدب ـ أدبية ـ عشر دلالات لغوية تتصل بالأدب ـ مكونات الأديب ـ الموهبة ـ الخيال ـ التجربة ـ الثقافة ـ الانحياز إلى الحياة والخير ـ احترام المتلقي ـ الدربة ـ الأسلوب ـ الأدبية والشعرية . عربي ـ أعرابي ـ جاهلي ـ قبسلامي ـ نقد ـ نقد جاهلي ـ كينونة النقد الجاهلي ـ تسويغ وجود نقد جاهلي : المعلقات والمنتقيات ـ حكومة النابغة ـ ذائقة الجمهور ـ نعوت الشعراء ـ الفرسان ـ الصعاليك ـ الآراء ـ الوبريون ـ المدريون ـ السرقات الشعرية ـ مطابقة الصفة للموصوف ـ تفريعات الشعراء ـ قدرة الوليد بن المغيرة في صناعة النص ـ طرائق الشعر في ضبط إيقاع شعرهم ووزن قصائدهم ـ طريقة النصب ـ طريقة التنعيم ـ طريقة الركباني ـ رغبة امرئ القيس في تنويع القوافي ـ بنية السموط .

+ الفصل الرابع (الأدب الجاهلي في حاضنة البيئة) :

تحديد جغرافية الجزيرة العربية ـ التوزيع الديموغرافي ـ تهامة ـ الحجاز ـ نجد ـ العروض ـ اليمن ـ مصادر دراسة جغرافية الجزيرة ـ خوارط متعددة تاريخية وقبلية ومائية وتجارية ، يمكن ملاحظة الحدود عليها والجبال والأسواق .

+ الفصل الخامس (جاهلية المجتمع العربي) :

الزمن العربي ـ مفهوم الـزمن ـ رقي الحضـارة عنـد العربي وتخلّفهـا عنـد الأعرابي ـ دلالة الأمية بين الكتابـة والوعي الـديني والقيم العربيـة ـ معرفـة العرب أسماء عـدد من الأنبياء وأخبـارهم ؛ آدم ، نوح ، موسى ـ التصـاوير التي ازدانت بهـا جـدران الكعبـة ـ الحنيفية ملّة الفطرة ـ التطرّف الديني عند الحمس والطلس والحلة .

• الأطروحة الثانية (الشعر الجاهلي)

+ الفصل الأول (نشأة الشعر وأوليته) :

تـأصيل مصطلح الشعر ـ دلالات شـاعر ونبي وسـاحر وكاهن ومجنون ـ ابن رشيق القيرواني يرى أن الشعر بـدء نثراً !! (ثم توهّموا أعـاريض جعلوهـا موازين للكـلام) الصلـة بين السجع في النثر والرجز في الشعر ـ العرب تميّـز جنسين همـا : الرجـز وتضعـه خارج الشعر ، والقصيد وتجعله مدار الشعر ـ جرجي زيدان رأى أن الشعر والغناء كانـا جنسـاً واحـداً ـ اختـلال مـوازين عـدد من القصـائـد الجـاهليـة يطرح إشكاليـة (الشعر/النثر) ـ عبيـد بن الأبرص يلقي خطبـة فتستقيم معلقـة (أقفر من أهلـه ملحوب) !! ـ الشعر والطقس الديني ـ الهجاء والسحر ـ لبيد يغرّب وجهه وهيئته عند الهجـاء ـ البـابليون يستقبلون أول السنـة وأول الربيع بـالبكاء !! ـ قـداسـة الثور عنـد القدمـاء (ثور ـ ثورة ـ أشيرة ـ عشتـار) ـ الرثـاء معـادل رغبـة الموت ـ رثـاء الخنسـاء محـاكاة الـلاوعي لتقليـد دفن المرأة مـع ولي أمرهـا ـ الهـامـة والصّفر والثـأر ـ طقـوس سحرية : إمساك العرب عن البكاء حتى تدرك ثأرها ـ كي الجمل السليم بـدلاً من المريض بالعِرّ ـ الحبيب يشق برقع حبيبتـه ليستمر الحب ـ تعليق الحلي والجلاجل على الملسوع أو اللديغ ليفيق وينجو ـ فقء عين الفحل إذا بلغت الإبل مئة عدداً طرداً للحسد والنكد ، وإذا ازداد العدد فقئت العين الثانية للفحل !! ـ خرزة السلوان تشفي العاشق من فتك

الحب ـ إيقاد النار بعد خروج الضيف الثقيل حتى لا يكرر الزيارة ـ ضرب الثور إذا امتنعت الإبل عن شرب الماء ـ عبور المرأة المقلات (العقيم) على جثة الشريف المقتول لترزق طفلاً شريفاً ـ إذا خدرت الرجل فتذكّر الخدير حبيبته ذهب عنه الخدر ـ الصبي يرمي سنه المخلوع إلى عين الشمس لينال منها سناً أجمل ـ معرفة خيانة الزوجة بقراءة عقد خيط الرتم ، وعرق الفرس المهقوع ـ عقد السعف المشتعل في أذناب الثيران حتى ترمي بنفسها إلى أسفل الوادي كطقس من طقوس الاستسقاء ـ تعشير الغريب (النهيق عشر مرات) إذا دخل مدينة أول مرة حتى لا يصيبه وباؤها ـ تعليق كعب الأرنب على الصدر درءاً لأذى الجن (كذا) ـ تطور اللغة من الإشارة والرقص إلى الشعر ـ ترنيمة الشمس (قراءة في نقش يمني بخط المسند) طقوس الكهوف ورهباتها ورغباتها يرثها الشعر ـ مَن سبق من : الشعر أم النثر ؟ ـ وأي الشعر نعني وأي النثر ؟؟ ـ اللغة العربية لغة إيقاع ومجاز ومعان .

+ الفصل الثاني (الشعر الجاهلي وطبقات الرواة بين الرواية والتدوين) :

كثرة الشعر وقلة النثر ـ ضياع أدب عشرين قرناً سبقت العصر الجاهلي ـ رأي د . ناصر الدين الأسد في انصراف دلالة الأمية إلى سوى القراءة والكتابة ـ علم الرواية وآلياته في العصر الجاهلي ـ دور المخضرمين والمعمرين في حفظ النصوص الجاهلية ـ تأويل نضج الشعر الجاهلي ـ وسائل الجاهليين في الاستذكار والكتابة ـ الشعر الجاهلي يورد إشارات تؤكد معرب العرب للقراءة والكتابة ـ العباديون يحترفون التعليم ـ الشعر الجاهلي جنوب الجزيرة بانتظار قراءة آلاف النقوش المكتشفة حديثاً في اليمن ـ الدكتور عبد العزيز المقالح يتحدث عمّا أثبته الباحثون بشأن سفر أيوب عليه السلام وكتابته في اليمن ـ الوليد يعجب بقدرات حماد الراوية الخارقة على الحفظ والاستذكار ـ الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يحرق عدداً من الكتب الجاهلية مخافة أن تضلل الناس ـ رواة الشعر وحفظة نصوصه ـ دغفل الذهلي ـ عبيد بن شرية ـ عبد الله بن

عباس رضي الله عنهما ـ الفرزدق ـ أبو عمرو بن العلاء ـ حماد الراوية ـ المفضل الضبي ـ خلف الأحمر ـ ابن الكلبي ـ أبو عبيدة ـ أبو عمرو الشيباني ـ الأصمعي ـ ابن الأعرابي ـ ابن سلاّم الجمحي ـ مقولتا القديم والمحدث ـ طبقات الرواة ـ خلف يستخف ممن يستخف بعمل الناقد ـ الشعراء الرواة ـ الرواة من غير الشعراء ـ رواة القبيلة ـ الرواة العلماء ـ الوضّاعون ـ العوائل الشعرية .

+ الفصل الثالث (نظرية الشك) :

آراء القدامى والمحدثين وآراء المستشرقين بقضية النحل ـ سبعة عشر دليلاً بين يدي نظرية الشك ـ اثنا عشر دليلاً لنقض نظرية الشك ـ محمد بن إسحاق ودوره في تهجين الشعر ـ نظرية رينيه ديكارت وأثرها في رواد نظرية الشك ـ تطرّف طه حسين وإعدامه للشعر الجاهلي ـ تشجيع الشعراء من قبل النبي ﷺ والخلفاء الراشدين والصحابة رضي الله عنهم ـ شارحو القرآن الكريم يستعينون بالشعر لتفسير القرآن الكريم ـ حسان بن ثابت الشاعر الملتزم ـ إعجاب النبي ﷺ ببعض أشعار عنترة وطرفة وقس والأعشى ـ أسباب ضياع المدونات .

+ الفصل الرابع (شياطين الشعراء) :

التفسير الميتافيزيقي للظواهر والأفعال المجهولة ـ الجانب السحري في طقوس هجاء لبيد للربيع بن زياد ـ الصلاة على الموتى ـ طبقة المشعوذين ـ نفي صفات الشاعر والكاهن والشاعر والمجنون عن النبي ﷺ ـ اثنا عشر رأياً تأويلياً ـ جغرافية عبقر وعجائبيته ـ أسماء شياطين الشعراء ـ هبيد/ابن واغم/هاذر/مدرك/مسحل السكران/الهوبر/الهوجل/السعلاة/المعلاة ـ أفلاطون يرى الإلهام مصدر الفنون ـ كبير الآلهة (زوس) قابع في جبل الأولمب ـ تسع ربات يقتسمن الفنون كما يزعم قدماء اليونان ـ مدرسة زهير مع صناعة الشعر وإلغاء فكرة الإلهام ـ رأي الجاحظ : (الشعر

صناعة وضرب من الصياغة وجنس من التصوير) حكايات شعرية ينتجها تأبط شراً يزعم فيها أنّه تزوّج أنثى الغول .

+ الفصل الخامس (المعلقات العشر وشعراؤها) :

تأصيل مصطلح (معلقة) ـ عددها ـ شعراؤها ـ آراء علماء الشعر المختلفة في سبب تسميتها وعددها وشعرائها ومقولة تعليقها على أستار الكعبة .. المعلقات الست والسبع والثماني والتسع والعشر ـ معلقة عبيد بن الأبرص لا تستحق الشهرة فهي بعيدة عن جماليات شعر المعلقات ـ تقويم المعلقات ـ رأي ابن خلدون في المعلقات ـ عشرة مقترحات تسوّغ أهمية المعلقات وانتقاء الجاهليين لها ـ جدولان إحصائيان في تراتبية بحور المعلقات وقوافيها ـ اختلاف علماء الأدب الجاهلي حول تعليق المعلقات على جدران الكعبة ، فريق يرى التعليق وآخر لا يراه ـ نجيب محمد البهبيتي : ملحمة جلجامش أوّل عمل شعري يعلّق على جدران المعبد ـ رأي الدكتور يحي الجبوري ـ نحن مع فكرة تعليق المعلقات ـ تراجم الشعراء ـ جدولان الأول مصادر المعلقات العشر ـ ابن سلاّم الجمحي ـ ابن قتيبة ـ الأصبهاني ـ التبريزي ـ الشنقيطي ـ زيدان ـ البستاني . الجدول الآخر تضمّن وفيات الشعراء وفق التاريخين الهجري والإفرنجي ـ عملنا في المعلقات العشر ـ ترجمة الشعراء العشرة ـ نصوص المعلقات العشر ـ بحور المعلقات وقوافيها ـ شروح المفردات والصياغات الغامضة أو الشاردة ـ الحديث الشريف : ما وصف لي أعرابيّ وأحببت أن أراه إلا عنترة ـ النابغة شاعراً ـ النابغة ناقداً ـ عبد الملك بن مروان يعلل جاذبية شعر النابغة ـ الاعتذاريات ـ عبيد بن الأبرص شهد مقتل حجر والد امرئ القيس ـ النعمان يقتل عبيداً في يوم البؤس .

+ الفصل السادس (الفروسية وشعراؤها) :

تأصيل دلالتي (فارس/فتىً) ـ الفروسية معادل أخلاقي للمروءة ـ الفروسية رتبة وليست حرفة ـ لبيد يرثي أخاه ـ اقتران صورة الفرس بصورة المرأة ـ عنترة يفضّل فرسه

على زوجه ـ التماهي بين الفارس والفتى ـ جدولان في أوجه الافتراق والاتفاق بين الفروسية والفتوة ـ فروسية طرفة من خلال معلقته ـ الفتى الفارس في مرثاة دريد بن الصمة لأخيه عبد الله ـ الفارس الفتى ربيعة الكناني حمى الظعن حياً وميتاً ـ صورة الفتى الفارس في مراثي الخنساء ـ الفروسية وأغراض الشعر الأخرى ... قواسم مشتركة بين صورتي الممدوح والمرثي ـ مرثية أوس بن حجر (أيتها النفس أجملي جزعاً) ـ عمرو بن معد يكرب يقرن الجمال بالفروسية ـ خصائص شعر الفروسية .

+ الفصل السابع (الصعلكة وشعراؤها) :

تأصيل المصطلح ـ تأويل الصعلكة ـ صعلكة الزعيمين حاتم الطائي وعروة بن الورد . صعلكة الفقراء ـ الشّنفرى ـ عمرو بن براق ـ نفيل بن براقة ـ تأبط شراً ـ السليك ـ مفهومات الصعلكة ـ ظاهرة الصعلكة من التحليل فالتأويل إلى التلوين ـ الصعلكة لصوصية أم قضية ؟ ـ طبقات الصعاليك وانحداراتهم ـ تأويل الحوار المصطنع بين الصعلوك والمرأة الحبيبة أو العاذلة ـ قصائد ومقطعات صعلوكية ـ الأعشى ابن الثمانين يتشبه بفتيان الصعاليك !! ـ مرثاة السلكة لولدها السليك ـ أثمة قرائن بين : صعلوك وفتى وفارس ؟ ـ الخصائص الفنية لشعر الصعاليك ـ التخفف من المقدمات الطللية ـ استثمار جماليات الإيقاع ـ الصورة العجائبية .

+ الفصل الثامن (موضوعات الشعر الجاهلي) :

ـ الغزل والنسيب ـ المديح ـ الارتزاق ـ الرثاء ـ الاعتذار ـ الهجاء ـ الفخر ـ التوثيب ـ السلام ـ الحكمة ـ الدين !! ـ أوجه الائتلاف والاختلاف بين غرض وثان ـ ضغوط البيئة والطبقة على الغرض الشعري باتجاه المعنى والمبنى ـ المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثي والمشوبات والملحمات والمنصفات ـ مدرستا الشعر المصنوع والشعر المطبوع ـ اقتران ألقاب الشهرة عند الشعراء بفنونهم الشعرية التي تميّزوا بها ـ مهلهل ـ المرقش ـ الفحل ـ المحبر ـ الصناجة ـ مقترحات لدراسة الأغراض ـ إشكاليات

منهجية ـ قصائد ومقطعات تثبت شواهد للأغراض الشعرية ـ المثقب العبدي ـ ذو الإصبع العدواني ـ انعكاس ظلال المرأة على موضوعات الشعر ـ المديح فن مختلف عن الارتزاق ـ أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم بين المديح والرثاء ـ يائية عبد يغوث الحارثي ـ علقمة الحميري ـ يغري ابنته (أجتني) برثائه حياً ـ رثاء القصور والممالك ـ اعتذاريات النابغة تاريخاً وفناً ـ اعتذاريات زهير لزوجه أم أوفى ـ الهجاء والسّحر واللعنة ـ أثر الكلمة إرث سحري قديم ـ سجن المهجو في أقبية القصيدة ـ أربعة موضوعات تقتسم همزية زهير ـ الهجاء وجه ثان للفخر ـ الفخر وجه ثان للهجاء ـ صيفي بن الأسلت تنكر مرآه ابنته غب عودته من قيادة الأوس في حربها الطويلة ـ الحزن سمة قصيدة صيفي ـ فخر السموءل ـ ظاهرتا التوثيب والإنصاف الشعريتان ـ عروبة لقيط والتزامه ـ صورة القائد والجند والعدو في عينية لقيط ـ الفند الزماني يعتد الحرب ظلماً والرحم مجناً ـ بكائيته (صفحنا عن بني ذهل) التي يسوّغ فيها محاربة قومه ـ مفهوم السلام في الذهنية الجاهلية ـ تبشيع صور الحرب ـ وتجميل صور السلام ـ زهير شاعر السلام ـ الحكمة فن يمتلك جمهوراً عريضاً ـ مقطعات وقصائد لزهير وهند ابنة النعمان ـ وأحيحة بن الجلاح ـ والمثقب العبدي ـ بين (لا) و (نعم) ـ نماذج شعرية في الحكمة لعمرو بن معد يكرب ولبيد وتميم وأبي ذؤيب ـ والمرقّش ـ والنابغة ـ والأعشى ـ الشعر الديني ـ التجمعات الدينية في الجزيرة ـ التاجر عمرو بن لحي المستورد الوحيد للأصنام ـ صورة اليهودي وصورة المسيحي في الشعر الجاهلي بين الحانة والمضاربة التجارية ـ والمعبد ـ والدير ـ الهاجس الديني في شعر أمية بن أبي الصلت ـ قس والتأمل ـ زهير والتألّه ـ عينية لبيد والعاطفة الدينية ـ دائرة الوصف تضمّنت موضوعات الشعر الجاهلي كافة ـ الوصف والصورة ـ الصور الأكثر انتشاراً في الشعر الجاهلي : المرأة ـ الأطلال ـ الأنواء ـ الناقة ـ الفرس ـ السلاح ـ الحرب ـ الحيوانات ـ الصحراء ـ الينابيع ـ النبات ـ الرحلة ـ الفارس ـ القصور والقلاع ـ الفصول ـ الأسواق ـ الملابس ـ سيناريو القصيدة الجاهلية ـ من أول بيت حتى آخر بيت ـ الوقفة على الطلل ـ البكاء ـ

كليشهات (فدع ذا) ـ السفر بديل عن الحزن ـ تشبيه الناقة بثور الوحش (أو أي حيوان آخر) ـ ظاهرة الصراع الدموي بين الحيوان المشبه به للناقة من جهة والصياد وكلابه من جهة أخرى ، الصراع بين الحيوان والأنواء ، ـ بين الحيوان والمجهول ـ رأي الجاحظ في لوحة الصيد وحذق مقولته : أن الثور يموت حين تكون القصيدة في الرثاء ـ وينتصر حين تكون القصيدة في المديح ـ الثور والدم والشمس ـ قداسة الثور عند الجاهليين ـ كافية زهير صورة أخرى للصراع . أبطالها قطاة وصقر ـ صورة المرأة الجميلة ـ هل طرد عمرو بن كلثوم المرأة من معلقته ؟ ـ أم أنه أولاها عناية فائقة ؟.

+ الفصل التاسع (خصائص الشعر الجاهلي) :

الشعرية والجاذبية ـ نظرية عمود الشعر : شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائها للقافية حتى لا منافرة بينهما . ا . هـ ـ مرجعيات الشعر ـ الخصائص مبدأ منهجي ـ وحدة الإيقاع ـ دلالات الإيقاع والوزن ـ الركباني مقام جاهلي منقرض ـ جدول الحركات والسكنات التي تقابل التفعيلات الثماني المعتمدة في البحور ـ وحدة البيت ـ مخطط خيمة (بيت الشعر) ـ ترسيم الصلة بين بيت الشَّعر (فتح الشين) وبيت الشِّعر (كسر الشين) . دلالات عمود ـ سبب ـ وتد ـ فاصلة ـ محاولات جاهلية لاختراق وحدة البيت نهض بها النابغة وامرؤ القيس ـ صيغة أفعل في أحكام الذائقة الشعبية !! أغزل بيت ، وأمدح بيت ، وأخنث بيت ـ التقديم والتأخير الدلاليان وصلتها بتجليات النص أو انطفاءاته ـ وحدة الموضوع حبكة أخرى تشدّ أجزاء الموضوعات الصغيرة إلى الموضوع الرئيس ـ إشراك الطبيعة والجمهور في اللغة الانفعالية للقصيدة ـ ظاهرة الاقتران بين المرأة والمطر والقصيدة عند المنخّل اليشكري وطرفة ـ ليل امرئ القيس والزمن النّسبي ـ الصورة الفنية ـ ثمانية عشر نمطاً للصورة : الصورة الواقعية ـ المجازية ـ الحسيّة ـ الذهنية ـ الجزئية ـ الكلية ـ المتحرّكة ـ الساكنة ـ الحية ـ

الميتة ـ البسيطة ـ المركبة ـ الصورة بين الثنائيات والأضداد ـ النقد الجاهلي قائم على معيار الصورة ـ طرفة ينقد خاله المتلمس (استنوق خالي الجمل) ـ ميمية الحطيئة (وطاوي ثلاث) بانوراما جديدة ـ أسلوب الحكاية ضرب آخر من ضروب شعر الصورة ـ الواقعية ـ الشعر ثمرة الواقع ـ اتهام الشعر الجاهلي بسلطة الحواس (الحسيّة) ـ قصيدتان نادرتان لأوس بن حجر ـ قصيدة تصف الطبيعة قبيل هطول المطر ـ قصيدة أخرى تصف فرار أوس أمام العدو ـ الزمكانية ـ آليات القصة ـ عينية سويد اليشكري (مخضرم) ـ لامية امرئ القيس ـ الأعشى رائد فن الحكاية الشعرية ـ الحكاية من خلال : أيام العرب والرحلة والوصل والبيئة ـ وضوح المعاني ودقة التعبير ـ جدل الذاتية والغيرية (أنا ـ هم) .

• الأطروحة الثالثة (النثر الفنّي)

+ مقدمة (مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي) :

المبدع الشامل ـ الفجوة بين الشعر والنثر ـ الارتجال يضيّق الفجوة بين الجنسين ـ الشعر والنثر توأمان ـ الشعر أبصر النور قبل النثر ـ فن السيرة يخلط بين جنسي الشعر والنثر ـ سيرات : الزير سالم ـ عنتر وعبلة ـ ليلى العفيفة ـ القصة بين الشعر والنثر ـ النظرية الشفاهية أسهمت في تضييق الفجوة بين جنسي النثر والشعر ـ نظرية مونرو في شفاهية الإبداع الجاهلي ـ قراءة في قراءة مونرو ـ مفهوم د . عبد الله الغذامي للشفاهية ـ عصا الشاعر وعصا المايسترو كلاهما تعملان على ضبط الإيقاع ـ الشعر يموسق العواطف ـ غربة النثر الفني الجاهلي في الجامعات العربية ـ تسلّط الشعر ـ استبيانات وزّعها الباحث على دارسي الأدب الجاهلي في عدد من جامعات الوطن العربي ـ الاستبيانات هتكت نظرة اللامبالاة عند المدرّسين والمختصين للنثر الفني ـ العرب أمة الشعر وأمة النثر أيضاً ـ العرب أمة البيان ـ الشعر ديوان العرب والنثر ديوان

العرب أيضاً . جمهور النثر في الجاهلية فاق جمهور الشعر كماً ونوعاً ـ ستة عناصر أسهمت في تخلّف النثر عن الشعر .

+ تمهيد (أوراق النثر الفني) :

نقّاد النثر ـ الجمهور والحكّام ـ الشعراء نقّاداً ـ تجنيس الشعر والنثر ـ تفريع الأجناس ـ حدود التجنيس عند د . حاتم الصكر ـ حساسية النقّاد من الأجناس ثمرة مرة للذكرى القاتمة حين وظف النازيون والفاشيون علم الأجناس لأغراضهم المهلكة ـ أنماط السرد عند العرب .

+ أنماط النثر الفني : ـ الخطابة ـ الأمثال ـ سجع الكهان ـ المنافرة ـ الحكاية ـ الوصايا ـ المعاهدات والأحلاف ـ الرسائل ـ الوصف .

أولاً : الخطابة : مساحة الخطابة ـ سبع مزايا ينبغي توفرها في الخطيب ـ أبرز خطباء العرب ـ قس بن ساعدة ـ علقمة بن علاثة ـ عامر بن الطفيل ـ أكثم بن صيفي ـ حاجب بن زرارة ـ الحارث بن عباد ـ الحارث بن ظالم ـ قيس بن مسعود ـ عمرو بن الشريد ـ عمرو بن معد يكرب ـ عامر بن الظّرب العدواني ـ قبيصة الأسدي ـ كعب بن لؤي ـ هاشم بن عبد مناف ـ عبيد بن الأبرص ـ الحارث اليشكري ـ عمرو بن كلثوم ـ عمرو بن عمار الطائي ـ ضمرة بن ضمرة ـ ربيعة بن حذار ـ خويلد بن عمرو ـ وعبيد بن شرية الجرهمي ـ خطبة قس الإيادي ـ نصّها ـ أجواؤها ـ ترجمة قس ـ خطبة النعمان في بلاط كسرى ـ خطبة أبي طالب لرسول الله ﷺ ـ في تزويجه خديجة بنت خويلد ـ أغراض الخطبة الجاهلية : التحريض ـ السلام ـ الوئآم ـ التبشير الديني ـ محاربة الفوضى والوثنية والقهر ـ التعزية ـ الوفادة ـ الصلح ـ المفاخرة ـ المباهاة ـ مساحة الخطبة بوصفها نصاً ـ مساحة الخطبة بوصفها أدباً جماهيرياً ـ صورة الخطيب في اشتراطات قدامة بن جعفر .

ثانياً : الأمثال : ـ تأصيل المصطلح ـ أعلام دونوا الأمثال ـ ورود بعض الأمثال على ألسنة الحيوانات والهوام ـ تشريح الاستعارة التمثيلية ـ بنية المثل ـ مخططان لبيان أنساق المثل ـ منهج الميداني في مجمع الأمثال ـ تشريح ستة أمثلة بآليات المغزى ـ نصوص مختارة لأمثلة جاهلية .

ثالثاً : سجع الكهّان : ـ تفكيك المصطلح ـ الاستضاءة بالوثائق الأدبية ـ تغريب هيئات الكهّان ومقولاتهم ـ ستة نصوص من سجع الكهّان ـ عوف بن ربيعة ـ الزرقاء ابنة زهير ـ الزبراء الرئامية ـ عزى سلمة ـ سطيح الذئبي ـ شق بن صعب .

رابعاً : المنافرة : مفهومها ـ حرب سلاحها الكلمات ـ بروتوكولاتها ـ دور الجمهور والقاضي ـ أسباب التنافر ـ التنافر على حق يدعيه كل طرف لنفسه وينفيه عن غيره ـ زعامة القبيلة ـ ملكية الأرض ـ ملكية الماء ـ خطبة فتاة ـ حيادية مكان المنافرة ـ التقاليد المسكوت عنها ـ التقاليد المتبعة ـ شغب الجمهور ـ مروءة الجمهور ـ دور المنادي ـ الرؤية العروبية منعت قضاة المنافرة عن تشجيع المنافرة لأنها تبدد الجهد ، وتفرّق الجمع ، وتزرع الضغائن ـ مقطع طويل من كتاب الأغاني حول منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ـ اختلاط إيماءات الشعر بإيماءات النثر في المنافرة ـ وقوف لبيد والأعشى مع عامر بن الطفيل ـ وقوف الحطيئة والسندري مع علقمة بن علاثة ـ قضاة المنافرة ورؤيتهم العروبية ـ مروءة القضاة ـ منافرة العجفاء ضد صديقاتها الثلاث ـ الاحتكام إلى الكاهنة ـ الكاهنة أعادت المحبة إلى أفئدة الصديقات الأربع ـ الفخر والهجاء قبالة الإيذاء ـ تقويم المنافرة ـ سبعة قضاة اعتذروا عن التحكيم في منافرة عامر وعلقمة لأسباب عروبية وهم : هرم الفزاري ، وعامر بن مالك ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، وعيينة بن حصن ، وغيلان بن سلمة الثقفي ، وحرملة بن الأشعر المرّي ـ أيها المعوّل عليه في المنافرة : جمال الأسلوب أم مكر المعنى ؟؟ـ

خامساً : الحكاية : الدلالات والحدود ـ تداخل دوائر الحكاية الثلاث ـ الراوي ـ النص ـ المتلقي ـ أنماط الحكاية ـ الحكّاء (تشديد الكاف) راوية الحكاية استناداً إلى الزمخشري ت (538 هـ) ـ جدل الحكاية والمثل ـ إذا قصر نفس الشعر طال نفس الحكاية ـ التداخل بين الحكايات الشعرية والنثرية ـ قيادة النص الحكائي وتأويلاته ـ الشفاهية والحكاية ـ نصوص ست حكايات جاهلية : الحية والكنز ـ الغريّان ـ زكانة أولاد نزار ـ شن وطبقة ـ جزاء النضيرة ـ بنت الضَّيزن ـ طرفة التكاذب .

سادساً : الوصايا : ـ فن شائع ـ لماذا الوصايا ؟ـ خمس وصايا ـ وصية النعمان الشني ـ أم البنت ـ عامر بن الظّرب ـ المنذر ـ أكثم بن صيفي ـ مجلة لقمان مجموعة وصايا كانت بحوزة سويد بن صامت ـ تداخل الوصية والحكمة والخطبة ـ وظائف الوصية .

سابعاً : المعاهدات والأحلاف .

ثامناً : الرسائل .

جهود ابن الكلبي ، وأبي عبيدة ، وابن هشام ، وابن حبيب ، والسجستاني ، والجاحظ في الحفاظ على إرث المعاهدات والأحلاف والرسائل ـ إشكالية منهجية تعتور الباحث ـ المعاهدات والأحلاف والرسائل وصلتنا بمعانيها ولم يلتزم المدونون بنصيّتها ـ ثمة أكثر من ستة وعشرين موئل .

تاسعاً : الوصف : فن نثري راق ـ يتصل بجماليات الصورة الفنية ـ عشرة نصوص في الوصف ـ أعرابي يصف رجلاً ـ جليلة تصف محنتها ـ وصف جمال ابنة عوف ـ وصف البرد ـ وصف الحر ـ وصف حاجب بن زرارة للعرب ـ المنذر يصف الجمال ـ مهلهل يصف الحرب ـ وصف الشيخوخة ـ وصف النساء .

+ **خصائص النثر الفني** : وحدة الموضوع ـ قصر النص ـ قصر الجملة ـ الاعتبار بالأولين ـ المبالغة في الوصف ـ نظرية النثر بالشعر ـ جاذبية الصورة ـ الإدهاش والإبهار ـ ورود تفعيلات بتلقائية تامة (فاعلاتن/مستفعلن/مفاعيلن) .

+ **مصادر الأدب الجاهلي ومراجعة (تأصيل وإضاءات) :** الحدود بين المصدر والمرجع ـ حذر علماء اللغة والمصطلح من الخوض في الحدود بسبب التداخل ـ مقولات مهمة للدكتور عز الدين إسماعيل ـ والأستاذ محمد عجاج الخطيب ، ود . الطاهر أحمد مكي ـ مقترحات لترسيم الحدود بين مصدر ومرجع .

+ **جريدة المصادر والمراجع :** وقد تضمّنت أمات المصادر والمراجع التي استثمرها كتابنا ، ولم نغفل الكتب المساعدة والمظان التي تبدو في الظاهر بعيدة عن دائرة الأدب الجاهلي بيد أننا اقتبسنا منها إرشادات أضاءت لنا فكرة ما ، أو عززت رأياً ما .. مثل كتب الإيقاع والعروض ، والشعر الحديث ، والفلسفة فاقتضت الإشارة .

مقدمة الكتاب

« سنابل بين يدي الكتاب »

1 ـ فـاز الأدب الجـاهلي (PRE- ISLAMIC LITERATURE) بـاهتمام الدارسين ، قدامى ومحدثين ، عرباً وأجانب ، ناعماً بذائقـة جمهور واسع موال لأدبيتـه ، يشكّل أغلبية الشارع الثقافي ، فإذا اختلف القرّاء المختصون في أدبية أي عصر من عصور الأدب ، فهم متفقون على أدبية النص الإبداعي الجاهلي وقيمتها الفـائقـة ، ولسوف يظل السؤال عن سرّ تجـدد جمرة هـذا الأدب رغم الفجـوتين الشـاسعتين العميقتين (الـزمن والحساسية) اللتين تفصلان منظوماتنا المعرفية والجمالية ومنظوماته . يظل هذا السؤال مفتقراً إلى إجـابـات علميـة مقنعـة مستنـدة إلى آليـات علم تحليـل النص (TEXT ANALYSIS) ، وعلم الجمـال (AESTHETICS) وفـق مرجعيـات متعـددة ومناهج مختلفة واجتهـادات متبـاينـة . ثم يواجهنـا جمهور الأدب العريض بهـذا السؤال البسيط والمركّب معاً :

لماذا تستفز ذائقتنا معلقة طرفة بن العبد ـ مثلاً ـ ولا نستشعر الحالة ذاتها ـ أحيانـاً ـ مع قصيدة معاصرة ؟!

أين مكمن الخلل : في الذائقة ؟ أم في العصر ؟ أم في النص ؟

إن الجواب بسيـط ومرّكب معـاً .. حـاولنـا أن يكون بهيئـة كتـاب .. فكان لنـا ما أردنا . وسنجد في مفاصل الكتاب أن النص الإبداعي الجـاهلي عبّر دون حـذلقـة عن هموم عصره المتشعّبة : الهموم الاجتماعية والوجودية والجمالية مستنـداً إلى حـالات فـائقـة

من الصدق الفني ، فهو (النص الإبداعي) دائرة مغلقة ، مركزها القراءات المتعددة ، ولعل أوّل القراءات وأجداها تمثّل في قراءة الجدل الموضوعي والذاتي بين النص الإبداعي ومعطيات المكان ، والمكان وحده قيمة كبرى تضمن إن أُحسن الحوار معها النص الإبداعي بأسرار النمو والبقاء داخل مركزية الضمير الإبداعي الجمعي ..

2 ـ لقد جرّب كتابنا هذا فكرة المزاوجة الموضوعية بين نصوصية النص وخصوصية التأويل ، متجنباً التنطّع والتمحّل اللذين يعزلان العلّة عن المعلول ؛ والنص عن حاضنته الطبيعية ، فشغلت أطروحاته الثلاث بتحليل مستويات النص الجاهلي (الشعر ، النثر ، الإشارة ، الحادثة ، الظاهرة ..) ودأبها تعددية القراءة الممهّدة لمسوغات التحليل والتأويل والتلوين ، ولم تشأ هذه الأطروحات الارتياز إلى التلوين إلا في حالات (نادرة) لم تتعد أصابع اليد الواحدة !! حين تضطرنا المعضلة العلمية إلى ترميم نص مشروخ ، أو مخروم ، أو مكسور ؛ يعاني خللاً في حَرْفيته ، أو نسبته ، أو جنسه ، أو فرعه ، أو مناسبته !!

3 ـ تظل (ولزمن طويل) قارة الأدب الجاهلي بكراً شديدة الخصوبة وفيرة الكنوز ؛ مع تنامي البحوث والدراسات والترجمات التي ما انفكّت تحرث وتنقّب وتستكشف .. ثمة الكثير الذي لم يدرس بعد ، أو لم يكتشف بعد ، أو لم يقل بعد !! زد على ذلك الاحتمالات المبهجة المفتوحة على الحفريات الهمية الدؤوبة التي تشهدها جزيرة العرب شمالاً وجنوباً ، وهذه الحفريات الميمونة تنهي إلى انتظارنا نبأ خطيراً كل شهر تقريباً ، وكشفاً كبيراً ! لقد تجمعت في اليمن وحدها آلاف الرُّقُم والنقوش وهي قمينة ـ يقيناً ـ بإضاءة العتمات وتصويب المعلومات ، بما يغني الباحث الرصين عن (التلوين) الذي يرمّم النص بمحمولاته ومتونه وهوامشه ، ولسوف تشهد السنوات القادمة زلزالاً في القناعات البحثية القائمة على الأدب الجاهلي ، حين تصل هذه المكتشفات إلى أوراق الباحثين ، وحين تضحي آليات علم تحليل النص متداولة وقد نهد (مركز الدراسات والبحوث اليمني) لإصدار بعض الكتب المهمة المتضمّنة نقوشاً مسندية

مع ترجماتها وتعليقات علمية حولها ؛ ونحن ننتظر المزيد والمزيد من إسهامات مراكز الدراسات والبحوث في الوطن العربي وفق خطة مركزية للتنسيق والتعجيل وتبادل الخبر والمعلومات لتظهير معطيات المكتشفات الجديدة .

4 ـ يجهد كتابنا ويجتهد ابتغاء ردم الفجوة المعرفية التي حفرتها الكتب المنهجية الشائعة في جامعاتنا العربية مع الأسف ، (نستثني عدداً قليلاً من الكتب الجامعية المنهجية الرصينة) تلك التي يسوّدها نمطان من صنّاع الكتاب المنهجي !!

الأول .. هم التجار والحريّفون من حملة الماجستير أو الدكتوراة أو الدرجة العلمية الرفيعة ، مستثمرين رغبة الطلبة في الاستناد إلى كتاب أو ملزمة لغرض التعويض عن الغياب والتهيؤ للامتحان !! وحسابات الإدارة المالية ، وسخاء دور النشر المترّسة في ابتزاز الطالب والجامعة !! وللواحد من هؤلاء سبعة رؤوس وعشرات الأيدي فإذا أغضبته وقوّمت فِعاله (حَسِبْتَ الناسَ كلَّهمُ غضابا) !!

والآخر .. هم الهارفون بما لا يعرفون ، مستثمرين غياب رقابة الضمير الجمعي والعلمي والإداري ، وحاجة الطلبة الجامعيين إلى كتاب يعتمدون عليه ، حين يستعدون للامتحان ، وقد زرع الهارفون في روع طلابهم أن الكتاب كفيل بتيسير مشاكلهم العلمية وسبيل لاحب يوصل إلى النجاح !! نحن إذن بإزاء كتب منهجية مطبوخة على نار حادة ، كتب تنسخ عن غيرها دون إحالة ، وتمسخ النص بالتحليل الساذج ، والتشكيل (ضبط الحركات) الخاطئ ، وهي إلى هذا تعاني من خروق فادحة الضرر في المنهج والمرجعية والعرض والتأويل ! فضلاً عن وجود كتب (مزمنة) في الأدب الجاهلي مضى عليها العقد والعقدان والثلاثة وصلت طباعاتها إلى العشرين والثلاثين دون تعديل بإضافة أو حذف بما ينسجم مع مستجدات البحث العلمي ؛ فكأن الزمن لابث حيث يلبثون ، أو كما قال أرشيبالد مكليش (لا شيء يحدث ، لا أحد يجيء ، يا للهول) .. فهذا الكتاب (...) قرأناه ونحن طلبة بكالوريوس ، وحين حصلنا على

الإجازة العالية قررناه لطلبتنا ، وحين حصل طلبتنا على الإجازة العالية قرروه لطلبتهم !! وأي كتاب منهجي يفتقد شرعية استمراره إذا لم يكن وكده في مراقبة المتغيرات العلمية والتوصلات البحثية ، وتشكّل أجيال جديدة من الأساتذة والطلبة ، لكي يحذف ويضيف ويعدّل ، فالحقيقة العلمية في تطوّر ونموّ مستمرين ، وما أكثر ما فاجأنا العلم بالكثير بين ليلة وضحاها ، والأدب الجاهلي ليس ديباجة إنشائية وإنما هو علم تامّ العلمية .

5 ـ عيّنت عضو هيئة تدريس في جامعة الموصل العتيدة عام (1984 م) ، وكلّفت بإلقاء محاضرات في الأدب الجاهلي على طلبة قسم اللغة العربية (كلية الآداب) ، وحرصت على أن تكون محاضراتي وفق منهج جديد في قراءة النص الجاهلي أسميته (المنهج الصوفني) ؛ ونالت المحاضرات ترحيباً مناسباً من طلبة البكالوريوس ، وطلبة الدراسات العليا ، مثلما نالت الترحيب نفسه من زملائي وأساتذتي ، فعرض عليّ الدكتور صلاح الدين أمين عميد الكلية فكرة صناعة كتاب في الأدب الجاهلي متوفر على مفردات المنهج المقرر ، وذكّرني بكتاباتي في الصحف والمجلات .. التي تعرّضت فيها ـ بكل صراحة ـ لمحنة الكتاب المنهجي وبخاصة الأدب الجاهلي ، فسعدت بعرض الأخ العميد ، بيد أنني اعتذرت له عن تأليف كتاب منهجي ، فالوقت بالنسبة لي لم يحن بعد لصناعة كتاب مقرر للطلبة !! وحاول الأخ العميد مرات ومرات كسر قراري وقد انضمّ إليه الدكتور عبد الوهاب العدواني رئيس قسم اللغة العربية (وهو شاعر وباحث مجتهد) ولم تفضِ محاولة الصديقين معي إلى نتيجة واضحة ، إلا أنني أرجأت فكرة صناعة كتاب جامعي إلى وقت آخر فبدأت بجمع الجذاذات والتوفّر على المظان التي أحتاج إليها في شغلي .. ثم قادتني حياتي المضطربة إلى تدريس هذا الأدب الجميل في جامعات الموصل والكوفة والمستنصرية (في العراق) وجامعة الفاتح (في ليبيا) وجامعة صنعاء (في اليمن) فتجمّعت لديّ غبّ هذه الملاوة (1984 ـ 1999) جذاذات مهمة كمّاً ونوعاً وخبرة ميدانية أضافت إلى منهجي الكثير ، فحذفت وعدّلت ،

والتدريس مرجعية مهمة لأيّ مشروع جامعي يمتلكه حلم الطبع والانتشار ، زد على ذلك السوانح العلمية التي هيأتني للإشراف على عدد غير قليل من الأطاريح العلمية (الماجستير والدكتوراة) فضلاً عن المناقشات والسمنارات وتقويم الكتب والبحوث .. ويمكن الاعتراف بأننا عوّلنا على هذه الخبرات الميدانية في تحليل وتأويل كثير من النصوص والظواهر .. وكأنني غبّ هذه الملاوة أُحقّق رغبة صديقي عميد كلية الآداب ورئيس قسم اللغة العربية ، بل أحقّق رغبة مكبوتة قمعتها كل هذه الفترة وها إنني أضع كتابي الجامعي الأول في الأدب الجاهلي ، ليعود إليه الأعزاء من القراء والطلبة والزملاء ، فقد حرصت على أن يتوفّر على مفردات المنهج المقرر للأدب الجاهلي بأقسام اللغة العربية في جامعات وطننا العربي الكبير . ولن ندّعي أن كتابنا هذا مرشّح لسدّ كلّ الثغرات المزمنة ؛ فمثل هذا الادعاء لا يزعمه الباحث المحترم لمروءته العلمية ، وجهد فرد ـ مهما علم أو تعالم ـ لن يكون بديلاً عن جهد الفريق ، وينبغي أن يكون أي كتاب جامعي ثمرة فريق من العلماء وذوي التجربة ! لكن مثلنا في هذا المنعطف الحاد هو : « ما لا يدرك كلّه لا يُترك جُلّه » ؛ هذا الكتاب (الأدب الجاهلي وبلاغة الخطاب ـ الأدبية وتحليل النص) محاولة مخلصة ويقظة لصناعة كتاب منهجي متوفّر على مسوّغات تداوله وقراءته مستفيداً من كتبنا التي أنجزناها في تحليل النص الجاهلي وهي :

1 ـ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام (1982 م)

2 ـ الصورة الفنية معياراً نقدياً (1987)

3 ـ الإبداع الأدبي الجاهلي بين الواقع والتوقّع (1988 م)

4 ـ الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية (القدامة وتحليل النص) (1997)

6 ـ الأدب الجاهلي (أدب شعبي) وفق الحدود العلمية لهذا المصطلح ، فهو ثمرة

الذاكرة الجمعية لمنتجي النصوص الجميلة ومستهلكيها ، ولم يستشعر المبدع عهد ذاك غربة مع جمهوره ، كذلك الجمهور ، فهو لم يستشعر غربة مع مبدعه ، والنصوص المتاحة مبهجة ومفهومة بسبب انتشار اللغة الأدبية (الثالثة) قبيل الإسلام ، وإذا كانت لقريش لغة رسمية ، وللعرب الآخرين لغاتهم التي تشبه اللهجات في زماننا ، فقد ابتكر المبدعون لغة ثالثة ، وهي لغة أدبية متطورة عن لغة قريش مستثمرة شحنات الشائع من اللغات الأخرى ، ملاحظة التماهي بين (المبدع ، النص ، المكان ، المتلقي) ، والذائقة مهيأة تماماً لتلقي النصوص في زمان لم يشغل الناس فيه شاغل عن الأدب ، فالحرب تتطلب الأدب ، والسلم يتطلب الأدب أيضاً !! والرغبات والرهبات والطقوس ، وحتى الحرف كانت تطالب المبدع بقول شيء يناسب المقام ! فكانت لغة الأدب مفهومة من قبل العرب والأعراب شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، ومرغوبة ، الشاعر في سوق عكاظ مثلاً يكلّم خاصته بلغة جغرافيته لكنه ينشد الشعر باللغة الثالثة وقد يجد من تُشْكل عليه لغته ، ولكنه لن يجد أحداً تنغلق عليه لغة النص الإبداعي ، وسواء في ذلك الشاعر والخطيب والواعظ والحكّاء باستثناء الرهبان الذين يغرّبون سجْعهم ، ويشحنونه بغرائبية اللفظ ، وعجائبية المعنى .

7 ـ صنع الأدب الشعبي (الأدب الجاهلي) نصوصاً عذبة وفق قوالب و (كليشهات) وجاهزيات متداولة بين المبدعين وجمهورهم العريض ، بما يجعل الكتابة الأدبية فعلاً يسيراً إلى حدّ ارتجال القصيدة ، أو الخطبة ، أو الحكاية دون عناء ، ولنا أن نتذكر ارتجال الحارث بن حلّزة معلقته الجميلة :

(آذنتنا ببينها أسماء) .

في بلاط المناذرة ، ونتذكّر أيضاً ارتجال عبيد بن الأبرص لمعلقته :

(أقفر من أهله ملحوب) .

وقد بدأها خطبة وألقاها قصيدة ! وارتجال قس بن ساعدة لخطبته التاريخية

الشهيرة في سوق عكاظ ، وهذه القراءة تقربنا من نظرية الأدب الشفاهي الجاهلي (ORAL COMPOSITION IN PRE ISLAMIC LITERATURE) التي استضأنا بها في القراءة والتحليل والتأويل ! وتطلس هذه النظرية بوجاهتها العلمية المقولات التي (تشنق) الشعر والنثر الجاهليين ، تلك المقولات التي قادها رواد نظرية النحل من العرب والأجانب ابتداء من ابن سلاّم وانتهاءً بطه حسين ومارجليوث .

8 ـ وقد اخترنا المنهج الفني ARTISTIC METHOD سبيلاً لاستنطاق النص والغوص في الطبقات الغاطسة فيه لتحليل إشاراته وظواهره وأحداثه ، واختيارنا المنهج الفني لم يحبسنا عن الاستفادة المحسوبة من مزايا المناهج الأخرى ، فاستفدنا تارات من معطيات المناهج : التاريخي ، والنفسي ، واللغوي ، والاجتماعي ، وإن هذا المنهج متوفر على طاقات ممتازة تقوى على مقاربة الهَمَّيْنِ المركزيين في النص الإبداعي : الدلالي والجمالي حين يتماهى الهمّان في النص ، إن استثمارنا لعدسات المناهج الأخرى يعزّز المسار الوصفي لكتابنا ، ولا ينقل الهم من دائرة النص إلى منتجه ، ولا يقربنا من المعيارية ، فالأدب الجاهلي أدب مستحيل على نظرية قتل المؤلف التي نادى بها رولان بارت فثمة معان لا يمكن هتكها دون الاستضاءة بالتاريخ والجغرافية والمسار الإيقاعي للغة !! للمثال حسب .. قارن قول عنترة :

إذْ تَسْتَبِيْكَ بذِي غروب واضحٍ	عذْبٍ مقبَّلُهُ لذيذِ المطْعم
وكأنّ فارة تاجر بقسيمة	سبقت عوارضَها إليك من الفم
أو روضة أُنفاً تضمّن بنتها	غيثٌ قليل الدّمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة	فتركن كلّ قرارة كالدرهم
سحّاً وتسكاباً فكلّ عشية	يجري عليها الماءُ لم يتصرّم
وخلا الذباب بها فليس ببارح	غِرداً كفعل الشارب المترنّم
هزجاً يحكّ ذراعَه بذراعِهِ	قدْحَ المكبّ على الزناد الأجذم

فعنترة يشبّه ثغر حبيبته بروضة خضراء ممطرة نظيفة برّاقة لا يهتدي إلى خصوبتها الآخرون ، وكلها أوصاف ليست بعيدة عن صورة الثغر لأيّ فتاة جميلة عذراء ! ثم يسلّط النص عاصفة من الذباب على الروضة (المشبه به) لثغر عبلة (المشبه) !! ولن نستطيع حلّ هذه الإشكالية بالقراءة أو التحليل أو التأويل إذا غيبنا صورة الذباب في ذهنية الجاهلي ، وقد وسم الدارسون عنترة بفساد الذوق ، واتهام عبلة بخيانته (كذا) ولم يكن فعل هؤلاء الدارسين سوى تلوين يحجب حيرتهم ؛ فإذا استعنا بالجغرافية النوئية للجزيرة أدركنا أن الذباب غير قادر على الظهور في لهيب الصيف ، وثلوج الشتاء ، وعواصف الخريف ، فالذباب مغيّب تماماً في الفصول الثلاثة (الصيف ، الشتاء ، الخريف) والفصل الوحيد الذي تراه فيه عين الجاهلي هو الربيع !! عهد امتلاء الغدران والآبار بالمياه ، واكتساء الأرض بالخضرة المتوهّجة ، وسمنة الأنعام ، وغزارة الألبان ، وانهار الأرباح ، فضلاً عن الدفء والاستقرار حتى لتقام في هذا الفصل العلاقات بين العوائل ، والمصالحات بين الأسر ، تثمر صداقات بريئة بين الفتيان والفتيات .. في هذا الفصل فقط يظهر الذباب ، فهو مقترن (وفق نظرية الاقتران الشرطي لبافلوف) بالخير والجمال والنظافة خلافاً للذباب في زماننا المقترن بالقذارة والجراثيم المهلكة !! إن الاستعانة بالجغرافية النوئية ونظرية بافلوف أضاءت لنا عتمات هذا النص ، ويسّرت تحليله وتأويله ، وأغنتنا عن تلوينه ، والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى ..

9 ـ لم تتهيأ لنا القناعة بوضع خاتمة لكتابنا هذا ، والسبب بسيط ونحسبه وجيهاً ، وهو أن الأطروحة الثانية (الشعر الجاهلي) ختمت بخصائص الشعر الجاهلي ، والأطروحة الثالثة ختمت بخصائص النثر الفني ، والخصائص كما هو معلوم هي مركزية الخاتمة ونتائج البحث معاً ، وقد نهدت المقدمة التي جاءت استهلالاً للكتاب لنشر الأفكار التي توضع عادة في خواتيم الكتاب ، وإذا عوّلت الخاتمة على تلخيص أبواب

الكتاب وفصوله ومباحثه فإن الكشاف التفصيلي ناهض بهذه المهمة العلمية فقد فصّل القول فيها بحيث يتراءى الكتاب بجملته وتفصيله من خلال هذا الكشاف .

10 ـ لم يستطع كتابنا لأسباب قوامها المنهج والوقت المقرر لمفرداته خوضاً في ظواهر فنية مهمة ، فرأينا إهداء هذه الظواهر بهيئة مقترحات إلى زملائنا الباحثين بآليات المنهج الفني :

1 ـ قصائد الرؤيا في الشعر الجاهلي
2 ـ الرؤيا في النثر الفني ..
3 ـ إيقاعات النثر الفني
4 ـ تأويلات ظاهرة الصراع في الشعر الجاهلي
5 ـ أسطورة الثور في الشعر الجاهلي
6 ـ جدل البداية والنهاية في النص الأدبي الجاهلي
7 ـ القناع في النثر الفني
8 ـ جماليات المثل الجاهلي
9 ـ إشكالية التداخل بين الشعر والنثر في الأدب الجاهلي .

11 ـ أما خطة الكتاب فقد أردناها ثمرة لمنهجنا الفني المنحاز بكليته إلى الوصفية لقناعتنا أن المعيارية قد ألحقت جوراً كبيراً بالنص الجاهلي ، فحمّل النص دلالات لم تكن ضمن نسيجه ، فانحرف عن سياقاته وأنساقه . فالخطة إذن مكلّفة بتحقيق حلم الكتاب ، وقد تكفّل الكشافان : الموجز والمفصل بإعطاء مشهدين عمودي وأفقي ؛ فما عادت الحاجة ماثلة لتكرار الحديث عن مفاصل الخطة الأم وما تفرّع عنها من خطيطات ، وكان ابتداؤنا بكتابة فصول هذا الكتاب بعد وصولنا إلى صنعاء المحروسة بشهر ، وقد أنجزنا الكتاب بفضل الله ومنّه في اليوم الأول من الشهر الأول من السنة الهجرية الجديدة المباركة (1420 هـ) ، وقد صادف السبت (17 ـ 4 ـ 1999 م) ،

وهذا فأل حسن . وإذ أضع هذا الجهد الجديد بين يدي أصدقـائي القراء والزملاء فـإنني أعـدهم بـالإصغـاء التـام المستمر لأي ملاحظـة علميـة تهـدي إليّ عيوبي وتسهم في ترصين صناعة الكتاب الجامعي .

عبد الإله الصائغ

اليمن ـ صنعاء ـ بريد معين ص ب 14733

الأطروحة الأولى

مهاد وإضاءات

تتكفل هذه الأطروحة بمعالجة ثلاث عنوانات هي أولاً : الأدب الجاهلي بين الكيف والكم ، وثانياً : عصور الأدب ، وثالثاً : تفكيك مصطلحات الأدب ... وقد رأينا هذه العنوانات سبيلاً لاحباً يفضي إلى التمهيد الذي انصرف إلى مقاربة همّين كبيرين هما :

أولاً : الأدب في حاضنة البيئة مستعيناً بمظانّ التاريخ والجغرافية والدين والاجتماع فضلاً عن خوارط (الجيوهيستري) و (الجيوبولتيك) .

ثانياً : جاهلية المجتمع العربي قبل الإسلام ، وقد نهد هذا الجزء من التمهيد لإزالة الغبار عن طبيعة المجتمع العربي .. هذا الغبار الذي شوّش الرؤية ، وخلط الأوراق ، فما عادت بعض الدراسات قادرة على التمييز بين الجاهلية الحضارية والجاهلية الدينية ، وبين أُمّية القراءة والكتابة والأُمّية الدينية ، بين متحوّل الأعراب وثابت العرب !! وهذه أمور تتصل بشغل الباحث الجادّ في الأدب الجاهلي ، لا يمكن إغفالها مهما زوّقت المسوغات وتكاثرت ..

الفصل الأول

الأدب الجاهلي بين الكيف والكم

ثبت الأدب الجاهلي أمام المحاولات الماكرة التي داهمته بغية التهوين من شأنه ، وإقصاء الذائقة القرائية عن مشاغله ومباهجه !! وقد التمس المكر أسباباً كثيرة لتحقيق مآربه ، بينها التشكيك بصحة الإبداع الجاهلي ، وصبغ روّاده بالعمه والوثنية ، ووشم حاضناته وحوامله بالتخلف والانحطاط !! ولم يكن ثبات الأدب القبسلامي بوجه الزلازل والصواعق مقترناً بدفاع محبّيه قرّاء وباحثين فحسب ، والدفاع حالة موقوتة تذوب في جريان الزمن ؛ وإنما اتّصل الثبات بسبب من أصالة المعطى الذي قدّمه الخطاب الإبداعي وفق أنساق علوم الجمال واللغة والتاريخ والجغرافية والاجتماع .

إن دراستنا هذه غير معنية بإهدار الجهد لإيضاح الفروق بين أُطروحات الرأي والرأي الآخر ، لأسباب منهجية مقترنة بمفردات الخطة ، وحلم البحث ، وحاجة القرّاء المعنيين بالأدب الجاهلي من الزملاء الأجلاء والطلبة الأعزاء ، وقد أوكلنا أمر الأطروحات التي أثبتت الأدب الجاهلي والأُطروحات التي نقضتها إلى كتبنا الصادرة بين عامي : (1982 ـ 1997 م) محيلين المستزيد إليها إذا اقتضى الأمر[1] .

إن كثيراً من الدارسين يمضون شطراً نفيساً من أعمارهم البحثية دون أن يؤسسوا ـ

---

(1) الصائغ . د . عبد الإله :

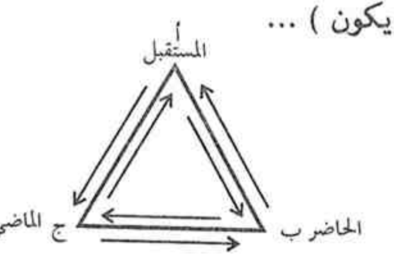
أ ـ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام . طب التايمس . كويت 1982 .

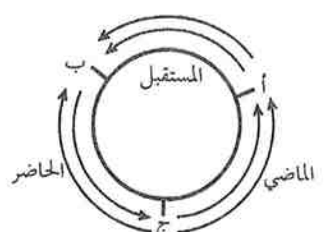
ب ـ الصورة الفنّية معياراً نقديّاً . طب . الشؤون الثقافية بغداد 1987 .

جـ ـ الإبداع العربي الجاهلي بين الواقع والتوقّع . طب الموسوعة الصغيرة . بغداد 1988 .

د ـ الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية (القدامة وتحليل النّص) . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1997 .

في مستوى الوعي ـ مسوغات ثبات الأدب القبسلامي واستمراريته وأهميته !! بعبارة ثانية إن أولئك الدارسين لم يمنحوا مسوغات قراءة الأدب الجاهلي مقدارها من الأهمية ، وربما اتضحت أضرار إهمال المسوغات في مواكب الطلبة بشكل جلي ، فنحن قبالة أجيال من الطلبة (في كل مكان من معاهد وطننا العربي وجامعاته) تستثقل دم هذا الأدب وتعده عبئاً ثقيلاً ومقرفاً ، قدّر عليها حمله فوق أكتافها الواهية ! ولم نلتفت نحن مدرسي هذا الأدب إلى خطورة الشرخ في الجدار المعرفي فأمعنا ويا للأسى في إتلاف ذائقة التلقي من خلال عرض النصوص في أطباق من المعاظلة أو التفيهق ، أو التكرار الناعوري ، أو النظرة الهامشية ، أو الهرف النظري ! إن مدّ الجسور بين الأدبين الجاهلي والحديث مسألة علمية لا علاقة لها بمقولات المعاصرة والتراث والحداثة والقدامة ، فالأدب واحد ينتج تراكماته النوعية والكمية وفق منطق جدلي ، فكأنه جدارية كونية تستحم في زرقة البحر وتعتم بزرقة السماء .. وفيها سعةٌ ومحبة لأحلام كل المبدعين : السابق واللاحق منهم ، وما عليهم سوى تدوين نصوصهم على تلك الجدارية .. إن حيفاً لحق الإبداع حين سلطنا القديم على الحديث ، وسلطنا الحديث على القديم .. غافلين عن فلسفة الزمن الذي يتشكل في بنيته الأساسية من نسيج واحد ، فليس ثمة ماض وحاضر ومستقبل في الزمن الأزلي ؛ لأنه جارٍ ومتصل ، وكل ضلع من مثلث الزمن الذي تعلمه الدراسات لأسباب مدرسية إنما يمثل حاله كما يمثل الضلعين الآخرين معاً ! الماضي كان حاضراً وكان مستقبلاً أيضاً ؛ والحاضر كان مستقبلاً وسيكون ماضياً ؛ والمستقبل سيكون حاضراً ويكون ماضياً أيضاً ، أما الحاضر فهو مزيج من مستقبل آت وماض متصرّم ، والجدل والتماهي قائمان إلى يوم الدين ضمن (كان ، كائن ، يكون) ...





وسنلاحظ من جهة التدقيق في ثلاثية أ ب جـ ودائريته مقولة الجريان والتردد بين أمس/اليوم/غد !! قال حاتم الطائي :

هلِ الدهرُ إلاّ اليومُ أو أمسِ أو غدُ ؟ كـذاك الزمـانُ بيننـا يتردّدُ ![2]

وما يقال عن ترددية الزمان ودائريته يمكن أن يقال أيضاً مع احتراز بسيط عن الأدب ؛ لأن الأدب قائم الجدل على التماهي ، والأدب الحديث سيكون في قابل الأيام أدباً قديماً ، والأدب المستقبلي سيكون أدب الحاضر يوماً ما !! فالأدب القديم كان جديداً في بواكير معطاه !! وما التقسيمات التي تحيق بالزمن أو الأدب إلا محاولات مدرسية لترسيم الحدود بين أشياء عصية على التحديد ! نعم وبالتأكيد : ثمة ملامح للأدب القديم وأخرى للحديث وثالثة للمقبل ؛ ولكن هذه الملامح هي نتائج تراكمات إبداعية ومعرفية وزمنية ، أي إن تميّز ملامح أدب كل عصر شكيل بتميز ملامح الإنسان ابتداء من الطفولة ، مروراً بالشباب ، انتهاء بالشيخوخة .. فالملامح المختلفة الثلاثة هي تراكمات لم تخرج عن واحدية النموذج ، وهكذا هو شأن الأدب ، وإن اختلفت الأزمنة والخصائص !! وإذا كان الحال كذلك ـ كما نزعم ـ فإن إجابتنا عن سؤال : (لماذا نقرأ الأدب الجاهلي ؟) مسألة تكتسب شرعيتها من أهميتي السؤال والإجابة ! حقاً لماذا نعنى بالأدب الجاهلي ؟ أيمكننا مثلاً الاستغناء عن قراءته دون أن ينال معرفيتنا خلل ما ؟! وها نحن أولاء نضع بين يدي القارئ إجاباتنا المقترحة :

لماذا الأدب الجاهلي ؟

1 ـ ثمة جدل بين عصور الأدب يسهم في انسيابية الإبداع واغتنائه بشحنات التواصل والوعي ، والشعوب اللاتينية ـ مثلاً ـ تشعر بأهمية قراءة الآداب اليونانية

---

(2) حاتم الطائي . ديوانه ق 4 ب 1 ص 262 . تح د . عادل سليمان مط . المدني . القاهرة (د : ت) الصائغ . د . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص 62 (م . س) .

والرومانية الغابرة لمعرفة الخطوط البيانية لآدابها المعاصرة والقديمة وأوجه الائتلاف والاختلاف فضلاً عن البهجة في اكتشاف حساسيات أسلافهم الذين سادوا وبادوا[3] .

وقارئ (الأرض الخراب) للشاعر ت.س إليوت واجد لا محالة الأثر الكبير لقراءات الشاعر في مظان التراث[4] !

إن أدبنا العربي الحديث ليس أدباً أبتر منقطع الجذور ، إنه حيّ نام بثماره وأغصانه فوق الأرض ، فأما الجذور فهي لابثة في مكانها الأبدي تحت الأرض ، وقراءة الأدب الجاهلي ليست دعوة لمحاكاته والانبهار به ، فمثل هذه الدعوة تلغي معامل العقل بله الزمن ! وإنما هي دعوة لتشريحه ومعرفة أسرار شعريته ، فهو مرجعية واحدة من عشرات المرجعيات لحضارة الإبداع الأدبي الحديث .

2 ـ يكتنز الأدب الجاهلي ثروة لغوية هي حصيلة المزج بين مفردات تعكس نشاط اللغة العربية .. والاطلاع عليها يمنح الباحث تراكماً معرفياً باتجاه تطور الدلالات للكلمات العربية ، وقدرة اللغة على الاختزال والتخلص من المفردات الكزة والتعبيرات الغثة التي ناءت بها زمناً ، مثل (التكأكؤ ـ الاحرنجام ـ التشبرق ـ الاستشزار) و (النقاخ ـ البعاع ـ العيطل ـ العشنطط ـ العطبول ـ السجنجل) !! اللغة العربية مشرقة نابهة ميالة للتكثيف وهي إلى ذلك تطور مفرداتها باستمرار دون أن يمس ذلك قواعدها الثابتة وبنيتها الأساس ، وهي دعوة لأولئك الذين هيأ لهم انغلاقهم أنهم سدنة اللغة ، فاعتسفوا منطق اللغة وأبهظوها بالحدود الحمراء والقيود السوداء بزعم حمايتها من رياح التجديد والتغيير .

(3) عثمان . د . أحمد . الأدب اللاتيني ودوره الحضاري ص 7 وبعدها . طب عالم المعرفة . الكويت (أيلول = سبتمبر 1989)
البقاعي . د . شفيق . الأنواع الأدبية مذاهب ومدارس ص 118ـ256 . طب مؤسسة عز الدين . بيروت 1985 .

(4) LODGE. DAVID. 20 th Century Literary Criticism « LONGMANgroup LIMITED. london 1972 » see. p: 71: t.s.eliot: Tradifion and individual - talent (1919) . =

3 ـ حافظ الأدب الجاهلي على المعلومات التاريخية المهمة التي ترسم بانوراما لمسيرة التاريخ ، فقد رصد أيام العرب (الحروب والمغازي) ذاكراً أسماء الملوك ، والأمراء ، والفرسان ، وسفراء السلام ، وخطابات الحرب ، وعلل الكثير من الحوادث الكبرى التي وقعت عهد ذاك فضلاً عن إضاءة عتمات كثيرة بأضواء كاشفة ، فقد عرفنا من خلله أسراراً تشكل عدد من الدويلات العربية والإمارات والحميات من نحو دويلات الشمال والوسط والجنوب : الغساسنة والمناذرة ودومة الجندل والندوة وكندة واليمن : وقراءة الخطاب السياسي والعلاقات المعلنة والغاطسة بين تلك الدويلات من جهة والدولتين العظميين (الأكاسرة والقياصرة) وقتذاك . كما وثق الأدب الجاهلي بجدارة الأحلاف القومية والمعاهدات القبيلية من نحو أحلاف : الفضول والدم والأحلاف والإيلاف ..

4 ـ والأدب الجاهلي يمنح سانحة ثمينة لمعرفة الجغرافية العربية عصر ذاك ، إذ حافظ الشعر والنثر على مواقع وأسماء وحدود كثير من البلدان العربية التي طمست وغيبت معالمها ؛ وما أكثر الأمثلة والشهادات على ذلك فنحن في المعلقات العشر قبالة مئات المواضع نحو (برقة ـ ثهمد ـ الحزن ـ الصمّان ـ المتثلم ـ سقط اللوى ـ الدخول ـ حومل ـ المقراة ـ حومانة الدراج ـ الرقمة ـ منى ـ الأندرين ـ بعلبك ـ دمشق ـ المحياة ـ قاصرين ـ عنيزتين ـ الغيلم ـ برقة شماء ـ الخلصاء ـ الصفاح ـ أعناق فتاق ـ عاذب ـ الوفاء ـ رياض القطا ـ وادي الشربب ـ الشعبتين ـ الإبلاء ....) وقد اعتمدت موسوعات المصادر البلدانية كثيراً من المعلومات التي حافظ عليها الأدب الجاهلي في معرفة أسماء البلدان والمواضع .. وخير مثال المصادر البلدانية التالية :

1 ـ الدارات للأصمعي ت (216 هـ)
2 ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار للأزرقي ت (250 هـ)
3 ـ صفة جزيرة العرب للهمداني ت (344 هـ)

= إليوت . ت.س . الأرض اليباب (الشاعر والقصيدة) ترجمة ودراسة د . عبد الواحد لؤلؤة ص 15 وبعدها . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . الطبعة الثالثة 1995 .

4 ـ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان للمسعودي ت (346 هـ)
5 ـ الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ت (421 هـ)
6 ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني ت (440 هـ)
7 ـ معجم البلدان للحموي ت (626 هـ)
8 ـ آثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ت (682 هـ) .

5 ـ أما مفردات الأنواء فهي ماثلة في الشعر والنثر حضوراً متميزاً ، فما أكثر ما تصف النصوص الشمس والقمر والليل والنهار والصيف والشتاء والخريف والربيع والرياح والأمطار والعواصف والبرق والصواعق والزلازل ! قارن :

ـ تأبط شراً :
(وقلة كسنان الرمح بارزة ضحيانة في شهور الصيف محراق)

ـ جابر بن حني :
(وقيظ العراق من أفاع وغدة ورعي إذا ما أكلؤوا متوخم)

ـ الأعشى :
(قد لعبنا بذا الشباب زمانا ولهونا في مربع ومصيف)

ـ عدي بن زيد :
(عن خريف سقاه نوء الدلو تدلى ولم توار العراقي)

ـ علقمة :
(وقد أغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب)

ـ عمرو بن معد يكرب :
(ألم تأرق لذي البرق اليماني يلوح كأنه مصباح باني)

ـ النابغة :

(وأنت ربيع ينعش الناسَ سيبه وسيف أعيرته المنية قاطع)

وقد قوّم صانعو كتب الأزمنة والأنواء معلوماتهم استناداً إلى نصوص الأدب الجاهلي مثل (كتاب المطر) لأبي زيد الأنصاري (ت 215 هـ) ، وكتاب (الرحل والمنزل) لأبي عبيدة (ت 224 هـ) و (الأنواء في مواسم العرب) لابن قتيبة (ت 276 هـ) ، و (الأزمنة والأنواء) لابن الأجدابي (ت 650 هـ) فضلاً عن أن النثر الجاهلي قد نقل إلينا تجارب الجاهليين التي استقامت أمثالاً ، فالعرب تقول في شهور الربيع : شهر ثرى وشهر ترى وشهر مرعى ، أي المطر ثم النبات ثم الرعي . وعام مهيع أي خصب وتقول أيضاً : أحسن من الغش وأضيع من قمر الشتاء وأبعد من مناط النجوم وأنحس من زحل وأريها السها وتريني القمر ولأرينك الكواكب في الظهيرة وانحط فلان من الثريا إلى الثرى وسحابة صيف وفلان برق بلا مطر وأهول من سيل وربما عاق المطر عن الوطر وفلان ساكن ريح وماء ولا صداء[5] .

6 ـ واعتمد علماء المعجمات اللغوية في كشف دلالات المفردات والأصوات والأصيل والدخيل والمولد والمعرب على نصوص الأدب الجاهلي ، بل إن علماء النحو الأوائل والمحدثين جعلوا الشعر الجاهلي وكدهم في تقصي قواعد اللغة وأصولها ومرجعياتها ، زد على ذلك العلاقات الظاهرة والمستترة بين اللهجات العربية من نحو الكشكشة والكسكسة والعنعنة والفحفحة والوكم والوتم والوهم والعجعجة والاستنطاء والشنشنة والغمغمة والطمطمانية واللخلخانية والتلتلة والقطع ، ولك أن تطالع (العين) للفراهيدي (ت 175 هـ) و (الكتاب) لسيبويه (ت 180 هـ) و (النوادر لأبي زيد الأنصاري (ت 215 هـ) و (إصلاح المنطق) لابن السكيت (ت 244 هـ)

---

(5) الثعالبي . أبو منصور عبد الملك بن محمد ت 429 . التمثيل والمحاضرة ص 226ـ252 تح عبد الفتاح الحلو . طب دار إحياء الكتب . القاهرة 1961 . وانظر الصائغ . د . عبد الإله : الصورة النوئية في الخطاب الجاهلي ص 199 ضمن كتاب : الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية (م . س) .

و (الجمهرة) لابن دريد (ت 321 هـ) ، و (الخصائص) لابن جني (ت 392 هـ) ، و (مقاييس اللغة) ثم (المجمل) لابن فارس (ت 395 هـ) و (الصحاح) للجوهري (ت 398 هـ) ، و (المحكم) لابن سيده (ت 458 هـ) ، و (العباب) للصاغاني (ت 650 هـ) ، و (لسان العرب) لابن منظور (ت 711 هـ) ، و (القاموس المحيط) للفيروزآبادي (ت 817 هـ) .

7 ـ وجد مفسّرو القرآن الكريم الأوائل ، وشراح الأحاديث النبوية الشريفة في الأدب الجاهلي معيناً على معين في تحليل دلالات المفردات حين يبهم الأمر عليهم ، ولنا أن نقرأ سؤالات نافع بن الأزرق لعبد الله بن عباس فقد كان ابن عباس (رضي الله عنه) يحيل كثيراً على الشعر الجاهلي في إيضاح دلالات المفردات القرآنية ، وهو القائل : إذا أعياكم تفسير آية من كتاب الله فاطلبوه في الشعر الجاهلي فإنّه ديوان العرب . ا . هـ[6] ، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حريصاً على الاستشهاد بالشعر كلما عرض له أمر[7] وذكر عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) (العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهلية في تفسير القرآن وفي غريبه وغريب الحديث)[7] .

8 ـ استقرأ علماء الإيقاع وموسيقى الشعر[8] القصائد الجاهلية ونصوص السجع واستنبطوا من الكم الذي حللوه قوانين الإيقاع ، والشعراء الجاهليون كانوا يضبطون

---

(6) التبريزي . أبو زكرياء يحي بن علي (ت 502 هـ) وشرح ديوان الحماسة 3/1/ طب بولاق 1296 هـ .

(7) الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) البيان والتبيين 45/1 تح حسن السندوبي . طب المكتبة التجارية (د : ت) .

(7) الجرجاني . عبد القاهر (ت 471) . دلائل الإعجاز ص 79 تح محمد رضوان الداية وصاحبه طب مكتبة سعد الدين . دمشق 1987 .

(8) فخر الدين . جودت . الإيقاع والزمان طب دار المناهل/دار الحرف العربي . بيروت 1995 جاء في صفحة وح وبعدها (الإيقاع أعم من الوزن والأحرى أن تقول : إن الوزن هو أحد عناصر الإيقاع أو إن الأوزان هي قوالب عروضية يستعان بها في تنظيم الإيقاع وتوجيهه . إيقاع الشعر هو علاقات خاصة بين مستويات كثيرة أهمها : المستوى النحوي ، والمستوى البلاغي ، والمستوى العروضي وما استعمالنا كلمة ـ خاصة ـ صفة لتلك العلاقات إلا تأكيدٌ على تفرّد كل قصيدة بإيقاعها ، نظراً إلى أنها =

موسيقى شعرهم وأوزانها على طريقة التنعيم التي أشار إليها الخليل (ت 175 هـ) وأقرّ بأنه استثمرها في تقعيد موسيقى الشعر قال : « رأيت شيخاً يضع ظهره على جدار الكعبة ويعلم الصبيان التنعيم » إ . هـ والتنعيم طريقة في تحليل موسيقى الشعر تعتمد (نعم لا) قارن :

أ		ب	
فعولن ⟵	نعم لا	مستفعلن ⟵	لا لا نعم
مفاعلين ⟵	نعم لا لا	متفاعلن ⟵	نعمن نعم
مفاعلن ⟵	نعم نعم	فعلن ⟵	لا لا
فاعلاتن ⟵	لا نعم لا	مفاعلتن ⟵	نعم نعمن

وعناية العرب بالإيقاع كبيرة تتصل بصفاء فطرتهم وشدة حساسيتهم ، حتى إن حركات الإعراب وحروفه بنيت (كما نرجّح) وفق مسوغات إيقاعية ودلالية معاً ، وقد أجرى ابن جني (ت 392 هـ) (كتابه الخصائص) تجارب علمية (مهمة) ليثبت العلاقات النغمية داخل الحروف وكشف لنا أثر الإيقاعات في بنية الجملة العربية من نحو ، حروف كلمة (ب ح ث) ، وركز على إضاءات تأويل الخليل على سؤال (لماذا تصغر العرب (واصل) على (أويصل) والقياس (وويصل ؟) فقال : (حتى لا يشبه كلامها نبيح الكلاب) ! وركز ابن جني على محاورة ذات قيمة عالية في نظرية (المحاكاة ، الإيقاع) :

= لن تكون تكراراً لغيرها في المستويين النحوي والبلاغي وإن كانت كذلك في المستوى العروضي ، وهذا يعني أن البحر نفسه يحظى بتغييرات من قصيدة إلى أخرى وإن حافظ على ما تقتضيه قواعد العروض فالبحر الطويل عند امرئ القيس هو نفسه عند المتنبي من وجهة عروضية ، ولكنه ليس كذلك من وجهة إيقاعية .. الإيقاع في أي لغة من اللغات هو تجل لخصوصيات هذه اللغة لأنه في مؤالفته بين عناصر متعددة مستمدة من حقول مختلفة إنما يكشف عن أهم الخصائص لتلك العناصر وعن إمكاناتها التعبيرية التي لا يمكنها أن تنفد ، إذا ما تعلق الأمر بالأدب شعراً كان أم نثراً فالإيقاع لا يقتصر على الشعر وإنما للنثر إيقاعاته ...) .

النحوي : ما معنى ازقانح ؟ (ومعناه الحجر في الفارسية)

الأعرابي : إن في الكلمة يبساً وأظنه الحجر[9] .

ويرى د . عبد الرضا علي أن نظرية الخليل في موسيقى الشعر ما كانت لتكون على ما هي عليه لو لم يعززها باستقراء الشعر الجاهلي وحصر أوزان الشعر ، وضبط أحوال قوافيه . (ومعنى هذا أن الخليل قد توصل إلى قوانين هذا العلم بتقطيع الشعر إيقاعياً ، وعن طريق هذا الإيقاع وضع قواعده وقوانينه ، وليس قبل ذلك ، أي إن مرحلة التحليل هي التي قادت إلى مرحلة التنظير)[10] .

9 ـ ولم يتخلف علماء الحضارة عن زملائهم علماء البلدان واللغة والتاريخ والإيقاع في استثمار عينات الأدب الجاهلي لتحليلها في مختبراتهم وكشف العتمات التي غيبت أو كادت حضارة ذلك العهد ، فإذا كانت الحضارة (كل شيء) فإن الشعر كان بالنسبة للعرب كل شيء فهو (ديوان العرب) الذي قيد كل شاردة وواردة في الحياة الجاهلية ، يقول إدوارد تايلر في حدود مصطلح الحضارة (هي الكل المعقد من الرهبات والرغبات والطقوس والعقائد والحرف والفنون ، وكل الوسائل التي حذقها الإنسان لحماية حياته من التلف)[11] .

وقال الجاحظ (ت 255 هـ) « كل أمة تعتمد على استيفاء مآثرها وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب وبشكل من الأشكال ، وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها)[12] والعرب لا يعرض لهم أمر دون أن يستحضروا الشعر والنبيُّ الأمين ﷺ

---

(9) الصائغ . د . عبد الإله . الصورة الفنية معياراً نقدياً ص 57 ثم 88 . طبعة القاهرة 1997 .

(10) علي . د . عبد الرضا . موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه ص 15 طب دار الشروق ـ عمان 1997 .

(11) الصائغ . د . عبد الإله . الإبداع الأدبي العربي قبل الإسلام بين الواقع والتوقع ص 9 طبعة الموسوعة الصغيرة رقم 314 بغداد و 198 .

(12) الجاحظ . أبو عثمان ت 255 . الحيوان 88/1 تح فوزي عطوي طب بيروت 1968 .

يقول : « لا يدع العربي الشعر حتى تـدع الإبل الحنين » وكان عمر بن الخطـاب (رضي الله عنـه) كما مرّ بنـا ، لا يكاد يعرض لـه أمر إلا أنشـد فيـه بيت شعر[13] ، لقـد هيـأ الأدب الجـاهلي معلومـات ثمينـة ونـادرة عن الحضـارة العربيـة مثـل الـزواج والطـلاق والخصام والصلح والعقود وطقوس البيع والمعاملة داخل الأسواق ، والولاء والخلع والفقر والثراء والأعياد والمآتم والاحتفالات وأفانين الملابس والهدايا[14] .

10 ـ ويعطي الأدب الجـاهلي فكرة مكتملـة عن أديـان العرب القـديمـة ، وحصـة اليهودية والمسيحيـة والمجوسيـة والصـابئيـة من القبـائل ، ويفيـدنـا أن العرب لم يكونوا ميالين لسوى الحنيفيـة ملـة إبراهيم ، وقـد حـدد الأدب الجـاهلي طقوس المتشـددين من العرب ومفهومات فرق الحلة والحمس والطلس للدين والعبـادة والحج إلى الكعبـة وعـدد من دور العبادة عندهم ، وكثيراً ما كان الكهنة يقسمون بالله ، وكذلك الخطباء والشعراء وقد عمّ الضلال عبادات العرب (قبيل) إشراقة الـدين الإسلامي ، وأطبقت العتمـة على الطقوس ، فاصطنع عمرو بن لحي الأصنـام التي اشتراهـا من أسواق بلاد الشـام ، وكان الذي كان ، وثمة الكثير من آليـات المعتقـد الـديني وردت في الشعر الجـاهلي والنثر الفني من نحو : الكهـانـة والنُّبوءة ، والشيـاطين ، والأغوال ، والطب الغيبي ، والاستسقـاء ، والهجاء ، والقلمس ، والحازي ، والناسيء .

ويورد قطرب ت 206 تلبيات الجاهلية التي يتقاسمها الشعر والنثر معاً ... مثلاً .

أ ـ تلبية قريش : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيـك ، إلا شريـك هو لك ، تملكه وما ملك ، أبو بنات من فدك .

---

(13) الجاحظ . البيان والتبيين 241/1 (م . س) .

ابن عبد ربه . أحمد بن محمد ت 328 . العقد الفريـد 78/1 تح محمـد سعيـد العريـان . طب دار الفكر (د : ت) .

(14) الصائغ . د . عبد الإله . الصورة الفنية معياراً نقدياً ص 337 وبعدها : الجداول الحضارية .

ب ـ تلبية قيس عيلان : لبيك اللهم لبيك ، أنت الرحمن ، أتتك قيس عيلان ، رجالها والركبان ، بشيخها والولدان ، مذلة للديان .

جـ ـ تلبية تميم : (وكان نسكها للشمس) : تالله لولا أن بكراً دونكا ، ما زال منا عثج يأتونكا ، بنو غفار وهم يلونكا ، يبرّك الناس ويُعجرونكا .

د ـ تلبية اليمن (لنسر وذريح) المحبر 317 وبعدها) : علكّ إليك عانيهْ ، عبادك اليمانيه ، كيما نحج ثانيه ، على قلاص ناجية ، أتيناك للنصاحة ، لم نأت للرقاحة .

هـ ـ تلبية جرهم وهم أول سكان البيت الحرام : والله لولا أنت ما حججنا مكة والبيت ولا عججنا ، ولا تصدقنا ولا ثججنا ، ولا تمطينا ولا رجعنا ، ولا انتجعنا في قرى وصحنا ، على قلاص مزحفات هجنا ، يقطعن سهلاً تارة وحزنا ، أشرق كيما ننثنى في الدهنا ، لكي نحج قابلاً ونعنا ، نحن بنو قحطان حيث كنا ، ننحر عند المشعرين البُدْنا[15] .

11 ـ يقدم الأدب الجاهلي بين يدي القارئ والباحث وثائق مهمة تعزز القول بأن العرب أمة خير ، وتدحض مزاعم الحاقدين على العرب من (بعض) المستشرقين والمستغربين وذوي النظرة العوراء من أدعياء التحديث أو سدنة القدامة !! ثمة كتب صورت العرب أمة من الحفاة العراة الجفاة البداة القتلة ، اللصوص السفاحين المحترفين (كذا) ، ولونت الصور الباطلة بوثائق مزعومة من العصر الجاهلي . وقد جعلوه مثالاً للتخلف الحضاري والمديني ، لقد خلط المفترون على أمتنا ورقتي العرب (سكان المدن والأرياف) ، والأعراب (سكان البادية) ؛ لغاية أضمروها فخفيت على (الكتبة) من الدارسين !! الأدب الجاهلي عتيد حين يستدعى لتقديم وثائقه الواضحة التي تعزز القول

(15) قطرب . محمد بن المستنير 206 هـ كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية ص 116ـ126 تح د . حنا جميل حداد . طب مكتبة المنار ـ الزرقاء الأردن 1985 .
شيخو . الأب لويس اليسوعي . ت 1927 م . النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية . ص 18ـ52 . طب المكتبة اليسوعية بيروت 1933 .

في رقي حضارات العرب وقتذاك من نحو أوسان ومعين وقتبان وحضرموت وسبأ وذو ريدان ويمنت[16] فضلاً عن حضارات بابل والحيرة وبصرى ودومة الجندل واليمامة ومكة وكندة والنجف وعمائر الأكيدر (الأخيضر) والخورنق والنخيلة والمصلى والمشتى والسدير وطزنباذ وسلحون وغمدان ومأرب والجنائن المعلقة وتسقيف الفرات وطلاسم الحضر زد على ذلك حذق العرب الجاهليين لعلوم الأنساب والتواريخ والأديان والقيافة وتعبير الرؤيا والبيطرة والأنواء[17] .

12 ـ والأدب الجاهلي كنز لا يقدر بثمن لدارسي الخيال والمجاز في اللغة العربية ، فإذا كان هناك من يقذف الإبداع العربي أجانب وعرباً بمحدودية الخيال ، ويزعم أن المبدع العربي لا يحسن التصرّف بالمجازات المرموقة ، وأن خياله بوصفه سامياً محدودٌ !![18] فإن الأدب الجاهلي زعيم بدمغ الحجة بالحجة وإتباع القول بالشاهد ، والباحث المتأني قادر على كشف دعامتين كبيرتين هما الخيال والمجاز ، أما حسية الخيالات والمجازات فهي ذوات دلالات مختلفة كل الاختلاف عن فهم أولئك الذين وشموا الذهنية العربية بالعقم ، الحسية هنا تعني استلهام الخيالات والمجازات من مرجعيات الحواس الخمس ، وهذا أمر يعزز مباهج الصور الفنية والدلالية ! والحسية لا تنفي استثمار آليات الذهن ، وذلك أمر معروف في الآداب العالمية أما حصر (الحسية) بالشبق الجنسي والهتك الماجن لفتنة الجسد فهو أمر غير صحيح ، ومبالغ في مساحة أدلته قارن امرأ القيس :

أيقتلني والمشرفيُّ مضاجعي ... ومسنونةٌ زرقٌ كأنياب أغوالِ

(16) بافقيه . محمد عبد القادر . تاريخ اليمن القديم ص 21ـ164 . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1985 .

(17) الشهرستاني . أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت 548 الملل والنحل 2/238ـ241 تح محمد سيد كيلاني طب دار المعرفة بيروت 1975 .

(18) GIFFEN. LOIS ANITA. THEORY OF PROFANE LOVE- AMONG THE ARABS. THE DE VELOPMENT OF THE GENRE. NEW YORK UNIVERSITY PRESS . D .

وقارن طرفة بن العبد :

خـذول تراعي ربربـاً بخميلـة	تنـاول أطراف البرير وترتـدي
وتبسم عن ألمى كأن منـــوّراً	تخلّل حرّ الرمل دعص لـه نـدي
سقتـه إيـاهُ الشمس إلا لثـاتــه	أسفّ ولم تكـدم عليـه بـأثمـد
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها	عليــه نقي اللــون لم يتخـــدد

والعينتـان اللتـان مرّتـا بنـا تقـدمـان فكرة جليـة عن تلقـائيـة المجـاز في الشعر الجاهلي ، فامرؤ القيس (أنْسَنَ) السيف وجعله إنسانـاً يشـاطره فراشـه : أمـا المسنونـة فهي الجزء الظاهر من الغول !!

وفي عيّنة طرفة وصف لشبيه الحبيبة ، إذ هي ظبية نال منها الـذعر والهلع خشيـة على صغيرها ! فإذا ابتسمت أرتك أسناناً أهدتها الشمس لها بعد أن غطت الوجه بأنوارها حتى لا يتخدّد .

13 ـ ويكشف الأدب الجاهلي للباحث مفهومات الجمال في الـذهنيـة الجـاهليـة ، وهي مفهومات عميقة تفاجئ الباحث ، لأنها تصاقب بحميمية مفهومات عصرنـا ، جمـال الروح الذي يحاكي جمال المعدن والمنقبة الخيرة قارن عمر بن معد يكرب :

ليس الجمـــــــالُ بمئزرٍ	فـــــاخترْ وإنْ ردِّيت بُردا
إنَّ الجمـــالَ معـــادنَ	ومنـــاقبَ أورثْنَ مجـــدا
.. لمـــا رأيتُ نســاءَنـــا	يفحَصن بـــالمِعْزاء شـــدّا
وبَـــدَتْ لميسُ كأنّهـــا	بـــدرُ الـزمـــان إذا تبـــدّا
وبـــدت محـــاسنُهـــا التي	تخفى وبـــاتَ الأمرُ جـــدّا

وقارن الأعشى :

فقد كملت حسناً فلا شيءَ فوقها	وإني لـذو قـول بهـا متنخّـل

وقد علمت بالغيب أني أحبها ... وأني لنفسي مالك في تجمّل

تَهالكُ حتى تبطر المرءَ عقله ... وتصبي الحليم ذا الحجى بالتقتُّل

إذا لبست شيدارة ثم أبرقت ... بمعصمها والشمس لمّا ترجل

وقارن تلبية هذيل :

لبيك اللهم لبيك ، لبيك عن هذيل أدلجت بليل ، تعدو بها ركائب إبل وخيل ، وخلفت أوثانها في عرض الجبيل ، وخلفوا من يحفظ الأصنام والطفيل ، في جبل كأنه في عارض مُخيل ، تهوى إلى رب كريم ماجد جميل .

الأمثلة وفيرة ، وهي كفيلة بتقديم الوثائق العلمية التي تساعد الدارس على قراءة الذّهن الجاهلي ومفهومات الجمال عنده ، وإذا ابتعدنا عن مقولة الدمج بين الجمالين : الظاهري والباطني فنحن سنكون بإزاء الموقف .. موقف المبدع الجاهلي من النموذج .. فالجميل معادل محايد لا يشترط المحبة رباطاً بينه وبين الواصف ، أما المليح فهو معادل منحاز مقترن والواصف بعلاقتي الإعجاب والميل ؛ وعادة ما تكون المرأة الجميلة مقترنة بالشكل والمليحة مقترنة بالشكل والمضمون :

« الجسد × الروح ⟵ الخِلقة × الخُلق »

إذ تتساوى الجميلات والمليحات في المستوى الخارجي للبنية ، فالجميلة وفق المنظور الجاهلي هي السمينة مثل كثيب رمل ، فتراها قاعدة إذا نهضت ، وناهضة إذا قعدت ومدبرة إذا أقبلت ، ومقبلة إذا أدبرت وهي الكسلى مثل ظبي في الكناس لم ير شمساً ولا زمهريراً ، أو مثل بيضة خدر لا تُرام ، تفترقوتها لأدنى حركة ، فهي منعّمَة مخدومة لا تعرف أعمال البيت ! زد عليها بشرة زهراء ووجهاً وضيئاً وخصراً دقيقاً ينخزل إذا تأتت ، والمشية التي تحاكي مشية ظبي صغير علق الطين أقدامه !! (مشية عارضة الأزياء ـ المانيكان ـ في زماننا !!) قارن الأعشى :

أ ـ الجمال :

غراءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تمشي الهوينى كما يمشي الوَجِي الوحلُ
كأنّ مشيتَها من بيت جارتها مرُّ السحابة لا ريثٌ ولا عجلُ
يكادُ يصرعها لولا تشدّدها إذا تقومُ إلى جاراتها الكسلُ
إذا تعالج قرناً ساعة فترت واهتزّ منها ذنوبُ المتن والكفل
صفر الوشاح وملءُ الدرع بهْكَنَةٌ إذا تأتى يكادُ الخصرُ ينخزل
هركولةٌ فنقٌ درمٌ مرافقُها كأن أخمصها بالشوكِ منتعل

ب ـ الملاحة :

ليست كمن يكرَهُ الجيرانُ طلعتها ولا تراهَا لسرِّ الجار تختتل
صدّت هريرةُ عنا ما تكلّمنا جهلاً بأم خُليد حبلَ من تصل
إذا تقوم يضوعُ المسكُ أصورةً والزّنبق الوردُ من أردانها شمل
ما روضةٌ من رياض الحَزْن مُعْشبةٌ خضراءُ جادَ عليها مسبلٌ هطلُ
يوماً بأطيبَ منها نشرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذْ دَنَا الأُصُلُ
فكلّنا مغرمٌ يهذي بصاحبه ناءٍ ودان ومحبولٌ ومحتبلُ

14 ـ طرأت على الفطرة العربية (قبيل الإسلام) عادات عقيمة ، وتقاليد سقيمة نحو :

أ ـ غزو الأرحام

ب ـ وأد البنات

جـ ـ سبي النساء وإذلالهن

د ـ الغزل السياسي (إساءة الشاعر إلى القبيلة الأخرى بنظم شعر غزلي يشبب فيه بفتاة من تلك القبيلة لا يعرفها ولا تعرفه وإنما حصل على اسمها بوسيلة ماكرة) .

هـ ـ الفخر الكاذب بـالنفس والقبيلـة وترويـج قيم الغـزو والعتـوّ والاستعـلاء والحسب والنسب .

و ـ الهجاء المقـذع والانتقـاص من كرامـة الآخرين وحريتهم وقـدرهم ، واستشراء المعارك الكلامية التي وجدت لهـا قواعـد وأصولاً !! وجمهوراً عريضـاً يحضرهـا ويشجع عليهـا تـزجيـة للـوقت ، وربمـا نكايـة بـالخصمين معـاً وقـد سميت المعـارك الكـلاميـة (منافرة) ! نظير المنافرة التي شب حريقها بين علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل (وهما أولاد عم) !! ولنقارن عتو عمرو بن كلثوم وطغيانه وهو يؤسس قيماً تجافي القيم العربية :

مـلأنَـا البرّ حتى ضـاقَ عنـا	وظهرَ البحر نملـؤُهُ سفينـا
إذا بلغَ الرضيعُ لنـا فطـامـاً	تخرّ لـه الجبـابر سـاجـدينـا
ونشربُ إنْ وردْنَـا المـاءَ صَفْـواً	ويشربُ غيرنـا كـدَرَاً وطينـا

ز ـ الحروب المدمرة التي نشأت بين أبنـاء العم لأسبـاب تـافهـة وسيـادة الغطرسة والاستهتـار بـدمـاء النـاس !! وربمـا أسهم الأعراب في إذكاء نـار البغضـاء والغـزو ، واستسهال الموت فحياتهم الضّنكة والفراغ الكبير مما يزيّن لهم العبث بالزمان والمكان .

ح ـ طمع الدولتين الكبريين بالعرب نتيجة انشغالهم بـالحروب الـداخليـة وسيـادة الغوغاء وانحسار سيادة الحكماء .. ونذكر باعتداءات الجيوش الفارسيـة على عرب الشرق (العراق وما تاخم) والجيوش الرومية على عرب الغرب (الشـام ومـا تـاخمت) ! ومع كل التدهور الداخلي الذي أصاب البنية الحضارية العربية فقد كبح العرب شرقاً وغربـاً كثيراً من الغزوات وهددوا عروش فارس والروم .. فماذا حدث ؟! اضطرت فـارس إلى اصطناع دويلة المناذرة لتكون شريطاً حدودياً عازلاً بين المقاومـة العربيـة والفرس !! كما اضطرت الروم إلى اصطناع دويلة الغساسنة للأسباب ذاتها !! وقـد التفت عـدد من الجاهليين ذوي الرؤية العروبيـة إلى مخـاطر الواقع العربي المجرّح الـذي نخرتـه العـادات اللئيمة والمطامع الزنيمـة !! لقيـط الإيـادي كتب رسـالـة إلى قومـه ليوقظهم من الغفلـة

والانهيار ! وحين يئس أرسل أخرى يوبخهم فيها ويستثير فيهم جانب (الغيرة على العرض) إن لم تستثرهم (الغيرة على الأرض) !!

يا قوم لا تأمنوا إن كنتمُ غيُراً — على نسائكم كسرى وما جمعا

وقد بدأ رسالته الأولى بقوله :

كتاب في الصحيفة من لقيط — إلى من بالجزيرة من إياد
بأنّ الليثَ كسرى قد أتاكم — فلا يشغلكم سوق النقاد

أما كتابه الثاني فختمه بقوله :

هذا كتابي إليكم والنذير لكم — لمن رأى الرأي بالإبرام قد نصعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دَخَلٍ — فاستيقظوا إنّ خيرَ العلم ما نفعا[19]

أما الأعشى البكري فقد وثب قومه بكتابات كثيرة ، ففي واحدة مما كتب قرن بين دلالتي (الشرف) و (الأرض) :

لو أن كلَّ مَعَدٍّ كان شاركنا — في يومِ ذي قار ما أخطاهم الشرف

وقد وبّخ الأعشى زعيم شيبان ؛ لأنه وفد على جيش كسرى بعد معركة ذي قار ناسياً (القرابين) العربية التي تركت في العراء لتأكلها الضباع ، وتمنى الأعشى لو أن هذا الزعيم المتواطئ قد مات جنينا بأيدي القوابل :

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد — وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل
أطورين في عام غزاةً ورحلة — ألا ليت قيساً غرّقته القوابل
كأنك لم تشهدْ قرابينَ جمّة — تعيثُ ضباعٌ فيهم وعواسِلُ
تركْتَهُمْ صَرْعى لدى كلّ مَنهلٍ — وأقبلتَ تبغي الصّلح أمُّك هابل[20]

---

(19) الأصبهاني . أبو الفرج . الأغاني 24/20 (نسخة الكتبخانة) طبع مؤسسة عز الدين - بيروت .

(20) انظر هامش 11 ص 53 .

وقد جهد الزعماء والمخلصون وأعياهم الجهد ، وهم يسعون إلى رأب الصدع بين القبائل العربية التي مزقتها الفرقة ، وهتكتها العصبية ، ونخرتها فكرة التسلّط وامتلاك الحقيقة !! ثم تلبدت غيوم العتمة في السماء العربية ، وقد جرّحت الأنصاب والأصنام والاستقسام بالأزلام الكينونة العربية ، وبدأ الغيارى يتطلعون إلى منقذ من الضلال وموحّد من التفرقة ومطمئن من الخوف والقلق ، فكان الإسلام المنقذ والوحدة والسلام ! وكان قس الإيادي قد تنبأ بزمان جديد يبعث محل الزمان القديم الميّت ، وقد رآه النبي الأمين ﷺ بسوق عكاظ : « كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة » ا . هـ . وقد جاء في خطبة قس المشار إليها : أيها الناس هلموا إليّ ، أيها الناس اسمعوا وعوا ، وإذا سمعتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج وسماء ذات أبراج ... إني أرى عليكم خبراً قد آن أوانه وأظلكم زمانه[21] .

15 ـ الأدب الجاهلي ذو مرجعية مركبة تعمق اللغوي والجمالي والفني والقيمي ، وبعض ما يحصل عليه دارس هذا الأدب هو إغناء أسلوبه الأدبي جزالة وسلاسة وإشارة لماحة ، وقد وكّدت الدراسات الأسلوبية الآثار المهمة التي تتركها قراءة التراث الأدبي في جسم النص الحديث والأهمية لا تعني ـ بأي حال ـ فكرة خضوع الخلف للسلف وإنما تعني قبل كل شيء وبعد كل شيء فكرة التجاوز والاغتناء والإضافة ، فالأمة التي تعيش الماضي وتهمل الحاضر أمة فارغة المضمون عمياء الإرادة لأن اجترار الماضي وباء مهلك ، يسهم في انتشاره عبدة السلف ، والعرب أمة عبقرية تدرك بفطرتها خطورة الماضي حين يستشري ويزدرد الحاضر !! وخطورة الحاضر حين يستغني عن الخبرة المتراكمة للماضي ! وقد وجد أرنولد توينبي أن العرب أمة تقابل التحديات بما يناسبها من الاستجابات ..

---

(21) البيان والتبيين 116/1 (م . س)

بلاشير . ر . ريجس . تاريخ الأدب العربي ص 870 تر . د . إبراهيم الكيلاني طب دار الفكر دمشق 1984 . الصائغ . د . عبد الإله . الإبداع الأدبي العربي الجاهلي بين الواقع والتوقّع ص 53 وبعدها .

أما الجزء الآخر الذي يناله دارس الأدب الجاهلي من المرجعية المركبة التي أشرنا إليها فهو المعرفية الشاسعة التي تهيئ له صورة واضحة عن الأدب وعصوره وثقافاته وأحلامه والتي تمنحه القدرة على الموازنة (أو المقارنة) بين أدب وأدب ، وقصيدة وأخرى .. فضلاً عن إقامة دراسات ذات قيمة في مباحث التناص ..

أ ـ الموازنة : تقوم بين أدبين أو نصين ضمن محيط مقاربات تسهم فيها اللغة الواحدة ، والتجربة والرؤية .

ب ـ المقارنة : حالة من الموازنة إلا أنها بين أدب أمة وأخرى .

جـ ـ التناص : ملاحظة أثر مقصود أو غير مقصود لنص سابق في نص لاحق .

16 ـ الأدب الجاهلي أدب صورة ، فهو مولع بوصف ما يراه المبدع ويسمعه ويشمه ويذوقه ويلمسه .. مولع أيضاً بوصف ما يستشعره الأديب ، ومساحة اهتمامه الحيوات العربية بتمامها ، ولعل أبرز سمة أضاءتها النصوص الأدبية هي الالتفات إلى الطبيعتين الحيّة والميتة ، الأعشى مثلاً يرسم الصحراء كأنها ظهر ترس يخبّئ زجل الأشباح والجن ، كما يرسم البرق والمطر والرعد والناقة التي لبثت ضخمة سهلة السير رغم السفر الذي يهزل الناقة ويحفّي راكبها

يا من يرى عارضاً قد بتُّ أرقبه ... كأنما البرقُ في حافاته الشّعلُ
له رداف وجوز مفأم عمل ... منطّق بسجال الماء متصل
لم يلهني اللهوُ عنه حينَ أرقَبُه ... ولا اللّذاذة من كأس ولا الكسل
وبلدة مثل ظهر الترس موحشة ... للجن بالليل في حافاتها زجل
لا يتمنّى لها بالقيظ يركبها ... إلا الذين لهم فيما أتَوْا مهل
جاوزتها بطليح جسرة سُرُح ... في مرفقيها إذا استعرضتها فتل
أما ترينا حفاةً لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

وعنترة .. يجترح صورة للروضة والذباب الغرد فيها حتى لكأننا نرى الاثنين معاً .. ثم يصف حصانه ويسبغ عليه من المشاهد ما يستدر عواطفنا :

أ ـ أو روضة أنفاً تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جاد عليه كل بكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم
سحاً وتسكاباً فكل عشية ... يجري عليها الماء لم يتصرّم
وخلا الذُّبابُ بها فليس ببارح ... غِرداً كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

ب ـ يدعونَ عنترَ والرماحُ كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولَبانه حتى تسربل بالدم
فازورّ من وقع القنا بلَبانه ... وشكا إليّ بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلّمي

ـ وطرفة بن العبد يصف لنا احتواءه النقيضين فهو زعيم في حلقة القوم نهاراً ، وصعلوك بين الندامى ليلاً .. ولكنه لا ينادم إلا الفتيان الذين يحاكون النجوم علواً .. ولم تفته صورة المغنية : البصرية واللمسية والسمعية :

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تلتمسني في الحوانيت تَصْطَد
نداماي بيضٌ كالنجوم وقَيْنَة ... تروح إلينا بين برد ومجسد
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة ... بجبس الندامى بضة المتجرّد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروفة لم تشدد
إذا رجّعت في صوتها خلت صوتها ... تجاوبُ أظآر على رُبع ردِ

ويضع النابغة بين أيدينا صورة متكاملة لصراع دام نشأ بين ثور الوحش (مشبه به للناقة) الذي يشبه الإنسان المكابد ، وبين الصيد وكلابه اللذين يشبهون السُّلطة .. فالصياد درّب كلابه وجوّعهن كي يفتكن بالثور الباحث عن الماء ، وهذا الصراع تقليد

دأب عليه جل الشعراء الجاهليين ، واللوحة ترينا ثور الوحش المسكين مهزولاً من الجوع والإعياء في صحراء مهلكة ، فكأنه ميت لا محالة من الظمأ .. وفجأة يهطل عليه المطر .. ويكاد يستبشر بالماء حتى (يرتاع) من أصوات الكلاب ومن شدّة البرد التي سرت في قوائمه ، وكان (ضمران) أفتك الكلاب .. فركّز عليه الثور حتى أدخل قرنه من جهة بطنه وأخرجه من الأخرى فكأن قرنه مبضع طبيب بيطري ، أو سفود نسيه السُّكارى فوق النار ، فظل ضمران يعضّ القرن وهو يعالج موته ، أما الكلب (واشق) فقد اعتبر بمصير صاحبه .. ففرّ هارباً .؟ فينتصر الثور على تلك رموز الموت !

كأن رحلي وقد زالَ النهارُ بنا	يومَ الجليل على مستأنسٍ وحدِ
من وحشِ وَجْرة موشيٍّ أكارعه	طاوي المصير كسيف الصيقل الفرد
سرت عليه من الجوزاء سارية	تُزْجي الشمال عليه جامد البرد
فارتاع من صوت كلاّب فبات له	طوعَ الشّوامت من خوف ومن صرد
فبثهن عليه واستمر به	صمعُ الكعوب بريئات من الحرد
وكان (ضمران) منه حيث يوزعه	طعن المعارك عند المحجر النجد
شك الفريصة بالمدرى فأنفذها	طعن المبيطر إذ يشفي من العضد
كأنه خارجاً من جنب صفحته	سفودُ شَرْب نسوه عند مفتأد
فظل يعجم أعلى الروق منقبضاً	في حالك اللون صدق غير ذي أود
لما رأى (واشق) إقعاص صاحبه	ولا سبيل إلى عقل ولا قود
قالت له النفس : إني لا أرى طمعا	ولا سبيلَ إلى عقل ولا قود[22]

17 ـ شغف الأدب الجاهلي بالقيم العربية العليا ، والأخلاق النبيلة ، فالنصوص الشعرية والنثرية تعلي من شأن المروءة والنجدة والوفاء والأمانة والنقاء ، وقد تداخلت معاني العربي والفتى والفارس فباتت إشارة واضحة إلى الإنسان الرحيم

(22) الذبياني . النابغة . ديوانه ص 15 تح عباس عبد الساتر . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1984 .

بالضعيف ، الباطش باللئيم .. قال النبي ﷺ : « لا يدعُ العربيُّ الشعر حتى تدعَ الإبلُ الحنينَ » وقال أيضاً : « إنّ من البيانِ لحكمةً ومن الشّعر لسحراً » .

وقال في موضع آخر : « ما وُصف لي أعرابيٌّ في الجاهلية وأحببت أن أراه إلا عنترة » . ويتمثّل ﷺ ببيتين من شعر عنترة .

وأغضُّ طرفي ما بدَتْ لي جارتي　　حتى يواري جارتي مثواها
ولقد أبيتُ على الطّوى وأظلّه　　حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

وقد تمثل صلوات الله عليه مرات بقول الأعشى :

قلّدتُك الشعرَ يا سلامة ذا التفضال والشّيءُ حيثُما جُعِلا

أما بيت طرفة الآتي فقد اعتده النبي ﷺ من مخايل النبوة

ستُبدي لكَ الأيّامُ ما كنتَ جاهلاً　　ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تُزَوِّد

وغير بعيدة عنا مقولة النبي ﷺ : « أصدقُ كلمةٍ قالها لبيدٌ » مشيراً إلى بيت ورد في نص استعباري للبيد نضعه بين قوسين :

ألا تسألان المرءَ ماذا يُحاول　　أنحبٌ فيُقضى أم ضلالٌ وباطلُ
إذا المرءُ أسرى ليلةً ظنَّ أنه　　قضى عملاً والمرءُ ما عاشَ عاملُ
فقولا لهُ إنْ كانَ يقسمُ أمره　　ألمّا يعظْك الدهرُ أُمُّكَ هابلُ
فتعلم أن لا أنتَ مدركُ ما مضى　　ولا أنتَ مما تَحْذَرُ النّاسُ وائلُ
فإنْ أنت لم تصدقك نفسُك فانتسب　　لعلّك تهديك القرون الأوائل
(ألا كُلُّ شيءٍ ما خلا اللهُ بَاطلُ　　وكلُّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ)
وكلُّ أُناس سوف تدخلُ بينهم　　دويهيةٌ تصفرُّ منها الأنامل[23]

(23) العامري . لبيد بن ربيعة . ديوانه ص/3/ق 44 طب دار صادر بيروت (د : ت) والقشيري . أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري ت 261 . صحيح مسلم 768/4 تح محمد فؤاد عبد الباقي طب دار إحياء التراث العربي بيروت .

وكان الحارث بن حلّزة مغتبطاً بالازدواجية التي يباهي بها الفارس العربي ، فهو قيظ على العدو وربيع للمحتاج .

لا يقيمُ العزيز بالبلد السهـ ـل ولا ينفعُ الذليلَ النجاءُ
وفعلنا بهم كما علمَ اللّـ ـه وما إنْ للخائنين دماء
أسدٌ في اللقاء ورد هموس وربيع إن شمّرت غبراءُ

ولن يكون الرجل زعيم قومه بالوراثة وإنما يتزعمها بالمروءة والبذل : قال عامر بن الطفيل :

فإني وإن كنت ابنَ فارس عامر وفي السرّ منها والصريح المهذب
فما سوّدتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمقنب[24]

وقال الأفوه الأودي :

تلفى الأمور بأهل الرشد ماصلحت فإن تولوا فبالأشرار تنقاد
والبيت لا يُبْتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم تبن أوتاد
وإن تجمع أقوام ذوو حسب اصطاد أمرهم بالرشد مصطاد[25]

وقال بشامة بن الغدير :

وجدت أبي فيهم وجدي كلاهما يُطاع ويؤتى أمره وهو محتبي
فلم أتعمّل للسيادة بينهم ولكن أتتني طائعاً غير متعب[26]

(24) ابن الطفيل . عامر . ديوانه ص 28 تح كرم البستاني . طب دار صادر بيروت 1963 .

(25) الأودي . الأفوه . ديوانه ضمن (الطرائف الأدبية) ق زب 9 وبعده ص 10 الميمني . عبد العزيز . الطرائف الأدبية . القسم الأول (ديوان الأفوه الأودي . ديوان الشنفرى وتسع قصائد نادرة) طب دار الكتب العلمية . بيروت (د : ت) !

(26) ابن الغدير . بشامة . شعره ص 219 وانظر : الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، مبحث السلطان ص 184 الهامش 40 (م . س) .

والعربي يرفض الظلم رفضه للغدر والكذب ، قارن الفند الزماني :

1- أقيـــدوا القـــوم إن الظلم … لا يرضـــــاه ديّـــانُ

2- وإنّ النـــارَ قـــد تصبِّـ … ـــح يـــومـــاً وهي نيران

3- صفحنـــا عن بني ذهـــل … وقلنـــا القـــوم إخـــوان

4- فلمـــا أبى الصلـــح … وفي ذلـــك خـــذلان

5- شـــددنـــا شـــدة الليث … غـــدا والليث غضبـــان[27]

وتنشأ الزعامة الشريفة في حاضنة (الفتوة ، الفروسية) ، فالقـائـد لا يستبـد ولا يستـأثر بـالسلطـة ، القـائـد أول من يضحي ، وآخر من يستفيـد ، فلا يسلّـط أولاده وأشقاءه وأبناء عمومته وأصدقـاءه على أموال النـاس وأعراضهم ورقـابهم ، القـائـد الزعيم سيف بين السيوف ، وليس السيف الأوحد ، وليس الفحل الوحيـد ، والمفكر الوحيـد ، والمالك الوحيد للحقيقة .. وقد وصف الأعشى هذا الزعيم القائد ..

غيثُ الأرامـل والأيتـام كلّهم … لم تطلُـعِ الشمس إلا ضرٌّ أو نفعـا

لم ينقص الشيب منه ما يقال لـه … وقد تجاوز عنـه الجهل فـانقشعـا

لا يرقع الناس ما أوهى وإن جهدوا … طول الحياة ولا يوهون ما رقعـا

قـد حملوه فتي السن مـا حملت … ساداتهم فأطـاق الحمل واضطلعـا

تلقى لـه سـادة الأقـوام تـابعـة … كلّ سيرضى بـأن يرعى لـه تبعـا

وهذه الهيئة ليست بعيدة عن هيئة الزعيم القائد في ذهنية لقيط

فسـاوروه فـألفـوه أخـا علـل … في الحرب يحتبل الرئبال والسَّبُعـا

لا مترفاً إن رخاءُ العيش ساعـده … ولا إذا عضى مكروه بـه خشعـا

وليس يشغلـــه مـــال يثمّره … عنكم ولا ولـدٌ يبغي لـه الرّفعـا

متى استمرت على شزر مريرتُـــه … مستحكم السنّ لا قحماً ولا ضرعـا

---

(27) الفند الزماني . شعره ص 294 . مجلة المورد العراقية . مجلد 8 عدد 3 سنة 1979 .

عبلُ الذراع أبياً ذا مزابنة　　في الحرب لا عاجزاً نكساً ولا ورعا
ما انفك يحلب درّ الدهر أشطره　　يكون متبعاً طوراً ومتبعا

ويمكن القول : إن قصائد الرثاء مرآة صافية ، تعكس فضائل الفقيد وحين سئل أحد الشعراء : ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟ فأجاب « لأننا نقولها وأكبادنا تحترق » !!

يقول الدكتور جبار عباس اللامي : الرثاء تعبير عن مشاعر الأسى والحزن فضلاً عن ذكر محاسنه والإشادة بمآثره وخصاله الحميدة ، ومعظم المراثي التي وصلت إلينا تميزت بصدق اللوعة ، وحرارة العاطفة ، وخاصة المراثي التي كانت تقوم على رابطة الرحم والقربى التي تجمع بين الراثي والمرثي . ا . هـ[28] .

قالت الخنساء :

يا صخر من لطراد الخيل إذ وزعت　　وللمطايا إذا يشددن بالكور
ولليتامى وللأضياف إن طرقوا　　أبياتنا لفعال منك مخبور
ومن لكربة عان في الوثاق ومن　　يُعطي الجزيل على عسر وميسور
ومن لطعنة خلسٍ أو لهاتفة　　يوم الصياح بفرسان مغاوير
يا صخر كنت لنا عيشاً نعيش به　　لو أمهلتك ملمات المقادير
يا فارس القوم إن شدوا فلم يهنوا　　وفارس القوم إن هموا بتقصير
يا صخر ماذا يواري القبرُ من كرم　　ومن خلائق عفاتٍ مطاهير[29]

وقال محمد بن كعب الغنوي :

لقد كان أما حلمه فمروّح　　عليه وأما جهلُه فعزيب
أخي مَن أخي، لا فاحشٌ عند بيته　　ولا ورعٌ عند اللقاء هيوب

(28) اللامي . د . جبار عباس . شعر المرأة في العصر الجاهلي ص 27 . طب مركز عبادي للدراسات والنشر . صنعاء 1998 .

(29) الخنساء . ديوانها ص 50 تح عبد السلام الحوفي . طب دار الكتب العلمية بيروت (د : ت) .

أخي كان يكفيني وكان يعينني ... على نائبات الدهر حين تنوب
حليم إذا ما سورة الجهل أطلقت ... حُبى الشيب للنفس اللجوج غلوب
هو العسل الماذيّ ليناً ونائلاً ... وليث إذا يلقى العداة غضوب
هوت أمه ماذا تضمّن قبره ... من المجد والمعروف حين يثيب
أخو سنوات يعلم الضيف أنه ... سيكثر ما في قدره ويطيب
حبيب إلى الزوار غشيان بيته ... جميل المحيا، شبٌّ وهو أديب
كأن بيوت الحي ما لم يكن بها ... بسابسُ قفر ما بهن عريب
فتى أريحي، كان يهتز للندى ... كما اهتز من ماء الحديد قضيب
فتى ما يبالي أن يكون بجسمه ... إذا نال خلاتِ الكرام شحوب
فتى الحرب إن جارت تراه سمامها ... وفي السلم مفضال اليدين وهوب
إذا ما تراءاه الرجالُ تهيبوا ... فلم ينطقوا العوراء وهو قريب
حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... سريعاً ويدعوه الندى فيجيب
فلو كانت الدنيا تباع اشتريته ... بما لم تكن عنه النفوس تطيب[30]

واستحثت برة ابنة عبد المطلب دموع عينيها، حتى تبكي:

على ماجد الجدّ واري الزناد ... جميل المحيا عظيم الخطر
على شيبة الحمد ذي المكرمات ... وذي المجد والعز والمفتخر[21]

ولن يغفل الباحث في القيم العربية كتب الأمثال التي متحت مادتها من الشعر والنثر ونشرت أمامنا باقات لا تعد ولا تحصى من الأمثال العربية الجاهلية، التي تذكي

---

(30) القرشي. أبو زيد محمد بن الخطاب (من القرن الثالث). جمهرة أشعار العرب ص 249 وبعدها طب دار صادر بيروت (د : ت).

(31) اللامي. د. جبار عباس. شعر المرأة في العصر الجاهلي ص 98 وقد عوّلنا على هامش 12 (م . س).

روح المروءة والنجدة . من نحو كتاب (الأمثال) لأبي فَيْد مؤرّج السدوسي ، و (المستقصى في الأمثال) للزمخشري ، و (مجمع الأمثال) للميداني .

18 ـ الأدب الجاهلي أدب رؤية .. كثر قراء الأسرار لاحتياج الناس إلى كشوفاتهم ومزاعمهم فالناس يسألون ويحتكمون وقراء الأسرار يلبّون ، وقد يصعب الفصل بين وظائف دلاليّ ذلك العصر وهم كثر من نحو المنبئ والكاهن والعراف والطبيب والساحر والممسوس والمتوسم والقلمس والحازي والقائف والمتفرّس والرائد والدال . ويسعى الأديب إلى أن يكون كل هؤلاء الذين يمتلكون موهبة الخيال التشاكلي القائم على مبدأ التشبيه للتأثير في الطرف الآخر ، فتمادى الكهنة في تطويع علومهم الحدسية القائمة على المزاعم والاستنتاج والاستدلال ، وأوهموا الناس أنهم يأخذون علومهم من الرئي والنجمة ، فافترقوا درجات عن الشعراء الذين ينهلون معطاهم من شعب بوادي عبقر ، بل وافترقوا درجات عن ذوي الحدس الصافي القائم على الذكاء والتوسّم ، من نحو قس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل .. النص الرؤيوي مالك لريادة محسوبة دلالياً عهدئذ ، وإن شابت رؤية النص الباذخة أشياء من الوهم والإيهام بما يستدعيه المجاز وآليات صناعة النص قارن 1 ـ قس بن ساعدة :

لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر

2 ـ زهير بن أبي سلمى :

ـ ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
ـ وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عمي

3 ـ أمية بن أبي الصلت :

شمــــطّ بهــــاليـــل مغـــاوير وحـــاوح
ألا ترون لمـــــــا أرى ولقـــد أبـــان لكل لامـــح

4 ـ قراد بن الأجدع :

فإن يـك صـدر هـذا اليوم ولّى فـــإن غـــداً لنـــاظره قريب

5 ـ طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام مـا كنت جـاهلاً ويـأتيـك بـالأخبـار من لم تـزود

6 ـ الأعشى :

إذ نظرت نظرة ليست بكاذبـــــة إذ يرفـع الآل رأس الكلب فـارتفعـا

7 ـ لقيط بن يعمر الإيادي :

هـــذا كتـــابي إليكم والنـــذير لكم لمن رأى الرأي بـالإبرام قـد نصعـا
وقـد بـذلت لكم نصحي بـلا دخـل فـاستيقظـوا إن خير العلم مـا نفعـا

الفصل الثاني

عصور الأدب

أ ـ ذهبنا في الفصل الأول إلى أن الأدب كالزمن فكلاهما دائري ومتّصل ومن الصعب الفصل بين الأجزاء دون اعتساف طبيعة كل منهما ، فإذا قسّم الكاتب الأدب فإنما يفعل ذلك لكي يقرّب الفكرة من الذهن ، ويسلّط الضوء على كل جزء ابتغاء تشريحه ورؤية خصائصه ، والأدب العربي أدب معمّر ، وقد غاب عن ذاكرته عهد طويل سبق العصر الجاهلي المحدد !! فالأدب الجاهلي الذي وصلنا محصور بفترة القرن والنصف إلى القرنين ، وهي فترة ضئيلة تماماً ! فأين ذهب الأدب الجاهلي (الغائب) الذي سبق العصر الجاهلي الماثل ؟ أين نصوص ذلك العهد ؟ ومن هم شعراؤهُ ؟ إن خسارة فادحة لحقت الإبداع العربي حين خسر أدب حقبة طويلة نسبياً تتجاوز العشرين قرناً ؛ تمتد من عام 1500 ق . م إلى 610 م ، لقد أسهمت أسباب كثيرة في ضياع كنوز الأدب الغائب ؛ منها أن معظم الوثائق والنقوش التي احتفظت ببعض هذا الأدب ما زال مطموراً تحت الأرض ، ولم يوحّد الآثاريون العرب جهودهم للتنقيب والبحث علماً بأن التأخر في تنظيم هذه الحملات أتلف الكثير منها ـ كما نفترض ـ وترك الباب مواربًا لسرّاق الآثار وتجارها ... ولم تجدِ الجهود الضيقة نفعاً أكيداً قياساً إلى طموح المختصين في الأدب الجاهلي المتمثل في العثور على نصوص الأدب الغائب ! زد على ذلك جهل البعض لقيمة الرُّقُم والمكتشفات ، فالرُّقم الطينية ربما تكون مادة لبناء البيوت ويكفي القول : إنني عشت في محافظة بابل أربع سنوات ، واكتشفت بنفسي أن كثيراً من البيوت في المدن والقرى المجاورة لبابل قد بنيت من آجر آثار بابل !! وجهل

البعض يغري الناس الذين يعثرون على الآثار بإخفائها واعتدادها مقتنيات خاصة أو بيعها على الأجانب ، وما زال الأمل واسعاً في أن تسفر الحفريات التي تنهض بها جهات آثارية كلاً على انفراد في اليمن والسعودية والبحرين والكويت والعراق والشام عن نتائج باهرة .. متمنين على فرق التنقيب توحيد جهودها والاستفادة بخبرات المختصين في حقول العصور الجاهلية .

ب ـ ومهما يكن من الأمر فنحن مضطرون إلى الشغل على المساحة المتوفرة لدينا وهي تمتد بين (150ـ200) سنة قبل الهجرة وهي فترة ضئيلة كما أشرنا ، ولكن البحث العلمي لا يؤسس نظرياته على الحدس والتخمين .. ولسوف نبدأ بتقسيم الأدب العربي وفق التسلسل الزمني لاعتبارات منهجية ، ولنا أن نقدم بين يدي هذا التقسيم احترازاً هاماً يتمحور حول التداخل بين العصور ، فلا يمكن القطع بأن ظهور الإسلام مثلاً أنهى (تماماً) إيماءات الأدب الجاهلي وشحناته ! ولا يمكن مثلاً التخيّل أنّ عام (132 هـ) عام سقوط النظام الأموي هو عام ابتداء الأدب العباسي .. ليس قبله وليس بعده !! فالأدب مخلوق عصي لا يلتزم مثل الناس الاعتياديين بمواقيت الأنظمة ، فثمة شعراء مخضرمون كتبوا في الجاهلية والإسلام مثل حسان بن ثابت ، والخنساء ، والحطيئة ، ولبيد . وثمة شعراء مخضرمون كتبوا في العصر الأموي والعباسي .. مثل بشار بن برد مثلاً .. ومرة أخرى فنحن نسلم بالتقسيم الزمني لأسباب منهجية كما أشرنا .

1 ـ أدب العصر الجاهلي : ويمتد من 200 عام قبل الهجرة حتى ابتداء الهجرة .

2 ـ أدب عصر صدر الإسلام ويبدأ من العام الأول للهجرة إلى عام 40 يوم اغتيال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

3 ـ أدب العصر الأموي .. من عام اغتيال الإمام علي إلى عام سقوط النظام الأموي (132 هـ) .

4 ـ أدب العصر العباسي الأول ويبدأ من (132 هـ) إلى عام (232 هـ) انتهاء خلافة الواثق .

5 ـ أدب العصر العباسي الثاني (232 هـ) إلى عام (334 هـ) عام استيلاء بني بويه على المقاليد الفعلية للخلافة الجريحة حين اكتفى خلفاء بني العباس عهد ذاك بالاسم فقط .

6 ـ أدب العصر العباسي الثالث من عام (334 هـ) حتى عام (447 هـ) عام استيلاء السلاجقة على بغداد .

7 ـ أدب العصر العباسي الرابع من عام (447 هـ) حتى عام (656 هـ) عام دخول جيش التتار بغداد والإجهاز على الخلافة العباسية ، فكان دخول التتار موعداً لسقوط الحكم العباسي .. الذي انطفأ منذ دبّت الفتن بين الأمين والمأمون وتسلط العناصر غير العربية على الحكم وشيوع روح الاستعلاء والعتو في الأسر الحاكمة باتجاه المحكومين وبخاصة المسلمين من غير العرب .

8 ـ أدب العصور المظلمة ويبدأ من عام الشؤم (656 هـ) حتى عام (1213 هـ) عام وصول الجيش الفرنسي الغاشم إلى التراب المصري بقيادة القائد الفرنسي المعتوه نابليون بونابرت ! والإنصاف يدعونا لتسمية هذه الفترة بالفترة المظلومة ، فقد استيقظت النخوة الأدبية والعلمية فصنع الأدباء والمثقفون العرب الموسوعات الكبيرة ، وبرز شعراء رافضون حذّروا من مغبة اليأس والتخاذل .

9 ـ أدب عصر النهضة من (1213 هـ) (1798 ميلادية) إلى (1950 م) . وقد ظهر فيه كثير من الاتجاهات التقليدية والتجديدية وكان الصوت الأقوى هو صوت محاكاة النماذج العليا من الأدبين الجاهلي والعباسي .. وإحياء الروح الأدبي .

10 ـ الأدب الحديث من عام (1950 م) حتى أيامنا هذه (1999 م) . وقد بدأ

برواد الأدب الحديث في الشعر والنثر الفني .. فعلى مستوى الشعر ظهر رواد الشعر الحر الذين اعتمدوا البحور الصافية والتفعيلة المكرورة ، ثم جاءت بعدهم أجيال حاولت تجاوز تجربة الرواد . وعلى مستوى النثر الفني ظهر رواد متميزون في القصة والرواية والمسرحية والمقالة وظهرت بعدهم أجيال حاولت تجاوز تجربتهم[☆] .

جـ ـ كثيرة ومتعددة هي زوايا النظر التي يمكن من خلالها رصد الأدب الجاهلي ، ومعلوم أن مسوّغ هذه الكثرة وتلك التعددية هو اختلاف الدارسين في المناهج المتبعة والأهداف المقصودة والثقافات والمرجعيات ودرجات الوعي ، وإذا كنا قد وضعنا الأدب الجاهلي في إطار الزمن فإنما فعلنا ذلك لأسباب منهجية تتصل بشغلنا وأهدافنا ، إلا أن للأدب الجاهلي قوة ضاغطة ، ما زال حتى اليوم بعض شعرائنا التقليديين ينؤون من أثرها ! فكيف يكون الأمر مع العصور القريبة من الجاهلية .. صدر الإسلام والأموي والعباسي !! لقد تعصب له علماء الشعر ، واعتدوه مقياساً لشعرية الإبداع العربي ، ولنا أن نستذكر مخضرَمي العصرين الجاهلي والإسلامي وأثرهم في الاختلاط (الفني) بين هذا الشعر وذاك والدارسون احتاطوا للأمر فلقبوا قصائد العصر الجاهلي بالمنتقيات ، والجاهليات . وقصائد المرحلة الانتقالية بالمخضرمات والمشوبات ، ولسوف نعرض فيما يلي إلى عدد من المنطلقات التي يمكن اعتمادها في مباحث الأدب الجاهلي .

1 ـ دراسة الأدب من خلال الترتيب الزمني السياسي وقد شرحناه .

2 ـ قال بعض العلماء : بني الشعر على أربعة أركان وهي المديح والهجاء والنسيب والرثاء[1] وقد أوّل الدارسون هذا التقسيم الرباعي إلى أن أصول الشعر أربعة هي الرغبة والرهبة والطرب والغضب (فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون

(☆) إشارة : لا يمكن وضع الأدب الأندلسي في نظرنا ضمن العصر الأموي أو العباسي .. فهو أدب ذو ملامح مختلفة وإن له عصوره الخاصة به فاقتضت الإشارة .

(1) القيرواني . أبو علي الحسن بن رشيق ت 456 . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 100/1 تح محي الدين عبد الحميد طب دار الجيل بيروت 1972 .

الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب يكون الهجاء والتوّعد الموجع والعتاب الشديد)[2] .

والنياقدة العرب موقنة أن أشعر العرب الأعشى إذا طرب ، وامرؤ القيس إذا شرب ، وعمرو بن كلثوم إذا غضب ، والنابغة إذا رهب ، ونرجّح عنصرين من العناصر الأربعة وهما الرهبة والرغبة إذ يمكننا وضع الطرب في الرغبة والغضب في الرهبة . وحين سئل الإمام علي كرم الله وجهه عن أشعر الشعر لم يشأ الإجابة لشدة وعيه بطبيعة الشعر ، وحساسية المتلقي ، بيد أنه أجاب حين ألحف السائل في السؤال قائلاً : امرؤ القيس وحين طلب إليه تعليل حكمه قال : « لأن امرأ القيس لا يقول الشعر عن رغبة ولا عن رهبة » .

إن تشريح الشعر من خلال أغراضه منطلق مهم ، لأنه يبوّب الفنون الشعرية ، ويحدد إمكانات وأهم هذه الأغراض هي : الغزل ، والفخر ، والمديح ، والرثاء ، والهجاء ، والتوثيب ، والحكمة ، والوصف .

3 ـ دراسة الأدب من خلال شعراء القبائل ، فالقبائل العربية تحتفي بشعرائها احتفاء كبيراً ، فإذا نبغ شاعر في القبيلة فهذا يعني أن القبيلة ستحتفل رجالاً ونساء شيباً وشباناً ، وستنحر الإبل للمدعوين ، ويستعرض الشباب فنونهم في الرقص والغناء ، فالشاعر عهد ذاك مؤسسة إعلامية ، وكان النعمان بن المنذر يجمع في خزائنه الشعر الذي يمتدح به قومه[3] (والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية ... أكثر من أن يحيط بهم محيط ، أو يقف من وراء عددهم واقف)[4] .

(2) حسن . د . حسين الحاج . أدب العرب في عصر الجاهلية ص 18/طب المؤسسة الجامعية للدراسات بيروت 1984 .

(3) الرازي . أبو حاتم أحمد بن حمدان ت (322 هـ) . كتاب الزينة ص 96 تح حسين الهمداني الحرازي طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1994 .

(4) ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم ت 276 هـ . الشعر والشعراء 22/1 طب دار إحياء العلوم . بيروت 1987 .

وقد قال الشاعر :

ألهى بني تغلبٍ عن كلّ مكرمـــــةٍ   قصيـدةٌ قـــالهـــا عمرو بنُ كلثــومِ

وقد صنع السكري ديواناً لقبيلة هذيل مثلاً ..

4 ـ الأمكنـة .. وهـذا منطلـق آخر لـدراسـة الأدب الجـاهلي ، فهنـاك الشعراء الشماليون والشعراء الجنوبيون أو شعراء اليامة أو الثغور أو الريف ..

5 ـ الأدب في دائرة الأنظمـة السيـاسيـة .. من نحـو شعراء دولـة كنـدة ، وشعراء المناذرة ، والغساسنة ، ومكة ، ودومة الجندل .

6 ـ دراسة الشعر من خلال مقامـات الشعراء ونجوميتهم وانتماءاتهم ، فهنـاك شعراء ملوك وشعراء سـوقـة وشعراء عبيـد وهنـاك شعراء صعـاليـك ، وفرسـان ، ولصـوص ، وعشّـاق ، ومتـألهون ومتعهّرون ، وشعراء غربـان (ذوو بشرة سـوداء) . وخـلاسيـون (بشرتهم اعتيادية وأصولهم سوداء) ..

7 ـ دراسة الشعر وفق معيار المصنوع والمطبوع ، فقـد عرف العصر الجـاهلي شعراء يعنون بتصليح شعرهم ومراجعته ، وقد تستغرق القصيـدة حولاً كاملاً .. وهنـاك شعراء يكتبون على الفطرة بتلقائية محببة فزهير بن أبي سلمى ورهطه كانوا من عبيـد الشعر ـ كما زعم ـ فهم ينسبون إلى الشعر المصنوع وامرؤ القيس وطرفـة والأعشى وسواهم ينسبـون إلى الشعر المطبوع .

8 ـ دراسة الشعر وفق طبقات الشعراء ، فثمـة شعراء يـأتون في المقـام الأول ؛ وهم الشعراء الفحـول ، وشعراء يـأتـون في المقـام الثـاني ، وقــد جعـل الأصمعي امرأ القيس والنابغة على رأس الفحول بينما لم يعتدّ الأعشى وعمرو بن كلثوم من الفحول !!

وسأل أبو حاتم السجستاني الأصمعي عن دلالة الفحل فأجـابـه (يراد أن لـه مزيـة

على غيره كمزية الفحل على الحقاق[5] وقد شاعت فكرة الطبقات ، ولنا أن نستذكر (طبقات فحول الشعراء) لابن سلاّم الجمحي ، أما أبو زيد القرشي فقد بوّب الشعراء وفق شهرة قصائدهم فذكر (أصحاب) المعلقات والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمشوبات والمراثي والملحمات[6] .

9 ـ ويمكن دراسة الشعر وفق معيار شعراء الوبر وهم الأعراب سكان البادية وشعراء المدر وهم سكان المدن والأرياف .. فشعراء البادية غليظو العبارة ، عنيفو المشاعر . وشعراء المدن رقيقو العبارة هادئو المشاعر ، والعرب تقول من بدا جفا ، وحين سئل الأصمعي عن شاعر أعرابي أجاب إنه لم يعد كذلك ؛ لأنه أكل البقول ! وكانت المنافسة على أشدها بين شعراء البادية وشعراء الحاضرة ولكل سنخ من هؤلاء جمهوره ومريدوه ..

10 ـ كما أن بإمكان الدارس النظر إلى الشعر الجاهلي من جهة الولاءات الدينية ، فالسموءل بن عادياء مثلاً شاعر يهودي وأمية بن أبي الصلت مسيحي وعمرو بن زيد بن نفيل حنفي ، وثمة شعراء صابئة ، ومجوس ، ووثنيون ..

د ـ أما مناهج دراسة الأدب الجاهلي فهي كثيرة أيضاً ومتعددة بتعدد مرامي الدارسين وثقافاتهم ومرجعياتهم وأهم المناهج التي رصدت الأدب الجاهلي وبخاصة الشعر هي المنهج اللغوي ، والمنهج التاريخي ، والمنهج الجغرافي ، والمنهج النفسي ، والمنهج الفني ، والمنهج الاجتماعي ، والمنهج البنيوي ، والمنهج الإيديولوجي ، والمنهج الدلالي ، والمنهج التكاملي . وجل هذه المناهج يعتسف الأدب الجاهلي ، ويلوي عنق النص لكي يتجاوب مع نهج الباحث . وهو أمر يبعد البحث عن مركزية الأدب الجاهلي ، فالمنهج اللغوي مثلاً معنيّ بتشقيق النص ، ومعرفة مديات تعامله مع الاسم والفعل والحرف ..

---

(5) السجستاني . أبو حاتم سهل بن محمد (ت 255 هـ) سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي ص 30 تح د . عودة أبو جري . طب مكتبة الثقافة الدينية . مصر 1994 .

(6) القرشي . جمهرة أشعار العرب ص 361 وبعدها (م . س) .

وكم مرة مثلاً اعتمد الجملة الاسمية أو الفعلية ، وأيها المتغلب في الجملة المصدر أم الفعل .. وهكذا يكون النص الجاهلي أسير فرضيات ترهقه أما المنهج التاريخي فهو يجر النص الجاهلي إلى متاهات التاريخ ومغارات الزمن المعتمة ، فيدرس التاريخ من خلال النص الجاهلي ، أو يدرس النص الجاهلي من خلال التاريخ ، فيكون النص وثيقة بكماء ، تقول ولا تعي . أما المنهج الجغرافي فهو قريب الأرومة من التاريخي ، لأنه معني بإضاءة الفرضية الجغرافية بالنص الجاهلي أو إضاءة النص الجاهلي بالمعلومة الجغرافية ، ويلاحظ هذا المنهج الأثر الطوبوغرافي (التضاريسي) والديموغرافي (السكاني) والنوئي في النص الجاهلي ، وربما لاحظ كيفيات تعبير النص الجاهلي عن التضاريس والسكان والأنواء .. إلخ .

وربما كان المنهج النفسي في بعض ميادينه قريباً من روح النص الجاهلي ، إلا أن الاعتساف سمة هذه الدراسات فالشاعر في رؤية هذا المنهج مريض مصاب بالعصاب أو السيتزوفرينيا ، والنص الشعري وثيقة تضيء لنا أسباب عناءات الشاعر .. ولا يمكن الظن أن هذا المنهج صالح مع كل الشعراء .. فقد يفيدنا هذا المنهج في دراسة أثر اللون في شعر عنترة ، وضعف البصر في شعر الأعشى ، واليفاعة في شعر طرفة ، والشيخوخة في شعر زهير ، وفرك النساء في شعر امرئ القيس .

أما المنهج الفني فهو أقرب المناهج إلى روح النص الأدبي ، لأنه مشغول بجماليات النص وشعرياته من خلال تشريح المبنى والمعنى للنص .

والمنهج الاجتماعي يدرس الأدب الجاهلي من خلال أثر الحياة الاجتماعية في شعر الشاعر ونثر الناثر .. ثم أثر معطى الشعر أو النثر في الحياة الاجتماعية ، ولا بد والحالة هذه من الإلمام التام بتقنيات علم الاجتماع ، لكي يحسن الباحث استخدامها .. وهذا المنهج يخدم علم الاجتماع قبل أن يخدم الأدب الجاهلي .. فما الأدب هنا سوى عينة تستخدم ، ثم تهمل .. ويمكن القول : إن المنهج البنيوي قريب جداً من روح النص

الجاهلي لأسباب كثيرة ، منها أنه منهج وصفي ، لا يعبأ بالمناهج المعيارية ، فهو يحلل ويستكشف ويستنبط ولا يقاضي أو يصدر أحكاماً ... وسبيله في ذلك إدراك العلاقات العميقة والظاهرة في النص ، وفق الأنساق التي تتحكم بالنص ، ويهمل هذا المنهج دراسة الشاعر ؛ لأن الغاية كامنة في الشعر وليس الشاعر استناداً إلى دعوة رولان بارت إلى موت المؤلف .

وكما اقترب المنهج البنيوي من النص الجاهلي فقد ابتعد المنهج الإيديولوجي عنه ، لأن هذا المنهج يحمّل النص الجاهلي فوق ما يحتمله ، ويلجأ إلى التأويل والتقويل والتلوين لإثبات أمور يصعب إثباتها في حيز الأدب الجاهلي .. كيف يفكر منتج النص ؟ وما النتائج العقدية المستخلصة من نص الشاعر ؟ وهل هو ثابت الرأي أم متحوّله ؟ وما أثر الجوانب الاقتصادية والطبقية في تجربته الشعرية ؟

ويظل المنهج الدلالي أميناً في مباحثه العلمية مع النصوص الأدبية الجاهلية ، فهو مشغول بالمعاني ودلالاتها ، وقد ينتقل من المعاني الظاهرة إلى المعاني المستترة وملاحظة استثمار النص لآليات المجاز ، وقد يلاحظ الدارس وفق هذا المنهج مدى نجاح الشاعر في استخدام آليات البيان (تشبيه - استعارة مكنية - استعارة تصريحية - كناية) في إيضاح دلالات النص ، أو مدى إخفاقه ، ولا بد من تفقه الباحث الدلالي في جدل الدال والمدلول والإشارة .. وهذا المنهج قادر على استجلاء جماليات النص الجاهلي ..

وأخيراً فالمنهج التكاملي هو المنهج الذي يلفّق عدداً من المناهج التي ذكرناها أعلاه أملاً في تحليل النص الأدبي الجاهلي ، فهذا المنهج يعتمد عدداً من المناهج لتأسيس الدرس ونحسبه غير قادر على التركيز وقول أشياء ذات قيمة .. لأنه يبدد الجهد ، ويشتت الاجتهاد ، ويضيّع إشارات النص . إن المنهج الواحد لا يلغي إطلاقاً حرية الاغتناء بمزايا المناهج الأخرى .. ولكنه اغتناء محسوب ومحدود .. يجيء تعزيزاً للمنهج الأم

فبإمكان الـدارس وفق المنهج الفني مثلاً الاستعـانـة (المحـدودة) بمزايـا المنهج اللغوي أو التاريخي أو أي منهج آخر ..

أما المنهج التكاملي .. فخطيئته أنه بلا ملامح .. وأنـه متعب للنص ، وللـدارس ، والمتلقي معاً ..

الفصل الثالث

تفكيك المصطلحات

الكلمة طاقة لا تفنى ولا تستحدث ويتعيّن على المتصرّف بها معرفة طبائعها وأصولها وفروعها ، فقد تنسحب كلمة إلى الظل ، وتنعم أخرى بالضوء وفق قانون الاستعمال والإهمال . فاللغة كائن حيوي ينمو ويتطور ويضمر ، بيد أنه لا يموت وإنما يرقن حين يدبّ الانحلال والتشرذم في جسد هذا الكائن ! وقد قرّ في تجارب العاملين في حقول الكلمة أن للكلمة ثلاث دلالات يمكن استنباطها من جهة استقراء تاريخ مسيرتها أو مسيرة تاريخها ، فالدلالة الأولى تعتمد مرجعية اللغة مظنة لها وتسمى الدلالة اللغوية ، والدلالة الأخرى فمظنتها مرجعية وضعية اتفق المشتغلون بها عليها ، وتظل الدلالة الثالثة الأخيرة مقترنة برؤية الباحث الخاصة وطبيعة شغله ومنهجه وهمومه وتسمى الدلالة التأسيسية .. قارن !

الدلالة	← دلالة لغوية	(معجمية/قاموسية ..)
	← دلالة اصطلاحية	(تواضعية ..)
	← دلالة تأسيسية	(مقترنة برؤية الباحث ومنهجه)

والجدل بالعلة والمعلول قائم بين هذه الدلالات ، إذ لا يمكن لقنوات التواصل بين هذه الدلالات أن تنقطع ، ثمة تأويل دائماً وتوجيه يحيلان على المعاني المشتركة بين الدلالات ، وإن بدا الأمر للوهلة الأولى مختلفاً ؛ قارن تشريح الدلالات الثلاث !

1 ـ **الدلالة اللغوية** : وتعتمد الذاكرة المعجمية والقاموسية مثابة لها من نحو (لسان العرب) لابن منظور (ت 711 هـ) ، و (القاموس المحيط) للفيروز آبادي

(ت 817 هـ) و (تاج العروس) للزّبيدي (ت 1205 هـ) . وسوى ذلك كثير .. والدلالة اللغوية ثابتة الأصول نامية الفروع متعددة الثمر ..

2 ـ **الدلالة الاصطلاحية** : وتعتمد ذاكرتها على ما تصالح المعنيون عليه بشأن حدودها وأوجه استعمالها ، وهي متحوّلة بحسب الزمكان والحاجات والمستجدات ، ولأنها متحولة فمن الصعب التزامها بمعجم اصطلاحي محدد ! ولعل كتب المجازات كانت محاولة ذكية للإمساك ببعض التحولات التي لحقت الكلمات بسبب الاستعمال ، والترميز ، والتأويل ، والتلوين ، نظير (مجاز القرآن) لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت 207 هـ) وكتب التفسير والشرح والصحاح وكتب المصطلحات الفقهية ، والشرعية ، والنحوية ، واللغوية ، والبلاغية ، ومن نحو كتاب (الأنواء) لابن قتيبة (ت 276 هـ) ، و (الأزمنة والأمكنة) للمرزوقي (ت 421 هـ) ، و (المعرب) الجواليقي (ت 540 هـ) و (التعريفات) علي بن محمد الجرجاني (ت 618 هـ) ، و (مفتاح العلوم) السكاكي (ت 626 هـ) و (كشاف اصطلاحات الفنون) محمد علي التهانوي (من القرن 12 هـ) و (المعجم الأدبي) جبور عبد النور ، و (معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب) لمجدي وهبة وكامل المهندس ، و (معجم المصطلحات البلاغية) ثم (معجم المصطلحات النقدية) ت : د . أحمد مطلوب والقائمة طويلة لمن أراد الاستزادة ..

3 ـ **الدلالة التأسيسية** : وهي متحوّلة بشكل يفوق الدلالة الاصطلاحية لأن الدلالة الاصطلاحية جمعية وإن تبدلت بتبدّل الحاجات والأمكنة والأزمنة وفق اشتراطات غير يسيرة ينهض بها المجتمع حيناً والمختصون حيناً آخر ، أما الدلالة التأسيسية فهي تعوّل على وجهة نظر الباحث الذي يحولها باتجاه منهجه وأسلوبه ؛ وتساعد الأمثلة الآتية في إدراك أوجه الائتلاف والاختلاف بين الدلالات الثلاث (عينات : أسلم ، كفر ، عقل) .

أ (أسلم) ← (لغة) = ذلّ + خضع
← (اصطلاحاً) = أسلم + صار مسلماً

ب (كفر) ← (لغة) = ستر + غطّى + حرث
← (اصطلاحاً) = ترك الإيمان بوحدانية الله

جـ (عقل) ← (لغة) = حبل تشد به الحيوان لأمن الضرر
← (اصطلاحاً) = آلة التفكير في رأس الإنسان

ونحاول فيما يلي تفكيك عدد من العينات (الكلمات) المتصلة بشغلنا في هذا الكتاب انطلاقاً من مركزية التوطئة أعلاه .

أولاً : أدب وأدبية

الأدب في حاضنة اللغة : يمثل آفاقاً شاسعة ، ويتوفر على دلالات كثيرة العدد والوجوه .. أهمها الرياضة والطعام والاعتياد والمعرفة العامة والمروءة والتعليم والأعراف والمجازاة ...

١ ـ **الرياضة :** وتعني في جانبها الحسي تضمير الجسم ، قولنا أدّبت الجمل أو الفرس أي روّضتها ، وجعلت كلاً منهما مهيأً للامتطاء مستجيباً للإيعاز .

والمؤدب (كسر الدال) هو مروّض الحيوان ، أما الأديب فهو الحيوان المروَّض (فتح الواو المشددة) ، وقد ينصرف المعنى إلى ترويض جسد الإنسان ! أما السياق الذهني فهو قولنا : روّضت نفسي على قبول أمر لا أحبّه .

وهُنّ يصرّفن النوى بين عالج ونجران تصريف الأديب المذلّل

2 ـ **الطعام :** الأدب هو السائغ من الطعام ، والمؤدّب (كسر الدال المشددة) طاهي الطعام ، والأديب صاحب المأدبة أو الوليمة ، وقد تواتر الاستشهاد في ذلك ببيت لطرفة بن العبد نأمل أن نعثر على أبيات أخرى تعزّز المثل !!

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدب منا ينتقر[1]

والشتاء الجاهلي كان فصل الطاقة وانحباس الرزق ، بحيث تتضح معادن الرجال فيه ، والكريم يجد الشتاء سانحة ثمينة للتعبير عن سجيته وكرمه والآدب (صاحب المأدبة والدعوة) من قوم طرفة لا يختار لمأدبته قوماً دون قوم وإنما هو يدعو (الجفلى) أي الجميع دون استثناء دون أن ينتقي لمائدته ! إذن الكريم في (المشتى) الشتاء لا (ينتقر) أي لا يختار ؛ لأن الطعام مثل الهواء حصة للجميع قال عدي :

زِجِلٌ وبُلَّةُ يجاوبه دف ءٌ لخون مأدوبة ، وزَميرُ

ولبث هذا المعنى بعد إشراقة الإسلام قال رسول الله ﷺ : « إن هذا الكتاب مأدبة في أرض الله » وقال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) موبخاً عثمان بن حنيف عامله على البصرة : « العاملُ هو الوالي أو المحافظ » ، لأنه استجاب إلى وليمة قوم ينتقرون الأثرياء وذوي الجاه : « أما بعد يا ابن حنيف ، فقد بلغني أن رجلاً من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان ، وتنقل إليك الجفان ، وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم مجفوٌّ ، وغنيهم مدعوٌّ ، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم »[2] .

قال الشاعر :

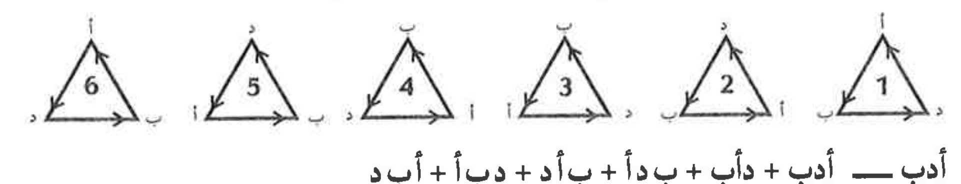
كأنّ قلوبَ الطير في قعر عشّها نوى القسب ملقىً عند بعض المآدب

3 ـ **الاعتياد** : وهذا المعنى يصاقب الترويض ويخالفه في مواضع ويؤوّل المستشرق الإيطالي كارلو نالينو حالة التماهي بين الأدب والاعتياد بأن (أدب) منقلبة عن

(1) ابن العبد . طرفة . ديوانه ص 60 . تح درية الخطيب ولطفي الصقّال طب مجمع اللغة العربية بدمشق 1975 .

(2) ابن أبي طالب . علي (رضي الله عنه) ت 40 هـ . نهج البلاغة 70/1 تح الشيخ محمد عبده طب دار المعرفة ، بيروت (د : ت) .

(دأب) ويورد عدداً من الأدلة المقبولة[3] لكن الدكتور شوقي ضيف غير مطمئن إلى هذا التأويل[4] . والذي نراه أن الصلة بين أدب ودأب عميقة حتى في حالة لبوث كل كلمة عند ملفوظها جاء في اللسان : (أدُب الرجل فهو أديب وأرُب فهو أريب وأدّبه علّمه) و (الدأب السّوق الشديد والطرّد والعادة والشأن) قارن مادتي (أدب/دأب) وجانب تقليب الكلمة على أوجهها أو استبدال الحروف لمواقعها تقديماً وتأخيراً فهو معروف لدى المشتغلين في اللغة وقد أجازه العلماء ، وقيل : إن (أدب) كلمة نبطية ترسم (أدابا) أو (أدابت) أو (تادب) وهي في العربية مستقرة الدلالة واسعتها ، والكلمات العربية عوائل وأرحام وكل كلمة قادرة على توليد ستة دلالات قارن :



أدب ـــــ أدب + دأب + ب د أ + ب أ د + د ب أ + أ ب د

قال الأعشى :

وعين وحشيـــة أغفت فـأرّقتهــا صوت الذئاب فأوفت نحوه دابا

وقال عوف بن الأحوص :

ومـا زال ذاك الـدَّأبُ حتى تخـاذلت هـوازن فـارفضّت سليمٌ وعــامرٌ[5]

ولم يكن تأويل كارلونالينو بدعاً في هذا الميدان فقد أرجع الأب أنستاس ماري الكرملي (أدب) إلى أصل غير عربي واعتدها يونانية اللفظ والمعنى ، ومن دلالاتها

(3) نالينو . كارلو . تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص 17 طب دار المعارف مصر 1970 .

الصائغ . د . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص 21 (م . س) .

(4) ضيف . د . شوقي . العصر الجاهلي ص 8 طب دار المعارف بمصر 1960 .

(5) الضبّي . المفضل بن محمد بن يعلى الكوفي (ت 178) المفضليات ق 109 تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون طب دار المعارف ـ مصر 1992 .

الغناء والمنادمة والمجالسة والأحاديث الرائعة[6] وقد ردّها أحمد حسن الزيات إلى السومريين الذين سكنوا جنوب العراق ، ومن هناك انتقلت إلى العربية ، ومنها إلى اللغات السامية بالاحتكاك حوالي القرن الثلاثين ق . م ، ثم تحولت إلى كلمة (أدم) ، وما زلنا حتى الآن نستعمل معناها فنقول رجل آدمي أي مؤدب !

أما العلامة المغفور له د . مصطفى جواد فقال : إنها مشتقة من (الهذب) ، ثم قلبت الهاء همزة كما في قولنا : (هراق) في (أراق) و (هيا) في (أيا) ، ثم قلبت الذال دالاً لتيسير النطق بها[6] .

4 ـ المعرفة العامة : الأدب هو كل ما أنتجه العقل من ضروب المعرفة ، وما زلنا ننعت عاشق المعرفة (المتأدّب) ، وينقل الأصمعي (ت 216 هـ) مواعظ قديمة يحتفظ بها العرب عن أسلافهم بينها (عليك بالعلم فإنه أنس في السفر ، وزين في الحضر ، وزيادة في المروءة ، وشرف في النسب) .

قال الشاعر :

عيٌّ الشريف يشينُ منصبه   وابن اللئيم يزينه الأدب[7]

ونظير ذلك أن كلمة (Carmen) اللاتينية لم تكن كما عند سيرفيوس لتعني كل ما نظم شعراً ؛ ولكنها شملت كل ما صيغ من كلام ، وأخذ قالباً أدبياً ما ، مثل الصلوات ، وأعمال السحر ، والأحكام القانونية ، والأمثال والحكم ، وما إلى ذلك[8] .

---

(6) أبو شريفة . د . عبد القادر وحسين لافي قزق . مدخل إلى تحليل النص الأدبي ص 12 وبعدها طب دار الفكر عمان 1963 . مجلة المقتطف عدد مارس 1933 ص 322 نقلاً عن كتاب مناهج تعليم الأدب والنصوص في مراحل التعليم العام في الوطن العربي . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تونس 1986 .

(7) القرشي . جمهرة أشعار العرب .

(8) عثمان . د . أحمد . الأدب اللاتيني ودوره الحضاري ص 14 طب عالم المعرفة كويت 1989 .

5 ـ المروءة : ويمتد معناها ليتوفر على الاكتمال والخلق ، قال سهم بن حنظلة الغنوي :

لا يمنع الناس مني ما أردت ولا أعطيهم ما أرادوا حسن ذا أدبا[9]

ويصطنع الغنوي نمطاً من التماهي بين أديب وأريب :

حبيب إلى الخلان غشيان بيته جميل المحيّا ، شب وهو أديب
إذا نزل الأضياف أو غبت عنهم كفى ذاك وضاح الجبين أريب
يجبك كما قد كان يفعل أنه بأمثالها رحب الذراع أريب[9]

وما فتئت صفة المؤدب أو الأديب صفة الإنسان المتخلّق بالمروءة والقيم الحميدة . جاء في اللسان (أدب) : « الأدب أدب النفس والدرس والظرف وحسن التناول ، وسمي أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح ، وأصل الأدب الدعاء » .

6 ـ التربية : الأديب إنسان نال قسطاً وافراً من التربية والتعليم والمؤدّب (كسر الدال) هو المكفَّل بالتربية ، ولنا في شرف الحديث النبوي شاهد خير : « **أدّبني ربّي** فأحسنَ تأديبي » .

7 ـ القواعد والأعراف : ومنه قولنا أدب الطريق ، وأدب الحديث ، وأدب البحث ، والمناظرة ولابن قتيبة (ت 276 هـ) كتاب (أدب الكاتب) وثمة كتب كثيرة في أدب مجالسة السلطان والخلان والمسامرة .

8 ـ المجازاة : الأديب رجل لا يعرف الإساءة ، فكيف يسيء إلى أحد ، والأقزام الذين يضعون لقصائدهم كعوباً عالية هم الموضومون بالإساءة ! والتأديب حالة من مجازاة المسيء بعقاب رادع ، وقولنا : حلقة تأديب ، ومجلس تأديب يشي بهذه المعاني ، والمؤدّب (كسر الدال) قاضٍ أو في حكمه ..

(9) الأصمعي . أبو سعيد عبد الملك بن قريب ت 216 . الأصمعيات ق 12 ق 25 تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون طب دار المعارف مصر 1964 .

9 ـ **المنفعة :** والأديب إنسان نافع بأدبه الناس ونفسه معاً ! قال بلعاء بن قيس :

فـإن أمتْ والفتى رهْنٌ بمصرعـه ... فقـد قضيتُ من الآداب آرابـا

10 ـ **الذكاء وبُعدُ النظر :** أخرج السيوطي عن المبرد قال : كان مكتوباً على سيف علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) :

كَمْ مِن أديب لبيبٍ لا تساعـده ؟ ... وأحمـقٍ نـالَ دنيـاه بتقصير
لـو كان عن قـوّةٍ أو عن مغـالبـةٍ ... طـارَ البزاةُ بـأرزاقِ العصـافير[10]

وبعد : فهذه هي المعاني التي تولّدها (أدب) في ذاكرة اللغة ، وهي معان متصاقبة متقاربة كما هي متخالفة متصالبة ! بما يجعل الدلالة إشكالية واضحة ؛ ولعل هذين : الائتلاف والاختلاف كانا جزءاً من الأسباب التي جعلتنا نفتقد لفظة [أدب] في القرآن الكريم .

الأدب في حاضنة الاصطلاح :

إذا كانت مفردة (أدب) متقلبة في حاضنة اللغة ، فهي كذلك في حاضنة الاصطلاح ، ويبدو الاختلاف جيلاً بعد جيل حتى الآن على دلالتها أو دلالاتها ووظائفها . فقد تضمنت علوم الأدب عند السلف : اللغة والصرف والاشتقاق والنحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية والخط والإنشاء !!

ولم يختلف الأمر كثيراً عند الخلف ، فما زال الاشتباك متصلاً حتى الآن بين علوم اللغة والدين والأدب ، وأقسام اللغة العربية في كليات الآداب في الوطن العربي معنية بمفردات هذه العلوم ، وقد أضيف إليها الاغتناء بلغة أجنبية غربية أو شرقية مثل الفارسية والعبرية والإنجليزية والفرنسية ، فضلاً عن دروس الفلسفة ، ولا نجد في

(10) السيوطي . جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين ت 911 هـ . تاريخ الخلفاء ص 143 . تح قاسم الرفاعي ومحمد العثماني طب دار الأرقم بن الأرقم . بيروت (د : ت) .

رؤيتنا للأدب غضاضة في ذلك .. فالأديب معنيّ أكثر من سواه بالمفردات التي أشرنا إليها ، لأنها تخدم توجهه الأدبي وتعمّق تجربته ، وتصقل موهبته ، بيد أن هذه العلوم مساعدة ، وليست أدباً بأي حال من الأحوال أما الأدب الخالص هو المعاني الجميلة المؤثرة في عواطف المتلقي وذائقته ، مصاغة بأسلوب متميّز بجاذبيته ورقيّه .

وقولنا : المعاني الجميلة لا ينصرف إلى الفهم السائد للجمال .. فقد يجد المتلقي النص الأدبي ذا معاني جميلة ، وهو يتحدث عن الدمار في هيروشيما ، والفداء في فلسطين والخيبة بالحكام .. المعاني الجميلة ليست وقفاً على الفتاة الجميلة والبحر والسرور .. والجمال الأدبي قد يخرج من الشيء إلى طريقة النظر إليه وأسلوب تناوله ، جمال الأدب ليس في موضوعه فقط ، ولا في أسلوبه فقط وإنما هو في الابتكار والجدة والمكابدة بما يعزّز حضور النص في وجداننا ، ويعمّق تمسكنا بالحياة وقيمها النبيلة المغيبة ، ويبّعد رؤيتنا للمستقبل دون أن يحبب إلينا العمى والتطرّف والابتذال ..

وإذا كنا قد قدّمنا احترازاتنا ونحن نجتهد في تظهير دلالات الأدب ، فلا مندوحة من التشديد على (مكوّنات الأديب) وهي :

أ ـ الموهبة الواضحة المتكاملة ؛ فقد يخفق الأديب حين يعاني نقصاً في موهبته واستعداده ، والموهبة لا تعني الامتداد على كل فنون الأدب وأجناسه ؛ فقد تكون الموهبة مناسبة للشعر ، أو الرواية ، أو المسرح ، أو الفن التشكيلي . وليس بالضرورة أن تمنح الموهبة الشعرية صاحبها القدرة على كتابة المسرح أو القصة فقد يكون مناسباً أن يعرف الموهوب جنس موهبته ، يقول الدكتور عبد العزيز المقالح : « الموهبة حقيقة ثابتة ، وهي كالذكاء تماماً قيمة نسبية يتفاوت حظ الناس منها . والشعراء والفنانون يختلف الشاعر عن الشاعر والفنان عن الفنان في مقدار النصيب أ و الكم الذي ناله منها »[11] .

(11) المقالح . د. عبد العزيز . البدايات الجنوبية ـ قراءة في كتابات الشعراء اليمنيين الشبان ص 10 طب دار الحداثة ـ بيروت 1986 .

ب ـ سعة الخيال ، وحساسية التعامل مع المقروء والملفوظ والقدرة على الاستشراف وتجاوز المألوف والسائد واليقين بأن عظمة الأديب مقترنة بنجاحه في التعامل مع ثنائية (تعادلية) المجاز/الواقع ..

جـ ـ التجربة : كل تفاصيل الحياة قادرة على إغناء تجربة الأديب حين يتعامل معها ، بعيون طفل ، وقلب أمير وروح ربّان كل ما تراه العين وما تسمعه الأذن بكر كما قال الشاعر الحداثوي المصري أحمد عبد المعطي حجازي : (بكر كأن الله منذ هنيهة خلق الحياة) . السفر تجربة ، الإحساس بالغربة ، الحب ، المقت ، هتك السر ، القراءة ، الحلم ، التنافس ، الجرح .

« طوبى لمن حل في التجربة ، ولن يكون بمقدور الأديب الذي ينتج نصوصه على مكتب أنيق في غرفة مثقلة بالستائر المذهبة .. خلف بابها سكرتيرة تفكر نيابة عنه .. لن يكون بمقدوره كتابة شيء ذي قيمة .. الأدب اشتباك مع الحياة ورموزها . مكابدة صادقة ، كل ما تراه ـ حتى المألوف ـ إنما هو جديد بانتظارك (فأنت لا تنزل النهر مرتين) .

د ـ الثقافة الموسوعية الشاملة ، والثقافة الأدبية الخاصة فلم يعد الأدب شفاهياً ، أو مكتفياً بالفطرة والموهبة . فنحن في زمن بات فيه العالم قرية كبيرة ، وما عاد الأمي هو الذي يجهل القراءة والكتابة وإنما الأمي هو الذي يجهل استعمال (الكمبيوتر) واستثمار (الأنترنيت) ، الأمي هو المكتفي بلغته الجاهل للغات الأخرى وآدابها .. ولن نغفل ونحن نميز أهمية الثقافة وخطورتها في أدب الأديب عن القول بضرورة الموازنة الواعية بين عدد من محاور الثقافة مثل التراث والمعاصرة والمحلي والعربي والعالمي .. دون أن يأخذنا الهوس إلى تسليط محور على آخر .. فلكل محور خطورته وفعله .

هـ ـ حب الحياة ، والرهان على انتصار قوى الخير والتقدم على أشباح الموت ورموزه من قهر وإرهاب وفردانية ووهم امتلاك الحقيقة . فالحقيقة مثل الحياة والهواء

والماء والحرية ، إنها ملك الجميع ، ولا يحق لمعتوه أو متغطرس أو مريض عظمة ، أو ربيب سلطة ، أو أسير وهم الاستئثار بالحقيقة ، وحرمان الآخرين منها .. فخذ واعط ، فلست وحدك الفحل الوحيد ، والذكي الوحيد ، والبريء الوحيد ، والشهيد الوحيد .

و ـ استحضار حق المتلقي في النص ؛ لأنه الطرف المهم في عملية التلقي والتوصيل ، ومن المقرف حقاً القول : إن الأديب يكتب لنفسه ، أو يكتب لزمان آخر غير زمان الرعاع والغوغاء (كذا) . إن المبدع زعيم الذوق بين الجماعة ، والمستشرف برؤيته الصافية آفاق الزمن الأخضر ، والأدب الذي يحتقر الناس (مهما كانوا) هو أدب الصفوة التي تستعلي وتتورم ، وتستحي من أهلها .. وهذه ليست دعوة لذوبان الأديب في الواقع ، فعظمة النص في خصوصيته وريادته وقيادته وذيادته ، إن أعظم النصوص تأثيراً في المتلقين هي الصادقة الذكية الجميلة .

10 ـ الدُّربة .. وهي الأم التي تمنح الأديب قدرة في الكتابة ، وفهم طرائق الآخرين قدامى ومعاصرين ، محليين وأغراباً في الكتابة وتنمية آليات النص ، والدربة هي التدريب على إنتاج النص وينبغي للأديب ملاحظة خطه البياني في تخليق النص ، والاستئناس بآراء المتخصصين وذوي الشأن في الأدب دون أن يوقعه ذلك في إلغاء كينونته الأدبية ، وللأديب التعامل المستمر مع كتب اللغة والنقد والجمال والإيصال لمعرفة وسائل التعبير ، ولا بأس بقراءة سير العظماء والناجحين من الأدباء لمعرفة المؤثرات التي أسهمت في نبوغهم .. فإذا وجد الأديب ناحية في أدبه تجتذب المتلقين فليركز عليها ويعمل على تطويرها وإن وجد جانباً لم يتعاطف معه ذوو الحساسية الجمالية وكم الناس فلا ينبغي أن تأخذنا العزة بالإثم .. فنحن نتمّرن لكي نرضي طموح النص وطموحنا والمتلقين معاً ..

11 ـ الأسلوب : وهو الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الموهبة والخيال والتجربة

والثقافة والحياة والدربة .. إنه اللغة الوحيدة التي يتكلمها النص ، ويفهمها المتلقي ، على أن يمتاز أسلوب الأديب بخصوصيته ، والحذر كل الحذر من استعارة أساليب الآخرين أو التمويه لإخفاء سرقتها ، فعظمة النص أنه يرينا خصوصيته ، فكأننا نقرأ الأشياء التي نعرفها للمرة الأولى ، كل أديب لن يكون أديباً ناجحاً مالم يعثر على سر الكتابة ، والمفتاح الذي يفك مغالق الجمال . ولن يكون الكلام أدباً مالم يتوفر على أسباب الأدبية ، ولن تكون الأدبية سيدة العملية دون أن تتماهى مع الشعرية !!

الأدبية والشعرية :

أ ـ الأدبية مصطلح جديد وفق حدوده التي وصلتنا ، ويعني الصفة التي يكتسبها النص المتحول (كسر الواو المشددة) من حالة السكون واللا أدب إلى الأدب ؛ « لأن الأدبية إذا توافرت في نص ما ، اغتدى أدبياً »(12) .

ب ـ الشعرية : هي بؤرة الجمال في النص أو المشهد أو المسمع أو الملمس ، فالشعرية هي (السحر) الذي يحيل الكلام الاعتيادي استثنائياً ، والهم المألوف جديداً ، فهي توحّد بيننا وبين النص ، فكأننا ونحن نقرأ النص منتجوه ، ونحن نشهد المنظر صانعوه ، وكل شعر محروم من الشعرية افتقد سيماء جنسه ، وحلّ في النثرية ، وإن قالت قشرته أو بنيته الخارجية غير ذلك ، والمهم جداً في هذا الميدان هو أن الشعرية غير مقصورة على ظاهرة واحدة أو سمة واحدة ، وإنما هي كل الظواهر ومزاج السمات ، وعليه فالشعرية ليست قرينة الشعر حسب ، فربما امتدت إلى اللوحة والقطعة الموسيقية وعروض الأزياء ، والعمارة ، ونبرة الصوت ، وملامح الوجه ، وحركة اليد .. إنها بؤرة الجمال في الموضوع .. رب شعر بلا شعرية ، مثل ألفية ابن مالك أو أي قصيدة

---

(12) مرتاض . د . عبد الملك . شعرية القصيدة قصيدة القراءة ص 18 طب دار المنتخب العربي . بيروت 1994 .

وهبة . مجدي وكامل المهندس . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب قارن : literary ص 22 طب مكتبة لبنان 1984 .

حـذقت النظم ، ولم تحـذق الجمال .. ورب شعريـة بـلا شعر .. مثـل اللـوحـة الجميلـة والموسيقى العذبة والعمارة المدهشة ... إلخ .

ثانياً : عربي وأعرابي

يعاني دارس الأدب والحضارة قبل الإسلام معضلة كبرى سببها الخلط المفهومي بين دلالتي : عربي/أعرابي ، الأمر الذي أوقع كثيراً من الـدارسين في أوهـام علميـة موجعـة ، فتـارة يلصق الـدارسـون صفـات الأعرابي على العربي وأخرى يفعلـون العكس ! وفي الحالين ثمة نأي عن المنطق العلمي ، ولعلنا نستحضر آراء ابن خلدون (ت 808 هـ) في (مقدمته) الشهيرة ، تلك الآراء الحادة التي ألصقت بالعرب صفات الأعراب ، وأقامت عليهم عدداً من الـدعـاوى البـاطلـة ! فـابن خلـدون يتّهم العرب بـالتوحش وكراهيـة العمران ، والاستئثار بالسلطـة ، وهو يقصـد الأعراب[13] ومثل هـذا الوهم المعيب وقع فيـه طـه حسين رحمـه الله فقـد استكثر على العرب أنهم ذوو لغـة نـاضجـة ، وقصـائـد مكتملة ، وإيمان بالله (وهم البـدو الأميون) ! وهو الآخر يعني بـاتهـامـاتـه الأعراب ، ولعل هذا الخلط بين جلافة الأعراب وحصافة العرب هو واحد من الأسباب المهمـة التي حدت بطه حسين وهو العـالم المجتهـد إلى العصبيـة العميـاء ، وتبني أطروحـات أستـاذه صـاموئيـل مـارجليـوت المبنيـة على الشـك بـالشعر الجـاهلي ، وإلغـاء قيمتـه الجماليـة والمعرفيـة[14] ومثل هـذا الخلـط (المريب) وقـع فيـه أيضـاً فيليب حتي حين قسـا على العرب ورسم لهم صورة مقرفة ، وفي لا وعيه (وربمـا وعيـه) صورة الأعراب[15] ، وقـد

---

(13) ابن خلدون . أبو زيد عبـد الرحمن بن محمـد ت 808 . مقـدمـة ابن خلـدون ص 149 الفصل 26 طب مؤسسة الأعلمي ـ بيروت .

(14) ابن علي . حسن . الشاعر العراقي عبد الإله الصائغ يقول : طه حسين اعتسف الشعر الجاهلي دون وعي ـ جريدة الأخبـار التونسيـة في 1992/1/11 . وانظر : حسين . د . طـه . في الشعر الجـاهلي ص 19 . طب دار المعارف . سوسة تونس 1997 (مصورة عن دار الكتب المصرية) .

(15) حتي . فيليب . العرب تـاريـخ مـوجـز ص 16ـ22 . طب دار العلم للمـلايين . بيروت 1946 وانظر موقفنا من آرائه المفصلة ص 44 . كتابنا الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية .

تنبه أستاذنا الدكتور يحي الجبوري إلى الضرر الفادح الذي يلحق المروءة العلمية حين يخلط الآخرون عن عمد ، أو دون عمد ، عن سوء نيّة أو طيبها بين العرب والأعراب[16] وخلاصة القول : إن الجاهليين كانوا فئتين ، الأولى هم أهل المدن (المدريون) ، والأخرى هم أهل الصحراء (الوبريون) أما أهل الريف فهم (البرزخ) بين الحاضرة والبادية ، إلا أنهم أقرب إلى المدن ، وكان البدو يعيبون الحضر بأنهم يزرعون ويأكلون البقول ! والحضر يعيبون البدو بأنهم يرعون الغيث ، ويأكلون الضب واليربوع !! والذي لا مراء فيه هو هذه الوشائج التي تصل بين العرب والأعراب فليس هناك قطيعة في الأرحام والمجاورة وإنما القطيعة أو شبهها في الأخلاق والتقاليد ، المدن كانت مراكز تجارية ودينية وتعليمية وترفيهية ، وهم (أهل المدن) ميّالون للنظام والطاعة لأولي الأمر ، فصنع الاستقرار حضارات عملاقة في جنوب الجزيرة تمركزت حول اليمن ووسط الجزيرة .. دار الندوة ، وكندة وشمالها ، دومة الجندل ، والمناذرة ، والغساسنة .. وقد عرفت القصور العجائبية بطوابقها الكثيرة ، وعرفت السدود ، والمسالح (مقرات الجيش) والديماسات (أبنية تحت الأرض .. تستعمل مخابئ وسجوناً) كما عرفت الأسواق المحصنة المتطوّرة وطرق المواصلات المحميّة والبريد السريع والنقود ، ولنا أن نتذكر مصانع إنتاج الخمور في منفوحة وعانة وإذرعات وإنتاج السلاح في صنعاء وردينة والخط ، وإنتاج الحرير في الموصل ودمشق (موسوليتي ، دمقس) والسفن التي أوصلها ابن يامن أو (بنيامين) إلى حالة من التطور .. فضلاً عن الحمامات البخارية العامة ، وحوانيت اللهو ، ونوادي المتعة التي تستضيف الغواني والمغنيات من كابل وأنقره والحبشة .. قال الأعشى :

ولقد شربت الراح تركض حولنا ترك وكابل

---

(16) الجبوري . د . يحي . الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 17-25 . طبع جامعة قاريونس بنغازي ليبيا . الطبعة السادسة 1993 .

لم يكن العرب (أهل المدن) متخلفين أو متوحشين ، بل كانوا أصحاب حضارة انعكست على حياتهم اليومية ، وبخاصة الجانب الإداري الذي ينظّم حياة المجتمع و (كان عرب شبه الجزيرة العربية ينقسمون إلى فريقين : اليمنيون أو القحطانيون أو اليقطانيون من جانب والعدنانيون أو النزاريون أو المصريون أو المعديون من جانب آخر .. وبين هذين الفريقين يدور التاريخ العربي والإسلامي في صراع مستمر ، وتنافس متصل ، وتنازع متبادل . وكان القحطانيون أو اليمنيون يقيمون أصلاً في الجنوب في أرض اليمن أكثر مناطق شبه الجزيرة خصوبة وخضرة وازدهاراً .. وفيها أقيمت عدة ممالك منها مملكة معين ومملكة حضرموت التي كانت عاصمتها مدينة سبأ الشهيرة .. وكان العدنانيون المكيون يقيمون حول مكة حتى اجتمع الأمر إلى قبيلة قريش بزعامة قصي بن كلاب ، فاستقرت في مكة ذاتها ، وأقامت نظاماً سياسياً سيلي بيانه وعندما انهار سد مأرب بعد سيل العرم من (447ـ450 م) ثم (532 م) خربت مملكة سبأ نسبة إلى عاصمتها فتركها كثير من القحطانيين وهاجروا إلى الشمال ، فمكثت قبيلة منهم تدعى بني خزاعة في مكة فترة ثم تركتها واستقر بعض بني قحطان في المدينة (يثرب) وانتهوا إلى قبيلتي الأوس والخزرج ، كما ذهب بعضهم إلى الشمال الأقصى في سورية والبعض الآخر إلى الشمال الأردني في بلاد العرب ، وفي هذه المنطقة الأخيرة تكونت إمارة ومملكة الغساسنة التي كانت توالي وتخضع للروم البيزنطيين ـ الإمبراطورية الرومانية الشرقية ـ، وكان البيزنطيون يركنون إلى هذه الإمارة لتحول بينهم وبين غارات البدو (الأعراب) بينما كان الفرس يعولون في الوقت نفسه على مملكة الحيرة ، وهذه تقع في منطقة العراق الحالية فتقف مثل سد منيع بين الإمبراطورية الفارسية والبدو الأعراب ، وعلى هذا الأساس فقد تم تقييمان لعرب شبه الجزيرة ، ففي التقييم الأول : عرب عاربة وهي قبائل عاد وثمود ، وعرب متعربة وهم اليمنيون القحطانيون ويعدون عرباً من الدرجة الثانية ، والعرب العدنانيون يعتبرون عرباً من الدرجة الثالثة !! وكان العرب يميزون بعضهم عن بعض فيضع عرب اليمن

القحطانيون عمائم صفراء ويرفعون رايات صفر ، بينما يضع عرب عدنان المكيون عمائم حمر ويرفعون رايات حمر ، وكان كل فريق يرفع راياته أبداً حين تكون الحروب مستعرة ، ومنذ قصي بن كلاب استقرت قريش في مكة ، وكونت عصبة ، وكانت من قبل تدعى قبيلة النضر بن كنانة ، وقد أنشأ قصي هذا داراً سميت دار الندوة كانت مركز النشاط السياسي والاجتماعي والقبلي ، وصار لقريش نظام سياسي وإداري ينقسم إلى الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، والقيادة ، والمشورة ، والأشناق ، والقبة ، والسفارة ، والأيسار ، والأزلام ، والحكومة .

وكانت قبيلة قريش قد انقسمت إلى فرعين بطنين كبيرين وثمانية فروع (بطون) أخرى أقل شأناً والفرعان الكبيران هما : بنو هاشم وبنو أمية ـ عبد شمس ـ .

أما الفروع الأخرى .. فهي نوفل ، وعبد الدار ، وأسد ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم .

ونظراً للتنافس الشديد على الرياسة أو الملك أو الإمارة بين الفرعين الكبيرين بني هاشم وبني أمية وعدم قدرة أحدهما على السيطرة على الآخر وعلى من حواليه ليصبح هو صاحب السيادة والملك .. لذلك فقد قسمت قريش نظامها السياسي والإداري بين جميع فروعها على أساس : أن من تتاح له الفرصة في مستقبل الأيام من أحد الفرعين ليسود الكل ويجمع الكل تحت زعامته .

والحجابة : هي سدانة البيت الحرام ، أي ولاية مفتاح بيت الله (الكعبة) ، وكانت لبني عبد الدار وانتهت في عهد النبي ﷺ إلى عثمان بن طلحة .

والسقاية : هي سقي الحجاج كلهم بالماء العذب ونثر التمر والزبيب والشراب لهم وكانت لبني هاشم .

والرفادة : هي إطعام الطعام لسائر الحجاج إذ كانت تمدّ لهم الأسمطة في أيام الحج ، وكانت لبني نوفل .

والنـدوة : هي الإشراف على دار المشورة التي تجتمع فيهـا قريش وغيرهم من العرب من أهل الرياسة ممن بلغ من العمر أربعين عاماً ، ولم يكن يعقـد نكاح زواج لقرشي إلا فيها ، وكانت الندوة في بني عبـد الـدار ، والأعنـة : خيول الحرب وكانت لبني مخزوم ، ومنهم خالد بن الوليد ، والسفارة : هي الإصلاح بين النـاس والتوسـط بين القبـائل أو بين البطون وكانت في بني عدي ، ومنهم عمر بن الخطـاب (رضي الله عنـه) والأيسـار والأزلام : وهي ضرب الميسر وإخراج الأزلام ، وكانت لبني جمح .

والحكومة : هي القضـاء بين النـاس والفصل في الخصومـات بـالاحتكام والإشراف على الأموال المحجرة (الموقوفة على المعبودات) وكانت لبني سهم .

واللـواء : كان رايـة معقـودة على رمـح ينصب عـلامــة على اجتماع الجيش لحرب الأعداء وكان اسم الراية (العقاب) وكان اللواء لبني أمية .

والقيادة : هي إمارة الجيش ورياسة الحرب ، وكانت تعطى لمن ينـدب لـذلـك ، وإلا فلبني أمية حيث كان اللواء . والمشورة : هي جمع الشورى ، وكانت لبني أسد .

والإشناق : هي فرض الـديـات والمغـارم وكانت لبني تميم ومنهم أبو بكر الصـديق (رضي الله عنـه) . والقبـة : وهي مـا تودع فيـه تجهيزات الجيش ، وهـذا التوزيـع في الاختصاصات بين فروع قبيلة قريش كان في حقيقتـه للسلطـات بينهم ، فـالعرب قـد عرفوا وحققوا قدراً من التنظيم الإداري في ذلك العهد الموغل بالقدم) إ . هـ[17] .

والعرب المهاجرون بعد خراب سد مأرب وتبدّل المناخ وانكفاء الطبيعـة وجفـاف الجنائن المنتشرة في شبه الجزيرة فقد أسسوا حضارات مهمـة ، وحققوا معجزات عمرانيـة من نحو الجنائن المعلقة التي ابتناها (نبوخذ نصر) لزوجه الكرديـة الحسنـاء (أمويت)

---

(17) الشرجبي : عبدة سلام . من شريط ذكريات التـاريخ العربي ص 3 جريـدة الجمهوريـة اليمنيـة صفحـة (كتـابـات) . العـدد 10736 الخميس 13 رمضـان 1419 هـ الموافـق 1998/12/31 م مـلاحظـة كتب الأستاذ الشرجبي هذه الفقرة المطوّلة تحية لكتاب الأستاذ محمد سعيد العشماوي .

ابنة ملك دولة (ميديا) المحصورة بين الشمال الغربي لفارس والشمال الشرقي للعراق ، ومن نحو تسقيف نهر الفرات بالخشب والقرميد عهد زنوبيا ، ووضع أرقام تشبه الطلاسم لفتح أبواب حصن الحضر ، بحيث تعجز أقوى العقول والأذرع عن فتحها ، وبناء قصر الخورنق ، بطوابقه الكثيرة على صخرة لا يزيد ارتفاعها ومحيطها عن ثلاثة أشبار !!

أما الأعراب .. فهم عالم مختلف يأنسون للصحراء ويستوحشون من المدينة قارن الشنفرى :

أقيموا بني أميّ صدور مطيّكم ... فإني إلى قوم سواكم لأميل
ولي دونكم أهلون سيدٌ عملّس ... وأرقط ذهلول وعرفاء جيأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائع ... لديهم ولا الجاني بما جرّ يُسأل

وحياتهم ليست مرتبة أو منظمة فهم إما غاز ، وإما غزي وكانوا إلى هذا يغيرون على المدن الآمنة ، وكأنّ مالها وحلالها ونساءها ملك لمن يستولي عليه بأي طريقة ، وقد مرَّ بنا أن دولة فارس اتقت شر أعراب وسط الجزيرة وجنوبها بعرب المناذرة ، ودولة الروم اتقت شر أعراب شمال الجزيرة بعرب الغساسنة .. وحين اكتشف كسرى (أن العرق دساس) جعل العربي ينتصر لأخيه الأعرابي في الشدائد والضنك وبخاصة إذا جاء ذلك من الأجنبي أمر بسجن النعمان ثم قتله ، ومثل هذا حدث لآل جفنة مع الروم ! فالتمييز بين مفهومي (عربي ، أعرابي) أمر يدركه الجاهلي تماماً !! وحين سمع الشاعر الفارس عامر بن الطفيل سيد بني عامر بنبأ انتشار الإسلام بين العرب والأعراب قابل النبي (ﷺ) ليساومه على اقتسام الملك مقابل دخوله وبني عامر في الإسلام ، ومما قاله عامر للنبي ﷺ : أبايعك على أن تجعل لي حكم الوبر ، وأجعل لك حكم المدر فغضب النبي الأمين ﷺ وطرده شرّ طردة ، وقال : « اللهم اكفني شر عامر واهدِ بني عامر » !!

ولنلاحظ أيضاً (إيثار) العربي عروة بن الورد :

أقسم جسمي في جســـوم كثيرة وأحسـو قراح المـاء والمـاء بـارد

قبالة (أثرة) الأعرابي عمرو بن كلثوم :

ونشرب إن وردنــا المــاء صفـوا ويشرب غيرنــا كــدراً وطينــا

فالخلط بين عرب وأعراب كان وراء كثير من الأوهام العلمية والقومية والاجتماعية التي أساءت إلى نقاء الأمة العربية وأساءت إلى حركة المجتمع ، وكان الخلط مسوغاً لكثير من المجازر (التـاريخيـة الكبرى) التي ذهب ضحيتهـا المتمـدينون الـذين يرفضون عودة التاريخ إلى وراء ، وكان هذا الخلط وراء عمليات سرقة السلطة من الجماهير ، فـالأعرابي يطلب ثأراً في لا وعيه من العربي منذ الجاهليـة الأولى وحتى جـاهليتنـا الثـانيـة هو لن يغفر للعربي استقراره وأمنه ويسره واحتقاره له حين يزور المدينـة ! ولقـد ميّز القرآن الكريم العرب من الأعراب ، وقـد خـاطب العرب بقـولـه تعـالى : ﴿ كنتم خير أمـة أُخرجت للنّاس تـأمرونَ بـالمعروفِ وتنهَـونَ عنِ المنكرِ ﴾ [آل عمران : 115/3] ثم قـارن ﴿ وهذا لسانٌ عربيٌ مبينٌ ﴾ [النحل : 103/16] .

و ﴿ أنـزلنـاهُ قُرآنـاً عربيـاً ﴾ [طـه : 113/20] و﴿ قرآنـاً عربيـاً غيرَ ذي عِـوَجٍ ﴾ [الزمر : 28/39] .

أمـا في الجـانب الآخر فـإن القرآن الكريم ينص على أن : ﴿ الأعرابُ أشَـدُّ كفراً ونفـاقـاً وأجـدرُ ألاّ يعلموا حـدودَ مـا أنزلَ اللهُ على رسولـه واللهُ عليمٌ حكيمٌ ﴾ [التـوبـة : 97/9] .

و ﴿ قالتِ الأعرابُ آمنـا قل لم تؤمنوا ولكن قولُوا أسلمنـا ولمّـا يـدخلِ الإيمـانُ في قلوبكم ﴾ [الحجرات : 14/49] .

و ﴿ منَ الأعرابِ من يتخذ ما ينفق مَغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرةُ السَّوْء واللهُ سميعٌ عليمٌ ﴾ [التوبة : 98/9] .

إن (عرب ، أعراب) مفردتان ثمّرهما الاصطلاح كما مرّ بنا ، وبعدهما اللغوي لا يمد الدارس بالمعلومات التي تضيء عتمات السؤال ، فالعرب (ربما) وردتنا منذ القديم محورة عن (آربا) النبطية أو (عروبتا) السريانية والألف بمكان (الـ) التعريف في اللغة العربية ، ويرى العلامة طه باقر أن (عرب) أو (عربو) مفردتان مترادفتان تشيران إلى العرب قبل ميلاد المسيح بعشرات القرون[18] وقد وردت حالات محيّرة في نقوش مسندية قديمة جداً اكتشفت أخيراً خلطت عرب بـ أعراب (عبرن ، أعربن)[18] ، وأول ذكر لكلمة عرب بمعنار القار جاء في النقش (جام/560) والعادة في ذلك أن النقوش المسندية القديمة تميل إلى إطلاق عرب محل أعراب أو العكس ![19] .

ثالثاً : جاهلي قبل إسلامي

تثير مادة (جهل) في المعجمات العربية معضلات مختلفة ! فهي مشابة بعدد من المعاني التي لا يتضح معنى بعضها بسوى الاقتران ، واستقرار المفردة داخل الجملة فضلاً عن التجريد أو الزيادة ، وقولنا : جهلت (كسر الهاء) القِدْرُ جَهْلاً (تسكين الهاء) يعني اشتد غليانها ، والمعنى نقيض تحلّمت ! وجهلتِ الصحراءُ صارت متشابهة الأنحاء لا علامة فيها يستدل بها المسافر ؛ وجهلت الريح الغصن حرّكته فاضطرب ، والجاهل هو الأسد والجيهل خشبة يحرّك بها الجمر ، والصخرة العظيمة ، والمجهال من النوق : التي تخفّ في سيرها ؛ والمجهولة من النوق التي لا يدركها الحمل .. (لسان العرب ـ جهل)

---

(18) باقر . طه . مقدمة في أدب العراق القديم 38 طب دار الحرية بغداد 1976 .

(19) الإرياني ، مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات . نقش 12 فقرة 1 + 2 ص 102 ثم 104 ثم 106 طب مركز الدراسات والبحوث اليمني 1990 .

(19) المصدر نفسه ص 107 .

ويتهيأ لنا أن دلالة الجهل التي تعني السفه والعصبية والحمق والغضب السريع وما يدور في أنساقها إنما هي مضمون مستفاد أو مستعار من معنى الوهلة الأولى إلى معنى الوهلة الثانية ، جاء في الذكر الحكيم :

أ ـ ﴿ قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ [البقرة : 67/2] .

ب ـ ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات : 6/49] .

جـ ـ ﴿ خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : 199/7] .

وقرّ في الذاكرة الاصطلاحية أن (الجاهلية) مقتصرة زمنياً على الوقت الذي سبق الإسلام ، وأخلاقياً هي القيم التي سادت عهد ذاك ، وغالباً ما يكون المقصود بالقيم هو السفه والعصبية القبلية ، والحمق ، وسرعة الغضب ، والمجون ، والوثنية ، جاء في الذكر العزيز :

أ ـ ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ [الأحزاب : 33/33] .

ب ـ ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة : 50/5] .

جـ ـ ﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ [الفتح : 26/48] .

ثم تورد الأحاديث النبوية الشريفة مادة (جهل) وفق مستوييها الأخلاقي والزمني من نحو : « إنكم لتجهلون وتبخلون وتجبنون » وفي حديث الإفك « ولكن اجتهلته الحمية » . وفي حديث ابن عباس « من استجهل مؤمناً فعليه إثمه »[20] .

(20) ابن الأثير . مجد الدين المبارك بن محمد ت 606 هـ . النهاية في غريب الحديث والأثر 322/1 . تح طاهر الزاوي وصاحبه . طب إحياء الكتب العربية مصر 1963 .

وتذكر الأخبار أن أعرابياً استفزّ أبا ذر (رضي الله عنه) وأمعن في استفزازه ، فعيّره أبو ذر بأمّه ! وحين بلغ النبي ﷺ ذلك قال لأبي ذر معاتباً : « إنك امرؤ فيك جاهلية »[21] .

والنبي ﷺ يذكر في أحاديثه الشريفة لفظة الجاهلية مقترنة بأزمان العرب قبل الإسلام وطبائعهم وتقاليدهم ! قارن على سبيل المثال باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية[22] .

أما في الشعر الجاهلي فقد وردت (جهل) كثيراً وفق المستوى اللغوي :

(الأعشى) :

وقورٌ إذا ما الجهل أعجب أهله ومن خير أخلاق الرجال وقورها

(عنترة) :

هلاّ سألت الخيل يا ابنةَ مالك إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي[23]

والجاهلية مصطلح إسلامي لم يتداوله الجاهليون إطلاقاً !! بينا وردت (جاهلية) في شعر بعض المخضرمين وفق دلالتها الاصطلاحية بتأثيرات إسلامية ، مثال ذلك ما ورد في شعر تميم بن مقبل بعد أن فُرّق بينه وبين زوج أبيه في الإسلام وكان قد تزوجها على شعيرة جاهلية !!

هل عاشق نال من دهماء حاجته في الجاهلية قبل الدين مرجوم

(21) نفسه 192/1 .

(22) مسلم . صحيح مسلم 99/1 ثم القسامة في الجاهلية 54/5 (م . س) وانظر النهاية 322/1 (م . س) . والأعشى . ديوانه ق 82 ب 15 .

(23) ابن شداد . عنترة . شرح ديوانه ق 1 . ب 29 . تح سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب طب دار مكتبة الحياة ـ بيروت .

(24) ابن مقبل . تميم . ديوانه ق 35 ب 3 ص 267 ، تح عزة حسن . طب إحياء التراث . دمشق 1962 .

وقد لاحظنا في دراسات أقمناها قبلاً أن وعي القبسلاميين بالزمن كان على درجة من النضج افتقدتها معظم شعوب ذلك الزمان ، وكانت للعرب خبرة في الأنواء وتعبير الرؤيا والبيطرة والقيافة والتجارة والتاريخ والأنساب[25] وربما أوهم مصطلح (جاهلية) عدداً من الباحثين فظنوا أن العرب يعمهون في دامس من ظلام الجهل بكل أسباب المعرفة[26] بيد أن النظر الموضوعي أسهم في إزالة الغبار الذي غلّف هذا المصطلح[27] فتوصل (فيليب حتي) إلى أن مفهوم الجاهلية منصرف إلى الزمن الذي عاشته العرب منذ العصور القديمة حتى مبعث النبي ﷺ[28] والمصطلح كما أسسنا مصطلح إسلامي يحيل إلى أن العرب لم تكن ناعمة بزمن الإسلام وإشراقات تعاليمه وأنهم انحدروا إلى هوّة الشرك فضلاً عن السفه والحمق والعصبية[29] وليس هناك ما يسوّغ انصراف هذا المصطلح إلى توحّش العرب وجهلهم بعلوم زمانهم ! وكان الرواة علماء زمانهم حتى أن راوية الأعشى كان يحاور صاحبه في جماليات شعره ، وهو (الراوية) إلى هذا عالم بالإبل وطبّها خبير بأيام العرب والشعر[30] .

وكان الأعشى خبيراً بالبلدان التي زارها (فارس ، الروم ، إفريقية ، القدس) ضليعاً بتاريخ الأمم القديمة ! وفي شعره إشارات إلى (المهارق ، الزبر ، الكتابة ،

---

(25) الصائغ . د . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص 15 . انظر هوامش الصفحة (م . س) .

(26) نفسه . انظر هوامش ص 13 .

(27) علي . د . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 37/8 . طب دار العلم للملايين بيروت 1971 .

(28) حتّي . فيليب . تاريخ العرب (المطوّل 17/1) . طب دار الكشاف . بيروت 1965 .

(29) الآلوسي . محمود شكري بن عبد الله ت 1342 هـ . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب 15/1 ، مط الرحمانية مصر 1924 .

(30) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 181/1 (م . س) وانظر . الأسد . ناصر الدين . مصادر الأدب الجاهلي ص 240 ، دار الجيل ـ بيروت 1988 .

الأسطـار)[31] وذكر ابن حبيب أن الأعشى كان يقرأ التوراة والإنجيل وأنه علم بأمر الدين الجديد من خلالها[32] .. قارن إشارات الأعشى :

أ- ربي كريم لا يكـــدّر نعمـــة   وإذا ينـاشـد بـالمهـارق أنشـدا

ب- أو لن تري في الــــزبربيـ   ـنـــة بحسن كتـــابهـــا

جـ- لميثـــاء دار عفـــا رسمهـــا   فمـــا إن تبيّن أسطـــارهـــا

د- يـــا من يرى ريـــان أمـ   ـسى خـاويـاً خربـاً كعـابـه

أمسى الثعـــالب أهلـــه   بعـــد الـــذين همُ مـــآبـــه

بكرت عليـــــه الفرس بعـ   ـــد الحبش حتى هــدّ بـــابـــه

هـ- شبـــاب وشيب وافتقـــار وثروة   فللـــه هـــذا الـــدهر كيف ترددا

نبي يرى مـــــا لا ترون وذكره   أغـــار لعمري في البـلاد وأنجـــدا

إذا أنت لم ترحـل بـــزاد من التقى   ولاقيت بعـد المـوت من قـد تـزودا

نـــدمتَ على أن لا تكـون كمثلـــه   وأنـك لم ترصـد لمـــا كان أرصـدا

والكتابـة والقراءة والتـأمل في الوجود مـدخل رئيس للمعرفـة ، ولم يكن الأعشى مثالاً وحيداً في ذلك .. فهناك الكثير غيره قارن معاوية بن مالك (أصمعية رقم 76) :

من الأجـزاع أسفـل من نميـل   كما رجعت بـالقلم الكتـابـا

ثم قارن لبيد في معلقته وهو يشير إلى الوحي (الكتابة) :

فمـدافع الريـان عرّى رسمهـا   خلقاً كما ضمن الـوحي سلامهـا

وقد نجم الكثير من العرب الميالين إلى إحقاق الحق والوقوف بوجه الظلم ، ونُسب إلى النبي ﷺ قوله : « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام » .

(31) الصائغ . د . عبد الإله . الصورة الفنّية معياراً نقدياً ص 41 (م . س) .

(32) البغدادي . عبد القاهر بن عمر ت 1093 هـ . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب 177/1 . تح عبد السّلام محمد هارون . طبع دار الكتاب العربي . القاهرة 1967 .

وقد أورد ابن حبيب (ت 245 هـ) أسماء من حرّموا على أنفسهم شرب الخمرة ، واقتراف الفاحشة قبل الإسلام ، وبلغنا أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان يتحدّث في المسجد بأخبار الجاهلية ، وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت : « أنشدني قصيدة من شعر الجاهلية فإن الله تعالى قد وضع عني آثامها في شعرها وروايته » .

وقالت عائشة (رضي الله عنه) كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول (أبياتك) فأقول :

أرفع ضعيفك لا يحرْ بك ضعفه	يوماً فتدركه العواقب قد نمى
يجزيك أو يثني عليك وإن من	أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

ومرّ رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر (رضي الله عنه) برجل يقول في أزقة مكة :

يا أيها الرجل المحوّل رحله	هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبي ﷺ : « يا أبا بكر ! أهكذا قال الشاعر ؟ » قال : لا يا رسول الله ولكنه قال :

يا أيها الرجل المحوّل رحله	هلا سألت عن آل عبد مناف

فقال رسول الله ﷺ : « هكذا كنا نسمعها »[33] .

ويمكن رد التطرف ضد العرب قبل الإسلام ونعتهم بالتوحّش والجهل إلى عدد من الأسباب .

أولها : الخلط بين خصائص المجتمع العربي والمجتمع الأعرابي .

وثانيها : الحرص على بيان أثر الإسلام في المجتمع العربي ، وقد فسّر قتادة الآية

---

(33) الجرجاني . عبد القاهر ت 471 . دلائل الإعجاز 70 ـ 74 تح د . محمد رضوان الداية ود . فايز الداية طب مكتبة سعد الدين دمشق (طبعة ثانية 1987) .

الكريمة : ﴿ وكنتم على شَفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾ [آل عمران : 103/3] بقوله إن العربي قبل الإسلام كان (أذلَّ الناس ذلاً وأشقاهم عيشاً)[34] والسبب الآخر عنصري ، فالعناصر غير العربية التي أسلمت ولاقت عنتاً من بعض العرب (الذين يظنون أن الدين الإسلامي خاص بالعرب) حقدت على كل العرب ، وتطرفت في الكراهية فعميت عيونها عن مزايا العرب الخيّرة ، وأطلق الدارسون على أولئك أهل التسوية مرة والشعوبية أخرى[35] .

وينبغي التأكيد على أن كلامنا هذا ليس دفاعاً عن عقائد الجاهلية وقد محقها الإسلام ، ولا مصلحة لعربي مسلم أو أجنبي منصف من غسل سمعة العقائد الدينية لعرب الجاهلية ، فقد ثبت ضلالهم ومكرهم الذي حاق بهم ، وإنما كان منهجنا الإشارة إلى الجوانب الحضارية فحسب .

أما الجاهلية من الناحية الفنية فهي القواعد والأساليب التي أسسها النص الأدبي (الشعري والنثري) زمنذاك . وقد سميت هذه القواعد وتلك الأساليب (عمود الشعر) من جهة استقراء الشعر الجاهلي ! قال المرزوقي (ت 421 هـ) : « ... الواجب أن يتبيّن ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميّز تليد الصنعة من الطريف ، وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومراسم أقدام المزيفين على ما زيفوه ، ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلة الأتيّ السمح على الأبيّ الصعب . إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، والإصابة في الوصف ، ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على

---

(34) أمين . أحمد . ضحى الإسلام 17/1 وقد اعتمد أمين رأي قتادة وذهب مذهبه طب لجنة التأليف . القاهرة 1964 .

(35) السامرائي . د . عبد الله سلوم . الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية ص 47 وبعدها . طب دار الحرية بغداد 1980 .

تخير من لذيذ الوزن ، حتى لا منافرة بينهما ، فهـذه سبعـة أبواب هي عمود الشعر ولكل باب منها عيار)[36] .

أمـا اصطلاح قبـل الإسـلام (pre Islamic) فهـو اصطـلاح محـايـد لا يشير إلى موقف ممالئ أو معاد لذلـك العصر ؛ وإنمـا غـايـة مـا يحيلنـا إليـه هو الزمن الـذي سبق الإسلام بكل مـا فيـه ولـه وعليـه !! أمـا الفترة التي يتوفّر عليهـا المصطلح فهي موضـع خلاف أيضاً ، فمن قائل : إنها مئتا عام إلى قائل : إنها مئـة وخمسون عـامـاً قبل البعثـة النبوية وثمة من يستبدل ميقات البعثة بفتح مكة[37] ويرى الجاحـظ ت 255 أن الشعر الجاهلي حديث الميلاد صغير السن والفترة المهيئة للشعر الجاهلي هي خمسون ومئة عام ثم يحترز فيوصل الرقم إلى مئـة عـام فقـط[38] وممـا يحـزن البـاحث أن الـذاكرة التـاريخيـة والحضـاريـة لا تعي أكثر ممـا حـدده الجـاحـظ أو سواه ! فـأين اختفى الأدب الجـاهلي المكتوب منذ عشرات القرون ! لقد أسهمت طبيعة الجزيرة العربيـة القـاسيـة في إتلاف الكثير من النصوص الأدبية ، مع وسائل العرب الغابرين في كتابة أدبهم فكانوا يكتبون على الجلود والعظام وجريد النخل والطين غير المشوي والقماش والحجارة والخشب ! وما زال الأمل عريضاً بـأن ينتبـه أولوا الأمر العرب فيضعون بين أيـدي الآثـاريين وعلمـاء العصر الجاهلي وأدبه أسباب نجـاح البحث ، وهي أمنيـة بـأن يوحّـد الآثـاريون العرب خرائطهم وبرامجهم وجهودهم ومصاريفهم وعندها ستبـدأ الفترة الـذهبيـة في الكشف عن كنوز الأدب الجـاهلي الغـاطسـة المغيبـة[39] وقـد أطلـق جرجي زيـدان على الفترة التي سبقت العهد الجاهلي الذي حدده الجاحظ (العصر القديم أو الجاهلية الأولى)[40] .

---

(36) المرزوقي . أبو علي أحمد بن محمد . ت 421 هـ . شرح ديوان الحماسة ص 8 وبعدها تح أحمـد أمين وعبـد السلام هارون طب لجنة التأليف والنشر . القاهرة 1967 .

(37) الآلوسي . بلوغ الأرب 15/1 (م . س) .

(38) الجاحظ . الحيوان 74/1 تح عبد السلام هارون . طب لجنة التأليف . مصر 1938 .

(39) الإرياني . مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات ص 5 وبعـدهـا انظر المقـدمـة المهمـة التي كتبهـا د . عبد العزيز المقالح (م . س) .

(40) زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربيـة 24/1 تقـديم د . شوقي ضيف طب دار الهلال مصر وقـد =

وربما نحت من (قبل/إسلام) مصطلح (القبسلامية) قياساً على (القروسطية) المنحوتة من (قرون/وسطى) ! ومصطلح أدب قبل الإسلام صالح عند بعض الدارسين للدلالة الفنية أيضاً أسوة بمصطلح أدب جاهلي .

رابعاً : نقد جاهلي

☆ النقد في اللغة : تتوفر مادة (نقد) في المعجمات اللغوية على معان مؤتلفة مرة ، مختلفة أخرى ، وللدارس أن يميز ميزانين لهذه المادة : الأول يعتمد نصب القاف في (نقد) والآخر يعتمد كسرها ، ولكل ميزان إحالاته الدلالية !

أ ـ نَقَد ـ فتح القاف ← نقد العيّنة اختبرها ، وميّز جيدها من رديئها ؛ ونقد الطائر الفخ توجّس خيفة منه ، فاختبره حذراً ؛ ونقد الصيرفي الدرهم نقداً وتنقاداً نقرها ، ووضعها بين السبابة والإبهام ، ليمتحن الأصيل والزائف ، والجيد والرديء ؛ ونقدت الأفعى زيداً لدغته ، ونقد عمرو زيداً اختلس النظر نحوه حتى لا يفطن إليه ؛ ونقد فلان الدراهم نقداً وتنقاداً أعطاها للبائع معجلاً ، فالنقد في البيع خلاف النسيئة ، وانتقد ونقد بابها نصر .

ب ـ نَقد ـ كسر القاف ← نقد الطعام نقداً وقع فيه الفساد ، ونقد الضّرس أو الحافر تآكل وتكسّر ؛ ونقد الجذع أكلته الأرضة فهو جذع نقِدٌ (كسر القاف) ، ونَقَدٌ (فتحها) ! ونقد الحافر تقشّر ؛ والمعاني (أ ، ب) تكوّن فكرة عن دلالات هذه المادة فإذا تناقد القوم تناقشوا ، والحصيلة هي حالتان : حالة المنقود أن يعرض على الناقد ؛ وحالة الناقد أن يتفحّص المنقود ، ولا بد والحال هذه أن يكون المنقود على صورتين : الأولى صحيحة والأخرى عليلة ؛ وللمتفحّص أن يلاحظ أي الصورتين ميّزت المنقود ، ولم ترد نقد في القرآن الكريم بأي من دلالاتها ، لكنها وردت في الشعر الجاهلي كثيراً وفق مستوياتها اللغوية ، قال الأعشى :

= استحسن د . ضيف مصطلح الجاهلية الأولى لأنه في نظره يحل إشكال غياب النصوص الأدبية القديمة .. انظر هامش ضيف 24/1 .

دراهمنا كلُّها جيدٌ فلا تحبِسَنّا بتنقادها

وقال عبد مناف بن ربع الهذلي :

ماذا يغيرُ ابنتيْ ربع عويلُهما لا ترقدان ولا بؤسى لمن رقدا
كلتاهما أبطنت أحشاءها قصباً من بطن حلية لا رطباً ولا نقدا
إذا تأوّب نوحٌ قامتا معه ضرباً أليماً بسبت يلعج الجلَدا[41]

☆ **النقد في الاصطلاح** : يرمي إلى ملاحظة النص وامتحانه ، بما يتهيأ للناقد من خبرة وذكاء لمعرفة قيمته ، وماذا كان مبتكراً أو متأثراً بنص آخر ، وكان النقد الأدبي مطلع وهلته الأولى ميالاً إلى التعميم ، لأنه ثمرة حضارة الشعر وقتذاك ، ولم يحصل النقد على مصطلحه (الواضح) إلا في وقت متأخر نسبياً ، وكان الناقد الجاهلي مثل زعيم القبيلة .. يوازن بين الأمور بخبرته الخاصة ، وربما احتكم إلى أصحاب الخبرة لينصحوه ، أو احتكم إلى ذوقه الخاص أو هواه أو ولائه !! فالناقد زعيم على نحو ما أو حاكم ، وكان نابغة ذبيان ممسكاً بزمام الشعراء ، يقول رأيه فيهم فيرضون ، وأطلق الجاهليون عليه (رأس حكومة الشعر) ، فكانت تضرب له خيمة من الجلد الأحمر على مسطبة من الرمل محددة بالحجارة المرصوصة بالقار ، تجعله في مشهد يراه فيه الجمهور الواسع دون عناء !

والناقد الجاهلي كان متسلحاً بخبرات عصره وهي خبرات تبدو لنا الآن ساذجة وباهتة ! بيد أنها كانت مهمة ، وقد لبّت حاجات الأدب غير الاعتيادية ، بصدق وحميمية ، ولم يستعر النقد الجاهلي آلياته من وراء الصحراء أو البحر ! ونشير إلى دور الجمهور ، وهو ناقد على نحو من الأنحاء في مناصرة هذا الشاعر ومجانبة ذاك ، والتعاطف مع الناثر زيد ، والتخلي عن عمرو .. ، مع اعتداد الجمهور بعدد من خبراء الشعر الذين

---

(41) المبرد . أبو العباس محمد بن يزيد ت 285 هـ . الكامل 340/2 طبع دار المعارف ـ بيروت 1985 . وقال المبرد (نَقِدت السّن إذا مسها ائتكال) .

وصفهم الباقلاني بأنهم أندر من الكبريت الأحمر ! ولعل الباقلاني نظر إلى قول سلفه أبي عمرو بن العلاء (انتقاد الشعر أشد من نظمه) !

وقد يعوّل النقد على الإمعان في المعنى والغرض ، وإلا لماذا أجهش علقمة بن علاثة غريم عامر بن الطفيل في المنافرة المشهورة حين وصمه الأعشى قائلاً :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتْنَ خمائصا

- إن لدينا الكثير من الإشارات التي تعزز القول بوجود حالات من النقد لم ترق إلى مراقي النظرية ، وكيف حقق الأدب الجاهلي مجده دون نقد ، فالمنطق العلمي يقرر أن لا نماء ولا رقي في أي ركن من أركان الحياة دون نقد ! والأدب حضارة . ولن تنهض حضارة الشعر بمعزل عن نصوص (الشعر ، النثر ، النقد) فضلاً عن مرجعية الجمهور ..

كينونة النقد الجاهلي (هوامش وإشارات)

١ - انتقاء علماء الشعر وجمهوره لعدد من القصائد المتميزة ، واعتدادها مثابة لأعلاق النفيسة التي تضعها الحسناء على صدرها ، والقصائد المنتقاة هي التي عرفت بالمعلقات والمذهبات والمطوّلات .. وهذا الانتقاء لا يمكن أن يكون بدوافع بعيدة عن روح النقد فلا بد من وجود مقاييس فنية وجمالية وخبرة تراكمية تناسب حساسية ذلك الزمان ، اتبعت في انتقاء هذه القصائد الطوال التي قيل : إنها كتبت بماء الذهب ، أو علّقت على أستار الكعبة ، واستنسخت ووزّعت على الأسواق المهمة ! جاء في اللسان (طنج) أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان ينتقي القصائد الجاهلية الجميلة وخاصة التي قيلت في قومه ، ويأمر بكتابتها على الطنوج ، ثم يخزنها في صناديق محكمة ويدفنها في سرداب تحت رحبة قصره الأبيض ! والمرجّح أن النعمان ومستشاريه في هذا الأمر كانوا ذوي نظر في الشعر هيأ لهم انتقاء القصائد ، إذ لا يمكن - بالاستدلال العقلي - الظن أنهم كانوا ينتقون القصائد دون خبرة متراكمة ..

2 ـ ترأس النابغة الذبياني لحقبة طويلة حكومة الشعر في موسم عكاظ ! وكان التجار والموكلون بنجاح الموسم يصنعون له خيمة كبيرة بهيئة سرادق من الجلد المدبوغ الأحمر ، يقيمونها على مسطبة رملية .. ويمرّ الشعراء بالنابغة حسب الدور وينشدونه مختارات من أشعارهم فيصغي النابغة ومستشاروه للشعراء وهم ينشدون ، ثم يحلل النابغة الشعر أمام جمهور عريض ويعطي رأيهُ فيا يسمع .. وقد احتكم إليه شعراء زمانه ، منهم الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت ، وقد يجد محلل النص أن توجيهات النابغة للشعراء ومسوغات أحكامه مما يدخل ضمن المعرفة النقدية في ذلك الزمان ... وربما اعترض الشاعر على أحكام النابغة بسبب المنافسة الشديدة بين الشعراء .. جاء في (الشعر والشعراء 218/1 ترجمة الخنساء) قول ابن قتيبة : « وكان النابغة تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها ، فأنشده الأعشى ، ثم أنشده حسان ، ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء السُّلمية ، فأنشدته فقال لها النابغة : والله لولا أن الأعشى أنشدني آنفاً لقلت : إنك أشعر الجن والإنس ، فقال حسان والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك ، فقبض النابغة على يده ، ثم قال : ياابن أخي إنك لا تحسن أن تقول مثلي :

(فإنّك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء أنشدي فأنشدته ، فقال النابغة والله ما رأيت امرأة أشعر منك فقالت له الخنساء : لا والله ولا رجلاً ..) .

3 ـ اعترض جمهور الشعر على وصف امرئ القيس لحصانه بأنه يشبه الجرادة وأن شعراً كثيفاً يغطي وجهه :

وأركب في الروع خَيْفَانَةً كسا وجهها سَعَفٌ منتشر

واعتراض أم جندب على وصف زوجها امرئ القيس للفرس لأنه كان يعتسفه

بالسوط والمخرز والركل ، وقد فضلّت فرس علقمة على فرس امرئ القيس ، لأن فرس علقمة أكرم ، فهو يبلغ الشوط دون ركل وسوط ومخرز .

1 ـ امرؤ القيس :

خليليّ مُرّا بي على أمّ جنـــدب نُقَضّ لبانات الفؤاد المعـذّب

... وقد أغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كلّ مـذنب

بمنجردٍ قيـد الأوابـد هيكل طِراد الهوادي كلّ شاوٍ مغرّب

فللساقِ ألهوبٌ وللسوط دِرّة وللزجرِ منه وقع أهوج منعب

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمرّ كخذروف الوليد المثقّب[42]

٢ ـ علقمة بن عبدة :

ذهبت من الهجرانِ في غير مذهب ولم يك حقاً كلّ هـذا التجنّب

.. وقد أغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مـذنب

بمنجرد قيـد الأوابـد لاحـه طراد الهوادي كلّ شأو مغرّب

فاتبع آثار الشياه بصادق حثيث كغيث الرائـح المتحلب

فأدركهن ثانياً من عنانه يمرّ كمرّ الرائـــح المتحلّب[43]

(علقمة بن عبدة : وكان ينازع امرأ القيس الشعر ، فقال كل واحد منهما لصاحبه أنا أشعر منك ، فقال علقمة : قد حكمت امرأتك أم جندب بيني وبينك ، فقال رضيت فقالت أم جندب قولاً شعراً تصفان فيه الفرس على روي واحد وقافية واحدة ، فقال امرؤ القيس ، وقال علقمة . فقالت لامرئ القيس : علقمة أشعر منك ، قال : وكيف

(42) امرؤ القيس . ديوانه . ق 3 ص 41ـ51 .

(43) علقمة بن عبدة الفحل . شرح ديوانه للأعلم الشنتمري . ق 3 ص 52ـ62 تح د . حنا نصر الحتّي . طب دار الكتاب العربي (بيروت) 1993 .

ذلك ؟ قالت : لأنك جهدت فرسك بسوطك وزجرك فأتعبته بساقك ، وأدرك علقمة طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ، ولم يمرِه بساقه ، ولم يزجره)[44] .

4 ـ شاعت بعض النعوت التي عرف بها الشعراء ، وكل نعت كان يحيل إلى ميزة شعرية لدى كل شاعر من نحو : الصنّاجة ، والنابغة ، والخنذيذ ، والمهلهل ، والشعرور ، والمرّقش ، وعويف القوافي ، والكيّس ، والفحل ، والمحكّك .. قال ابن قتيبة في تأويل النّمر بن تولب : « وكان شاعراً جواداً يسمّى الكيّس لحسن شعره » ـ (الشعر والشعراء 195/1) .

وهناك قناعات لدى الجاهليين مثلاً أن امرأ القيس أحسن شاعر بكى واستبكى ، ووصف المرأة . والأعشى أفضل شاعر صور مجالس الأنس والغناء والخمرة . وطرفة أنبه شاعر وصف المجهول . وزهير أكثر الشعراء موعظة وأمثالاً .. وعامر بن الطفيل أوصف للفرس وشياتها . وعنترة أبدع في مشاهد الحرب واعتمالات النفس ! وبلغنا من الحساسية الشعرية مقولات للجاهليين : أغزل بيت قالته العرب ، وأخنث بيت ، وأهجىء بيت ، وأمدح ، وامرؤ القيس شاعر مطبوع ، وزهير شاعر مصنوع ، والأمثلة كثيرة .

5 ـ اتهام عدد من الشعراء بأنهم سرقوا من شعر سلفهم أو مجايليهم ، وقد شاعت مفردات نقدية مثل (السرقة ، الموازنة ، الانتحال ..) قال الأعشى :

فما أنا أم ما انتحالي القوا ... فِ بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقيدني الشعر في بيته ... كما قيّد الآسرات الحمارا

والآسرات هي السيور التي يربط بها السّرج ، والحمار القتب ! ولن يستطيع أحد اتهام شاعر كبير مثل الأعشى أو أي شاعر آخر دون أن يكون لديه آلية للنقد والإلمام الكافي بشعر الآخرين لعقد الموازنات ، ومعرفة السابق واللاحق والمبتكر والسارق .

(44) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 130/1 وبعدها (م . س) .

وذكر ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) مصطلحات قريبة من ذلك : مثل (الإصطراف ، والاجتلاب ، والانتحال ، والاهتدام ، والإغارة ، والمرافدة ، والاستلحاق ، والغصب ، والاختلاس ، والملاحظة ، والمشترك ، والمبتدل ، والمستوهب ، والكشف ، والمجدود ...) يقول ابن رشيق مثلاً : « ومما يعد سرقاً وليس بسرق اشتراك اللفظ المتعارف كقول عنترة :

وخيل قد دلفتُ لها بخيلٍ عليها الأُسد تهتصر اهتصارا

وقول الخنساء ترثي أخاها :

وخيل قد دلفت لها بخيل ترى فرسانها مثل الأسود »[45]

6 ـ والنثر الفني ميدان آخر للمنافسة والموازنة ، فكان الجمهور خير حكم بين الناثرين ولنا أن نتذكر سطوع أسماء الخطباء مثل قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة ، وعلقمة بن علاثة ، والحارث بن ظالم .. فضلاً عن سطوع نجم الحكّاء وتمييز هذا من ذاك .. و « كلام العرب منظوم ومنثور ولكل منهما ثلاث طبقات جيدة ومتوسطة ورديئة »[46] .

ولعل أبرز فن نثري استدعى وجود نقّاد يحكمون لهذا أو لذاك هو فن المنافرة ، وسيأتي ذكره في أطروحة النثر .. جاء في اللسان مادة نفر : « والمنافرة المفاخرة والمحاكمة ، أن يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ، ثم يحكّما بينهما كفعل علقمة بن علاثة مع عامر بن الطفيل حين تنافرا إلى هدم بن قطبة الفزاري ، والمنفور المغلوب ، والنافر الغالب ، ونفّر الحاكم أحدهما على صاحبه تنفيراً أي قضى عليه بالغلبة .. » .

---

(45) القيرواني . أبو علي الحسن بن رشيق ت 456 . العمدة 280/2 . تح محمد محيي الدين عبد الحميد . طب دار الجيل . بيروت . 1972 .

(46) ابن رشيق . العمدة 19/1 .

7 ـ التنافس بين الأجيال الشعرية والاتجاهات والأسر .. وقد يتجلّى التنافس بوساطة الحوار أو السخرية أو الاحتكام أو المصادقة ، كما حصل للربيع بن زياد العبسي وكان أثيراً عند النعمان بن المنذر .. فدخل لبيد على سرادق النعمان فوجد عنده الربيع يأكل معه .. فاستأذنه لبيد في الكلام فأذن له فأنشده قوله :

لا تزجُر الفتيان عن سوء الرّعه
يا ربّ هَيجا هي خير من دَعَه
إذا الفلاةُ أوحشت في المعمعه
يخبرك عن هذا خبير فاسمعه
مهلاً أبيتَ اللعن لا تأكل معه
إن ... من برص ملمّعه[47]

وكما حصل للمتلمّس حين قال :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره ... بناج عليه الصّيعرية مكدم

فضحك الصبي (طرفة) وقال له : يا خال لقد استنوقت الجمل ، أي وضعت صفة الصيعرية للجمل ، وهي صفة الناقة ..

وتذكر الأخبار أن زهيراً لم يجز ابنه كعباً في قول الشعر ، وكان يمنعه ، ويعتسفه ضرباً بالسوط إلى أن نجح الولد في الامتحان قال زهير :

(تميد الأرض إمّا بنت عنها) وطلب إلى كعب إتمام البيت .. فقال كعب : (وتمنع جانبيها أن يزولا) ..

وكما حصل من حسان بن ثابت وولده عبد الرحمن .. فحين وصف عبد الرحمن النحلة التي لسعته كأنها ثوب حبرة .. هش الأب وهتف لمن حوله : قال ابني الشعر

(47) العامري . لبيد بن ربيعة . ديوانه ق 33 ص 95 وبعدها . طب دار صادر بيروت (د : ت) .

وربّ الكعبة !! وجاء في (الشعر والشعراء 193/1) : « وكان لحسان بنت شاعرة وأرق حسان ذات ليلة فعن له الشعر فقال :

متاريك أذناب الأمور إذا اعترت أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

ثم أجبل فلم يجد شيئاً فقالت له بنته : كأنك قد أجبلت يا أبه ؟ قال : أجل . قالت : فهل لي أن أجيز عنك ؟ قال : وهل عندك ذلك ؟ قالت نعم .. قال فافعلي .. فقالت :

مقاويل بالمعروف خرس عن الخنا كرام يعاطون العشيرة سولها

فقال حسان : لا أقول الشعر ، وأنتِ حيّة ، قالت : أو أؤمنك ؟ قال : أو تفعلين ؟ قالت : نعم : لا أقول بيت شعر ما دمت حياً .. » ا . هـ .

وكان النابغة معتداً بشعره وحين التقى لبيداً وكان يافعاً استقل شأنه في مجلس النعمان بن المنذر .. فثبت لبيد ، وقرأ له مختارات من شعره فأعجب بها النعمان ، وكذلك النابغة .. فقال النابغة للبيد : « أنت أشعر بني عامر .. بل أشعر كلها .. وهوازن كلها ..) والأمثلة كثيرة مبثوثة في الشعر والشعراء لابن قتيبة ، والأغاني للأصبهاني ، والموشح للمرزباني ، ومعجم الأدباء للحموي ..

8 ـ شاعت في الجاهلية تصنيفات للشعراء .. مثل الشعراء الفرسان ، والصعاليك ، والأمراء ، والوبر ، والمدر ، والغربان . ولكل من هؤلاء سمات تسم أشعارهم .. وشاعت أيضاً مقولات الشعر المطبوع والشعر المصنوع .. ولم يكن زهير ليخجل من صفة : شاعر مصنوع ، وكان يسمّي شعره الحولي المحكّك .. « وقد تسلسلت القريحة الشعرية في كثير من بيوتهم بالتوارث عدة أجيال فالنعمان بن بشير الأنصاري من العريقين في الشعر خلفاً عن سلف . جده شاعر وأبوه وعمه شاعران ، وهو شاعر ، وأولاده شعراء» وكذلك كعب بن مالك من شعراء الصحابة ، كان أبوه شاعراً وعمه

قيس شاعراً وأبناء كعب ، وأحفاده كلهم شعراء ، بيت أبي سُلمى فقد كان أبوه سُلمى شاعراً ، وابنه زهير المشهور شاعر ، وله خؤولة في الشعر ، خاله بشامة بن الغدير شاعر ، وكان ابناه كعب وبجير شاعرين وجماعة من أبنائها شعراء »[48] فالشعر وإن كان فيما يبدو لصيقاً بالقبائل والعوائل .. بيد أن لكل قبيلة أو عائلة أسلوباً في نظم الشعر وتنميقه .

9 ـ يمتلك الجاهليون خبرة بالشعر ونقده فهو ديوانهم ، وحين انتدبت قريش الوليد بن المغيرة ليلتقط ثغرة في صفات الرسول ﷺ وعلامة ، واقترحوا عليه أن يقول : إنه شاعر . فردّ عليهم الوليد قائلاً : « ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهجزه وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر »[49] .

فهم إذن يعرفون الرجز والهزج والقريض والمقبوض والمبسوط ، وهم يعرفون الإقواء ، وهم يقولون : شاعران كبيران يقويان ، وهما بشر بن أبي خازم والنابغة ، أما بشر فقد نبهه أخوه ، وكان أخوه شاعراً عالماً بأصول الشعر ، أما النابغة فكانت منزلته مانعة للآخرين من تنبيهه فدعي إلى سهرة احتفالية في يثرب ، وعنت قبالته مغنية قصيدته :

من آل ميّة رائح أو مغتدي   عجلان ذا زاد وغير مزود

وحين بلغت المغنية إلى موضع الإقواء في (الأسود) برفع الموال وكان حقها الجر محاكاة للروي شدّت على مخارج الحروف ، وأشبعت الضمة واواً وترنمت بالواو (اسود و .. و .. و ..) فنهرها النابغة ، وقال لها : ماذا تفعلين يا جارية ؟ فقالت : أنا لم أفعل يا سيدي .. وهذا فعلك وشعرك !! ففطن إلى الإقواء ، وزعم لها أن الأصل هو جرّ (الأسود) على هذا النحو :

---

(48) زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية 66/1 (م . س) .

(49) هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام . ص 57 . طب مكتبة السنة مصر و 198 (طبعة سادسة) .

البيت مع الإقواء :

زعمَ البـوارحُ أنَّ رحلتنـا غـداً   وبـذاك خبرنـا الغراب الأسـودُ

البيت دون إقواء :

زعم البـوارح أنَّ رحلتنـا غـداً   وبـذاكَ تنعـاب الغرابِ الأسـودِ

وما عاد النابغة إلى الإقواء ثانيـة ! والإقواء هو مغـايرة روي البيت اللاحق لروي البيت السابق في الحركة ..

10 ـ قال الجـاحـظ (ت 255 هـ) : « الشعر صنـاعـة ، وضرب من الصيـاغـة ، وجنس من التصوير » . وقوله : ليس خروجاً عن الفهم الموروث عن الشعر ، فثمة من يزعم : أن الشعر إلهام من الشياطين القـاطنين في وادي عبقر ، ونفر آخر يقول : الشعر نظم وصناعة ! وهـذه آراء نقـديـة تعكس معرفيـة ـ مهما كان حجمهـا ـ لطبيعـة الشعر وتقويمه ..

وشيء من صناعة الشعر أن الشاعر الجاهلي يضع أمامه نموذجاً يحاكيه في الكتابة .. كما حاكى امرؤ القيس سلفه ابن خـذام في الوقوف على الأطلال ، وهو منحى يقترب من مقولة الشفاهية .

عـوجـا على الطـلـل المحيـل لأننـا   نبكي الـديـار كما بكى ابن خِـذام

والجـاهليون (استنـاداً إلى تصريح الخليـل الفراهيـدي) يـزنـون شعرهم بطريقـة التنعيم ، والتنعيم هو المقابلة بين التفعيلات والإيقاعات بميزان (نعم / لا ..) قارن :

فاعلاتن ⟵ لا نعم لا   (ْ)

مستفعلن ⟵ لا لا نعم   (ْ)

فعولن ⟵ نعم لا   (ْ)

فعْلن ⟵ لا لا   (ْ)

فَعِلُنْ ← نَعَمُن	(ْ)	٥ ///	
مَفَاعِيلُنْ ← نعم لا لا	(ْ)	٥/٥/٥//٥	
مُتَفاعِلُنْ ← (ْ)	(نعمن نعم)	٥//٥///٥	

يقول أبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) : كانت العرب تغني النصب ، والنصب في القوافي أن تسلم القافية من الفساد وتكون تامة البناء ، وتمد أصواتها بالنشيد وتزن الشعر بالغناء[50] قال شاعر جاهلي :

تغنّ في كل شعر أنتَ قائلـه   إن الغناء لهذا الشعر مضمار[51]

وكان امرؤ القيس مغنى في إيقاعاته قارن :

أ- توهمت من هند معالم أطلال   عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصائف   يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف   وكلّ مسفّ ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السّماكين هطّال

ب - يا صحبنا عوجوا ☆ تقف بكم أسج ☆ مهرية دبح ☆ في سيرها معج ☆ طالت بها الرحل[52]

وإذا كان الغناء وما يحتاج إليه من تكرار وترقيص قد حدا بالأعشى أن يقول :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني   شاوٍ مشلّ شلول شلشل شول

فقد حدا بامرئ القيس أيضاً ليقول :

---

(50) المرزباني ، أبو عبيد الله محمد بن عمران ت 384 هـ . الموشح في مآخذ العلماء على الأدباء ص 47 تح علي محمد البجاوي ، طبع لجنة البيان العربي 1965 .

(51) اللسان (غنا) .

(52) امرؤ القيس . ديوانه ص 51 . المعري . أبو العلاء أحمد بن عبد الله ت 449 . رسالة الغفران 143 طبع دار الكتب العلمية . بيروت 1990 .

وسل سل وسل سل سل ثم سلسل وسل وسل وسل دار سلمى والربوع فكم اسل[53]

11 ـ هناك خبرة لدى الشعراء استدعتهم لأن يختاروا طرائق في تشويق الناس إلى أشعارهم ، فبعضهم يقف على الأطلال باكياً ، وآخر يصف المعارك ، وثالث ينمّق صورة المرأة . فهم يختارون الإيقاعات والمعاني والكلمات التي تناسب كلّ غرض وجمهور .

وهذه خبرة بعملية التوصيل ، وقيل : إن الأعشى كان يغني شعره .. وكان الشعر هاجس العرب في حلهم وترحالهم .. حربهم وسلمهم ، وهم إذا ذهبوا إلى نوادي اللهو .. لم ينسهم ذلك عن الشعر .. وتذكر الأخبار أن الزبرقان بن بدر ، والمخبل السعدي ، وعبدة بن الطبيب ، وعمرو بن الأهتم التقوا في ناد ليليّ جاهلي ، وتناشدوا الشعر ، واختلفوا في أيهم أشعر ؟ ثم احتكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدي ، فاستمع طويلاً إلى أمثلة من شعر كل شاعر منهم .. ثم قال : أما ابن الأهتم فشعره برود يمانية ، تطوى وتنشر .

وأما ابن بدر فقد أتى جزوراً قد نحرت فأخذ من أطايبها ، وخلطه بغير ذلك ، فشعره مثل لحم لم ينضج بعد .

وأما السعدي فشعره شهب يلقيها على من يشاء .

وأما ابن الطّبيب فشعره مزادة أحكم خرزها فلا يقطر منها شيء .. إ . هـ .

هذه الحكاية وسواها مما مرّ بنا مع أم جندب والنابغة .. تنم عن قدر الناقد في أفئدة أهل ذلك العصر ، ولو حلل الباحث أحكام ربيعة أو أم جندب أو النابغة .. لوجدها مستندة إلى قواعد نقدية لا تخفى عن نظر الفاحص ..

12 ـ ويلتقط الدارس إشارات نقدية مهمة شاعت في العصر الجاهلي .. فكثير

(53) المصدر نفسه ص 468 .

مـا يقولـون أشعر النـاس النـابغـة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . فهم يعرفـون مـوقـع الشعرية في نصوص أي شاعر .. ويقولون أيضـاً : إن خير الشعراء من كتب دون رغبـة أو رهبة ، وزهير لا يعـاضل ، أو أن شعر فلان شعر سوقـه ، وقـد يلاحظون أثر البيئـة في الشعر . فيقولون : إن هـذا الشـاعر خشن العبـارة لأنـه شرب حليب النـوق ، وأكل الشيح ، وذاك الشاعر لان شعره وثقل لسانـه لأنـه أكل البقول .. فمرة نرى أثر الصحراء في شعر ذاك ، وأثر الريف في شعر هذا .

قال ابن قتيبة في عدي بن زيد : « وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف فثقل لسانه » (الشعر والشعراء 135/1) . وقال في أميـة بن أبي الصلت : « ويـأتي بـألفـاظ كثيرة لا تعرفها العرب يأخذها من الكتب المتقدمة » (الشعر والشعراء 305/1) .

وقال ابن رشيق في معلقة عنترة : « وكانوا يسمونها المذهبـة » (154/1) وقـال في عـدي بن ربيعـة : « وسمّي مهلهـلاً لأنـه هلهـل الشعر ، أي رقّقـه وكان فيـه خنث » (186/1) .

الفصل الرابع

أولاً : الأدب الجاهلي في حاضنة البيئة

استوطن العرب شبه الجزيرة العربية منذ وهلتهم الأولى ، فبات الأثر متبادلاً بين العربي ووطنه ، وأصبح عصياً على دارس الأدب القبسلامي ، تجاوز هاتين البؤرتين (العربي ، موطنه) ، وهل الأدب سوى التماهي بين كيميائي إبداع الذهنية وموطنها ؟!

والعرب منذ وهلة التاريخ الأولى تجاوزوا في سكناهم شبه الجزيرة العربية إلى فضاءات أخرى هي العراق والشام وفلسطين وسيناء ووادي النيل ، بيد أن مركزية شبه الجزيرة العربية كانت الملمح الأقوى[1] والبلدانيون العرب يسمّون شبه الجزيرة العربية جزيرة العرب ، « وإنما سميت بلاد العرب الجزيرة لإحاطة البحار والأنهار بها من أقطارها وأطرارها »[٢] .

والحق أن البحار تحيطها من جهاتها الثلاث وتتصل باليابسة من الجهة الشمالية المفعمة بمياه أنهار دجلة والفرات والعاصي ، قال الهيثم بن عدي الثعلي الكوفي (ت 207 هـ) ووافقه الأصمعي (ت 216 هـ) : « إن طول جزيرة العرب يبدأ من

---

(١) قارن الهمداني . لسان اليمن . الحسن بن أحمد ت 334 هـ . صفة جزيرة العرب ص 80 تح محمد بن الأكوع . طب مكتبة الإرشاد . صنعاء 1990 . وقارن أيضاً . علي . د . جواد . المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 140/1 . طب دار العلم للملايين . بيروت 1971 .

(2) الهمداني . صفة جزيرة العرب .

العذيب (في العراق) شمالاً إلى حضرموت وعدن آبين جنوباً ، أما عرضها فيبدأ من الأُبلّة ـ حدود العراق في جنوبه الشرقي ـ إلى جدة وجبال مراد »[3] .

وعرفت الجزيرة العربية في غابر أيامها الحياة الهانئة السعيدة ، وقد حبتها السماء أمطاراً وفيرة ، وأنهاراً كثيرة ، وأرضاً خصيبة ، وموقعاً وسطاً ، وسكاناً أقوياء أذكياء ذوي خبرة بتثمير ذلك ، وربما اتصلت الجزيرة العربية قبل مليون عام من طرفها الغربي بإفريقية من طرفها الشرقي ، ثم حدث زلزال كبير فانشقت الأرض المحصورة بين آسية وإفريقية وابتلعت البيوت وساكنيها ، لينبغ عن ذياك الانشقاق بحر القلزم (الأحمر) (وترى مس كاتون تومسون : أن انفصال جنوبي غربي بلاد العرب عن إفريقية الشرقية قد حدث قبل مليون عام على أقل تقدير ، وأن حجر الصوان الذي عثر عليه في حضرموت يشبه كثيراً ذلك الذي عثر عليه الباحثون في شرقي إفريقية »[4] .

وقيل : إن ماء بحر القلزم (الأحمر) قلّ وزمّ فأسموه بحر القلزم وثمة من يعلل التسمية على نحو آخر ، فيقول : تقلزم الحوتُ طريدته إذا ابتلعها والتهمها !! وبحر القلزم مشتق منه ، وبه سمّي ؛ لأنه يلتهم من يركب مياهه ! ومياه بحر القلزم هي المكان الذي غرق فيه فرعون ورهطه ، (القلزمة) : إذن ابتلاع الشيء .

---

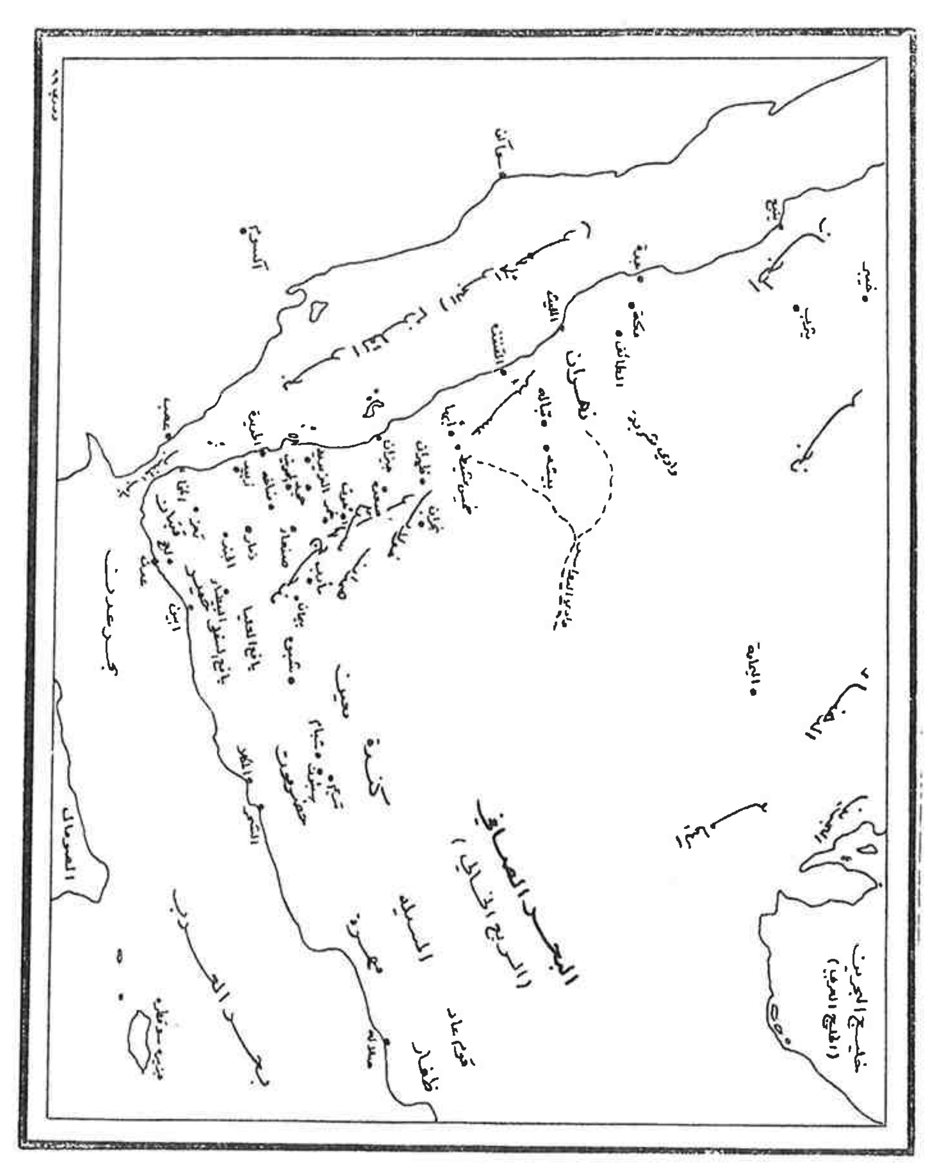
(3) الحموي . ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ت 626 هـ . معجم البلدان 156/2 طب دار إحياء التراث العربي بيروت 1997 .

(4) مهران . د . محمد بيومي . دراسات في تاريخ العرب القديم ص 196 ثم 198 طب دار المعرفة الجامعية مصر 1993 .

الهمداني . صفة جزيرة العرب ص 86 (وكان سعيد بن المسيب ت 95 هـ يقول : إن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض مادت بأهلها بهذا الجبل ـ السراة ـ ومبدؤه من اليمن إلى الشام فقطعته الأودية) .

ـ بافقيه . محمد عبد القادر . تاريخ اليمن القديم ص 166 . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1985 « ويلفت اللندروف نظرنا إلى التشابه الصارخ بين طبيعة الساحل الإرتيري واليمني الغربي فكلاهما قاحل وحار وكلاهما يفضي إلى هضبة جبلية مرتفعة تتمتع بأمطار موسمية منتظمة .. وهناك من الأدلة .. » .

المواقع التاريخية في جنوب وغرب شبه الجزيرة العربية



صنع هذه الخارطة الأستاذ د . داوود الربيعي فإليه شكرنا وتقديرنا وأمنياتنا

المواقع التاريخية في شبه الجزيرة العربية



صنع هذه الخارطة الجغرافي أ . د . داوود الربيعي وفق متطلبات كتابنا ، فإليه نزجي خالص الشكر والامتنان

قال شاعر قديم :

ولا ذي قـلازمَ عنـد الحيـاض إذا مـا الشريب أراد الشريبـا[5]

وطبيعة الجزيرة ليست واحدة ، فهي مزاج من طبائع المياه والصحـاري والجبـال والحفر والدارات .

فالسلاسل الجبلية ترتفع محاذية شواطئ البحر الأحمر حتى لتبلغ عند جبـال السراة في الحجاز عشرة آلاف قدم ، وعند مدين تسعة آلاف ، وعند صنعاء ستة آلاف ، ويصل ارتفاع بعض قمم اليمن جنوباً اثني عشر ألف !! ثم تنحدر هـذه الجبـال انحـداراً مفـاجئـاً حين تتجه إلى مياه البحر الأحمر غرباً ، بينا ترتفع هضبة نجد في جانبها الشمالي الأوسط نحواً من ألفين وخمس مئة قدم ، حيث جبـال شمر التي يشخص فيهـا جبل أجـا المقـدود من الجرانيت الأحمر فيسمق قرابة خمسة آلاف وخمسمئة قـدم ، بينـا ينهـد الجبل الأخضر نحواً من عشرة آلاف ! الجزيرة العربية ترتفع غرباً ثم تنحدر شرقاً ، وبين المياه الغربيـة (البحر الأحمر) والشرقية (الخليج العربي وعمان) ثمة الصحاري بسهوبهـا وسهولهـا التي تشكل التلال دوائر حولهـا ، مثـل بـاديتي الشـام والسّماوه اللتين تكتنزان الميـاه الجـوفيـة الوفيرة ...

أمـا تقسيمـات الجزيرة العربيـة فهي مختلفـة أيضـاً بـاختـلاف منـاهـج البلـدانيين ومصالحهم .. فأهل اليمن يرون أن الجزيرة العربية قسمان : يمن وشام ؛ فجنوبها اليمن ، وشمالها الشام ، ونجد وتهامة ؛ فالنجد ما أنجد منهـا عن السراة وظهر من رؤوسهـا ذاهبـاً إلى المشرق في استواء دون مـا ينحـدر إلى العروض ، وحجـاز وهـو مـا حجـز بين اليمن والشـأم ، وسراة وهو مـا استوسق واستطـال في الأرض من جبـال هـذه الجزيرة مشبهـاً بسراة الأديم ، وعروض وهو مـا أعرض عن هـذه المـواضـع شرقـاً إلى حيز شمال المشرق ،

---

(5) ابن منظور . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ت 711 هـ . لسان العرب (قلزم) طبعة دار صادر بيروت . وقارن أيضاً : علي . د . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 148/2 (م . س) .

وعراق وشحر ، فالعراق ما حاذى المياه العذبة مأخوذ من عراقي الدلو ، والشجر مأخوذ من شحر الأرض وهو سبخ الأرض ومنابت الحموض »[6] وقسمها اليونانيون ثلاثة أقسام هي : أ ـ العربية الصحراوية وتشمل باديتي الشام والسماوة وبضعة من سيناء وتحدها بابل من الجنوب ب ـ العربية الصخرية ومركزها سيناء وبلاد الأنباط وقد جاءت التسمية من طبيعة البتراء (الحاضرة) وتمتد جنوباً حتى البحر الميت جـ ـ العربية السعيدة وهي بلاد العرب التي علّمها البلدانيون والمؤرخون ، بيد أن المنطق الجغرافي لا يطمئن إلى هذا التقسيم في أغلبه ، فهذه التقسيمات متداخلة ، مثال ذلك أن العربية السعيدة لا تنفصل عن بلاد العرب الصحراوية ، زد على ذلك إغفاله عدداً من المعالم الكبيرة : تيماء ودومة الجندل ووادي سرحان ! لكن مقدار ما يهمنا من التقسيم اليوناني هو هذه النظرة الشمولية إلى وطن العرب ذي المساحات الممتدة الشاسعة والمترامية البعيدة[7] وهناك من قسم الجزيرة أربعة أقسام : « جزيرة العرب أربعة أقسام : اليمن ، ونجد ، والحجاز ، والغور . وهي تهامة . فمن جزيرة العرب الحجاز وما جمعه وتهامة ، واليمن وسبأ والأحقاف واليمامة والشحر وهجر وعمان والطائف ونجران والحجر ... إلخ »[8] .

ومن قسّم الجزيرة خمسة أقسام (فصارت بلاد العرب من هذه الجزيرة خمسة أقسام : تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن)[9] .

---

(6) الهمداني . صفة جزيرة العرب ص 9 .
وقارن : القزويني ، زكرياء بن محمد ت 682 هـ . آثار البلاد وأخبار العباد . (ص 645 فهرس الأماكن مثل نجد تهامة عروض حجاز سراة وعراق .. الخ) طبعة دار صادر بيروت (د : ت) .
وقارن : الجبوري . د . يحيى : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 11 وبعدها طبعة سادسة 1993 جامعة قار يونس بنغازي .

(7) أبو العلا . محمود طه . جغرافية شبه الجزيرة العربية 5/1 طب القاهرة 1956 .
وانظر مهران . د . محمد بيومي . دراسات في تاريخ العرب القديم ص 93 (م . س) .

(8) الحموي . ياقوت معجم البلدان 57/2 (م . س) .

(9) الهمداني . صفة جزيرة العرب ص 85 وانظر . الحموي . ياقوت . معجم البلدان 56/2 .

1 ـ **تهامة** : تمتد على طول البحر الأحمر (القلزم) وتقع اليمن في جزئها الجنوبي ، وتهامة أرض رملية ، يقع ميناء الحديدة جنوبيها وفي شماليها : جدة وينبع والحجر (مدائن صالح) ، وتمتد جبال السراة شرقي تهامة من الشمال إلى الجنوب لتفصلها عن هضبة نجد . وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها ، والتهمة الأرض المنصوبة إلى البحر .. وتهامة تساير البحر منها مكة .

والحجاز ما حجز بين تهامة والعروض فإذا خلفت عُمان مصعداً فقد أنجدت فلا تزال منجداً حتى تنزل في ثنايا ذات عرق ، فإذا فعلت ذلك فقد أتهمت إلى البحر وإذا عرضت لك الحرار وأنت منجد فتلك الحجاز.

2 ـ **الحجاز** : منطقة بين غور تهامة ونجد فكأنه منع كل واحد منها أن يختلط بالآخر فهو حاجز بينهما ، قال الأصمعي : الحجاز اثنتا عشرة دارة : المدينة وخيبر وفدك وذو المروة ودار بلى ودار أشجع ودار مزينة ودار جهينة ونفر من هوازن وجل سليم وهلال ! وقال في موضع ثان : وإنما سمي حجازاً لأنه حجز بين تهامة ونجد ، فمكة تهامية ، والمدينة حجازية ، والطائف حجازية !! وهي منطقة كثيرة المياه خصبة الأرض وجبلية ذات وديان كثيرة أشهرها وادي القرى . أما شمالي الحجاز فيضم أرض مدين موطن جذام ، ثم حسمي التي تضم جبالها منطقة إرم ، وتقع يثرب ضمن الحجاز ، ويقع وادي الشعرى شمال يثرب ومدينة قرح المشهورة بسوق قرح ، وكذلك الحجر وصالح ، وتحيط القرى الخصبة بالمدينة مثل خيبر وفدك اللتين استوطنهما اليهود ، واستوطنت هذه المناطق أيضاً قبائل عذرة وجهينة وبلى وقضاعة ، وتعد مكة والطائف أهم مدينتين في الحجاز ، وكانت الأخيرة مصيفاً لموسري العرب وخاصة أهل مكة .

3 ـ **نجد** : النجد ما أنجد منها عن السّراة ، وظهر من رؤوسها ذاهباً إلى المشرق في استواء دون ما ينحدر إلى العروض ، وتتوسط نجد الجزيرة مطلة على باديتي الشام والسماوة شمالاً ، وتفصل صحراء النفود بينهما وبين نجد ، كما تفصل صحراء النفود

الشاسعة من الشرق بين نجد وبين البحرين وهي الدهناء أو رملة عالج موطن تميم وضبّة . وتشمل نجد وادي الرمة ، فما تاخم الحجاز وتهامة سمّي نجد العالية وما جاور العراق سمي نجد السافلة .

وموضع القصيم في شمالها والقصيم رمل عبيط ينبت فيه الغضا (الأثل) وأهل الغضا هم النجديون ، وتشمل نجد اليمامة (جو) ومركزها حجر ومن مدنها سدوس ومنفوحة .

4 ـ العَروض : العروض الشيء المعترض وهو المدينة ومكة واليمن ، وقال ابن الكلبي (ت 204 هـ) العروض : بلاد اليمامة والبحرين . وهي أراض رملية وسهول ساحلية ، وتقع ضمنها أسواق كاظمة ودبا وصحار وعمان وهجر والخط (القطيف) ، كما تتضمن الجرعاء وسدوس والإحساء وميناء الصغير .

5 ـ اليمن : منطقة خصيبة شملت صنعاء وحضرموت ومهرة وعدن وتبالة وبيشة ونجران وزبيد والشحر وظفار وعمان وذلك يعني أن هذه التسمية قد شملت الجنوب بكامله ، وسميت اليمن كما يقول لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها ، والبحر مطيف بها من المشرق إلى الجنوب فراجعاً إلى المغرب ، قال الأصمعي : أربعة أشياء قد ملأت الدنيا ، ولا تكون إلا باليمن : الوَرس والكُندر والخِطْر والعصب . ا . هـ . والجوف من أخصب بقاع اليمن وأصلحها للزراعة ، وفي اليمن تبالة وبيشة[10] .

وصفوة القول أن المتأمّل في أطلس الجزيرة العربية واجد هذه (التعدديات) : في

(10) اعتمدنا في التحديد والتوصيف عدداً من المصادر والمراجع هي :
أ ـ الهمداني . صفة جزيرة العرب (م . س)
ب ـ الحموي . معجم البلدان (م . س)
جـ ـ القزويني . آثار البلاد وأخبار العباد (م . س)
د ـ علي . د . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (م . س)
هـ ـ مهران . د . محمد بيومي . دراسات في تاريخ العرب القديم (م. س)
و ـ الجبوري . د . يحي الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه (م . س)
ز ـ بافقيه . محمد عبد القادر . تاريخ اليمن القديم (انظر مواقع أوسان ومعين وقتبان وحضرموت وسبأ وذو ريدان) . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت 1985 .

التضاريس والمناخ والموقع والمؤهلات السكانية بما سوّغ وجود مميّزات حضارية لعرب الشمال والجنوب والشرق والغرب ، فمن خطل الرأي الظن أن الجزيرة العربية تمثل وحدة متجانسة في التضاريس والمناخ والموقع والناس !! فقد خلط العديد من الدارسين العرب وغير العرب ، القدامى والمحدثين بين العرب والأعراب ، بين سكان الحواضر المستقرة وسكان البوادي المتغيرة ، بين سكان المرتفعات وسكان السهول ، بين سكان المدن المنفتحة على الماء والمدن المحرومة منه !! وما كان ذلك الخلط ليكون لولا تعددية النوايا وأطروحات المنهج التاريخي التعددي والدراسات المكتبية التي تعتمد النقل عن الكتب فحسب ، وتستند إلى الفرضيات الملغومة ، مؤثرة النأي عن المشاهدات الميدانية والمقايسات المختبرية ، وإيماءات النقوش والحفريات .

ونحن إذ نعمّق دلالة التعدديات بين شمال وجنوب وماء وصحراء إنما نعمق حلم الوحدة العربية إلى أرض الواقع المتحقق ، لأن القفز فوق الفوارق يعني تفخيخها وتوسيعها ، فالبيت الواحد فيه غرف أرضية وعلوية وشرقية وغربية وذلك لا يبدد العائلة الواحدة ، وإنما يجمعها ويصونها . وقد اصطنع كتابنا عدداً من الخوارط التي تحدد المناطق وترينا أن التعدديات أثّلت حضارات الشمال والجنوب والشرق والغرب ، بحيث انمازت الجزيرة العربية بميزات جعلتها موضع عناية المنصفين وغير المنصفين من الدارسين . فحضارات اليمن لم تكن عابرة ، وإنما أسهمت وبشكل فاعل في تظهير حضارات عربية أخرى في اليمامة وكندة والمناذرة والغساسنة ومكة وغيرها ، بالمقدار نفسه التي تأثرت فيه حضارات اليمن بحضارات الشمال ، وحصل التماهي بين الحضارات فكانت الجزيرة العربية مهداً للرسالات السماوية الكبرى دون سواها[11] .

---

(11) ﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أُخرجت للناسِ ﴾ [آل عمران : 110/3] وانظر : يوسف 12 ثم طه 20 والزمر 39 .
وقارن . حسين . طه . في الأدب الجاهلي ص 74 وبعدها . طبعة دار المعارف مصر (د : ت) النوري . د . قيس . طبيعة المجتمع البشري في ضوء الأنتروبولوجيا الاجتماعية ص 82-86 مط . أسعد بغداد 1970 .

حتي . د . فيليب وآخرون . تاريخ العرب ص29 . طب دار غندور 1974 . سوسة . د . أحمد . حضارة العرب ومراحل تطورها ص 69 . طب دار الحرية بغداد 1979 .

الفصل الخامس

جاهلية المجتمع العربي قبل الإسلام

لاحظت دراسة سابقة لنا أنجزناها عام (1982 م) أن وعي عرب الجاهلية للزمن كان على درجة متطورة قياساً إلى ذلك العهد[☆] ويفترض الشعور بالزمن نمطاً من النضج الفكري والقدرة على التأمل ، ولن يكون بمقدور البدائي وعي الزمن وعياً يهيئ له أن يقول فيه شيئاً ذا قيمة[12] ويمكن القول : إن نظرة العرب للزمن عهد ذاك كانت على قدر مناسب من النضج ، فهم يلاحظون الطبيعة والأنواء ، ويسمون أوقاتهم طبقاً لمقتضياتها[13] وربما أوحى مصطلح الجاهلية كما مرّ بنا لبعض الدارسين أن العرب كانوا يعمهون في ظلام من الجهل بكل أسباب المعرفة[14] ، لكن النظرة الموضوعية أسهمت في إزالة الغبار الذي علق بهذا المصطلح[15] ، وقد توصل فيليب حتي إلى أن مفهوم

(☆) أنجزنا الدراسة عام 1980 ثم صدرت عام 1982 في كتاب طبعته مطبعة التايمس في الكويت وعنوانه (الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام) .

(12) بريل . ليفي . العقلية البدائية ص 21 . تر د. محمد القصاص . طب مكتبة مصر (د : ت) . فريزر . سير جيمس . الغصن الذهبي 234/1 تر . أحمد أبو زيد وآخرين . مط الثقافية مصر 1971 .

(13) ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم ت 276 . الأنواء في مواسم العرب . طب حيدر آباد الدكن الهند 1956 . حرب حمدي مصطفى . قصة الزمن . ص 6 . مط الثقافية مصر 1970 .

(14) اللسان (جهل) . حضارة العرب ص 108 (م . س) .

(15) البياتي . د . عادل . تحديد مصطلح الجاهلية والأمية في التراث العربي والإسلامي . بحث في مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد العدد 27 السنة الأولى و 97/ص 68 وبعدها . وانظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 37/8 (م . س) .

الجاهلية ينصرف إلى الزمن الذي عاشته العرب منذ العصور القديمة حتى مبعث النبي ﷺ[16] ، ووردت مادة (جهل) في القرآن الكريم بمعنييها اللغوي والديني ، بما يفيد أن الجاهلية منصرفة إلى الجهل بالإسلام[17] ، وكان رسول الله ﷺ يذكر في أحاديثه الشريفة لفظة الجاهلية مقترنة بأزمان العرب قبل الإسلام ، وطبائعهم وتقاليدهم[18] .

أما الشعراء القبسلاميين فلم ترد (جهل) في شعرهم إلا ضمن سياقها في اللغة[19] فالجاهلية مصطلح إسلامي يشير إلى أن العرب قبل الإسلام لم تكن ناعمة بزمن الإسلام وإشراقات تعاليمه[20] وليس ثمة ما يسوّغ انصراف مصطلح الجاهلية إلى توحّش العرب وجهلهم بعلوم زمانهم[21] وقد حذقت العرب علوم الأنساب ، والأنواء ، وتعبير

---

(16) حتي . فيليب . تاريخ العرب المطول . طب دار الكشاف بيروت 1965 .

(17) عبد الباقي . محمد فؤاد . المعجم المفهرس الألفاظ القرآن الكريم طب دار الكتب المصرية 1945 .

(18) القشيري .أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت 261 . صحيح مسلم 99/1 . طب دار إحياء التراث . بيروت . البخاري . أبو عبد الله محمد بن إبراهيم ت 256 . صحيح البخاري 54/5 طب دار إحياء التراث . بيروت . ابن الأثير . أبو السعادات مجد الدين المبارك الجزري ت 606 . النهاية في غريب الحديث والأثر 322/1 طب دار إحياء الكتب العربية مصر 1963 .

(19) بشر بن أبي خازم . ديوانه ق 1 ب 1 ص 3 . عنترة . ديوانه ق 1 ب 49 ص 207 . شرح القصائد العشر تحقيق فخر الدين قباوة معلقة عمرو بن كلثوم ب 96 ص 166 . ابن مقبل . تميم . ديوانه ق 35 ب 3 ص 267 :

هل عاشق نال من دهماء حاجته   في الجاهلية قبل الدين مرحوم

(20) الآلوسي . محمود شكري . بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب 15/1 تح محمد الأثري مط الرحمانية مصر 1924 . بروكلمن . كارل . تاريخ الأدب العربي 29/1 تر . ج 1 د . عبد الحليم النجار مط دار المعارف مصر 1977 . الجبوري . د . يحي . الجاهلية ص 27 مط المعارف بغداد 1968 . وانظر المفصل 38/1 (م . س) .

(21) ابن قتيبة . الأنواء ص 2 (م . س) . لوبون . غوستاف . حضارة العرب ص 109 . تر . عادل زعيتر . طب إحياء التراث بيروت 1979 . حتي فيليب . تاريخ العرب المطول 117/1 (م . س) . الجبوري . د . يحي . الجاهلية ص 29 وبعدها .

الرؤيا ، والأديان ، والرواية ، والقيافة ، والبيطرة[22] . فالعرب الذين نتحدث عنهم قوم متحضّرون .

أما الأعراب فهم بدو رحّل لا شأن لهم بالاستقرار أو المدنية ، وقد انتبه د . ناصر الدين الأسد إلى أن مفردة (أمّية) جرّت على العرب حيفاً لحق بهم فظن الدارسون أن الأمية هي أمية القراءة والكتابة ، فبحث في أمية الجاهليين ، وتوصل إلى الآتي :

« القرآن الكريم قد وصف العرب في جاهليتهم بأنهم أميون وورد ذلك في ثلاث آيات ﴿ وَقلْ للَّذين أُوتوا الكتابَ والأُمّيين أأسلمتم ﴾ [آل عمران : 20/3] . و ﴿ ذلكَ بأنهم قالُوا ليسَ علينا في الأُمّيينَ سبيلٌ ﴾ [آل عمران : 75/3] و ﴿ هُوَ الذي بَعَثَ في الأمّيينَ رسولاً منهم ﴾ [الجمعة : 2/62] غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعني في رأينا الأمية الكتابية ولا العلمية وإنما يعني الأمية الدينية ، أي إنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني ، ومن هنا كانوا أميين دينياً ولم يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل . ومن الأدلة التي نسوقها للاحتجاج أن القرآن الكريم وصف فريقاً من أهل الكتاب بالأميين : ﴿ ومنهم أمّيون لا يعلمون الكتابَ إلا أمانيّ وإن هُمْ إلاّ يظنونَ فويلٌ للذينَ يكتُبونَ الكتابَ بأيديهم ثمَّ يقولونَ هذا منْ عِندِ اللهِ ليشترُوا بهِ ثمناً قليلاً فويلٌ لهم ممَّا كَتَبتْ أيديهم وويلٌ لَهُم ممّا يكسِبُونَ ﴾ [البقرة : 79/78/2] فأمية هذا الفريق ليست أمية كتابية لأنه قد أخبر أنهم كانوا يكتبون بأيديهم ، وإنما هي أمية دينية ، أي جهل بالدين ، وإنكار له ، وعدم

(22) الشهرستاني . أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت 548 . تح محمد سيد كيلاني طب دار المعرفة بيروت 1975 انظر تحديداً 2/238ـ241 . العقاد . عباس محمود . الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين ص 5 . طبعة دار القلم مصر (د : ت) . بكر . د . منذر . مساهمة العرب في التراث اليوناني قبل الإسلام ص 86 وبعدها بحث في مجلة المورد العراقية مجلد 8 عدد 2 سنة 1979 . فاضل . عبد الحق . تاريخهم من لغتهم ص 41 . مطـ دار الحرية بغداد 1977 .

تصديق . ومن أجل هذا فسّر ابن عباس هاتين الآيتين فيما رواه ابن جرير الطبري بإسناده إليه قال : « ومنهم أميون .. قال : الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله ولا كتاباً أنزله الله فكتبوا كتاباً بأيديهم ، ثم قالوا لقوم سفلة جهال : هذا من عند الله ، وقال قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتبَ الله ورسولَه إ . هـ » .

ثم يذكر الأسد عدداً من الأحاديث النبوية الشريفة التي وردت فيها مفردة (أمية) ويسلط عليها منهجه البحثي مستعيناً بكتب التفسير والشرح ، ويصل إلى ما وصل إليه في الأولى ويقرر : « إن الحديث لا ينقض ما قدّمنا من أمر معرفة العرب بالكتابة بعد أن أقمنا من الشواهد والأدلة ما أقمنا »[23] .

وقد تمسّكت العرب بقيم المروءة من إقدام ونجدة ، وصدق ووفاء ، والحفاظ على العهد ، وصيانة الجوار ، والنأي عن الغزو ، والسفك في الأشهر الحرم . وقد نُسب إلى النبي الأمين قوله : « خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام » . وقال أحد التابعين : وددت أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا في الجاهلية[24] .

ويمكن عزو التطرف ضد العرب قبل الإسلام ونعتهم بالتوحّش والجهل المطبق إلى ثلاثة أسباب :

الأول هذا الخلط المؤذي بين دلالتي (عرب ، أعراب) .

والثاني ديني يتضح من خلال الحرص على تبيان أثر الإسلام في الحياة العربية ، وفسّر قتادة (ت 118 هـ) الآية الكريمة : ﴿ وكُنتُم على شَفَا حُفرةٍ من النَّارِ

---

(23) الأسد . د . ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص 46 (م . س) .

(24) ابن عبد ربه . أحمد بن محمد ت 328 . العقد الفريد 2/6 تح محمد سعيد العريان طب دار الفكر (د : ت) والقول نرجّح أنه عبّاسي .

فأنقَذَكُم مّنها ﴾ [آل عمران : 103/3] بقوله : إن العربي قبل الإسلام كان (أذلَّ الناس ذلاً ، وأشقاهم عيشاً)[25] .

أما السبب الأخير فهو عنصري فكما غالى بعض دعاة العنصرية والشوفونية من العرب في احتقار العناصر غير العربية ، فقد غالت العناصر المحتقرة في إلصاق التهم بالعرب والافتئات على قيمهم النبيلة ، وقد نهد المفكرون الغيارى العرب لتفنيد الاتهامات الباطلة التي وجهت إلى العرب[26] . وقد كانت الجزيرة العربية كما مرّ بنا مهداً للرسالات السماوية ، والعربي أول من نطق باسم الله[27] ، وفي الأخبار والأشعار ما ينبئ أن العربي تأمّل جريان الزمان ، واستعبر بالأولين ، وذمّ التهالك على

---

(25) أمين . أحمد . ضحى الإسلام 17/1 طب لجنة التأليف والترجمة مصر 1964 واعتمد أحمد أمين تفسير قتادة وذهب مذهبه .

(26) ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم . المعارف ص 543 تح د . ثروت عكاشة طب دار المعارف مصر 1969 . الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) . البيان والتبيين 17/3 تح حسن السندوبي طب المكتبة التجارية (د : ت) . ابن عبد ربه . العقد الفريد 317/3 ؛ 332 (م . س) . المسعودي . أبو الحسن علي بن الحسين (ت 306 هـ) مروج الذهب 53/2 تح محمد محي الدين عبد الحميد مط السعادة مصر 1964 . ابن خلكان . أبو العباس أحمد بن محمد ت 681 هـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان 235/5 ، 240 تح د . إحسان عباس طب دار صادر 1977 . الآلوسي . بلوغ الأرب 171/1ـ175 (م . س) . السامرائي . د . عبد الله سلوم . الشعوبية ص 47 وبعدها مط دار الحرية بغداد 1980 .

(27) سوسه . حضارة العرب ص 183 (م . س) .

الدنيا[28] وعرف آدم[29] ونوحاً[30] وإبراهيم[31] وداود[32] وأنبياء آخرين[33] وكان معظم العرب عهد ذاك على ملة إبراهيم ، يعبدون الله ، ويحجون البيت ، ويختتنون[34] وأطلقوا على الكعبة (بنية إبراهيم) ؛ لأنه بانيها[35] ، وحين دخل المسلمون الكعبة يوم

---

(28) ابن عبد ربه . العقد الفريد 214/3 (م . س) . السهيلي . عبد الرحمن بن عبد الله (ت 581 هـ) . الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام 179/2 مط دار النصر مصر 1970 تح عبد الرحمن الوكيل اقرأ حكاية دخول عبد الله بن جدعان لبيت آخر نفق داخل جبل فيه قبور ملوك جرهم !! والكتابات التي قرأها على شواهد القبور .. زهير بن أبي سلمى . ديوانه ص 287 . الأعشى . ديوانه ق 53 ب 1ـ5 . طرفة . ديوانه ق 53 ب 7 وبعده النابغة . ديوانه ق 1 ب 32 .

(29) امرؤ القيس . ديوانه ق 11 ب 5 . الضبّي . المفضل بن محمد الكوفي ت 178 . المفضليات ق 66 ب 2 : قال أفنون التغلبي :

قد كنت أسبق من جاروا على مهل   من ولد آدم ما لم يخلعوا رسني

تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون طب دار المعارف مصر (الطبعة 10) 1992 .

(30) النابغة . ديوانه ص 73

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

طب دار الكتب العلمية بيروت 1984 .

(31) هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام ص 227 مكتبة السنة مصر 1989 (أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ورأى إبراهيم ، عليه السلام ، مصوّراً في يده الأزلام يستقسم بها فقال قاتلهم الله جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ما شأن إبراهيم بها ؟!..

(32) السموءل . ديوانه :

وأتتني الأنباء عن ملك داوود   فقرت عيني به ورضيت

ص 82 طب دار صادر بيروت . الأعشى . ديوانه ق 33 ب 8 :

بناه سليمان بن داوود حقبة   له أزج عال وطيٌّ موثق

(33) ابن قتيبة . المعارف ص 56 (الرسل الخمسة من العرب) . وانظر المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام 83/6 .

(34) ابن الكلبي . أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب (ت 204 الأصنام ص 6) تح أحمد زكي طب الدار القومية مصر 1965 .

ابن حبيب . أبو جعفر محمد ت 245 . المحبّر ص 309 . تح د . إيلزة شتيتر . طب المكتب التجاري . بيروت .

(35) ابن الأثير . مجد الدين المبارك بن محمد ت 606 النهاية في غريب الحديث والأثر 63/4 تح الزاوي والطناحي . مصر 1963 .

الفتح شاهدوا على أحد جدرانها صورة إبراهيم ، عليه السلام ، وشاهدوا أيضاً قرني الكبش اللذين لبثا في الكعبة حتى شهر صفر سنة أربع وستين ، وسار جيش الحرة إلى مكة لقتال ابن الزبير ، وأتوا مكة فحاصروا ابن الزبير ، وقاتلوه ورموه بالمنجنيق ، واحترقت من شرارة نيرانهم الكعبة وسقفها وقرنا الكبش الذي فدى الله إسماعيل به[36] .

وقد ابتعدت العرب قبيل الإسلام عن روح الحنيفية لتفشّي عبادة الأوثان التي اصطنعها عمرو بن لحي وعادات أخرى بعيدة عن الروح العربية مثل الوأد ونسبة المطر والرياح إلى النوء والحياة والموت إلى الدهر والقتال في الأشهر الحرم حتى إن زيد بن عمرو بن نفيل كان يسند ظهره إلى جدار الكعبة وينادي غاصّاً بعبرته (أيها الناس هلموا إليّ لم يبق على دين إبراهيم غيري)[37] وكان أمية بن أبي الصلت يحذّر على هذا النحو :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية بور[38]

ولا بد من عودة إلى الفطرة الأولى فتهيأت أذهان العرب ونفوسهم لانتظار الخلاص فجاء الخلاص بالإسلام الذي أشرق وكأنه إكمال لدعوة سيدنا إبراهيم فوحّد بعد شتات وأيقظ بعد سبات[39] .

---

(36) السيوطي ت 911 . تاريخ الخلفاء ص 164 قاسم الرفاعي ومحمد العثماني طب دار الأرقم بيروت (د : ت) وانظر هامش 31 .

(37) الشهرستاني . الملل والنحل 241/2 (م . س) . وانظر ابن حبيب . المحبر ص 171 . وابن الأثير . النهاية 6/5 .

(38) أمية بن أبي الصلت ق 154 ب 8 . وانظر الجبوري د . يحيي . حركة الأحناف في الجاهلية ص 52 بحث في مجلة المعارف عدد 9 أيلول (سبتمبر) 1962 وانظر البياتي د . عادل . شعر الأحناف دراسة وتحليل ص 537 مجلة آداب المستنصرية . بغداد . العدد 5 سنة 1980 .

(39) ابن حنبل . أحمد بن محمد ت 241 هـ . مسند أحمد بن حنبل 166/4 مط الميمنية مصر 1313 هـ . ابن الأثير . النهاية 451/1 . الشهرستاني . الملل والنحل 29/1 .

والخلاصة المستنبطة من التمهيد هي أن الشعر الجاهلي وتوأمه النثر الفني لم يكونا ربيبي حياة قاسية مجدبة كما تهيأ لعدد من الدارسين وأن المبدعين العرب لم يكونوا عقيمي الخيال محدودي التجربة والفضاء كما رسمتهم المباحث العجلى أو الموبوءة ، وإنما هم فنانون كبار وقادة في مجتمعاتهم وذادة أيضاً ، فلا غرابة أن يكون عطاؤهم خصباً ولغتهم منسابة .. فليست الجزيرة العربية كلها الربع الخالي ، وليست رياحها السموم فقط ، وإنما كانت الجزيرة أيضاً مدناً مستقرة وأريافاً وسهولاً وجبالاً وموانئ بما يعزّز فكرة التعددية التي أسست حضارات عملاقة شغلت علماء الحضارة وما زالت ..

الأطروحة الثانية

الشعر الجاهلي

الفصل الأول : نشأة الشعر وأوليته .

الفصل الثاني : الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين ☆ طبقات الرواة .

الفصل الثالث : نظرية الشك (آراء القدامى والمستشرقين والمحدثين) والرد على تلك الآراء .

الفصل الرابع : شياطين الشعراء .

الفصل الخامس : المعلقات وشعراؤها .

الفصل السادس : الفروسية وشعراؤها .

الفصل السابع : الصعلكة وشعراؤها .

الفصل الثامن : موضوعات الشعر الجاهلي .

الفصل التاسع : خصائص الشعر الجاهلي .

الفصل العاشر : مصادر الشعر الجاهلي ومراجعه .

الفصل الأول

نشأة الشعر وأوليته

الشعر في مظنته اللغوية هو العلم ، وقولنا : شعر بالأمر ، أي علم ، وليت شعري تعني : ليتني أعلم ، والشعر عند العرب منظوم القول ، وقائله شاعر ، وقيل : سمّي الشاعر شاعراً لفطنته (اللسان ، شعر) . وسمّي الشعر قصيداً ـ استناداً إلى اللسان قصد ـ « لأن قائله احتفل له فنقّحه باللفظ الجيد والمعنى المختار وأصله من القصيد وهو المخ السّمين ، وقصّد الشاعر وأقصد : أطال وواصل عمل القصائد » .

وارتباط الشعر بالعلم والاستشعار يمثل شعيرة وثنية قديمة ، فالشاعر في الذهنية القديمة رجل استثنائي له صلات غريبة بعالم الجن والشياطين فهو على نحو ما ساحر ، أو كاهن ، أو متنبّئ .. وقد لبث الشاعر الجاهلي معذباً بالرؤيا .. أو هكذا يتهيأ له .. فهو يرى ما لا يراه الآخرون .. فملحمة جلجامش تبدأ هكذا : هو الذي رأى كل شيء فغني . بذكره يا بلادي ، وهو الذي عرف جميع الأشياء ، وأفاد من عبرها ؛ وهو الحكيم العارف بكل شيء ، لقد أبصر الأسرار ، وعرف الخفايا المكتومة ، وجاء بأنباء ما قبل الطوفان . ا . هـ[1] .

وكان لدى العرب عرافون قبل ظهور الإسلام يعرفون بكونهم شعراء ومن المحتمل أن تكون لغتهم غامضة كما هي الحال مع كل كاهن منذ الكهانة الأولى لمعبد دلفى التي لدينا مطلعها : إنني أعرف عدد الرمل ومقدار البحر . ا . هـ[2] .

---

(1) باقر . طه . ملحمة جلجامش 51 (ترجمة وتقديم) . طبع دار الحرية بغداد الرابعة 1980 .

(2) مارجليوت . أصول الشعر العربي ص 56 تر : د . يحيى الجبوري . بيروت 1978 .

وسأل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : يا كعب هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل ، أناجيلهم في صدورهم ينطقون بالحكمة ، ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب[3] وحبذ المجتمع الجاهلي آلية التنبؤ بعواقب الأمور قبل حدوثها استناداً إلى معطيات الدوال فالنبوءة من الإنباء الذي يشي الأخبار والارتفاع والطلوع والرمي والخروج ، وتسهم هذه الدوال في تشكيل صورة الإنباء في الذهن القديم ، فثمة ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وقس بن ساعدة ، وسطيح الذئبي ، وشق ، وطريفة ، وخرافة ، والعشنطط .

وحين أشرق الإسلام واجه حالة من الوهم في الذهنية العربية تربط بين النبوّة والتنبؤ .

فالبابليون يطلقون على الرجل الاستثنائي (نبو) لأنه يتنبأ . فالخيال العربي صنع وشائج بين دلالات شاعر ، نبي ، ساحر ، مجنون ، كاهن . وأظن أن أشعار العرب معزوة إلى الشياطين الذين يسترقون السمع مما في السماء[4] ونقل ابن الأثير حديثاً شريفاً (لا تنبروا باسمي إنما أنا نبي)[5] وكان النبي ﷺ في هذا يبطل قول العباس بن مرداس :

يا آخر النّباء إنك مرسل   بالخير كل هدى السبيل هداكا[6]

وقد يصعب الفصل بين وظائف المنبئ والكاهن والعراف والطبيب والساحر والممسوس والمتوسم والقلمس والحازي والقائف والمتفرّس والرائد والدال ! فهؤلاء يمتلكون موهبة الخيال التشاكلي القائم على مبدأ التشبيه للتأثير في الآخر[7] ، ولسوف

(3) ابن رشيق القيرواني . العمدة 25/1 (م . س) .

(4) مارجليوت . أصول الشعر العربي ص 54 (م . س) .

(5) ابن الأثير . مجد الدين المبارك ت 606 هـ . النهاية في غريب الحديث والأثر 3/5 (م . س) .

(6) ابن مرداس . العباس . ديوانه . ص 51 . تح . يحيى الجبوري بغداد 1968 .

(7) سبينوزا . رسالة في اللاهوت والسياسة ص 47 . تر : د . حسن حنفي . طب الهيئة المصرية للتأليف . 1971 .
فريزر . جيمس . الغصن الذهبي ص 43 . تر . أحمد أبو زيد وصاحبيه . مط الثقافية مصر 1971 .
بريل . ليفي . العقلية البدائية . ص 107 . تر . د . محمد القصاص . طب مكتبة مصر (د : ت) .

نقدّم بين يدي رأينا عدداً من النصوص التي تعزّز ادعاء العلم بالمجهول لدى الشاعر ورؤية مالا يُرى !! قس بن ساعدة :

لما رأيت مـوارداً للمـوت ليس لهـا مصـادر
ورأيت قـومي نحـوهـا يمضي الأصـاغر والأكابر
أيقنت أني لا محـالـة حيث صـار القـوم صـائر

زهير بن أبي سُلمى :

أ- ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى من الأمر أو يبدو لهم ما بـدا ليـا
ب- وأعلم مـا في اليـوم والأمس قبلـه ولكنني عن علم مـا في غـد عمي

أمية بن أبي الصلت :

شمط وشبان بهاليل مغاوير وحاوح

ألا ترون لمـا أرى ولقـد أبـاه لكل لامـح

قراد بن الأجدع :

فإن يـك صدر هـذا اليوم ولّى فـإن غـداً لنـاظره قريب

طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيام مـا كنت جـاهلاً ويـأتيـك بـالأخبـار من لم تـزود

الأعشى :

كـوني كمثـل التي إذ غـاب وافـدهـا أهـدت لـه من بعيـد نظرة جـزعـا
مـا نظرت ذات أشفـار كنظرتهـا حقـاً كما صدق الـذئبي إذ سجعـا[8]

(8) انظر نص قس الإيادي في أغاني أبي الفرج الأصفهاني . 192/15 ونص زهير بن أبي سلمى في ديوانه ص 184 . ونص أمية بن أبي الصلت في ديوانه 169 ، ونص قراد بن الأجدع في الوسائل إلى مسامرة الأوائل للسيوطي ص 139 . ونص طرفة في ديوانه ص 175 ونص الأعشى في ديوانه 79 .

ولقد يسأل الدارس : متى بدأ الشعر وكيف ؟ وأيها أسبق الشعر أم النثر ؟..

يرى القيرواني أن كلام العرب : « كان كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم فتوهموا أعاريض جعلوها موازين للكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ، لأنهم شعروا به أي فطنوا .. وقيل : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ؛ فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره »[9] .

وإذا صدقت فرضية القيرواني ، فإن النثر كان سبيل الشعر ، ولا بد أن يكون السجع بؤرة النثر . يقول اللسان (سجع) : والسجع الكلام المقفى ، وسجع سجعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وقال ﷺ : « إياكم وسجع الكهان » . أي إنه نهى عن السجع في الدعاء ا . هـ .

ولقد ذهب نفر من الدارسين إلى أن السجع كان طقساً شعائرياً وثنياً وربما آل السجع إلى الرجز ، والرجز (قارن اللسان ـ رجز) شعر ابتداء أجزائه سببان ثم وتد ، وهو وزن يسهل في السمع ويقع في النفس ، وقد اختلف فيه فزعم قوم أنه ليس بشعر ، وأن مجازه مجاز السجع ، والخليل لا يرى الرجز شعراً وإنما هو كلام ، فلو كان شعراً لم يجر على لسان النبي وتسمى قصائده أراجيز ، وهي كهيئة السجع إلا أنه في وزن الشعر ويسمى قائله راجزاً ، كما يسمى قائل الشعر شاعراً . ا . هـ . فثمة قواسم مشتركة بين النثر المسجوع والكهانة والدعاء والرجز !

ويرى جرجي زيدان أن الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الأمم والشعر وضع أولاً للتغني به وإنشاده للآلهة أو الملوك واليونان والرومان يقولون غنى شعراً . ولا يقولون : نظم شعراً .

---

(9) ابن رشيق . العمدة 20/1 (م . س) .

والعرب يقولون : أنشد شعراً وقضى اليونان أجيالاً لا يقولون الشعر إلا إنشاداً ، وكان العرب كذلك ثم يؤكد زيدان أن العرب بدؤوا أولاً بالسجع بلا وزنٍ ، نحو ما وصل إلينا من سجع الكهان ، وربما كان الكهان يغنونه توقيعاً على القافية ومن أمثلة سجعهم :

إذا طلع السرطان استوى الزمان ، وحضرت الأوطان ، وتهادت الجيران . إذا طلع النجم (الثريا) فالحر في حدم والشعب في حطم . إذا طلع الدبران توقدت الحزان ، وكرهت النيران ، ويبست الغدران ، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان ، إذا طلعت الهقعة تقوض الناس للقلعة ، ورجعوا عن النجعة وأردفتها الهنعة . ويقول زيدان أيضاً : أما النظم أي القياس بالمقاطع وهو الوزن فأبسطه الرجز وهو أقدم أوزان الشعر ، والغالب في اعتقادنا ـ والقول لجرجي زيدان ـ: إن الوزن مأخوذ من توقيع سير الجمال في الصحراء وتقطيعه يوافق وقع خطاها[10] .

ومن المؤسف حقاً أن هذه الفرضيات تعتمد الحدس والتخمين ، فليس بين أيدينا أدلة تدحضها أو تمحضها ، فقد ضاع شعر الجاهلية الأولى وعمره ليس أقل من عشرين قرناً وما وصل إلينا على رأي الجاحظ (الحيوان 72/1) صورة مصورة عن بولاق) لا يتجاوز القرنين أو القرن والنصف ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » .

إن الشعر الذي ضاع كما يفترض كان مكتوباً بلغات عربية يصعب انسجامها مع اللغة القريشية الرسمية ، وعلى رأي أبي عمرو بن العلاء : (ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا[11] ولو لم يضع الشعر الجاهلي المفقود ، فهل كان بإمكاننا قراءته والاستمتاع به ؟)[12] .

---

(10) زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية 54/1 تعليق ومراجعة د . شوقي ضيف طب دار الهلال مصر (د : ت) .

(11) الجمحي . أبو عبد الله محمد بن سلام ت 232 . طبقات الشعراء ص 45 . تح . د . عمر فاروق الطباع طب دار الأرقم . بيروت 1997 . ثم انظر ص 52 .

(12) زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية 41/1 يقول : وأحسن مثال للغة الحجاز لغة القرآن =

إذا شئنا أن نفترض وجود شعر عربي بلغتنا الفصيحة يرقى إلى القرن الأول للميلاد فهو حتماً سيكون بلهجة عربية مغايرة للهجتنا ، فهي إما لهجة صفوية نسبة إلى جبل الصفاة في الشام ، وإما بلهجة ثمودية ، وإما بلهجة لحيانية نسبة إلى بني لحيان ! وقد وجد العلماء كثيراً من خصائص اللحيانية ما يجعلها فجر اللهجة العربية المبكرة ! وأما اللهجة الرابعة التي نفترض ورود الشعر العربي فيها فهي النبطية التي تمثل أقواماً سكنوا شمالي الحجاز وكوّنوا إمارتهم متخذين من (سلع) عاصمة لهم وهي (petra) ، وتعد لهجتهم أقرب اللهجات إلى العربية الفصيحة ... فليس ببعيد أن يكون امرؤ القيس قد سمع بشعر ابن خذام ، وحفظه بنفس لهجته ، أو غيّره إلى الفصحى لأن الرواة عدلوه وأصلحوه ليوافق اللهجة الجديدة السائدة)[13] وهذا الرأي مقبول علمياً لأن رواية الشعر القديم بلهجته القديمة أو لغته المندثرة (لا يحمل أية متعة فنية في إنشاده وروايته لذلك عمل الساميون : الآشوريون والآكديون على ترجمة الأعمال الشعرية السومرية إلى لغاتهم ولهجاتهم السامية في عصرهم »[14] .

أما الفترة الضيقة المحصورة بقرنين ، فهي على محدوديتها لم تفصح عن أولية الشعر بالنسبة إليها ، وقد قيل : إن أول من قال : الشعر هو أبو دؤاد الإيادي ، وعمرو بن تميم ، والأضبط بن قريع ، والأفوه الأودي . إلا أن لبيد نسب الأولية إلى مرقش ومهلهل :

والشاعرون الناطقون أراهم　　　سلكوا سبيل مرقّش ومهلهل[15]

= وشعر الجاهلية وأحسن مثال للغة الجنوب ما خلفه الحميريون من الآثار بالحرف المسند ! ولمن أقام حول اليمن من العرب لغات لعلها فروع من لغة اليمن وهي (المسند : لغة في اليمن . الزبور : لغة حضرموت وبعض اليمن . الرشق : لغة عدن والجند . الحويل : لغة مهرة والشجر . الزقزقة : لغة الأشعريين) .

(13) القيسي . د . نوري ود . عادل البياتي ود . مصطفى عبد اللطيف . تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص 48 . طب دار الحرية بغداد 1979 .

(14) المرجع نفسه 49 .

(15) العامري . لبيد بن ربيعة . ديوانه ص 128 طب دار صادر بيروت ثم انظر طبقات الشعراء ص 52 .

والذي يقرأ شعر المرقّش يجد فيه ملامح البدائية في بنائه الإيقاعي والصياغي :

هـل بـالـديـار أن تجيب صمم　　لـو أن حيـاً نـاطقـاً كلّم
يـأبى الشبـاب الأقـورينَ ولا　　تغبـط أخـاك أن يقـال حكم

يقول ابن قتيبة فيه : « وهو شعر ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروي ولا متخيّر اللفـظ . ولا لطيف المعنى ، ولا أعلم فيـه شيئـاً يستحسن »[16] وقيـل : إن قصيـدة عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهلـه ملحـوب　　فالقطبيـات فـالـذنوب

إنها مضطربة الوزن ، مهلهلة النسج ، ربما أرادها خطبة فاستقامت شعراً !!

ومهما يكن الأمر ، فـالشعر كان طقساً دينيـاً ، يتقرّب فيـه النـاس من الآلهـة ، بـالإنشـاد الجماعي أو الفردي وعن أبي عمرو بن العـلاء « كانت الشعراء عنـد العرب في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم »[17] .

وحين سمع النبي ﷺ بيت طرفة :

ستبدي لك الأيـامُ مـا كنت جـاهلاً　　ويـأتيـك بـالأخبـار من لم تـزود

قال : هذا من كلام النبوة[18] ، ولم يستطع القدامى وضع مرادف للشعر فقـالوا : إنـه السّحر ، لأنـه يرفع بيوتـاً خفيضـة ويخفض بيوتـاً رفيعـة والشـاعر قـادر على جعل المعنى الخسيس نفيساً ، والنفيس خسيساً ! وتـذكر الأخبـار أن الحـارث بن حلزة كان أبرص ، وكان الملك عمرو بن هند موسوساً وحين أنشده الحارث :

---

(16) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 29/1 .

(17) الرازي . أبو حاتم أحمد بن حمدان ت 322 . كتاب الزينة ص 105 . معارضـة وتعليق حسين بن فيض الله الهمداني طبع مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1994 .

(18) ابن عبد ربـه . أحمـد بن محمـد ت 328 . العقـد الفريـد 271/5 . تح محمد سعيـد العريـان . طبع دار الفكر .

آذنتنــــا ببينهـــا أسماء　　رب ثـاو يُمـلُّ منـه الثـواء

كان الملك ينظر للشاعر وسمعه ومعه أمه الملكة هند من وراء سبعة ستور . وكلما قرأ الحارث كان الملك يأمر برفع الستار تلو الآخر ويدني الشاعر منه حتى أجلسه على فراشه وأشركه في جفنته ! فأي فعل كان لشعر الحارث في نفس الملك المتوجّس من العدوى .

وكان الناس يتطيرون من الهجاء ويرونه لعنة تحل بالمهجو ، ولذلك استرضوا الشعراء وأكرموهم وربما ذكرنا الهجاء بضرب من الإنشاد يقصد منه الطلب إلى الآلهة بأن تنزل لعناتها على المهجو ، كفعل عشتار حين أهانها جلجامش أن رفعت يدها متوسلة إلى أبيها الآلهة أنليل أن ينزل ثوراً سماوياً يقضي على جلجامش ! وحين نزل الثور صرعه جلجامش ، فلم تغفر الآلهة لجلجامش وقاحته ، فعاقبته بموت أحب الناس إلى نفسه صديقه أنكيدو !!

ويمكننا أن نتذكر فعل لبيد حين هجا الربيع بن زياد .. فقد غرّب لبيد شكله فحلق نصف شعره ، وحاجباً ، وصبغ نصف وجهه بالقطران ، وارتدى نعلاً واحداً . وطاف حول سرادق الملك مرتجزاً حتى سدت نفس الملك عن الجلوس مع الربيع والنظر في وجهه وأمره بالانصراف[19] .

ولقد يلاحظ الدارس طقس البكاء في مفتتح القصيدة ، وهو طقس قديم ربما ورثه الشعراء عن البابليين الذين يبكون في الربيع حين تزهر الأرض حزناً على غياب دموز في العالم السفلي ، وما زال البكاء طقساً للعشق والفرح والحزن معاً !! أما قداسة الثور التي نلمحها في المعابد ومداخل القصور والنصوص السومرية والآشورية فنحن واجدون ظلالها في الشعر الجاهلي ! وسننقل جهداً بحثياً كتبناه سابقاً يدور حول هذا

(19) المرتضى . الشريف علي بن الحسين العلوي ت 436 . أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) 191/1 . تح محمد أبو الفضل إبراهيم . طب دار الكتاب العربي بيروت 1967 .

المعنى : « لقد أبلى العربي بلاء حسناً في سعيه وراء الرزق في بيئة قاسية تجعل القوة شرطاً مهماً من شروط البقاء ، حتى لتبدو الحياة خصومة دائمة بين قوي مقتدر وضعيف مثابر ! وقد يرحّل الشاعر هذه الخصومة الدائرة بينه وبين الزمن أو المجهول إلى الخصومة بين الصياد وطريدته الإنسان ، وليست قبّرة طرفة التي خلا لها الجو إلا الإنسان الذي رفع عنه الفخ ، والإنسان في القصيدة الجاهلية ثور وحشي قبالة الصياد (المجهول) وكلابه (الموت) ، وكانت عادة الملوك اصطناع مطاردة ثور الوحش وقتله ! والشاعر يشبه ناقته التي يحبها بثور الوحش . وقد شبه زهير الطريدة برجل سليب ، ولن يكون الإصرار على ذكر لوحة الصيد في القصيدة إلا صورة لإصرار الشاعر على توضيح موقف الدهر من الإنسان ، فالصياد وكلابه يقفون في النقطة الفاصلة بين الحيوان والماء الذي يرمز إلى الحياة ، ولن تكون الطبيعة إلا مسرحاً للصراع بين الحياة والموت وعوناً للقدر المتمثل بالصياد وكلابه على الضحية الباحثة عن الماء ، ويمكن أن نعد إشارة الجاحظ ضوءاً مبدداً للإشكالات التي تدور حول لوحة الصيد . فقد ذكر الجاحظ أن « من عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش ، وإذا كان الشعر مديحاً تكون الكلاب هي المقتولة وأما في أكثر ذلك فإن الثيران هي المصابة ، والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم »[20] .

فلماذا تظفر الكلاب وصاحبها الصياد بالضحيّة ، لو لم تقترب الصورة بطقس وثني قديم ـ ثمة دائماً ثور تحيطه أبقار ، وهم في طريقهم إلى نبع الماء . فلماذا يختفي الصياد وكلابه وراء تُليلٍ ؟ ولماذا تهرب الأبقار ليبقى الثور وحيداً ؟ وبعد الصراع يداهمه الليل والبرق والمطر .. فيلوذ بأرطاة على تل بهير الأنفاس ، موشّم بجراحات أسنان الكلاب ومخالبها ؟!!

وقد يكون الرثاء أقرب إلى الطقوس الدينية من سواه ، فكأن الرثاء الشعري تهدئة لروح الميت وصلاة عليه : « وكان الشعر يقال ليسمعه القتيل فيطمئن في قبره ،

(20) الصائغ . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص 277 .

وكان هـذا اعتقـادهم ، وهو لا يختلف عن اعتقـادنـا اليوم عنـدمـا نقـوم بتلقين الميت في قبره »[21] . وكانت الخنسـاء ترثي أخـاهـا صخراً بـالـدمـع حتى عميت ، وبـالشعر حتى ضربت بهـا الأمثـال . وكانت ترتـدي صـدريـة من الشعر ، وتعلـق نعلي صخر على صدرها . وقد حلقت شعرها ولبست السواد . وهذا طقس وثني ، فـأهل القتيل لن يقرّ لهم قرار حتى يقتلوا قاتله ، فإذا لم يجد القتيل من يأخذ بثـأره فـإنـه يتحول إلى هـامـة (طير) تخرج من القبر وتصيح : اسقوني دماً .. اسقوني دماً .

قال ذو الإصبع العدواني :

يـا عمرو إن لم تـدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامـة اسقوني[22]

وقد ورثت الجاهلية كثيراً من الطقوس والعـادات ذات الجـذور الـدينيـة القـديمـة وهي طقوس كثيرة ، كإمساك العرب عن بكاء قتلاها حتى تطلب بثأرها ؛ فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها !!

وكحكمهم إذا أصاب إبلهم العرّ السليمَ منها ليذهب العرّ عن السقيم .

وكحكمهم إذا أحب الرجـل منهم امرأة وأحبتـه ، فلم يشـق برقعهـا ولم تشـق هي رداءه فإن حبهما يفسد ، وإذا فعلاه دام أمرهما .

وكتعليقهم الحلي والجلاجل على السليم ليفيق .

وكفقئهم عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً ، فـإن زادت عن الألف فقؤوا العين الأخرى يقولون : إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين .

وكسقيهم العاشق الماء على خرزة تسمى السلوان فيسلوا .

---

(21) القيس . د . نوري . وصاحباه . تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص 53 .

(22) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 476/2 .

وكإيقادهم خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه ناراً ، ويقولون : أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً إثره .

وكضربهم الثور إذا امتنعت البقر من الماء ! ويقولون : إن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشراب .

وكزعمهم أن المقلات وهي التي لا يبقى ولد إذا وطئت قتيلاً شريفاً بقي ولدها وإنما تفعل النساء ذلك بالشريف إذا كان مقتولاً غدراً أو قوة .

وكزعمهم أن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحبّ الناس إليه ذهب عنه الخدر .

وكحذف الصبي منهم سنه إذا سقطت في عين الشمس وقوله : أبدليني بها أحسن منها ، وليجر في ظلمها إياتك ! وزعم العرب أن الصبي إذا فعل ذلك لم تنبت أسنانه عوجاً ولا ثعلاً .

وكزعمهم أن المهقوع وهو الفرس الذي به هقعة إذا ركبه رجل فعرق الفرس اغتلمت امرأته وطمحت إلى غير بعلها .

وكعقدهم السّلع والعُشَر في أذناب الثيران وإضرامهم النار فيها وإصعادهم إياها على تلك الحالة في جبل يستسقون بذلك ويدعون الله ، وهذا إذا حبست السماء قطرها .

وكعقدهم خيطاً يسمونه الرتم في غصن شجرة أو ساقها ، إذا سافر أحدهم وعند رجوعه تفقد ذلك الخيط ، فإن وجده على حاله قضى بأن أهله لم تخنه ، وإن رآه قد حل حكم بأنها قد خانته .

وكزعمهم أن الرجل إذا أراد قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخل فعشّر كما ينهق الحمار ، ثم دخلها لم يصبه وباؤها .

وكزعمهم أن من علق على صدره كعب أرنب لم تقربه الجن ... إلخ)[23] .

وخلاصة القول أن بدايات الشعر غامضة ، وقد زاد ضياع النصوص الأدبية المغرقة في القدم الغموض عتمة ، ولكن الثابت أن الشعر كان إنشاداً دينياً بظن الناس أن أفئدة الآلهة تهش إليه ، ولم يكن النثر أقل حظاً من الشعر .. لكن العرب أمة شعر ، ونرجّح أن الشعر سبق النثر الفني لأسباب كثيرة نوجزها على النحو الآتي :

1 ـ النثر الفني ، وليس النثر الاعتيادية ، لغة العقل ، بينا يكون الشعر لغة العواطف التي تدغدغ الحواس ، وعليه فإن الإنسان القديم كان أسير حواسه وعواطفه ، ومن خلالها يفهم الطبيعة والناس ، وقد احتاج في فترة لاحقة إلى النثر الفني حين نضج عقلياً فازداد وعيه بالمفهومات والمجردات .

2 ـ الإنسان الأول كان ميالاً للإشارة ، فهي عبارته ولغته فقد عبّر عن حاجاته من خلال الإشارة بحركات اليد والوجه والجسد كاملاً ، بما يذكرنا بتمثيل ظهر ابتداء في روما القديمة سمي : (Pantomine) وهو على أي حال فعل يعتمد كلياً على المحاكاة ، وربما اختلط التعبير الواقعي بالتعبير الرمزي الديني ، فكان الرقص ذروة الإشارة وبؤرة اللغة ، فالراقص يعيد إنتاج حياته بالحركات الإيقاعية ! الصيد والحب والجوع والرهبة والرغبة ، وهذا الصنيع أقرب إلى الترانيم الإيقاعية والعاطفية المحمومة ، فنهد الشعر بتكويناته البدائية ليلبي حاجة هذه الطقوس وتخلّف عنه النثر .

3 ـ احتاجت المعابد ضرباً من الإنشاد الموسق بين الشعر والسجع لمخاطبة الآلهة ، وقد لاحظ ذلك المؤرخ هيرودوتس حين زار بابل ، فقد وجد الكهنة يؤلفون بين الكلمات ويكثفون الرموز المتناغمة مع الحركة الطقوسية ، والكلمة الدينية ، بينا تردّد

(23) العلوي . محمد أحمد بن طباطبا ت 322 . عيار الشعر ص 37 (سنن العرب وتقاليدها) تح : عباس عبد الساتر . طهب دار الكتب العلمية بيروت . 1982 .

الجوقة ترانيم الكاهن ، لكي يحفظها المحتفلون ، ويرددوها كي تستمتع الآلهة بترانيمهم[24] وغالباً ما تكون الترانيم موسقة ومقفاة قارن « نستجير بك يا خير ، فكل ما يحدث هو مما صنعت ، بموسم صيد خِنوان مئة أضحية سفحت ، ورأس قبيلة (ذي قسد) رفعت ، وصدر علهان ذي يحير شرحت ، والفقراء في المآدب خبزاً أطعمت ، والعين من أعلى الوادي أجريت ، وفي الحرب والشدة قويت ، ومن يحكم بالباطل محقت ، وغدير (تفيض) لما نقص زيدت ، ولبان (إلْعَز) دائماً ما بيضت ، وسَحَر اللات إن اشتد ظلامه بلّجت ، ومن يجأر ذاكراً نعمك رزقت ، رزقت ، والكرم صار خمراً لما أن سطعت ، وللإبل المراعي الوافرة وسّعت ، والشرع القويم صحيحاً أبقيت ، وكل من يحفظ العهد أسعدت ، وكل أحلاف ذي قسد أبرمت ، والليالي الغدر بالإصباح جليت ، وكل من اعتدى علينا أهلكت ، وكل من يطلب الحظ مالاً كسبت ، وفي (الشعيب) الخصب أزجيت ، وبئر (يذكر) حتى الجمام ملأت ، الحمد يا خير على نعمائك التي قدرت ، وعدك الذي وعدت به أصلحت ، اعتنتنا يا شمس إن أنت أمطرت ، نتضرّع إليك فحق بالناس ضحيت » .

ومن يقرأ النص الأصلي لهذه الترنيمة الدينية يجدها موسقة ، ويتألف كل بيت من أبياتها السبعة والعشرين من أربع كلمات باستثناء مقطع لم[11] . وينتهي كل بيت بقافية . لاحظ القوافي التي وردت : هقحك / نسحك / قسحك / فقحك / فذحك / وصحك / هسلحك / كشحك / ربحك / ذو ضحك / فتحك / برحك / كشقحك / فسحك / هصححك / فشحك / هبصحك / تصبحك / نوحك / ربحك / كفقحك / هلجحك / ميحك / توحك / صلحك / تنضحك / مشحك[25] .

---

(24) علي . د . فاضل عبد الواحد . عشتار ومأساة تموز ص 130 مط الجمهورية بغداد 1973 . الحوت . محمود سليم . في طريق الميثولوجيا عند العرب ص 50 . طب مؤسسة خليفة بيروت 1979 . باقر . طه . مقدمة في أدب العراق القديم ص 31 طب دار الحرية بغداد 1976 .

(25) عبد الله . د . يوسف محمد . ترنيمة الشمس (نقش القصيدة الحميرية/صورة من الأدب في اليمن القديمة) ص 22 ثم انظر ص 19 . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1989 .

4 ـ وإذا كان الشعر إيقاعاً ورموزاً ولم يستوعب الإنشاد والرقص ذلك الإيقاع السمعي البصري الرمزي ، فإن الدارس غالباً ما يجد في الكهوف القديمة صوراً مكررة لرموز يخافها الإنسان مثل الشمس والأسد والأفعى فيرسمها مكررة على الجدران لكي يتسلط عليها وفق مبدأ السحر التشاكلي ، وإلى جانب الصور المكررة خطوط ونقاط ملغزة تسهم بنظرهم في توكيد أحقية الرغبة في التحقيق(26) وربما يكون ذلك نواة للإيقاع البصري والشعر البصري الذي دعت إليه مدارس حداثوية مثل الدادية ولم ينافس النثر الفني الشعر في فتوحاته حتى استعار كثيراً من آلياته مثل التقفية في السجع والتكثيف والترميز والتخييل .. وهذه أمور جعلت النثر تابعاً والشعر متبوعاً .

وأخيراً فإن هذه الأدلة التي اجتهدنا أنها تعزز فكرة أولية الشعر وأسبقيته ، بيد أنها ـ الأدلة ـ لا تمنع تعددية الآراء وتقاطعية الاجتهادات ، فهناك من يرى غير الرأي الذي عرضناه ، لاحتفاظه بمسوغات وأسباب تجعل الأولية للنثر حين يكون النثر حالة أولى (مخنثة) من حالات امتزاج جنسي الشعر والنثر .. ثم وضحت الحدود وانمازت الجنسية .. ويطرح د . حسين الحاج حسن هذا السؤال : أيهما أسبق في الوجود الشعر أم النثر ؟ .

ويذكر رأياً لأرسطو جاء في كتابه فن الشعر الذي ترجمه ابن سينا ينص : (التخييل أسبق في الزمن من التصديق) ، ثم يربط بين رأي أرسطو بأسبقية الشعر وبين رأي د . طه حسين الذي يرى أن الشعر أسبق وجوداً من النثر .. ويعدد أدلة طه حسين التي تسند نظرية أولية الشعر ! ثم يعرض د . حسين رأياً معارضاً لنظرية أولية الشعر فيقول : (نرى أن الرأي المناسب والقريب من الحقيقة أكثر هو أن النثر قد سبق الشعر في النشأة الأدبية في اللغة العربية وفي غيرها من اللغات الأخرى) !! ثم يعدد أدلة أولية النثر على هذا النحو :

(26) الصائغ . د . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص 241 .
الصائغ . د . عبد الإله . الصورة الفنية معياراً نقدياً ص 17 انظر التمهيد (عرف الإنسان الصورة ورسمها في كهفه شعيرة سحرية ....) .

1 ـ إجماع المستشرقين كلاً أو جلاً على أن السجع هو المرحلة التي سبقت كينونة الشعر ..

2 ـ وجود فنون من النثر الجاهلي قديمة أشار إليها الشعر .

3 ـ الكتب الدينية القديمة نزلت بلغات قومها قبل أن نسمع بالشعر أو النثر .. والأرجح أن لغة هذه الكتب آلت إلى النثر الفني ..

4 ـ الشعر مقيد بالوزن والقافية والنثر أكثر حرية من الشعر[27] ويمكن مناقشة هذه الآراء وجعلها في صالح أولية الشعر ، فهي تتحدث عن الشعر في حالته التي وصلت إلينا من جودة السبك ومتانة الإيقاع .. وهذا الضرب من الشعر لم يدر بخلد أصحاب نظرية أولية الشعر ، فالشعر المقصود هو الترانيم الموسقة التي تعتمد الإشارة قبل العبارة ، والإيقاعات والتكرارات التي لا يشترط الكثير منها الوضوح الدلالي ، وإنما الاشتراط منصرف إلى الوضوح الجمالي ومهما يكن الأمر فما أجمل أن يختلف الباحثون وأن يجتهدوا شريطة أن لا يقعوا في وحل الوهم بامتلاك الحقيقة ، وحرمان الآخرين من حق التحليل والتأويل .. وللمثال فقط نذكر أن جرجي زيدان مطمئن إلى أولية الشعر في حضارة العرب الجاهليين لسبب متفق عليه ، هو أن اللغة العربية أقرب روحاً إلى الشعر لما تمتلكه من حروف يؤدي تجاورها إلى إيقاعات مأنوسة ، ويعدد أسباب التماهي بين العربي ولغته .

1 ـ العربي بفطرته ذو نفس حساسة وشعور راق سريع الطرب ، سريع الغضب ، فيه بديهة وارتجال .

2 ـ إن لغتهم شعرية لما فيها من أساليب الكناية ، والاستعارة ، ودقة التعبير ، وكثرة المترادفات ، مما يسهّل وجود القافية .

(27) الحاج حسن . د . حسين . أدب العرب في عصر الجاهلية . ص 25-28 طب المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت 1984 ثم انظر : العاكوب . د . عيسى علي . التفكير النقدي عند العرب ص 113 . طب دار الفكر . دمشق 1997 .

3 ـ صفاء جوهم وتفرغهم للتأمل في الطبيعة ، فإن أهل الجو الصافي تكون أذهانهم صافية وخصوصاً إذا كانوا أهل خيال وتصور مثل العرب[28] .

(28) زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية 58/1 .

الفصل الثاني

الشعر الجاهلي بين الرواية والتدوين وطبقات الرواة

أثر الشعر في نفس العربي كبير وعميق ، ذلك أمر لا يشك فيه أحد ، فالعربي يعشق الشعر ، ويمحضه اهتمامه وذائقته ، قال رسول الله ﷺ : « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين » .

وقال ﷺ أيضاً : « الشعر كلام من كلام العرب جزل ، تتكلم به في بواديها ، وتسلّ به الضغائن من بينها » .

وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه[1] .

فإذا أيقنا هذا الجدل المتين بين العربي والشعر ، أيقنا أيضاً أن من طبيعة الإنسان المحافظة على الشيء العزيز ، وبخاصة إذا كان هذا العزيز عرضة للضياع والعطب .

وقد احتفظت الذاكرة الجاهلية بالشعر ، وحافظت عليه ، وكانت أمينة على ما احتفظت وحافظت ، وآية ذلك الآتي :

1 ـ كثرة الشعر الذي وصل إلينا وقلة النثر ؛ لأن الذاكرة بطبيعتها (وطبيعة الشعر) قادرة على الإمساك بالشعر ، وهي أقل قدرة على الإمساك بالنثر ..

---

(1) الجمحي . أبو عبد الله محمد بن سلام . طبقات الشعراء ص 51 وبعدها (الشعر ديوان علم العرب) .
القيرواني . ابن رشيق . العمدة 27/1 (باب في الرد على من يكره الشعر) .
الجرجاني . عبد القاهر . دلائل الإعجاز ص 65 (في الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه) .

2 ـ احتفاظ الذاكرة الشعرية بنصوص قيلت ، سبقت ظهور الإسلام بقرن ونصف ، أو قرنين (على رأي الجاحظ) . ولم تشأ هذه الذاكرة تحميل طاقتها فوق ما تحتمل ، ولم تشأ أيضاً ادعاء الاحتفاظ بنصوص لا تدخل في حدودها .

3 ـ أهملت الذاكرة شعر فترة طويلة تزيد على العشرين قرناً بسبب من عدم وجود وثائق علمية ومسوّغات لغوية ، فطرحت شعر العرب البائدة ، فإذا قرأنا في هذا المصدر أو ذاك شعراً مزعوماً لشعراء تلك الفترة (الغاطسة) فذلك إنما جاء على سبيل الوهم أو الطرافة .. ومثل ذلك حدث في نصوص الجغرافية والتاريخ والحديث الشريف دون أن يعكّر الوهم الضئيل قيمة اليقين الكبير .

4 ـ لم يكن العرب كما مرّ بنا أجلافاً متوحشين ، بل كانوا أصحاب معارف وعمران وزراعة وتجارة .. فضلاً عن معرفة القراءة والكتابة وقد انصرفت دلالة الأمية (على رأي د . ناصر الدين الأسد ود . علي فهمي خشيم) إلى الأمية الدينية .

5 ـ كانت الرواية في العصر الجاهلي علماً ، وكان الرواة المحترفون ذوي حافظة فائقة ، وخبرة متراكمة ، ومروءة عالية فضلاً عن أنهم علماء يعتمد عليهم الشعراء وجمهورهم معاً في حفظ الشعر ، والتعديلات التي أجريت عليه والمناسبات التي قيل فيها ، فمن الرواة من كان شاعراً أو ابن شاعر .. فراوية الأعشى كان عالماً بلغات العرب وأيامهم والبيطرة ، وصديقاً ملازماً للشاعر في أسفاره ، ومعظم الرواة كان كاتباً حريصاً على تدوين الشعر .

6 ـ أسهم المخضرمون : شعراء ورواة في إيصال محفوظاتهم إلى علماء التدوين في صدر الإسلام مثل لبيد ، وحسان ، والخنساء ، وأبي ذؤيب ، والحطيئة ، وعبيد بن شرية الجرهمي وسواهم كثير .. قال لبيد :

الشاعرون الناطقون أراهم   سلكوا سبيل مرقّش ومهلهل[2]

---

(2) العامري . لبيد بن ربيعة . ديوانه . ص 128 .

وقد ورث الأمويون وبخاصة معاوية وعبد الملك بن مروان صناديق ملأى بمدونات الشعر الجاهلي ! ويبدو أن الفرزدق كان محتفظاً بقصائد جاهلية كثيرة .. فهو القائل :

وهب القصائد لي النوابغ إذ مضوا … وأبو يزيد وذو القروح وجرول

والفحل علقمة الذي كانت له … حلل الملوك كلامه لا ينحل

وأخو بني قيس وهن قتلنه … ومهلهل الشعراء ذاك الأول

والأعشيان كلاهما ومرقّش … وأخو قضاعة قوله يتمثل

وأخو بني أسد عبيد إذ مضى … وأبو دؤاد قوله يتنحل

وابنا أبي سُلمى : زهير وابنه … وابن الفُريعة حين جد المقول

والجعفري وكان بشر قبله … لي من قصائده الكتاب المجمل

ولقد ورثت لآل أوس منطقاً … كالسّم خالط جانبيه الحنظل[3]

وقد ذكر الفرزدق في :

ب 1 ـ نابغة بني جعدة وبني ذبيان وذا القروح امرأ القيس الذي أهداه يوستنيانوس عباءة مسمومة .

ب 3 ـ أخا بني قيس : طرفة .

ب 4 ـ أعشى قيس وباهلة .

ب 5 ـ أخا قضاعة : الطمحان القيني .

ب 6 ـ أبا دؤاد : جارية بن عمران .

ب 7 ـ الجعفري : لبيد .

ب 8 ـ أوس بن حجر .

لقد بلغنا الشعر الجاهلي وقد اكتملت آلته ، وتبلورت شعريته ، وامتدت همومه على مساحة عصره فعبّر عنها أحسن تعبير ، وكان من عادة الشعراء الجاهليين اتخاذ

---

(3) الفرزدق ت 110 هـ . ديوانه ص 463 . شرح علي فاعور . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1987 .

رواة لهم ، ووظيفتهم تشبه وظيفة المستشار من جهة والسكرتير العلمي وليس السكرتير الإداري ، فالراوي ملازم للشاعر في حله وترحاله ، أفراحه وأتراحه ؛ يدوّن ما يسمع ، ويحفظ ما يدوّن ، ويقفّي للشاعر ويذكّر ، وقد يسأله الشاعر عن معنى خفي أو عبارة مختلطة فيجيبه ، أو يستشيره في أمر يتصل بالشعر والتجربة فيشير عليه ، وكان من عادة الرواة أنهم يعتمدون على قوة حافظتهم وذاكرتهم أولاً ، ثم يدونون محفوظاتهم في صفحات ذات طبائع مختلفة ، مثل الرق (جلد الغزال) والرقم (الطين الرقيق المشوي مع الرصاص) ، والقضيم (الجلد الأبيض) ، والأدم (الجلد المدبوغ) ، والمهارق (القماش) والعسب (جريد النخل) ، واللخاف (الحجارة) ، وعظام الكتف والأضلاع والموسوليني (قماش موصلي) ، والدمقسي (قماش دمشقي) والقتب (خشب الرحل) والجدران الصقيلة والقرطاس والورق والأزلام (الأسهم) .

وقد وردت هذه المسميات في الشعر الجاهلي دليلاً على شيوعها !

أ . حسان بن ثابت :

عرفت ديار زينب بالكثيب   كخط الوحي في الورق القشيب

ب . طرفة بن العبد :

كسطور الرق رقشه   بالضحى مرقش يشمه
وخد كقرطاس الشآمي ومشفر   كسبت اليماني قِدّه لم يجرّد

جـ . امرؤ القيس :

لمن طلل أبصرته فشجاني   كخط زبور في العسيب يماني

د . الأعشى :

ربي كريم لا يكدّر نعمة   وإذا يناشد بالمهارق أنشدا

هـ . الحارث اليشكري :

حذر الجور والتعدّي وهل ينـ ـقض ما في المهارق الأهواء

و . لبيد العامري :

فمدافع الريان عرّى رسمها خلفا كما ضمن الوحي سلامها

ز . النابغة الذبياني :

كأن مجرّ الرامسات ذيولها عليه قضيم نمقته الصوانع

ح . المرقش الأكبر :

الـدار قفر والرسوم كما رقّش في ظهر الأديم قلم

ط . حاتم الطائي :

أتعرف أطلالاً ونؤياً مهدّما كخطك في رق كتاباً منمنما

ى . معقل بن خويلد :

وإني كما قال مملي الكتا ب في الرقّ إذ خطّه الكاتب

وقد اعتادت العرب كتابة عهودها وعقودها ومواثيقها وقصائدها وتعليقها على أماكن مهيأة لها في أبواب المدن ، وأسواقها وأستار الكعبة ، ومداخل الأحياء .

ونقل إلينا ابن هشام خبر الصحيفة المشؤومة التي كتبتها قريش وركزت فيها على مقاطعة بني هاشم وأهل بيت النبي ﷺ : (اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ،.. ثم علقوا

الصحيفة في جوف الكعبة ...، وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فدعا عليه رسول الله ﷺ فشل بعض أصابعه)[4] .

وكان أبو جهل يحسن الكتابة[5] أما الشفاء العدوية فقد احترفت التعليم في الجاهلية ، كما احترف العباديون الذين استوطنوا الحيرة واليمامة تعليم القراءة والكتابة والحساب ، وحين أشرق الإسلام كان عدد الذين يقرؤون ويكتبون غير قليل ، ولنا أن نتذكر كيف طلب النبي ﷺ من أسرى قريش مفاداة أنفسهم بأن يقوم كل أسير بتعليم عشرة من صبيان المسلمين .

وذكر البلاذري أن زيد بن ثابت كان يكتب ويقرأ بالعربية والعبرية ، وذكر أسماء الشعراء الذين يحسنون كتابة قصائدهم مثل عدي بن زيد العبادي ولقيط بن يعمر الإيادي وسويد بن الصامت الأوسي ، والربيع بن زياد العبسي ، والمرقش الأكبر وأخيه حرملة وكعب بن مالك الأنصاري ، ولبيد العامري ، وزهير بن أبي سُلمى ، وعبد الله بن رواحة ، وبجير وكعب ابني زهير[6] أما صاحب حصن الأخيضر قرب عين التمر وأمير دومة الجندل ، فكان يكتب القصائد والأخبار ، وقد استعانت قريش بأخويه بشر وحسان لتعليم رجالها وصبيانها ففعلا ، وكان أمير الدومة أكيدر بن عبد الملك السكوني يفخر على قريش بصنيع أخويه[7] فالكتابة لم تكن معدومة كما تهيأ لعدد من الدارسين ، فقد استدعت الحياة عهد ذاك كتاباً يمسكون الحسابات التجارية ، وكهنة يطالعون التوراة والإنجيل وقيل : إن الجاهليين كانوا يعرفون صحف إبراهيم عليه السلام ، ويقرؤون فيها ، وقد قال الأعشى حين نوى الإسلام لأبي سفيان :

---

(4) هارون عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام ص 75 (خبر الصحيفة) .

(5) هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام ص 123 .

(6) البلاذري . أحمد بن يحيى بن جابر 279 . فتوح البلدان ص 477 ثم 305 . طب مكتبة النهضة مصر 1956 .

(7) انظر في ذلك : الحموي . ياقوت بن عبد الله ت 626 هـ معجم البلدان 325/2 طب إحياء التراث العربي بيروت 1997 . وانظر الآلوسي . محمود شكري بن عبد الله ت 1342 . بلوغ الأرب 382/3 تح محمد الأثري . مط الرحمانية مصر 1924 .

إنني قرأت في الكتب أن نبياً قد بعث ، وقد حذق الأعشى العربية والفارسية والتركية وحذق لقيط الإيادي وعدي بن زيد العبادي العربية والفارسية ، واشتغل كل منهما ترجماناً في بلاط كسرى ، أما ورقة بن نوفل ورهطه فكانوا يكتبون بالعربية العبرية ، وسواهم كان يكتب بالسريانية والرومية والقبطية والحبشية[8] وقد علل د . ناصر الدين الأسد ود . علي فهمي خشيم دلالة الأمية التي وصم بها الجاهليون على نحو تختلف عن الفهم السائد ! والدكتور الأسد يرى أن الأمية التي وردت في [آل عمران : 75/20] [الجمعة : 2/62] ليست أمية قراءة وكتابة (غير أن هذا الوصف بالأمية لا يعني الأمة الكتابية ولا العلمية وإنما يعني الأمية الدينية أي أنهم لم يكن لهم قبل القرآن الكريم كتاب ديني ومن هنا كانوا أميين دينياً ، ولم يكونوا مثل أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين كان لهم التوراة والإنجيل) ، ثم استشهد بآيتين من سورة [البقرة : 79/78] ليقرر بعدها (أن معرفة الجاهليين بالكتابة العربية قد امتدت في الجاهلية ثلاثة قرون على أقل تقدير وأن ذلك ثبت بالبرهان القاطع والدليل المادي الملموس الذي لا سبيل إلى دفعه)[9] .

وكما شاعت مفردات تتصل بآلية الكتابة مثل : رقّش نمق سطّر ، غنم ، خطّ ، زخرف ، نحت ، حكك ، رسم ، زُبُر ، أقلام ، أديم ، نمق ، نظم[10] فقد شاعت أيضاً مفردات الصحيفة والكتاب .

أ . لقيط الإيادي :

سلام في الصحيفة من لقيط   إلى من في الجزيرة من إياد
هذا كتابي إليكم والنذير لكم   لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا[11]

(8) انظر هامش 5 ص 44 والأصبهاني . أبو الفرج . الأغاني 101/2 .

(9) الأسد . د . ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص 44 ثم ص 26 .

(10) الصائغ . د . عبد الإله . الصورة الفنية معياراً نقدياً ص 23 (فقرة ، رذاذ الصور في الشعر الجاهلي) .

(11) الصائغ . عبد الإله . صحيفة لقيط الإيادي (تحليل نص) . مجلة الطليعة الأدبية . عدد الشهر الثاني 1979 . بغداد .

ب ـ زهير بن أبي سلمى :

يؤخرّ فيوضع في كتاب فيدّخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم[12]

جـ ـ لبيد العامري :

بين ابن قطرة وابن هاتك عرشه ما إن يجود لوافد بخطاب[13]

العرب من خلال نصوص الشعر والوثائق التاريخية ، أمة عرفت الكتابة ، وكانت تؤرّخ جل الأحداث ، وقد كشفت الحفريات في شمال الجزيرة عن عدد من النقوش لا يستهان به ، بينها نقش وُجد على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب في النمارة ، يعود ميقاته إلى سنة (328 ميلادية) ، وحروف هذا النقش عربية !![14] فكل دراسة لتدوين الشعر الجاهلي تظل مبتورة (ما دامت رمال الجزيرة تضن بهذه الكنوز التي ترقد في بطونها)[15] .

أما في جنوب الجزيرة فما فتئ الإرث الشعري أسير الحدس والفرضيات رغم الكشوفات (المفرحة) التي أنقذت مئات الألواح الطينية من التلف والغياب ، إلا أن جل الألواح المكتشفة تمثل توريخات الجماعات العربية بما يعوّل عليها قول أشياء جديدة ، يقول الأستاذ عبد العزيز المقالح : « إن تاريخ اليمن القديم لم يكتب حتى الآن » ، والذي كتب منه يمثل أقل القليل ، ومن هذا الأقل نهضت (الحقيقة التي أثبتها الباحثون) كما يقول الأستاذ المقالح وهي : « إن سفر أيوب إنما كتب في بلاد

---

(12) التبريزي . أبو زكريا يحي بن علي ت 502 هـ . شرح القصائد العشر ص 115 طب دار الجيل بيروت (د : ت) .

(13) العامري . لبيد . ديوانه ص 19 .

(14) علي . د . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 124/3 .

(15) الأسد . د . ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي ص 31 .

العرب اليمنيين في القرن العشرين قبل الميلاد ، وقد نظم هذا السفر شعراً ، ثم ترجمه اليهود إلى العبرية نثراً ، وأدخلوه ضمن أسفارهم المقدسة »[16] .

والنقوش التي اكتشفت ووثقت في أنقاض محرم بلقيس ستضيء عتمات كثيرة تتصل بحروف المسند وأواصرها بالحروف التقليدية ، ومعظم المعلومات التي قالتها النقوش تمتلك فاعلية باقية ، فقد ذكرت عدداً من القبائل اليمنية المعروفة اليوم مثل (بني كبسي) فضلاً عن ورود مفردتي (عرب/أعراب)[17] .

ولكننا لن ننتظر خواتيم عمليات التنقيب ، فقد تستمر قرناً أو أكثر في حياتنا البطيئة التي تغمض عينيها ، وتغلق أذنيها عن المتغيرات العجائبية التي شهدتها التسعينيات ، من نحو ثورة المعلومات التي تمثلت في الأنترنيت ، وبرامج الحاسوب كما تمثلت في الهندسة الوراثية والاستنساخ .!!. لكن الذي لا يدرك كلُّه لا يترك جلُّه ، فإن بمقدورنا ترميم صورة تاريخ التدوين الأدبي استناداً إلى آلياتنا التقليدية المتاحة ، يقول الشاعر والمفكر الأستاذ عبد العزيز المقالح : « ومعلوم أن لكل شعب أكثر من تاريخ ، وفي المقدمة التاريخ الرسمي الذي يدوّن الحوادث من وجهة نظر سياسية ، تحتمل الصواب والخطأ ، وتاريخ علمي يعتمد الآثار والنقوش ، وأصحابه لا يقبلون أحياناً بأقل من أن يمسكوا التاريخ بأيديهم ، ولذلك يمكنهم نفي أهم الأحداث التي أجمع عليها كل المؤرخين ، وإذا لم يجدوا تمثالاً أو نقشاً لهارون الرشيد ، أو صلاح الدين الأيوبي فإنها شخصيتان أسطوريتان !! وثالث التواريخ هو التاريخ الأدبي إذا جاز لي استخدام هذا الوصف ـ وهو الذي يعتمد الشعر والأساطير والحكايات والمرويات التي تتناقلها الأجيال ، وهو في تقديري ـ لا يقل أهمية عن التاريخين السابقين ، لأنه يقوم

---

(16) المقالح . د . عبد العزيز (تقديم) نقوش مسندية وتعليقات تأليف مطهر علي الإرياني . ص 17 سبينوزا . رسالة في اللاهوت والسياسة . ص 292 وقد أشار سبينوزا وهو يهودي إلى أن شاعراً من اليمن كتب أجزاء من التوراة لليهود . ترجمة د . حسن حنفي طب الهيئة المصرية 1971 .

(17) الإرياني . مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات ص 104 نقش 12 ثم ص 42 نقش 1 .

على رصد الوشائج العميقة التي تربط الإنسان بأسلافه من جهة ، ولأنه ـ من جهة ثانية ـ يشكل الجزء المهم من المخزون الحي للذاكرة الشعبية التي قد تضيف بعض الألوان إلى الحدث لكنها لا تختلف ولا تنسى)[18] وقد مرّ بنا عناية الشعراء وقبائلهم وجمهورهم بالرواية والرواة ، وكان الراوي متميزاً بالحفظ والتذكّر والمروءة ، فأبو ضمضم ، ولم يكن بأروى الناس كما يقول ابن قتيبة ، بلغ التّسعين وأنشد لصبيان جاؤوه ليسمروا عنده لمئة شاعر ، وقال مرة أخرى لثمانين شاعر كلهم اسمه عمرو[19] وهناك آلية معتمدة لكشف فساد الرواية ، فقد يكون الرجل عالم سيرة بيد أنه لا يصلح لرواية الشعر « وكان ممن هجن الشعر وأفسده ، وحمله كل غثاء محمد بن إسحاق ، وكان من علماء الناس بالسير وكان يعتذر ، ويقول : لا علم لي بالشعر ، وإنما أوتى به فأحمله)[20] ويقول الجمحي في خلف الأحمر : « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقهم لساناً ، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه »[21] أما حماد الراوية فقد قال فيه الأصمعي : « كان حماد أعلم الناس » .

وسأل الوليد بن يزيد حماداً : « بم استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية ؟ فقال : إني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروي لأكثر منهم ممن تعرف أنك لم تعرفه ، ولم تسمع به ، ثم لا أنشد شعراً لقديم ولا محدث إلا ميزت القديم منه من المحدث ، فقال : إن هذا العلم وأبيك كبير ، فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكنني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية ، قال : سأمتحنك في هذا ، وأمره بالإنشاد فأنشد الوليد حتى ضجر ، ثم وكل به من استخلفه أن يصدقه عنه ، ويستوفي عليه ،

(18) المقالح . د . عبد العزيز . البحث عن طفولة بلقيس في قرية سحر يوميات الثورة . جريدة الثورة اليمنية في 1998/11/24 .

(19) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 22/1 (مقدمة الكتاب) .

(20) الجمحي . طبقات الشعراء ص 44 .

(21) المصدر نفسه ص 50 .

فأنشده ألفين وتسع مئة قصيدة للجاهليين)[22] وهذا يرينا القدرة العجائبية للراوي وطرائق المعنيين في اختبار آليات الراوي ، وأمانته وعلمه ، وفي كتب الأدب الموثوقة أخبار كثيرة عن قدرات الراوي في الموازنة بين الشعراء ومعرفة أساليبهم ، وربما نافس الشاعر راويته في القدرة على استظهار ما يحفظ ، وكان بشار يحفظ كلّ شعره قال مرة : « لي اثنا عشر ألف قصيدة ، لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن في كل واحدة منها بيت عين » .

وحين يتعجب الناس من فصاحته وبراءته من الخطأ كان يقول : « ومن أين يأتيني الخطأ وقد ولدت ها هنا ، ونشأت حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ، ما فيهم رجل يعرف كلمة من الخطأ » . ثم ذكر أنه نشأ في وسط فصيح شمل النساء أيضاً ، وذهب إلى البادية للفصاحة « وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت فمن أين يأتيني الخطأ)[23] ولا نريد الاستطراد ، فإذا كان هذا حال العصر الأموي والعباسي ، وقد شغل هذان العصران بمشاغل لا حصر لها .. ولثبت القدرة على النحو الذي مرّ بنا .. فما حال رواة العصر الجاهلي وشعرائه ، وكانوا منصرفين للشعر والرواية ، وليس ثمة شيء حقيقي يشغلهم ، وقد عرف الجاهليون الوراقة ضمن دائرة ضيقة ، ولم يجد المسلمون مشقة في كتابة الوحي والأحاديث الشريفة ، حتى إن الخليفة عمر (رضي الله عنه) أحرق عدداً من الكتب التي كتبها الكهنة والنسّابون الجاهليون مخافة أن تضل الناس ، وكان الشعر الجاهلي حسن الحظ فقد وجد من العلماء الكبار من يتعصّب له ويقيّده ويعتدّه معياراً للجودة فيدرسه ويحلله ، ويميّز أصيله من دخيله ، نذكر من هؤلاء 1 ـ دغفل بن حنظلة بن زيد الذهلي (ت 65 هـ) . 2 ـ عبيد بن شرية الجرهمي (ت 67 هـ) . 3 ـ عبد الله بن عباس (ت 87 هـ) . 4 ـ الفرزدق (ت 115 هـ) . 5 ـ أبا عمرو بن العلاء

---

(22) الأصبهاني . أبو الفرج . الأغاني (كتبخانة) 3/24ـ26 .

(23) المصدر نفسه 5/156 .

(ت 154 هـ) . 6 ـ حماد الراوية (ت 156 هـ) . 7 ـ المفضّل الضبي (ت 178 هـ) . 8 ـ خلف الأحمر (ت 180 هـ) . 9 ـ محمد بن السائب الكلبي (ت 204 هـ) . 10 ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ) . 11 ـ أبو عمرو الشيباني (ت 213 هـ) . 12 ـ الأصمعي (ت 216 هـ) . 13 ـ ابن الأعرابي . محمد بن زياد (ت 231 هـ) . 14 ـ ابن سلام الجمحي (ت 232 هـ) .

وفي المصادر الأدبية أمثلة ووثائق غاية في الطرافة تعكس لنا (استهتار) معظم أولئك العلماء الرواة بالشعر الجاهلي ، حتى ليمكن نعتهم بأنهم عصبة الشعر الجاهلي دون أي شعور بالمبالغة أو التجني فدغفل كما يقول الجاحظ : « لم يدرك الناس مثله لساناً وعلماً وحفظاً »[24] وعبيد بن شرية ذكر أخباره السجستاني في (المعمرون والوصايا) . فقد عاش شطراً من حياته في الجاهلية ، وعمّر فكان معاوية يستقدمه ويستكتبه في أشعار العرب وأيامها[25] وعبد الله بن عباس كان يقرأ حمل جمل ، فإذا سئل عن معنى في القرآن الكريم قال : « إذا سألتم عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر الجاهلي » ، ومحاوراته مع نافع بن الأزرق معروفة[26] .

أما الفرزدق فقد مرّت بنا أخباره ، قال يونس النحوي (ت 182) : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار العرب »[27] . وننقل عن أبي عمرو العلاء : « قال الأصمعي جلست إلى أبي عمرو عشر حجج ما سمعته يحتج ببيت إسلامي ! وقال مرة : لقد كثر هذا المحدث وحسن ، حتى هممت أن آمر فتياننا بروايته ! وقال أبو عبيدة : كان أبو عمرو أعلم الناس بالعرب والعربية ، وبالقراءة ، والشعر ، وأيام الناس .

(24) الجاحظ . البيان والتبيين (تح السندوبي) 304/8 .

(25) السجستاني . أبو حاتم سهل بن عثمان ت 250 . المعمرون والوصايا . تح عبد المنعم عامر . طب إحياء الكتب ـ القاهرة 1961 .

(26) السيوطي . المزهر 302/2 وانظر : ابن الأزرق . نافع الحروري ت 65 . سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس . تح إبراهيم السامرائي . مط المعارف بغداد 1968 .

(27) الجاحظ . البيان والتبيين (السندوبي) 304/1 .

وكانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى السقف ! وكان عامة أخباره عن أعراب قد أدركوا الجاهلية »[28] .

أما ابن الكلبي فيكفيه أنه أنجز ثلاثة كتب مهمة وهي (الأصنام) و (الخيل) و (الأسواق) وهذه الكتب حفظت أفانين من الشعر الجاهلي لا يمكن إغفالها !!

أما أبو عمرو الشيباني فكان معمّراً ، شغوفاً بالشعر الجاهلي ، ولديه منه ما يثقل ظهر أربعة جمال بازلة ، تنتقل معه حيث شاء ، وقد تتلمذ على المفضل الضبي[29] .

وحكاية تعصّب ابن الأعرابي للشعر القديم (الجاهلي) معروفة ، فهو الذي تلعّبه أبو تمام حين قرأ عليه أرجوزته ، وكذب عليه مدعياً أنه عثر عليها في سفط قديم فأمر ابن الأعرابي خادمه أن يكتب هذه الأرجوزة العزيزة ! وحين اطمأن أبو تمام إلى إعجاب الشيخ بأرجوزته : (هذا والله لهو الديباج الخسرواني) اعترف لشيخه أن الأرجوزة كتبت لليلتها فغضب الشيخ ، وقال لغلامه : « خرّق خرّق لا جرم أنها بادية السخف فطيرة النسج » .

وقد نقل إلينا شاهد عيان ما يفيد أنه كان يقرأ كتباً في الشعر الجاهلي ينظر فيها ويوازن بينها فإذا دعاه داع احتج بوعكة أو ضيف حتى لا يترك ما بين يديه[30] .

وصفوة القول أن الشعر الجاهلي كنز لم يفرّط فيه العرب ، بل اهتموا به اهتماماً بالغاً ، فهو ديوانهم وعلمهم الصحيح ، فحلّلوه تحليلاً علمياً ، ولم يهملوه على مرّ تاريخهم ، فكل حدث يحيلهم إلى الشعر ، وآية ذلك أن كتّاب الشعر ومدوّنيه لم يطلسوا الشعر الذي ورد فيه ذكر الأصنام ، والغزل الماجن والخمرة الصريحة ، والهجاء المقذع ،

---

(28) المصدر نفسه 303/1 .

(29) ابن خلكان . وفيات الأعيان 65/1 .

(30) انظر أخباره : البيان والتبيين (فهرست الأعلام) ثم انظر الزجاجي . أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق ت 339 هـ . مجالس العلماء (فهرست الأعلام) تح عبد السلام هارون . مط المدني ، مصر 1983 .

والرثاء الموجع ، والمديح الكاذب ، مع عمق إيمانهم ، وثبات عقيدتهم ، فهم ذوو منهج يضع الشعر الجاهلي في إطار عصره الذي سبق الإسلام ، وإنما نهى الإسلام الشعراء المسلمين عن محاكاة الشعر الجاهلي في ضلالته ومروقه ..

طبقات الرواة

راوي الشعر ليس بنكاً يحفظ فيه الشعر ويسحب منه ، متى أراد الشاعر أو جمهوره فحسب ، وإنما هو عالم بفنون الشعر وأساليبه وطرائقه ، وهو إلى هذا ناقد حصيف قادر على التمييز بين الغث والسمين ، والجميل والأجمل ، فضلاً عن إلمامه بعدد من علوم زمانه ، مثل التاريخ ، والنسب والراوي مثل ربان سفينة الشعراء وبيده سكانها !

دار بين الخليل بن أحمد وبين ابن مناذر كلام فقال له الخليل : إنما أنتم الشعراء تبع لي ، وأنا سكان السفينة إن قرّضتكم ، ورضيت قولكم ، نفقتم وإلا كسدتم »[31] .

وكان الراوية خلف الأحمر ناقداً لا يجاريه في زمانه ناقد . « أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لا يجرون مع خلف الأحمر في حلبة هذه الصناعة ، أعني النقد ، ولا يشقون له غباراً لنفاذه فيها وحذقه بها وإجادته لها .. وحكي أن رجلاً قال لخلف الأحمر : ما أبالي إذا سمعت شعراً استحسنته ما قلتَ أنت وأصحابك فيه !! فقال له : إذا أخذت درهماً تستحسنه ، وقال لك الصيرفي : إنه رديء ، هل ينفعك استحسانك إياه ؟ »[32] .

فالرواية ليست عملاً (بنكياً) وإنما هي صناعة صعبة تتطلب صبراً ومروءة ، وثقافة عريضة ، وموهبة أكيدة ، حتى قال الباقلاني : « علماء الشعر أندر من الكبريت الأحمر » . وسبب الندرة يُحيلنا إلى مشقة الرواية ومكابداتها ! يقول الجمحي : « وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات »[33] .

(31) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 16/17 .

(32) القيرواني . العمدة 117/1 .

(33) الجمحي . طبقات الشعراء (تح الطباع) ص 43 .

وإذا صنفنا رواة الشعر الجاهلي ألفيناهم خمس طبقات ، قارن..

1 ـ الرواة الشعراء 2 ـ رواة الشعر 3 ـ رواة القبيلة 4 ـ الرواة العلماء 5 ـ الرواة الوضاعون .

1 ـ الرواة الشعراء :

تختلط وظيفتا الشعر والرواية في العصر الجاهلي فقد يكون الشاعر راوياً ، والراوي شاعراً ، وبدهي أن يكون الشاعر راوية نفسه حين يستدعي الأمر ، وقد يروي لشاعر آخر بدواعي التلمذة ، أو الإعجاب ، أو مصلحة القبيلة ، والشاعر الفحل عند النقاد هو الشاعر الراوي ؛ لأنه يضيف خبرة إلى خبرة ، ويوشّ أسلوباً إلى أسلوب فيغتني شعره ، ولنا أن نلاحظ سلاسل الرواية ـ وكأنها مدارس ، على تعبير زماننا ، وقد تمتد السلسلة إلى عصور لاحقة فزهير كان راوية لخاله بشامة بن الغدير وراوية أيضاً لزوج أمه أوس بن حجر : أوس بن حجر ⟵ زهير بن أبي سُلمى ⟵ كعب بن زهير ⟵ الحطيئة ⟵ هدبة بن الخشرم ⟵ جميل بن معمر ⟵ كثير[34] .

قال الأصبهاني : « وهدبة شاعر فصيح كان يروي للحطيئة ، والحطيئة يروي لكعب بن زهير ، وكعب يروي لأبيه زهير ، وكان جميل راوية هدبة ، وكثير راوية جميل . فلذلك قيل : إن آخر فحل اجتمعت له الرواية إلى الشعر كثير »[35] .

وقال ابن قتيبة : « وكان زهير راوية أوس بن حجر . وكان زهير أستاذ الحطيئة ، ومع أن أبا زهير كان شاعراً إلا أنه لم يرو زهير له »[36] .

---

(34) الجادر . د . محمود عبد الله . شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين ص 75 طب دار الرسالة بغداد 1979 .

(35) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 169/21 .

(36) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 73/1 ثم 77 .

ولهذه المدرسة أسلوبها الخاص ، وكان الأصمعي يقول زهير والحطيئية وأشباههما عبيد الشعر ؛ لأنهم نقحوه ، ولم يذهبوا به مذهب المطبوعين[37] وكان الأعشى يروي للمسيّب بن علس .

2 ـ رواة الشعر :

اعتمد الشاعر الجاهلي على راوية يحفظ شعره ، ويستذكره ، وكان راوية الأعشى مثلاً عالماً بالرواية ، والشعر ، وأيام العرب ، والإبل ، وهو صحيبه في حله وترحاله واسمه (عبيد) ذكره الأعشى في شعره مشيراً إلى خبرته بطب الإبل ..

لم تعطفّ على حوار ولم يقـ ـطع عبيد عروقها عن خُمال

(عن عبيد راوية الأعشى قال قدمت على النعمان فأنشدته :

إليك أبيت اللعن كان كلالها تروح مع الليل التمام وتغتدي

حتى أتيت على آخرها فخرج إلى ظهر النجف ، فرأيته قد اعتمّ بنباتة بين أحمر وأصفر وأخضر ، وإذا فيه من هذه الشقائق شيء لم أر مثله ، فقال : ما أحسن هذه الشقائق احموها ، فحموها فسمي شقائق النعمان[38] .

وكان عبيد يسأل الأعشى عن معاني شعره الخبيئة ، فقد سأله مرة عن معنى :

ومدامة مما تفتّق بابل كدم الذبيح سلبتها جريالها

(وكان عبيد يصحب الأعشى ويروي شعره ، وكان عالماً بالإبل)[39] .

وقيل : إن للأعشى راوية آخر هو يحي بن متى ، وقيل أيضاً : إن يحي هو عبيد .

---

(37) المصدر نفسه . الشعر والشعراء 77/1 .

(38) المصدر نفسه 161/1 .

(39) المصدر نفسه 161/1 .

أما امرؤ القيس فكان راوية لأبي دؤاد الإيادي ، وقد أملى امرؤ القيس كثيراً من أشعاره على راويته وكذلك لبيد وبقية الشعراء الجاهليين ، حتى باتت الرواية جانباً مظهرياً ، فقد تعرف قيمة الشاعر من خلال قيمة الراوي ومنزلته الاجتماعية والعلمية بين الناس ..

3 ـ رواة القبيلة :

صراع القبائل العربية على السلطة والمجد ، أحوجها إلى سلاح الشعر ، فقد كانت القبيلة تحتفل إذا نبه اسم شاعر فيها ، فتقيم الولائم والأفراح ، فقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول ، وما مُدح به هو وأهل بيته ، وربما أثيرت مسألة النحل بسبب تفاخر القبائل العربية بالمآثر والحروب ، وقد « استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم » .

ويطمئن ابن سلاّم الحريصين على دقة الرواية فيقول : « وليس يشكل على أهل الظلم زيادة ذلك ، ولا ما وضع المولدون » .

وكان أبو عبيدة يسأل داود بن متمم بن نويرة عن شعره أبيه ! ويرينا ابن سلام خارطة الشعر الجاهلي وفق القبائل فيقول : « وكان شعراء الجاهلية في ربيعة أولهم المهلهل ، والمرقشان ، وسعد بن مالك ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب بن علس ، ثم تحول في قيس فمنهم النابغة الذبياني وهم يعدّون زهيراً وابنه كعباً ولبيداً والنابغة الجعدي والحطيئة والشماخ ومزرداً وخداش بن زهير من غطفان ثم آل ذلك إلى تميم »[40] .

ولشدة تعلق قبيلة تغلب بشاعرها عمرو بن كلثوم فقد حفظت معلقته وافتخرت بها على القبائل حتى قيل :

(40) الجمحي . طبقات الشعراء (تح الطباع) 55 .

ألهى بني تغلبٍ عن كل مكرمة قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

وكما سأل أبو عبيدة ابن متمم عن شعر أبيه ، فقد كان عدي عُمّر طويلاً ، وروى عن أبيه حاتم ، ويسأل عن أبيه فيجيب ، وقيل : إن (سعيد بن غريض) وقد عُمِّر هو الآخر ، وكان ينشد شعر أبيه السموءل لمعاوية . وروي أن النبي ﷺ سأل عمن يستطيع إنشاده شعر أمية بن أبي الصلت فنهض الشريد بن سويد ، وهو من ثقيف قبيلة أمية بن أبي الصلت ، وأنشده شعر أمية وهو مغتبط ؛ لأن النبي ﷺ استنشده شعر فرد من قبيلته[41] وتنقل أخبار عبد الملك بن مروان أنه أحب أن يسمع قصيدة ذي الإصبع العدواني كاملة :

عذير الحي من عدوان كانوا حية الأرض

فنهد شيخ من عدوان وقال أنا أحفظها ، وبدأ يقرأ عليه وعبد الملك مغتبط ، وحين أتم الشيخ إنشاد القصيدة كافأه عبد الملك مكافأة مجزية ، وأنس به قائلاً : « ادن مني فإني أراك بقومك عالماً »[42] .

4 ـ الرواة العلماء :

الرواية علم وفن ، والعرب ذوو عناية بالغة بآلية الرواية ، وقد مرّ بنا أمر العلماء الرواة ، وقد نضيف إلى ذلك المروءة ، فأبو عمرو بن العلاء أحرق كتبه التي كانت تملأ غرف داره إلى السقوف ، لأنه خشي أن يكون فيها حرف لا يرضي الله ، وهو من هو في المروءة العلمية والأمانة .

وكان الأصمعي يتحرّج فلا يروي شعر الأنواء ، وإنما ينصح السائل أن يذهب إلى راو آخر يمنحه ما يريد ، وكان أولئك الصفوة من العلماء مخازن ثمينة للشعر والمعلومات

---

(41) السيوطي . عبد الرحمن جلال الدين . ت 911 هـ . المزهر 209/2 تح محمد جاد المولى وصاحبيه . طب دار إحياء الكتب . مصر . (د : ت) .

(42) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 4/3 .

التي تمثل ثقافة العصر ، فثمة راو لأشعار الفراسة ، وآخر اختص بالفروسية ، وثالث بالأنواء ، ورابع بالأخلاق وخامس بأيام العرب ، وسادس بالغزل ، وسابع بالهجاء والقائمة تطول . وكيف لا يكون الرواة علماء أمناء ، وهم مسكونون بهاجس خدمة القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، والنحو ، والصرف ، والبلدان ، وكان أولئك العلماء سبباً في تسليط الضوء على قيمة الشعر الجاهلي .

يقول ابن سلام : « أجمع أصحابنا أنه ـ خلف الأحمر ـ كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقهم لساناً ، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً أن لا نسمعه من صاحبه ، وكان أبو عبيدة والأصمعي من أهل العلم . وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة المفضل الضبي الكوفي ، ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرمين فنزّلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حجة ، وما قال فيه العلماء »[43] .

5 ـ الرواة الوضّاعون :

الخيانة العلمية ، ليست ابنة عصر دون عصر ولا قرينة مكانٍ دون آخر ، فما دامت الآفتان ؛ الرغبةُ والرهبةُ هما المتحكمتين في مصائر الناس ، فإن علينا أن نتوقع شُللاً وطوائف من العلماء أو أدعياء العلم ممن يبيعون ضمائرهم لرغبة أو لرهبة ، فحبّرت صفحات في أحاديث نبوية منحولة ، وصفحات في أحداث تاريخية مكذوبة ، وصفحات في قصائد جاهلية منحولة ، وربما كانت حاجة الناس والسلطان في ذلك الزمان والذي لحقه إلى رواة حفظة يسامرونهم في الليل ، ويطردون عنهم كآبة الفراغ وتبكيت الضمير في النهار . كانت وراء وضع بعض الرواة وانحطاطهم ، وربما شجع الخليفة على الوضع ، فقد ذكر « أن دغفلاً النسّابة دخل على معاوية ، فقال له : من رأيت من علية قريش ؟ فقال : رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس ، فقال صفهما لي . فقال : كان عبد المطلب أبيض مديد القامة ، حسن الوجه في جبينه

(43) الجمحي . طبقات الشعراء (تح الطباع) ص 50 وبعدها .

نور النبوة ، وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد الغاب قال فصف أمية ، قال : رأيته شيخاً قصيراً نحيف الجسم ضريراً يقوده عبده ذكوان . فقال معاوية : مه ذاك ابنه أبو عمرو ، فقال دغفل هذا شيء قلتموه بعد وأحدثتموه وأما الذي عرفت فهو الذي أخبرتك به »[44] .

وكان معاوية وعبد الملك شغوفين بمسامرة الرواة ، وقد يستمر السمر إلى الصباح ، وكان معاوية قد وظف عدداً كبيراً من الكتبة يدونون له ما يسمعون عن الرواة من الأشعار وأيام العرب[45] . وقد أنس معاوية بعبيد بن شرية الجرهمي ، فكان يدني مجلسه من مقعد الخلافة ، ويحتمل تخريفاته بسبب الشيخوخة ، حتى يحصل منه على الأخبار والسير الجاهلية ، وحكاية معاوية مع النخار معروفة ، فقد قال له مرة : يا ابن أوس ابحث عمن يساعدك في الرواية .. فحزن النخار ، وسأله السبب في ذلك فقال معاوية معتذراً : لكي أستريح منك إليه ، ومنه إليك[46] قال الجاحظ : « وما سمعنا بأحد كان يرى إعادة بعض الألفاظ وتردد المعاني عياً إلا ما كان من النخار بن أوس العذري ، فإنه إذا تكلم في الحمالات والصفح والاحتمال وإصلاح ذات البين وتخويف الفريقين من التفاني والبوار كان ربما ردد كلاماً على طريق التهويل والتخويف ، وربما حمي فنخر »[37] .

وقد مرت بنا حكاية ابن إسحاق حين كتب السيرة ووضع شعراً منحولاً ، ثم اعترف وقال : « لا علم لي بالشعر أوتى به فأحمله »[48] . وسنلاحظ دور هؤلاء الرواة الوضاعين حين ندرس نظرية الشك بالشعر الجاهلي إلا أن علينا أن لا نبالغ في الأمر

---

(44) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 7/1 .

(45) المسعودي . علي بن الحسين ت 306 . مروج الذهب ومعادن الجوهر 52/2 تح محمد محيي الدين . مط السعادة مصر 1964 .

(46) الجاحظ . البيان والتبيين 314/1 وانظر 453/2 .

(47) المصدر نفسه 112/1 .

(48) الجمحي . طبقات الشعراء (طباع) ص 9 .

فالوضع طبيعة في نفوس بعض الرواة (وما آفة الأخبار إلا رواتها) ورحم الله القائل :

نظرنا بأمر الحاضرين فرابنا   فكيف بأمر الغابرين نصدق

نحن الآن نعايش الحدث ، ونشهد عليه ، ثم نقرأ الصحف ونسمع الأخبار .. فإذا بالصحف والقنوات الإعلامية تكذب جهاراً نهاراً .. فأي غرابة في أن ينحرف راوٍ أو اثنان أو ثلاثة ولكن الغرابة أن نعتد الكذب سمة كل الرواة !!

الفصل الثالث

نظرية الشك بالشعر الجاهلي (آراء القدامى والمستشرقين والمحدثين) !

نظرية قبالة نظرية (محاورة منطق الشك)

تنهض نظرية الشك ، وتسمّى الوضع مرة والنحل مرة أخرى ، على مفهوم محدد هو : أن الأدب الجاهلي الذي وصل إلينا غير صحيح ، وأنه ملّفق كتبه حماد الراوية ، وخلف الأحمر بعد أن كسد سوق الشعر !! وأشهر القائلين بهذا الرأي هو المستشرق مارجليوث الذي وضع كتاب (أصول الشعر العربي) ومن العرب طه حسين الذي وضع كتاب (في الشعر الجاهلي) وفي المستشرقين من ينكر نظرية الشك ! فإغناطيوس كراتشوفسكي قال : إن الأدب الجاهلي أدب صحيح ، وإن مسوغات الشك به لا تثبت أمام المنطق العلمي ؛ وكذلك شارلس ليال .

ومعظم الدارسين العرب قدامى ومحدثين ، لا يذهب مذهب الشك بالأدب الجاهلي ، وإنما يذهب إلى أن هناك أدباً منحولاً ، وهو ضئيل لا يعتدّ به ! ولعل أول إشارة وردت عن الأعشى (جاهلي) :

فما أنا أم ما انتحالي القوا ف بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقيدني الشعر في بيته كما قيد الآسرات الحمارا[1]

(1) الأعشى . ديوانه ق 5 ب 69/68 .

وأوردت الفرزدق (ت 115 هـ) :

والفحل علقمة الذي كانت له حلل الملوك كلامه لا ينحل
وأخو بني أسد عبيد إذ مضى وأبو دؤاد قوله يتنخّل[2]

وزعم أن أبا عمرو بن العلاء (ت 154) قال : « ما زدت في شعر العرب قط إلا بيتاً واحداً للأعشى هو :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيبَ والصّلعا »[3]

كما زعم أن الخليل بن أحمد (ت 170 هـ) قال : « إن النحارير من العرب ربما أدخلوا على النِاس ما ليس من كلام العرب »[4] . وأمثلة ورود إشارات إلى النحل كثيرة ، لعل أهمها ما أورده ابن سلام الجمحي (ت 232) وهي :

أ ـ وكان ممن هجن الشعر وأفسده ، وحمل كل غثاء محمد بن إسحاق ، وكان من علماء الناس بالسير ، فنقل الناس عنه الأشعار ..، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود .. أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر ومن أداه منذ ألوف من السنين .

ب ـ فلما قل كلامهما ـ طرفة وعبيد ـ حمل عليهما حمل كثير .

جـ ـ فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ، وما ذهب من ذكر وقائعهم ، فقالوا على ألسن شعرائها ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار .

---

(2) الفرزدق . ديوانه ص 493 .

(3) ثعلب . أحمد بن يحي ت 291 . مجالس العلماء ص 180 . تح عبد السلام هارون طب دار المعارف مصر 1369 .
ابن جني . أبو الفتح عثمان ت 392 . الخصائص 15/1 تح محمد علي النجار طب دار الهدى . بيروت
السيوطي . المزهر 415/2 .

(4) السيوطي . المزهر 171/1 .

د ـ فلما نفد شعر أبيه ـ متمم بن نويرة ـ جعل يزيد في الأشعار ويضعها لنا . وإذا كلام دون كلام متمم ..

هـ ـ وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية وكان غير موثوق به . كان ينحل شعر الرجل ، ويزيد في الأشعار(5) .

ووردت إشارات إلى النحل في كتب الجاحظ وابن جني وأبي العلاء المعري وأبي الفرج الأصبهاني وسواهم(6) .

أما المستشرقون فقد ذكرنا أشهرهم وهو مارجليوث ، ولسوف ننتقي إشارات أوردها ريجيس بلاشير :

أ ـ يدهشنا في النصوص الشعرية والنثرية القديمة عدم تجانس أسلوب بعض مقطوعاتها ، وإذا أضفنا إلى هذا التقرير ما يلازم الرواية الشفهية من الشكوك ، وتدخل كبار الرواة ، وطريقة علماء العراق السقيمة في التدوين وجدنا أنفسنا مجبرين على التسليم في هذه النصوص بتواجد (كذا) عناصر مختلفة في المنشأ والزمن .

ب ـ وفي سنة (1864) تناول المستشرق (نولدكة) أول مرة الموضوع بمجموعه مشيراً إلى الشكوك التي يثيرها مظهر الشعر الجاهلي . وبعد ثماني سنين تناول المستشرق (آهلوارد) المسألة بدوره دون أي تجديد فيها ، فعرضها بدقة لم يتوصل إليها سلفه ، وضع المستشرق المذكور المبدأ الآتي : إن القصائد المروية غير موثوق بصحتها سواء من ناحية المؤلف ، أو ظروف النظم ، أو ترتيب الأبيات . فمن الواجب إخضاع كل أثر من القرن السادس وأوائل السابع لفحص دقيق قبل قبوله .

---

(5) الجمحي . طبقات الشعراء ص 44 ثم ص 55 وبعدها 56 .

(6) الجاحظ . الحيوان والبيان والتبيين . ابن جني . الخصائص . أبو العلاء المعري . رسالة الغفران . الأصبهاني . الأغاني .

جـ ـ وشايع العلماء أمثال (موير وباسيه ، وليال ، وبروكلمن) طوال ثلاثين سنة المستشرقين (نولدكة وآهلوارد) في موقفهما الحذر ، على أننا نلحظ عند (ليال) شكاً متصاعداً في قيمة المعطيات الإخبارية ، وبالتالي في أهمية النصوص المعترف بجاهليتها ، ويظهر الموقف ذاته حوالي (1904) عند (كليمان هوار) .

د ـ ظلت الحالة على ما هي عليه إلى اليوم الذي هبت فيه عاصفة هوجاء من إنكلترا عكرت صفاء هذه البحيرة فقد أعاد المستشرق (مرغليوث) البحث عن قضية الشعر الجاهلي بكتاب نشره سنة (1925 م)[7] .

لقد شملت مقولة الشك بالمدونات العربية التاريخ ، والجغرافية ، والحديث النبوي الشريف ، والشواهد النحوية ، وهي مقولة لها ما لها ، وعليها ما عليها ، لا تقبل كلاً ولا ترد كلاً !! ففي التاريخ مثلاً ثمة دراسات معمقة شككت بالتاريخ لأنه في رأيها يحابي الملوك والمنتصرين والقادة ، ويتجاهل الجماهير صانعة التاريخ ، فضلاً عن أنه يسوّغ أسباب القهر التي مارستها السلطات ضد المفكرين والمجتهدين .

ونهدت الدراسات للتشكيك بالراهن الجغرافي فأضافت مساحات لهذه البلد وحذفت أخرى من بلد آخر ! علماً أن الاستقرار الجغرافي المستند على التاريخ ينصف مرة ويبخس أخرى . فقامت الحروب المدمرة وما زالت بسبب هذيانات الجغرافية التاريخية أو التاريخ الجغرافي !

ومثل ذلك لحق بالحديث النبوي الشريف فقيل : إن منه مئات النصوص الموضوعة والضعيفة ، وإن بعضاً من رواة ادّعوا الدراية بجلّ الأحاديث ، الأمر الذي لم يدّعيه الخلفاء الراشدون الذين عايشوا النبي ﷺ ! فتنادى الغيارى لمواجهة هذا التحدي ، فكان علم (الجرح والتعديل) الذي وضع مقاييس صارمة ودقيقة لمعرفة الحديث الصحيح من الحديث الموضوع .

---

(7) بلاشير . تاريخ الأدب العربي . ص 196 و 197ـ199 .

إذن مسألة الشك بالشعر الجاهلي ليست بدعاً في حياتنا وحضارتنا الثقافية ! وربما تعمّقت في وعينا بعد وصول آراء (Rene Descartes 1650-1596) الفيلسوف الرياضي الفيزيائي الفرنسي ، وديكارت ذو نزعة عقلية رأى أن الشك سبيل لليقين ، فالوجود مقترن بالشك ! وإذا قرن ديكارت بين الوجود والشك فجعل الأول علة الثاني ، فإن اليونان جعلوا الشك علة الحرية ! وكما بالغ المثقفون العرب في استثمار آليات المنطق اليوناني حين ترجم في العصر العباسي ، فأفسدوا النحو وعلم الكلام والمنطق ، فقد بالغ المثقفون العرب في استثمار آليات الشك في العصر الحديث ، ونال حَيْفهم عدداً من الثوابت النصية ، والشعر الجاهلي واحد من هذه الثوابت .. فشككوا به .. وبنوايا الرواة فلا يوجد في زعمهم امرؤ القيس ولا عنترة ، وليس ثمة معلقات ولا ولا !! وصبّ البعض جام غضبهم على مدونات الشعر الجاهلي !

قال طه حسين : « إني شككت في قيمة الشعر الجاهلي وألححت في الشك ... ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام ... أعلن إليك وإلى غيرك من القراء أن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس أو طرفة أو ابن كلثوم أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء وإنما هو انتحال الرواة أو اختلاق الأعراب أو صنعة النحاة أو تكلف القصاص أو اختراع المفسرين والمحدثين والمتكلمين)[8] ويصدقنا طه حسين القول بأن ثورته العارمة جاءت بسبب تأثره بمنهج ديكارت (أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه (ديكارت) للبحث عن حقائق الأشياء ... إن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرّد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوعه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً .. فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء)[9] والذي نراه أن المرحوم طه حسين بالغ كثيراً حتى بات شكه هدماً وعصبية قبل أن يكون علماً وموضوعية ولو امتد به العمر إلى

(8) حسين . د . طه . في الشعر الجاهلي ص 21 طب دار المعارف سوسة تونس 1997 .

(9) المرجع نفسه ص 23 وبعدها .

التسعينيات من القرن العشرين لعدّل آراءه وربما نقضها بسبب من الاكتشافات الأثرية من جهة والعثور على مخطوطات بالغة القيمة وتحقيقها من جهة أخرى .. إذا كانت مرحلة ثورة طه حسين تعاني نقصاً فادحاً في تحليل الوثائق[10] لا يمكننا إلغاء كل الشعر الجاهلي ولا نصفه ولا ربعه .. فالشعر الجاهلي كان درة ثمينة عرف قدرها الجاهليون ، ومن ثم الإسلاميون وحافظوا عليها ، واحتفظوا بها .. وقد اقتربنا في فصل الرواية السابق ورأينا أن الرواة ليسوا بشراً اعتياديين وإنما هم استثناء في مجتمعاتهم ، يمتلكون قدرة عجائبية على الحفظ والاستظهار تشبه الخرافة فالراوي يحفظ شعر الشاعر جله ، ويحفظ آلاف القصائد الطوال ، ويحفظ الشعر ، وفق حالات متعددة ! الحالة الأولى التي شهدت ميلاد النص ، والحالة الثانية التي شهدت تعديله ، والثالثة التي حذف فيها الشاعر وأضاف ! وكان راوية الأعشى يحفظ كل شعره وشعر أربعين شاعراً سواه !! وقد رافقه في زياراته إلى فارس وفلسطين والحبشة وكابل ! وحين أشرق الإسلام وأضاء بنوره الأرواح التفت المسلمون إلى الشعر الجاهلي .. وكانوا يتذاكرون به في مساجدهم فإذا أشكل عليهم معنى في القرآن الكريم التمسوه في الشعر الجاهلي كدأب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، وعبد الله بن عباس .

وشجع النبي الأمين الشعراء الذين نافحوا عن الإسلام وأيّ شرف ناله شاعر في الدنيا مثل الشرف الذي ناله حسان بن ثابت ؟ قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي ﷺ في النبوة ، وشاعر اليمن كلها في الإسلام[11] وجاء حسان بن ثابت إلى نفر فيهم أبو هريرة فقال : أنشدك الله : أسمعت رسول الله ﷺ يقول لي : « أجب عني » ، ثم قال : « اللهم أيده بروح القدس » . فقال أبو هريرة : اللهم نعم[12] .

(10) الصائغ . عبد الإله . طه حسين اعتسف الشعر الجاهلي . وجريدة الأخبار التونسية عدد يوم 1992/1/11 .

(11) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 3/4 وبعدها .

(12) المصدر نفسه .

وقال النبي ﷺ وهو في سفر : « أين حسان ؟ » . فقال حسان : لبيك وسعديك يا رسول الله قال : « احْدُ » فجعل ينشد ، ويصغي إليه النبي ، ويستمع إليه وهو سائق راحلته حتى كان رأس الراحلة يمسّ الورك حتى فرغ من نشيده ، فقال النبي ﷺ : « لهذا أشد عليهم من وقع النبل »[12] .

ويكفي حساناً من الشرف أن النبي زوجه سيرين أخت مارية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ فولدت له حساناً[13] .

وكان قد نصب منبر لحسان في مسجد رسول الله ﷺ ينشد منه الشعر والنبي والصحابة يصغون إليه ! أما كعب زهير بن أبي سُلمى فحكايته معروفة إذ أهدر النبي دمه ، ثم غفر له وأهداه بردته الخضراء عندما أنشده رائعته : (بانت سعاد) ، وكان ﷺ يستذكر شعر قس بن ساعدة ويطلب إلى أبي بكر إنشاد الشعر الذي وشى به خطبته في سوق عكاظ ! بل إن النبي ﷺ سأل عنه وفد قبيلة إياد : « وأين صاحبكم » فقالوا لقد هلك يا رسول الله .. فحزن عليه ! والنبي الأمين يقول : « لا يدع العربي الشعر حتى تدع الإبل الحنين » . ويقول أيضاً : « ما وصف لي أعرابي في الجاهلية وأحببت أن أراه إلا عنترة » . ثم يطلب إلى أبي بكر أن ينشد شعر عنترة في التأبي والتعفُّف فينشده :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مثواها

والنبي الأمين معجب بقولي طرفة بن العبد والأعشى في :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
قلدتك الشعر يا سلامة ذا التفـ ... ـضال والشيء حيثما جعلا

---

(13) ابن قتيبة . الشعر والشعراء 193/1 .

أما الخلفاء الراشدون فكانوا يأنسون إلى الشعر ، فأبو بكر وعلي شاعران ولأبي بكر وعلي وعمر آراء غاية في الأهمية تقوّم الشعر والشعراء[14] هـإذا بدأ عصر تدوين الشعر الجاهلي كان أكثر الرواة على قيد الحياة ، فضلاً عن أبنائهم الذين يحتفظون بالمدونات ، فكانت المدونات توضع بين يدي الكتبة ، ولم يعتسف الكتبة المسلمون الشعر الجاهلي لعلمهم أن الشعر الجاهلي ثمرة عصره ، فلم يحذفوا شعر الخمرة ، ولم يطلسوا شعر الأصنام ، دونوا كل شيء بأمانة العالم ، ومروءته ، فابن الكلبي وضع كتاباً في الأصنام ، وآخر في الأسواق ، وأورد الشعر الذي قيل فيها ، وابن قتيبة وضع كتاباً في الأنواء ، وآخر في النساء ، وثالثاً في السلاح . والأصمعي صنع كتاباً في خلق الإنسان ، والخيل ، والنبات . والمرزوقي في الأزمنة ، والأمكنة ! وغير صحيح القول : إن الكتبة المسلمين قد تشددوا في تقبل أصناف من الشعر الجاهلي ، وألغوا كثيراً منها وكيف نقرّ بذلك وكبار الصحابة والتابعين كانوا يستأنسون بالشعر حتى في مساجدهم . وقد أجاز المازني وسواه قراءة الشعر الغزلي في المسجد !! لقد دوّن الشعر ، وبلغنا مثلما دوّن ، ونفترض أن بعض المدونات التي ضاعت بسبب الجهل أو الإهمال أو بسبب النكبات التي لحقت بالمخطوطات العربية كتلك التي حدثت بعد دخول المغول إلى بغداد .. والتي حدثت بعد سقوط الحكم العربي في الأندلس . وحريق كهف الأوسكريال في إسبانية ، وعدوان الهندوس على المخطوطات الإسلامية في الهند فترة استقلال الباكستان .

وقد ذكر أصحاب نظرية الشك أسباباً تعزّز نظريتهم في نحل الشعر ، وهي لا تبعد عن تأثيرات السياسة والدين والشعوبية وشهوة الحديث عنه الراوي ، والعصبية القبلية ، وهذه أمور لا ننكر أثرها بيد أننا لا نقبل بأن تكون سبباً لنكران حضارة الشعر الجاهلي برمتها ، فربّما أسهمت هذه التأثيرات في إفساد جزء يسير من الشعر الجاهلي بيد أنها غير قادرة على إفساد كل الشعر وتفتيته وتذويبه .

---

(14) الجبوري . د . يحي . الإسلام والشعر طبعة بغداد 1964 .

وإذا كنا قد نعينا على أصحاب نظرية الشك غلوّهم في إنكار الشعر الجاهلي بله إعدامه ، واعتداد كل ما وصل إلينا ضرباً من الكذب الملفق ، فإننا ننعي كذلك على أصحاب نظرية اليقين غلوهم في إثبات صحة كل الشعر الجاهلي واعتداد ما وصل إلينا من الشعر ضرباً من المقدس الذي يمسخ من يشك فيه مبخّساً !! فقد ثارت ثائرة أصحاب اليقين حين أصدر طه حسين كتابه في الشعر الجاهلي ، فنقلوا المعركة من ميدانها العلمي إلى ميادين الشعبية والمساجد وأقبية الشرطة ، فكفّر طه حسين لأنه شكك بالشعر الجاهلي ، ولا ندري الصلة التي تربط بين الشعر الجاهلي والدين ؟! ولكن العصبية عمياء فتظاهر الناس في القاهرة وبغداد والشام وعواصم عربية أخرى انتصاراً للشعر الجاهلي ودحضاً لمنهج الشك ! وحذّر أئمة المساجد عهد ذاك من (البدع والضلالات التي روّج لها أعمى صعيدي درس في باريز) . وبلغ الأمر أن ضرب طه حسين ، وركل بالأرجل فهرب إلى بيروت ، ولبث فيها زمناً حتى انجلت الغمة ، وهدأت ثائرة الغوغاء ، وفي المكتبة الآن كثير من كتب أصحاب نظرية اليقين ، وقد ألّفت لترجم طه حسين كما يرجم الشيطان (كذا) وحين هدأت العاصفة أو كادت تنازل طه حسين . عن كثير من آرائه المتطرفة في كتابه (في الشعر الجاهلي) وأصدر كتاباً ينافق فيه الشارع الثقافي وهو (في الأدب الجاهلي) !

والسؤال المحيّر حقاً هو لماذا ثار الشارع الثقافي على طه حسين علماً بأنه ليس أول معاصر يخرق (تابو) الشعر الجاهلي ؟! لماذا تجاهل الشارع الثقافي آراء مصطفى صادق الرافعي (ت 1937 م) التي سبقت آراء طه حسين بعقد ونصف ، إذ أصدر مصطفى الرافعي كتابه (تاريخ آداب العرب) عام (1911 م) وأصدر طه حسين كتابه (في الشعر الجاهلي) عام (1926 م) ولعل الرافعي لم يحاول الارتقاء بآرائه إلى مستوى النظرية ولم يستعمل اللغة المتعالية التي استعملها طه حسين ، وقد أورد الدكتور ناصر الدين الأسد الإشارات التالية حول جهد الرافعي :

أ ـ حشد الرافعي في كتابه من المادة ما لم يجتمع مثله من قبله ولا من بعده حتى

يومنـا هـذا في صعيـد واحـد من كتـاب ، لم فيـه أشتـات الموضوع من أطرافهـا كلهـا ، واستقصاه استقصاء .

ب ـ اكتفى الرافعي في أكثر حديثه بالسرد المجرد والحكاية عمن مضى ، ولم يتجاوز ذلك إلى البحث في هذه الأخبار والروايات بحثاً علمياً[15] .

☆ أدلة أصحاب نظرية الشك :

1 ـ التشابه بين لغة القرآن الكريم ولغة الشعر الجاهلي يحيلنا إلى أن حمـاداً البصري وخلفاً الكوفي وغيرهما قـد صنعـا الشعر الجـاهلي على مثيل لغـة القرآن (كـذا) . وقـد عكس طـه حسين مقـولـة ابن عبـاس : « إذا أشكل عليكم معنى في القرآن فـالتمسـوه في الشعر الجاهلي » . فقال : « فـإذا أردت أن أدرس الحيـاة الجـاهليـة فلست أسلـك إليهـا طريق امرئ القيس والنـابغـة والأعشى وزهير لأني لا أثق بمـا ينسب إليهم وإنمـا أسلـك إليهـا طريقـاً آخر وأدرسهـا في نص لا سبيـل إلى الشـك في صحتـه .. أدرسهـا في القرآن »[16] .

2 ـ الصلـة بين الشعر والسحر والكهـانـة والتنبؤ والجنون جعلت صفـة الشعر غير جديرة بالمسلم ، فكان أن أهمل المسلمون الشعر الجاهلي حتى يغلقوا الباب أمام الريبة .

3 ـ ثمة معان فيها دعوة للوثنيـة والإبـاحيـة والعصبيـة القبليـة والمكانيـة والمـديح الكاذب والهجاء المقـذع ممـا زهّـد المسلمين بتـدوين الشعر الـذي تكمن شعريتـه في هـذه المعاني .

4 ـ وجـود شعر منسـوب إلى سيـدنـا آدم أو نـوح ، وشعر منسـوب إلى عـاد وثمود وسواهما .. وشعر منسوب إلى الجن والعفاريت .. بما يعزز الظن بـأن هـذا الشعر وسواه مصنوع للتسلية والمسامرة لتزجية الوقت أو للعبرة والموعظة .

---

(15) الأسد . د . ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص 377 .

(16) حسين . د . طه . في الشعر الجاهلي ص 27 ـ 28 .

5 ـ الكتابة كانت نادرة في العصر الجاهلي ولو عرف الجاهليون الكتابة لوصلت إلينا كتب عنهم كما وردتنا كتب عن السومريين والآشوريين والبابليين .

6 ـ اللغة مرآة صافية تعكس حركة المجتمع وتطوره ، وإذا كان المجتمع الجاهلي متخلفاً فينبغي أن تكون لغته متخلفة ! فكيف جاءنا الشعر الجاهلي ناضجاً صافياً ؟! وليس من تفسير سوى أن الشعر كتب بعد أن شاعت أسلوبية القرآن المنظمة .

7 ـ رواة القرنين الثاني والثالث كانوا موضع شك ، وهم يتبادلون الاتهامات فيما بينهم من نحو حماد وجناد وخلف وأبي عمرو وأبي عبيدة والأصمعي وأبي عمرو الشيباني وابن إسحاق والمبرّد ، وإذا كان الأمر كذلك فمن حقنا (القول لأصحاب نظرية الشك !!) أن نشكك بأوراقهم وقد سمعنا عن رواة تزيّدوا بسبب طلب الخلفاء والأمراء والجمهور المتزايد للقصص والمغامرات ليالي الشتاء الطويلة وسمعنا عن وعّاظ المساجد الذين يمزجون مواعظهم بالشعر والقصص .. فاستحدث شعر قالته أمم بادت وبقي من موروثها شيء !!

8 ـ الشعراء الجاهليون منتمون إلى أمكنة شتى ولكل مكان لغته فمفردات بعض اللغات العربية كانت مترادفات أو أضداداً لمفردات اللغات الأخرى فكيف تأتى لنا أن نقرأ قصائد الشعراء الجاهليين وقد كتبت بلغة واحدة هي لغة قريش ثم عبّرت عن لواعج متشابهة فكأنهم نسخ مكررة ، فلغة الشمال كما هو متفق عليه غيرها لغة الجنوب ، وأين عيوب اللهجات مثل الكشكشة والكسكسة والعجعجة والاستنطاء والوثم والغمغمة والتلتلة ؟ .

9 ـ ورود معان قرآنية إسلامية مثل الحلال والحرام والموت والانبعاث نظير قول زهير :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجّل فينقم

وقول الأعشى :

ربي كريم لا يكـــدّر نعمـــة   وإذا يناشد بالمهارق أنشدا

وقول ذي الإصبع العدواني :

إن الذي يبسط الدنيا ويقبضها   إن كان أغناك عني سوف يغنيني

وقول النابغة :

فألفيت الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوح لا يخون

وقول ابن ساعدة الإيادي :

دنت الساعة وانشق القمر   لغزال صدّ عني ونفر!

10 ـ المعاني المركزية التي دارت القصائد الجاهلية حولها وبخاصة المعلقات تجعلنا غير قادرين على قبول الشعر الجاهلي .. إلا إذا افترضنا (ما لا يمكن افتراضه) إلغاء شروط الزمان والمكان وما يحدث بينهما .

11 ـ موسيقى الشعر اكتشفت في القرن الثاني الهجري ، فكيف تسنى للقصائد والمقطعات الجاهلية الانتظام وفق أنساق البحور التي قعّدها الخليل الفراهيدي !

12 ـ وضوح الوضع في مناسبة عدد من الأبيات الجاهلية لقواعد النحو بحيث تصلح لتكون شواهد نحوية لعدد من اللغات والاستثناءات فشواهد نحاة البصرة استدعت أبياتاً مختلفة عن شواهد نحاة الكوفة ، وكذلك صلاحية عدد من الأبيات التي تفسّر معاني جديدة وردت في القرآن الكريم ، وكان رواد التفسير مثل ابن عباس يفسرون القرآن بالشعر ، وثمة أبيات كأنها موضوعة لتثبت مزاعم القدريين والحلوليين والمعتزلة .

13 ـ لم يعكس لنا الشعر الجاهلي الحياة الدينية عهد ذاك ، فالعرب الذين وقفوا موقفاً عنيفاً من الدعوة الإسلامية والشعراء طليعتهم لا يمكن أن يفلت أثر الدين من

شعرهم ، ولو لم يكن الشعر منحولاً .. لكان نقل إلينا طقوس الصلاة والنحر والحج والطواف والأضاحي والأدعية وأسماء الأصنام وأمكنتها .

14 ـ وإذا كان الجاهليون مشهورين بعلوم تعبير الرؤيا ، والأنواء ، والأنساب ، والفراسة ، فلماذا لم ينقل الشعر إلينا مفردات الذهنية التي أنتجته وطقوسها ؟

15 ـ إهمال الشعر الجاهلي لمفردات العمل مثل الزراعة والرعي والعمارة والتجارة .

16 ـ وردت اعترافات وتقديرات تتصل بالنحل :

1 ـ اعتراف أبي عمرو بن العلاء بأنه وضع بيتاً ونسبه إلى الأعشى .. وأن لسان حمير وأقاصي اليمن مختلف عن لسان قريش .

2 ـ العرب قبائل ورواة يتزيدون من الشعر ..

3 ـ ابن إسحاق كاتب السيرة هرف بما لم يعرف ، فنسب شعراً لشعراء لم يقولوه .. وشعراء أمم بادت ..

17 ـ ذكر طه حسين أن دوافع النحل تكمن في (السياسة ، والدين ، والقصص ، والشعوبية ، والرواة) .

☆ نقيض نظرية الشك :

1 ـ ليس التشابه بين لغة القرآن الكريم ولغة الشعر الجاهلي دليلاً كافياً على أن الشعر الجاهلي منحول ، وقد يكون التشابه دليلاً على صحة الشعر !! فالقرآن تنزّل بلغة قريش ، والشعراء الجاهليون حريصون على كتابة قصائدهم بلغة قريش حتى يصلوا إلى أفهام كل العرب ، لأن لغة قريش كانت مفهومة لدى كل العرب .

2 ـ لم يهمل المسلمون الشعر الجاهلي ، ربما لهيت العرب عنه حقبة الفتوحات الأولى ، فالشعر رفيق العربي في حله وترحاله ، سلمه وحربه ، ولولا الرواة المسلمون لضاع جل الشعر الجاهلي .

3 ـ الشعر الجاهلي محمّل بشحنات عصره ، ولم يتدخل الرواة المسلمون في أساليبه أو موضوعاته ، وقد تعاملوا معه علمياً .. فهو شعر يعبّر عن مرحلة تجاوزها الإسلام ، وكان الرواة المسلمون يميّزون بين الشعر والأخلاق فأبو عمرو بن العلاء حين سئل أيهما أشعر لبيد أم الأعشى ؟ أجاب : إن لبيد رجل صالح ، وإنما الشاعر هو الأعشى !!

والأصمعي كان يردد في مجالسه ! الشعر إذا أدخلته في طريق الخير لان .. والحصيلة هي أن الشعر الجاهلي وصلنا على علاته ومجونه وعنجهيته فالراوي المسلم مبتهج لذلك .. حتى يوازن المسلم بين أخلاق الإسلام العظيمة وأخلاق الجاهلية !

4 ـ الشعر المنسوب إلى سيدنا آدم أو نوح أو المنسوب إلى طسم وجديس والجن لا يمكن قبوله ، وقولنا هذا ليس إتلافاً له ، لأن الشعر الجاهلي شعر شفاهي في أغلبه ... أي (دزاينات) وقوالب ، فهو يمتلك (الشعر الشفاهي) أهمية علمية بالغة (مع أنه غير صحيح) ، فمن خلال طرائق الجاهليين في التأويل والتعليل والإظهار والتغييب تتوضع أشياء كثيرة ، فأهمية ملحمة جلجامش أو الخليقة العراقيتين وملحمة الإلياذة .. ليست كامنة في صحة الأخبار التي وردت فيها ودقة الأقاويل .. فهذه الملاحم تتحدث عن الصراعات بين الآلهة والبشر .. لتكشف لنا عن ذهنية ذلك العصر وهمومه .

5 ـ نعم الكتابة لم تكن منتشرة بين الجاهليين ، بيد أنها معروفة ومألوفة .. فالعباديون وهم سكان اليمامة والحيرة كانوا يجوبون الجزيرة العربية لتعليم القراءة والكتابة لدوافع اقتصادية أو تبشيرية ، ودلالة أمية الجاهليين على رأي د . ناصر الدين الأسد ود . علي فهمي خشيم ليست منصرفة إلى القراءة والكتابة ، وإنما هي منصرفة إلى الدين ! وكان الجاهليون يكتبون شعرهم ويحتفظون به كما مرّ بنا ، وليس صحيحاً أن المجتمع الجاهلي متخلف لغوياً ولا مدنياً ، فكان الشعراء عهد ذاك ذوي أساليب جميلة أشار إليها القرآن الكريم ، وكان الجاهليون يستخدمون تفوّقهم في المجادلة لإثبات باطلهم قارن : [غافر : 5/40] [النساء : 10/4] و [الحج : 68/8/3/22] و [الكهف : 56/18]

وقد جاء في سورة [الزخرف : 58/43] :

﴿ وقالوا أآلهتنا خيرٌ أم هو ما ضربوهُ لكَ إلا جدلاً بل هم قومٌ خصِمُون ﴾ وعلماء الاجتماع المسلمون يعون أن الله سبحانه كان يرسل كل نبي بآية تناسب هموم الناس الذين يدعوهم ، فسيدنا موسى آيته إبطال سحر اليهود ، وكشف مكرهم . وسيدنا عيسى بهر قومه بالطب والتسامح . ونبينا الأمين ﷺ أعجز العرب وهم أصحاب بيان بمعجزة القرآن الكريم ، وقد رأينا في مبحث الرواية كيف أورد الشعر الجاهلي إشارات تدل بوضوح على معرفة العرب للكتابة .

6 ـ الاتهامات بين الرواة لا تنهض دليلاً على الشك بمصداقية الشعر الجاهلي ، فاختلافهم دالة اجتهاد وحضارة ، واختلافهم يفهم من خلال التنافس بينهم وعدو المرء من يعمل عمله ، ومعظم الرواة كانوا على بينة من أمرهم ، وقد شهد لهم ثقاة عصرهم بالمروءة والنبوغ .. فأبو عمرو بن العلاء كان قارئاً نابغاً ومناضلاً عن الدين واللغة والوطن ، وقد أهدر الحجاج دمه ، وقد أحرق كتبه التي تصل إلى السقف خشية أن يكون فيها حرف لا يرضي الله .. فكيف نصدّق مثلاً أنه وضع بيت شعر واحد على لسان الأعشى .. علماً أن الدراسات الأسلوبية أثبتت أن هذا البيت ضمن شعر الأعشى أما الطعن بخلف الأحمر ، وحماد الراوية .. فهو طعن الحسّاد ووعّاظ السلاطين فقد كان هذان معجزة في الرواية والحفظ ، وقد تحدثنا في أمرهما في مبحث الرواية .

7 ـ المبدعون العرب قبل الإسلام تخففوا من لهجاتهم ومحلياتهم ، وكتبوا شعرهم بلهجة قريش التي شاعت في عصرهم بسبب من كونها لغة المثقفين والمتدينين والتجار ، فأسهموا في وحدة اللسان العربي ، ولو أصرّ الشعراء العرب في جنوب الجزيرة أو شرقها على لهجاتهم لما وجدوا جمهوراً يصغي إليهم ! وكانت الأسواق العربية المختبرات التي صهرت اللهجات وأسهمت في وحدة اللغة والذوق .

8 ـ مفردات الحلال والحرام ولفظ الجلالة والمقدس والمدنس والدنيا والآخرة لم

تكن غريبة على عرب ماقبل الإسلام وأرضهم دون سواها التي احتضنت الديانتين اليهودية والمسيحية .. ومعظم العرب كان على ملة إبراهيم « فهم يتزوجون بعقد ، ويطلقون بعقد ، ويحجون البيت ويلبّون ، ويعتمرون ، ويتمسحون بالحجر الأسود ، ويسعون بين الصفا والمروة ، ويقفون بعرفات ، ويأتون مزدلفة ، ويهدون الهدايا ، ويرمون الجمار ، ويعظّمون الأشهر الحرم ، ويحرمونها ، ويغتسلون من الجنابة ، ويغسلون موتاهم ، ويصلون عليهم ، وكانت صلاتهم أن يحمل الميت على سرير ، ثم يقوم المفجوع فيه فيذكر محاسنه كلها ، ويثني عليه ، ثم يقول : رحمه الله وبعدها يدفنه وكان أكثر العرب مؤمنين بالدار الآخرة ويتشددون في صلات الرحم ، فلا ينكحون البنات والأمهات والأخوات والعمات والخالات ، ومن سننهم أنهم يقطعون يد السارق ويحتقرون الغادر ، وكانوا يتمضمضون ، ويستنشقون ، ويتسوكون ، ويقصون الشارب ، ويختنون ، ويحلقون شعر العانة ، وينتفون الإبطين ، ويقلمون الأظافر ، ويستنجون ، ولا يأكلون الميتة ، ويوفون بالعقود ، وكانوا يربطون الناقة جنب القبر ويعقرونها ، ظناً منهم أن صاحبها حينما ينهض من موته سوف يستعملها ، وتسمى الولية ، وثمة البحيرة ، والوصيلة ، والبلية »[17] .

9 ـ الهموم المشتركة في الشعر الجاهلي التي اتضحت في المعلقات أكثر من سواها تعكس رغبة الشعراء وحذقهم في اجتذاب المتلقين إلى هموم قصائدهم ، ولن يتمتع الشاعر بالنجومية وهدايا الموسرين دون أن يشهد له الجمهور بالنبوغ ، ويتجاوب معه ،

---

(17) ابن حبيب . المحبّر ص 309ـ340 وانظر ص 181 ، 236 ، 237 .
ابن طباطبا العلوي . عيار الشعر ص 32ـ37 .
الشهرستاني . الملل والنحل (معتقدات العرب) ص 241ـ245 و (تقاليد العرب التي أقرها الإسلام) ص 245ـ249 .
السيوطي . الوسائل إلى مسامرة الأوائل ص 49 .
الألوسي . بلوغ الأرب 286/2 .
الصائغ . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام (سنن العرب) ص 20 ، 21 .

الشعراء الجاهليون إنما يلبّون حاجات الشارع الثقافي ، ولأن مجتمع قريش كان العنصر السيد عهد ذاك فقد انبهر العرب في الأطراف بهمومهم وطموحاتهم ، كما ينبهر العربي الآن بأي مجتمع متحضّر ومتفوّق مدنياً ! والشعراء الجاهليون ربما تفوقوا على شعراء زماننا في موضوعة مخاطبة الجمهور ، والاستحواذ عليه من خلال وسائل الإيصال التقليدية أو المبتكرة .. فكان جمهور الشاعر الجاهلي يحاكي جمهور كرة القدم الآن .

10 ـ ليس صحيحاً أن الشعراء الجاهليين كانوا يجهلون موسيقا الشعر وقد مرّ بنا استعمالهم لطريقة التنعيم واعتمادهم عليها في وزن أشعارهم ، ومرّ بنا كيف التفت النقاد الجاهليون لظاهرة الإقواء في أشعار بشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني وكيف عالجوها !

وكتب العديد من الشعراء الجاهليين قصائدهم بإيقاعات صافية وأساليب سلسلة لكي تغنى ويرقص عليها .. يقول الأعشى :

ولقد شربت الراح تركض حولنا ترك وكابل
إذا قلت غني الشرب قامت بمزهر يكاد إذا دارت له الكف ينطق

11 ـ الشعر ديوان العرب الذي أودعوه لغتهم وأساليبهم ورغباتهم ورهباتهم ! وليست جريرة أن يكون في الشعر الجاهلي شواهد يستفيد منها النحاة أو اللغويون أو المناطقة أو الجغرافيون أو المؤرخون . وقد صنع العلماء المسلمون كتباً متخصصة ، مثل كتب (الأنواء) و (الأزمنة) و (الأصنام) و (الأمكنة) و (المطر) و (الخيل) و (خلق الإنسان) و (السلاح) و (أيام العرب) .

وكان اعتمادهم الأول على شواهد من الشعر الجاهلي .

12 ـ أما أن السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة قد أسهمت في نحل الشعر .. فإن أثرها كان ضئيلاً .. ولا يمكن التضحية بالكل من أجل الجزء ، والثابت الأكثر بالمنحول الأقل .

الفصل الرابع

شياطين الشعراء

تعد الذهنية القديمة كل فعل ردّة فعل معلومة لفعل مجهول[1] وإذا كان الشعر الجاهلي فعلاً معلوماً فإنما هو صدى لأفعال الجن (كذا) ، والصلة ماثلة بين الشاعر والرئي ، مما هيأ الشاعر لرؤية ما لا يُرى ، فإذا مدح رفع وإذا هجا وضع ، وإذا رثى هدأت روح الميت .

ونقل الأصمعي عن راوٍ سأل الشرف بن القطامي : « ما كانت العرب تقرأ في صلاتها على موتاها ؟ » فقال ابن القطامي : لا أدري ! فقال له الراوي : « كانوا يقرؤون شعراً :

وما كنتَ وكواكا ولا ابن أؤيّل ... رويدك حتى يبعث الخلقَ باعثه[2]

وقد تطيّر الجاهلي من الهجاء ، متوهماً أن كلمات الهجاء تنزل الأذى الفادح بالمهجو ، وربما أشاع الشعراء هذا الوهم لكي يتفادى الناس هجاءهم .. وبين أيدينا حكاية هجاء لبيد للربيع بن زياد .. فقد غرّب لبيد هيأته حالقاً نصف شعره وشاربه وحاجبه صابغاً نصف وجهه بالقطران والرماد ، متقلداً سمطاً من الودع والعظام والأحجار ، جاعلاً واسطة العقد نعلاً عتيقاً .. ثم طاف حول سرادق النعمان بن المنذر ،

---

(1) بريل . ليفي ، العقلية البدائية ص77 ، تر : محمد القصاص ، ط مكتبة مصر (د : ت) .

(2) ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن إسحاق ت385 . الفهرست ص118 ، تح الشيخ إبراهيم رمضان ، ط دار المعرفة بيروت 1997 .

وكان أقام وليمة احتفالاً بقدوم الربيع .. فدبك لبيد دبكات تجاوبت مع أرجوزته التي يهجو فيها الربيع[3] :

(لا تزجر الفتيان عن سوءِ الرِّعه)	(يا رُبَّ هيجا هي خيرٌ مِن دَعَه)
(يا ابن الملوك السادةِ الهبنقعه)	(أنا لبيد ثمّ هذي المنزعه)
(في كلّ يوم هامتي مقزّعه)	(قانعةً ولم تكن مقنّعه)
(نحن بنو أمّ البنينَ الأربعة)	(ونحن خيرُ عامر بن صعصعه)
(يا واهبَ المالِ الجزيلِ من سَعه)	(إليك جاوزنا بلاداً مُسبعه)
(إذا الفلاة أوحَشت في المعمعه)	(يخبرْك عن هذا خبير فاسمعه)
(مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه)	(إن استه من برص ملمّعه)[4]

والذهنية الجاهلية مسكونة بهاجس السحر ، فبات مألوفاً ظهور طبقة من المشعوذين الذين يدّعون أن لهم علاقات خفية بالجن والنجوم ، وتعددت النعوت والوظائف من متنبئ وكاهن وساحر وحازي إلى عالم وممسوس وشاعر ! وأهل بابل يمزجون بين هذه النعوت ، وتلك الوظائف ويوحدونها في صفة (نبو) ونبوخذنصر لم يكن إنساناً اعتيادياً في نظرهم ، فهو كل هؤلاء .. وكأن الأبطال والكهنة أنصاف آلهة في نظرهم ، ولا عجب أن يزعم الجاهليون أن النبي الأمين ﷺ كان كاهناً أو شاعراً أو ساحراً أو مجنوناً . وينقل ابن هشام حواراً بين الوليد بن المغيرة ، وقريش بشأن النبي ﷺ : « قالوا نقول كاهن . قال لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه ! قالوا فنقول مجنون . قال ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون

---

(3) المرتضى ، أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) 191/1 .

(4) لبيد . ديوانه ق 32 ، ص 92 ـ 94 .

الرعة : الحمق . الهيجا : الحرب . الزجر : المنع والتشاؤم . الرعة : الحمق . الهيجا : الحرب . الدعة : الحياة الهانئة . الهبنقعه : الكبرياء والشمم . المنزعة : القوس . مقزعة : محلوقة . الهامة : الرأس أو الشعر . القانعة : مقنعة بغطاء أو قناع . مسبعه : كثيرة السباع . المعمعه : صوت الحريق في القصب كناية عن صوت الشجعان في الحرب وشدة الحر .

وعرفناه ... قالوا فنقول : شاعر . قال ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا فنقول : ساحر ، قال ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم »[5] .

وقد وردت في القرآن الكريم آيات تنسخ مزاعم أهل الجاهلية ..

بسم الله الرحمن الرحيم

1 ـ ﴿ إنه لقولُ رسولٍ كريمٍ ☆ وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنونَ ☆ ولا بقولِ كاهنٍ قليلاً ما تذكّرون ﴾ [الحاقة : 40/69 ـ 42] .

2 ـ ﴿ فذكّر فما أنتَ بنعمتِ ربّكَ بكاهنٍ ولا مجنُونٍ ﴾ [الطور : 29/52] .

3 ـ ﴿ وما علّمنَاهُ الشّعر وما ينبغي لـهُ إن هُوَ إلاّ ذكرٌ وقرآنٌ مبينٌ ﴾ [يس 69/36] .

4 ـ ﴿ بل قالُوا أضغَاثُ أحلامٍ بل افتراهُ بل هُوَ شَاعِرٌ ﴾ [الأنبياء : 5/22] .

5 ـ ﴿ أم يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30/52] .

6 ـ ﴿ والشُّعراءُ يتّبعهم الغاوون ☆ ألم ترَ أنّهم في كلّ وادٍ يهيمونَ ﴾ [الشعراء : 224/26 ـ 225] .

7 ـ ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنّه لمجنون ﴾ [القلم : 51/68] .

8 ـ ﴿ فتولّى بركنه وقال ساحر أو مجنون ﴾ [الذاريات : 39/51] .

9 ـ ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون ﴾ [الذاريات : 52/51] .

---

(5) هارون عبد السلام محمد : تهذيب سيرة بن هشام ص57 ، الزمزمة : الهمس .
النفث والعقد : كان الساحر يعقد خيطاً أو منديلاً وينفث فيه !!

10 ـ ﴿ قالَ للملأ حوله إنّ هذا لساحر عليمٌ ﴾ [الشعراء : 34/26] .

11 ـ ﴿ فقال لهُ فرعونُ إنّي لأظنُّك يا مُوسى مسحُوراً ﴾ [الإسراء : 101/17] .

12 ـ ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ [الصافات : 36/37] .

وكان النبي ﷺ يقول : « لا تنبروا باسمي إنما أنا نبي الله »[6] .

وقوله ﷺ كان تصويباً لكلمة (النبّاء) التي وردت في شعر العباس بن مرداس :

يا آخرَ النبّاء إنّك مرسل　　بالخير كلّ هدى السبيل هداكا[7]

وقرّ في روع الجاهلي أن لكل شاعر شيطاناً يلهمه الشعر ! وأن هؤلاء الشياطين يتخذون من وادي عبقر قرية لهم !! ونحاول في الآتي اقتباس المعلومات من معجم البلدان (294/3) :

1 ـ أرض كان يسكنها الجن ! يقال في المثل كأنهم جن عبقر ، قال المرار العدوي :

أعرفت الدار أم أنكرتها　　بين تبراك فشسّي عبقر

والشس : المكان الغليظ !

وقال الأعشى :

(كهولاً وشباناً كجنة عبقر)

وقال امرؤ القيس :

كأن صليل المرو حين تطيره　　صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

2 ـ عبقر من أرض اليمن ، موضع مسكون ، وبلد مشهور به صيارف ، بلد كان قديماً وخرّب كان ينسب إليه الوشي ، فلما لم يعرفوه نسبوه إلى الجن .

---

(6) ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر 3/5 .

(7) ابن مرداس ، العباس ، ديوانه ق 31 . ب 1 ص 95 .

ثم نقتبس معلومات أخرى من لسان العرب (عبقر) :

1 ـ عبقر موضع بالبادية كثير الجن ..

2 ـ قال أبو عمر بن العلاء : الأصل عبٌّ قُر ؛ والعب اسم للبرد الذي ينزل من المزن والعين مبدلة من الحاء والقر البرد .. قال الشاعر :

كأن فاها عبٌّ قرّ بارد أو ريح مسك مسّه تنضاح ركّ

3 ـ قال الجوهري العبقر موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن ! قال لبيد :

ومَن فاد من إخوانهم وبنيّهم كهول وشبان كجنة عبقر

ثم نسبوا إلى عبقر كلّ شيء تعجبوا من حذقه أو جودة صنعه .

4 ـ قال أبو عبيدة : ما وجدنا أحداً يدري أين هذه البلاد ، ولا متى كانت ، قال زهير :

بخيلٍ عليها جِنّةٌ عبقرية جديرون يوماً أن ينالوا فيستعلوا

إن تشكيك أبي عبيدة بفكرة عبقر يحيلنا إلى الإرث القديم الذي ورثه الجاهليون عن أسلافهم ! وقد أفرد أبو زيد القرشي ، من رجال القرن الثالث ، مبحثاً في (جمهرة أشعار العرب) ص 40 ـ 54 قارن :

1 ـ قال أعرابي سألت جنياً : أتروي من أشعار العرب شيئاً فقال نعم وأنشد :

طاف الخيال علينا ليلة الوادي من آل سلمى ولم يلمم بميعاد

أنى اهتديت إلى من طال ليلهم في سبسب .... إلخ

فلما فرغ من إنشاده قلت له : هذا الشعر لعبيد بن الأبرص الأسدي !! فقال : ومن عبيد لولا هبيد وأنشأ يقول :

أنا ابن الصلادم أدعى هبيدا حبوت القوافي قرْمَى أسد

عبيداً حبوت بمأثوره وأنطقت بشراً على غير كد

ولاقى بدرك رهط الكميت ملاذاً عزيزاً ومجداً وجد

قلت : فأخبرني عن مدرك ؟ فقال هو مدرك بن واغم صاحب الكميت وهو ابن عمي ..

2 ـ قال مظعون بن مظعون الأعرابي أحببت إذا علمت أن لشعراء العرب شياطين تنطق بالشعر على ألسنتها أن أعرف ذلك ورجوت أن ألقى هاذراً أو مدركاً اللذين ذكرهما الهبيد لأبي !!

3 ـ قال أعرابي لمضيفه أتروي من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشدني للنابغة ثم قال : أتحب أن أنشدك من شعري أنا ؟ قلت نعم . فاندفع ينشد لامرئ القيس والنابغة وعبيد ... ثم اندفع ينشد للأعشى : فقلت : لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمان طويل ! قال للأعشى ؟ قلت : نعم ؛ قال فأنا صاحبه ، قلت : فما اسمك ؟ قال : مسحل السكران ابن جندل ؟ فعرفت أنه من الجن ، ثم سألته : من أشعر العرب ؟ قال : ارو قول لافظ بن لاحظ ، وهياب ، وهبيد ، وهاذر بن ماهر !! أما لافظ فصاحب امرئ القيس ، وأما هبيد فصاحب عبيد وبشر ، وأما هاذر فصاحب زياد (النابغة) وهو الذي استنبغه .

4 ـ وسأل رجل من زرود أعرابياً غريب الهيئة : أتروي من أشعار العرب شيئاً ؟ قال : نعم ، وأنشد (قفا نبك) فلما فرغ قال له هذه لامرئ القيس ! فقال الأعرابي أنا والله منحته ما أعجبك منه ! قال فما اسمك ؟ قال لافظ بن لاحظ ! وأنشدتني ابنة الشيخ :

(نأت بسعاد عنك نوىً شطون فبانت والفؤاد بها حزين)
فألفيت الأمانة لم تخنها كذلك كان نوح لا يخون

5 ـ ووجّه السؤال إلى أعرابي آخر : من أشعر العرب ؟ قال من قال :
وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتّل

ثم سأله : من قائل :

وتبرد برد رداء العروس في الصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيع نباحاً بها الكلب إلا هريرا

يريد في الأولى امرأ القيس وفي الأخرى الأعشى ! فقال له ثم من فأنشد :

تطرد القرّ بحر صادق وعكيك الصيف إن جاء بقر

ويريد طرفة !!

6 ـ وسأل أحدهم عن قائل :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر

قلت : نعم هذا شعر الحارث بن مضاض الجرهمي ! قال ذلك مؤديه وأنا قائله في الحرب التي كانت بينكم معشر خزاعة وبين جرهم .. وأنشد أعرابي غريب الهيئة :

ولرب راج حيل دون رجائه ومؤمّل ذهبت به الآمال

فقال له السائل : أيها الشيخ من أنت ؟ وما شأنك ؟ فقال : أنا السفاح ابن الرقراق الجني !!

7 ـ ذكر أن رجلاً أنشد الفرزدق (ت 110 هـ) شعراً لم يستحسنه ! فضحك الفرزدق وقال له : يا ابن أخي إن للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر ، والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ، ومن انفرد به الهوجل فسد شعره ... ا.هـ .

ولم يكن الجاهليون بدعاً في صناعة هذه الأوهام التي تفسّر الموهبة الشعرية ، فقد اصطنع الآشوريون تمثال امرأة جميلة وأطلقوا عليه : ربة الشعر ، ومن جهة ثانية نجد أن أفلاطون كان يرى الإلهام مصدراً للفن « وكان اليونانيون يرون أن للفنون ربات ،

ذلك أن الأسطورة اليونانية تروي : أنه كان لكبير الآلهة زوس القابع على جبل الأولمب تسع بنات هن ربات الفنون وتسميهن الأسطورة (The Muses) أي عرائس الشعر ، وكل ربة تختص برعاية فن من الفنون ، فللشعر ربة ، وللخطابة ربة ، وللدراما ربة ، وللكوميديا ربة وهكذا ، وقد جرت العادة في الأكاديمية التي يعلم فيها أفلاطون ويلقي محاضراته أن يحتفل تلاميذه بعيد هذه الربات كل عام على شبه طقوس دينية موجهة إلى الربات ... واستمرت هذه الاحتفالات حتى عهد جستنيان مطلع القرن الثالث الميلادي الذي حظر تلك الاحتفالات الوثنية بعدما آمن بالنصرانية »[8] .

إن محلل النص مكتشف لا محالة هذه الديباجات الملفقة القائمة على الوهم ، فالقدماء استناداً إلى جيمس فريزر (الغصن الذهبي) لا يتعبون عقولهم حين يحللون وحين يؤولون ، فهم إيثاراً للراحة يوكلون جل الظواهر إلى الجن والسحرة .. لحل المعضلات ، وإذا كنا قد أوردنا إيمان العرب بشياطين الشعر ، فإن الأمر ليس تعميماً ، ولعلنا نتذكر اتجاه أوس بن حجر ، وبشامة بن الغدير ، وزهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ، وسواهم ... هذا الاتجاه يلغي فكرة الإلهام والشياطين ويميل إلى فكرة صناعة الشعر ، أو الشعر الصناعة ، فخير الشعر عندهم الحولي المحكّك .. وإذ قال الجاحظ (ت 255 هـ) : « الشعر صناعة ، وضرب من الصياغة ، وجنس من التصوير »[9] فإنما الجاحظ لم يصطنع رأيه من الفراغ ، وإنما هو صدى لآراء الفريق الذي يرفض وهم ربط الشعر بالشياطين .. ومهما يكن الأمر فنحن ندرس ظاهرة وجدت لها مساحة في التاريخ ، وقد زعم أن شياطين الشعر فحول وإناث ، وقد مرّ بنا عدد من الشياطين الذكور ، وثمة إناث من نحو (السعلاة) شيطانة النابغة ،

---

(8) البقاعي . د . شفيق ، الأنواع الأدبية مذاهب ومدارس ، ص177 وبعدها ، طب مؤسسة عز الدين ، بيروت 1985 . واستند د. البقاعي في توثيق المعلومة على : أبو ريان . د. محمد علي كتاب تاريخ الفكر الفلسفي 126/1 .

(9) الجاحظ ، الحيوان 444/2 .

و (المعلاة) شيطانة علقمة بن عبدة ... ويبدو أن أوهام الشعراء تحبّذ إليهم الإناث ، فإذا كان الشيطان ذكراً تذمّر الشاعر :

إني وكل شاعر بن البشر — شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

لكن الأعشى كان سعيداً بصاحبه (الذكر) :

أ ـ وما كنت شاصردا ولكن حسبتني — إذا مسحل سدّى لي القول أنطق
شريكان فيما بيننا من هوادة — صفيان جني وإنسي موفق
يقول فلا أعيا لشيء أقوله — كفاني لاعيّ ولا هو أخرق

ب ـ حباني أخي الجني نفسي فداؤه — بأفيح جياش العشيات خضرم
فقال ألا فانزل على المجد سابقاً — لك الخير قلّد إذا سبقت وأنعم[10]

ثم قارن شعر سويد بن أبي كاهل اليشكري :

فرّ مني هارباً شيطانه — حيث لا يعطي ولا شيئاً منع
ورأى مني مقاماً صادقاً — ثابت الموطن كتّام الوجع
ولساناً صيرفياً صارماً — كحسام السيف ما مسى قطع
وأتاني صاحب ذو غيث — زفيان عند انفاد القرع
قال لبيك وما استصرخته — حاقراً للناس قوّل القذع
ذو عباب زبد آذيه — خمط التيار يرمي بالقلع[11]

---

(10) الأعشى ، ديوانه أ . ق 33 ب 32 ـ 33 ـ 34 ، ب ـ ق 15 ، ب 51 ـ 52 ، ب 43 :

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له — جهنام جدعا للهجين المذمم

شاصردا : متعلم . مسحل : شيطان الأعشى . سدّى : أحسن . الهوادة : اللين والرفق . العي : العاجز . الأخرق : الجاهل . جدعاً : جدعه الله والجدع القطع . الهجين : غير الأصيل . أفيح : بحر واسع الخضرم البئر القديم والكثير الماء .. كناية عن الجواد المتفضل .

(11) الضبي : المفضليات رقم 40 ب 100 وبعدها . لا ينفعه : إشارة للفرار . موقر : منقل . كتّام الوجع : صبور . الصيرفي : المجرّب . حسام السيف : شفرته . ذوغيث : سريع الاستجابة . الزفيان : السريع الخفيف . الإنفاد : الذهاب . النفاد . القرع : مفردها قرعة وهي القربة . القذع : قبيح الكلام . ذو ا=

وقد يستعذب الشاعر وهم الجني أو الجنية ، ويجد جمهوراً مغرماً بعجائبية الصلة بين الشاعر والجن ، فيجنح إلى أبعد نقطة من الخيال .. فتأبط شراً فخورٌ بأنه تزوّج من الغيلان :

أنا الذي نكح الغيلان في بلد ... ما طلّ فيه سماكي ولا جادا
في حيث لا يعمت الغادي عمايته ... ولا الظليم به يبغي تهيّادا
وقد لهوت بمصقول عوارضها ... بكر تنازعني كأساً وعنقادا
ثم انقضى عصرها عني وأعقبه ... عصر المشيب فقل في صالح بادا[12]

ثم يزعم في موقف آخر أنه صادق الغول مفتخراً بذلك أمام صاحبته سليمى التي شكت إلى جارتها أن (ثابت) وهو تأبط شراً أصبح شيخاً أقرب إلى القبر منه إلى عشق النساء :

تقول سليمى لجارتها ... أرى ثابتاً يفناً حوقلا
لها الويل ما وجدت ثابتاً ... ألفّ اليدين ولا زمّلا
ولا رعش الساق عند الجراء ... إذا بادر الحملة الهيضلا
... وأدهم قد جبت جلبابه ... كما اجتابت الكاعب الخيعلا
إلى أن حدا الصبح أثناءه ... ومزّق جلبابه الأليلا
على شيم نار تنورتها ... فبت لها مدبرا مقبلا
فأصبحت والغول له جارة ... فيا جارتا أنتِ ما أهولا
وطالبتها ... فالتوت ... بوجه تهوّلَ فاستغولا
فقلت لها : يا انظري كي تري ... فولّت فكنت لها أغولا
فطار بقحف ابنة الجن ذو ... سفاسق قد أخلق المحملا
إذا كلَّ أمهيته بالصفا ... فحدّ ولم أره صيقلا

عباب : موج كثير . الآذي والتيار : الموج . خمط : مضطرب . القلع : الصخرة الكبيرة مشبه به للموجة !!.

(12) تأبط شراً ، ديوانه وأخباره ق 9 ص 77 .

عظـــاءة قفر لهـــا حلتـــان   من ورق الطلـــح لم تغـــزلا
فمن كان يســـأل عن جـــارتي   فـإن لهـا بـــاللـوى منزلا[13]

والخلاصـة : إن كتب الأخبـار ونصـوص الشعراء نقلت إلينـا أن الجـاهليين كانـوا يظنـون أن الشـاعر لا يستطيـع أن يقـول الشعر دون أن يلهمـه الجني شعره ، وأن جن الشعر أو شياطينه وجدوا في وادي عبقر قريـة يـأنسون إليهـا ، ويسكنون فيهـا وذلـك جزء من عقيدة ذلك العهد التي توحد بين الشاعر والساحر والنبي ، فللشاعر شيطانـه ، وللسـاحر رأيـه ، وللنبي وحيـه ، وقـد أبطـل الـدين الإسـلامي العظيم هـذه الأوهـام والأباطيل .. كما أبطل الكثير من المعتقدات الجاهلية الوثنية[14] !!

(13) المصدر نفسه ق 27 ص 162 وبعدها ص 164 وبعدها .
اليفن : الشيخ الفاني . الحوقل : الزاهد بالنساء . الزمل : الجبان . الجزاء : الركض . الهيضل : الجماعة من النـاس ، والهيضـل من النسـاء الضخمـة والهيضـل : الجيش . الخيعـل : قميص بـلا أكمام . الكاعب : البنت . الأدهم : الليل . جبته : دخلت فيه الأثناء : النواحي والجوانب . ليل أليل : شديد الظلمـة . الشيم : النظر إلى البرق أو النار لمعرفة المصدر . تنوّر : أبصر النـار . مـدبراً مقبلاً : كنـايـة عن الحـذر والقلق فهـو يتحرّك حتى لا يغفـل أو ينعس . الجـارة : الـزوج أو الخليلـة . استغـول : تلـوّن وتغيّر . أغولا : فتـاكاً . القحف : عظم فـوق الجمجمـة . ذو سفـاسـق : السيف والسفسقـة شطبـة السيف أو طريقته . أخلق المحمل : بليت حمـائلـه لثقلـه وكثرة لبسـه . كلّ : التعب والكلال . أمهيتـه : جعلتـه رقيقاً حاداً . الصيقل : المغن بشحذ السيوف وجلائهـا . العظـاءة : حشرة تشبـه أبو بريص . الطلح : شجر . اللوى : موضع .

(14) الصائغ : عبد الإله ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص 28 .

الفصل الخامس

المعلقات وشعراؤها

المعلقات قصائد متميزة احتازت أهميتها البالغة في الوسط الأدبي بسبب جمال معانيها ومتانة مبانيها ، أنجزها شعراء كانوا نجوماً ساطعة في الزمن الجاهلي ، ولم يكن حب الناس لها وتعلّقهم بها ؛ لأن شعراءها معروفون ومحبوبون ، فمثل هذا لم يكن ضمن مفردات الصلة بين الناس والشعر ، فالناس تبحث عن الشعر قبل الشاعر ، ولم يكن قد ظهر النقد المنافق بعد ، فأم جندب كما تزعم الأخبار فضلت شعر علقمة على شعر زوجها امرئ القيس ، وعلقمة غريب وامرؤ القيس حبيب ، وعلقمة فقير وامرؤ القيس أمير !! فانتصار الذائقة الجاهلية كانت للشعر قبل الشاعر ، وذلك ما يشجعنا على القول : إن المعلقات هي أجمل قصائد طويلة في رأي جمهور زمانها ، وفي رأي جل الدارسين على تعاقب الأزمنة ومختلف الأمكنة ، فأساليبها مبتكرة حاذقة ، وصورها مؤثرة مونقة ، وعبارتها بسيطة عميقة ، وأخيلتها مجنحة ، وعواطفها مشبوبة ، وموسيقاها مأنوسة .

أما عدد المعلقات ففيه اختلاف ، جعلها تمتد من ست معلقات إلى عشر !! ولم نقرأ خبراً أنقصها عن الست أو زادها على العشر ! ولنلق نظرة عجلى على العلماء العرب والأجانب الذين اختلفوا في عددها :

☆ المعلقات الست :

1 ـ ابن الكلبي ، محمد بن السائب (ت 204 هـ) مقدمة شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات (ابن الأنباري) تح عبد السلام هارون ، طب دار المعارف بمصر 1963 .

2 ـ الأصمعي . أبو سعيد عبد الملك بن قريب (ت 216 هـ) ، كتاب القصائد الست ، انظر الفهرست ص 79 .

3 ـ البطليوسي . أبو بكر عاصم بن أيوب (ت 464 هـ) ، شرح الأشعار الستة الجاهلية ، تح ناصيف عواد ، طب دار الحرية بغداد 1979 .

4 ـ المستشرق الورد . العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهلين ، طب ليدن .

☆ **المعلقات السبع :**

1 ـ أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 210 هـ) : أصحاب السبع التي تسمى السمط ، نقلاً عن العمدة 96/1 .

2 ـ ابن قتيبة (ت 216 هـ) الشعر والشعراء 143/1 ، قال في معلقة عمرو بن كلثوم (وهي من جيد شعر العرب القديم وإحدى السبع) .

3 ـ ابن كيسان (ت 299 هـ) ، شرح السبع الطوال الجاهليات مخطوطة برلين رقم 7440 ، نقلاً عن بلاشير ، تاريخ الأدب العربي ص 175 .

4 ـ ابن عبد ربه (ت 327 هـ) ، العقد الفريد 259/2 ، تح أحمد أمين وصاحبيه ، طب لجنة التأليف مصر 1950 .

5 ـ القرشي . أبو زيد (ت القرن الرابع) ، جمهرة أشعار العرب ، طب دار صادر .

6 ـ الأنباري ، أبو بكر محمد بن القاسم (ت 328 هـ) ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، تح عبد السلام هارون ، طب دار المعارف بمصر .

7 ـ القيرواني ، ابن رشيق (ت 456) ، العمدة 96/1 تح محمد محيي الدين عبد الحميد ، طب دار الجيل بيروت 1972 .

8 ـ الزوزني . أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 486 هـ) ، شرح المعلقات السبع ، طب دار صادر بيروت 1958 .

9 ـ ابن خلدون . عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) ، مقدمة ابن خلدون ص 581 ، طب مؤسسة الأعلمي ، بيروت (د : ت) .

10 ـ أبو سعيد الضرير وابن جابر ، شرح المعلقات السبع ، مخطوطة بدار الكتب العربية ، نقلاً عن د . يحي الجبوري ، الشعر الجاهلي ص 119 .

11 ـ الجبوري ، د . يحي ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 111 ، طب بيروت 1972 .

12 ـ البهبيتي ، نجيب محمد ، المعلقات سيرة وتاريخاً ص 5 ، طب دار الثقافة ، المغرب 1982 .

☆ المعلقات الثمان :

طبانة . د . بدوي معلقات العرب ، طب دار الثقافة بيروت 1974 .

☆ المعلقات التسع :

النحاس . أبو جعفر أحمد بن محمد (ت 338 هـ) ، شرح القصائد التسع المشهورات . تح أحمد خطاب العمر ، مط الحكومة بغداد 1973 .

☆ المعلقات العشر :

1 ـ التبريزي . أبو زكريا يحي بن علي (ت 502 هـ) ، شرح القصائد العشر ، تح . د . فخري قباوة ، طب المكتبة العربية ، حلب 1973 .

2 ـ الشنقيطي ، أحمد بن الأمين (ت 1331 هـ) ، المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، طب دار الكتب العلمية ، بيروت 1997 .

ونحن نرجّح أن عدد المعلقات لا يزيد عن السبع ، بسبب من قداسة رقم سبعة عند العرب ، فثمة أيام الأسبوع ، وسبعة العريس وسبعة الميت ، وسبعة الختان ، وثمة العجائب السبع ، والسماوات السبع ، والأرضين السبع ، والقراءات السبع ، حتى قيل :

إن العرب سبعيون[1] وقد تقبل الدارسون فيما بعد الترقيم العشري للمعلقات كما تقبلوا التسميات العديدة للمعلقات ! فهي المعلقات والسموط ، والمذهبات ، والسبعيات ، والمشهورات ، والسبع الجاهليات والمنتقيات ، والسبع الطوال ، والقصائد الطوال .

أما شعراء المعلقات ومطالع قصائدهم فكما يلي :

1 ـ امرؤ القيس (قفا نبك) :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

2 ـ طرفة بن العبد (لخولة أطلال) :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

3 ـ زهير بن أبي سلمى (أمن أم أوفى) :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلّم

4 ـ لبيد بن ربيعة العامري (عفت الديار) :

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبّد غولها فرجامها

5 ـ عنترة (هل غادر الشعراء) :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهّم

6 ـ الحارث بن حلّزة اليشكري (آذنتنا ببينها أسماء) :

آذنتنا ببينها أسماء ربّ ثاو يملّ منه الثواء

7 ـ عمرو بن كلثوم التغلبي (ألا هبي) :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

---

(1) الصائغ ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام (سلطان الأعداد) 49 .

8 ـ ميمون بن قيس البكري : الأعشى (ودع هريرة)

ودع هريرة إن الركب مرتحـل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

9 ـ النابغة الذبياني (يادار مية) :

يـادار ميـة بـالعليـاء فـالسنـد أقوت وطال عليها سالف الأمـد

10 ـ عبيد بن الأبرص (أقفر من أهله) :

أقفر من أهلـــه ملحـــوب فـالقطبيـــات فـــالـــذنـــوب

ونحن غير ميالين إلى اعتداد عبيد بن الأبرص صاحب معلقة ! لأن بـائيتـه ليست بمستوى المعلقـات ، فهي محرومـة من جمـالي المعنى والمبنى وهي إلى هـذا مضطربـة معنىً وإيقاعاً ، وربما وضع اسمه في قائمة شعراء المعلقات نكاية بملك الحيرة الذي رضي لمملكته أن تأتمر بأمر الأكاسرة !! وتعاطفاً مع موت عبيد المأساوي « وكان عبيد شاعراً جاهليـاً قديماً من المعمرين وشهـد مقتل حجر أبي امرئ القيس ! وقتلـه النعمان بن المنـذر يوم بؤسه ، ويقال : إنه لقيه يومئذ فقال له هلا كان هـذا لغيرك يـا عبيـد ! أنشـدني فربمـا أعجبني شعرك ، فقال له عبيد : حال الجريض دون القريض »[2] .

يقول ابن سلام : « وشعره مضطرب ذاهب »[3] والقـدمـاء يقـولـون : إن قصيـدة (أقفر من أهلـه) في أصلـه خطبـة ثم استقـام لهـا الـوزن !! وقـد يـلاحـظ الـدارس انكسارات في الوزن ، وقال فيها أبو العلاء المعري :

وقـد يخطئ الرأي امرؤ وهـو حـازم كما اختـل في وزن القريض عبيـد[4]

---

(2) ابن قتيبة. الشعر والشعراء 166/1 ، الجريض : الموت . القريض : الشعر .

(٣) الجمحي . طبقات الشعراء 79 .

(4) التبريزي . شرح القصائد العشر ص 323 قارن هامش (2) .

تقويم المعلقات

قال ابن خلدون (ت 808 هـ) في مقدمته ضمن الفصل التاسع والأربعين الخاص بـ (ترفّع أهلى المراتب عن انتحال الشعر) ما يلي :

اعلم أن الشعر كان ديواناً للعرب ، فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم ، وكان رؤساء العرب منافسين فيه ، وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده ، وعرض كل واحد منهم ديباجته على فحول الشأن وأهل البصر ؛ لتمييز حوله ، حتى انتهو إلى المناغاة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع ، فإنما كان يتوصّل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانته في مضر على ما قيل في تسميتها بالمعلقات . ا . هـ[5] .

وقد مسّ ابن خلدون شغاف المعلقات وأثرها في أفئدة جمهور الشعر عهد ذاك ، بل إن الجماهير العربية الجاهلية كانت جماهير شعر ، وكان الشعر معبّراً عن عواطفهم وأحلامهم ورغباتهم ورهباتهم ، ولم يرتق أي فن أو شأن مراقي الشعر ، وموضع افتراقنا مع ابن خلدون ، رحمه الله ، هو أنه أوكل شهرة المعلقات وتعليقها على قدرة الشاعر (بقومه وعصبيته ومكانته في مصر) وهذا القول ينتقص من قيمة المعلقات وشعرائها بقدر ما ينتقص من ذائقة جمهور الشعر ومروءتهم .

والذي نراه دون تردد هو أن المعلقات كانت ذات جاذبية لا تقاوم ، فأحبها العربي والأعرابي والشمالي والجنوبي .. دون أن تتدخل عوامل العصبية القبلية أو المكانية ، قارن رأي الدكتور يحي الجبوري « المعلقات قصائد طوال جياد ، اختيرت من أحسن الشعر الجاهلي ، قوة ومتانة وجمال أسلوب ، فهي الصورة الناضجة الكاملة التي انتهت

---

(5) انظر ص 580 .

إليها تجارب الجاهليين في التعبير الأدبي ، ولذلك غطت شهرتها ما سواها من الشعر الجاهلي ؛ وصار لقائليها من الذكر والشهرة ما لم يظفر به غيرهم من الشعراء ، واتخذها الأدباء والشعراء ـ قدوة يحاكونها حين ينظمون ، متأثرين بأسلوبها ولغتها ، وطريقة نظمها ، وتسلسل أفكارها ، محاولين أن يبلغوا في قصائدهم مبلغ أولئك الجاهلين في معلقاتهم »[6] .

وقد ضغطت مقولة الدكتور يحي الجبوري على ورقة مهمة هي أن جمال المعلقات كان مسوّغ عناية جمهور الشعر بها ، وقد رجّح الدكتور الجبوري المعلقات على سواها من الشعر الجاهلي ، وهو أمر يتفق مع آليات تحليل النص بيد أن غلق الباب وراء المعلقات ، يلحق حيفاً بقصائد غير قليلة سبقتها ، أو عاصرتها أو عقبتها .. فثمة قصائد كثيرة لها قوة المعلقات وشعريتها .. يقول الدكتور ريجس بلاشير : « إن المكانة التي أفردها علماء المسلمين لمجموعة المعلقات الصغيرة قد أسهمت إلى حد بعيد في تغبيش الرؤية أمام النقد الغربي ، ولا تعتبر القصائد المذكورة بالرغم من شهرتها أكثر بقايا الشعر الجاهلي قدماً وصحة .. ولعل من الحذر ألا نرجحها على غيرها من النتاج الشعري الذي قد يكون أقل ألقاً ، ولكنه أدّل على التفجر العفوي للشعر »[7] .

إن المعلقات قصائد مهمة حقاً ، يقتضينا تقويمها الإلمام بطبيعة هذه المعلقات وشعريتها بمنظور لا يعتسف طريقة الجاهليين في تقويم الشعر .. ولنا أن نقترح عدداً من الإشارات التي تؤوّل أهمية هذه القصائد النفيسة :

1 ـ أجمع أهل الجاهلية على انتقاء هذه القصائد دون غيرها ، رغم استحالة الإجماع أو صعوبته نظراً للعصبيات وتعدد الولاءات فالمعلقات ثمرة الذائقة الجمعية التي يعتدها المنهج الإحصائي مؤشراً كبيراً .

---

(6) الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ص 111 .

(7) تاريخ الأدب العربي ص 178 (م . س) .

2 ـ حذق شعرائها لأفانين التأثير في المتلقّين بمخاطبة حساسياتهم الجمالية حتى حدا الأمر بعنترة وهو الشاعر الفنان إلى تحدّي الشعراء بمعلقته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهّم

أما الأعشى فقد كان مولعاً بتغريب قصيدته ، حتى لا تشبه القصائد ، وإحكام أسبابها ، لتشغل الملوك والكافة فيتساءلون عمن قالها :

وغريبة تأتي الملوك حكيمةٍ قد قلتها ليقال من ذا قالها

بعض الشعراء وقف باكياً ومستبكياً ! والآخر بدأ معلقته بالسؤال ، والثالث توّجع وتفجّع ، والرابع استرجع الماضي ، والخامس خلط المجاز بالواقع ، والحديث يطول في ابتكارات المعلقات التي استحوذت بها على إعجاب جماهير غفيرة ..

3 ـ جماليات الموسيقا ، ابتداء بالبحر مروراً بمخارج الحروف وصلاتها ببعضها وانتهاء بالقافية مع ملاحظة التقابلات النغمية بين العبارات والكلمات والصياغات ..

4 ـ ولع المعلقات بالتصوير الفني فهي تصف بمهارة عالية المفردات التي تدخل في دائرتها ، فنرى مع الشاعر ونسمع ونشم ونذوق ونلمس ، بل نأسى ونفرح أيضاً ، لقد استثمرت المعلقات طاقات الحواس الخمس في استقبال الصور وتلوينها ، وتكفي الإشارة إلى فرس امرئ القيس الذي انحدر من الأعالي مثل صخرة جرفها السيل ..

5 ـ سلاسة الأسلوب وجزالته ، بالابتعاد عن الكلمات الغريبة الكزة ، وخلوص العبارة من المعاضلة والتعقيد مع وضوح العبارة وذكاء الإشارة .

6 ـ وحدة البيت ، وهذا الموضوع ليس حكراً على المعلقات ، وإنما هو سمة في الشعر التقليدي بيد أن المعلقات أكثر عناية بوحدة البيت بحيث يبدو البيت مغتنياً بنفسه عن البيت السابق والبيت اللاحق ، ووحدة البيت لا تؤدي إلى تفكيك وحدة الموضوع ، أو الوحدة العضوية كما تهيأ لعدد من الدارسين ، بل إن وحدة البيت تسهم بفاعلية فذة في شدّ القصيدة إلى بعضها وإحكام بنيتها العميقة والظاهرة ..

7 ـ وحدة الموضوع ، فكل معلقة ترصد موضوعاً بعينه تدور حول محوره ، وهذه الوحدة لا تلغي وجود وحدات صغيرة تتجادل مع بعضها ، وتتحاور ثم تتقارب ، وتتكاثف لتشكل الوحدة الكبرى (القصيدة) ، وما أشبه وحدة القصيدة بالجدار المتماسك المتألف من وحدات أصغر هي الآجرّات ! ووحدة الموضوع ليست مقصورة على المعلقات ، بل هي مرة أخرى الصفة العامة للشعر الجاهلي لكن المعلقات أكثر تشبثاً من سواها بهذه الوحدة .

8 ـ حافظت المعلقات على وحدة اللغة الشعرية ، فتخففت من أعباء اللهجات حين أصرّ شعراؤها على كتابتها وفق لغة قريش ، متناسين لهجاتهم واشتراطاتها الدلالية والصوتية ، فشعراء اليمن وكندة والحيرة واليمامة وبصرى ودومة الجندل وغيرهم ، تخلوا عن لغاتهم وكرّسوا لغة قريش حتى يفهم قصائدهم القاصي والداني فأسهموا في بناء وحدة العرب اللغوية والذوقية .

9 ـ المعلقات (نصوصاً) قدوة الشعراء الذين جايلوها أو جاؤوا بعدها .. فأضحت تقليداً حمل الشعراء على محاكاته وتمثله والإضافة إليه ! ومعلوم أن القصيدة الناضجة جمالياً والناجحة جماهيرياً تكون موضع اهتمام الشعراء الطامحين بمجد كمجدها ، فهم يدرسونها ويحللونها ، ليكتشفوا أهم قيمها الدلالية والجمالية ، ليكتشفوا ما نسمّيه الآن (الشعرية) ، وبهذا خلقت المعلقات نشاطاً شعرياً وحضارياً منقطع النظير بسبب جاذبيتها !

10 ـ وجدد عدد من علماء النغم (د . إبراهيم أنيس مثلاً) أن للمعلقة وسيلة استثنائية في المزج بين المعنى والمبنى لتوليد حالة ثالثة عالية الشعرية ، فقد تجاوبت البحور والقوافي وعوائل الحروف مع همّي القصيدة : الجمالي والدلالي ، حتى ليمكن القول : إن معلقة عمرو بن كلثوم لا يمكن أن تكون بهذه الجودة ، لو لم تكتب على الوافر وتنتقي النون مشبعة الفتحة ، وأن امرأ القيس أحسن تماماً في انتقاء الطويل بحراً لقصيدته واللام قافية .. وهذه إشارات يفقهها محللو النص ! قارن الآتي :

جدول (١)

الترتيب	البحر	عدد المعلقات	المعلقة نسبة الى الشاعر
1	الطويل	3	امرؤ القيس - زهير - طرفة
2	البسيط	3	النابغة - الأعشى - عبيد بن الأبرص.
3	الكامل	2	لبيد - عنترة.
4	الخفيف	1	الحارث بن حلزة.
5	الوافر	1	عمرو بن كلثوم.

جدول (٢)

الترتيب	القافية	العدد	المعلقة /الشاعر
1	د	2	(لخولة أطلال - طرفة) (يادارمية - النابغة)
2	م	2	(أمن أم أوفى-زهير) (هل غادر الشعراء-عنترة)
3	ل	2	(قفا نبك- امرؤ القيس)-(ودع هريرة-الأعشى)
4	هـ	1	(عفت الديار-لبيد)
5	ن	1	(ألاهبي-عمرو بن كلثوم)
6	ب	1	(أقفر من أهله-عبيد)
7	د	1	(آذنتنا ببينها-الحارث)

المعلقات بين دلالتي اللغة والاصطلاح

(فكرة التعليق على أستار الكعبة)

تكتنز مادة (علق) دلالات وفيرة تبدو مؤتلفة أحياناً ، ومختلفة أخرى ، بيد أن لها قواسم مشتركة في الأغلب الأعم نحو :

١ ـ علق : أمسك وتشبث ... قال الأعشى ، ثم قال امرؤ القيس :

+علقتها عرضاً وعلقت رجلاً   غيري وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقتـه فتـاة مـا يحـاولهـا   من أهلها ميت يهذي بها وهِل
وعُلّقتني أخيرى مـا تـلائمني   فاجتمع الحب حبا كلـه تبِل
+تعلّـق قلبي طفلـة عربيـة   تنعم بـالديبـاج والحلي والحلَل

2 ـ العِلْق (كسر العين سكون اللام) : الشيء النفيس والأعلاق النفائس ويسمّى الحجر الكريم الثمين الذي يتوسّط القلادة عِلقاً ، وينقل بلاشير من (Lgall) : « إن المعلقات مشتقة من العِلْق وهو ما يضنُّ به من الأشياء والحلي والثياب ، ومما يدعو إلى قبول هذا الرأي أن ابن رُستِه أحد جغْرافيي العرب في القرن الثالث للهجرة أسمى كتابه (الأعلاق النفيسة) فمعنى المعلقات إذن عقود من أحجار كريمة تعلق »[8] .

3 ـ العَلَق (فتح العين واللام) حشرة دودية طفيلية استعملها الأطباء منذ عهد الأكديين والآشوريين ، لامتصاص القيح من الدملة .

4 ـ العَلْق (فتح العين وسكون اللام) : معضد أو مقلد من قماش أو معدن يتفاءل به الناس ظناً منهم أنه يقيهم شرور الحسد والمرض والجن ولونه الغالب أخضر أو أسود .. وهذه عادة جاهلية ، وقيل : بابلية ، فكان البابلي يلبس معضداً من غصن الغار ، أو يشد به رأسه ، أو وسطه لكي يستجلب الخير لنفسه وأحبائه .

---

(8) بلاشير ، تاريخ الأدب العربي 176 .

5 ـ وللتعليق دلالات كثيرة (لسان العرب) علق بينها :

× بقاء القول في الذاكرة والقلب .
× كتابة القول المهم وتعليقه على الحائط ، أو وضعه في خزانة .
× تأجيل البت في الأمر .
× صناعة هامش تفسيري أو تأويلي للنص الأدبي .

وقد مرّ بنا أن النعمان بن المنذر وسواه من الملوك ، كان شغوفاً بالشعر فإذا سمع قصيدة وأعجبته أمر بتعليقها ، « ويعتقد ـ فون كريمر ـ أن الكلمة مشتقة من علق أي كتب ، ويسوّغ ذلك تنقل تلك القصائد عن طريق الرواية الشفهية التي أعقبها التدوين !! » .

ويعلّق المترجم د . إبراهيم الكيلاني على اعتقاد فون كريمر قائلاً : « إن هذا التعليل لا يتفق وعادة العرب المغرمين بالعناوين المجازية ، فإذا كان المستشرق المذكور يعتمد على عبارة ابن النحاس التي وضعها على لسان أحد ملوك العرب القدماء الذي كان إذا استحسن قصيدة قال علقوها ، وأثبتوها في خزانتي (زيدان 90/1) فإنه وضع تسمية مكان أخرى كما أن فعل (علّق) بمعنى (دوّن) استعمال متأخر مقصور على أوساط النسّاخ ، فهي إذن تسمية أطلقها الأدباء ، ولا يسعنا إلا رد مصدر التسمية التي اقترحها أهلوارد القائل بأن المعلقات معناها تعلق معنى البيت ببيت يليه ! أليس ذلك ما هو كائن في كل قصيدة ؟ ولماذا نسب هذا الاسم إلى القصائد المذكورة ولم ينسب إلى غيرها ؟ »[9] .

أما المعلقات في الحقل التواضعي ، الاصطلاحي ، فهي كما أشرنا قصائد جاهلية طويلة وجميلة ، أنجزها شعراء كبار ، فاتفق العرب على جمال عبارتها ، ومعناها ، وموسيقاها ، وجدة أسلوبها ، وقوة أثرها ، واختلف الدارسون قدامى ومحدثون حول عددها فهي كما مرّ بنا ست معلقات ، وسبع ، وثمان ، وتسع ، وعشر ، والاختلاف

---

(9) المرجع نفسه ص 176 .

رحمة ! واختلف الدارسون أيضاً في تعليقها على أستار الكعبة ، أو على القباطي نسبة إلى قماش مصري تكسى به الكعبة كل عام ، فمن مؤكد على أن هذه القصائد علقت على أستار الكعبة إلى رافض فكرة التعليق جملة وتفصيلاً .. وإذا اتفق الدارسون على عدد معين للمعلقات فإنهم ضمن هذا العدد لم يتفقوا على الشعراء المنضوين ضمن هذا العدد !! يقول بلاشير : « إن الخلافات عديدة حول عناوين القصائد التي تؤلف مجموعة المعلقات ، وكذلك حول أسماء الشعراء ، فإن قصائد امرئ القيس وزهير ولبيد موجودة في المجموعات كافة شكلاً وترتيباً ، ولعل ذلك يؤلف النواة الأصلية للمجموعة التي أضيفت إليها فيما بعد قصائد أخرى بدوافع ونوازع أدبية وسياسية ، والأصمعي عرف في زمنه مجموعة مؤلفة من ست قصائد ، كما أن أبا عبيدة عرف مجموعة مؤلفة من سبع قصائد ، وأيد ابن قتيبة وصاحب الجمهرة هذا العدد ، غير أن الأخير يستثني منها قصيدة عنترة فيكون التحقيق كما يلي : قصيدة امرئ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة بن العبد . ويظهر على هذا الإحصاء سلطة أبي عبيدة الذي أوجد في هذا التسلسل نوعاً من التسلسل القيمي .

ونجد عدد السبعة عند ابن النحاس ، ولكن التحقيق يختلف عنده فهو يذكر قصائد امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، وعبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث ، وعنترة ، مستثنياً قصيدة النابغة لشكه في صحتها والتي استعيض عنها بقصيدة عنترة المشهورة ، كما أنه لأسباب سياسية ألحقت بقصيدة عمرو بن كلثوم الممجدة لتغلب قصيدة الحارث الممجدة لبني بكر ، ونجد عند الزوزني تأكيداً لعدد السبعة مستنداً بذلك على تحقيق ابن النحاس ، وأخيراً ففي زمن يصعب تحديده ، ولعله زمن ابن النحاس نفسه مزج بين تحقيق الجمهرة وتحقيق ابن النحاس ، وأصبح ما جمعه وحققه الأخير بداية المعلقات مضافاً إليها المعلقة الثامنة والتاسعة ، وقصيدتي النابغة والأعشى اللتين هما الثالثة والرابعة في الجمهرة وبعد مضي عشرين عاماً جاء شارح آخر هو التبريزي (ت 502) فأحصى عشر معلقات ، سبعاً من جمع ابن النحاس مضافاً إليها قصيدتا

النابغة والأعشى ثم قصيدة مشهورة للبيد[10] ، أما فكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة فلا يوجد دليل علمي قاطع على أنها علقت أو أنها لم تعلّق ، وكل فريق من هذين الفريقين (الذي يقول بالتعليق والذي لا يقول) إنما اعتمد على أدلة تخمينية يؤدي الحدس فيها وظيفة لا تخفى وإن تطرف كل فريق إلى الحد الذي يقذف فيه الفريق الآخر بالعمه والضلال والسخف ، قارن تعبيرات العلامة نجيب محمد البهبيتي وهو من الفريق الذي يقول بتعليق المعلقات على أستار الكعبة !!

1 ـ أثبت للرافعي ولأتباعه أنهم خدعوا أنفسهم حين استندوا في إنكارهم (فكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة) على توقف الشراح عند تسميتها بـ (السبع الطوال) وعدم تسميتها بـ (المعلقات) ..

2 ـ وقد لجأ تابعوه إلى محاولة باغية برمي ابن الكلبي المؤرخ بالكذب .

3 ـ إنه (ابن الكلبي الذي قال بالتعليق) كان عرضة لطعن سفيه باطل في القديم وفي الحديث المعاصر .

4 ـ اتهم البهبيتي الفريق الذي لا يرى تعليق المعلقات على أستار الكعبة بـ « فساد المنهج وفساد في القياس والاستدلال وجهل بمنزلة المراجع والمصادر »[11] . فإذا كان الأستاذ البهبيتي ، وهو العالم الجليل يعبرّ عن حماسته لفكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة بعبارات قاسية ومتحاملة فما بالنا بأولئك الذين يقرزمون الكتابة في الأدب الجاهلي ، ويتعلمون الكتابة فيه كما يتعلم الصبي الضال أسباب النضج والبلوغ !! ولسوف نقتبس توليف الدكتور يحي الجبوري الخاص بفكرة التعليق نظراً لأهميته وريادته « إن أقدم الرواة الذين أشاروا إلى التعليق صراحة هو ابن الكلبي (ت 204)

(10) بلاشير . تاريخ الأدب العربي ص 177 وبعدها ، وإنما تمادينا في الاقتباس لاكتشافنا أن معظم الدارسين العرب اعتمدوا كلياً أو جلياً أو بعضياً على جهد بلاشير دون أن ينوهوا بجهوده القيمة !!

(11) البهبيتي ، نجيب محمد ، المعلقات سيرة وتاريخاً ص 6 ـ 8 ، طب دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب 1982 .

فقد قال : أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ثم أحدر فعلقت الشعراء بعده ، وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية ، وعدوا من علق شعره سبعة نفر » ا. هـ .

وقال بالتعليق كذلك ابن عبد ربه (ت 327 هـ) : « لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة ، وعلقتها بين أستار الكعبة » ا. هـ .

ونص على التعليق أيضاً ابن رشيق القيرواني (ت 456 هـ) فقال : « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب ، وعلقت على الكعبة » ا. هـ .

وتابعهم بعد ذلك ابن خلدون (ت 808 هـ) الذي قال : « إن التعليق كان بأركان البيت الحرام » ا. هـ .

وقد شرح البغدادي (ت 1093 هـ) معنى المعلقة بأنه الشعر المعلق على ركن من أركان الكعبة ا. هـ »[12] .

ويسلّط الدكتور الجبوري الضوء على أن هذه النصوص أعلاه التي أوردها تشير علانية إلى فكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة ، بيد أن هناك نصوصاً أخرى لعلماء تكلموا في المعلقات لم تشر إلى فكرة التعليق ، وهؤلاء هم ابن سلاّم الجمحي (ت 232 هـ) ، والجاحظ (ت 255 هـ) ، وابن قتيبة (ت 276 هـ) ، والمبرد (ت 285 هـ) ، وابن الأنباري (ت 328 هـ) ، وأبو جعفر النحاس (ت 347 هـ) ، والأصفهاني (ت 356 هـ) ، والباقلاني (ت 403 هـ) وغيرهم .

ولاحظ أن هناك فريقاً ثالثاً من العلماء أنكر فكرة التعليق تماماً وفي طليعة أولئك أبو جعفر النحاس الذي قال في شرحه للمعلقات : « إن الملك إذا استحسن

(12) الجبوري . د . يحيى ، الشعر الجاهلي ص 116 .

قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزانتي ، وأما قول من قال : إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة » .

وقد استفاد أبو البركات بن الأنباري من جهد النحاس فقال : « ولم يثبت ما ذكره الناس من أنها كانت معلقة على الكعبة » .

وقد استفاد من جهد النحاس كذلك ياقوت الحموي في مبحث ترجمته لحماد .

أما المعاصرون فثمة من أنكر فكرة التعليق مثل مصطفى صادق الرافعي في تاريخ آداب العرب 192/3 ، وأحمد الحوفي ، وشوقي ضيف .

أما المستشرقون الذين أنكروا فكرة التعليق فهم نيكلسون وهنجستنبرج وهوار[13] . وقد حاول الدكتور بدوي طبانة إثبات فكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة وتفنيد الآراء التي رفضت فكرة تعليق المعلقات وساق أدلة نقلية وعقلية[14] ، لكن المحاولة الكبرى كانت من نصيب الأستاذ البهبيتي ، فقد ذكر الآراء التي اعترضت على فكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة ، وحاول تفنيدها بالأدلة العقلية والنقلية ، ثم عدّد الأسباب التي تجعله موقناً بفكرة تعليق المعلقات على جدران الكعبة ، وذكر التقليد القديم في تعليق الأشياء المقدسة والجميلة في أبواب المعابد ، والقصور الملكية . مذكراً بأسطورتي جلجامش وحيخافي العلى ، فأصدر كتاباً باسم (المعلقات سيرة وتاريخاً) ، وأصدر كتاباً آخر بجزأين أسماه (المعلقة العربية الأولى) .

إن كتابنا ميّال إلى فكرة تعليق المعلقات على أستار الكعبة لأنها توافق المزاج العربي ، وطبيعة ذلك الزمان ، فعندما دخل النبي ﷺ يوم الفتح إلى الكعبة وجد على جدرانها رسومات لسيدنا إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام ووجد أيضاً قرن الكبش معلقاً في أعلى الجدار ! وثمة أشياء عزيزة على الجاهليين أخرى كانت معلقة ، وقد ذكرها

---

(13) نفسه ص 116 وبعدها ..

(14) طبانة ، د ..بدوي ، معلقات العرب ، طبعة الرسالة مصر 1958 .

الأزرقي في كتابه (أخبار مكة) ، بيد أننا لا نرجّح التعصّب لهذا الرأي أو نقيضه ، لعدم توفر وثيقة علمية تثبت فكرة التعليق أو تنفيها . وسواء علقت المعلقات أو لم تعلق فإن المهم هو أن هذه القصائد خلدت ، وعلقت في قلوب العرب على اختلاف الأزمنة والأمكنة وذلك حسبها ..

المعلقات : تراجم ومختارات

لا يمكن لأي دارس الاكتفاء بالجانب التشريحي من تاريخية اللغات والاختلافات والائتلافات بشأن عددها ، وتعليقها ، وأسامي شعرائها ، فذلك أمر يمثّل هامشاً في ظاهرة المعلقات ، ويبقى الجانب الأكثر أهمية هو تسليط الضوء على شعرائها ، وأجوائها ، ومنتخبات منها .

وقد رأينا من باب إتمام الفائدة صناعة جدول بالمظان التي توفرّ المعلومات عن الشعراء وأجواء المعلقات وتثبت النصوص لكي يعود إليها الراغب في الاستزادة .. قارن :

التسلسل	اسم الشاعر	ابن سلام الجمحي ت:232 طبقات الشعراء	ابن قتيبة ت:276 الشعر والشعراء	ابو الفرج الاصبهاني الأغاني ت:356	ابو زكريا التبريزي ت:502 شرح القصائد العشر	أحمد الشنقيطي ت: 1331 المعلقات العشر	جورجي زيدان ت:1332 تاريخ آدب اللغة العربية	بطرس البستاني ت: 1389 الشعر الجاهلي
1	امرؤ القيس	59	73/1	6/8	2	15	93/1	-
2	طرفة بن العبد	78	108/1	-	55	27	109/1	91
3	زهير بن أبي سلمى	59	84/1	139/9	101	41	98/1	115
4	لبيد بن ربيعة	77	171/1	90/14	129	51	105/1	-
5	عنترة العبسي	86	157/1	141/7	176	83	111/1	78
6	عمرو بن كلثوم	85	141/1	؟	215	67	107/1	-
7	الحارث بن حلزة	85	116/1	171/9	249	97	108/1	-
8	الأعشى	59	159/1	50/5 . 74/8	287	107	103/1	-
9	النابغة الذبياني	59	87/1	154/9	307	127	100/1	143
10	عبيد بن الأبرص	79	166/1	84/19	323	143	114/1	-

إشارة : المصادر أعلاه لا تعني عن الدواوين المحققة والدواوين المحققة لا تغني عن المصادر العتيدة.

جدول (أ)

التسلسل	اسم الشاعر	وفاة الشاعر بعد الميلاد استناداً إلى لويس شيخو وجرجي زيدان	وفاة الشاعر قبل الهجرة وبعد الميلاد، استناداً إلى الشنقيطي
1	امرؤ القيس	540-	565-80
2	طرفة بن العبد	500-	552،550-70
3	زهير بن أبي سلمى	615-	608-14
4	لبيد بن ربيعة	662-	660-40
5	عنترة العبسي	615-	600-22
6	عمرو بن كلثوم	600-	570-52
7	الحارث بن حلزة	580-	570-52
8	الأعشى	629-	629-7
9	النابغة الذبياني	604-	604-18
10	عبيد بن الأبرص	555-	565 (!!) - 605 (!!)

جدول (ب)

امرؤ القيس

أشهر شعراء عصره ، وهو ابن ملك كندة وجده حجر بن عمرو آكل المرار ، وكندة بطن من كهلان ، موطنهم البحرين والمشقر ، ثم أجلوا عنهما إلى حضرموت ، وقد نزح حجر إلى نجد ، ونزل بطن عاقل أوائل القرن الخامس ميلادي ، ونافسهم اللخميون (المناذرة) على النفوذ والجاه بين العرب ، وما إن تغيّر كسرى قباذ على المنذر بن ماء السماء حتى وثبت كندة على بني المنذر ، فتملك الحارث بن عمرو بن حجر ملك المناذرة بأمر من كسرى ، وقد دانت العرب للحارث ، فولّى أولاده الأربعة على القبائل ! وانقلب الأمر على الحارث بعد موت قباذ ، وتولي أنوشروان حكم فارس ، وكان أنوشروان ميالاً للمناذرة فاقتتل الكنديون والمناذرة فقتل الحارث ، واختصم أولاده الأربعة بعده على الجاه والأموال واقتتلوا ، فقتل اثنان ، وبقي اثنان : هما حجر والد امرئ القيس ومعد يكرب أمير قيس وانتهز بنوأسد السانحة فثاروا على حجر وقتلوه ، وكان امرؤ القيس حين بلغه نبأ مقتل أبيه في ناد للهو ... فنسب إليه قوله : « اليوم خمر وغداً أمرّ » .

وحين أراد امرؤ القيس استنصار القبائل العربية على قتلة أبيه ومساعدته في عودة ملك كندة تخلت عنه العرب ، وتذكرت عبثه ومجونه واستهتاره بنسائهم ، وكيف ضاق به أبوه ، وطلب إلى الجلاد أن يذبحه على قنة الجبل ، ويجلب له عينيه على طبق . وقد تجول في اليمن ونجد والحجاز متنكراً يبحث عن النصير ، فأخفق وتعرّض للقتل وخشي على حياته وعائلته وأمواله .. فلجأ إلى السموءل بن عاديا صاحب حصن الأبلق فأحسن السموءل استقباله وأجاره .. ثم ترك أمواله وعائلته وديعة عند السموءل وغادر هو وصديقه الشاعر عمرو بن قميئة إلى الروم لطلب النجدة من قيصرها وقد

توسط بين القيصر وامرئ القيس الحارث بن شمر الغساني صديق الاثنين .. وقد رحب القيصر بالشاعر الكندي ووعده بجيش جرار وأموال حتى يعيد الملك لكندة ويعاقب بني أسد قتلة أبيه .. إلا أن القيصر كان متقلباً ، ويعتمد على جيش من الجواسيس ونقلة الأخبار .. فأنهي إليه أن امرأ القيس شتم القيصر وأباه وأنه أقام علاقة غير شرعية بابنته .. وهكذا أعلن القيصر أمراً وأبطن آخر ، فطلب إلى امرئ القيس أن يعود إلى بلاده وأن يقيم في أنقرة بعض الوقت حتى يلتحق به الجيش الرومي ! ثم أهدى له حلة مسمومة ، وحين أقام في أنقرة جنب جبل عسيب .. اغتسل وارتدى الحلة ، فتناثر لحمه وتقرّح فسمّي ذا القروح ، وذكر لويس شيخو نقلاً عن كتاب قديم مخطوط .. أن القيصر ندم على غدره بمن استجار به وحزن (يوستانيوس) وهذا اسم القيصر حزناً عظيماً وقتل الوشاة ، وأقام له تمثالاً على قنة جبل عسيب شاهده المأمون عندما غزا تلك الديار .

أما المعلقة فهي مجموعة صور تنقل لنا لقاءه مع حبيبته وابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل ، وكان أمر حبهما قد افتضح فتعذّر اللقاء وكان من عادة الظاعنين أن تسبق جمال الرجال هوادج النساء فتخلف الشاعر وانتظر حتى نزلت النساء عند غدير تحيطه دائرة من الرمال المرتفعة يسمى دارة جلجل ، وهو قريب من منازل كندة فالتقى عنيزة وصويحباتها ونحر لهن ناقة وسوى خدمه اللحم لهن .

☆ **معلقة (قفا نبك) . عدد أبياتها (77) بيتاً . البحر : طويل . القافية : ل**

1ـ قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل
2ـ فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها	لما نسجتها من جنوب وشمأل
3ـ ترى بعر الآرام في عرصاتها	وقيعانها كأنه حب فلفل
4ـ كأني غداة البين يوم تحملوا	لدى سمرات الحي ناقف حنظل
5ـ وقوفاً بها صحبي عليّ مطيهم	يقولون لا تهلك أسى وتجمل
6ـ وإن شفائي عبرة إن سفحتها	وهل عند رسم دار من معوّل
7ـ كدأبك من أم الحويرث قبلها	وجارتها أم الرباب بمأسل
8ـ ففاضت دموع العين مني صبابة	على النحر حتى بلّ دمعي محملي
9ـ ألا ربّ يومٍ لك منهن صالح	ولا سيا يومٌ بدارة جلجل
10ـ ويوم عقرت للعذارى مطيتي	فيا عجباً من رحلها المتحمّل
11ـ فظل العذارى يرتمين بلحمها	وشحم كهداب الدمقس المفتل
12ـ ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة	فقالت لك الويلات إنك مرجلي
13ـ تقول وقد مال الغبيط بنا معاً	عقرت بعيري ياامرأ القيس فانزل
14ـ فقلت لها سيري وارخي زمامه	ولا تبعديني من جناك المعلل
15ـ ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت	عليّ وآلت حلقةً لم تحلل
16ـ أفاطمَ مهلاً بعضَ هذا التدلل	وإن كنتِ قد أزمعت قتلي فأجملي
17ـ وإن كنتِ قد ساءتك مني خليقة	فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل
18ـ أغرّك مني أن حبك قاتلي	وأنك مهما تأمري القلب يفعل
19ـ وما ذرفت عيناك إلا لتقدحي	بسهميك في أعشار قلب مقتل
20ـ وبيضة خدر لا يرام خباؤها	تمتعت من لهو بها غير معجل
21ـ تجاوزت حرّاساً وأهوال معشر	عليّ حراصٍ لو يُسرّون مقتلي
22ـ إذا ما الثريا في السماء تعرّضت	تعرّض أثناء الوشاح المفصل

23 ـ فجئت وقـد نضّت لنـوم ثيـابهـا	لـدى الستر إلا لبســة المتفضـل
24 ـ إذا التفتت نحـوي تضـوّع ريحهـا	نسيمَ الصبـا جـاءت بريـا القرنفـل
25 ـ مهفهفــة بيضــاء غير مفـاضــة	ترائبهـا مصقـولـة كالسجنجـل
26 ـ تصـد وتبـدي عن أسيـل وتتقي	بنــاظرة من وحش وجرة مطفـل
27 ـ وجيـد كجيـد الرئم ليس بفـاحش	إذ هي نصتـــــه ولا بمعطـــل
28 ـ وفرعٍ يـزين المتن أسـودَ فـاحم	أثيث كقنـو النخلـــة المتعثكل
29 ـ غــدائره مستشزرات إلى العـلا	تضـل المـداري في مثنى ومرسـل
30 ـ وكشـح لطيف كالجـديـل مُخصرّ	وسـاق كأنبـوب السقي المـذلـل
31 ـ تضيء الظـلام بــالعشيّ كأنهــا	منــارة حُمْس راهب متبتـل
32 ـ وتضحي فتيت المسك فوق فراشها	نـؤوم الضحى لم تنتطـق عن تفضل
33 ـ إلى مثلهـا يرنـو الحليم صبـابـة	إذا مـا اسبكرت بين درع ومجـول
34 ـ وليـل كموج البحر أرخى سـدولـه	عليّ بــأنــواع الهمــوم ليبتلي
35 ـ فقلت لــه لمــا تمطى بجـوزه	وأردف أعجــازاً ونــاء بكلكل
36 ـ ألا أيهـا الليـل الطـويـل ألا انجلي	بصبح ومـا الإصباح فيك بـأمثـل
37 ـ فيـالــك من ليـل كأن نجـومـه	بكل مغـار الفتـل شـدّت بيـذبـل
38 ـ كأن الثريــا علقت في مصـامهـا	بـأمراس كتــان إلى صم جنــدل
39 ـ وقـد أغتـدي والطير في وكنـاتهـا	بمنجرد قيـــد الأوابـــد هيكل
40 ـ مكر مفر مقبـل مــدبر معـــاً	كجلمود صخر حطـه السيل من عـل

☆ **معاني الكلمات :**

1 ـ سقط اللوى : الرمل الرقيق الـذي يتسـاقـط ويتلوّى . الـدخول وحومل وتوضح والمقراة مواضع .

2 ـ يعف ، ينطمس ويختفي . الرسم : الأثر . نسجتها : تعـاقبت عليهـا فجعلتهـا مثـل النسيج ، جنوب وشمأل : رياح تهب من الجنوب وأخرى من الشمال .

3 ـ الآرام : الظباء البيض .

4 ـ البين : الفراق والمصيبة . السمرات : شجيرات يستخرج منها الصمغ . الناقف : المستخرج حبّ الحنظل .

5 ـ المطي : الإبل .

6 ـ رسم دار : آثار مطموسة .

7 ـ المعوّل : الأمل والرجاء .

8 ـ الصبابة : برقة الشوق . المحمل : حزام يحمل به السيف .

9 ـ الدارة : الأرض المحاطة بكثبان الرمل وهي أخفى للخائف أو الكامن .

10 ـ عقرت : نحرت .

11 ـ يرتمين بلحمها : يتهادين اللحم بينهن على سبيل المزاح الواحدة ترمي الأخرى باللحمة .. الهداب : غزل الإبريسم المفتول . ظل : بقين النهار كله . الدمقس : الحرير الأبيض المصنوع بدمشق .

12 ـ الخدر : الهودج . مُرجلي : إنك ستضطرني للمشي على رجليّ .

13 ـ الغبيط : خشب الهودج .

14 ـ الزمام : حبل يقاد به البصير . الجنى : الغسل . المعلل : المأمول والعلل الشرب المتكرر .

15 ـ الكثيب رمل مرتفع . تعذّرت : امتنعت . آلت حلفة : أقسمت يميناً ..

16 ـ أزمعت : قررت . صرمي : مقاطعتي . اجملي : اقصري أو أحسني .

17 ـ الخليقة : الخلق ساءتك : آذتك . سلّي : اسقطي من سلّ ريش الطائر سقط .

19 ـ ذرفت : دمعت أو سال دمعها . تقدحي : تقامري . وكان الجاهليون يضعون في الكيس سبعة أسهم مكتوب على الأول (الفذ) له نصيب واحد والتوأم (نصيبان) والرقيب (ثلاثة) والحلس (أربعة) والنافس (خمسة) والمسبل (ستة) والمعلى (سبعة) ويقسمون الشيء المراهن عليه عشرة أقسام !! كأن الشاعر يخاطب فتاته قائلاً : أنت لم تبكين حزناً علي وإنما بكيت فرحة لأنك كسبت الرهان على قلبي . والسهان كناية عن العينين .

20 ـ الفتاة تشبه البيضة بياضاً ونعومة ونفعاً . الخدر : الخدرع : مخدع المرأة . الخباء ما كان

على عمودين أو ثلاثة ، والبيت ما كان على ستة أعمدة إلى التسعة ، والخيمة ما كانت على جذع شجرة . تمتعت : انتفعت .

21 ـ يسرّون مقتلي : يكتمون قتلي ليضيع دمي .

22 ـ تعرّضت الثريا أي أرتك عرضها وهي دلالة المغيب والظلام الدامس وشبه اجتماع نجوم الثريا بالثوب أو قطعة قماش مخرّزة متعددة الألوان والمفصل بالزبرجد ، وأثناء الوشاح نواحيه .

23 ـ نضت : ألقت أو نزعت . المتفضل : المكتفي بثوب واحد للنوم .

24 ـ تضوّع : عبق شذاه . الريا : العطر .

25 ـ المهفهفة : الرشيقة . المفاضة : المسترخية البطن . التريبة : موضع القلادة من الصدر السجنجل : صحيفة فضة تستعمل مرآة .

26 ـ الأسيل : خد أملس مستو . الناظرة : العين . وحش وجرة : ظبية نادرة يصعب صدها . مطفل : أم طفل .

27 ـ الجيد : العنق . الرئم : الظبي الأبيض . نصته : رفعته : المعطّل . الذي لا حلي عليه . الفاحش : الكريه المنظر .

28 ـ الفرع : الشعر الطويل الكثيف . الفاحم : الشديد السواد . أثيث : ذو خصل كثيرة . القنو : العذق . المتعثكل : الكثير المتداخل .

29 ـ الغدائر : الخصل. مستشزرات : مفتولة . المداري (أو العقاص على رواية) المشطة مفردتها مدراة .

30 ـ الكشح : الخصر . اللطيف : الصغير الضامر الحسن . الجديل زمام من سيور مضفورة . مخصر : واضح النحافة . والخصر مكان يشدّ عليه الحزام . أنبوب السقي : قناة من القصب أو النخل .. المذلل : الذي أزيلت عنه النتوءات والعقد فهو قريب الدلالة من المثقف .. والكناية عن الامتلاء والنعومة والارتواء ..

31 ـ المنارة : المصباح . ممسى راهب : وقت إمساء الراهب . المتبتل : المنقطع عن الناس المتصل بالله بالعبادة والتقوى .

32 ـ نؤوم الضحى : تنام الضحى لأنها منعمة وثمة من يقوم على خدمتها . تنتطق : تلبس النطاق (الحزام) . عن تفضل : فيها معنيان الأول أنها لا تشد الحزام على ثوب واحد للقيام بأعباء

البيت والآخر .. أنها تشد الحزام على بطنها لكي تزدان وليس شد الحزام لإمساك البطن المترهل .. فهي ذات خصر نحيل ليس في بطنها فضلة أو زيادة أو ترهّل .

33 ـ يرنو : يديم النظر . الصبابة : رقة الشوق وشدته ، اسبكرّت اعتدلت وبان قوامها الطويل . الدرع ثوب الفتاة الناضجة . والمجول ثوب خفيف تلبسه الصبية .

34 ـ السدول : التسور . يبتلي : يمتحن ويجرّب .

35 ـ الجوز : الوسط . ناء بكلكل : نهض بصدره . أردف أعجازاً : رجع .

36 ـ انجلي : انكشف . أمثل : أحسن .

37 ـ مغار الفتل : المحكم الفتل من الحبال . يذبل : اسم جبل .

38 ـ المصام : المكان مثل خيول لم تبرح مصامها . المرسل : الحبل . الجندل : الحجارة .

39 ـ الوكنات : الأعشاش . المنجرد : الفرس ذو الشعر القصير ، الأوابد : الوحش قيد الأوابد : كأنها في الطراد يقيدّها عن اللحاق به . هيكل : فرس ضخم مثل هيكل النصارى .

40 ـ مكر مفر : صفة الفرس المدرّب على الإقدام والإحجام (المناورة) . جلمود صخر : صخرة قوية . حطه : ألقاه إلى أسفل . السيل : الماء الدافق وإذا انحطّ من الأعلى فهو الشلال .. فقد شبه الشاعر فرسه بصخرة ألقى بها الشلال من الأعلى .

٢ ـ طرفة بن العبد

وهو شاب قال الشعر في صباه ، فاعتزت به قبيلته بكر بن وائل (من ربيعة) ، وخاله المتلمس (جرير بن عبد المسيح) الشاعر المعروف ، وكان منذ حداثة سنه مهموماً ، فقد ذاق اليتم صغيراً وسرق أعمامه أموال أبيه طمعاً وجشعاً ونكاية بأمّه (وردة) ، أما سبب كتابته المعلقة فهو التنفيس عن همومه الشخصية والوجودية ، وسخطه على ابن عمه مالك الذي رضع كراهية طرفة وأخيه معبد وأمه وردة ! وكأن القدر كان لطرفة بالمرصاد فحينما دعا عمرو بن هند ملك الحيرة طرفة وخاله إلى مأدبته الخاصة . لاحظ اعتداد طرفة بنفسه حين يتحدّث ناسياً أنه يتحدّث مع ملك ، ولاحظ أيضاً أنه طرفة يمشي أمامه مشية الخيلاء فنظر إليه الملك نظرة (كادت أن تبتلعه من مجلسه) ، ولاحظ المتلمس تلك النظرة فتطيّر منها .. ثم إن الملك حفظها في نفسه ، وكتب إليهما كتابين وطلب إليهما إيصال الكتابين إلى المكعبر عامله على البحرين وعمان .. وزعم لهما أنه طلب من عامله تقديم الهدايا لهما ... فتوجّس المتلمس خيفة .. وقد لاحظ بعض العيون تراقبهما من بعيد ؛ فوصلا النجف وجلسا .. فإذا بغلام عبادي يسقي غنماً له من نهر الحيرة .. فسأله المتلمس (أتعرف القراءة) فأجاب الغلام : نعم فطلب إليه قراءة صحيفته فقرأ (باسمك اللهم من عمرو بن هند إلى المكعبر عاملنا على البحرين وعمان .. إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً) ففزع المتلمس وألقى الصحيفة في نهر الحيرة ، وطلب إلى ابن أخته طرفة أن يصنع مثله فأبى ، لقلة خبرته فافترقا .. ووصل طرفة إلى المكعبر ، وما كان يظن الغدر بعمرو بن هند وسلم الصحيفة إلى العامل فقرأها وأعلمه بمضمونها واعتذر المكعبر لطرفة قائلاً : لا أستطيع سوى تنفيذ أوامر الملك فقطع يديه ورجليه ودفنه وهو حي .. وأصبحت صحيفة المتلمس مضرب المثل .

☆ معلقة : (لخولة أطلال) عدد الأبيات ١٠٦ . البحر : الطويل . القافية : د

1- لخـولـة أطـلال ببرقـة ثهمـد ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
2- وقـوفـاً بهـا صحبي عليّ مطيّهم ... يقـولـون لا تهلـك أسى وتجلّـد
3- كأن حـدوج المـالكيـة غـدوة ... خـلايـا سفين بـالنـواصف من دد
4- عـدوليـة أو من سفين ابن يـامن ... يجور بهـا الملاح طـوراً ويهتـدي
5- يشق حباب المـاء حيزومها بها ... كما قسّم الترب المغـايـل بـاليـد
6- وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن ... مظـاهر سمطي لـؤلـؤ وزبرجـد
7- خـذول تراعي ربربـاً بخميلـة ... تنـاول أطراف البرير وترتـدي
8- وتبسم عن ألمى كأن منـــوراً ... تخلل حرّ الرمـل دعص لـه نـدي
9- سقتـه إيـاة الشمس إلا لثـاتـه ... أسفّ ولم تكـدم عليـه بـأثمـد
10- ووجـه كأن الشمس ألقت رداءهـا ... عليـه نقي اللـون لم يتخـدد
11- وإني لأمضي الهمّ عنـد احتضـاره ... بعـوجـاء مرقـال تروح وتغتـدي
12- أمـون كألـواح الإران نسـأتهـا ... على لاحب كأنـه ظهر برجـد
13- على مثلهـا أمضي إذا قـال صـاحبي ... ألا ليتني أفـديـك منهـا وأفتـدي
14- إذا القـوم قـالـوا من فتى خلت أنني ... عنيت فلم أكسـل ولم أتبلّـد
15- ولست بحـلال التـلاع مخـافـة ... ولكن متى يسترفـد القـوم أرفـد
16- فـإن تبغني في حلقـة القـوم تلقني ... وإن تقتنصني في الحـوانيت تصطـد
17- متى تـأتني أصبحـك كأسـاً رويـة ... وإن كنت عنها ذا غنى فـاغن وازدد
18- وإن يلتقي الحي الجميـع تـلاقني ... إلى ذروة البيت الرفيـع المصمّـد
19- نـدامـاي بيض كالنجـوم وقينـة ... تروح علينـا بين برد ومجسـد
20- إذا نحن قلنـا أسمعينـا انبرت لنـا ... على رسلهـا مطروفـة لم تشـدد
21- إذا رجّعت في صوتها خلتَ صوتها ... تجـاوب أظـآر على رُبـع دد
22- ومـا زال تشرابي الخمورَ ولـذتي ... وبيعي وإنفـاقي طريفي ومتلـدي

23- إلى أن تحـــامتني العشيرةُ كلهـــا ... وأفردت إفراد البعير المعبـــــد
24- ألا أيهـــذا الــلائمي أحضر الــوغى ... وأن أشهـد اللـذات هل أنت مخلـدي
25- فــإن كنتَ لا تستطيـع دفـع منيتي ... فـدعني أبادرها بمـا ملكت يـدي
26- ولـولا ثـلاث هن من عيشـة الفتى ... وجـدك لم أحفِـل متى قـام عـوّدي
27- فمنهن سبقي العــاذلات بشربـــة ... كميت مـا تعـل بـالمـاء تـزبـد
28- وكرّي إذا نــادى المضــاف مجنبـاً ... كسيـد الغضــا نبهتـــه المتـورّد
29- وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنـــــة تحت الطراف المعمّـــد
30- كريم يروي نفســه في حيــاتـــه ... ستعلم إن متنـا غـداً أينـا الصـدي
31- أرى قبر نحــام بخيـل بمـــالـــه ... كقبر غـوي في البطــالــة مفسـد
32- ترى جثـــوتين من تراب عليهما ... صفــائـح صم من صفيـح منضـد
33- أرى المـوت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلـة مـال الفــاحش المتشـدد
34- أرى العيشَ كنزاً نـاقصـاً كلَّ ليلـة ... ومـا تُنقص الأيـامُ والـدهرُ ينفـد
35- لعمرك إن المـوت مـا أخطـأ الفتى ... لكالطـوّل المرخى وثنيـاه بـاليـد
36- متى مـا يشـا يـومـاً يقـده لحتفـه ... ومن يـك في حبـل المنيـة ينقـد
37- فـــالي أراني وابن عمي مـــالكاً ... متى ادنُ منـــه ينـأ عني ويبعـــد
38- يلـوم ومـــا أدري عـلام يلـومني ... كما لامني في الحي قرطُ بن أعبـــد
39- وأيـــأسني من كل خير طلبتـــه ... كأنـــا وضعنـــاه إلى رمس ملحـــد
40- على غير ذنب قلتـــــــه غير أنني ... نشـدت فلم أغفـل حمـولـة معبـد
41- وإن أدعَ للجلى أكن من حمــاتهـــا ... وإن يأتـك الأعـداءُ بـالجهـد أجهـد
42- وإن يقذفوا بـالقَـذع عرضـكَ أسقهم ... بكأس حياض المـوت قبـل التهـدّد
43- فلـــو كان مـــولاي امرأ هـــو غيره ... لفرّج كربي أو لأنظرني غـــــدي
44- ولكنّ مـولاي امرؤ هـو خــانقي ... على الشكر والتسآل أو أنـا مفتـدي
45- وظلم ذوي القربى أشـدّ مضـاضـة ... على المرء من وقـع الحسـام المهنـد

46- أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاش كرأس الحية المتوقد

47- إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني ... منيعاً إذا بلّت بقائمه يدي

48- فإن متّ فانعيني بما أنا أهله ... وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبد

49- ولا تجعليني كامرئ ليس همه ... كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي

50- بطيءٍ عن الجُلّى سريع إلى الخنا ... ذلول بأجماع الرجال ملهّد

51- لعمرك ما أمري عليّ بغُمة ... نهاري ولا ليلي عليّ بسرمد

52- أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى ... بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد

53- على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترك منه الفرائص ترعد

54- ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

55- ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

56- لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما اسطعت من معروفها فتزوّد

57- عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه ... فإن القرين بالمقارن مقتدي

☆ معاني الكلمات :

1 - الطلل : ما بقي من آثار الدار . البرقة : ربوة مختلطة الطين والرمل والحجارة . ثهمد : اسم موضع . الوشم : نقوش في جلد الإنسان تنقش بغرز الإبر في الجلد ، ثم يذر عليه الكحل أو دخان الشحم .

3 - الحدج مركب خاص بالنساء . الخلية : الجزء وقيل السفينة العظيمة !!. الناصفة : رحبة واسعة وسط الوادي . دد : اسم موضع . المالكية : منسوبة إلى مالك بن سعد بن ضبيعة !

4 - عدولية : منسوبة إلى جزيرة عدول ، وقيل : منسوبة إلى قوم نزلوا بهجر !. ابن يامن أو بنيامن : تاجر سفن من أهل هجر ، وقيل : إن اسمه ابن نتيل أو بننتيل . يجور : يعدل بها ويميل . يهتدي : يصل إلى قصده . الطور : الوقت .

5 - حباب الماء : أمواجه . الحيزوم : مقدم السفينة . المغايل : الصبي الذي يلعب مع أصحابه لعبة الفيال والمغايلة وهي تراب يكومونه ثم يخبئون فيه خاتماً أو قطعة نقدية أو حصاة

معلّمة ! ثم يشق المغايل تلك الكومة بيده فيقسمها قسمين ثم يقول : في أي الكومات خبأت المخبأ فإن عرف صاحبه ظفر !! وإن أخطأ خسر .

6 ـ أحوى : ظبي له خطتان من سواد ! أي شبه المرأة بالظبي الأحوى على سبيل الاستعارة التصريحية (أظهر المشبه به وأخفى المشبه) . المرد : مفردها مردة وهي ثمرة الأراك . ينفض : يخضّ ليتساقط عليه الثمر والأوراق . الشادن : الظبية التي قويت فاستغنت عن أمها . السمط : النظم من اللؤلؤ (مظاهر سمطي) لبست واحداً فوق الآخر . الزبرجد : حجر كريم .

7 ـ خذول : خذلت صواحبها وانصرفت لولدها . تراعي : ترعى . ربرب : قطيع الظباء أو البقر . والخذول الفزعة الخائفة على خشفها (صغيرها) فهي تشرئب وتمد عنقها وترتاع لأنها وحيدة منفردة . الخميلة : الأرض السهلة اللينة ذات الشجر . البرير : ثمر الأراك .

8 ـ ألمى : ثغر أسمر اللثة . المنوّر : الأقحوان المتفتح . تخلل : تداخل فيه أو دخل فيه . حر الرمل : خالصه . الدعص : كيثب الرمل .

9 ـ إياة الشمس : ضوؤها وشعاعها . سقته : جعلته أبيض حسناً . وكان الجاهليون إذا سقطت سن أحدهم يرميها تجاه عين الشمس ويقول : خذي سن الحمار وأعطيني سن الغزال . لأن أسنان الغزال لا تتساقط كما يزعم ، أو يقول : يا شمس أو يا آلهة الشمس أبدليني سناً من ذهب أو فضة ! قال طرفة في موضع آخر :

أبدلته الشمس من منيتها　　　برداً أبيض مصقول الأشر

أسفّ : ذرّ عليه بأثمد (كحل) . الكدم . العض . أي إن الظبية لم تعضض عظماً فيؤثر في ثغرها .. وصورة اللثة السمراء التي تحاكي تلك التي رشّ عليها الكحل ، فهم يتمدحون سُمرة الشفة فمن خلالها يبين بياض الأسنان .

10 ـ التخدد ؛ التجعّد والاضطراب .

11 ـ أمضي الهم : أطرده . احتضاره : شعوري به . العوجاء : الناقة الضامرة . المرقال : السريعة وصيغة مفعال للتكثير والمبالغة . والإرقال : ضرب من السير السريع : والمعنى الكلي أن أكافح الهم والكآبة بالسفر على ظهر ناقة معتادة على السفر .

12 ـ أمون : أمنية الآران : تابوت فخم خاص بالأثرياء والسادة . نسأتها : ضربتها بالمنسأة . اللاحب : الطريق المهيأ الواضح . وقيل قد يكون الطريق لاحباً لأنه يلحب أخاف الإبل فتتآكل .. البرجد : ثوب مخطط .

13 ـ على مثلها : على مثل هذه الناقة .

14 ـ يعد هذا البيت مثلاً كبيراً في الفتوة والثقة بالنفس .

15 ـ التلاع : مجاري الماء من رؤوس الجبال إلى الأودية (الشلالات) يسترفد القوم : يطلبون مني المعونة .

16 ـ هناك كلام مسكوت عنه مثلاً حلقة القوم أي القوم السادة والأشراف ! والحوانيت هي حوانيت الخمرة واللهو .

17 ـ قال الفراء الكأس الإناء الذي فيه لبن أو ماء أو خمر وإن كان فارغاً لا يقال له كأس . غانيا : مستغنياً . اغن وازدد : اغن بما عندك وزد .

18 ـ المصمّد والصمد الذي يصمد إليه في الحوائج .

19 ـ النديم الصاحب الذي لا يندم صاحبه إذ أسرّه أو شرب معه . وقيل : الندامى هم الذين يجتمعون على ما يندم عليه من إتلاف المال والوقت . القينة الخادمة والمغنية ، وقيل لها قينة لأنها تعمل بيديها مع غنائها . وكل مشتغل بيديه قين . الجسد الثوب المصبوغ بالزعفران ويلامس الجسد . والبرد : الثوب الذي يكون تحته الجسد .. وقيل : إن المعنى كامن في أن المغنية تستبدل ملابسها في كل وصلة غنائية فتبدو بالبرد مرة والجسد أخرى ..

20 ـ أسمعينا : غنينا . رسلها : هيئتها . مطروفة : فاترة الطرف .

21 ـ رجّعت : كررت النغمة فجاوبها الصدى . خلت : حسبت . الأظآر : الصغار المتقاربين بالعمر . الرُّبَع : ضم الراء المشددة وفتح الباء : الفصيل ينتج في الربيع وهو أول النتاج . ددِ : عابث لاهِ .

22 ــ الطريف : الجديد . المتلد : القديم .

23 ـ تحامتني : تركتني : أفردت : تركتُ وحيداً : البعير . المعبد : الأجرب .

24 ـ الوغى : الحرب والخطر .

26 ـ وجدك : وحقّك . أحفل : أبالي . العوّد مفردها عائد : الذي يزور المريض في بيته للاستفسار عنه ، أو الميت للترحّم عليه .

27 ـ العاذلات مفردها عاذلة وهي التي تمنع الشاعر عن شرب الخمر . الكميت لون أصفر فيه سواد .

28 ـ كري : عطفي وقتالي للنجدة . المضاف : الذي زارته الهموم . الجنب : فرس بعيد مابين الرجلين . السيد : الذئب . الغضا : ضرب من الشجر وذئابه أخبث الذئاب . نبهته : هيجته . المتورّد : العطشان .

29 ـ الدجن : المطر وغياب الشمس في الظهيرة . البهكنة التامة الخلق . الطراف المصد . خباء من قماش في وسطه عمود .

30 ـ الصدي : العطشان ويزعم الجاهليون أن الرجل إذا قتل ولم يدرك بثأره خرج من رأسه طائر يشبه البوم فيصيح اسقوني اسقوني فإذا أخذ بثأره سكن وقد يكون الصدى بمعنى الصديء أي الرجل ذو المعدن الصديء . يروّي نفسه : أي يرتوي من الخمر وحذف الخمر لعلم المخاطب .

31 ـ النحام : الرجل إذا طلبت منه حاجة كثر نحامه (سعاله) لبخله . الغوي : المحب للهو .

32 ـ الجثوة : التراب المجموع .. كناية عن القبر .

33 ـ يعتام : يختار . العقيلة : جوهر الشيء وأنفس مافيه . الفاحش : القبيح الخلق . المتشدد : البخيل .

34 ـ ينفد : ينتهي .

35 ـ الطول : الحبل .

36 ـ يشا : يشاء .

38 ـ قرط بن أعبد : كان صاحب طرفة ونفر عنه لأن يحسده فيلومه على مافعل وعلى مالم يفعل .

39 ـ الرمس : القبر . الملحد : اللحد .

40 ـ معبد : أخو طرفة .. أضاع حمولته أي إبله فشمت به وبطرفة ابن عمه مالك .

41 ـ الجلى : الأمر العظيم .

42 ـ القذع : الشتم والبذاءة .

43 ـ الكرب : الكآبة والضيق .

45 ـ مضاضة : حرقة .

46 ـ الضرب : الخفيف . خشاش : سريع النفاذ في الأشياء لذكائه . (رأس الحية) يقال لكل رجل نشط دؤوب . المتوقد : الذكي .

47 ـ ابتدر : أسرع . والبدري المبكّر . المنيع : المحصّن الذي لا يصل إليه أحد . قائمه : قائم السيف مقبضه .

48 ـ ابنة معبد : ابنة أخيه .

50 ـ الخنا : فساد المنطق . الذليل : المقهور . أجماع : أكف . ملهد : المضروب .

51 ـ الغمة : التباس الأمور . السرمد : الطويل بلا انتهاء .

53 ـ الردى : الهلاك . الفرائص : مفردها فريصة وهي الموضع تحت الثدي مما يلي الجنب عند مرجع الكتف ، وهي أول ما يرتعش في الإنسان عند الفزع !

55 ـ البتات : الزاد .

57 ـ القرين : الصديق .

٣ - زهير بن أبي سلمى

وهو من مزينة ، وهي بطن من مضر ، وكان يقيم مع أبيه بالحاجز من نجد ، وكان أبو سلمى أول من استوطن نجداً حين تزوج من بني فهر بن مرة بن ذبيان بن غطفان فولدت له زهيراً ، وتزوج زهير امرأة من بني سحيم بن مرة ، وذكر صاحب الأغاني 140/9 : « أن رسول الله ﷺ نظر إلى زهير وله مئة سنة ، فقال : « اللهم أعذني من شيطانه » فما لاك بيتاً حتى مات » .

وكان زهير قد رأى حلماً في شيخوخته أن شبحاً أتاه فحمله إلى السماء ثم تركه فهوى إلى الأرض ، فلما احتضر قص رؤياه على ولده كعب !

ونحن نشك برواية الأغاني فزهير لم يدرك الإسلام من جهة ، وإن أخلاق نبينا العظيمة تمنعه من مواجهة شاعر دعا لله والسلام على هذا النحو !! وزهير أحد الشعراء الثلاثة المقدمين على كل شعراء الجاهلية وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة وكان زهير متألهاً أي إنه كان في شعره داعية للتأمل بخلق الله فهو القائل :

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا

وقد أعجب الخليفة عمر رضي الله عنه بشعره فاعتدّه أشعر العرب ، لأنه لا يعاظل في الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه .

وقال ابن سلام الجمحي طبقات الشعراء ص62 « وقال أهل النظر زهير أحكمهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح » .

وهو عريق في الشعر ، فأبوه شاعر وخاله بشامة ابن الغدير شاعر ، وزوج أمه أوس بن حجر شاعر ، وأختاه شاعرتان وابناه شاعران ، وقد أثر شعره في الحياة الاجتماعية

فقربه أمراء القبائل ، ومنهم أمراء ذبيان وبخاصة هرم بن سنان والحارث بن عوف ، ومعلقته (أمن أم أوفى) نظمها تحية لموقفهما من الحرب الغبية المدمرة بين عبس وذبيان :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعدما تبزّل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم

ويقول جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية 98/1) : « وكان لزهير أخلاق عالية ونفس كبيرة مع سعة صدر وحلم ، فرفع القوم منزلته وجعلوه سيداً ، وكثر ماله واتسعت ثروته » . ومع كل ذلك فقد كان زهير بذيء اللسان حين يُستفز ، وربما فحش في شعره بطريقة لا يدانية فيها سواه .. فقد هجا الحارث بن ورقاء الصيداوي حين أسر غلامه (يسار) ديوانه ق 25 ب 1 وبعدها ص 220 :

تعلّم أن شرّ الناس حي ينادي في شعارهم يسار
ولولا عسبه لرددتموه وشرّ منيحة ... مُعار
إذا جمحت نساؤكم إليه أشظّ كأنه مَسَدٌ مغار

وقد امتدح هرماً بقصائد جميلة ، فأقسم هرم ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا سلّم عليه إلا أعطاه ذهباً أو خادماً أو وليدة أو فرساً أو إبلاً .. فخجل زهير من قسمه ، فكان إذا رأى هرماً بين الناس يقول : « عمو صباحاً غير هرم .. وخيركم استثنيت » . وحين اختصمت ابنتا زهير وهرم .. فقالت ابنة هرم كان أبي يعطيكم المال ، وقالت ابنة زهير : كان أبي يقول فيكم الشعر ، فسمع عمر واستقدمها وقال لابنة هرم : « قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم » ، وعرف عن زهير عنايته بالقصيدة فقد ينفق في كتابتها حولاً كاملاً .. ونسب إليه أنه قال : خير الشعر الحولي المحكك .. وقد أطلق على اتجاهه الشعري الشعر المصنوع ، وعدّ زهيراً وابنه والحطيئة (عبيد الشعر) .

☆ معلقة (أمن أم أوفى) . عدد الأبيات : 63 . البحر : الطويل . القافية : (م)

1ـ أمن أمّ أوفى دِمنـــــــــــة لم تكلّم	بحـومـانــةِ الــدراج فــالمتثلّم
2ـ ديـــارٌ لهـــا بـــالرقمتين كأنهـــا	مراجيـــع وشم في نـــواشر معصم
3ـ بهـــا العين والأرام يمشين خلفـــة	وأطـلاؤهـــا ينهضن من كل مجثم
4ـ وقفت بها من بعـد عشرين حجـة	فـلأيـاً عرفت الـدار بعـد تـوهّم
٥ـ أثـــافيَّ سفعـــاً في معرّس مِرجـل	ونـؤيـاً كجـذم الحـوضِ لم يتثلّم
6ـ فلمــا عرفت الــدار قلت لربعهـا	ألا انعم صباحـاً أيهـا الربع واسلم
7ـ تبصّر خليلي هـل ترى من ظعـائن	تحملن بــالعليــاء من فـوق جرثم
8ـ جعلن القنــان عن يمين وحـزنــه	وكم بـــالقنـــان من محـل ومحرم
9ـ علـون بـأنطـاكيـة فـوق عقمـة	وراد حـواشيهـا مشـاكهـة الـدم
10ـ بكرن بكـــوراً واستحرن بسحرة	فهنّ ووادي الرَّس كاليـــــد للفم
11ـ فلمـا وردن المـاء زرقـاً جمـامُـه	وضعن عصيّ الحـــاضر المتخيّم
12ـ وفيهن ملهى للطيف ومنظر	أنيـق لعين النـــاظر المتـوسّم
13ـ كأن فتـــات العهن في كل منزل	نـزلن بـــه حبّ الفنــا لم يحطم
14ـ سعى ساعيا غيـظ بن مرة بعـدمـا	تبزّل مـــا بين العشيرة بـــالــدم
15ـ فأقسمت بالبيت الـذي طـاف حولـه	رجـــال بنــوه من قريش وجرهم
16ـ يمينــاً لنعم السيــدان وجـدتمـا	على كل حـــال من سحيـل ومبرم
17ـ تــداركتما عبسـاً وذبيـان بعـدمـا	تفـــانـوا ودقّـوا بينهم عطر منشم
18ـ وقـد قلتمـا إن نـدرك السلم واسعـاً	بمـــال ومعروف من القـول نسلم
19ـ فـأصبحتمـا منهـا على خير مـوطن	بعيـدين فيهـا من عقـوق ومـــأثم
20ـ عظيمين في عليــا معـــد هُـديتما	ومن يستبـح كنزاً من المجـد يعظم
21ـ وأصبـح يحــدى فيهم من تـلادكم	مغـــانم شتى من إفـــال مـــزنّم
22ـ تعفى الكلـوم بــالمئين فـأصبحت	ينجّمهـــا من ليس فيهـــا بمجرم

23- ينجمهـا قـوم لقـوم غرامـة ... ولم يهريقـوا بينهم مـلء محجم

24- ألا أبلـغ الأحـلاف عني رسـالـة ... وذبيـان هـل أقسمتم كلّ مقسم

25- فـلا تكتمن الله مـا في صـدوركم ... ليخفى ومهما يكتم اللهُ يعلم

26- يـؤخر فيوضع في كتـاب فيـدّخر ... ليـوم الحسـاب أو يعجّـل فينقم

27- ومـا الحرب إلا مـا علمتم وذقتم ... ومـا هـو عنهـا بـالحـديث المرجّم

28- متى تبعثـوهـا تبعثـوهـا ذميـة ... وتضرَ إذا ضريتمـوهـا فتضرم

29- فتعرككم عرك الرحى بثفـالهـا ... وتلقـح كشـافـاً ثم تنتـج فتتئمُ

30- فتنتـج لكم غلمـان أشـأم كلّهم ... كأحمر عـاد ثم ترضـع فَتَفْطم

31- فَتُغلـل لكم مـا لا تُغـل لأهلهـا ... قُرى بـالعراق من قفيز ودرهم

32- لعمري لنعم الحي جرّ عليهم ... بمـا لا يـواتيهم حُصين بن ضمضم

33- وكان طـوى كشحـاً على مستكنـة ... فـلا هـو أبـداهـا ولم يتقـدم

34- وقـال سـأقضي حـاجتي ثم أتقي ... عـدوّي بـألف من ورائي مُلْجم

35- فشـد ، ولم يفـزع بيـوتـاً كثيرة ... لـدى حيث ألقت رحلهـا أم قشعم

36- لـدى أسد شـاكي السلاح مقـاذف ... لـه لبـد أظفـاره لم تقلم

37- جريء متى يُظلم يعـاقب بظلمـه ... سريعـاً وإلا يُبْـدَ بـالظلم يظلم

38- لحيٌّ حـلال يعصمُ النـاسَ أمرُهُم ... إذا طرقت إحـدى الليـالي بمعظم

39- كرامٍ فـلا ذو التبـل مُـدرِكُ تبلِـهِ ... لـديهم ولا الجـاني عليهم بمسْلَمِ

40- سئمتُ تكاليف الحيـاة ومن يعش ... ثمـانين حـولاً لا أبـاً لـكَ يسَـأم

41- رأيت المنايا خبـط عشواء من تصب ... تمتـه ومَن تخطئ يعمَّرْ فيهْرَم

42- ومهما تكن عنـد امرئٍ من خليقـة ... وإن خالهـا تخفى على النـاس تعلم

43- وأعلم مـا في اليـوم والأمس قبلـه ... ولكنني عن علم مـا في غـد عَمي

44- ومن لا يصـانـع في أمـور كثيرة ... يضرّس بـأنيـاب ويـوطـأ بمنسم

45- ومن يـك ذا فضـل ويبخـل بفضلـه ... على قـومـه يستغن عنـه ويـذمم

46ـ ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

47ـ ومَن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

48ـ ومَن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو نال أسباب السماء بسلّم

49ـ ومَنْ يعصِ أطراف الزّجاج فإنه يُطيعُ العوالي ، ركبّت كلَّ لهذم

50ـ ومن يوف لا يُذمم ومن يفض قلبهُ إلى مطمئن البّر لا يتجمجم

51ـ ومن يغترب يحسب عدوّاً صديقه ومن لا يكرّمَ نفسه لا يكرّم

52ـ وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم

53ـ لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

54ـ وإن سفاهَ الشيخ لا حِلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

55ـ سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوماً سيحرم

☆ **معاني الكلمات :**

1 ـ أم أوفى : المرأة الحبيبة التي ألهمته أجمل قصائده ، وقد تزوّجها وأصاب أبناءه منها ، وفي لحظة طيش طلّقها ، فندم وذهب إلى أهلها معتذراً فقبلوا اعتذاره وأكرموه ، إلا أن أم أوفى الحبيبة والزوجة (المطلقة) لم تقبل اعتذاره ونهرته وأيأسته منها ، قارن :

لعمرك والخطوب مغيّرات وفي طول المعاشرة التقالي

لقد باليت مظعن أم أوفى ولكنْ أمُّ أوفى لا تبالي

فأما إذ ظعنتِ فلاتقولي لذي صِهْر: أذلْت ولم تُذالي

أصبتُ بنيّ منكِ ونلتِ مني من اللذات والْحُلل الغوالي

قال ابن الأعرابي (أم أوفى التي ذكرها زهير في شعره كانت امرأته فولدت منه أولاداً ماتوا ، ثم تزوج بعد ذلك امرأة أخرى ، وهي أم بنيه كعب وبجير ، فغارت من ذلك وآذته فطلقها ثم ندم) الأغاني (كتبخانة) 150/9 . دمنة : البعر والسرجين وزُعِم أن الدمنة هي آثار الناس وما سوّدوا بالرماد وغيره !! وإذا قبلنا هذا الزعم فالمعنى الأول هو هو لأن الناس كانوا يطبخون ويوقدون بالبعر والسرجين فرمادهم منه . ـ الحومانة : الأرض الخشنة الغليظة . حومانة الدراج والمتثلم : موضعان في عالية نجد قريبان من المدينة .

2 ـ الرقمتان واحدة قرب المدينة وأخرى قرب البصرة وقوله بالرقمتين ان بالمنتجع او المرتبع
الواقع بينهما . المراجع : المتكرر . الوشم : الخضرة التي تحدث من غرز الأبر . النواشر : عروق
ظاهر الذراع . المعصم : موضع السوار .

3 ـ العين : البقر واحدها أعين وعيناء وقيل لها ذلك لسعة عيونها . الآرام : الظباء .
الأطلاء : مفردها طلا وهو الولد . المجثم مكان الاستراحة أو الانطلاق .

4 ـ الحجة : السنة . اللأي : البطء والعناء .

5 ـ الأثافي : الحجارة التي تجعل عليها القدر الواحدة أثفية . السفع ، السواد . المعرّس :
الموضع الذي يحتمل القدر أو المرجل والمرجل قدر يطبخ فيها من حجارة أو حديد أو خزف أو
نحاس أو فضة . النؤي : حاجز يجعل حول البيت أو الخيمة يمنع السيل ، أو يشعر الغريب بحدود
البيت المحرمة التي لا ينبغي اقتحامها !! جذم الحوض : بقيته . لم يتثلم : ذهب أعلاه ولبث
باقيه .

6 ـ الربع : المنزل في الربيع ثم كثر استعمالهم إياه حتى قيل لكل منزل ربع (أنعم صباحاً أو عم
صباحاً أو مساء) تحية الجاهلية وتحية الإسلام (السلام عليكم) .

7 ـ الظعائن : النساء في الهوادج واحدتها ظعينة . والمرأة وهي في بيتها ظُعينة ! العلياء :
بلدة جرثم : آبار لبني أسد .

8 ـ القنان : جبل لبني أسد . الحزن والحزم : الموضع الغليظ . المحل والمحرم أي الداخل في
أشهر الحل ، والمحرم الداخل في الأشهر الحرم .

9 ـ الأنطاكية : أنماط توضع على الخدور نسبها إلى أنطاكية وكل شيء جاء من الشام فهو
عندهم أنطاكي . عقمة مفردها عقم : أصل الاعتقام اللّي ، أراد أن تظهر خيوط أحد النيرين
فيعمل به وإذا أريد الوشي بغير ذلك اللون لوى وغُمض . المشاكهة : المشابهة .

10 ـ الرس : واحة ذات آبار لبني أسد .

11 ـ الماء الأزرق : الصافي جمام مفردها جم وجمة : الماء المجتمع الكثير . الحاضر : النازل على
الماء . المتخيم : المقيم وأصله من تخيم إذا نصب الخيمة . والعرب تقول لمن يترك السير (وضع
عصاه) .

12 ـ الملهى واللهو واحد . اللطيف : الرقيق الطبع الذي ليس فيه جفاء واللطيف الذي

يتلطف في الوصول إلى الحبيبة . أنيق : مونق أي معجب . المتوسم : الناظر الذي يتفرّس . وقيل المتوسم الذي يشغف بالوسامة وهي الحسن .

14 ـ الساعيان هما : الحارث بن عوف وهرم بن سنان وسعيها كان في السلام وجمع الديات . تبزّل : تشقق .

15 ـ البيت : الكعبة المشرفة . جرهم : كانوا ولاة الكعبة قبل قريش ، وبغوا واستحلوا حرمتها وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها حتى بلغ بهم البغي أن الرجل إذا لم يجد مكاناً يزني فيه أسرع إلى الكعبة ، والعرب تقدّس مكة فلا بغي فيها ، ولا قتل ، ولا سرقة ، ولا كذب ، وسميت بكة لأنها تبك أعناق البغايا .

16 ـ أي على كل حال من شدة الأمر وسهولته والسحيل الحبل المبرم من خيطين والسحيل خيط واحد ..

17 ـ منشم امرأة تبيع العطر .. تحالف قومٌ عندها فأدخلوا أيديهم في عطرها ليتحرّموا به ثم خرجوا إلى الحرب فقتلوا جميعاً فتشاءمت العرب بها !وقيل : منشم امرأة من خزاعة كانت تبيع عطراً فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم فتشاءموا بها .. وقيل هي منشم ابنة الوجيه الحميري كانت تنتجع العرب وتبيعهم عطرها ، فأغار عليها قوم فسرقوا عطرها ! فبلغ ذلك قومها .. فهاجموا الموضع الذي يقيم فيه سارقو عطر منشم ، وأعملوا السيف في رقابهم وبلغ الحد أنهم كانوا يقطعون رقبة كل من شم العطر إذ لم يكتفوا بقتل السرّاق .. فقتل الحي بكامله فصار عطر منشم رمزاً للشؤم .

18 ـ السِلم بكسر السين وفتحها : الصلح والطمأنينة يذكرّ ويؤنث .

19 ـ العقوق : قطيعة الرحم . منها : الضمير عائد إلى الحرب .

20 ـ عليا مصر : أشرفها .

21 ـ التلاد : ما ولد عندهم والتلاد الملك والإفال : الفصلان ، الواحد أفيل والأنثى أفيلة . التزنيم : وسم أو علامة تجعل على جلد الإبل الكريمة بتقشير ظاهر جلدة الأذن ثم تفتل فتبقى زنمة تنوس أي تضطرب .

22 ـ تعفى : تمحى الجراح . الكلوم مفردها الكلم وهو الجرح . المئين : الإبل . التنجيم تعاقب وقت الأداء وتراتبه ومعنى ينجمها من ليس فيها بجرم : أي يدفع ثمن الجريمة البريء الذي لم يجرم !!

23 ـ يهريقوا : لغة في يريقوا والمسكوت عنه الدم . المحجم : آلة الحجامة وهي بحجم قبضة اليد أو تزيد قليلاً .

24 ـ الأحلاف : أسد وغطفان .

25 ـ معنى البيت : لا تظهروا الصلح وتبطنوا الغدر كما فعل حصين بن ضمضم حين قتل ورد بن حابس بعد الصلح .

27 ـ المعنى لقد ذقتم مرارة الحرب وجربتم خرابها وقسوتها ، فتحذيري منها ليس ظناً وحدساً ، ولست راجماً كلامي بظهر الغيب !! وزهير شاعر السلام في الجاهلية دون منازع ! إلا أن العربي يكره الحرب ، ومعظم الحروب الجاهلية أشعلتها عنجهية الأعراب واسترخاصهم لأرواحهم .. امرؤ القيس وبثلاثة أبيات صور بشاعة الحرب (ديوانه ق 96 ب 1 ـ 3 ص 353) :

الحرب أول ما تكون فتية تسعى بزينتها لكل جهول

حتى إذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهة للشمّ والتقبيل

28 ـ تضرَ : تشتعل .

29 ـ عركَ : دلك الشيء ليلين . الثفال : جلدة تكون تحت الرحى يقع الطحين عليها . تلقح كشافاً : لقحت الناقة كشافاً إذا حمل عليها في دمها كل عام ، وذلك أراداً النتاج والمحمود أن يحمل على الناقة سنة وتجم سنة ، وإنما شبه الحرب بالناقة لأنه جعل ما يحلب منها من الدماء بمنزلة ما يحلب من الناقة .. وربما شبه الحرب بالناقة إذا حملت وأرضعت وفطمت لطول المدة . تتئم : تأتي بتوأمين . الذكر توأم والأنثى توأمة .

30 ـ نتجت الناقة : إذا استبان حملها . أشأم : شؤم . كأحمر عاد : مثل قدار عاقر الناقة ، وقال الأصمعي : إن زهير أخطأ فعاقر الناقة ليس من عاد وإنما هو من ثمود . وقال المبرد : لم يغلط زهير ؛ لأن ثمود تدعى عاد الأخيرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى ، والدليل قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهلَكَ عَاداً الأُولى ﴾ [النجم : ٥٣/٥٠] .

ولنا أن نلاحظ أن الجاهليين وزهير بينهم كانوا مسكونين بهاجس التاريخ ورموزه !!

31 ـ معنى البيت غلال الحرب هي الدم والدمار بينا غلال العراق محصولات القمح والتمر والدراهم .. والقفيز : مكيال .. وأراد زهير التهكمّ المرّ .. فأنتم تزرعون الحرب وتقطفون الدم والدمار وغيركم يزرع البذور ويقطف الخير والثراء .

32 ـ أقسم بعمره !! حصين بن ضمضم من مرة أبى أن يدخل في صلحهم ، فلما اجتمعوا للصلح شدّ على رجل منهم فقتله ، كدأب بعض المؤمرّين لا يهدؤون إلا بالدم والخراب ، فالحرب سعادتهم والسلام خمولهم !! وحصين بن ضمضم ابن عم النابغة الذبياني ! النابغة بن معاوية بن ضباب بن جابر أما حصين فهم ابن ضمضم بن ضباب بن جابر !!

33 ـ الكشح : الجنب ! طوى كشحه : أبطن الأمر في سره ولم يظهره . المستكنة : الغدرة .

34 ـ أتقي : أدفع . ألف : أي ألف فرس بلجامه .

35 ـ شدّ : هجم وقتل على خصم بعينه ولم تعلم به بيوت الحي . أم قشعم : المنية أو الحرب . وقال أبو عبيدة : أم قشعم العنكبوت .

36 ـ اللبد : الشعر المتراكب على زبرة الأسد ما بين الكتفين . أظفاره لم تقلم . كناية عن أنه تام السلاح . الأسد : الجيش على سبيل الاستعارة التصريحية . شاكي السلاح : أي إن سلاحه شائك ذو شوك . المقاذف : غليظ اللحم ومُرّه .

37 ـ جريء صفة الأسد الذي هو صفة الجيش الذي يهجم لثأر أو دون ثأر .

38 ـ حي حلال : كثير البيوت . الحلال : جماعة البيوت والحلة : مئة بيت . وقوله يعصم الناس أمرهم معناه أن الناس يعتصمون به ويستمسكون فإذا ائتمروا أمراً كان عصمة للناس ، أي سبباً لقوتهم بمعظم ، بأمر عظيم .

39 ـ التبل : غل في الصدر يجده الإنسان على صاحبه .

40 ـ التكاليف : المشقة .

41 ـ خبط الجمل خبط عشواء .. أي مشى على غير بصر .. فالمنايا مثل الناقة التي تعشو ولا تميّز فمن أخطأته عاش وهرم .

42 ـ الخليقة : الطبيعة . خال : ظن .

44 ـ يصانع : يجامل ويداري . يضرّس : يمضغ بالأضراس . المنسم : خف البعير ويراد به النعال .

46 ـ يفره : يجعله وافراً .

47 ـ ومن لا يظلم الناس يظلم أي من يكن ضعيفاً وتحاشى مواجهة الناس ركبوه وظلموه ، ولا يمكن تفسير البيت على أنه دعوة لظلم الناس ، فالعربي يكره الظلم . قال قيس بن زهير : باكياً صديقه وسيده (حمل بن بدر) ومعاتباً له بسبب ظلمه :

تعلم أن خير النـــــاس ميت | على جفر الهبـــــاءة لا يريم
ولــولا ظلمـــه مـــازلت أبكي | عليــه الــدهر مــا طلع النجــوم
ولكن الفتى حمـــل بن بـــــدر | بغى والبغي مرتعـــــه وخيم[15]

وقال الفند الزماني :

أقيـــدوا الظلم إن الظلم لا يرضـــاه ديّـــان
فـإن النـار قـد تصبـح يـومـاً وهي نيران[16]

48 ـ أسباب مفردها سبب وهو الحبل أو الناحية .

49 ـ الزجاج مفردها زج وهو أسفل الرمح . واللهذم : اللحاد ، قال أبو عبيـدة ؛ معنى هـذا أن من لا يقبل الصلح وهو الزج الذي لا يقـاتل بـه فـإنـه يطيع الحرب وهو السنـادة العـالي الـذي يقاتل به .

50 ـ يفضي : يصير . مطمئن البر : خالصه . لا يتجمجم : لا يتردد (في الصلح) .

55 ـ سيحرم : سيُمنع .

---

(15) قيس بن زهير ، شعره ، صنعة عادل البياتي ، مط الآداب في النجف ، 1972 ، ص 33 وبعدها .

(16) الفند الزمـاني ، شعره ص 294 ، ضمن : قصـائـد نـادرة من كتـاب منتهى الطلب من أشعـار العرب ، لمحمد بن ميمون البغدادي ت 589 هـ ، تح : حاتم صالح الضامن ، مجلـة المورد العراقيـة عـدد 3 مجلـد 8 عام 1979 .

٤ - لبيد بن ربيعة العامري

لبيد سليل عائلة عرفت بالكرم والفروسية والسيادة ، وكان أبوه يسمى ربيعة المقترين لجوده وسخائه ، وعمه ملاعب الأسنة (عامر بن مالك) وكان ملاعب الأسنة قد أخذ أربعين مرباعاً في الجاهلية ، ولما كبر عامر واهتر تنازع عامر بن الطفيل وعلقمة بن علانة الجعفريان في الرئاسة حتى تنافرا إلى هرم بن قطبة الفزاري . وعامر بن الطفيل الشاعر الفارس هو ابن عم لبيد ، أما أخوه من أمه فهو (أربد) الذي وفد مع عامر بن الطفيل على النبي ﷺ وكان ينوي الغدر ، أما أمه فقد تزوجت بعد وفاة أبيه الربيع بن زياد العبسي !! وهذا يفسّر حقد لبيد على زوج أمه ، وقد نهد لإتلاف سمعة الربيع ، وهزّ مكانته في بلاط النعمان حين حلق جانباً من رأسه وصبغ جانباً من وجهه ، ودخل على النعمان ، والربيع يتناول الطعام معه فأنشد أرجوزته المشهورة (الأغاني 91/14) وقد نبغ لبيد منذ نعومة أظفاره ! فقد نظر النابغة إلى لبيد وهو صبي مع أعمامه على باب النعمان ، فقال له (يا غلام إن عينيك لعينا شاعر أفتقرض من الشعر شيئاً ؟ قال : نعم يا عم ، قال : فأنشدني شيئاً مما قلته ، فأنشده قوله : (ألم تربع على الدمن الخوالي) فقال له النابغة يا غلام أنت أشعر بني عامر ، زدني يا بني فأنشده (طلل لخولة بالرسيس قديم) فضرب النابغة بيده على جبينه وقال للبيد اذهب فأنت أشعر قيس كلها وهوازن كلها ، وحين كبر لبيد التقاه النابغة فقال له أنشدني يا لبيد ، فأنشده (عفت الديار محلها فمقامها) فقال له النابغة : اذهب فأنت أشعر العرب كلها ! وحين كان لبيد صبياً وطلب من قومه مساعدته لهجاء زوج أمه (الربيع العبسي) شك قومه في موهبته ، فأرادوا أن يمتحنوه حتى لا يُحرجوا في مجلس النعمان بن المنذر وطلبوا إليه وصف بقلة أمامهم فقال على الفور : (هذه الثرية التي

لا تذكي ناراً ولا توهل داراً ولا تسرّ جاراً ، عودها ضئيل ، وفرعها كليل ، وخيرها قليل ، أقبح البقول مرعى ، وأقصرها فرعاً ، وأشدها قلعاً ، بلدها شاسع وأكلها جائع والمقيم عليها قانع ، فألقوا بي أخا عبس أرده عنكم بتعس وأتركه من أمره في لبس » .

وذكر المفضل الضبي : (الأغاني 95/14) : قدم الفرزدق فمرّ بمسجد بني أقيصر وسمع فيه رجلاً ينشد قول لبيد :

وجلا السيول على الطلول كأنها　　　زبر تجد متونها أقلامها

فسجد الفرزدق ، فقيل له : ما هذا يا أبا فراس ، فقال أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر . ا . هـ .

ومع هذه الشهادة المهمة فإن لبيداً لم يفضل نفسه على الشعراء : « مرّ لبيد بالكوفة على مجلس بني نهل ، وهو يتوكأ على محجن له ، فبعثوا إليه رسولاً يسأله عن أشعر العرب : فسأله ، فقال : الملك الضليل ذو القروح فرجع فأخبرهم فقالوا هذا امرؤ القيس ، ثم أرجعوه إليه ليسأله ثم من ، فقال له الغلام المقتول من بني بكر ، فرجع فأخبرهم فقالوا : هذا طرفة ثم أرجعوه إليه ليسأله ثم من ؟ فقال : صاحب المحجن يعني نفسه) ، وقد أدرك لبيد الإسلام وأسلم وهاجر وحسن إسلامه وصار من الصحابة ويكفيه شرفاً أن أشرف الأنبياء قال : أجمل كلمة قالها لبيد إشارة إلى قوله :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل　　　وكل نعيم لا محالة زائل

ثم نزل الكوفة أيام عمر بن الخطاب ، فأقام بها حتى مات في أوائل خلافة معاوية . وذكر ابن سلام في (طبقات الشعراء 77) : وكتب عمر (رضي الله عنه) إلى عامله أن سل لبيد أو الأغلب ما أحدثا من الشعر في الإسلام فقال الأغلب :

أرجزاً سألت أم قصيدا　　　فقد سألت هيناً موجودا

وقال لبيد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران . فزاد عمر في عطائه فبلغ ألفين ، وأراد معاوية أن ينقص من عطاء لبيد ؛ لأنه كان وعطاء معاوية سواء ..

فحزن لبيد وقال له لا تعجل سأموت ثم تضم عطائي إلى عطائك فتأخذه أجمع ... ولم يلبث حتى مات فندم معاوية .. وكان المغيرة بن شعبة إذا هبت الريح صبا قال أعينوا لبيداً على مروءته ! إشارة إلى أن لبيد أقسم في الجاهلية أن لا تهب الريح صباً إلا أطعم ! وقد هبت الريح صباً . والوليد بن عقبة على منبره يخطب الناس فقال : « إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر في الجاهلية أن لا تهب صباً إلا أطعم وهذا يوم من أيامه قد هبت صباً ، فأعينوه وأنا أول من يفعل » .

ثم أرسل إليه مئة ناقة وأبيات شعر منها :

أرى الجزار يشحذ شفرتيه إذا هبت رياح أبي عقيل
أشم الأنف أصيد عامري طويل الباع كالسيف الصقيل
وفى ابن الجعفري بحلفتيه على العلات والمال القليل
بنحر الكوم إذ سحبت عليه ذيولُ صبا تجاذب بالأصيل

فلما استلم لبيد النوق وقرأ الأبيات قال لابنته وكانت شاعرة مجيدة : أجيبيه فوالله لقد عشت في الإسلام وغادرني شيطاني ، وما أستطيع معه جواباً .. فقالت ابنته سمعاً وطاعة وكتبت :

إذا هبت رياح أبي عقيل دعونا عند هبّتها الوليدا
أشمَّ الأنف أروع عبشميا أعان على مروءته لبيدا
بأمثال الهضاب كأن ركباً عليها من بني حامٍ قعودا
أبا وهب جزاء الله خيراً نحرناها فأطعمنا الثريدا
فعد إن الكريم له معاد وظني لا أبالك أن تعودا

فقال لها لبيد : أي بنيّة . قد أحسنتِ لولا أنكِ استزدتِ عطاءه ، وأبوك لا يسأل الناس .. فقالت ابنته : أبتِ إن الملوك لا يستحى من مسألتهم ، فأعجب بجوابها لبيد وقال لها : لأنت في سرعة بديهتك أشعر منك في شعرك .

وكان لبيد استناداً إلى الشعر والشعراء 175/1 قبل إسلامه يؤمن بالله ويوم القيامة والحساب وهو القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل
إذا المرء أسرى ليلة ظن أنه ... قضى عملاً والمرء ما عاش آمل
حبائله مبثوثة بسبيله ... ويفنى إذا ما أخطأته الحبائل
فقولا له : إن كان يقسم أمره ... ألما يعظك الدهر أمّك هابل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب ... لعلك تهديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان والداً ... ودون معد فلتزعك العواذل
وكل امرئ يوماً سيعلم سعيه ... إذا كشفت عند الإله المحاصل

ويقال : إنه عمّر خمساً وأربعين ومئة سنة أمضى منها تسعين سنة في الجاهلية .. وقد استوحش من الناس في أخريات أيامه ، وكانت السيدة عائشة (رضي الله عنها) حين تستوحش تردد بيت لبيد ، وتبكي ، ثم تقول : كيف بلبيد لو أدرك زماننا ؟ والبيت هو :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقيت في خلف كجلد الأجرب

وكان أبو عمرو بن العلاء ، إذا استوحش يردد بيت لبيد ثم يقول : وكيف بالسيدة عائشة لو أدركت زماننا !! ولبيد آخر من مات من شعراء المعلقات ! وروي أن ابنتيه كانتا تذهبان إلى قبره كل يوم وتترحمان عليه وتبكيان من غير صياح ولا لطم ، ثم تمران بنادي بني كلاب تذكران مآثره وتنصرفان إلى تمام الحول كأنهما استجابتا إلى وصية أبيهما (المشنقيطي ، المعلقات العشر 58) :

إذا حان يوماً أن يموت أبوكما ... فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر
وقولا هو المرء الذي ليس جاره ... مضاعاً ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وقيل إنه كتب معلقته لينشدها في سوق عكاظ على النابغة ، وقد توّجه النابغة أميراً للشعراء !!

☆ **معلقة (عفت الديار) . عدد الأبيات 88 . البحر : الكامل . القافية : م**

1ـ عفتِ الـديـارُ محلُها فمقـامُها بمنًى تـأبّـد غـولُها فرجـامُها
2ـ فـمدافـعِ الريـالِ عُرّي رسمُهـا خَلَقـاً كما ضمن الـوحيَّ سِلامَهـا
3ـ دِمنٌ تجرّمَ بعـد عهـد أنيسِهـا حِججٌ خلونَ حـلالُهـا وحرامُهـا
4ـ رُزِقتْ مرابيـعَ النجـوم وصـابهـا وَدْقُ الرواعِـد جودُهـا فرهـامُهـا
5ـ مِن كلّ ساريـةٍ وغـادٍ مـدجن وعشيـةٍ متجـاوبٍ إرزامُهـا
6ـ فعـلا فروعُ الأيهقـان وأطفلت بـالجلهتين ظبـاؤهـا ونعـامهـا
7ـ والعينُ سـاكنـةٌ على أطـلائهـا عُـوذاً تـأجّـل بـالفضـاء بهـامهـا
8ـ وجلا السيـولُ عن الطلـولِ كأنهـا زُبُرٌ تُجِـدُّ متـونَهـا أقـلامُهـا
9ـ أو رجْـع واشمـةٍ أُسِفّ نَـؤورُهـا كففـاً تعرّضَ فـوقهن وشـامهـا
10ـ فـوقفت أسـألُهـا وكيفَ سـؤالنـا صُمّـاً خـوالـدَ مـا يبينُ كـلامهـا
11ـ عريتْ وكان بهـا الجميـعُ فـأبكروا منهـا وغُـودِرَ نـؤيُهـا وثمـامُهـا
12ـ شـاقتـك ظُعْنُ الحيّ يـوم تحمّلـوا فتكنسـوا قطنـاً تصرّ خيـامهـا
13ـ مِن كلّ محفـوف يُظِـلُّ عصيَّـه زوجٌ عليـه كِلـةٌ وقرامهـا
14ـ زجلاً كأن نعـاج تـوضح فـوقهـا وظبـاءَ وجرة عُطّفـاً أرآمهـا
15ـ حُفـزت وزايلهـا السراب كأنهـا أجـزاعُ بيشـة أثلهـا ورضـامهـا
16ـ بـل مـا تـذكّر من نـوار وقـد نـأت وتقطعت أسبـابُهـا ورمـامهـا
17ـ مريـةٌ حلّت بفيـد وجـاورت أهـل الحجـاز فـأين منـك مرامهـا
18ـ فـأقطع لبـانـةَ من تعرّض وصلُـه ولَخيرُ واصـل خُلّـةٍ صَرّامهـا
19ـ وأحْبُ المجـامِلَ بـالجزيـلِ وصَرْمُـهُ بـاقٍ إذا ضَلَعت وزاغ قـوامهـا
20ـ بطليـح أسفـار تركن بقيـة منها فـأحنق صُلبها وسنـامهـا
21ـ فلهـا هبـابٌ في الـزمـام كأنهـا صهبـاءُ راحَ مع الجنوب جهـامُها
22ـ أو مُلْمِـعٌ وسَقَت لأحقبَ لاحَـهُ طَرَدُ الفحول وضربُهـا وكـدامُهـا

23- يعلو بها حَدَبُ الأكام مُسحجاً ... قد رابه عصيانها ووحامها

24- بأجزّة الثلبوت يربأ فوقها ... قفْرَ المراقب خوفُها آرامها

25- حتى إذا سلخا جُمادى ستةً ... جزءاً فطال صيامُه وصيامُها

26- رجعا بأمرهما إلى ذي مرّة ... حَصِدٍ ونُجْحُ صريمةٍ إبرامُها

27- ورمى دوابرها السفا وتهيّجت ... ريحُ المصايف سومُها وسهامُها

28- فتنازعا سبْطاً يطيرُ ظلاله ... كدخان مشعلة يَشبُّ ضرامُها

29- مشمولة غلثت بنابت عرفج ... كدخان نار ساطعٍ أسنامها

30- فمضى وقدّمها وكانت عادة ... منه إذا هي عرّدت إقدامها

31- أفتلكَ أمْ وحشية مسبوعةٌ ... خذلت وهاديةُ الصّوار قوامها

32- خنساءُ ضيعتِ الفريرَ فلم يرم ... عُرْضَ الشقائق طوفُهَا وبُغامها

33- لمعفّر قهْدٍ تنازعَ شِلْوه ... غُبْسٌ كواسبُ ما يُمَنُّ طعامها

34- صادفن منها غرّة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها

35- باتت وأسبل واكفٌ من ديمة ... يروي الخمائل دائماً تسجامها

36- تجتاف أصلاً قالصاً متنبّذاً ... بعجوب أنقاءٍ يميل هيامُها

37- يعلو طريقة متنها متواتراً ... في ليلة كفر النجومَ غمامُها

38- وتضيء في وجه الظلام منيرة ... كجمانة البحري سُلَّ نظامها

39- حتى إذا انحسرَ الظلامُ وأسفرت ... بكرت تزلُّ عن الثرى أزلامُها

40- عَلهتْ تَبلَّدُ في نهاء صُعائد ... سبعاً تؤاماً كاملاً أيامُها

41- حتى إذا يئست وأسحق حالقٌ ... لم يبله إرضاعُها وفطامها

42- وتسمّعت رِزَّ الأنيس فراعَها ... عن ظهر غيب والأنيس سقامُها

43- فغدتْ كلا الفرجين تحسبُ أنّه ... مولى المخافة خلفُها وأمامُها

44- حتى إذا يئس الرماةَ وأرسلوا ... غُضفاً دواجَن قافلاً أعصامها

45- فلحقن واعتكرت لها مدريةٌ ... كالسمهرية حدُّها وتمامها

46- لتــذودهنّ وأيقنت إن لم تــذد أن قـد أحمّ على الحتـوف حِمامها
47- فتقصّـدت منهـا كسـابِ فَضُرِّجت بـدم وغـودر في المكرّ سُخـامُها
48- فبتلكَ إذ رقص اللوامعُ بـالضحى واجتـاب أرديـة السراب إكـامها
49- أقضي اللبـانـة لا أفرِّطُ ريبـةً أو أن يلـوم بحـاجـة لـوامَها
50- أو لم تكن تـدري نـوارُ بـأنني وصّال عقـد حبـائل جـذّامُها
51- تراك أمكنـة إذا لم أرضهـا أو يعتلق بعض النفوس حمـامها
52- بـل أنت لا تـدرين كم من ليلـة طلـق لـذيـذ لهْـوُهـا ونـدامها
53- قـد بتّ سامرهـا وغـايـة تـاجر وافيتُ إذ رُفعت وعـزّ مـدامهـا
54- أغلي السبـاءَ بكلّ أدكنَ عـاتـق أو جـونـةٍ قُـدحت وفُضّ ختـامها
55- بسماع مـدجنـة وجـذْب كرينـة بمـوتّر تـأتـالُـه إبهـامُها
56- بـاكرتُ حـاجتهـا الـدجاج بِسُحْرةٍ لأُعِـلَّ منهـا حين هبّ نيـامُها
57- وغـداة ريـح قـد وزعْت وقرّةٍ إذ أصبحت بيـد الشمال زمـامها
58- ولقـد حميت الخيـل تحمـل شكتي فرُطٌ وشاحي إذ غـدوتُ لجـامها
59- فعلـوتُ مرتقبـاً على مرهـوبـةٍ حرجٍ إلى أعـلامهنّ قتـامُها
60- حتى إذا ألقت يـداً في كافر وأجنّ عـورات الثغـور ظـلامها
61- أسهلتُ وانتصبت كجـذع منيفـة جرداء يحصرُ دونهـا جرّامُها
62- رفّعتُهـا طردَ النَّعـام وفـوقـه حتى إذا سخنِت وخفّ عظـامها
63- قلقت رحـالتهـا وأسبـل نحرُهـا وابتـلّ من زَبَـد الحميم حـزامها
64- ترقى وتطعُنُ في العَنـان وتنتحي وِرْدَ الحمـامـة إذ أجـدّ حمـامُها
65- وكثيرةٍ غربـاؤهـا مجهولـةٍ تُرجى نـوافلهـا ويخشى ذامهـا
66- غُلْبٍ تشـذّرُ بـالـذحـولِ كأنها جنّ البـديّ رواسيـاً أقـدامها
67- أنكرت بـاطلهـا وبؤتُ بحقّهـا يـومـاً ولم يفخر عليّ كرامها
68- وجـزور أيسـار دعوت لحتفهـا بمغـالـقٍ متشـابـهٍ أعلامُها

69ـ أدعـو بهنّ لعـاقرٍ أو مُطفلٍ — بُـذلت لجيران الجميع لحامُها

70ـ فـالضيفُ والجـارُ الغريبُ كأنما — هبَطا تبالـة مُخْصِباً أهضامها

71ـ تـأوي إلى الأطنـاب كلُ رذيـة — مثـل البليـة قـالصٍ أهـدامها

72ـ ويكللـون إذا الريـاحُ تنـاوحت — خُلجاً تُمَدُّ شـوارعاً أيتـامها

73ـ إنـا إذا التقتِ المجـامعُ لم يـزل — مِنـا لِـزاز عظيمـة جشّـامها

74ـ ومقسّمٌ يُعطي العشيرةَ حقهـا — ومغـذمرٍ لحقـوقهـا هضـامها

75ـ مِن معشرٍ سنّتْ لهم آبـاؤهم — ولكلّ قـومٍ سُنّـة وإمـامها

76ـ إن يَفْـزَعـوا تلـقَ المغـافِرَ عنـدهم — والسّنُّ يلمـع كالكـواكب لامُها

77ـ لا يطيعـونَ ولا يبـورُ فعـالهم — إذ لا يميـل مـع الهـوى أحـلامها

78ـ فبنـوا لنـا بيتـاً رفيعـاً سَمْكُـه — فسما إليـه كهلهـا وغـلامُها

79ـ فـاقنـع بمـا قسمَ المليـكُ فـإنما — قسمَ الخـلائـقَ بيننـا عـلامها

80ـ وإذا الأمـانـةُ قسّمتْ في معشر — أوفى بـأوفر حظنـا قسـامُها

81ـ فهم السعـاةُ إذا العشيرةُ أفظعت — وهم فـوارسُها وهم حكّـامُها

82ـ وهم ربيـعٌ للمجـاور فيهم — والمرمـلاتُ إذا تطـاول عـامها

83ـ وهم العشيرة أن يُبّطيء حـاسـدٌ — أو أن يلـوم مـع العـدا لـوّامها

☆ **معاني الكلمات :**

1 ـ عفت : طمست معالمها . منى : موضع معروف . تأبّد : توحش والأوابد الوحوش . الغول : موضع فيه ماء . الرجام مفردتها رجمة وهي الهضبة ، ولها دلالة أخرى فالرجام أحجار تجمع لتكون أنصاباً ينسك الجاهليون عندها ويطوفون بها .

2 ـ المدافع : مجاري المياه والريان . الريان : واد ببلاد بني عامر . عري رسمها : أي إن الماء جف فتعرّى مكان المجرى . خلقاً : من أخلق : بلي لكثرة الاستعمال أو القِدم أو الإقامة فيه . الخلق : الناس الكثر . الوُحِي : مفردها الوحي وهو الكتاب أو الكتابة إطلاقاً . والسلام الحجارة مفردتها سلمة والمعنى العام أن آثار هذه المنازل المطموسة التي لا تكاد تبين تشبه سطوراً على صخرة .

3 ـ دمن : رماد ودخان وسواد من البعر والسرجين . تجرّم : تقطّع ، أومرّ أو اكتمل . الأنيس : المصاحب . الحجج : السنون . خلون : مررن . حلالها وحرامها : الأشهر الحل والأشهر الحرم : وكل أشهر السنة عند الجاهليين حلّ عدا أربعة هي أشهر حرم وهي : رجب وذوالقعدة وذوالحجة والمحرم .

4 ـ مرابيع النجوم : مطر أول الربيع ، وأضاف الشاعر المرابيع إلى النجوم لأن الجاهلي كان يقول : مطرنا بنوء كذا !! (والأنواء منازل القمر وهي ثمان وعشرون ويسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر ، وتطلع أخرى مقابلها ذلك الوقت في الشرق فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة . وكانت العرب تزعم أن سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر وينسبونه إليها فيقولون مطرنا بنوء كذا ... انظر كتابنا : (الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، فقرة الأنواء) . الودق : المطر القريب من الأرض . الرواعد : السحب ذوات الرعد . الجود : المطر الكثيف . الرهام المطر اللين مفردتها رهمة . +أي إن الأمطار أسهمت في طمس آثار الديار .

5 ـ سارية : سحابة الليل . الغادي : مطر الغداة . والمدجن : التباس الغيم بالسماء . الإرزام : صوت الرعد وإرزام الناقة حنينها على ولدها .

6 ـ علا : ارتفع . الفروع : الأعالي . الأيقهان : جرجير الصحراء مفردها أيهقانة . الجلهتان : جانبا الوادي . +أي إن هذه الديار الخالية جذبت إليها الوحوش ، لأنها تجد أمانها فيها .

7 ـ العين : البقر واحدتها عيناء والذكر أعين . ساكنة من السكينة : مطمئنة . أطلاؤها : أولادها ، الواحد طلا . والعوذ : الحديثات النتاج . تأجّل واحدها أجل وهو قطيع الظباء والبقر والشاء . الفضاء : المتّسع من الأرض . البهام مفردها بهمة وهي من الضأن خاصة أو من أولاد البقرة الوحشية .

8 ـ جلى السيول : جلت السيول التراب عن الأطلال والأطلال ما شخص من آثار الدار . الزبر مفردها زبور وهو الكتاب وزبرت الكتاب كتبته . تجد : تجدد المتون : كناية عن الكل .. والمعنى : هذه السيول كشفت بياض الأطلال وسوادها مثل كتاب مطموس أعيد بعضه وترك الآخر .

9 ـ الرجع : الترديد مرة بعد أخرى . الواشمة التي تشم جسدها بالإبرة ثم تحشو غرزة الإبرة

بالنؤور (مادة سوداء) . أُسَفّ : ذُر عليه النؤور . الكفف : الدارات من النقش الواحد ، واحدتها كفة والكف : المنع . تعرّض : أقبل وأدبر . والمعنى : هذه الديار مثل هذا الكتاب أو هذا الوشم .

10 ـ الخوالد : البواقي .

11 ـ عريت : خلت من أهلها . أبكروا : ارتحلوا منها في أول الوقت . غودر : ترك النؤي : حاجز حول البيت أو الخيمة لئلا يصل السيل إليه . الثمام : نبت يجعل حول البيت فيه شوك ، يقي من الحر والحشرات والحيوانات .

12 ـ الظعن : النساء في الهوادج . تحملوا : ارتحلوا بأحمالهم . تكنسوا : دخلوا في الهوادج (الكناس ملجأ الظبي يقيه الشمس) . القطن : الجماعة مفردها قطين ، وقد تنصرف إلى الجيران أو العبيد . وربما يكون الشاعر قد أراد أن النساء استظلت بأغشية القطن . تصرّ : من الصرير وهو صوت يصدر عن الخيام لأنها جديدة أو لأن الإبل سريعة فتهز خشبه الخيام (الهوادج) .

13 ـ المحفوف : الهودج المحفوف بالقماش . العصي : الخشب . الزوج : النمط المتشابه . الكلة : الستر الرقيق . القرام شراشف تجعل فوق الفراش أو تجعل غطاء .

14 ـ الزُجَل : الجماعة مفردها زجلة . النعاج : البقر الوحشي . توضح مع وجرة : موضعان . عُطّف : ملتفتات أو متحننات على أولادهن . فوقها : فوق الهوادج ، الآرام : الظباء البيض ومفردها رئم .

15 ـ حفزت : استحثت في السير . زايلها : دفعها مرة بعد أخرى وربما يكون المعنى فارقها . السراب : لمعان الشمس في الفضاء كأنه ماء . أجزاع : مفردها جزع وهو منعطف الوادي أو وسطه . بيشة : موضع . الأثل : ضرب من الشجر معروف . الرضام : تلال رملية أو صخرية مفردتها رخمة . والمعنى : حين فارقها السراب تراءت مثل شجر قد ضربته الريح فهو يخفق أو تلال .

16 ـ نوار : اسم حبيبة الشاعر . والنوار الوحش النافر . نأت : بعرت . أسبابها : حبالها والمقصود حبال المودّة . رمام مفردها هارمّة (كسر الراء أو ضمّها) وهي القطعة من الحبل القديمة .

17 ـ مرية : منسوبة إلى قبيلة مرة بن عوف . مرامها : مطلبها . فيد : موضع في طريق مكة . وهي مجاورة أهل الحجاز أعداء الشاعر .

18 ـ اللبانة : الحاجة . تعرّض وصله : تغيّر وحال كأنه أخذ يميناً وشمالاً . الخلة : الصداقة . صرامها ! الصرم : القطع والمعنى : إذا أردت أن تدوم لك مودة صديقك فاقطع حوائجك عنه إذا كرهت أن يردّك .

19 ـ الجامل : الذي يظهر المودّة ويبطن البغض . احب : اعطِ . ضلعت : مالت وجارت . زاغ : مال والزيغ الميل . أي عامل الجامل بالمودّة الظاهرة واخف بغضه على سبيل المعاملة بالمثل .

20 ـ الطليح : الناقة المهزولة من السفر . أحنق : ضمر ... أي اقطع حاجتك وحاجة غيرك بهذه الناقة . تركن بقية : الأسفار تركن بقية من هذه الناقة فلم تأكل لحمها أجمع . الصلب : الجميع القوي .

21 ـ هباب : نشاط . صهباء : سحابة صفراء مسودّة لأنها قليلة الماء سريعة العبور .. أي إن ذهاب لحم الناقة جعلها نشطة مثل السحابة الصهباء التي تخلصت من مائها فهي أسرع من سواها ..

22 ـ الملمع : التي استبان حملها . وسقت : جمعت ماء الفحل أو حملت . الأحقب : الحمار ترى البياض فيه بموضع الحقب منه . لاحه : أضمرهُ وعيره . طرد الفحول : أي إن الحمار يطرد الحمير (الفحول) عن أتنه فيناله من الفحول الضرب بالحوافر والعض (الكدام) : والحمار يطرد الفحول عن أتانه لتكون أكثر رغبة فيه حين لا يكون ثمة فحل غيره .

23 ـ الحدب : ما ارتفع من الأرض . الآكام : الجبال الصغار مفردها أكمة . المسحج : المعضض بأسنان الحمير . رابه : استبان الريب . عصيانه : امتناع الأتان عليه . وحامها : الوحم الشهوة في الحمل . يعلو بها : يعسفها ولا يهتم إلا بطردها لا يبالي أين سلكت وإنما يعلو بها خوف الرامي .

24 ـ الأحزة مفردها حزيز وهو ما غلظ من الأرض . الثلبوت : ماء لبني ذبيان . يربأ : يعلو ويشرف وربيئة القوم : طليعتهم والمراقب هي المراصد . الآرام : حجارة تجعل علامة يعرف بها الطريق . أي إن الحمار يخاف هذه الحجارة حين يراها متوهماً أنها مما يخاف منه .

25 ـ سلخاً : أي خرجاً منها والتثنية عائدة حمار الوحش وأتانه ، جمادى : شدة البرد ، وقوله جمادى ستة : جعل الشتاء كله جمادى لأن الماء يجمد فيه . جزءاً : اكتفاء بالرطب واستغناء عن الماء . والجزء الوقت الذي يتجزأ فيه بالرطب عن الماء وجمادى ستة : ستة أشهر تمام الشتاء .

26 ـ المرة : القوة والمرة في اللغة إحكام الفتل والمرير : الحبل المحكم . أي رجعا الحمار والأتان بأمرهما إلى رأي قوي أي عزماً على ورود الماء بعد طول صيامها وقيامها . الحصد : المحكم .

الصريـة : العزيـمة كأنـه قطع الأمر وأصل الصرم القطـع . الإبرام : الإحكام أي إن نجاح الأمر في إحكامه .

27 ـ الـدوابر : مـآخير الحوافر واحـدتهـا دابرة . السفـا : شوك مثل السنـابـل لـه ثمر ترعـاه الإبل . المصايف مفردها مصيف . الموضع الذي يمضّي فيه الكائن صيفـه . السوم : الحر . السهـام : الريح الحارة أي إنها تركت لترعى حيث شاءت .

28 ـ تنازعا : الحمار وأنثـاه . سبطـاً : غبـاراً مرتفعـاً . ظلالـه : مـا يظل منـه . المشعلـة : النار . يشب : يوقد . الضرام : الحطب الرقيق أي إنهما تنازعا غباراً ممتداً طويلاً طائراً ظلاله كأنـه دخان نار أوقدت .

29 ـ مشمولة : أي أصابتها ريح الشمال . غلثت : خلط مـا أوقـدت بـه بنـابت عرفج : وهو كثير الدخان . أسنامها : ارتفاع لهبها .

30 ـ أي إن الحمار قـدم الأتـان حتى لا تعنـد عليـه . عردت : تركت الطريق وعـدلت عنـه وأصل التعريد : الفرار . وهذه عادة الحمار .

31 ـ يقول لبيد : أفتلك الأتـان هي التي تشبـه نـاقتي أم البقرة الوحشيـة المسبوعـة التي أكل السبع ولدها فهي مذعورة . وخذلت : تأخرت عن القطيع وأقامت على ولدها . هـاديـة الصوار : متقدمته . الصوار : القطيع من البقر .

32 ـ خنساء : صفة البقرة الوحشيـة والخنس تـأخر الأنف في الوجـه وقصره . الفرير : ولـد البقرة وأصل الفرير الخروف وهو من ولد الضأن والبقرة تجري مجرى الضـائنـة . الشقـائق مفردهـا شقيقـة : أرض غليظـة بين رملتين . الطوف : الـذهـاب والمجيء . بغـامهـا : صوتهـا أي إن البقرة لا تبرح هذه الرملة تطلب ولدها لأن في هذه الرملة نباتاً فهي تصيح بولدها لئلا يكون النبات قـد غطاه ، ولو كانت مصحرة لما ثبتت في موضع واحد .

33 ـ المعفر : التعفير هو أن تعفر ولدهـا إذا أرادت فطـامـه والمعفر هو الـذي سحب في العفر (التراب) . القهـد : الأبيض وقيـل هـو الأبيض الـذي يخـالـط بيـاضـه صفرة أو حمرة . تنـازع : تعاطى . الشلو : بقية الجلد أو بقية الجسم . الغبس : الذئاب . والغبسة لون الرمـاد ، وهو بيـاض فيه كدرة . الكواسب : المتدربات على الصيـد فهن يكسبن الصيـد ولا يخفقن . مـا يمن طعـامهـا : لا يمن عليها أحد بالطعام فهي تكسبه بنفسها لنفسها .

34 ـ أي صادفن من البقرة غرة فأصبنها في ولدها . الغرة الغفلة فإذا قرأ البيت (صادفن ضه) فالغفلة للغرير : الولد الصغير . لا تطيش : لا تخطئ .

35 ـ أسيل : سال واسترخى والسبل المطر الذي بين السماء والأرض حين يخرج من السماء ولم يصل إلى الأرض . باتت : أمضت وقت المبيت وليس بات هنا بمعنى نام . الواكف : القطر . الديمة : المطر الدائم . الخمائل : مفردها خميلة وهي الرملة المغطاة بالنبات فكأنه أخملها . التسجام : التسكاب الكثيف والمعنى : باتت هذه البقرة المفجوعة بفقد ولدها مطمورة تمطرها الديمة .

36 ـ تجتاف : تدخل في جوفه . القالص : المرتفع الفروع . المتنبذ : المتنحّي المبتعد . العجوب مفردها عجب وهو أصل الذنب والمقصود هنا أطراف الرمال . الإنقاء مفردها نقا وهو الكثيب من الرمل الذي لم يخالطه غيره ويثنى على نقوان أو نقيان . الهيام : الرمل اللين أو ما تناثر منه وقولنا انهار وانهام وانهال يجمعه معنى واحد ... والمعنى أنها متنحية عن معظم الشجر ومتنحية عن الطريق لتأمن .

37 ـ أي يعلو طريقة متن هذه البقر مطر متتابع . الطريقة خطه مخالفة للونها . المتن : مكتنف الظهر . كفر : غطى .. أي إنها ليلة مظلمة وقد غطى السحاب فيها النجوم . وإنما سمي الكافر كافراً لأنه غطى ما حقه الظهور من الدين أو أنه غطىّ قلبه بغطاء المعصية .

38 ـ يعني البقرة تضيء من شدة بياضها . وجه الظلام : أوله . الجمانة : اللؤلؤة الصغيرة والكبيرة الدرة . والبحري : الغواص وقيل إن الجمانة زينة تشاكل اللؤلؤ تصنع من فضة ، وإن لبيداً وهم في قوله ، فهي ليست من لؤلؤ الصدف البحري حتى يصطاده الغواص ! سل . نظامها : سحب خيطها وسقطت اللؤلؤة على الأرض وتدحرجت فكأنها قلقة أي إن البقرة قلقة ، وقيل : أراد لبيد سرعة عدو البقرة فشبهها باللؤلؤة إذا سلّ خيطها فسقطت . وهذه البقرة كلما تحركت في الليل أشرق لونها .

39 ـ انحسر : ذهب . أسفر : كشف وأسفرت المرأة ألقت خمارها . بكرت : غدت بكرة . الثرى : التراب الندي . أزلامها : قوائمها كأنها قداح . تزل : تزلق لا تثبت على الأرض من الطين ومفرد الأزلام زلم .

40 ـ علهت : جزعت وقلقت . تبلد : تتبلد : تتحير ، تذهب وتجيء ولا تدري أين تمر . النهاء مفردها نهي وهو الغدير . صعائد : اسم موضع ويروي (في شقائق عالج) الشقائق مفردها شقيقة وهي الرملة يكون فيها النبت وعالج موضع . سبعاً تؤاما : واحدها تؤم جعل كل ليلة مع

يومها تؤاماً . كاملاً أيامها : أي لا ينقص جزعها في هذه الأيام !! والمعنى أن هذه البقرة المفجوعة بوليدها جزعت وقلقت لفقد وليدها فتحيرت مترددة تبحث عنه في موضع (نهاء صعائد) مدة سبع ليال كاملة .

41 ـ حتى إذا يئست من ولدها . أسحق : ارتفع . حالق : ضامر من الجوع والإعياء والقلق ، وقيل ممتلئ لبناً وأصله من الارتفاع ، لم يبله إرضاعها وفطامها : لم تذهب به كثرة إرضاعها ولا فطامها ولكن ذهب به فقد ولدها وتركها العلف .

42 ـ ويروى (وتوجست كز الأنيس) تسمعت : ركزّت لتسمع . راعها : أفزعها ولم تر الناس . الرز والركز : الصوت الخفي . عن ظهر غيب : من وراء حجاب أي تسمع الذي لا تراه . الأنيس : الصياد وتسميته الأنيس ضرب من السخرية المرّة فهي تبحث عن أنيس وليس ثمة غير الصياد . سقامها : هلاكها لأنه يصيدها .

43 ـ الفرجان : الجانبان ، الفرج الواسع من الأرض ، والبقرة تخاف من كل شيء تراه ولا تراه . مولى المخافة : صاحب الخوف وسببه وقيل : إن المقصود بالمخافة الكلاب ... أي غدت البقرة لا تدرك لقلقها موضعها من الخطر فتحسبه أمامها وخلفها وفي جانبيها .

44 ـ الرماة : الصيادون . الغضف : الكلاب المسترخية الآذان . الدواجن : الضاريات المدربات التي لا تغادر أصحابها . القافل : اليابس . الأعصام : قلائد من الجلد تجعل على أعناق الكلاب مفردتها عصام وعصمة وعصم والمعنى أن الرماة يئسوا من أن تنال سهامهم البقرة فأرسلوا في إثرها كلابهم المدرّبة الضارية .

45 ـ أي فلحقت الكلاب هذه البقرة فرجعت البقرة عليهن تطعنهن . اعتكرت : رجعت المدرية : القرون الحادة . السمهرية : الرماح الصلبة المنسوبة إلى رجل مشهور بتقويم الرماح اسمه سمهر فشبه قرنها بالرمح لصلابته وحدّته ألا ترى أنه قال : حدها وتمامها يعني بتمامها : طولها .

46 ـ تذودهن : تطردهن وتمنعهن . الحمام : الموت .. فالبقرة تعلم أن الكلام يحملن موتها إليها ، فهي تمنعهن بقرونها وكل ما تبقى من قوتها .. وكل شيء حان وقته تقول فيه أحم يحم .

47 ـ تقصدت : اختارت أو قتلت . كساب : اسم كلبة كانت في طليعة الكلاب عدواً عليها وفتكاً بها . ضرجت : لطخت بالدم . غودر : ترك . سخام كلب والهاء تعود على الكلاب .

48 ـ معناه فتلك الناقة أقضي اللبانة (الحاجة) . لا أفرط : لا أقصر أي أمضي في الحاجة

ولا أقصر فيها . لئلا أشك وأقول إذا فاتتني : ليتني تقدمت أو يلومني لائم على تقصيري ، فهذه الناقة تعين الشاعر على من أراد مواصلته أو مصارمته (تركه) .

50 ـ نوار : حبيبة الشاعر وهي من بني جعفر . جذام : قطاع .. أي إن الشاعر يصل من يستحق المواصلة ويقطع من يستحق القطيعة .

51 ـ يقول لبيد : إنه يترك الأمكنة إذا رأى فيها ما يكره إلا أن يدركه الموت فيحبسه . يعتلق : يحبس . الحمام : الموت أو القدر .

52 ـ كم : للتكثير . ليلة طلق : معتدلة ليس فيها حر ولا برد . الندام : المنادمة .. مجالسة أخلائه من الشاربين .

53 ـ سامر من السمر وهو حديث الليل . التاجر : الخمار أو بائع الخمر . عزّ : ارتفع وغلا . المدام الخمر والغاية السوم .

54 ـ السباء : شراء الخمور . أدكن : زق أدكن . عاتق : عتيق . الجونة : الخابية السوداء . قدحت : عزف منها ومزجت أو بزلت . فضّ : كسر أو فتح . ختامها : خاتمها أو الختم الذي عليها .

55 ـ المدجنة : التي تغني في يوم المطر . الكرينة : صاحبة الكران والكران هو البربط . آلة وترية تشبه العود . تأتلهُ : تصلحه وتعمله (تدوزنه) قبل الاستعمال وفي أناة .

56 ـ باكرت حاجتها : باكرت حاجتي في الخمر . الدجاج : الديكة والدجاج بكسر الدال وفتحها تقع على الذكر والأنثى وتاؤه للواحدة ! والمعنى باكرت بشربها صياح الديكة . أعلّ منها : العلل هو الشرب الثاني وقد يقال للثالث والرابع علل من قولهم تعللت به انتفعت به مرة بعد مرة . هبّ النائم : استيقظ . والمعنى : أن الشاعر شربها قبل صياح الديكة ليشرب منها المرة تلو الأخرى حين استيقظ نيام السحر .

57 ـ وزعت : كففت ويروى كشفت أي بالطعام والكسوة وإيقاد النيران . القرة : البرد . وقوله إذا أصبحت بيد الشمال زمامها أي إذا أصبحت الغداة الغالب عليها الشمال ، وهي أبرد الرياح وجعل للشمال يداً وللغداة زماماً .

58 ـ ويروى ولقد حميت الحي أي منعت عنه الأذى . الشكة : اسم لجميع السلاح . فرط : فرس متقدم وقوله وشاحي لجامها معناه أن الفرسان كان أحدهم يتوشّح اللجام ليكون ساعة يفزع قريباً منه وتوشحه إياه هو أن يلقيه على عاتقه ويخرج يده منه .

59 ـ المرتقب الموضع الذي يرقب فيه . الهبوة : الغبار والمعنى أن القتام كثر حتى بلغ إلى الأعلام وهي الجبال . المرهوبة : المخيفة . الحرج : الضيق والقتام : الغبار أيضاً .

60 ـ ألقت يعني الشمس : وألقت يداً أي بدأت في المغيب . الكافر الليل لأنه يغطّي الأشياء . أجن : ستر . عورات الثغور : المواضع التي تؤتى المخافة منها ، وكل مكان يتخوّف منه فهو ثغر وفرج ومدينة معورة : إذا كان فيها مكان يتخوّف منه .

61 ـ أسهلت : نزلت من المرقبة إلى السهل فنصبت عنقها من مرحها ولم تكسرها حين غربت الشمس ، ولم أتمكن من حراسة أصحابي على المرتقب وسرت على السهل من الأرض والفرس يقع على الذكر والأنثى . جذع منيفة : جذع نخلة منيفة . الجرّام : القطاع ، وهم صرام النخلة . يحصر : يكل . منيفة : نخلة طويلة مشرفة . جرداء : انجرد عنها السعف .

62 ـ رفّعتها : رفعتها في السير . طرد النعام : عدوه . سخنت : حميت من العرق . خف عظامها : إذا كثر عرقها خف عظامها ، وربما تكون كناية عن السرعة .

63 ـ الرحالة : سرج كان يعمل من جلود الشاء بأصوافها يتخذ للجري الشديد . أسبل نحرها : سال بالعرق . الحميم : العرق أو الماء الحار والقريب والمعنى أسرعت فقلقت رحالتها والرحالة تشبه السرج لاقربوس لها ولا مؤخرة وربما كان من لبود وقلقت جواب حتى إذا في البيت السابق .

64 ـ يصف أنها ترفع رأسها فكأنها تصعد وتطعن أي تعتمد في العنان كما يعتمد الطاعن ، تنتحي : تقصد . الحاقة : القطاة يعني أنها تمر كما تمر القطاة إلى الماء وبين يديها قطا قد انكش فهي في أثره وهو أسرع لها ويريد بالحمام هنا جماعة ، لأنه يقال للذكر والأنثى حمامة . ومعنى البيت : إن فرسه تسرع كما تسرع هذه القطاة إلى شرب الماء وهي في أثر قطا بعد الكلال والتعب . ورد الحمامة : أي ترد كما ترد الحمامة .

65 ـ المعنى رب حرب كثيرة غرباؤها وجعلها كثيرة الغرباء لما يحضرها من ألوان الناس وغيرهم وجعلها مجهولة لأن العالم بها والجاهل يجهلان عاقبتها . النوافل : الغنيمة والظفر . ذامها : عيبها وهناك تأويلان آخران هما :

أ ـ ورب جماعة كثيرة الغرباء والمقصود قبة النعمان وجعلها كثيرة الغرباء لاجتماع الناس عندها وجعلها مجهولة لأن بعضهم لا يعرف بعضاً إلا بالسؤال .

ب ـ أرض كثيرة الغرباء يضل بها من يسلكها إذا جهل طرقها .
والتأويل الأخير (ب) أقرب إلى روح النص من سواه .

66 ـ الغلب : الغلاظ الأعناق . تشذر : يوعد بعضهم بعضاً والتشذّر رفع اليد ووضعها كما كانوا يفعلون إذا تفاخروا وتثالبوا ، وتشذرت الناقة إذا شالت ذنبها . الذحول مفردها ذحل وهو الحقد . البدي : البادية وقيل : إن البدي موضع . الرواسي : الثوابت وقال ابن الأنباري : البدي واد لبني عامر .

67 ـ بؤتُ : انصرفت وفي الحديث الشريف : « باءَ طلحة بالجنة » أي انصرف بها وهذا البيت متعلق بقوله وكثيرة غرباؤها . والمعنى وكثيرة غرباؤها أنكرت باطلها ، ااي رددته وبؤت بحقها أي احتملته ولزمته ولم يفخر عليّ كرامها أي إن فخري ظاهر واضح وقيل بؤت بحقها أي بحقي لأني فخرت بحق وأصل الفخر الارتفاع والتعظيم يقال ذر فاخرة أي مرتفعة عظيمة وناقة فخور أي عظيمة الضرع وأنكرت باطلها : أنكرت ما فخر به الوفود من الباطل .

68 ـ الجزور الناقة تشترى لتجزر أي تذبح وجمعها جزائر وجزر . الأيسار : مفردها يسر وهو الذي يضرب بالقداح ويقال له أيضاً ياسر . لحتفها : لنحرها . المغالق : القداح التي يضرب بها الواحد مغلق ومغلاق وإنما سميت مغالق لأنه يجب بها غلوق الرهن ، يقال غلق الرهن يغلق غلقاً وغلوقاً إذا لم يقدر على فكه . الأعلام : العلامات واحدها علم .

69 ـ يقال أدعو بهذه المغالق لأيسر بها على ناقة عاقر أي لا تلد . ناقة مطفل : معها ولد صغير . والعاقر أسمن ، والمطفل أعلى ، واللحام مفردها لحم ، وأدعو بهن لعاقر ولمطفل أي أنحرهن من أجل هؤلاء النسوة . ويروى : (لجيران الشتاء ولجيران العشي) والمعنى يكون أبلغ وأدلّ .

70 ـ الضيف : النازل غير المقيم ويروى (والجار الجنيب) وهو الغريب أيضاً . تبالة : اسم موضع كثير الخصب يقع في اليمن . الإهضام : بطون الأودية منهضمة واحدها هضم وفيها نخل كثير ، يقول فإذا نزل بهم الضيف صادف عندهم من الخصب والفواكه ما يصادفه بتبالة إذا هبطها وإنما يعني نفسه . مخصب : ما تطامن من الأرض لأن السيل إليه أوصل وهو أخصب ، ومعنى البيت إن ضيفه وجاره بمنزلة من نزل تبالة من الخصب .

71 ـ تأوي : تلوذ ، تدخل الرذية : الناقة المهزولة التي تركت لهزالها والرذية هنا المرأة التي قد أرذاها أهلها أي ألقوها والمراد بقوله : كل رذية : الأرامل واليتامى فيقول منزلنا تأوي إليه

الفقيرات والفقراء الذين يشبهون البلية هزالاً . البلية : الناقة التي يموت صاحبها فيشد وجهها بكساء وتربط عند قبره ولا تطعم ولا تسقى حتى تموت فإذا صار الحشر فإن صاحبها (كما يزعمون) يحشر عليها . القالص : المرتفع . الأهدام : مفردها هدم وهو الثوب الخلق البالي . ويريد أن أطنابه وهي حبال الخيام تأوي إليها الفقراء والأرامل ، لأنه يطعمهم ويعطيهم .

72 ـ التكليل : نضد اللحم بعضها على بعض أي يكللون الجفان (الصحون) باللحم وأصل معنى كلل ألبسه الإكليل وهو عصابة مزينة بالجواهر ، وأما ما كلل الجفنة باللحم فمجاز . تناوحت : قابل بعضها بعضاً وذلك في الشتاء ! وشبه الجفان بالخلج لسعتها . تمد : يزاد فيها ، الشوارع : المهيئات والمعنى يطعمون الطعام في الشتاء ووقت الجهد .

73 ـ ويروى (كنا إذا التقت المجامع) ويروى المحافل ، قال ابن كيسان : (إنا) أبلغ في المدح من كنا يعني أن كنا إنما تدل على ما مضى فقط فلهذا صار (إنا) أمدح ، وجاز كنا ؛ لأنه إذا أخبر عما مضى فليس فيه دليل على أنه نفى غيره وأيضاً فإن كنا يجوز أن تؤدي عن معنى : ما زال ، قال تعالى : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [النساء : 96/4] . اللزاز : الذي يلزم الشيء ويعتمد عليه فيه ومنه سميت الخشبة التي يشد بها الباب لزازاً وهي المترس ولز فلان بفلان إذا لزمه . والجشام المتكلف للأمور القائم بها . ومعنى البيت : أنه إذا اجتمع الناس للفخار أو لعظيم من الأمر كان الذي يقوم بذلك ويحكمه منهم .

74 ـ مقسم : يقسم بالعدل . المغذمر : الذي يضرب بعض حقوق الناس ببعض فيأخذ من هذا ويعطي هذا أو هو الذي لا يعصى ولا يرد ، قوله والمضام الذي ينقص قوماً ويعطي قوماً بتدبير ، وقد وثق به في ذلك ، وأصله الهِضْم بالكسر يقال : اهضِم له من حقك ، أي اكسره له ، ومن ثم قيل رجل هضوم الشتاء أي يكسر ماله في الشتاء ، ومنه هضيم الحشا وفي الأرض هضوم أي مطمأنات .

75 ـ يقول : هؤلاء الذين ذكرت من معشر هذه العادة فيهم سنة ولكل قوم سنة ، معناه سن لهم آباؤهم سنة وعلموهم مثال السنة والإمام : المثال أو القدوة والسنة الطريق والأمر الواضح ، أي ورثنا هذه الأفعال عن آبائنا ولم يزل هذا الشرف فينا متقدماً .

76 ـ السن : الأسنة . اللام : مفردها لأمة وهي الدرع .

77 ـ لا يطبعون : أي لا تدنس أعراضهم ولا يبور فعالهم أي لا يهلك وبار الطعام : كسد والمعنى : أنا لا نميل مع هوانا وإن عقولنا تغلب هوانا .

78 ـ بنوا : يعني الأباء البيت كناية عن الشرف .. السمك : الارتفاع .

79 ـ أقنع : أرضى . الخلائق : الطبائع والأخلاق الحسنة . العلام : الله سبحانه .

80 ـ معشر : قوم لا يقلون عن العشرة . الحظ : الحصة والنصيب .

81 ـ أفظعت : حل بها أمر عظيم ، ومعناه أنهم السعاة في صلاح الحي من الديات وغيرها وهم فوارسها الذين يمنعونها وحكامها الذين يرجع إلى رأيهم ، ويقبل قولهم ولا يرد فيما أصدروه وأوردوه .

82 ـ أي هم بمنزلة الربيع في الخصب لمن جاورهم والمرملات اللواتي لا زاد لهن ، ولا مأوى ، قد مات أزواجهن ، قوله : إذا تطاول عامها : إذا توفي زوج المرأة أقامت عاماً ، ونزل بذلك قوله تعالى : ﴿ والَّذين يُتوفَّون منكم ويَذَرُونَ أزواجاً وصيّةً لأزواجهم متاعاً إلى الحَولِ غيرَ إخراجٍ ﴾ [البقرة : 240/2] ثم نسخ هذا بقوله ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ [البقرة : 234/2] .

83 ـ وهم العشيرة فيه مدح كما تقول : هو الرجل : أي هو الرجل الكامل ، ومعناه : هم العشيرة التي لا يقدر حاسد أن يبطئ الناس عنهم بسوء ، ولا يقدر لائمهم على لومهم من كرمهم ، ويروى : إن تَنَبَّطَ حاسدٌ ، أي استخرج أخبارهم ليجد فيها عيباً ..

5 ـ عنترة العبسي

عني الشارع الثقافي بعنترة شاعراً وإنساناً منذ سطوع نجمه في الجاهلية وحتى يومنا هذا ، وهو عنترة بن عمرو بن شداد بن عمرو بن قراد وصولاً إلى عبس بن بغيض ، وقيل : إن شداد هو جده أبو أبيه ، وقيل : إن شداداً عمه ، وكان عنترة نشأ في حجره فنسب إليه دون أبيه (الشعر والشعراء 153/1) . وله لقب (عنترة الفلحاء) وذلك لتشقق شفتيه !

وأمه أمة غنمها أبو عنترة في واحدة من غزواته ، حبشية يقال لها : زبيبة . وكان لها ولد عبيد من غير شداد فكانوا إخوة عنترة لأمه ، وهو يحبهم ويحنو عليهم .

وذكر أبو عمرو الشيباني أن عنترة كان شريفاً في نفسه ، لا يكذب ، ولا يخون ، ولا يغدر .. وكان عنترة قبل أن يدّعيه أبوه حرشت عليه امرأة أبيه (سمية) فنهرها عنترة وشتمها ، فشكت أمره إلى أبيه (إنه يراودني عن نفسي) فغضب أبوه غضباً شديداً ، وقال لا جرم فهذه أخلاق عبيد السوء فضربه ضُرباً مبرحاً بالسوط والعصا ، فلم يتأوه عنترة أو يطلب العفو .. فأراد أبوه أن يتخلص منه فشهر سيفه ليضربه به .. فوقعت عليه سمية امرأة أبيه وكفته عنه بما يشبه الاعتراف ببراءة عنترة ، ولما رأت ما نال عنترة بسبب كذبها وظلمها بكت عليه ومسحت عرقه ودمه بمنديلها .. فقال عنترة :

أمِن سمية دمع العين مذروف لو أن ذا فيك قبل اليوم معروف
تجللتني إذ أهوى العصا قبلي كأنها صنم يعتاد معكوف

وأنشد النبي ﷺ قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مثواها

فقال ﷺ : « ما وصف لي أعرابي في الجاهلية فأحببت أن أراه إلا عنترة » ا.هـ .

وشهرة عنترة الشجاع غلبت كثيراً من صفاته الأخرى ، فعنترة إنسان رقيق الطبع طموح ، وذو حساسية عالية ، وعنترة ذو الأخلاق العالية ، والشمائل السامية ، وثمة عنترة الشاعر المبدع المبتكر !! لكن لشجاعته مذاقاً مختلفاً .. حتى بات بطلاً أسطورياً ، « قيل لعنترة أنت أشجع العرب وأشدها قال لا ، قيل فبماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً إلا إن أرى لي منه مخرجاً ، وكُنتُ أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة التي يطير لها قلب الشجاع ، فأثني عليه فأقتله » .

وكان عمرو بن معد يكرب يقول : ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقني حراها وهجيناها يعني بالحرين عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث وبالعبدين عنترة والسُّليك بن السلكة . ا.هـ .

وقال ابن الكلبي : عنترة أحد أغربة العرب ، وهم ثلاثة عنترة وأمه زبيبة ، وخفاف بن عمير الشريدي وأمه ندبة ، والسليك بن عمير السّعدي وأمه السلكة وإليهن ينسبون ، وفي ذلك يقول عنترة :

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيت خيراً من معم مخول

ويعلل الأصبهاني (الأغاني 143/7) ذلك على هذا النحو : يقول إن أبي من أكرم عبس وهو شطري ، والشطر الآخر ينوب عن كرم أمي فيه ضربي بالسيف ، فأنا خير من قومي ممن عمه وخاله منهم وهو لا يغني غنائي ... وهذه الأبيات قالها في حرب داحس والغبراء . ا.هـ .

وقد شغف القصاص بسيرة عنترة لما تثيره من الأخيلة التي تستحيل مغامرات ومفاجآت ، يقول جرجي زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية 113/1) : « وكان من عادة المسلمين في صدر الإسلام أن يستنهضوا هم الجند للحرب بتلاوة أخبار الشجعان وفرسانهم الجاهليين ، وقد رأيناهم يفعلون ذلك في القرن الأول للهجرة في زمن الحجاج سنة (77 هـ) في الواقعة التي قتل فيها شبيب عتاب بن ورقاء ، ذكر ابن الأثير أن عتاباً سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ، ويقصّ عليهم ، ثم قال : أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد ! فقال أين من يروي شعر عنترة ؟ فلم يجبه أحد » ويضيف زيدان إلى ذلك أخباراً أخرى تنفعنا في أن سيرة عنترة كانت مركز اهتمام الناس والقادة معاً ...

وقد جاء في سبب جمع سيرة عنترة وتدوينها أن رجلاً اسمه الشيخ يوسف بن إسماعيل كان يتصل بالعزيز بالله الفاطمي ، فاتفق أن حدثت ريبة في دار العزيز لهجت الناس بها في المنازل والأسواق فساء العزيز ذلك ، وأشار على الشيخ يوسف المذكور أن يطرف الناس بما عساه أن يشغلهم عن أهل بيته ... وكان الشيخ يوسف هذا واسع الرواية في أخبار العرب ، كثير النوادر والأحاديث ، وكان قد أخذ روايات شتى .. فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها في الناس فأعجبوا بها وشغلوا بها عن سواها ، ومن تلطفه في الحيلة أنه قسمها إلى (72) كتاباً والتزم في آخر كل كتاب أن يقطع الكلام في حادث مهم يشتاق القارئ والسامع إلى الوقوف على تمامه ، وقد أثبت في هذا الكتاب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها ، ولكن تداول النساخين الجهلاء للقصة أفسد روايتها . ا . هـ .

ولنتابع كتاباً تضمن سيرة عنترة يذكر حكاية غزو شداد وقومه لقبيلة جديلة واستحواذه على الغنائم واستئثاره بأمة سوداء !! (شداد بن قراد فارس جروة وهي فرسه ، كانت من أحسن خيول العرب ، حسده عليها الفرسان فسار هؤلاء الغزاة من أرض بني عبس التي تسمى الشربة القريبة من جبل العلم السعدي حتى جاوزوا أرض

بني عدنان إلى أرض بني قحطان ، ثم أشرفوا على جبلي أجا وسلمى ، وهناك رأوا قبيلة جليلة عندها أموال جزيلة ووجدوا لهم مضارب وخياماً ، وكأن مضاربهم بحر متلاطم من كثرة الغلمان والجواري الحسان والعبيد والولدان والخيل مختلفة الألوان ، فلما رأوا كثرة القوم ، لم يهجموا عليهم ، وارتدوا إلى مراعيهم فوجدوا ألف ناقة ترعى وفي تلك البطاح تسعى . وكان مع تلك الجماعة أمة سوداء ترعى الإبل في ذلك البر الفسيح ومعها غلامان يدوران حول الجمال إذا قعدت أمها تستريح . وكانت تلك الجارية رقيقة الأكتاف كثيفة الأرداف مليحة الاعتدال ، كأنها غصن إذا تحرّك ومال ، فلما نظر بنو عبس إلى تلك النياق انطلقوا إليها كخيل السباق وساقوها أمامهم ومعها الأمة والولدان .. ولما ابتعدوا عن الديار ثار من خلفهم الغبار وأدركهم فرسان جديلة واشتبكوا معهم في معركة طويلة ، ولم يلبثوا أن أدركتهم الهزيمة ، ومضى بنو عبس بالغنية ، ولما أقبل المساء نزلوا على بعض الغدران طلباً للماء فنظر شداد إلى تلك الأمة فحلت في عينيه وأراد أن يبلغ منها أمراً فاستعصت عليه ، وقالت له : حاشى أن يأخذ مثلك امرأة شريفة بالسفاح ، فوضع يده في يدها وأشهد القوم على عقد النكاح ، وتنازل لرفاقه عن حقه في غنيمة بني جديلة ، حتى لا ينازعوه تلك الأمة الجميلة)[17] .

ويضيف الشيخ يوسف بن إسماعيل صوراً كثيرة عن نشأة عنترة وما دار حوله من المبالغات (فلما سمع به الملك زهير بن جذيمة وكان كاملاً في شجاعته وكرمه أمر بإحضار الغلام ، فلما جاؤوه به رآه من أعجب الغلمان ، وكان عمره لا يزيد عن أربعة أعوام ، فخاف الملك أن يسطو عليه وأرعبته نظرة عينيه ، فرمى له قطعة من اللحم ، فسبقه إليها كلب خطفها ، وإذا بالغلام يلحق به ، ويمسك بعرقوبه ، ويحاول استخلاص اللحمة من فمه فلما استعصى عليه ، أمسك الكلب ومزق شدقيه إلى نصف لوحيه وأخذ قطعة اللحم منه ووضعها في فمه ورجع يطلب غيرها فتعجب الملك زهير ،

---

(17) يوسف بن إسماعيل ت 635 (من أدباء الدولة الفاطمية) ، عنترة بن شداد 8/1 ، الطبعة الثانية تموز (يوليو) 1981 ، طبعة دار الكتب الشعبية بيروت .

وبهت الحاضرون ، وقال الملك : والله ما هذا إلا أشجع الشجعان وينبغي أن يسمى هذا الغلام عنترة الفرسان)[18] .

عنترة الشاعر :

عنترة شاعر مهم ، له أسلوبه المتميّز بصدق النبرة وجمال الصورة وبساطة العبارة وعمقها ، وذكاء الإشارة وحذقها ، ويكفي أنه تحدّى الشعراء بمعلقته فقال في استهلالها ما يوحي أن الشعراء لم يتركوا فتقاً لمن جاء بعدهم لكي يرتقه ، أي إنهم قالوا كل شيء فليس ثمة زيادة لمستزيد ، وأراد عنترة بذلك أن يقول : ورغم ذلك فأنا الوحيد القادر على الإتيان بالجديد الجميل ... ومعلقته واحدة من أجمل المعلقات إن لم تكن أجملها طراً ، فهي تبدأ بتحدي الشعراء وتثني بغزل عفيف صادق موجه إلى حبيبة قلبه وابنة عمه (عبلة) التي أعجبت بالإنسان فيه ، ورأت الجمال الكامن في نفسه الأبية ، وفي المعلقة لوحات فنية لا يستطيعها شاعر سوى عنترة ومنها وصف فرسه وسط الدماء ، ومنها أيضاً وصف ثغر عبلة الذي شبهه بروضة غناء لم تطأها قدم وأشكل على الدارسين أنه جعلها كثيرة الذباب ، فقالوا : كيف لعاشق أن يجعل شبيه ثغر الحبيبة روضة كثيرة الذباب ، وتوهموا أن عنترة بسبب جفاء طبعه لم يجد في الذباب ما يشين لأنه اعتاده وبات شيئاً من مباهجه (كذا) والذي نراه أن عنترة لم يكن قليل ذوق حيّن جعل الذباب غرواً هزجاً في الروضة التي أشبهت ثغر عبلة فلو استثمرنا نظرية بافلوف (الاقتران الشرطي) لوجدنا أن الأمر على غير ما توهمه بعض الدارسين . فالذباب الذي اقترن في ذاكرتنا الجمعية الآن بالجراثيم والمزابل والجيف ، لم يكن كذلك في العصر الجاهلي ، لأن الذباب لا يرى زمنذاك في الصيف المحرق الذي تنيق فيه الإبل والناس ، ولا يرى أيضاً في زمهرير الشتاء الذي تتثلج فيه الإبل وتموت أحياناً .. وكان الذباب حاضراً في الربيع مقترناً بالدفء والخصب وعلاقات الحب بين الفتيان حين تقيم القبائل جنب الغدران والكلأ .. فالذباب في الذهن الجمعي الجاهلي لم يكن مقترناً بالقذارة

(18) المصدر نفسه 9/1 .

والشر .. وإنما بالغضارة والخير .. وهذا تأويل نقترحه لهذه الإشكالية ، ولا ندّعي أن تأويلنا أصاب كبد الحقيقة .

وثمة في المعلقة أبيات يضع فيها عنترة أصابعنا على مواضع جروحه وهمومه ويعترف فيها أنه مريض نفسياً بسبب قسوة المجتمع عليه .

ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنترة أقدم

كما أنه خائف تماماً من أن يموت قبل أن يؤدب ابني ضمضم هذين الجبانين اللذين أساءا إلى سمعته وتوعداه وهدداه وطعنا في شرفه ومروءته .. تماماً كما فعل أبوهما :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما   والناذرين إذا لم ألقهما دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما   جزر السباع وكل نسر قشعم

وثمة اعتراف جميل يشيعه عنترة في معلقته ، وهو يخاطب الحبيبة .. فهو يدعوها أن تشكره وهذه دعوة لم تصدر من شاعر سوى عنترة ولكنه يريد منها أن تشكره بما علمت فقط ، فهو إنسان متسامح يحب العفو ، ولكن الويل ثم الويل لمن يظلمه:

+ هلا سألت الخيل ياابنة مالك   إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الوقيعة أنني   أغشى الوغى وأعفٌّ عند المغنم
+أثني علي بما علمت فإنني   سمح مخالقتي إذا لم أظلم
فإذا ظلمت فإن ظلمي باسل   مر مذاقته كطعم العلقم

ودعوة عنترة لحبيبته إلى أن تشكره تحمل من الصدق الشيء الكثير ، فكل عاشق ميال في حقيقته إلى أن تعجب به حبيبته وتشكر خصاله بل إن الشكر عادة عربية أصيلة تنم عن الوفاء ، فالجنة لا يدخلها إلا الشكور ، ولئن شكرتم لأزيدنكم ، وبالشكر تدوم النعم ، فالشكر تقليدي عربي عرفه ذوو المروءة من عرب الجاهلية وكرّسه الدين الإسلامي .

☆ **أجواء المعلقة :**

يحكى أن عنترة ، الذي اعترف به أبوه بعد أن بانت مخايل نجابته وتجلت آيات فروسيته وإقدامه ، كان محسوداً من قبل سادات قبيلته أولاً ، فهم يرون فيه عبداً أسود تفوّق عليهم ، وبات ذكره على كل لسان ، فبعد أن كان أبوه منكراً أبوته له وبعولته لأمه ، اعترف به وبأمه على أثر حادثة مشهورة ذكرها الأصبهاني : « وكان سبب ادعاء أبي عنترة إياه أن بعض أحياء العرب أغاروا على بني عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلاً فتبعهم العبسيون فلحقوهم فقاتلوهم عما معهم وعنترة يومئذ فيهم ، فقال له أبوه : كر ياعنترة ، فقال عنترة : العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصّر . فقال له أبوه : كر وأنت حر ، فكرّ عنترة وقاتل قتالاً حسناً فادعاه أبوه بعد ذلك وألحق به نسبه 143/7 » .

وقد كثر مبغضوه كما قدّمنا وكانوا يستفزّونه ، فشتمه رجل عبسي وعيّره بسواده وبأمه وإخوته ، فشتمه عنترة وفخر عليه وقال له : « إني لأحضر البأس وأوفي المغنم وأعف عند المسألة وأجود بما ملكت يدي وأفصل الخطة الصماء » . فقال له العبسي إمعاناً في استفزازه : « أنا أشعر منك ياعنترة » . فقال له عنترة وقد استشاط غضباً : « ستعلم غداً من الأشعر منا وكتب معلقته »!.

☆ معلقة (هل غادر الشعراء) . البحر : الكامل . القافية : م عدد الأبيات ... التبريزي 81 . الشنقيطي 84 الديوان تحقيق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب 86 .

1ـ هل غادر الشعراء من متردّم	أم هل عرفت الدار بعد توهّم
2ـ أعياك رسم الدار لم يتكلم	حتى تكلم كالأصم الأعجم
3ـ يا دار عبلة بالجواء تكلمي	وعمي صباحاً دارَ عبلة واسلمي
4ـ دار لآنسة غضيض طرفها	طوع العناق لذيذة المبتسم
5ـ فوقفت فيها ناقتي وكأنها	فدن لأقضي حاجة المتلوّم
6ـ ولقد حبست بها طويلاً ناقتي	أشكو إلى سفع رواكد جثم
7ـ وتحل عبلة بالجواء وأهلنا	بالحزن فالصمان فالمتثلم
8ـ حييت من طلل تقادم عهده	أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
9ـ حلت بأرض الزائرين فأصبحت	عسراً عليّ طلابك ابنة مخرم
10ـ علقتها عرضاً وأقتل قومها	زعماً لعمرُ أبيك ليس بمزعم
11ـ ولقد نزلت فلا تظني غيره	مني بمنزلة المحب المكرم
12ـ كيف المزار وقد تربّع أهلها	بعنيزتين وأهلنا بالغيلم
13ـ إن كنت أزمعت الفراق فإنما	زمّت ركابكم بليل مظلم
14ـ ما راعني إلا حمولة أهلها	وسط الديار تسف حبَّ الخمخم
15ـ فيها اثنتان وأربعون حلوبة	سوداً كخافية الغراب الأسحم
16ـ إذ تستبيك بذي غروب واضح	عذْب مقبله لذيذ المطعم
17ـ وكأن فأرة تاجر بقسيمة	سبقت عوارضها إليك من الفم
18ـ أو روضة أنفاً تضمّن نبتها	غيث قليل الدمن ليس بمعلم
19ـ جادت عليه كل بكر حرّة	فتركن كلّ قرارة كالدرهم
20ـ سحاً وتسكاباً فكل عشية	يجري عليها الماءُ لم يتصرّم

21- وخلا الذباب بها فليس ببارح　　غِرداً كفعل الشارب المترنّم

22- هزجاً يحك ذراعه بذراعه　　قدح المكب على الزناد الأجذم

23- تمسي وتصبح فوق ظهر حشية　　وأبيت فوق سراة أدهم ملجم

24- وحشيتي سرج على عبل الشوى　　نَهْد مراكله نبيل المحزم

25- هل تبلغني دارها شدنيةٌ　　لعنتْ بمحروم الشراب مُصرَّم

26- خطّارة غبَّ السُرى زيافة　　تطسُ الأكام بوخذ خفٍّ ميثم

27- فكأنما أقصى الأكام عشية　　بقريب بين المنسمين مصلم

28- تأوي له قلص النعام كما أوت　　حزَقٌ يمانيةٌ لأعجم طِمطم

29- يتبعن قلة رأسه وكأنه　　حرج على نعش لهن مخيّم

30- صعل يعود بذي العشيرة بيضه　　كالعبد ذي الفرو الطويل الأصلم

31- شربت بماء الدحرضين فأصبحت　　زوراءَ تنفرُ عن حياضِ الديلم

32- وكأنما تنأى بجانب دفّها الـ　　ـوحشي من هزج العشيَ مؤوّم

33- هرٌّ جنيبٍ كلما عطفت له　　غضبى اتقاها باليدين وبالفم

34- أبقى لها طولُ السفار مقرمداً　　سنداً ومثْلَ دعائم المتخيّم

35- بركتْ على جنب الرداع كأنما　　بركت على قصب أجشّ مهضّم

36- وكأنّ رُبّاً أو كحيلاً معقداً　　حشّ الوقودُ به جوانب قمقم

37- ينباعُ من ذِفري غضوب جسرةٍ　　زيافة مثل الفنيق المكدم

38- إن تغدفي دوني القناعَ فإنني　　طَبٌّ بأخذِ الفارس المستلئم

39- أثني عليّ بما علمتِ فإنني　　سَمْحٌ مخالطتي إذا لم أظلم

40- فإذا ظلمتُ فإن ظلمي باسل　　مرٌّ مذاقته كطعم العلقم

41- ولقد شربت من المدامة بعدما　　ركد الهواجرُ بالمشوف المعلم

42- بزجاجةٍ صفراء ذاتِ أسرّة　　قُرنت بأزهر في الشمال مفدّم

43- فإذا شربت فإنني مستهلك　　مالي وعرضي وافرٌ لم يُكلم

44- وإذا صحوتُ فما أقصرّ عن ندى ... وكما علمتِ شمائلي وتكرّمي

45- وحليل غانية تركتُ مجدّلاً ... تمكو فريصته كشدق الأعلم

46- سبقت يداي له بعاجل طعنة ... ورشاش نافذة كلونِ العندم

47- هلا سألتِ الخيل يا ابنة مالك ... إن كنتِ جاهلةً بما لم تعلمي

48- إذا لا أزالُ على رحالةِ سابحٍ ... نهْد تعاوره الكماة مكلم

49- طوراً يجرّد للطعان وتارة ... يأوي إلى حصد القسيّ عَرَمرم

50- يخبْرْكِ من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

51- فأرى مغانم لوَ أشاءُ حويتها ... فيصدني عنها الحيا وتكرّمي

52- ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعنٍ هرباً ولا مستسلم

53- جادت له كفي بعاجل طعنةٍ ... بمثقفٍ صدق الكعوب مقوّم

54- برحيبةِ الفرغين يهدي جرسُها ... بالليل مُعتَسُّ الذئاب الضُّرّم

55- فشككت بالرمحِ الأصمّ ثيابه ... ليس الكريمُ على القنا بمحرّم

56- فتركته جزر السباع ينشنه ... ما بين قلة رأسه والمعصم

57- ومشكِ سابغة هتكت فروجها ... بالسيفِ عن حامي الحقيقة معلم

58- زبدٍ يداه بالقداح إذا شتا ... هتاكِ غاياتِ التجار ملوّم

59- لما رآني قد نزلت أريده ... أبدى نواجذه لغير تبسّم

60- فطعنته بالرمح ثم علوته ... بمهندٍ صافي الحديدة مخذم

61- يا شاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت عليّ وليتها لم تحرم

62- فبعثت جاريتي وقلت لها اذهبي ... فتجسسي أخبارها لي واعلمي

63- قالت رأيتُ من الأعادي غِرةً ... والشاة ممكنة لمن هو مُرتم

64- وكأنما التفتت بجيد جداية ... رشأ من الغزلان حُرّ أرثم

65- نبئتُ عمراً غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم

66- ولقد حفظتُ وصاة عمي بالضحى ... إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم

67- في حـومـــة الحرب التي لا تشتكي غمراتهـــا الأبطـــال غير تغمغم
68- إذ يتقـــون بي الأسنـــــة لم أخم عنهـــا ولكني تضـــايــق مُقــدمي
69- لـمـــا رأيتُ القـــومَ أقبـــل جمعهم يتـــــذامرون كررتُ غير مـــذمم
70- يـــدعـــون عنتر والرمـــاحُ كأنهـــا أشطـــــانَ بئر في لبـــــان الأدهم
71- مـــــا زلت أرميهم بثغرة نحره ولبـــانـــه حتى تسربـل بـــالـــدم
72- فـــازورّ من وقـــع القنـــا بلبـــانـــه وشكى إليّ بعبرة وتحمحم
73- لــو كان يــدري مـــا المحـــاورة اشتكى ولكان لـــو علم الكـــلام مكلمي
74- ولقـــد شفى نفسي وأبرأ سقمهـــا قيــل الفــوارس ويــك عنتر أقــدم
75- والخيــل تقتحم الغبـــار عــوابســاً من بين شيظمـــــة وأجرد شيظم
76- إني عـــداني أن أزورك فـــاعلمي مـــا قــد علمتِ وبعض مـــا لم تعلمي
77- حـــالت رمـــاح بني بغيض دونكم وزوت جـــواني الحرب من لم يجرم
78- ولقد خشيت بـــأن أموت ولم تــدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
79- الشـــــاتمي عرضي ولم أشتمها والنـــــاذرين إذا لم ألقهما دمى
80- إن يفعـلا فلقـــد تركت أبـــاهمـــا جـــزر السبـــــاع وكل نسر قشعم

معاني الكلمات :

1 ـ متردّم : ردمت الثـوب أصلحتــه ، والمعنى : هـل أبقى الشعراء معنى لم يطرقـوه أو هـل يتهيأ لشاعر لاحق أن يأتي بمعنى لم يسبقه إليه شاعر سابق ؟ ثم قـال عنترة : (أم هل) وهمـا أداتـا استفهام فكيف جمع بينهما ؟ الجواب لأن هل ضعيفة في حروف الاستفهام فأدخلت عليها أم وروي (من مترنم) والترنم صوت خفي يرجعه الإنسان بينـه وبين نفسـه وروي (أم هل عرفت الربع) ، والربع المنزل في الربيع والدار من التدوير ، ولكثرة الاستعمال أطلقت الدار على البيت المـدور وغير المدوّر ! والتوهّم هنا الإنكار والظن والإعياء .

2 ـ أعياك : أتعبك وأيـأسـك رسم الـدار : بقـايـا الـدار وآثـاره . الأصم : الـذي لا يسمع . الأعجم : الأخرس أو الذي لا يتكلم العربية .

3 ـ الجواء : هو البطن المنخفض الواسع من الأرض وقيل هو جواء عدنه (موضع) عمي صباحاً أو انعمي : تحية أهل الجاهلية فيا بينهم .

4 ـ الآنسة : العذراء والفتاة التي تؤنس من حولها . غضيض طرفها : كناية عن الحياء تخفض نظرها ولا تمعن النظر في عيون الناس وذلك أدعى للأنوثة والجمال .. المبتسم : الثغر أو الابتسامة .

5 ـ وقفت لغة في أوقفت . الغدن : القصر . المتلوّم : المتمكث والمتردد وقد عنى نفسه .

6 ـ جست : منعتها عن الحركة وأبركتها . السفع : السفعة السوداء ويريد هنا أحجار الموقد وهي الأثافي . رواكد مفردها راكدة وهي الثابتة التي لا تقوى على الحركة . جثم مفردها جاثمة : وهي المستقره أو اللصيقة بالأرض وفي التنزيل العزيز ﴿ وَأَصْبَحُوا في ديارهم جَاثِمِيْنَ ﴾ [الأعراف : ٧٨/٧] .

7 ـ تحل : تنزل أو تسكن . الجواء : موضع في نجد . الحزب ديار لبني يربوع والصمان لبني تميم ، والمتثلم مكان ، والصمان والصوان في الأصل الحجارة والصوان : يستعمل لحجارة النار خاصة ، وكانت العرب تذبح به .

8 ـ حييت من التحية ! تقادم عهده . أصبح قديماً . أقوى : صار خالياً وقيل : الإقواء نفاد الزاد . وأقفر معناه مثل معنى أقوى إلا أن العرب تكرر إذا اختلف اللفظان وإن كان المعنى واحداً . أم الهيثم : كناية عن عبلة ، والشعراء يسمّون الحبيبات بأسمائهن أو بالأذواء فقد ورد في معلقة امرئ القيس أم الرباب ، وفي معلقة زهير أم أوفى ، ومعلقة عنترة هذه (أم الهيثم) ، وهي حالة يراد بها التعلل أو التحبب أو تجنبّ الريبة .

9 ـ الزائرين : مفردها زائر وهو العدو الشبيه بالأسد فكأنه يزأر ؛ فإن قيل كيف قال الشاعر حلت بأرض الزائرين فذكرها غائبة ، ثم قال : طلابك ، فجعلها مخاطبة ؟ فالجواب إن الأسلوب العربي يرجع من الغيبة إلى الخطاب كما في هذا البيت . الطلاب : المطلب والمقصود اللقاء (ابنة مخرم) كناية عن الحبيبة أيضاً !!.

10 ـ علقتها : أحببتها . عرضاً : جاءني حبها مصادفة ولم أطلبه !! قال الأعشى :

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

الزعم : الكلام فيه منازعة أو ادعاء غير قار ، والمعنى أنني أحبها ، ولكنني أقتل فرسان قومها فكأني أزعم الحب أي أدعيه ولكنه يستدرك بشكل جميل (زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم) .

11 ـ المعنى : لقد نزلتِ ياعبلة مني منزلة المحبوب المكرّم فلاتظني غير هذا .

12 ـ والمعنى كيف أزورها وقد بعدت عني بعد قربها . تربع : نزل القوم في الربيع . عنيزتان والغيلم : موضعان .

13 ـ أزمعت : قررت . زمت ركابكم أي شدت إبلكم بالأزمة والركاب لا يستعمل إلا في الإبل والركب الجماعة الذين يركبون الإبل والمعنى أن هذا أمر تدبرتموه في الليل وهيأتم الجمال في الظلام فكأنكم تريدون التستر ومفاجأة الناس بالسفر ، وكانت العرب تفعل ذلك درأً للخطر المحتمل .. وآية ذلك لم يكتف بالليل ، وإنما جعله ليلاً معتماً بلا قمر ولا أضواء .

14 ـ راعني : أفزعني . الحمولة : الإبل التي يحمل عليها . تسفّ تأكل الخمخم : بقلة لها حب أسود إذا أكلته الغنم قلت ألبانها وتغيّرت ، وإنما يصف أنها تأكل حب الخمخم لأنها لم تجد غيره ومعنى البيت : أن عنترة فزع وهو يرى الإبل تأكل حب الخمخم الذي لم تجده غيره ، وهذه دلالة على انقضاء الربيع وضرورة المغادرة فقد يبس البقل وشح الكلأ .

15 ـ الحلوبة : المحلوبة . الخوافي : أواخر ريش الجناح مما يلي الظهر . الأسحم : الأسود .

16 ـ تستبيك : تذهب بعقلك . غرب كل شيء حده والمراد بثغر ذي غروب . وغروب الأسنان حدّها . الواضح : الأبيض ويريد بالعذب : أن رائحته طيبة .

17 ـ الفأرة : المسك . التاجر : العطار . العوارض : منابت الأضراس واحدها عارض . القسيمة : الجونة وقيل سوق المسك أو الناقة التي تحمل المسك وهناك تأويلات أخرى للقسيمة: أ ـ امرأة جيلة . ب ـ الساعة التي تقسم بين الليل والنهار ففي ذلك الوقت تتغير الأفواه .

18 ـ معناه : كأن رائحتها عطر المسك ، أو أشذاء روضة (الروضة الحديقة الغناء المنعمة بالماء الوفير والنبات النضير) . الأنف : التام من كل شيء وقيل : هو أول كل شيء . الغيث : المطر . المعلم والعلم والعلامة واحد في الدلالة . والمعنى : أن هذه الروضة ليست في مكان قريب أو معروف حتى يقصدها الناس للرعي والروضة البعيدة عن الناس كناية لطيفة عن الطهر والبكارة والمنعة .

19 ـ البكر : السحابة أول الربيع التي لم تمطر . الحرة : البيضاء . القرارة : الموضع المطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل ، والقرارة دخيلة الشيء ، وقيل شكله فكأن القرارة مستقر السيل . وإنما شبه القرارة في بريقها وهي مفعمة بالماء بالدرهم ؛ لأن الدرهم الجاهلي كان يصنع من الفضة الخالصة النقية فبياضه واضح يخلب النظر !!

20 ـ السحّ : الصب . التسكاب : الصب أيضاً . لم يتصرّم : لم ينقطع ولم ينفد . وقال ابن الأعرابي : خص مطر العشي لأن عنترة أراد الصيف وأكثر ما يكون مطره بالعشيّ .

21 ـ الغرد : الطرب . المترنّم : الذي يرجع الصوت بينه وبين نفسه . ليس ببارج : ليس بزائل . الذباب مفرد وجمعه أذِبّة في أقل العدد وذُبّان في الكثرة . وقال البغدادي في خزانة الأدب : « هذا من عجيب التشبيه ، ويقال : إنه لم يقل أحد في معناه مثله وقد عدّه أرباب الأدب من التشبيهات العقم ، وهي التي لم يسبق إليها ولا يقدر أحد عليها » . فعل الشارب : أي إنه يحاكي تصرّفات المخمور الذي لعبت الخمرة في رأسه !

22 ـ الهزج : الخفة والفرح ، والهزج صوت الفرِح أيضاً ، وتروى بفتح الزاي وكسرها وكسر الزاي أجود ويريد (قدح المكب الأجذم على الزناد) فقدّم وأخرّ . الأجذم : المقطوع اليد وزعم أن الأجذم هو الزناد القصير فهو أشد لانكبابه عليه ، والمعنى أن عنترة شبه الذباب إذا سنّ ذراعه بالأخرى برجل أجذم قاعد يقدح ناراً بذراعيه .

23 ـ هنا مقارنة بين صباح عبلة ومسائها وبين صباح عنترة ومسائه ، فهي منعّمة تحتها الفراش المحشو وسمي القطن أو الصوف أو الريش حشو أما عنترة ففراشه (المجازي) ظهر حصانه .

24 ـ وحشيتي : فراشي . عبل الشوى : فرس غليظ القوام والعظام كثير العصب . الشوى : القوائم هنا ، وفي غير هذا الموضع مفردتها شواة وهي جلدة الرأس . النهد : القوي الصلب الضخم المنتفخ الجنبين . المراكل مفردتها مركل، وهو حيث تبلغ رجل الرجل من الدابة والمحزم موضع الحزام .

25 ـ شدنية : ناقة منسوبة إلى موضع (أوحى) باليمن ! وزعم أن شدن جمل عربي أصيل وقديم تنسب إليه الإبل الأصيلة . لعنت : يدعو عليها بانقطاع لبنها أي أن يحرم ضرعها اللبن فيكون أقوى لها . محروم الشراب : الشراب الممنوع . المصرّم : الذي أصاب أخلافه شيء فقطعه من صرار ، والأخلاف مفردها خلف بالكسر وهو حلمة الضرع ، وقيل هو الضرع نفسه ، والصرار خيط يشد فوق خلف الناقة لئلا يرضعها ولدها .

26 ـ خطارة : تخطر بذنبها وتحركه وترفعه وتضرب به حاذيها . والحاذيان حافتا الإليتين وإنما تفعل ذلك لنشاطها ، غب السرى : أي بعد السرى : زيافة : تزيف في سيرها أي تسرع . الوطس : الضرب الشديد والوطس وطء الخيل ثم استعمل في الإبل . الخف الميثم : الشديد الوطء . الإكام : الهضاب . وخد : وخد البعير ، أسرع ووسع الخطو ورمى بقوائمه كمشي النعام .

27 ـ أَقِصُّ : أكسِرُ ! والمعنى كأنما أكسر الآكام (التلال) بظليم قريب بين المنسمين يقال ليس بأفرق . والصلم : قطع كل شيء من أصله والظليم مصلم لأنه ليس له إذن ظهاهرة ومنسماه ظفراه المقدمان في خفه فإذا كان بعيد ما بينهما قيل منسم أفرق وإذا لم يكن أفرق كان أصلب لخفه .

28 ـ تأوي : تأتي وتلوذ . قلص : أولاد النعام . الحزق : الجماعات . أعجم طمطم وطمطماني : الذي لا يفهم الكلام ! أي تأوي إليه صغار النعام حين ينقنق لهن كما أوت فرق الإبل لا يفهم الكلام ولا يحسنه .

29 ـ يتبعن : النعام يتبع الظليم ، قلة رأسه : أعلاه . الحرج : مركب من مراكب النساء ومعناه الأول هو النعش ثم صاروا يشبهون به المركب . مخيم : يظلّ مثل الخيمة أي إن صغار النعام تنظر إلى أعلى رأس هذا الظليم فتتبعه .

30 ـ الصعل : الصغير الرأس الدقيق العنق . يعود : يأتي إلى بيضه . ذو العشيرة : اسم موضع . الأصلم : المقطوع الأذنين شبّه الظليم براع أسود يلبس رداء من الفراء .

31 ـ الدحرضان : اسم لموضعين هما دحرض ووسيع فغلب أحدهما على الآخر . الزوراء : المائلة المعوجّة . تنفر : تأبى وترفض . الديلم : الأعداء والظلمة والداهية وقرى النمل والمعنى أن الناقة شربت مياهاً عربية وتجانفت عن شرب مياه غير العرب . وبعض الدارسين تلبثوا كثيراً عند هذا البيت واعتدوه وعياً عروبياً مبكراً .

32 ـ ينأى : يبعد . الدف : الجنب . الوحشي : الجانب الأيمن من البهائم وإنما قيل (وحشي) لأن الراكب لا يركب من جهته والحالب لا يحلب من جهته !! هزج العشي : هر يموء بالعشيات . المؤوم : الكبير الرأس المشوّه الخلق . الهزج تدارك الصوت والمعنى أن الناقة مستفزة نشطة كأنها تخشى هراً وضع إلى يمينها والهرّ يكون أكثر صياحاً في العشيرة فهي تخاف أن يخدشها . وقال صاحب اللسان : إن هزج العشي هو الذباب الذي يترنّم في طيرانه والناقة تخشى لسع الذباب ، وابن الأعرابي زعم أن الهزج العواء والعشي الليل ، وزعم غيره أن هزج العشيّ هو السوط بيمين الشاعر والناقة تميل على ميامنه مخافة السوط !!

33 ـ جنيب : مصاب في جنبه . عطفت له : انحنت نحوه . اتقاها : دفعها .

34 ـ المقرمد : المبني من القرمد وهو الآجر والطابوق ، والمراد به سنام الناقة السند : العالي أو الوتد القوي الذي تنهض به الخيمة وسواها : المتخيم : صاحب الخيمة .

35 ـ بركت : البروك جلوس الناقة . رداع : اسم مكان . الأجش : ذو الصوت الغليظ فيه بحة يخرج من الخياشيم . المهظم : المخرّق أو المكسّر والمعنى أنها بكرت فحنت فشبه صوت حنينها بصوت المزامير ! والقصب الأجش معروف أنه من قصب الزمر فمنه تصنع المزامير ولهذا قيل هو المخرّق .

36 ـ الرُّب : عصارة التمر المطبوخة وهو أيضاً : دخان الشحم الأسود يطلى به . القطران والقطران في معنى واحد ، والكحيل هو القطران الرديء يضرب إلى الحمرة ثم يسوّد إذا أُعقِد وتهنأ به الإبل من الجرب . والكحيل شبيه بالنفط ويسمى الخصخاض والمعقد الذي أوقد تحته حتى انعقد وغلظ . حشّ : اتقد . والقمقم : وعاء لتسخين الماء وسواه . الوقود : الحطب .

37 ـ ينباع : يلين ويتلوى . الذفريان : الحيدان الناتئان بين الأذن ومنتهى الشعر وأول ما يعرق من البعير الذفريان . الجسرة : الناقة الماضية والمجرّبة في السير والجسرة أيضاً الضخمة القوية . الزيافة : السريعة . الفنيق : الفحل . المكدم : الكدم العض . والمعنى أن هذا الطلاء الذي يشبه الدبس الأسود أو القطران يسيل ويتلوى على رقبة الناقة كتلوي الحية .

38 ـ الإغداف : إرخاء القناع على الوجه ، وترجيل الرأس بالدهن . القناع : مشتق من العلو . الطب : الحاذق . المستلئم : الذي يلبس اللامة وهي الدرع والمعنى إن زاغت عينك عني فأغدفت دوني القناع فإني حاذق بقتل الفرسان وأسر الأقران .

39 ـ وهذا البيت تعرّب محلل النص حد الالتصاق أو النفاذ من مكابدات عنترة فهو يطلب إلى عبلة أن تتحدث عنه حديثاً حسناً بين صويحباتها والناس جميعاً وتذكر نعمه ومحاسنه ، فهو يأمرها بشكره وذكر مزاياه الحميدة ولكن بما علمت وليس الثناء الذي يتزيّد وينافق ومخالقتي : امتحان أخلاقي بالصداقة أو العداوة ، وما زال أهل الموصل في العراق حتى اليوم يستعملون خالقني بمعنى خاصمني ، ورويت (مخالفتي) ، و (مخالطتي) والسمح . الصبور المتسامح والمعنى : في البيت هذا والذي سبقه إن تغدفي دوني القناع ثم قال : أثني عليّ بما علمت فإذا رآكِ الناس قد كرهتني وأغدفت دوني القناع ظنوا أنك تحتقرين عنترة وتستقلين شأنه والحقيقة التي بيننا غير ذلك وهنا يكون ثناؤك تبديداً لأوهامهم وتطييباً لخاطري ، وارسمي صورة لي أمام الناس أنني متسامح إلا في ظلمي .. فالظلم الحيف الوحيد الذي لن أتقبّله من أحد .. وليس عيباً أن يطلب العاشق من معشوقته أن تشكره ، فكل العشّاق راغبون في أن تكون منازلهم في قلوب الحبيبات بمستوى الثناء والمديح والعكس صحيح فالمعشوقات يتمنين أن يكن بمستوى يشكرن عليه ، والشكر سلوك

لا يستطيعه إلا الشريف في نفسه ، وقد كرّس الإسلام الشكر : لئن شكرتم لأزيدنكم وبالشكر تدوم النعم وإن الله يحب الشكور .

40 ـ باسل : كريه ومحرّم . العلقم : الحنظل .

41 ـ المدامة : الخمرة . ركد : سكن . المشوف : الدينار المجلو أو الدرهم المعلم : الذي فيه كتابة تصير علامة عليه . ركد الهواجر: وقوف الشمس في الهاجرة وقيام كل شخص على ظله .

42 ـ ذات أسرة : ذات خطوط . أزهر : إبريق من الفضة أو إبريق أبيض . المفدّم : المربوط الفم . والفدام قطعة قماش توضع على الفم والأنف مثل كامة الطبيب الآن ... يرتديها العمال عهد ذاك الذين يقدّمون الشراب والطعام ، والفدام قماش يوضع على الإبريق . قال الأخفش بزجاجة صفراء صفة للزجاجة ظاهراً ، لأنها صفة الخمرة واقعاً .

43 ـ العرض : موضع المدح والذم في الإنسان ، لم يكلم ؛ لم يجرح .

44 ـ الندى : السخاء . الشمائل : الأخلاق .

45 ـ الحليل : الزوج والمرأة حليلة ، لأن كل واحد منهما يحل للآخر . الغانية : الشابة التي استغنت بحسنها الطبيعي عن التحسين الصناعي . وقيل : إن الغانية هي التي تستغني برجلها عمن سواه . تمكو : تصفر . الفريصة : لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع ، وهما فريصتان . الأعلم : الذي بشفته العليا شق ويريد هنا الجمل . الشدق : جانب الفم مما تحت الخد ، وكانت العرب تمتدح رحابة الشدقين لدلالتها على جهارة الصوت .

46 ـ الرشاش : ماتطاير من الدم . النافذة : الطعنة التي نفذت إلى الجانب الآخر أو إلى الجوف . العندم : صبغ أحمر وهو صبغ شائع بين الأعراب مفرده عندمة .

48 ـ الرحالة : سرج يعمل من جلود الشاء بأصوافها . السابح : الفرس الذي يدحو بيديه دحواً كأنه سابح في الهواء . النهد : الغليظ . تعاوره : تتعاوره ، أي تعترض سبيله . الكماة : مفردها كمي وهو الشجاع والكمي التام السلاح ، وسمّي كمياً لأنه يتكّى الأقران أي يتعمّد لقاءهم ، أو لأنه يكمي شجاعته لوقت الحاجة فيفاجئ الأقران بها . مكلم : مجرّح .

49 ـ الطور : المرة أو الحال . يجرّد : يهيأ . تارة : مرة . الحصد : الكثير وكذلك العرمرم . القسي مفردها قوس وقد يكون المعنى المناسب أن هذا الفرس السابح (العرمرم) يذهب إلى حصد القسي .

50 ـ يخبرك جواب لـ (هلا سألت) . الوقيعة والوقعة . الحرب : أغشى : أقتحم . الوغى

والوعى والوحى : الجلبة من الأصوات كناية عن الحرب . المغنم : الربح في الحرب وهو المال والسلاح والأسرى وقد أضاف شارحا ديوان عنترة (سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب) هذين البيتين الطريفين اللذين لم يذكرهما التبريزي :

☆ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلٌ منّي وبيض الهند تقطر من دمي

☆فوددت تقبيل السيوفِ لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

النواهل من نهل : شرب . بيض الهند : السيوف .

51 ـ المعنى أنني حين أنتصر في المعركة أعفّ عن قتل الجريح والاستحواذ على الأموال والسبايا ، فهذه المغانم لو شاء عنترة لاستولى عليها ولكن له حياء وكرماً يمنعانه عن إيقاع الأذى بالآخرين وإن كانوا أعداءه .

52 ـ المدجج : الذي توارى بالسلاح . النزال : المنازلة وهي المبارزة . لاممعن هرباً فيبتعد عن المعركة ولا هو مستسلم فيؤسر ولكنه يقاتل .

53 ـ المثقف : المصلح المقوّم . الكعوب : عقد الأنابيب أي العقد في الأغصان التي تتخذ رماحاً . الصدق : الصلب .

54 ـ الرحيبة : الواسعة وكل ما بين العرقوتين . فرغ : مدفع الماء الأودية . الجرس : الصوت . والمعنى : جرس سيلان دم هذه الطعنة يدل السباع إذا سمعن خرير الدم منها فيأتينه ليأكلن منه . المعتس : المبتغي الطالب وقيل الاعتساس هو الطلب في الليل . الضرم : الجياع .

55 ـ شك : شق أو انتظم . ليس الكريم على القنا بمحرم : الكريم لا يموت في فراشه وإنما الكريم الذي يموت في ساحة المعركة .

56 ـ الجزر : الحيوان المذبوح . ينشنه : يستطعن تناوله بالأكل . القلة : أعلى الشيء . المعصم : موضع السوار .

57 ـ المشك : الدرع الذي شك بعضه إلى بعض أو المسامير التي تكون في حلق الدرع ، والسابغة : الدرع أيضاً !! والكوفيون يجيزون إضافة الشيء إلى نفسه والتقدير في مشك سابغة : مشك حديدة سابغة . الحامي : المانع . الحقيقة : مايحق على الرجل أن يمنعه . المعلم : الذي وضع علامة الحرب على نفسه ويريد : لما رآني قد نزلت أريده اتقاني بدرعه فهتكت ما استغلق من حلقات درعه بالسيف .

58 ـ الربذ : السريع الضرب بالقداح أي هو حاذق بالقمار والميسر : خفيف اليد بضرب القداح . وهذا مما يمتدح به الرجل في الجاهلية . إذا شتا : كناية عن القحط والجدب وهما يتجليان في الشتاء ، هتاك غايات التجار . الغايات : العلامات والرايات . التجار : بائعو الخمرة أي إنه يشتري كل ما عندهم من الخمر فيقلعون راياتهم ويذهبون فذلك هو هتكها . الملوم : الذي يكثر لومه على إنفاق ماله في الفتوة .

59 ـ الناجذ : آخر الأضراس وهي الأسنان الضواحك أي إنه حين رآني استبسل للموت .

60 ـ المخذم : الذي ينتسف الموضع الذي يقع عليه فيقطعه . التهنيد : شحذ السيوف والعرب تقول ضرب بالسيف وطعن بالرمح ورمى بالنبل وحذف بالعصا .

61 ـ الشاة : كناية عن المرأة والعرب تكني عن المرأة بالنعجة . والتقدير يا شاة إنسان ذي قنص أو يا شاة القنص لمن حلت له : لمن قدر على اصطيادها رغم صعوبة الأمر وإنما حرمت عليه لأن قومها ألد أعدائه وتأوّل الأخفش .. أنها جارتي وهي حرام عليّ وليتها لم تكن كذلك حتى لا تكون لها حرمة ، وزعم أن هذا البيت في تلميح إلى سمية زوج أبيه وأصل الحرام : الممنوع .

62 ـ التجسس : هو جسّ الأخبار غير الواضحة أو الاطلاع على أخبار جديدة عن كثب (بالجسّ) والتحسس : هو إزالة الغبار عن الخبر أو السر وتلقاه بجواسه وأحس الشيء : علم به .

63 ـ الغرة : الغفلة .. المرتمي : الذي يرميها بسهمة كناية عن الرغبة بها والمغامرة من أجلها .

64 ـ الجيد : العنق . الجداية : من الظباء وهي من الظباء بمنزلة الجدي من الغنم أي الظبية الصغيرة . الرشأ : الصغير من الظباء . الأرثم : الذي في شفته العليا بياض أو سواد فإن كان في السفلى فهو المظّ ولمظّاء .

65 ـ نُبِّئت : علمت .

66 ـ وصاة : وصية . تقلص : ترتفع ! وفي الحرب ترتفع الشفة من الإنسان حتى كأنه يتبسم .

67 ـ حومة الشيء : معظمه أو كثرته . الغمرة : الشدة . التغمغم : صوت يسمع ولا يفهم .

68 ـ يتقون بي الأسنة : يجعلونني بينهم وبينها فهم يريدون لي الموت عنهم . لم أخم : لم أجبن ، وخام يخيم إذا أصاب الكسر رجله أو أية علة .

69 ـ يتذامرون : يتدافعون والتذامر الشكوى أي يحض بعضهم بعضاً .

70 ـ أشطان : حبال . اللبان : الصدر . الأدهم : فرس عنترة .

71 ـ ثغرة النحر : نقرة النحر ، وقيل ما نتأ من النحر ، وهي الموضع الذي ينحر منه البعير . تسربل : صار بمنزلة السربال .

72 ـ ازور : مال . التحمحم : صوت متقطعّ للفرس ليس بالصهيل ، وقال الأزهري التحمحم : صوت الفرس إذا طلب العلف أو إذا رأى فارسه فاستأنس به .

73 ـ المحاورة : مراجعة الكلام بين الاثنين .

74 ـ ويك : ويحك ألم تر ؟ السقم : المرض . أبرأ : شفى .

75 ـ عبس : جمع جلد ما بين عينيه وجلد جبهته وتجهّم . الشيظمة : الطويلة . الأجرد : قليل الشعر .

76 ـ عداني : اضطرني .

77 ـ حالت : اعترضت : ابنا بغيض . عبس وذبيان . زوت : جمعت . جواني الحرب : مشعلو نارها .

78 ـ ابنا ضمضم : وهما هرم وحصين ابنا ضمضم المري . تدور : تقوم والدائرة الموت أو القتل .

79 ـ النذر : ما يوجبه الإنسان على نفسه وأنذرت دم العدو إذا أبحته .

80 ـ جزر السباع : طعام السباع . القشعم : المسن من الرجال والنسور ، وقيل القشعم الضخم المسن من كل شيء .

6 ـ عمرو بن كلثوم

قال ابن قتيبة (الشعر والشعراء 141/1) : هو تغلبي من بني عتّاب جاهلي قديم ، وهو قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة . وكان سبب ذلك أن عمرو بن هند قال ذات يوم لندمائه : هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟ فقالوا : نعم عمرو بن كلثوم ! قال ولم ذلك ؟ قالوا هو ابن ليلى ، ولأن أباها مهلهل بن ربيعة وعمها كليب وائل أعز العرب ، وبعلها كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب ، وابنها عمرو بن كلثوم سيد من هو منهم . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه . فأقبل عمرو بن كلثوم من الجزيرة إلى الحيرة في جماعة من بني تغلب ، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب . وأمر عمرو بن هند برواقه فضرب فيما بين الحيرة والفرات وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوه بني تغلب . فدخل عمرو بن كلثوم على عمرو بن هند في رواقه ودخلت ليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم على هند في قبة من جانب الرواق وهند أم عمرو بن هند عمة امرئ القيس الشاعر ، وليلى بنت مهلهل أم عمرو بن كلثوم هي بنت أخي فاطمة بنت ربيعة أم امرئ القيس . وقد كان أمر عمرو بن هند أمه أن تنحي الخدم إذا دعا بالطُّرف[19] وتستخدم ليلى . فدعا عمرو بن هند بمائدة فنصبها فأكلوا ، ثم دعا بالطرف ، فقالت هند : يا ليلى ناوليني ذلك الطبق ، فقالت ليلى لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى واذلاه يا لتغلب ! فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم في وجهه ، ونظر إلى عمرو بن هند فعرف الشر في وجهه فقام إلى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق ليس هناك سيف غيره فضرب به

(19) يستفاد من لسان العرب (طرف) أن الطُّرف ويسمى أطراف العذارى : عنب أسود طوال كأنه البلوط يشبه بأصابع العذارى المخضبة لطوله وعنقوده نحو الذراع والطَّرف بفتح الطاء اللحم المشوي !!.

رأس عمرو بن هند حتى قتله . ونادى في بني تغلب فانتهبوا جميع ما في الرواق ، وساقوا نجائبه ، وساروا نحو الجزيرة ... ويقال : إن أخاه مرة بن كلثوم قتل المنذر بن النعمان بن المنذر .. وابنه عبّاد بن عمرو بن كلثوم هو قاتل بشر بن عمرو بن عدس ولعمرو بن كلثوم عقب منهم العتابي الشاعر المشهور ، واسمه كلثوم بن عمرو ويكنى أبا عمرو .. ا . هـ . وقد كتب عمرو بن كلثوم معلقته ليعبّر عن حالة الغضب التي اعترته ، وربما نظم شيئاً من المعلقة في هذه المناسبة ، وكان قد كتب شيئاً من المعلقة في مناسبة أخرى إثر حادثة أخرى جرت له مع عمرو بن هند المذكور على أثر خلاف جرى بين قومه التغلبيين وإخوانهم البكريين وتقاضوا إلى عمرو هذا وكان قد أصلح بينهما بعد حرب البسوس وشرط عليهما شروطاً إذا اختصما . فلما جاؤوا للمقاضاة كان ابن كلثوم سيد تغلب والنعمان بن هرم سيد بكر . وجرى بين الأميرين جدال بين يدي صاحب الحيرة . وكان هذا يؤثر تغلباً على بكر فطرد ابن هرم ، فنهض ابن كلثوم وأنشد معلقته ، وكان حاضراً هناك الحارث بن حلزة اليشكري من بكر وائل فأنشد معلقته ! فالغالب أن ابن كلثوم نظم معلقته على مرتين في حادثة أمه وهذه الحادثة ولذلك رأيت فيها إشارة إلى كليهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه في سوق عكاظ فأنشدها في موسم مكة[20] . والمعلقة مكتوبة على نحو مختلف بعض الاختلاف عن المعلقات الأخرى ، فهي لم تقف على الأطلال للبكاء أو الاستبكاء ، ولعل في اختيار الوافر بحراً لها ما ينم عن الرغبة في قول الغضب بشكل مباشر ، فاستهلال المعلقة استهلال خمري اكتفى بالأبيات السبعة الأولى ثم حجز بين المقدمة الخمرية ومخاطبة الحبيبة التي شاءت الأقدار أن تكون من قوم يكنون له العداء ثم يصف الحبيبة وصفاً حسياً فيرسم لها صورة تشبه صورة عشتار البابلية آلهة الخصب ، وينتقل بعدد من الأبيات من لغة الحب إلى الغرض الرئيس للمعلقة فكأنه يتوعدّ عدوّه ويذكره بصولاته وقومه في الحروب ، ثم يغلي الغضب في عروقه فيذكر أمجاده واحداً بعد آخر ليصل إلى

(20) زيدان ، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية 107/1 وبعدها .

قرار اعتبره الدارسون غاية في العتو والغطرسة ، وحق للدارسين أن يعبّروا عن قراءاتهم الخاصة للمعلقة ، ولكن علينا أن نتذكر أن الشاعر لم يكن مخاطباً رجلاً اعتيادياً ، ولو خاطب رجلاً اعتيادياً لنالنا شيء من غطرسته فنحن لسنا الآخرين بالنسبة إلى الشاعر ، وهو لا يعني الناس كل الناس بقوله (غيرنا) ، وإنما يعني تحديداً الملك الذي أراد إذلاله لا لشيء إلا لأن الشاعر ذو كبرياء واحترام لنفسه ، فالشاعر هنا يتغطرس على المتغطرس ويعلو على المقام العالي .. فهو (الشاعر) جدير وفق آليات تحليل النص باحترامنا لأنفته وتحديه للسلطة والقهر .. وهذا لا يعني خلو معلقته من الإفراط في الفخر .. ففي المعلقة إفراط باد في العتو والفخر .. ولنا أن نتذكر مرة أخرى أن هذه المعلقة تشبه إعلام الحرب في زماننا هذا .. تشبه أناشيد المعركة !! ومع ذلك فثمة إنصاف لم تخل منه المعلقة وهو قوله :

كأن سيوفنا فينا وفيهم مخاريق بأيدي لاعبينا

وفي المعلقة إلى هذا توصيف دقيق لطرائق العرب في جعل المعلقين يصمدون في الحرب .. ومن هذه الطرائق أن قائد المعركة يجعل نساء المقاتلين خلفهم فإذا خسر المقاتلون الحرب خسروا شرفهم في نسائهم أيضاً ، فهم يقاتلون من أجل النصر في الحرب مرة ومن أجل الحفاظ على شرف النساء مرات .. وآه لو كانت حروب الجاهلين من أجل قضية تستحق الحرب ، لو كانت حروبهم ضد عدوهم المشترك الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية الفارسية .. ولكن وياللأسف كانت الحروب الطاحنة تدور بين الإخوة وأولاد العم .. ولهذا جاء الدين الإسلامي ليوحّد العرب ويوعيّهم بالخطر الأكيد ويجمعهم على حلم الحرية والأمن والعدالة !!

☆ معلقة (ألا هبيّ) . البحر الوافر . القافية ن . عدد الأبيات : التبريزي : 96 . الشنقيطي 106

1- ألا هبيّ بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور الأندرينا

2- مشعشعة كأن الحصّ فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا

3- تجور بذي اللبانة عن هواه ... إذا ما ذاقها حتى يلينا

4- ترى اللحز الشحيح إذا أُمِرّت ... عليه لماله فيها مهينا

5- صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا

6- وما شرّ الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

7- وإنا سوفَ تُدركنا المنايا ... مقدّرةً لنا ومقدّرينا

8- قفي قبل التفرّق يا ظعينا ... نخبّرك اليقينَ وتخبرينا

9- قفي نسألكِ هل أحدثتِ صرْماً ... لوشْك البينِ أم خنتِ الأمينا

10- بيوم كريهةٍ ضرْباً وطعناً ... أقرّ به مواليك العيونا

11- تريك إذا دخلتَ على خلاء ... وقدْ أمِنت عيونَ الكاشحينا

12- ذراعي عيطل أدماء بِكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا

13- وثدياً مثل حَقّ العاج رخصاً ... حصاناً من أكفّ اللامسينا

14- ومتني لدنةٍ سمعت ولانت ... روادفُها تنوء بما يلينا

15- ومأكمةٍ يضيق الباب عنها ... وكشحاً قد جننت به جنونا

16- وساريتي بلنط أو رخام ... يَرِنُّ خُشاشُ حليهما رنينا

17- فما وجدت كوجدي أمُّ سقب ... أضلّته فرجعتِ الحنينا

18- ولا شمطاء لم يترك شقاها ... لها من تسعة إلا جنينا

19- تذكرتُ الصّبا واشتقت لما ... رأيتُ حمولها أُصُلاً حُدينا

20- فأعرضت اليمامةُ واشمخرت ... كأسياف بأيدي مصلتينا

21- وإن غداً وإن اليومَ رهْن ... وبعد غد بما لا تعلمينا

22- أبـا هنـد فـلا تعجـل علينـا | وأنظِرنـا نخبّرك اليقينـا
23- بـأنـا نـورد الرايـات بيضـاً | ونصـدرهنّ حُمْراً قـد روينـا
24- وأيـام لنـا غرٍ طـوال | عَصَينـا الملـكَ فيهـا أن نـدينـا
25- وسيّـدِ معشر قـد تـوجـوه | بتـاج الملـك يحمي المحجرينـا
26- تركنـا الخيـل عـاكفـة عليـه | مقلّـدةً إعنتَهـا صفـونـا
27- وقـد هرّت كـلابُ الحيّ منّـا | وشـذّبنـا قتـادة من يلينـا
28- متى ننقـل إلى قـوم رحـانـا | يكـونـوا في اللقـاء لهـا طحينـا
29- يكـونُ ثفـالُهـا شرقيّ نجـد | ولهـوتُهـا قضـاعـة أجمعينـا
30- نـزلتم منزل الأضيـاف منـا | فـأعجلنـا القِرى أن تشتمـونـا
31- قرينـاكم فعجلنـا قراكم | قبيـل الصبـح مرداة طحـونـا
32- نعمّ أنـاسنـا ونعفّ عنهم | ونحمـل عنهم مـا حمّلـونـا
33- نطـاعن مـا تراخى النـاسُ عنّـا | ونضربُ بـالسيـوف إذا غشينـا
34- بسُمرٍ من قنـا الخطيّ لُـدن | ذوابـلَ أو بيض يعتلينـا
35- نشـقّ بهـا رؤوسَ القـوم شقـاً | ونخليهـا الرقـاب فيختلينـا
36- كأن جمـاجمَ الأبطـالِ فيهـا | وَسُوقٌ بـالأمـاعـز يرتمينـا
37- وإن الضغن بعـد الضغن يفشـو | عليـك ويُخرج الـداء الـدفينـا
38- ورثنـا المجـد قـد علمت معـد | نطـاعن دونـه حتى يبينـا
39- ونحن إذا عمـاد الحي خرّت | على الأحفـاض نمنـع من يلينـا
40- نجـذّ رؤوسهم في غير برّ | فمـا يـدرون مـاذا يتقـونـا
41- كأن سيـوفنـا فينـا وفيهم | مخـاريـق بـأيـدي لاعبينـا
42- كأن ثيـابنـا منـا ومنهم | خضبن بـأُرجـوان أو طلينـا
43- إذا مـا عيّ بـالإسنـاف حيٌّ | من الهـول المشبّـه أن يكـونـا
44- نصبنـا مثـل رهـوة ذات حَـدٍّ | محـافظـة وكنـا السـابقينـا

45- بفتيـــانٍ يرون القتــل مجــداً وشيب في الحروب مجربينـــــــا
46- حُـديّــا النـــاس كلهم جميعــاً مقـــارعـــةً بنيهم عن بنينـــا
47- فـــأمـــا يـــوم خشيتنـــا عليهم فنمعنُ غـــــارةً متلببينــــــا
48- وأمـــــا يـــــومَ لا نخشى عليهم فنصبــحُ في مجـــالسنـــا تبينـــا
49- برأسٍ من بني جُشم بن بكر نـــدقّ بـــه السهـــولـــةَ والحُـــزونـــا
50- ألا لا يعلمُ الأقـــــوامُ أنّـــــا تضعضعنـــا وأنـــا قـــد ونينـــا
51- ألا لا يجهلنْ أحـــــدٌ علينـــــا فنجهـل فـوق جهْـل الجـاهلينـا
52- بـــأي مشيئـــة عمرو بن هنـــد نكـون لقيلكم فيهـــا قطينـــا
53- بـــأيّ مشيئـــة عمرو بن هنـــد تطيـع بنـا الـوشـاة وتـزدرينـا
54- تهـددنـا وتـوعـدنـا رويـداً متى كنّـــا لأُمّـــك مقتـوينـا
55- فـــإن قنـــاتنـــا يـــا عمرو أعيت على الأعـــداء قبلـــك أن تلينـــا
56- إذا عضّ الثِقـــافُ بهـــا اشمأزت وولتهم عشــوزنـــــةً زبــونـــا
57- عشـــوزنـــــةً إذا انقلبت أرنّت تشـجُّ قفـــا المثقّف والجبينـــا
58- فهــل حــدّثت في جُشمٍ بن بكر بنقص في خطـــوب الأولينــــا
59- ورثنـــا مجــد علقمـــة بن سيف أبـــاح لنـــا حصـون المجـد دينـــا
60- ورثتُ مهلهـــلاً والخيرَ مِنـــــه زهيراً نعم ذُخْرُ الـــــذاخرينـــا
61- وعتّـــابـــاً وكلثـومـــاً جميعـــاً بهم نلنـــا تراث الأكرمينـــــا
62- وذا البُرةِ الــذي حُــدّثت عنـــه بــــه نُحمي ونحمي الملجئينــــا
63- ومِنّـــا قبلـــه الســـاعي كليبٌ فـــأيُّ المجــد إلا قـــد ولينـــا
64- متى نعقـــد قرينتنـــا بحبـــل نَجُــذّ الـوصَـلَ أو نقِصُ القرينـا
65- ونـوجَـــدُ نحن أمْنَعَهمْ ذمـــاراً وأوفـــاهم إذا عقـــدوا يمينـــا
66- ونحن غـــداة أُقـــدَ في خـــزازٍ رفـدْنـا فـوق رفْـد الرافـدينـا
67- ونحن الحـــابسـون بـــذي أراطي تسفُّ الجلـةُ الخـورَ الـــدرينـــا

68- ونحن الحاكمونَ إذا أُطِعنا ... ونحن العازمون إذا عصينا

69- ونحن التاركون لما سخطنا ... ونحن الآخذونَ لما رضينا

70- وكنا الأيمنين إذا التقينا ... وكان الأيسرين بنو أبينا

71- فصالوا صولة فيمن يليهم ... وصلنا صولة فيمن يلينا

72- فآبوا بالنهابِ وبالسبايا ... وأُبنا بالملوكِ مصفّدينا

73- إليكم يا بني بَكْر إليكم ... ألّما تعرفوا منّا اليقينا

74- ألما تعرفوا منا ومنكم ... كتائب يطّعِنَّ ويرتمينا

75- علينا البَيضُ واليَلبُ اليماني ... وأسيافٌ يقُمنَ وينحنينا

76- علينا كلُّ سابغةٍ دلاصٍ ... ترى فوق النجادِ لها غضونا

78- إذا وُضِعتْ عن الأبطال يوماً ... رأيتَ لها جُلودَ القومِ جُونا

79- كأن متونَهن متونُ غُدْر ... تُصفّقُها الرّياحُ إذا جُرينا

80- وتحملُنا غداةَ الروع جُرْدٌ ... عُرِفْن لنا نقائذَ وافتُلينا

81- وردْنَ دوارعاً وخرجنَ شُعْثاً ... كأمثالِ الرصائعِ قد بلينا

82- ورثناهنّ عن آباء صِدْقٍ ... ونورثُها إذا مُتنا بنينا

83- على آثارنا بيضٌ حسان ... نحاذِرُ أن تُقَسّمَ أو تهونا

84- أخذن على بعولتهنّ عهداً ... إذا لاقوا كتائب مُعلمينا

85- لتَسْتَلِبُنّ أفراساً وبيضاً ... وأسرى في الحديد مقرنينا

86- ترانا بارزين وكلُّ حيٍّ ... قد اتخذوا مخافتنا قرينا

87- إذا ما رحْنَ يمشين الهوينا ... كما اضطربت متون الشاربينا

88- يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

89- إذا لم نحمهن فلا بقينا ... لشيء بعدهنّ ولا حيينا

90- وما منعَ الظعائنَ مثلُ ضرب ... ترى منه السواعدَ كالقُلينا

91- كأنا والسيوف مسلّلاتٌ ... ولدنا الناس طرّاً أجمعينا

92- يـدهــدون الرؤوس كما تُهـدي حـزاورةً بـأبطحهـا الكُرينـا

93- وقـد علم القبـائـل من معـدٍّ إذا قبتٌ بـأبطحهـا بنينـا

94- بـأنـا المطعمـون إذا قـدرنـا وأنـا المهلكـون إذا ابتلينـا

95- وأنـا المـانعـون لمـا أردنـا وأنـا النـازلـون بحيث شينـا

96- وأنـا العـاصمـون إذا أُطِعنـا وأنـا العـارمـونَ إذا عُصينـا

97- ونشرب إذ وردنـا المـاء صفـواً ويشربُ غيرُنـا كـدراً وطينـا

98- ألا أبلـغ بني الطّماحِ عنّـا ودعْميـاً فكيف وجـدتمـونـا

99- إذا مـا المَلْكُ سامَ النـاسَ خَسْفـاً أبينـا أن نقرّ الـذلّ فينـا

100- لنـا الـدنيـا ومَن أمسى عليهـا ونبطش حين نبطش قـادرينـا

101- بغـاةً ظـالمينَ ومـا ظُلمنـا ولكنّـا سنبـدأ ظـالمينـا

102- مـلأنـا البرّ حتى ضـاق عنـا وظهر البحرِ نملـؤه سفينـا

103- إذا بلـغَ الرضيـعُ لنـا فطـامـاً تخرُّ لـه الجبـابرُ سـاجـدينـا

معاني الكلمات :

1 ـ ألا : حرف تنبيه واستفتاح . هبّي : قومي من نومك . الصحن : القدح الواسع الضّخم . الصبوح : شرب الغداة والصباح . الأندرين قرية بالشام .

2 ـ المشعشعة : الرقيقة من العصر والمزج . الحص هو الورس ضرب من الورد ولونه أصفر وزعم أن الحص هو الزعفران . سخينا : كانوا يسخنون لها الماء في الشتاء ثم يمزجونها به .

3 ـ تجور : تعدل . اللبانة : الحاجة . الهوى : الرغبة والحاجة .

4 ـ اللحز : البخيل اللئيم . الشحيح : المقل المُعِسر في العطاء . أمرّت : أديرت أو قدّمت . المهين لماله : السخي .

5 ـ زعم أن هذين البيتين (6/5) لعمرو ابن أخت جذيمة الأبرش وذلك لما وجده مالك وعقيل في البرية وكانا يشربان وأم عمرو التي صدّت عنه الكأس ، لأنها لم تعرف حقيقته ! فلما قال هذين البيتين سقياه وحملاه إلى خاله جذيمة ! هذا ما حكاه التبريزي .

7 ـ المنايا : الأقدار .. أي أصبحينا قبل حضور الأجل فإن الموت مقدّر لنا ونحن مقدّرون له .

8 ـ ياظعينا : المرأة في الهودج .

9 ـ الصّرم : القطع . وشك البين : سرعته والمعنى : هل أحدثت قطيعة لقرب الفراق وجعل ما تخبره به خيانة ، وجعل نفسه أمينا يحفظ السّر ، إذا لم تتغير عواطفه نحوها ، رغم الحروب التي كانت بين أهله وأهلها .

10 ـ الكريهة : اسم لشدة البأس في الحرب . الموالي : العصبة والقوم .

11 ـ تريك : تريني (علي سبيل التفريع البلاغي) . الكاشح : المبغِض الذي يضمر العداوة في كشحه والكشح : الجنب . الخلاء : مكان خال من الرقباء .

12 ـ عيطل : طويلة قامة وعنقاً . الأدماء : البيضاء : البكر : التي لم تلد . الهجان : المتزوّجة قبل سن البلوغ . لم تقرأ جنيناً : لم تلد .

13 ـ الحق : ما ينحت من الخشب أو العاج والفضة . الرخص : اللين . الحصان : العفيفة التي تحصنت من الريب . اللامسين : أهل الريبة !

14 ـ اللدنة : اللينة . تنوء : تنهض بمشقة . المتن : الجانبُ الصلب .

15 ـ المأكمة : الكفل . الكشح : ما بين الخاصرة والضلوع .

16 ـ البلنط : حجر مثل الرخام إلا أنه دونه في الهشاشة واللين والرخاوة . السارية عمود من الخشب ينصب عليه الشراع أو العلم وقوله (وساريتي ..) استعارة تصريحية لمشبه محذوف هو (الساقان !!).

17 ـ أم سقب : الناقة . السقب : ولدها الذكر . أضلّته : أضاعته . رجّعت : رددت . وجدت : حزنت .

18 ـ الشمطاء : المرأة التي ابيضّ شعر رأسها والمعنى : إن حزني على الحبيبة أكبر من حزن ناقة ضيعت صغيرها وأكبر من حزن امرأة أجنّت (دفنت) أولادها التسعة !! .

19 ـ الحمول : الإبل التي يحمل عليها الأثقال . الأصل : مفردها أصيل : وهو حين تصفر الشمس وتحمّر لمغربها . حدينا : أمرت بالانطلاق ، والحادي هو الذي يغنّي للإبل ، ثم صار المعنى هو الذي يقود الإبل !

20 ـ أعرضت : بدت . اشمخرت : طالت . المصلت : الشاهر سيفه .

24 ـ ندين : نخضع .

25 ـ المحجرون : الذين ألجئوا إلى المضيق والمحجور الذي لا يستطيع مغادرة مكانه .

26 ـ عاكفة : مقيمة . الصفون مفردها صافن وهو القائم أو الذي رفع إحدى قوائمه بسبب التعب . مقلّدة أعنتها : شدّت على رقابها الأعنة ومقلّدة من جعل الشيء مثل القلادة !

27 ـ هرّ الكلب : لم يستطع النباح فأخرج صوت المقرور أو المذعور ، وقوله : هرّت كلاب الحيّ منا ، كناية عن خضوع كل الحي لنا بشراً وكلاباً . شذّبنا : التشذيب قطع الأغصان والتخلّص من عقدها وشوكها . القتادة : شجرة لها شوك . من يلينا : من يريد حربنا أو يقترب منا ! وقوله : وشذبنا قتادة من يلينا ، كناية عن تفريق قوم الشاعر لجموع الأعداء فصاروا مثل شجرة بلا أغصان ولا أشواك .

29 ـ الثفال : جلدة أو خرقة تجعل تحت الرحى يسقط عليه الطحين . اللهوة : قبضة من الحبوب تلقى في فم الرحى . والمعنى : إن كيدنا وحربنا تشبه الرحى ، وهذه الرحى تستوعب هذا الموضع العظيم ، وتهلك هذا الحي الكبير ، فيكون بمنزلة هذه القبضة التي تلقى في فم الرحى إشارة إلى هلاكهم .

30 ـ القِرى : إكرام الضيف والقِرى هنا على سبيل الكناية !

33 ـ تراخى : تباعد . غُشينا : دنا بعضنا من بعض .

34 ـ السمر من القنا : أجودها . لدن : ليّن . ذوابل : فيها بعض اليبس . يعتلين : يعلون رؤوسهم .

35 ـ نخليها الرقاب : نجعل الرقاب لها كالخلاء والخلى الرطب من النبات واحدتها خلاة . والخلاة هنا موضع السيوف وزعم أن الشاعر أراد بـ (نخليها .. فيختلينا) أن السيوف سريعة في قطع الرقاب كما هي سريعة في قطع الحشيس .

36 ـ الوسوق مفردها وسق وهو الحمل . الأماعز مفردها أمعز : الأرض الصلبة الكثيرة الحصى .

39 ـ العماد مفردها عمود . الأحفاض مفردها حفض وهو متاع البيت ، ويسمى البصير الذي يحمل المتاع حفضاً . يلينا : يجاورنا ، يوالينا ، يحالفنا . نمنع : نحمي والمعنى أن الأعمدة حين تسقط على المتاع فهذا التعبير كناية عن الرحيل والرحيل لا يكون إلا في الخوف أو الانتجاع ، ونحن نكفيهم ذلك فأعمدتهم لن تسقط فلا خوف عليهم ولا حاجة لطعام .

40 ـ نجـذ : نقطـع . غير برّ : بـلاشفقـة ويروى : (نجـز) ، أي نجز نـواصيهم كما يفْعـل بالأسرى ،.. أي إننا نقطع الرؤوس في نسك .. ولا يريـدون أن يتقربوا إلى الله بهـا كما يتقرّبون في النسك عند المناسبات الدينية !! يتقي : يدفع .

41 ـ المخاريق واحدها مخراق وهو الكرة المصنوعة من الخرق المفتولة يلعب بها الصبيـان في العصر الجاهلي وزعم أن المخاريق عصي ملفوفة بالخرق تشبه السيوف يلعب بهـا الأطفـال ! والبيتـان (41 ـ 42) فيهما اعتراف بقوة العدو وسطوته وقد أطلقت العرب على القصـائـد التي يعترف فيهـا الشعراء بأعدائهم (المنصفات) .

42 ـ الأرجوان : صبغ أحمر .

43 ـ الأسنـاف : التقـدّم في الحروب وأنسف البعير إذا قـدّم عنقـه ليتقـدّم في السير والفرس المسنف : إذا كانت تتقـدم الخيـل . عيّ : العيّ العجـز والتعب لهـول الحرب . المشبـه : أن يشتبـه الأمر عليهم ، فلا يدرون كيف يتوجهون له ؟

44 ـ الرهـوة : أعلى الجبـل . ذات حـد : كتيبـة ذات بـأس ومعنى البيتين (43 ـ 44) إذا أحجم الناس عن التقدّم إلى الحرب فنحن لها فنشبها حرباً تعلو الجميع مثل قمة الجبل .

46 ـ حديّا الناس : فوق الناس والحديّ : الغاية ، وحدياً : أحدو النـاس أسوقهم إلى الحرب وحُديّا تصغير حدوي . مقارعة : مقاتلة .

47 ـ التلبب : التحزّم بالسلاح . نمعن : نندفع ونتمادى .

48 ـ نصيح : متيقظين مستعدين . والثبون : الجماعة وثبون وثبين مثل سنون وسنين .

49 ـ الرأس : الحي العظيم أو الرجل العظيم والمعنى أنا ندّق بهذا الرأس كلّ صعب وليّن .

50 ـ تضعضعنا : ضعفنا . ونينا : أبطأنا وفترت قوتنا .

(52+53) المشيئة : القوة والإرادة . الوشاة : مفردها واش وهو الجاسوس وناقل الخبر دون رضاء صاحب الخبر وعلمه . زريت : عبت . القيل : العبيد والخدم . القطين : المقيم .

54 ـ الوعد : في الخير والشر . قال الأزهري تقول العرب وعدت الرجل خيراً ووعدتـه شراً ، وأوعدته خيراً وأوعدته شراً فإذا لم يذكروا الخير قالوا وعدته وإذا لم يذكروا الشر قالوا أوعدتـه نظير قول عامر بن الطفيل :

وإني إذا أوعـدتـه ووعـدتـه   لأخلف إيعـادي وأنجز موعـدي !

مَقْتوينا : بفتح الميم والقتو : الخدمة ثم اختصت بخدمة الملوك .

55 ـ القناة : الرمح (كناية عن الأصل والمنعة والعزة) .

56 ـ الثقاف : تقويم الرمح وتعديله . اشمأزت : نفرت وتقززت . عشوزنة : صلبة شديدة . الزبون مفردها زبن وهو الدفع . والزبانية : الأشداء وسموا زبانية ، لأنهم يعملون بأرجلهم كما يعملون بأيديهم .

57 ـ أرنت : صوتت وشجّت قفا من يثقفها .

58 ـ يخاطب عمرو بن هند : هل سمعت أن أحداً اضطهدنا في قديم الزمان . الخطوب مفردها خطب وهو الأمر .

59 ـ الدين : الطاعة . علقمة بن سيف : زعيم قديم من زعماء قوم الشاعر التغلبيين . أباح الحصون : فتحها واستولى عليها وتركها مباحة لنا وتنقل الأخبار أن علقمة بن سيف هو الذي أنزل بني تغلب الجزيرة .

60 ـ مهلهل : صاحب حرب وائل أربعين سنة وهو جد عمرو بن كلثوم من قبل أمه فهو سبطه ، وزهير جده من قبل أبيه فهو حفيده . الذخر : الشيء المهم المخبأ لوقت الحاجة وفي البيت إشارة ضمنية إلى حرب البسوس التي جعلها مهلهل ثأراً لمقتل أخيه كليب وهي حرب (داخلية) بين بكر وتغلب ابني وائل !! .

61 ـ التراث : ما يخلفه الإنسان لمن يخلفه .

62 ـ ذو البُرة : رجل تغلبي وسمّي ذا البرة لظهور شعر كثيف خشن على منخريه والبرة حلقة في أنف البعير ، بروت البعير وأبريته جعلت في أنفه برة ! الملجئون : الذين يطلبون حمايتنا .

63 ـ الساعي : الرجل الهميم .

64 ـ القرينة : التي تقرن إلى غيرها والمعنى متى نقرن إلى غيرنا بأي حبل مكان .. فإننا نقطع الحبل وندق عنق القرين إذ ليس لنا قرين وأصل القرينة الناقة والجمل تكون فيها خشونة فيربط أحدهما إلى الآخر حتى يلين أحدهما .

65 ـ الذمار : حريم الرجل وما يتوجب على الرجل أن يحميه .

66 ـ خزازى : جبل أو موضع . رفدنا : أعطينا والمعنى إذا أوقدت الحرب في خزاز كنا الوحيدين في الإعانة والعطاء ..

67 ـ أراطي : مكان وقيل ماء . الجلة : العظام من الإبل . الخور : الغِزار الكثيرة الألبان والمفرد خوراء وخوارة . تسفّ : تأكل . الدرين : حشيش يابس قديم قلما تنتفع به الإبل .

70 ـ العرب تتفاءل باليمين وتتشاءم باليسار ! الأيمنين : أصحاب الميمنة فهم المتقدمون والمقدمون وأصحاب المشأمة وهم المتأخرون والمؤخرون والمعنى كنا في الحرب على الميمنة ، وكان بنو عمنا في الميسرة .

71 ـ صال : ارتفع على والمقصود غزا والصولة الهجوم .

72 ـ آبوا : رجعوا . النهاب : مفردها النهب : الغنيمة . السبايا مفردها سبية : المرأة المنهوبة . الأصفاد : الأغلال الواحد صفد أي حين انتصرنا لم نلتفت إلى الغنائم من أسلاب وسبايا فجعلنا (من باب السخرية) غنيمة أعدائنا النهب والسبي الذي وقع عليهم ! أما غنيمتنا فهم الملوك الذين وضعنا الأغلال والحديد في أيديهم وأعناقهم .

73 ـ إليكم : ابعدوا عنا إلى أقصى ما يكون من البعد . اليقين : الجد .

74 ـ الكتيبة من الكتب وهو اقتراب الأبعاض فيما بينها وجمع الشيئين وسميت الكتيبة لأنها تكتبت فاجتمعت والكتاب معناه أنه يجمع حرفاً إلى حرف وكلمة إلى كلمة . يطّعنّ : تتطاعن فيما بينها . يرتمينا : من الترامى فيما بين الكتائب ويمكن اعتداد هذا البيت ضمن الأبيات (المنصفات) ونضمّه إلى البيتين (41+42) .

75 ـ البيض مفردها بيضة وهي الحديد الذي يقي الرأس . اليلب : الدرع وقيل الديباج وقيل ترسة تصنع في اليمن من جلود الإبل وقيل اليلب جلود يخرز بعضها إلى بعض وتلبس تحت الدروع .

76 ـ السابغة : التامة من الدروع . الدلاص : اللينة أو الملساء التي تزل عنها السيوف . النجاد : حمائل السيف . الغضون : التكسّر .

78 ـ الجون : السُّود أي تسوّد جلودهم من صدأ الحديد .

79 ـ المتون : الأوساط . الغُدر : جمع غدير فشبّه الدروع في صفائها بالماء في الغدير وربما شبه تشنج الدروع بالماء في الغدير إذا لامست سطحه الرياح فصارت له طرائق ! وقوله : جَرَيْنا سناد لأن الياء إذا انفتح ما قبلها لا تلين فقوله جرينا مع أندرينا عيب الشعر والسناد : المخالفة بين الحركات التي تلي الإرداف في الروي .

80 ـ الأجرد من الخيل : القصير الشعر الكريم وطول الشعر هجنة . نقائذ مفردتها نقيذة والنقائذ ما استنقذت من قوم آخرين . الروع : القتال المروّع . افتلينا : اشتد عصبنا واندمجنا وقوينا .

83 ـ بيض كرام : نساؤنا . على آثارنا : خلفنا .

84 ـ البعل : الزوج وأصله في اللغة ما علا وارتفع ومنه قيل للسيد بعلاً ... والزرع الذي يروى بالمطر بعل أو بعلي.

87 ـ أي : إذا ما راحت النساء يمشين الهوينا (لا يعجلن في مشيهن) كما اضطربت متون الشاربينا أي يتثنين في مشيهن ويتمايلن كما يفعل السكارى وصف الصورة كناية عن نعمة النساء .

88 ـ يقتن : يقدمن العلف للجياد ، وكان الفارس لا يرضى أن يقوم الخدم بقوت الفرس . فإما أن يقدم القوت بنفسه لفرسه أو يكلف أهله بتقديمه .

90 ـ القلون مفردها قلة وهي الخشبة التي يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاة وهي أطول من القلة .

92 ـ يدهرون : يدحرجون . الحزاورة مفردها الحزور : الغلام الذي شبّ وقوي . البطحاء : بطن الوادي أو المكان المتسع الذي يمرّ به السيل . الكران العود أو الصنج وربما أراد بكرين الكرات !!

94 ـ ابتلينا : امتحنا واعتدي علينا .

95 ـ شينا : لغة في شئنا . العاصمون : الذين يمنعون من اعتصم بهم ولاذ . العارمون : الأشداء الذين لا يقدر علينا أحد .

99 ـ الخسف : الظلم والنقصان .

7 ـ الحارث بن حِلّزة اليشكري

هو الحارث بن حلّزة بن مكروه ، ويصل نسبه الكريم إلى جشم بن ذبيان بن كنانة بن يشكر بن وائل بن قاسط وينتهي عند جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (الجمحي ص85 ، الأصبهاني 171/9 والتبريزي ص249 والشنقيطي ص99) وقد اشتهر بمعلقته التي نال بها مجداً وبات الحارث مثلاً في الفخر حتى قالت العرب : « أفخر من الحارث بن حلزة » . وقيل : إنه ارتجلها في حكاية مشهورة جمعت بينه وبين عمرو بن كلثوم في بلاط ملك الحيرة عمرو بن هند ، وكانت أم الملك مولهة بالشعر وحين سمعت إنشاد الحارث أعجبت بشعره أشد العجب ، وقالت : (تالله ما رأيت ولا سمعت كاليوم قط رجلاً يقول مثل هذا القول) .

والسبب الذي دعا الحارث إلى ارتجال معلقته أن عمرو بن هند ملك الحيرة المعروف بجبروته وعدوانيته قرر إجراء الصلح بين بكر وتغلب ابني وائل ، فاستجاب الحيان لقراره ، بيد أنه (الملك) خشي أن ينقض أحد الحيين الصلح ، فتزول هيبته بين العرب فأخذ من كل حيّ رهينة قوامها مئة غلام ليكفّ بعضهم عن بعض ، وقد تصرّف الملك بالرهائن وهم أمانة في عنقه ، فكانوا معه في مسيره وغزوه ، ولم يكتف بذلك فقد أرسل ركباً من بني تغلب إلى جبل طيء في شأن من شؤونه الخاصة فنزل الرهائن التغالبة في منطقة الطرفة المحمية من قبل بني شيبان وتيم اللات فطُردوا من الطرفة ومنعوا عنهم الماء ، وأرسلوهم في الصحراء فمات الرهائن التغلبيون عطشاً (الأغاني 171/9) .

يقول التبريزي في شرح القصائد العشر ص 251 : (وكان عمرو بن هند شريراً !!) وقد غضبت تغلب غضباً شديداً ، ولم يعبأ عمرو بن هند بما جرّه سوء

تصرفه على بعض رهائن تميم ، فما إن كسرت كندة الخراج على مملكته حتى بعث إليهم البعض الآخر من الرهائن التغلبيين ليستحصلوا من كندة الأموال فَقَتلتهم كندة !! وكان الملك قد بعث الرهائن وممثلي الحيين في أول الأمر إلى مكة ليتعاهدوا في الكعبة على أن لا تبقى في نفوس المتعاهدين غائلة أو رغبة في الانتقام ففعلوا ، ثم قال الملك للمتعاهدين : « أي رجل وجد قتيلاً في دار قوم فهم ضامنون لدمه ، وإن وجد بين القتيل بين المحلتين ، قيس ما بينهما فينظر أقربهما إليه فتضمن ذلك القتيل » . فرضي الطرفان ، ثم إن الأحياء من رهائن تغلب اقتيدوا مع الملك في واحدة من حروبه فأصيبوا . والغريب حقاً أن يتصرّف عمرو بن هند مع التغلبيين على هذا النحو من السوء وهو الذي يميل إليهم ويفضلهم على بكر !! فما كان من التغلبيين إلا أن ذهبوا إلى البكريين وطالبوهم بديات الرهائن فأبت بكر بن وائل !! فاجتمعت تغلب إلى عمرو بن كلثوم وأخبروه بالظلم الذي حاق برهائنهم وتوقع عمرو بن كلثوم أن يكون (للأحمر الأصلخ الأصم من بني يشكر) يد في ذلك ، وقد صدق توقعه إذ مثل بكراً النعمان بن هرم اليشكري وهو على الصفة التي ذكرها عمرو بن كلثوم ، وحين اجتمع عمرو بن كلثوم والنعمان اليشكري عند الملك لم يتمالك عمرو بن كلثوم مشاعره فنافر النعمان قائلاً : « يا أصم جاءت بك أولاد ثعلبة تناضل عنهم ، وهم يفخرون عليك » . فقال النعمان : « يفخرون عليّ وعلى من أظلت السماء كلها ، يفخرون ولا ينكر عليهم أحد ذلك » . فقال ابن كلثوم : « أما والله لو لطمتك لطمة ما أخذوا لك بها » فقال النعمان : « والله لو فعلت ما ادّعيت ، لما أفلتت بها قيس فحولة أبيك » . فغضب الملك عمرو بن هند ، وكان يؤثر بني تغلب على بكر ، فأراد الانتقاص من عتو النعمان اليشكري فطلب إلى مغنية كانت في مجلسه ، أن تكلم اليشكري بلسان أنثى شبيه بلسان اليشكري !! فقال النعمان وقد نسي أنه يخاطب الملك : « أيها الملك اعطِ أمرك أجبّ أهلك إليك » . فغضب الملك من اليشكري وتصابر عليه وعابثه مغتاضاً قائلاً : يا نعمان أيسرّك أني أبوك فقال لا ولكن وددت أنك أمي . فندم الملك على معابثته ،

وغضب غضباً شديداً حتى هم بقتل النعمان في مجلسه ، فأدرك الحارث بن حلزة اليشكري وكان حاضراً حراجة الموقف الذي أضحى فيه قومه . فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً .. وكان من شدة تأثر الشاعر بموقفه الصعب وانشغاله بارتجال قصيدة تشفع لقومه أن توكأ على قوسه وهو ينشد فاقتطم القوس كفه وهو لا يشعر من الغضب حتى فرغ منها !! وروي عن أجواء ارتجال المعلقة خبر آخر ، هو أن الشاعر قال لقومه : إني قد قلت خطبة فمن ألقاها عني ظفر بحجته ، وفلج على خصمه ، ولقّنها أناساً منهم فلما مثلوا بين يدي الملك وأنشدوها لم يرق له إنشادهم وأعجب بالقصيدة ، فقال الحارث إني لا أرى أحداً يقوم بإنشادها مقامي لكنني أكره أن أنشد قصيدتي من وراء سبعة ستور كما أكره أن يغسل أثري بالماء إذا انصرفت عنه ، وكان الملك يفعل ذلك لعظم سلطانه ولا يجمعه مجلس مباشر بأي شاعر فيه برص ... ثم تنازل الحارث عن تردده ورضي احتمال ذلك لخوفه على قومه من بطش الملك الذي استفزه النعمان اليشكري ! ثم قيل للملك : إن بالشاعر برصاً فأمر أن تحجز بينه وبين الحارث سبعة ستور وكان عمرو بن كلثوم حاضراً فسرّه ذلك واستهزأ بالحارث ، وقال للملك : أهذا يناطقني وهو الذي تطيقه راحلته ، فقال له الملك : انتظر حتى أفحمه ! وكان الحارث يصغي لحوار ابن كلثوم مع ابن هند ... فأنشد قصيدته :

آذنتنا ببينها أسماء   ربَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثواء

وكانت هند أم عمرو كما ألمحنا سابقاً مولهة بالشعر ، وتعطي الجوائز للشعراء ، وحين سمعته ينشد قالت تالله ما رأيت ولا سمعت كاليوم قطّ شاعراً يقول مثل هذا القول ، وينشد من وراء سبعة ستور فقال الملك ارفعوا ستراً واحداً وقرّبوا موقف الشاعر فلم يزل عمرو يقول أدنوه أدنوه حتى أمر بطرح جميع الستر وأقعده بجانبه ، وبالغ في إكرامه وأكل معه في جفنة واحدة وأمر أن لا ينضح أثره بالماء ثم جزّ نواصي رهائن بكر ودفعهم إلى الحارث إكراماً له ، ثم أمره أن لا ينشد قصيدته (إلا متوضئاً !!) ولم تزل تلك النواصي في بني بكر يفتخرون بها وبشاعرهم وكان أبو عمرو

الشيباني يعجب لارتجال هذه القصيدة في موقف واحد ويقول : « لو قالها الحارث في حول لم يلم » . وقد جمع منها الشاعر ذكر عدة أيام من حروب العرب عرّض في بعضها ببني تغلب وعيّرهم صراحة كما عرض بعمرو بن هند ! وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو من المعمرين مات وله مئة وخمسون سنة (الشنقيطي 98) .

وذكر الأصبهاني 171/9 أن الحارث بن حلزة لما ارتجل هذه القصيدة بين يدي عمرو بن هند قام عمرو بن كلثوم فارتجل معلقته !! وقد أفاض الأصبهاني في خبر الحارث وقومه وقصيدته ، بل وذهب إلى أكثر من ذلك ، حين نجّم بعض أبيات القصيدة ليحلل إشاراتها ويذكر دلالاتها ويقابلها بالأسماء والأيام والأحداث !! ومن الملفت للانتباه أن الجمحي جعل الحارث في الطبقة السادسة وحشر معه عمرو بن كلثوم وعنترة وسويد بن أبي كاهل (ص85) وأن القرشي لم يشر إليه في جمهرة أشعار العرب كما أن ابن قتيبة لم يول الحارث مقداره من الأهمية ، فخصص له نصف صفحة على أنه انفرد بخبرين هما :

1 ـ أقوى الحارث بن حلزة في قصيدته التي ارتجلها ولن يضرّ ذلك في هذه القصيدة لأنه ارتجلها فكانت كالخطبة .. أما البيت فهو :

فملكنا بذلك الناس إذْما ملكَ المنذرُ بن ماءِ السماءِ

2 ـ وكان الحارث متوكئاً على عنزة (عصا) فارتزت في جسده وهو لا يشعر (116/1) .

☆ معلقة (آذنتنا) . البحر : الخفيف . القافية : ء . عدد الأبيات : 85

1- آذَنَتْنـــا ببيْنهـــا أسماء رُبَّ ثـــاوٍ يُمَـلُّ منـــه الثـواء
2- بعْـــد عهْـــد لهـــا ببرقـــةَ شماء فـــأدنى ديـــارهـــا الخلْصـــاء
3- فـالمحيـاةُ فـالصِّفـاحُ فـأعلى ذي فتـاقٍ فعَـاذبٌ فـالـوفـاء
4- فريـاضُ القطـا فـأوديـة الشُّرْ بُبِ فـالشعبتـان فـالأبـلاء
5- لا أرى مَن عَهدت فيهـا فـأبكي الـ ـيـوم دَلْهـا ومـا يَرُدُّ البكاء
6- وبعينيـكَ أوقـدتْ هنـد النّـا رَ أصيـلا تُلـوي بهَـا العليـاء
7- أوقَـدَتْهـا بين العقيـقِ فشخصيـ ـنِ بعـود كما يلـوح الضيـاء
8- فتنـوَّرْتُ نـارَهـا مَن بعيـد بخـزازٍ هيهـاتَ مِنـكَ الصّلاء
9- غيرَ أني قـــد أستعينُ على الهمّ إذا خفّ بـــالثـويّ النجـــاء
10- بـزَفـوفٍ كأنهـا هِقلـةٌ أمُّ رئـالٍ دويَّـةٌ سقفـاء
11- آنست بنـأة وأفـزعهـا القنّـاصُ عصراً وقـد دنـا الإمســاء
12- فترى خلفهـا من الرجـع والـوقـ ـع منينـاً كأنـه إهبـاء
13- وطِراقـاً من خلفهن طِراقٌ سـاقطـاتٌ ألـوت بهـا الصحراء
14- أتلهى بهـا الهـواجرَ إذ كلُّ ابنِ همّ بليـةٌ عميـاء
15- وأتـانـا عن الأراقِم أنبـا ءٌ وخطب نُعنى بـه ونُسـاء
16- أنّ إخـوانـنـا الأراقَمَ يَغلـو نَ علينـا في قيلهم إحفـاء
17- يخلطـون البريء مِنـا بـذي الـذّنب ولا ينفـعُ الخليّ الخـلاء
18- زعمـوا أن كلَّ من ضَرَب العيـ ـرَ مـوال لنـا وأنّـا الـولاء
19- أجمعـوا أمرهم بليـل فلمـا أصبحـوا أصبحت لهم ضـوضـاء
20- من مُنـادٍ ومن مجيب ومن تصـ ـهـال خيـلٍ خـلال ذاك رُغـاء
21- أيُّهـا النـاطـقُ المُرَقِّشُ عنّـا عنـد عمْرٍ وهـل لـذاكَ بقـاء
22- لا تخَلْنـا على غراتِـكَ إنـا طـالمـا مـا قـد وشى بنـا الأعـداء

23- فبقينا على الشناءةِ تنميـ ـنا جُدودٌ وعِزّةٌ قعساء

24- قبْل ما اليوم بيّضت بعيون الناسِ فيها تَغَيُّظٌ وإباء

25- وكأنّ المنون تردي بنا أر عنَ جوناً ينجابُ عنه العماء

26- مكفهِرّاً على الحوادثِ ما تر توهُ للدهْرِ مُؤْيِدٌ صمّاء

27- أيّما خطّةٍ أردتُمَ فأدّو ها إلينا تمشي بها الإملاء

28- إن نبشتُم ما بين ملحة فالصّا قِب فيه الأمواتُ والأحياء

29- أو نقشتم فالنقش يجشَمُهُ النا سُ وفيه السقام والأبراء

30- أو سكتم عنّا فكنّا كمن أغـ ـمضَ عيناً في جفنها أقذاء

31- أو منعتم ما تُسألون فَمَن حُـ ـدّثتموه له علينا العلاء

32- هل علمتم أيام ينتهب النّا سُ غِواراً لكلِّ حيٍّ عُواء

33- إذ رفعنا الجمال من سعف البحـ ـرينِ سيراً حتى نهاها الحِساء

34- ثمّ ملنا على تميم فأحرمـ ـنا وفينا بناتُ مُرٍّ إماء

35- لا يُقيمُ العزيزُ بالبلدِ السهـ ـلِ ولا ينفع الذليلَ النّجاءُ

36- ليس ينجي موائِلاً من حِذارٍ رأسُ طَوْدٍ وحَرَّةٌ رجلاءُ

37- فملكنا بذلك الناسَ حتى ملَكَ المنذرُ بنُ ماء السماءِ!!

38- وهو الرّبُّ والشهيدُ على يو مِ الحيارَيْنِ والبلاءُ بلاء

39- ملكٌ أضلعُ البريةِ ما يو جَدُ فيها لما لَدَيه كِفاء

40- فاتركوا الطَّيْخَ والتعدّي وإمّا تَعاشَوا ففي التعاشي الدّاءُ

41- واذكروا حلفَ ذي المجاز وما قُـ ـدّمَ فيه العهودُ والكفلاء

42- حَذَرَ الجور والتعدّي ولنَ ينـ ـقُضَ ما في المهارقِ الأهواء

43- واعلموا أننا وإيّاكم فيما اشترطنا يوم اختلفنا سواء

44- أعلينا جناحُ كندةَ أن يغـ ـنمَ غازيُّهم ومنّا الجزاء

45- أم علينا جرى حنيفة أو ما جَمّعَتْ من محارب غبراءُ

46- أمْ جنـــايــــا بني عتيــقٍ فمن يغــ ـــدِر فـــإنّـــا من حربهم أبراء

47- أم علينـــا جرّى العِبـــاد كما نيـ ـــط بجوزِ المحمّـل الأعبـــاء

48- أمْ علينـــا جرّى قضـاعـــةَ أم ليـ ـــسَ علينـــا فيما جَنَــوا أنـــداء

49- أم علينـــا جرّى إيــــاد كما قيـ ـــلَ لطسم أخـــوكُم الأبّـــاء

50- ليس مِنـــا المضرّبـــون ولا قيـ ـــسٌ ولا جَنْـــدلٌ ولا الحـــداء

51- عَننـــاً بـــاطِـــلاً وظُلْماً كما تُعْـ ـــتَرُ عن حجرةِ الربيض الظِبـــاء

52- وثمـــانـون من تميم بـــأيــدِيـ ـــهِم رمـــاحٌ صـدورهن القضـــاء

53- لم يخلـــوا بني رِزاحٍ ببرقــــا ء نطـــاعٍ لَهُمْ عليهم دُعـــاء

54- تركـــوهُم ملحَّبين وآبـــوا بنهـــابٍ يُصَمُّ منهـــا الْحُـــداء

55- ثم جـــاؤوا يسترجعـــون فلم تَرْ جِـــعْ لهم شـــامـــةٌ ولا زهراء

56- ثم فـــاؤوا منهم بقـــاصمـــةِ الظهـ ـــرِ ولا يَبْرُدُ الغليـــلَ المـــاءُ

57- ثمَّ خيْـــلٌ من بعـــد ذاك مـــع الغـــلاّقِ لا رأفـــةٌ ولا إبقـــاء

58- مـــا أصـــابـوا من تغلبي فمطلو لٌ عليـــه إذا تـــولّى العَفـــاء

59- كتكاليف قـــومنـــا إذا غـــزا المِنـ ـذرُ هـــل نحن لابن هنـــد رعـــاء

60- إذ أحـــلَّ العـــلاةَ قبَّـــة ميســو نَ فـــأدنى ديـــارهـــا العـــوصـــاء

61- فتـــأوّتْ لهم قراضبـــةٌ من كُـــلِّ حيٍّ كأنهم ألقـــاء

62- فهـــداهم بـــالأســـودين وأمرُ الله بلْـــغٌ تشقى بـــه الأشقيـــاء

63- إذ تمنـــونهم غروراً فســـاقتـ ـهُمْ إليكم أمنيـــةٌ أشراء

64- لم يغروركم غروراً ولكن يرفـــعُ الآلُ جمعهم والضحـــاء

65- أيّهـــا الشـــانئُ المبلّـــغ عنّـــا عنـــد عمرو وهـــل لـــذاك انتهـــاء

66- إن عمراً لنـــا لـــديـــه خـــلال غيرَ شـــكٍّ في كلّهن البـــلاء

67- مَلِـــكٌ مُقْسِـــطٌ وأجمـــلُ من يَمْـ ـشي ومن دونِ مـــا لـــديـــه الثنـــاء

68- إرميٌّ بمثلـــهِ جـــالت الجِنُّ فـــآبت لخصمِهـــا الأجـــلاء

69ـ مَن لنـا عنـده من الخير آيـا ت ثـلاثٌ في كلِهنّ القضـاء

70ـ آيـةٌ شـارقُ الشقيقـة إذ جـا ؤوا جميعـاً لكلّ حيٍّ لـواء

71ـ حـولَ قيسٍ مستلمِين بكبشٍ قرظيٍّ كأنـه عبـلاء

72ـ وصتيت من العـواتـك مـاتنـ ـهـاه إلا مبيضـةٌ رَعـلاء

73ـ فجبهنـاهم بضرْبٍ كما يَخـ ـرُجُ من خُربـةِ المـزادِ المـاء

74ـ وحملنـاهمُ على حـزن ثهـلا نَ شِـلالاً ودُمّي الأنسـاء

75ـ وفعلنـا بهم كما عِلم اللهُ ومـا إن للخـائنين دمـاء

76ـ ثُمّ حُجْراً أعني ابنَ أُمّ قَطـامٍ ولـه فـارسيـةٌ خضراء

77ـ أسَـدٌ في اللقـاء وَرْدٌ هـموس وربيـعٌ إن شنّعتْ غبراءُ

78ـ وردنـاهم بطعن كما تُنْـ ـهَـزُ عن جمـةِ الطـوىّ الـدِّلاء

79ـ وفككنـا غُـلّ امرئ القيس عنـه بعـد مـا طـال حبسـه والعَنـاء

80ـ وأقـدنـاهُ رَبّ غسّـان بـالمنـ ـذر كَرْهـاً إذ لا تكال الـدِمـاء

81ـ وفـدينـاهمُ بتسعـةِ أمـلا كِ كرام أسـلابهم أغـلاء

82ـ ومـع الجـون جـون آل بني الأو سِ عَنـودٌ كأنهـا دفـواء

83ـ مـا جـزعنـا تحت العجـاجـة إذ ولّتْ بـأقفـائهـا وحرّ الصِّلاء

84ـ ولـدنـا عَمْرَ بن أمّ أنـاس من قريبٍ لمـا أتـانـا الحبـاء

85ـ مثلهـا يُخرِجُ التصيحـة للقـو مِ فـلاةٌ من دونهـا أفـلاء

☆ معاني الكلمات

1 ـ آذنتنا : أعلمتنا . البين : الفراق . الثاوي : المقيم .

2 ـ شماء : هضبة معروفة . البرقة : رابية فيها رمل وطين أو طين وحجارة . الخلصاء : آبار ماء بالبادية .

3 ـ الحيـاة والصّفاح وذو فتـاق وعـاذب والوفـاء : أسماء مواضع للشاعر فيهـا ذكريـات مع الحبيبة .

4 ـ رياض القطا وأودية الشريب والشعبتان والأبلاء : أسماء مواضع أيضاً .

5 ـ الدّلة : الباطل والحيرة .

6 ـ العلياء : المرتفع من الأرض .

7 ـ شُخصان : أكمة لها شعبتان . العقيق : موضع . العود : البخور . الضياء : الفجر .

8 ـ تنورت : نظرت لأعرف القرب من البعد والكثرة من القلة . خزازى : موضع .

9 ـ الثوي : المقيم . النجاء : السرعة .

10 ـ الزفيف : السرعة . الهقلة : النعامة . الرأل : ولد النعامة . الدوية : الأرض البعيدة الأطراف . سقفاء : مرتفعة .

11 ـ آنست : أحست . النبأة : الصوت الخفي . العصر : آخر النهار .

12 ـ المنين : الغبار الدقيق وكل ضعيف منين . الرجع : رجع القوائم . الوقع : وقع الخفاف . الإهباء : إثارة التراب والغبار .

13 ـ الطراق : مطارقة نعال الإبل . الساقطات : ماتساقط من الأرجل . تلوي : تذهب وتفرّق .

14 ـ ابن هم : صاحب الهم . البلية : ناقة الرجل إذا مات عقلت عند القبر مما يلي رأسه ، وعكس رأسها إلى ذنبها فتترك لا تأكل ولا تشرب حتى تموت فهي عمياء لا تتجه لأمرها ويظن الجاهليون أن صاحبها إذا قام من قبره حين ينشر ركبها !

15 ـ الأراقم : أحياء من بني تغلب بن وائل وقيل في سبب الاسم أن ناظراً نظر إليهم تحت الدثار وهم صغار فقال كأن أعينهم أعين الأراقم أي الأفاعي ! نعنى به : نُتّهم أو نهتم به . نُساء : يساء بنا الظن أو نستاء ..

16 ـ يغلون علينا : يظلموننا والغلو الارتفاع والزيادة . أحفاء : استقصوا علينا ونقضوا العهد أو أنهم كلفونا فوق ما نطيق .

17 ـ الخلاء : البراءة والترك .

18 ـ العير : الوتد والحمار . إنا الولاء : نحن ولاتهم وأهل الولاء .

20 ـ الرغاء : أصوات الإبل .

21 ـ المرقّش : الذي يزيّن القول بالباطل ويخاطب هنا الشاعر عمرو بن كلثوم .

22 ـ لا تخلنا : لا تحسبنا . غراتك : إغراء الملك بنا .

23 ـ الشناءة : البغض . الجدود : الحظوظ . القعساء : الثابتة . تمينا : ترفعنا .

24 ـ بيضت : غطت على أبصارهم . اعتاطت الناقة : إذا لم تحمل وامتنعت عن الفحل ورجل أعيط وامرأة عيطاء إذا كانا طويلين ، وزعم أن العيط طول العنق .

25 ـ المنون : المنية والدهر لأنه يذهب بمُنة كل شيء والمنة بالضم قوة الجسد وبخاصة القلب . الأرعن : الجبل والجيش . الجون : الأسود والأبيض ، والمراد به هنا الأسود . ينجاب : ينشق . العماء : السحاب الأبيض .

26 ـ المكفهر : الغليظ المتراكب بعضه على بعض . ترتوه : تنقصه أو ترميه أو تشدّه . المؤيد : الشديد الأيد ، أي القوي والداهية . صماء : لا تسمع فيعتذر لها .

27 ـ الخطة : الأمر يقع بين القوم يشتجرون فيه . أدّوها إلينا : أوضحوها مع سفرائكم والسفير : المصلح . الأملاء : الجماعات .

28 ـ ملحة : موضع . الصاقب : جبل . نبشتم : أثرتم .

29 ـ نقشتم : استقصيتم وهي وناقش واحد . يجشمه : يكلفه بمشقة .

30 ـ القذى : الشيء الذي يسقط في العين .

31 ـ الرفعة والتفوّق والأمر وإن رويت الغلاء فالمعنى هوهو .

32 ـ أيام ينتهب الناس : إشارة إلى هزيمة كسرى وضعفه .

يقول التبريزي : « وكانت العرب من نزار تملكهم الأكاسرة ، وهم ملوك فارس وتملك عليهم من شاءت وكانت غسان تملكهم ملوك الروم » .

العواء : الصياح مما ينزل بهم من الإغارة .

33 ـ رفعنا : سيّرنا . السعف : كناية عن النخل . الحساء : مياه لبني فزارة بين الربذة وفخل يقال لمكانها ذو حساء.

34 ـ ملنا : بلغنا . أحرمنا : دخلنا في الأشهر الحرم فكففنا عن قتالهم . إماء : سبيناهنّ .

36 ـ الموائل : الذي يطلب موئلاً يفزع إليه . الطود : الجبل . الحرة : كل موضع فيه حجارة سوداء . الرجلاء الصلبة الشديدة .

37 ـ 38 ـ كان المنذر بن ماء السماء غزا أهل الحيادين ومعه بنو يشكر فأبلوا ! الرب : في هذا الموضع السيد .

39 ـ أضلع البرية : أشدّ البرية أضلاعاً وليس في الناس أحد يكافئه أي يصنع مثله . الكفاء : المثل والنظير .

40 ـ الطيخ : قبيح الكلام وهو في الأصل الكبر والعظمة . التعاشي : التعامي . الداء : الشر .

41 ـ ذو المجاز : سوق في الجاهلية وفيه أصلح عمرو بن هند بين بكر وتغلب ، وأخذ عليهم المواثيق والرهائن من كل حي ثمانين .

42 ـ المهارق : الصحف واحدها مهرق فارسي معرّب ، أو خرزة يصقلون بها ثياباً كان الناس يكتبون فيها قبل أن يصنع القراطيس بالعراق ، كما يقول التبريزي .

44 ـ كانت كندة قد أخذت خراج الملك وهربت فوجّه إليهم من قتلهم ، وقيل : بل كانت كندة قد غزت تغلب ، وقتلت منهم وسبت .

45 ـ الغبراء : الصعاليك والفقراء . والمعنى : هل علينا في العهود والمواثيق التي أخذتموها علينا أن تأخذونا بذنوب حنيفة ، وما أذنبت لصوص محارب .. انظر خبر حنيفة : التبريزي ص 270 .

47 ـ العباد : العباديون وهم نصارى الحيرة ، وقد أصابوا من بني تغلب دماء ولم يدرك بنو تغلب ثأرهم منهم . نيط : علق . جوز المحمل : ظهر البعير .

48 ـ الأبيات من 44ـ48 تعيير لبني تغلب ، وكان عمرو بن كلثوم جالساً يسمع الشعر !!

49 ـ كانت إياد بن نزار تنزل سنداد ، وهو نهر بين الحيرة والأبلة وعليه قصر منيف تحج إليه العرب في الجاهلية وكانت إياد الإتاوة أجدأ من الملوك ، ومن قوتهم أنهم أغاروا على فارس وغنموا امرأة لكسرى أنوشروان وأموالاً .. وغزاهم كسرى غزوتين أخفق في الاثنتين . أما طسم وجديس فهما أخوان أخذ جديس خراج الملك وهرب ، فأخذ الملك طسماً بما ليس عليه . الإباء : عدم طاعة الملك .

50 ـ المضربون : قوم من بني تغلب ضربوا بالسيف . الحداء قبيلة من بني ربيعة .

51 ـ عنناً : اعتراضاً . العتر : الذبح في رجب والذبيحة تسمى العتيرة أو الرجيبة ، وربما بخل الجاهلي فلم يصدق بنذره فيصيد ظبية ليذبحها عوضاً عن الشاة . الحجرة : موضع يحجر فيه الغنم . الربيض : جماعة الغنم .

52 ـ إن عمراً من بني سعد بن زيد مناة بن تميم خرج في ثمانين رجلاً من تميم فأغار على تغلب وكانوا ينزلون (نطاع) قريبة من اليمن وبنو رزاح شعبة من تميم .

53ـ54 ـ ملحبين : مقطعين بالسيوف . يصم : لكثرة رغاء الإبل والضجة لا يسمع الحداء .

55 ـ يعني بني رزاح . الشامة : السوداء . الزهراء : البيضاء .

56 ـ فاؤوا : رجعوا . قاصمة الظهر : الخيبة . الغليل : شدة العطش .

57 ـ الغلاق : تميمي من بني حنظلة كان على هجائن النعمان غزا بني تغلب فقتل فيهم وسبى .. ويريد : ليس لأصحاب الغلاق رأفة بهم ولا إبقاء عليهم .

58 ـ مطلول عليه : لا يدرك بثأره . العفاء : الدروس والاختفاء .

59 ـ لما قتل المنذر بن ماء السماء اعتزلت طائفة من تغلب وقالوا لا نطيع أحداً من ولده فلما ولي ابنه عمرو بن هند وجه إليهم فقالوا : أرعاء الخن ؟ فنقل الحارث قولهم ، فوجه إليهم عمرو بن هند من قتل فيهم وسبى ويعني الشاعر أن قتل عمرو بن هند فيكم كفعل الغلاق وتكاليف مفردها تكليف .

60 ـ العلاة : أرض . إن عمْرو بن هند وجه أخاه النعمان للأخذ بثأر أبيه وأمره أن يقاتل بني غسان . ومن خالف من بني تغلب ، فلما بلغ الشام قتل ملكاً من غسان واستنقذ أخاه امرأ القيس بن المنذر ، وأخذ بنتاً للملك في قبة لها وهي ميسون والعلاة قريبة من العوصاء .

61 ـ تأوّت : تنادت وتجمعت . القراضبة : الصعاليك ويريد أولئك الذين ناصروا عمرو بن هند . ألقاء : أشياء مطروحة كناية عن التافهين من الأزلام .

62 ـ الأسودين : التمر والماء والأبيضين : الخبز والماء ، والأسودين أيضاً الليل والنهار أي هدى عمرو بن هند أصحابه وجمعهم حين غزا بهم .

63 ـ غروراً : جهلاً وغطرسة . أشراء : بطِرة .

64 ـ الضحاء : ارتفاع النهار . لم يغروكم غروراً : ما أتوكم على غرة .

65 ـ الشانيء : العدو المبغض ، والمقصود الشاعر عمرو بن كلثوم التغلبي .

66 ـ عمراً : يعني عمرو بن هند .

67 ـ المقسط : العادل . من دون ما لديه الثناء : الثناء منا عليه لا يوفي حقه .

68 ـ إرمي : نسبة إلى إرم عاد كناية عن قدم ملكه . الجن : هنا دهاة الناس وأبطالهم .

جالت : كاشفت أي بمثل عمرو بن هند كاشفت الجن الناس . آبت : رجعت . الإجلاء : انكشاف الأمر .

69 ـ الرايات : العلامات .

70 ـ الشقيقة : رهط من شيبان . جاءوا جميعاً : يعني قيس بن معد يكرب ورهطه أغاروا على إبل لعمرو بن هند . شارق : جاء من قبل المشرق . الشقيقة : صخرة بيضاء . لكل حي لواء : أي إن لكل حيّ رأياً وقوة .

71 ـ المستلئم : لابس اللأمة . قرظى : من بلاد ينبت فيها القرظ (شجر كبير سيقانه غليظة وورقه أصفر ، واليمن : منابت القرظ) .

72 ـ الصتيت : الجماعة . العواتك : نساء من كندة وهن الأميرات . الرعلاء : الضربة المسترخية اللحم من الجانبين ، وبنو العواتك خرجوا مع قيس بن معد يكرب .

73 ـ الجبة : من المجابهة وهي الرّد الضيق . الخربة : فم المزادة (القربة) .

74 ـ الحزن ، ما غلظ من الأرض . ثهلان : اسم موضع مرتفع . شلالاً : هرباً كأنهم مطرودون . دَمّى الأنساء : أي دفعناهم مجرّحين .

75 ـ الحائن : الذي جاء حينه (أجله) . دماء : كناية عن الثأر بالدم أو طلب الديّة .

76 ـ ثم حجراً : صنعنا بحجر مثل صنيعنا في البيت 75 وكان حجر قد غزا امرأ القيس أبا المنذر بن ماء السماء بجمع من كندة كثير ، وكانت بكر بن وائل مع امرئ القيس ، فخرجت بكر بن وائل فردته وقتلت جنوده وقوله (وله فارسية) أي معه كتيبة خضراء من كثرة السلاح فارسية أي سلاحها من عمل فارس .

77 ـ الغبراء : السنة الشديدة ، القليلة المطر . أسَدّ : صفة لحجر في البيت 76 . الهموس : الخفي الوطء . الربيع : الخصب .

78 ـ تنهز : تتحرك . جمة الماء : الموضع الذي يبلغه الماء من البئر ولم يبلغ أكثر منه . الطوي : البئر المطوية التي لم يستق منها .

79 ـ يعني امرأ القيس بن المنذر بن ماء السماء أخا عمرو بن هند لأبيه ، وكانت غسّان أسرته يوم قتل المنذر أبوه ، فأغارت بكر بن وائل مع عمرو بن هند على بعض بوادي الشام فقتلوا ملكاً لغسان واستنقذوا امرأ القيس وأخذ عمرو ابنة ذلك الملك وهي ميسون كما مرّ بنا .

80 ـ رب غسان : الملك أبو ميسون . لا تكال الدّماء : لأنها كثيرة أو أنها ذهبت هدراً .

81 ـ كان المنذر بن ماء السماء قد بعث خيلاً من بكر بن وائل في طلب بني حجر آكل المرار حين قتل حجر ، فظفر بهم بكر وقد دنوا من بلاد اليمن فأتوا بهم المنذر بن ماء السماء فأمر بذبحهم (كذا) ، وهو بالحيرة فذبحوا (!!) عند منازل بني مرينا وكانوا ينزلون الحيرة وهم قوم من العباد وفي ذلك يقول امرؤ القيس :

ألا يا عين بكّي لي شنينا	وبكي للملوك الذاهبينا
ملوك منى بني حجر بن عمر	يساقون العشية يقتلونا
فلو في يوم معركة أُصيبوا	ولكن في ديار بني مرينا
فلم تغسل جماجمهم بغسل	ولكن بالدماء مرملينا
تظل الطير عاكفة عليهم	وتنتزع الحواجب والعيونا

82 ـ الجون : ملك من ملوك كندة ، وهو ابن عم قيس بن معد يكرب وكان غزا بني بكر في كتيبة خشناء فقاتلته بنو بكر وهزمته وأخذوا ابنه وجاؤوا به إلى المنذر . العنود هنا الكتيبة كأنها تعند في سيرها والدّفواء المنحينة يصف كثرتها وجعل الكتيبة دفواء من بغيها .

83 ـ الصلاء : النار . أقفاء : أعجاز .

84 ـ يريد عمرو بن حجر الكندي وكان جد الملك عمرو بن هند ، وهند هي بنت عمرو بن حجر آكل المرار ، وكانت أم عمرو بن حجر أم أناس بنت ذهل بن شيبان بن ثعلبة وعمرو بن أم أناس هذا هو جد امرئ القيس الشاعر . من قريب : النسب بيننا وبينه وأمه بنت ذهل بن شيبان وهي جدة أم عمرو بن المنذر . لما أتانا الحباء : حين أتانا حباء الملك عمرو بن حجر ورآنا أهلاً لمصاهرته .

85 ـ أفلاء : مفردتها فلاة وقيل : إن مفردها فلو ، لأن الفلو يخدع بالشيء بعد الشيء حتى يسكن ثم يفلى عن أمه أي يفطم !!

8 ـ ميمون بن قيس البكري (الأعشى الكبير)

شاعر جاهلي مطبوع ، جعله ابن سلام في الطبقة الأولى التي جمعته بـامرئ القيس والنابغة وزهير ، قال بشار بن برد (نحن حاكة الشعر في الجـاهليـة والإسلام ونحن أعلم الناس به : أعشى بني قيس بن ثعلبة أستاذ الشعراء في الجاهلية) وشهادات علمـاء الشعر في نبوغ الأعشى وجمال شعره لا تكاد تعد ..

فمن هو ؟

هو من سعد بن ضُبيعة بن قيس ، وكان ضعيف البصر ، وكنيتـه أبو بصير ، وأبوه يدعى قتيل الجوع وحكايته أنه دخل غار جبل فوقعت صخرة من ذلـك الجبل فسدّت فم الغار فمات فيه جوعاً ! وكان جاهلياً قـديمـاً أدرك الإسلام ، وسمع اليهود والنصـارى يتحدثون بأمر الـدين الجـديـد ، فـأراد أن يعرف ذلـك بنفسـه ، وقـد راقت لـه فكرة العدالة والتوحيد في الدين الجديـد ، فكتب قصيـدة يمتـدح فيهـا النبي محمـد ﷺ جـاء فيها :

ألا أيهـــذا الســـائلي أين يممت	فـإن لهـا في أهـل يثرب مـوعـدا
فـآليت لا أرثي لهـا من كـلالـة	ولا من حفى حتى تـزور محمـدا
متى ما تناخي عنـد بـاب ابن هـاشم	تريحي وتلقي من فـواضلـه يـدا
نبي يرى مـــا لا ترون وذكره	أغـار، لعمري، في البـلاد وأنجـدا

وتوجّـه الأعشى إلى حيث يقيم النبي ﷺ فبلغ خبره قريشاً فرصـدوه في الطريق ونادى أبو سفيان يا قوم : هذا صناجة العرب ما مدح أحداً إلا رفع في قـدره والرأي أن نجمع له مئة ناقة حمراء لنصرفـه عن مبتغـاه ... والله لئن أتى محمـداً واتبع دينـه ليضرمنّ

عليكم نيران العرب بشعره ، فجمعوا له مئة من الإبل ... ثم أخذها أبو سفيان واعترض سبيل الأعشى ، وسأله أين أردت ياأبا بصير ؟

قال أردت صاحبكم هذا لأسلم ، فقال أبو سفيان إن دينه ينهاك عن خلالٍ كلها بك ويحرمها عليك ! قال الأعشى ما هن ؟ فقال أبو سفيان : إنه يحرم الزنا ، فقال الأعشى : لقد تركني الزنا ، ولم أتركه ثم ماذا ؟ قال : القمار ، قال الأعشى : لعلي إن لقيته أصيب منه عوضاً ثم ماذا ؟ قال الربا ؟ قال الأعشى : ما هذا فما أسلفت ولا استلفت ثم ماذا ؟ قال : إنه يحرم الخمرة . قال الأعشى : وي إذن أرجع إلى صبابة بقيت لي في المهراس فأشربها وأرجّل هامتي ، فقال له أبو سفيان : هل لك في خير مما هممت به ؟ قال : وما هو ؟ قال : نحن ومحمد الآن في هدنة فتأخذ هذه الإبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير إليه أمرنا فإن ظهر علينا آتيته ، وإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت حلفاً ، فوافق الأعشى فأخذ الإبل وانطلق إلى بلده ، فلما كان في مدخل قرية منفوحة وفيها معاصر للخمرة يمتلكها الأعشى عثر بعيره وسقط الأعشى فدقّ عنقه ومات ولم يسلم !! والأعشى مغامر ، جاب أصقاعاً من الدنيا كثيرة ، ولديه صداقات مع الملوك والأمراء من البلاد البعيدة ، قارن لوم ابنته له لكثرة أسفاره فهي مثل اليتيمة وأبوها على قيد الحياة :

تقول ابنتي حين جد الرحيل	أرانا سواء ومن قد يتم
أرانا إذا أضمرتك البلا	د نجفى ويقطع منا الرحم
أفي الطوف خفت عليّ الردى	وكم من رد أهله لم يرم
وقد طفت للمال آفاقه	عُمان فحمص فأوير شلم
أتيت النجاشي في أرضه	وأرض النبيط وأرض العجم
فنجران فالسرو من حمير	فأي مرام له لم أرم
ومن بعد ذاك إلى حضرموت	فأوفيت همي وحيناً أهم

وحين ذهب إلى فارس وسمعه كسرى فقال : (إين كيست ؟) أي من هذا ؟

فقالوا له (إين كويد سرود تازي) هذا عربي يقول الشعر وقيل له : إنه (مغني العرب) فطلب أن ينشده أحسن ما عنده فأنشد الأعشى قصيدته المشهورة في المحلق ! ومطلعها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرّق ... وما بي من سقم وما بي معشق

فقال كسرى ترجموا لنا ما قاله المغني ! فقالوا له : إن الشاعر يقول : إنه سهر ليله من غير سقم ولا عشق . فضحك كسرى ومازح الأعشى قائلاً : اللصوص فقط هم الذين يسهرون الليل دون سقم أو عشق !!

وكان يفد أيضاً على ملوك الحيرة ويمدح الأسود بن المنذر أخا النعمان وفيه يقول :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالي وهل ترد سؤالي

أنت خير من ألف ألف من النا ... س إذا ما كبت وجوه الرجال

وقال له النعمان بن المنذر معابثاً وقد أعجب بجمال شعره : لعلك تستعين على شعرك هذا ؟ أي تسرقه ؟ فقال له الأعشى احبسني في بيت حتى أقوله ، فحبسه في بيت فقال قصيدته :

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا ... وشطت على ذي هوى أن تزارا

وقيدني الشعر في بيته ... كما قيد الآسرات الحمارا

فما أنا أم ما انتحالي القوا ... في بعد المشيب كفى ذاك عارا

ولو رمتُ في ليلة قادحاً ... حصاة بنبع لأوريت نارا

وقيل : إن علماء الشعر في العصر الجاهلي اعتدوا له معلقتين دون سواه من شعراء المعلقات الأولى هي : (ودع هريرة) ، والأخرى هي : (ما بكاء الكبير) وكان أبو عبيدة مولعاً بشعر الأعشى ويفضله على طرفة ؛ لأنه كما يقول : أكثر عدد طوال جياد ، وأوصف للخمر والحمر ، وأمدح وأهجى .

واختلف علماء الشعر الإسلاميون في : أيهما أشعر امرؤ القيس أم الأعشى ؟

قال الجمحي : « أخبرني يونس بن حبيب أن علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأن أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى » .

وكان يونس إذا سئل من أشعر العرب ؟ يقول : « امرؤ القيس إذا غضب والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب » .

ويقول الأصبهاني : « وهو أول من سأل بشعره وانتجع به أقاصي البلاد ، وكان يغني في شعره ، فكانت العرب تسميه صناجة العرب » . وأبو عمرو بن العلاء يقول : « عليكم بشعر الأعشى فإني شبهته بالبازي الذي يصيد ما بين الكركي إلى العندليب » . وحين سئل أبو عمرو أيهما الشاعر لبيد أم الأعشى ؟ قال : « لبيد رجل صالح والأعشى رجل شاعر »[21] .

وكان الأعشى مثابة مؤسسة إعلامية كبرى ذات فروع متعددة ومؤسسة أخرى للدعاية ، وترويج السلع ، وقد استثمر شعره تجار عكاظ ، وذي مجنة ، والشحر ، والحيرة ، واليمامة ، فروّج لهما أنماطاً من الأقمشة والسيوف والخمور .. بل وقد بلغ الحد أبعد من ذلك ، فكان بمقدوره تزويج العوانس من البنات والبائرات ، ولنا أن نتذكر حكاية المحلّق ابتلي بشقيقات لم يقدم على خطبتهن أحد ، كما ابتلي ببنات لم يخطبهن أحد من العرب .. وقد اتفق المحلّق مع زوجه لاستدراج الأعشى إلى بيته ... فجاء الأعشى ودخل بيته ، فنحر له ناقته وكشط له عن سنامها وكبدها ثم أحاطت به بنات

---

(21)

الصائغ د . عبد الإله ، الصورة الفنية معياراً نقدياً ، انظر الفصل الأول ص33ـ103 ويتضمن ثلاثة مباحث :

أ ـ ملامح الصورة الشخصية للأعشى .

ب ـ تقويم النقاد لشعر الأعشى .

جـ ـ أصالة شعر الأعشى وأثره في الشعراء .

ثم انظر كتابنا الآخر : الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ، الفصل السادس ص237 ، صناجة العرب بين نقاد الكوفة وشعرائها .

المحلق ، فقال ما هذه الجواري حولي ؟ قال المحلق : بنات أخيك فلما رحل من عنده ووافى سوق عكاظ جعل ينشد قافيته التي مدح بها المحلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... إلى ضوء نار في يفاع تحرّق
تشبّ لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا ... بأسحم داج عوض لا نتفرّق

فتسابق الفتيان والفرسان إليهن حتى تزوجن عن آخرهن واستغنى بعد فقره .

قال الشعبي حين سئل عن تقويم شعر الأعشى : « الأعشى أعزل الشعراء في بيت وأخنثهم في بيت ، وأشجعهم في بيت .. وذكر الأبيات :

×غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
×قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلي عليك وويلي منك يا رجل
×قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشر نزل»

والذي نقترحه أن أغزل ما قاله الأعشى هو :

وتبرد برد رداء العروس ... بالصيف رقرقت فيه العبيرا
وتسخن ليلة لا يستطيع ... نباحاً بها الكلب إلا هريرا

وأشجع بيت قاله الأعشى هو :

لما التقينا كشفنا عن جماجنا ... ليعلموا أننا بكر فينصرفوا

قيل توفي سنة (7 للهجرة 629 ميلادية) .

☆ معلقة (ودّع هريرة) . البحر : البسيط . القافية : ل . عدد الأبيات : 66

1- ودع هريرة إن الركب مرتحل — وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
2- غراء فرعاء مصقول عوارضها — تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل
3- كأن مشيتها من بيت جارتها — مرُّ السحابة لا ريث ولا عجل
4- تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت — كما استعان بريح عشرق زجل
5- ليست كمن يكره الجيران طلعتها — ولا تراها لِسرّ الجار تختتل
6- يكاد يصرعها لولا تشدّدُها — إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
7- إذا تعالج قِرناً ساعة فترت — واهتزّ منها ذنوب المتن والكفل
8- صفر الوشاح وملء الدرع بهكنةٌ — إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل
9- صدّت هريرة عنا ما تكلمنا — جهلاً بأم خليد، حبل من تصل
10- أأن رأت رجلاً أعشى أضرّ به — ريب المنون ودهرٌ مفند خبَل
11- هركولة فنق دُرمٌ مرافقها — كأن أخمصها بالشوكِ منتعل
12- إذا تقوم يضوع المسك أصورةً — والزنبق الورد من أردانها شمل
13- ما روضة من رياض الحزن معشبة — خضراءُ جاد عليها مُسبل هَطِل
14- يضاحك الشمس منها كوكب شرقٌ — مؤزّرٌ بعميم النبتِ مكتهل
15- يوماً بأطيب منها نشرَ رائحة — ولا بأحسن منها إذ دنا الأصُل
16- عُلّقتها عرضاً وعلقت رجلاً — غيري وعُلّق أخرى غيرها الرَّجل
17- وعلقته فتاة ما يحاولها — من أهلها ميتٌ يهذي بها وهِل
18- وعُلّقتني أخيرى ما تُلائمني، — فاجتمع الحبُّ حباً كُلُّهُ تبل
19- فكلنا مغرمٌ يهذي بصاحبهِ — ناءٍ ودانٍ ومحبولٌ ومحتبِلُ
20- قالت هريرةُ لما جئت زائرها — ويلي عليك وويلي منك يا رجل
21- يا من يرى عارضاً قد بت أرقبه — كأنما البرق في حافاته شعل
22- له ردافٌ وجوزٌ مفأمٌ عملٌ — مُنَطّقٌ بسجال الماءِ متّصل

23- لم يلهني اللهـو عنـه حين أرقُبُـهُ ... ولا اللـذاذةُ من كأسٍ ولا الكَسلُ

24- فقلتُ للشَّرب في (دُرنى) وقـد ثملوا: ... شيموا، وكيف يشيم الشاربُ الثمِل؟

25- برقـاً يضيء على الأجزاع مسقطـه ... وبـالجنيّـةِ منـه عـارض هطِـل

26- قـالوا نمارٌ فبطن الخال جـادَهمـا ... فـالعسجديةُ فـالأبلاء فـالرِّجل

27- فـالسفـح يجري فخنزيـز فبرقتـه ... حتى تـدافع منـه الرَّبو فـالجبل

28- حتى تحمّـل منـه المـاء تكلفـةً ... روضُ القطـا فكثيبُ الغينـة السَّهل

29- يسقي ديـاراً لهـا قـد أصبحت عُزُباً ... زوراً تجـانف عنهـا القَـودُ والرَّسـلُ

30- وبلـدةٍ مثـل ظهر التّرس مـوحشـةٍ ... للجنّ بـالليـلِ في حـافـاتهـا زَجَـلُ

31- لا ينتمي لهـا بـالقيـظ يركبهـا ... إلا الـذين لهم فيما أتـوا مهـل

32- جـاوزتهـا بطليـح جسرة سُرُح ... في مرفقيهـا إذا استعرضتهـا فَتَـلُ

33- أمـا ترينـا حفـاةً لا نعـال لنـا ... إنـا كـذلـك مـا نحفى وننتعـل

34- فقـد أخـالِسُ ربَّ البيت غفلتـه ... وقـد يحـاذرُ مني ثم مـا يئـل

35- وقـد أقـود الصّبي يـومـاً فيتبعني ... وقـد يصـاحبني ذو الشرّة الغـزل

36- وقـد غـدوت إلى الحـانوت يتبعني ... شـاوٍ مشِـلٌّ شلـولٌ شُلشُـل شـولُ

37- في فتيـةٍ كسيوف الهنـد قـد علمـوا ... أن ليس يدفع عن ذي الحيلـةِ الحيَل

38- نـازعتهم قُضُب الريحـانِ متكئـاً ... وقهـوةً مُـزّةً راووقهـا خضِـل

39- لا يستفيقـون منهـا وهي راهنـةٌ ... إلا بهـات، وإن علّـوا وإن نَهِلـوا

40- يسعى بها ذو زجاجات لـه نطفٌ ... مقلّصٌ أسفـل السربـال معتمـل

41- ومستجيبٍ تخـال الصّنـج تَسمَعُـه ... إذا ترجّـع فيـه القينـةُ الفُضُـل

42- من كل ذلـك يـومٌ قـد لهـوتُ بـه ... وفي التجـارب طـول اللّهـو والغـزلُ

43- والسـاحبـاتُ ذيـولُ الخـزّ آونـة ... والرافـلاتُ على أعجـازهـا العجل

44- أبلـغ يـزيـد بني شيبـانَ مـألكـةً ... أبـا ثُبيتُ أمـا تنفـكُّ تـأتكلُ

45- ألستَ منتهيـاً عن نحتِ أثلتنـا ... ولستَ ضـائرهـا مـا أطّتِ الإبـل

46- تغري بنا رهط مسعود وإخوتِـهِ ... عنـد اللقـاء فتُردي ثم تعتزل

47- لأعرفنـك إن جـدّ النفيرُ بنـا ... وشبّتِ الحربُ بـالطّوّاف واحتملوا

48- كنـاطـح صخرةً يـومـاً ليفلقهـا ... فلم يضرهـا وأوهى قرنـه الـوعـل

49- لأعرفنـك إن جـدّت عـداوتُتنـا ... والتمسَ النصر منكم عـوْض تحتمـل

50- تلزم أرماح ذي الجدّين سورتَنـا ... عنـد اللقـاء فترديهم وتعتزل

51- لا تقعـدنّ وقـد أكّلتهـا حطبـاً ... تعـوذُ من شرّهـا يـومـاً وتبتهـل

52- قـد كان في أهـل كهف إن همُ قعدوا ... والجـاشريـةِ من يسعى وينتضـل

53- سـائل بني أسـدٍ عنـا فقـد علمـوا ... أن سوف يـأتيـك من أنبائنـا شكلُ

54- واسـأل قشيراً وعبـد الله كلّهَم ... واسـأل ربيعـةَ عنـا كيف نفتعل

55- إنـا نقـاتلهم حتى نقتّلهم ... عند اللقاء وهم جـاروا وهم جهلوا

56- كـلا زعمتم بـأنـا لا نقـاتلكم ... إنـا لأمثـالكم يـا قـومنـا قُتُـل

57- حتى يظـلّ عميـدُ القـوم متّكئـاً ... يـدفعُ بـالراحِ عنـه نسوة عجُـل

58- أصـابـه هنـدوانيٌّ فـأقصـده ... أو ذابـلٌ من رمـاح الخـطّ مُعْتَـدلُ

59- قـد نخضِبُ العيْرَ من مكنون فـائِلِه ... وقـد يشيـط على أرمـاحنـا البطـلُ

60- هـل تنتهـون ولا ينهى ذوي شطـط ... كالطعن يـذهبُ فيـه الزيت والْفُتلُ

61- إني لعمرُ الـذي خطّت منـاسمُهـا ... تخْـدي وسيقَ إليـه البـاقرُ الغُيَـل

62- لئن قتلتم عميـداً لم يكن صَـدداً ... لنقتلنْ مثلـهُ منكم فنمتثِـل

64- لئن منيتَ بنـا عن غبّ معركـةٍ ... لم تُلْفِنـا من دمـاءِ القـوم ننتفَـل

64- نحن الفوارسَ يـومَ العين ضـاحيـةً ... جَنْبَيْ فُطيمـةَ لا ميـل ولا عُـزُل

65- قـالوا الركـوبَ فقلنـا تلـك عـادتنـا ... أو تنزلـون فـإنـا معشر نُـزلُ

☆ **معاني الكلمات :**

1 ـ قال أبو عبيدة : هريرة قينة (الأمـة صانعـة أو غير صانعـة وغلب على المغنيـة) كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قيس بن حسّان بن ثعلبـة بن عمرو بن مرثـد فولـدت لـه

خليداً ، وقيل : إن هريرة وخليدة أختان كانتا مغنيتين لبشر بن عمرو وحين هرب إلى اليمامة خوفاً من النعمان بن المنذر كانتا معه ، وقيل أيضاً : إن هريرة أمة سوداء ، وزعم أن الأعشى تبرأ من معرفته لها ، وقال : إنه لا يعرفها وإنما ذكر اسمها لا على التعيين ، وأراد التشبيب بأخرى خشي ذكر اسمها .

يقول صاحب العمدة 121/2 : « وللشعراء أسماء تخف على ألسنتهم وتحلو في أفواههم فهم كثيراً ما يأتون بها زوراً ... وربما أتى الشعراء بالأسماء الكثيرة في القصيدة إقامة للوزن وتحلية للنسب » .

ونحن نميل إلى أن هريرة لم تكن كما أشار أبو عبيدة أو سواه ، وآية ذلك ما يلمسه محلل النص من صدق العاطفة ، ومضاء الإشارة ، وربما تأوّل أبو عبيدة وسواه في اسم هريرة لغرابة اسمها !

وقد ذكر صاحب العمدة (122/2) الأسماء التي كثر استعمالها في الغزل ولم يذكر هريرة والأسماء هي (ليلى ، هند ، سلمى ، دعد ، لبنى ، عفراء ، أروى ، ريا ، فاطمة ، مية ، علوة ، عائشة ، الرباب ، جُمْل ، زينب ، ونُعْم » !!

والركب : أكثر ما يستعمل للإبل ومن عليها وما عليها !!

2 ـ غراء : بيضاء . فرعاء : طويلة الشعر كثته . العوارض : ما يبدو من الأسنان عند الابتسام . مشي الهوينى : الاعتيادي . الوجي : الذي حفيَ قدمه أو حافره . الوحل : الملطّخ بالوحل والإشارة هنا للأقدام والحوافر .

3 ـ الريث : البطء . الوسواس : صوت الحلى . العشرق : شجيرة طولها ذراع فيها حب كثيرة فإذا يبست واخترقتها الريح تحرّك الحب فاستخرج خشخشة على الحصى . انصرفت : تقلّبت . الزجل : رفع الصوت عند الطرب ونبت زجل صوتت فيه الريح .

5 ـ تختتل : تسرق السمع .

7 ـ قرناً : صاحباً . ذنوب المتن : لحم المتن . الكفل : العجيزة .

8 ـ صفر الوشاح : خميصة البطن . دقيقة الخصر . الوشاح قماش عريض مطرّز بخيوط ملونة أو مرصع بالأحجار الكريمة أو الذهب تضعه المرأة على عاتقها وكشحها . الدرع القميص وقوله ملء الدرع إشارة إلى الضخامة . البهكنة : الخفيفة الروح الطيبة الرائحة المليحة الجميلة . تأتى : تتأتى أي تتحرّك . ينخزل : ينقطع .

10 ـ مفند : فاسد . ريب المنون : مصائب الزمان . الخبل : فساد العقل .

11 ـ الهركولة : الهركلة ضرب من المشي فيه اختيال ، وقيل هي الضخمة الوركين الحسنة القوام . الفنق : الفتية المنعّمة . الدرم : التي لا تبين عظامها أو عروقها . الأخمص : باطن القدم . المرفق : عظم المفصل في الذراع . كأن أخمصها بالشوك منتعل : إنها متقاربة الخطو لأنها ضخمة كأنها تمشي على الشوك لمكابدتها في المشي .

12 ـ الأصورة مفردها صوار : القليل من المسك . وقيل : إنه الوعاء الذي يحرق فيه المسك (كذا) وهذا المعنى بعيد وقد ذهب إليه محقق الديوان ! الزنبق الورد : زهر طيب الرائحة طويل مائل إلى الحمرة حين يقرن بـ (الورد) . الأردان : أطراف الأكمام . شمل : منتشر .

13 ـ رياض الحزن أي الحدائق التي تقوم على أرض مرتفعة وهي أحسن من الرياض في الأرض المنخفضة ، لأن الريح تهب على المرتفعات فتهيج عبقها . مسبل : صفة المطر النازل .

14 ـ يضاحك الشمس : يدور معها حيثما دارت . كوكب : كوكب الشيء معظمه أو أطوله أو زهره والمراد هنا البريق . الشرق : الريّان الممتلئ ماء . مؤزّر : مرتد إزاراً . العميم : التام السّن . مكتهل : اكتهل النبت أي طال وبلغ منتهاه .

15 ـ النشر : العبق الفوّاح . الأصيل : من العصر إلى العشاء والمقصود هنا الغروب وإنما خص الأصيل لأن الدنيا تكون فيه أحسن ما تكون لتباعد الشمس وتلوّن المرئيات باللون الأحمر !

16 ـ عرضاً : مصادفة ودون عمد .

17 ـ ما يحاولها : لا يريدها أو لا يقدر عليها . ميت : رجل ميت . الوهل : الذاهب العقل .

18 ـ التبل : الذي يؤذيه الجرح حدّ ذهاب العقل !

19 ـ الاحتبال : العمل بالحبال . المحبولَ : الذي وثقته الحبال كناية عن أنه بات صيداً . والمحتبل : الصائد .

21 ـ العارض : السحاب المعترض .

22 ـ رداف : سحاب من خلقه كأنه ذيل . الجوزَ : الوسط . المفأمَ : العظيم الواسع . عمِل : دائم البرق . منطّق : النطاق الحزام . السجال : الدِلاء .

23 ـ درنى : ورسمها معجم الأدباء 298/2 (درنا) موضع باليامة على طريق فارس ، وذكر الهمداني أن أثافت اليمنية كان يقال لها في الجاهلية درنا . شيمو : انظروا وتفحصّوا البرق أو السحاب وقدّروا أين سيمطر .

26/25 ـ الأجزاع مفردها جزع ، وهو منعطف الوادي أو المشرف من الأرض . الجنية : موضع بين الكوفة والشام . نمار : جبل لبني سليم . بطن الخال : موضع . جادها : أمطرها . العسجدية (معجم البلدان 326/3) سوق جاهلية مشهورة ببيع العسجد وهو الذهب وزعم أنه ماء لبني سعد ! الرجل : موضع باليمامة . وقال التبريزي : إن الرجل مسايل الماء واحدها رجلة . الأبلاء : اسم بئر .

28/27 ـ السفح وخنزيز : موضعان . البرقة : أرض ذات حجارة ورمل وطين . الربو والربوة : مرتفع من الأرض . تكلفة : مشقة . الغينة الواحة الموتقة أو الأرض ذات أشجار . روض القطا (معجم البلدان 440/2) من أشهر رياض العرب وقد كثر ورودها في الشعر وتقع بناحية كتلة وجدود فإذا كانت النسبة إلى القطا فهذا الطائر يكثر في الرياض ، وإن كانت النسبة إلى موضع فهو في اليمامة .

29 ـ عزباً : بعيدة . زوراً : بعيدة . تجاتف : تنحرف . القود : الخيل . الرّسل : الجماعة من كل شيء .

30 ـ الترس : الدرع . الزجل : الأصوات المختلفة .

31 ـ ينتمي : يتمنى ركوبها أو يقدر عليه . المهل : التقدم في الأمر والهداية قبل ركوبها .

32 ـ طليح ناقة أضرها السفر . جسرة : ضخمة . سرح : سهلة السير . الفتل تباعد مرفقي الناقة عن زورها .

33 ـ المعنى سبيلنا هكذا مرة نحفى ، ومرة ننتعل كناية عن الفقر والمشقة (لا نعال لنا) وكناية عن النعمة واليسر (وننتعل) .

34 ـ خلس : سرق الشيء وأخذه خفية . مايئل : لا ينجو .

35 ـ ذو الشرة : ذو الشارة والشارة الهيئة الجميلة . الغزل : قال ابن الأعرابي : غَزِل الكلب بالكسر أي فتر .. أن يطلب الغزال فإذا ثبت الغزال انصرف عنه الكلب ، فيقال : غزل الكلب ، ويقال الضعيف الفاتر عن الشيء غزل ، وقيل لصاحب النساء غزل لضعفه .

36 ـ الحانوت : بيت الخمار . الشاوي : الذي يشوي اللحم . المشل والشلول : الذي يحسن سوق الإبل من شلَّ طرد وساق . الشلشل : السريع الحركة والاستجابة وهو الخادم الخبير . شول : قادر على احتمال الأشياء ، كقولهم : فلان يشول في حاجته إذا اعتنى بها وتحرّك فيها ، وثمة

مقاربات لهذه الألفاظ مثل النشول : الذي ينشل اللحم من القدر برفق لخبرته ، والشمل : الطيب النفس والرائحة .

يقول الدكتور محمد النويهي : يريد الأعشى أن يحكي ترنح السكارى حين تأخذهم النشوة يمثلها بهذه الكلمات الخمس في تتابع إيقاعها في الشطر الثاني ، وعليك كلما قرأت كلمة منها أن تميل ميلة إلى الإمام أو الخلف أو اليمين أو اليسار ثم يريد أخيراً أن يحكي حديثهم المتلعثم الذي تختلط فيه مخارج الحروف إذ يجعل الثمل لسانهم ثقيل الحركة كثير التعثر ، ولذلك يكثر الأعشى من حرف الشين خاصة لأن السكارى يحولون جميع سيناتهم وكذلك الحروف ذات المخارج المقاربة لمخرج السين شين . ا . هـ[21] .

38 ـ 39 ـ نازعتهم : أي استمتعت معهم بحسن الأحاديث وظريفها . وقال الأصمعي : نازعتهم قضب الريحان .. أي إن التحية بينهم بالورد والريحان . الْمُزّة : التي فيها مزازة والْمُزُّ بضم الميم ما كان طعمه بين الحلو والحامض . الراووق : إناء الخمر وقيل : إن الراووق والناجود ما يخرج من ثقب الدن . الخضل : الندي بشكل دائم ، وزعم أن الراووق المصفاة والشراب يتروّق منه !!

39 ـ العلل : الشرب الثاني . النهل : الشرب الأول . راهنة : المهيئة لكل الأوقات .

40 ـ يسعى بها : يقدّمها . ذو زجاجات : حامل الأواني الزجاجية . له نطف : يضع اللؤلؤ الصافي أقراطاً على أذنيه . مقلص : مشمّر . السربال القميص وكل ما يغطّي أعلى الحزام ، والسراويل البنطال وكل ما يغطي أسفل الحزام . معتمل : دائب نشيط محب لعمله .

41 ـ المستجيب : العود يجيب الصنج فكأن الصنج دعاه فأجاب . الصنج : صفيحة مدورة من النحاس يضرب بها على أخرى أو صفائح صفر صغيرة مستديرة تثبت في أطراف الدف أو في أصابع الراقصة تدق بها عند الطرب أو آلة موسيقية وترية . القينة : الخادمة مغنية كانت أو غير مغنية . الفضل : التي ترتدي ثوباً واحداً شفيفاً كأنها متبذلة .

43 ـ الخز : ثياب من الإبريسم الخالص . آونة : حيناً . الرافلات : اللواتي يرفلن ثيابهن أي يجررنها . أعجازها العجل : ذهب أبو عبيدة إلى أنه شبه أعجازهن لضخامتها بالعجل بالمزادة أو قربة الماء .

---

(21) النويهي . د. محمد ، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه 67/1 وبعدها ، طب الدار القومية في مصر (د:ت) ، وانظر من الكتاب نفسه 820/2 ، الفصل السابع عشر معلقة الأعشى (الجد الهازل والهزل الجاد) !!

44 ـ مألكة : رسالة ، تأتكل : تتآكل من الغيظ أي كاد أن يأكل بعضه بعضاً !! .

45 ـ النحت : التقشير . والبري . أثاثنا : شجرتنا ، ويعني أصلنا . ضائر : ملحق بها الضرر . أطّت : أنّت من الحنين أو التعب

46 ـ تغري : تضرب بيننا وبينهم . تردي : تهلك .

47 ـ النفير : القتال أو المقاتلون . الطواف : الطائفون يملأون المكان مثل الطوفان . احتملوا : صبروا على الشدة .

49 ـ عوض : اسم للدهر ، وتأتي بمعنى أبداً . تحتمل : تذهب وتخلي قومك . واحتمل الرجل : استفزّ وغضب .

50 ـ ذو الجدين : قيس بن مسعود . السَورة : الغضب .

51 ـ أكلتها : أجبتها . تعوذ : تلجأ وتعتصم والعوذة : التميمة والرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون . الابتهال : الدعاء إلى الله لدفع الشر .

52 ـ أهل كهف : قوم من بني سعد بن مالك بن ضبيعة . قعدوا : لم يطلبوا بثأرهم . الجاشرية : امرأة من إياد وهي ابنة كعب بن مامة . ينتضل : يجهد ويكابد .

53 ـ شكل : صور متوالية .

57 ـ العميد : السيد . الراح مفردها راحة وهي باطن اليد . عجل : نساء ثكالى مفردها عجول بفتح العين .

58 ـ هندواني : مصنوع في الهند . أقصده : أصابه ولم يخطئه الخط بلدة في البحرين مشهورة بصناعة الرماح .

59 ـ العير : حمار الوحش . الفائل : عرق يمتد من الجوف إلى الفخذ ومكنون الفائل : الدم .

60 ـ الشطط : الغلو والخطأ . الزيت والفتل : كناية عن ذهاب كل شيء .

61 ـ خطت : تركت أثراً في التراب . المناسم : مفردها منسم وهو طرف الخف . تخدي : تسرع في السير مضطربة . الباقر : البقر . الغيل مفردها غيول : الكثير من الإبل والبقر ونحوهما .

62 ـ الصدد : المقارب . نمتثل : نقتل الأمثل أي الأفضل .

63 ـ مني : ابتلى وعاد بالشيء . غب : بعد . تلفنا : تجدنا ، ننتفل : ننتفي أي لا نهرب من القتال والواجب .

64 ـ ضاحية : علانية . فطية : فاطمة بنت حبيب بن ثعلبة زوج رجل من بني سيار ، ولها ضرة من قوم زوجها . فتعايرتا فعمدت السيارية فحلقت ذوائب فطية ، فتدخل الحيان واقتتلا فهزم بنوسيار وانتصر قوم الأعشى (بنو سعد بن قيس) . الميل : الخائف الذي يميل عن السرج ولا يثبت . عزل : مفردها أعزل الذي لا سلاح له .

65 ـ الركوب : ركوب الخيل . تنزلون : أي تترجلون ونتبارز بالسيوف ، فالراكب يستعمل رمحه غالباً والراجل يستعمل سيفه غالباً .

9 ـ النابغة الذبياني

هو زياد بن معاوية ويكنى أبا أمامة وتنمى أصوله إلى عوف بن سعد بن ذبيان وصولاً إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر ! وقد ذكر جل مؤرخيه أنه (أحد الأشراف الذين غض الشعر منهم)!! ذكر ذلك مثلاً ابن قتيبة والأصبهاني وكرر القول المعاصرون أيضاً مثل جرجي زيدان ! ولا ندري كيف غض الشعر من قدره وعرب الجاهلية كانوا يسعدون بالشاعر ويؤمروه ، فإذا نبغ شاعر في القبيلة نحرت الجزور وخرجت النسوة تغني وتنفخ في المزامر بينا تقدم القبائل المجاورة التهاني بالمناسبة ، لا ندري لماذا غضّ الشعر من قدره وكيف ؟! ومن هو لولا الشعر ؟! والنابغة لقب شهرة لحقه ولم يقطع أحد في سبب التسمية ونذكر الآتي :

1 ـ سمي النابغة لقوله :

وحلّت في بني القين بن جسر فقد نبغَتْ لنا منهم شؤون

2 ـ وقيل لقب النابغة اشتقاقاً من نبغت الحمامة إذا تغنّت ، ونبغ الماء .

3 ـ قال الأصمعي : أول ما تكلم به النابغة من الشعر أنه حضر مع عمه عند رجل وكان عمه يشاهد به الناس ، ويخاف أن يكون عيياً فوضع الرجل كأساً في يده وقال :

تطيب كؤوسنا لولا قذاها ويحتمل الجليس على أذاها

فقال النابغة وقد حمي لذلك :

قذاها أن صاحبها بخيل يحاسب نفسه بكم اشتراها

4 ـ قال ابن قتيبة 87/1 : « ونبغ بالشعر بعدما احتنك » . أما المرزوقي ص63 فقد وضّح الحكاية التي تزعم أن النابغة قال الشعر بعدما احتنك أي جاوز الأربعين :

« مكث النابغة دهراً لا يقول الشعر ، ثم أمر بثيابه فغسلت وعصب حاجبيه على جبهته فلما نظر إلى الناس أنشأ يقول :

المرءُ يـــأمـــل أن يعيـ ـــش وطـول عيش قــد يضرّه
تفنى بشـــاشتـــه ويبـ ـقى بعـد حُلـو العيش مُرّه » ا. هـ

أما مكانته في الوسط الشعري فكبيرة وقد عدّه ابن سلام في الطبقة الأولى وقرنه بامرئ القيس والأعشى وزهير .

قال الأصمعي كان النابغة يضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها وأول من أنشده الأعشى ، ثم حسّان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد :

وإن صخراً لتـأتم الهـداة بـه كأنـه علم في رأسـه نـار

فقال النابغة : لولا أن أبا بصير أنشدني آنفاً لقلت : إنك أشعر الجن والإنس فقام حسان وقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة يا ابن أخي أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليـل الـذي هـو مـدركي وإن خلت أن المنتأى عنـك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينـة تمـد بهـا أيـد إليـك نـوازع

فخنس حسان لقوله وانصرف .

وقيل : إن الخنساء احتجت على قوله لها : والله ما رأيت أنثى أشعر منك . فقالت له : لا والله ولا ذكراً ! وكان النابغة ذكياً يحلل النصوص وفق آليات النقد في زمانه ، وحين تجرأ حسان على النابغة في سوق عكاظ على ملأ من الشعراء وجمهور الشعر قائلاً له : أنا ، والله ، أشعر منك ، ومن الخنساء ، ومن أبيك ، وجدك ، ابتسم النابغة وقبض على لحيته وقال لحسان : حيث تقول وأنت حر ، ولكن حيث تقول ماذا ؟ قال حسان حيث أقول :

لنا الجفنات الغرّ يبرقن بالضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بني العنقاء وابني محرّق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له : إنك شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ، وقلت : يبرقن ولم تقل يلمعن ، وقلت بالضحى ، ولو قلت بالدجى لكان أبلغ في المديح ؛ لأن الضيف في الليل أكثر ، وقلت يقطرن من نجدة دما ، فدللت على قلة القتل ، ولو قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم !!

وقد أعجب أهل زمانه بشعره . وكان النعمان بن المنذر مهووساً بشعر النابغة ، وقد نقل أن حسان بن ثابت قصد النعمان فنصحه رجل قريب من بلاط النعمان : « فإن أنت خلوته وأعجبته فأنت مصيب منه خيراً فأقم ما أقمت فإن رأيت أبا أمامة النابغة فاظعن فلا شيء لك عنده » .

وينقل الأصبهاني هذا الخبر : « قال النعمان أليس بأبي أمامة ؟ قالوا : بلى . قال : فأذنوا له . ودخل فحياه وشرب معه ، ثم وردت النعم السود ، ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود يعرف مكانه ولا يفتحل أحد بعيراً أسود غير النعمان فاستأذنه النابغة في أن ينشده كلمته التي على الباء ، فأذن له فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ووردت عليه مئة من الإبل السود الكلبية فيها رعاؤها وبيتها وكلبها ، فقال النعمان : شأنك يا أبا أمامة فهي لك بما فيها .

وكتب الخيل تزعم أن كل ناقة سوداء من عصافير النعمان كانت تباع بثمن أربعين ناقة سواها . وقد انتجع النابغة بشعره وأثرى ، « وكان النابغة لا يأكل ولا يشرب إلا في آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ولا يستعمل غير ذلك » .

أما الغساسنة فقد أثقلوه بالهدايا والعطايا ، وكانوا يمنحونه المحفزات ليلبث عندهم

ويزهد بسواهم ، وقد صار النابغة إلى غسان ونزل عند ملكها عمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر وأم الحارث الأعرج هي مارية بنت ظالم بن وهب الكندية ، وهي ذات القرطين اللذين يضرب بهما المثل ، فيقال لما يغلى به الثمن بقرطي مارية وأختها هند الهنود امرأة حجر آكل المرار ! وكان النابغة مبتكراً في شعره فهو أحسن شعراء زمانه ديباجة وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتاً فشعره مطبوع غير متكلف قال أبو عبيدة : « يقول من فضل النابغة على جميع الشعراء إنه أوضحهم كلاماً وأقلهم سقطاً وحشواً وأجودهم مقاطع وأحسنهم مطالع ولشعره ديباجة إن شئت قلت : ليس بشعر مؤلف من تأنثه ولينه ، وإن شئت قلت : صخرة لو رديت بها الجبال لأزالتها » .

وكان الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد قال : يا معشر غطفان من الذي يقول :

أتيتك عارياً خَلِقاً ثيابي على خوف تظن بي الظنون ؟

قلنا : النابغة .

قال : ذاك أشعر شعرائكم .

ثم قال : من أشعر الناس ؟ قالوا : أنت أعلم يا أمير المؤمنين ، قال الذي يقول :

إلاّ سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحددها عن الفند

وخيّس الجن إني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

قالوا : النابغة . قال : فمن الذي يقول :

حلفت فلم أترك لنفسكَ ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغشّ وأكذب

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمّه على شعث أي الرجال المهذب

قالوا : النابغة . قال : فهو أشعر العرب .

وقام رجل إلى ابن عباس فقال : أي الناس أشعر ؟ فقال ابن عباس : أخبره ياأبا الأسود الدؤلي فقال الذي قال :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقد بلغ من إعجاب الناس بشعر النابغة أن اختلق خيالهم حكايات عن الجن أبينا نحن نسير بين أنقاء الأرض وقد تذاكرنا الشعر والشعراء فإذا راكب أطيلس يقول : أشعر الناس زياد بن معاوية ثم تملس فلم نره وقال الشنقيطي : « واسم هاجس النابغة هاذر ، قال رجل من أهل الشام في قصة مع جني اجتمع به فسأله من أشعر العرب فأنشد :

ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد

لله هاذر إذ يجود بقوله إن ابن ماهر بعدها لجواد

فقال له الشامي : من هاذر ؟ قال : حاجب زياد الذبياني وهو أشعر الجن وأضنهم بشعره ، فالعجب له كيف سلس لأخي ذبيان .

وعلماء الشعر يقولون (يونس بن حبيب) : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب ، وزهير إذا رغب ، والأعشى إذا طرب !

وسئل حماد الراوية بم تقدم النابغة ؟ فقال : باكتفائك بالبيت الواحد من شعره لا بل بنصف بيت لا بل بربع بيت قوله :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقال الأصمعي سمعت أبا عمرو يقول : ما كان ينبغي للنابغة إلا أن يكون زهير أجيراً له ! وكان عبد الملك المروان وهو أحد أهم علماء الشعر حين يسمع : (حلفت فلم أترك ..) يقول : النابغة أشعر العرب ، وهذا أحسن الشعر .

وقال الشعبي : « دخلت على عبد الملك بن مروان وعنده الأخطل ، وأنا لا أعرفه ، فسأل عبد الملك الأخطل : من أشعر الناس ؟ قال : ياأمير المؤمنين الذي

أمامك يعني نفسه . فقلت لعبد الملك : من هذا يا أمير المؤمنين ؟ فتبسم وقال : هذا الأخطل . فقلت في نفسي : خذها ثنتين على وافد العراق ، فقلت أشعر منك الذي يقول :

هـــذا غـلام حسن وجهـــه مستقبـــل الخير سريـــع التمام

والشعر للنابغة ، فقال الأخطل إن أمير المؤمنين إنما سألني عن أشعر أهل زمانه ، ولو سألني عن أشعر أهل الجاهلية لكنت حرياً أن أقول كما قلت أو شبيهاً به !

إن عملية تجميع شهادات علماء الشعر التي صدرت بحق الأعشى أمر فوق طاقة منهجنا ولمن يريد الاستزادة فثمة كتب الأدب حافلة ماثلة ، قال أبو عبيدة : فحلان في الجاهلية يُقويان النابغة وبشر بن أبي خازم .

أما بشر فقد قال له أخوه سواده : إنك تُقوي . قال : وما ذاك ؟ قال قولك (من الأحلام إذ صحبي نيامُ) ثم قلتَ بعده (إلى البلد الشآم) ففطن فلم يعد .

وأما النابغة فقد دخل يثرب فهابوه أن يقولوا له : لحنت ، أو أكفأت . فدعوا قينة وأمروها أن تغني في شعره ففعلت ، فلما سمع الغناء (وغير مزوّدِ) و (الغرابُ الأسود) وبان له ذلك في اللحن فطن لموضع الخطأ ، فلم يعد . إ. هـ .

والمدهش حقاً أن النابغة استشعر وجود عاهة في شعره بيد أنه لم يصل إلى تحديدها . قال خلاد الأرقط : « كان النابغة يقول إن في شعري لعاهة ما أقف عليها فلما قدم المدينة غني في شعره فلما سمع قوله : (واتقتنا باليدِ) و (يكاد من اللطافة يعقدُ) تبيّن له لمّا مدّت باليد فصارت الكسرة ياء ومدت يعقد فصارت الضمة كالواو فطن فغيره وجعله (غنم على أغصانه لم يعقد) وكان يقول : وردت يثرب وفي شعري بعض العاهة فصدرت عنها وأنا أشعر الناس . إ. هـ الأغاني 157/9 » .

إن علوّ كعب النابغة في الحياة وكونه واحداً من الأشراف ، وعذوبة شعره وقوه

أسره ، وتسابق الشارع الثقافي لحفظ شعره أو تلقيّه ، وانشغال المجالس بذكره ، فضلاً عن حكومة الشعر التي انفرد بها دون غيره ، ومبالغة ملوك الحيرة في الشرق وملوك بصرى في الغرب في إكرامه بحيث كان يكافأ على القصيدة الواحدة بهدايا تزيد على ما يتقاضاه خمسة شعراء مهمين . ولنا أن ننقل مشاعر حسان بن ثابت وهو يرى إلى ضآلة جائزته قياساً إلى حجم جائزة النابغة .

قال حسان بن ثابت فحسدته على ثلاث لا أدري على أيتهن كنت له أشد حسداً ، على إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له وإصغائه إليه ، أم على جودة شعره ، أم على مئة بعير من عصافيره أمر له بها .

وقد جلبت نجومية النابغة متاعب لا حصر لها ، فقد كثر حسّاده ومبغضوه ولنا أن نورد الآتي دليلاً على حجم الأذى الذي نال النابغة بسبب نجاحه وتميّزه !! نقلاً عن الأغاني 158/9 وبعدها .. كان النابغة مخنثاً أما سمعت قوله :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

لا والله ما أحسن هذه الإشارة ، ولا هذا القول إلا مخنث ، وأنشدها النابغة مرة بن سعد القُرَيعي ، فأنشدها مُرة النعمان فامتلأ غضباً ، فأوعد النابغة وتهدده ، فهرب فأتى قومه ، ثم شخص إلى ملوك غسّان بالشام فامتدحهم وقيل : إن عصام بن شهبر الجرمي حاجب النعمان أنذره وعرفه ما يريده النعمان فهرب . إن السبب في هرب النابغة من النعمان أن عبد القيس التيمي ومرة السعدي عملا هجاء في النعمان على لسان النابغة وأنشد النعمان منه أبياتاً يقول فيها :

☆ ملِك يلاعب أمّه وقطينه رخو المفاصل .... كالمرود
☆ قبّح الله ثم ثنى بلعن وارثَ الصائغ الجبان الجهولا

من يضرّ الأدنى ويعجز عن ضرّ الأقاصي ومن يخون الخليلا ، يعني بوارث الصائغ النعمان ، وكان جده لأمه صائغاً بفدك . يقال له : « عطية وأم النعمان سلمى بنت

عطية » « إن مرة القريعي الذي وشي بالنابغة كان له سيف قاطع يقال له : ذا الريقة من كثرة فرنده وجوهره فذكره النابغة للنعمان فأخذه فاضطغن ذلك القريعي حتى وشي به إلى النعمان وحرّضه عليه » « إن الذي من أجله هرب النابغة من النعمان أنه كان والمنخل بن عبيد بن عامر اليشكري جالسين عنده ، وكان النعمان دمياً أبرش قبيح المنظر . وكان المنخل اليشكري من أجمل العرب وكان يرمى بالمتجردة زوجة النعمان ويتحدّث العرب أن ابني النعمان منها كانا من المنخل ، فقال النعمان للنابغة ياأبا أمامة صف المتجردة في شعرك ، فقال قصيدته التي وصفها فيها ـ جزءاً فجزءاً ـ فلحقت المنخل من ذلك غيرة ، فقال للنعمان : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جرّبه ، فوقر ذلك في نفس النعمان ، وبلغ النابغة ، فخافه ، فهرب فصار في غسان ، وكان المنخل يهوى هنداً بنت عمرو بن هند وفيها يقول :

ولقد دخلت على الفتا ... ة الخدر في اليوم المطير

فبلغ عمراً خبر المنخل فأخذه فقتله » ، « ثم إن النعمان اطلع على ما بين المتجردة امرأته والمنخل من الريبة فقتلها في قصة طويلة » ويبدو أن النعمان كاتب النابغة سراً يوم كان مقيماً في ديار آل جفنة بالشام ودعاه إلى العودة ، مؤكداً له أن جديداً جد .. فبانت براءة النابغة ولقي الوشاة والخونة جزاءهم .. فعاد النابغة إلى بلاط النعمان ثانية ليجده مكتئباً مريضاً بعد قتله زوجته وصديقه لخيانتهما قال أبو عبيدة كانت ملوك العرب إذا مرض أحدهم حملته الرجال في سرير على أكتافها يتعاقبونه ... عاد النابغة ليجد مليكه وصديقه محمولاً على سرير المرض والكآبة والعبيد يتنقلون به ما بين الغمر وقصور الحيرة وقد حزن النابغة ، وقال شعراً جميلاً يخاطب فيه عصام حاجب النعمان :

ألم أقسم عليك لتخبرني ... أمحمول على النعش الهمام
فإني لا ألومك في دخولي ... ولكن ما وراءك يا عصام
فإن يهلك أبو قابوس يهلك ... ربيع الناس والشهر الحرام

أما معلقته فقد كتبها ليسترضي النعمان بالمديح ، ويدافع عن براءته ، ويعتذر إليه نافياً وشاية المنخل بشأن العلاقة المزعومة بين النابغة والمتجردة أو في الأقل بشأن التأويل الماكر الذي لجأ إليه خصومه حين حللوا شعره !! وقد بدأت المعلقة بالوقوف على الأطلال والحنين إلى الماضي ثم أمر الشاعر نفسه بالكف عن الحنين (فعدّ عما ترى) لينطلق على ناقته وسط الصحراء مشبهاً الناقة بثور الوحش على طريقة الشعراء الجاهليين ليصطنع صراعاً دموياً بين ثور الوحش من جهة والصياد وكلابه من جهة واحدة .. وبعد أن ينتصر الثور في المعركة لأن القصيدة في المديح يقول الشاعر : إن هذه الناقة التي أشبهت ثور الوحش المنتصر المجرّح هي التي ستوصلني إلى الممدوح . وفي المعلقة استثمار للرموز التاريخية والدينية مثل (سليمان) و (لبد) و (الجن) و (تدمر) و (فتاة الحي/الزرقاء) و (الحج إلى الكعبة) و (الأنصاب) ليصل إلى ضرب من الاعتذار الشجي . ثم أخيراً إلى المديح المبتكر .

☆ معلقة (يا دار مية) . البحر : البسيط . القافية : د . عدد الأبيات : 50

1- يـا دارَ ميّـةَ بـالعليـاء فـالسنَـد	أقوت وطـال عليها سـالف الأبـد
2- وقفت فيهـا أصيـلاً كي أسـائِلها	عيّت جواباً وما بالربع من أحـد
3- إلا الأواريّ لأيـاً مـا أبيّنهـا	والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد
4- ردت عليـه أقـاصيـه ولبّـده	ضربُ الـوليـدةِ بالمسحاةِ في الثـأد
5- خلت سبيـل أتيّ كان يحبِسُـه	ورفّعتـه إلى السجفين فـالنَّضـد
6- أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا	أخنى عليهـا الـذي أخنى على لبـد
7- فعـدّ عمـا ترى إذ لا ارتجـاع لـه	وانمِ القتـودَ على عيرانـةٍ أُجُـد
8- مقـذوفـة بـدخيص النحض بازِلُها	لـه صريفٌ صريفَ القعو بـالمسـد
9- كأن رحلي وقـد زال النهـار بنـا	بـذي الجليـل على مستـأنس وَحَـد
10- مِن وحْش وجرةَ مـوشيٌ أكارعُـه	طـاوي المصيرِ كسيفِ الصيقـل الفَرَد
11- سرت عليـه من الجـوزاء ساريـةٌ	تُزجي الشمالُ عليـه جـامـدَ البَرَد
12- فارتـاع من صوت كلاّب فبات لـه	طوْعَ الشوامتِ من خـوف ومن صرد
13- فبثّهنّ عليـه واستمر بـه	صُمعُ الكعـوب بريئـات من الجرد
14- وكان ضمرانُ منـه حيث يـوزِعُـهُ	طعْن المعارك عنـد المُحْجر النجـد
15- شك الفريصـة في المـدرى فـأنفذهـا	شـكٌ المبيطر إذ يَشفي من العضـد
16- كأنـه خـارجـاً من جنب صفحتـه	سفّـودَ شَرب نسـوه عنـد مفتـأد
17- فظـل يعجم أعلى الروق منقبضـاً	في حـالـك اللون صدقٍ غير ذي أود
18- لمـا رأى واشِقٌ إقعـاص صـاحبـه	ولا سبيـل إلى عقـل ولا قـود
19- قـالت لـه النفس إني لا أرى طمعـاً	وإنّ مـولاك لم يسلم ولم يصـد
20- فتلـك تُبلغني النعمانَ إنّ لـه	فضلاً على الناس في الأدنى وفي البَعَد
21- ولا أرى فـاعلاً في النـاس يشبهـه	ومـا أحـاشي من الأقـوام من أحـد
22- إلا سليمـانَ إذ قـال الإلـهُ لـه	قم في البريـة فـاحْـدُدْهـا عن الفنـد

23- وخيّس الجنَّ أني قــد أذنتُ لهم   يبنون تدمرَ بالصُّفّاح والعَمَد
24- فمن أطاع فأعقِبه بطاعته   كما أطاعك وادلُلْه على الرَّشَد
25- ومَن عصاكَ فعاقبه معاقبةً   تنهى الظلوم ولا تَقْعد على ضمد
26- إلا لمثلك أو مَن أنت سابقُه   سبْق الجواد إذا استولى على الأمد
27- واحكم كحكم فتاةِ الحي إذ نظرت   إلى حمامٍ سراعٍ واردِ الثّمد
28- قالت: ألا ليتما هذا الحمامُ لنا   إلى حمامتنا ونصفه فَقَد
29- يحفّهُ جانبا نيقٍ وتتبعُه   مثلَ الزجاجةِ لم تكحل مِن الرّمَد
30- فحسّبوهُ فألفوه كما حَسَبَتْ   تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزِد
31- فكمّلتْ مئة فيها حمامتُها   وأسرعَتْ حسبةً في ذلك العدد
32- أعطى لفارهةٍ حلوٍ توابعها   من المواهب لا تُعطى على نكد
33- الواهِبُ المئة الأبكارَ زَيَّنها   سعدانُ توضحَ في أوبارها اللِّبَد
34- والساحبات ذيولَ المرط أنّقها   برْدُ الهواجر كالغزلان بالجرد
35- والخيلُ تمزعُ غرباً في أعنّتها   كالطير تنجو من الشؤبوبَ ذي البرد
36- والأدمُ قد خيّست فُتلاً مرافقُها   مشدودةً برحال الحيرةِ الجُدُد
37- فلا لعمْرُ الذي مسّحت كعبته   وما هُريقَ على الأنصاب من جسد
38- والمؤمن العائذات الطيرَ يمسحُها   ركبانُ مكّةَ بين الغيض والسَّند
39- ما إن أتيتُ بشيءٍ أنت تكرَهُه   إذن فلا رفعت سوطي إليَّ يدي
40- إذن فعاقبني ربي معاقبة   قرّت بها عينُ من يأتيك بالحسد
41- هذا لأبرأ من قولٍ قُذِفتُ به   طارتْ نوافذه حرّاً على كبدي
42- مهلاً فداءٌ لك الأقوامُ كلّهم   وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن ولد
43- لا تقذفنّي برُكن لا كفاء له   ولو تأثَّفكَ الأعداء بالرّفد
44- فما الفراتُ إذا جاشتْ غوارِبُه   ترمي أواذيُّهُ العَبْرين بالزَّبد
45- يمدُّه كلُّ وادٍ مُزبدٍ لجب   فيه حطامٌ من الينبوت والخضد

46- يظــلُّ من خــوفــه المـلاّحُ معتصماً بـالخيزرانـة بعــد الأين والنّجــد

47- يــومـاً بـأجـود منــه سيبَ نــافلــةٍ ولا يحــولُ عطــاءُ اليـومِ دون غــد

48- نبئتُ أنّ أبــا قــابــوسَ أوعــدني ولا قرارَ على زأرٍ من الأســـــد

49- هــذا الثنــاءُ فـإن تسمعْ لقـائِلــه فمــا عرضْتُ أبيتَ اللعنَ بـالصَّفَــد

50- هــا إن تــا عَــذرةٌ إلا تَكُنْ نفعَت فإن صـاحبهـا قــد تـاه في البلــد

☆ معاني الكلمات

1 - مية : اسم امرأة . العلياء والسند : موضعـان أقـامت فيها ميـة ، وزعم أن العليـاء مكان مرتفع والسند سند الوادي في الجبل وهو ارتفاعه !! أقوت : خلت من أهلها . السـالف : المـاضي . الأبد : الدهر .

2 - الأصيـل وقت غروب الشمس وتلوّن الأفـق والمرئيـات بلـون أصفر فيـه حمرة . عيت : عجزت عنه . الربع : ديار الحبيبة استحالت آثاراً .

3 - الأواري مفردها آري وهو محبس الـدابـة . اللأي : البـطء . النؤي : حـاجز ترابي يعمل حول البيت أو الخيمة لمنع وصول الماء إلى أي منها . المظلومة : الأرض التي حفر فيهـا في غير موضع الحفر . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة .

4 - أقاصيه : ما شذّ منه . لبدّه : التلبدّ التراكم . الوليدة : الخادمة . الثأد : التراب النـدي . المسحاة : آلة زراعية لشق الطين وجرفه .

5 - الأتيّ : السيل الجارف أو النهر الصغير . السجفـان : ستران رقيقـان يكونـان في مقـدمـة البيت . النضد : ما نضد من متاع البيت والضمير في (خلّت) يعود إلى الخادمة في بيت4 .

6 - الخلاء : الخلو والفراغ . احتملوا : سافروا . أخنى عليها : نزل بهـا وغير سعـدهـا نحسـاً . لبد : آخر نسور لقمان فلما أهلك الله عاداً طلب إلى لقمان أن يختار مـدة بقـائـه من اثنين : أن تفنى سبع بعرات لا يمسّها المطر أو إلى أن تنتهي أعمار سبع نسور كلما هلك واحد خلفـه آخر ، فـاختـار النسور ولبد هو اسم آخر النسور السبعة ، وحين كبر لبد وعجز عن النهوض قـال لـه لقمان : انهض لبد فأنت الأبد .

7 - عدّ : اترك هذا الأمر أي الحنين والشوق للماضي وهذا تقليد شاع في القصيدة الجاهليـة ،

يمثّل نقله فنية بين الوقوف على الأطلال وممارسة الحنين والبكاء وبين الانتقال إلى السفر بوساطة ناقة قوية تشبه ثور الوحش أو حمار الوحش[22] . انم : ارفع . القتود : خشب الرحل . العيرانة : الناقة المشبهة بالعير أي الحمار . الأجد : الناقة القوية الموثقة الخلق .

8 ـ مقذوفة : مرمية باللحم . الدخيص : الكثير المتداخل . النحض : اللحم . البازل : الكبير . الصريف : الصياح من شدة الإعياء أو النشاط !! القعو : ما يضمّ البكرة إذا كان خشباً . المسد : الحبل المفتول القوي من ليف أو خوص أو شعر أو وبر أو صوف .

9 ـ زال : انتصف . رحلي : ناقتي . الجليل : واد قرب مكة يكثر فيه نبات الثمام . المستأنس : الناظر بعينه . الوحد : المنفرد .

10 ـ وجرة : موضع بين مكة والحيرة وهي أربعون ميلاً ليس فيها منزل ولا نبات ولا ماء يكثر فيها الوحش . الموشي : الملوّن بالأبيض والأسود . الأكارع : القوائم . طاوي المصير : ضامر المصران . كسيف الصيقل : كناية عن اللمعان . الفرد : الذي ليس له نظير .

11 ـ سرت عليه : أمطرت عليه بنوء الجوزاء (كما يزعم) . تزجي : تسوق برفق . الشمال : ريح الشمال .

---

(22) رومية . وهب ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، طب اتحاد كتاب فلسطين 1975 . القيسي . د.نوري ، وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية ، طب دار الكتب ، الموصل 1974 .

أ ـ زهير

(دع ذا وعدّ القول في هرم   خير الكهول وسيّد الحضر)

ب ـ أوس بن حجر

(فدعها وسل الهمّ عنك بجسرة   عليها من الحول الذي قد مضى كتر)

جـ ـ لبيد

(فاقطع لبانة من تعرّض وصله   ولشرُّ واصلِ خلّة صرّامها)

د ـ سلامة بن جندل

(دع ذا وقل لبني سعد بفضلهم   مدحاً يسير به غادي الأراكيب)

هـ ـ الأعشى

(فدعها لما يعنيك واعمد لغيرها   بشعرك واعلب أنف من أنت واسم)

و ـ امرؤ القيس

(فدع ذا وسلّ الهم عنك بجسرة   ذمول إذا صام النهار وهجّرا)

12 ـ ارتاع : خاف . كلاّب : صياد يعتمد على الكلاب . الشوامت : القوائم . الصرد : البرد الشديد .

13 ـ بثهن : فرقهن . الصمع : الضوامر . الكعوب : مفاصل العظام . الحرد : مرض يصيب أرجل البعير بالاسترخاء .

14 ـ ضمران : اسم كلب وربما صفة له لأنه يضمّر أي يدرّب فهو ضامر من الرياضة !!. يوزعه : يغريه . منه : الضمير عائد إلى الثور . المحجر : الملجأ . النجد : ذو المروءة والقوة والنجدة .

15 ـ شك : جرح وأنفذ . الفريصة : اللحم الذي بين الصدر والكتف من الإنسان والدابة وهي ترعد عند الخوف قبل سائر الأعضاء . المدرى : القرن . المبيطر : طبيب الحيوان . العضد : داء يصيب العضد من الجمل .

16 ـ السنود : بفتح السين وضمّها قناة رفيعة من الحديد ذات شعب معقفة لشيّ اللحم . الشرب : رفاق الخمرة . المفتأد : النار المخصصة لشيّ اللحم .

17 ـ يعجم : يعضّ أو يمضغ . الروق : القرن . الحالك : الشديد السواد . الصدق : الصلب . الأود : العوج .

18 ـ واشق : اسم الكلب الآخر . الإقعاص : القتل المعجّل في المكان عينه . العقل : دفع ديّة القتيل وقد يكون الحبس والتقييد عقلاً !! القود : قتل النفس بالنفس وهو القصاص .

20 ـ فتلك : الناقة المشبهة بالثور .

21 ـ أحاشي : استثنى من حاش فلاناً .

22 ـ أحددها : أمنعها . الفند : الخطأ والضلالة .

23 ـ خيسّ : ذلل وأمر وأخبر . تدمر (معجم البلدان 433/1) مدينة قديمة مشهورة في برية الشام في طريق حلب وهي من عجائب الأبنية موضوعة على العمد الرخام زعم قوم أنها مما بنته الجن لسليمان عليه السلام ، وأهل تدمر يزعمون أن ذلك البناء قبل سليمان بن داوود بعشرات القرون ولكن الناس إذا رأوا بناءً عجيباً وجهلوا بانيه أضافوه إلى سليمان وإلى الجن ، ونقل ياقوت الحموي كلاماً لخالد بن عبد الله القسري يقول فيه : « كنت مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية حين هدم حائط تدمر دون إذنه بسبب خلاف بين جماعتين فقتل الجماعتين وفرّق الخيل عليهم تدوسهم وهم قتلى فطارت لحومهم وعظامهم في سنابك الخيل ، وقد أفضى هدم حائط المدينة إلى

جرف عظيم فكشفوا عنه صخرة فإذا ببيت مجصص كأن يد البناء رفعت عنه تلك الساعة وإذا فيه سرير عليه امرأة مستلقية على ظهرها وعليها سبعون حلة وإذا لها سبع غدائر مشدودة بخلخالها ! قال فذرعت قدمها طولها ذراعاً من غير الأصابع وإذا في بعض غدائرها صحيفة ذهب فيها مكتوب : باسمك اللهم ، أنا تدمر بنت حسّان أدخل الله الذل على من يدخل بيتي هذا فأمر مروان بالجرف فأعيد كما كان ، ولم يأخذ مما كان عليها من الحلي شيئاً ، قال : فوالله ما مكثنا على ذلك إلا أياماً حتى أقبل عبد الله بن علي فقتل مروان وفرّق جيشه واستباحه وأزال الملك عنه وعن أهل بيته .

وكان من جملة التصاوير التي شوهدت بتدمر صورة جاريتين من حجارة وهي بقية صور كانت هناك ... 433/1 .

وتعليقنا على تلك المزاعم أنها مزيج من خيال وواقع ، ويبدو أن مثل هذه القصص العجائبية كانت تلقى رواجاً بين الناس والأمراء على حد سواء مما حبّذ للقصاص خلط الواقع بالأسطورة !! إ.هـ . الصفاح : مفردها صفاحة وهي حجارة رقيقة وعريضة . العمد مفردها عمود : أسطوانة من الرخام .

25 ـ الضمد : الحقد .

26 ـ مثلك : من كان من نسلك أو شبيهاً لك . الأمد : الغاية .

27 ـ احكم : كن حكيماً . فتاة الحي : زرقاء اليمامة . الثمد : الماء .

28 ـ فقد : فحسب .

29 ـ يحفّه : يقاربه أو يحيط به . النيق : أعلى الجبل . مثل الزجاجة : أي إن عينها صافية مثل الزجاجة لم تكحل من الرمد : كناية عن صحتها وجمالها .

30 ـ حسّبوه : أحصوه . ألفوه : وجدوه .

31 ـ الحسبة : الجهة التي يحسب منها زنة اللبسة والجلسة والحسبة المرة الواحدة . وقصة زرقاء اليمامة مذكورة تفصيلاً في معجم البلدان باب الياء والميم وما يليهما ، اليمامة 505/4 وما بعدها حتى ص509 .

32 ـ الفارهة : الكريمة من الإبل والفتية أيضاً . توابعها : العطايا الممنوحة معها . النكد : الشؤم والضيق . المواهب مفردتها موهبة وهي الهبة .

33 ـ السعدان : نبت تسمن عليه الإبل وتغزر ألبانها ويطيب لحمها . توضح : اسم موضع . اللبد : ما تلبدّ من الوبر واحدتها لبدة .

34 ـ الساحبات : الجواري . المرط : ثوب أخضر من ثمين الخز أو الصوف أو الكتان جمعه مروط . أنّقها : أعطاها ما يُعجبها ، أو يجعلها موضع إعجاب . الهواجر مفردها هاجرة : حرّ منتصف النهار وهو أشدّ الحر ، وهذه الجواري الحسان لا تسير في شدة الحر . الجرد : الموضع الذي لا نبت فيه ولا ظل .

35 ـ تمزع : تُسرع . غرباً : حدّة : الشؤبوب . السحاب العظيم المطر ، ولا يقال للمطر شؤبوب إلا وفيه برد .

36 ـ الأدم : النوق . خيست : ذللت . فُتلاً مرافقها : مرافقها مفتولة مما يعيقها في السير . الجدد : الرحل يوضع على ظهر الدابة وقوله الحيرة الجدد إشارة إلى أنها مصنوعة في الحيرة إشارة لغلائها .

37 ـ صدر البيت قسم بالله تعالى رب الكعبة . وعجز البيت (!!) هريق : لغة في أريق الأنصاب حجارة كانت الجاهلية تنصبها وتذبح عندها . الجسد : الدم والصبغ .

38 ـ العائذات : ما عاذ بالبيت . الغيض والسند مرتفعان يتألف منهما جبل أبي قبيس وقيل : إن الغيض الماء ينزل بهيئة شلال من أبي قبيس .

39 ـ فلا رفعت سوطي إليّ يدي : عبارة شائعة في الجاهلية تحل محل القسم ، وهي كناية عن الشلل ، والمعنى شلّت يد الشاعر إن أتى بشيء يكرهه النعمان .

40 ـ قرّت العين : بردت والقرور الدمع البارد .

41 ـ النوافذ : جراح عميقة . قذفت به : أتهمتَ به إتهاماً باطلاً .

43 ـ الكفاء : الشبيه . تأثّفك : قاربوك فاستندت إليهم كما يستند القدر على الأثافي . الرفد : العطاء أو المساعدة .

44 ـ جاشت : فارت . الغوارب : الأعالي ومعناها هنا الأمواج والفيضان . الأواذي : الأمواج . العبرين : الضفتين .

45 ـ اللجب : ذو الصوت والتكاثف . الينبوت : شجر الخشخاش ، وقيل غير ذلك : شجرة شوكية لها فروع كثيفة الورق ، وقيل : هو الخروب ثمرته مثل التفاحة فيها حب أحمر والجاهليون

يتداوون بها من أوجاع البطن ، وقيل الينبوتة تشبه شجرة التفاح الكبيرة ، لها ورق أصغر من ورق التفاح ، وثمرها أصغر من الزعرور شديدة السواد والحلاوة ويستعمل نواها مثاقيل في الموازين . الخضد : ماثني وتكسر من النبت .

46 ـ الخيزرانة عصاة مرنة تتثنى وأراد المردي ، وقيل : إن الخيزرانة خشبة في مؤخرة السفينة يمسكها الملاح ليتماسك . الأين : الإعياء . النجد : الكآبة . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة .

وقفة فنية : الأبيات (44ـ47) سلوك جمالي دشنته القصيدة الجاهلية واسمه (النفي والجحود) ، ويقوم هذا النمط الأسلوبي على ترتيب عدة صور لجلاء صورة أو حدث ، وقد أورده ابن معصوم المدني نمطاً ثانياً للتفريع ، فالنمط الأول حدوده بأن يثبت لمتعلق أمر حكماً بعد إثبات ذلك الحكم لمتعلق آخر على وجه يشعر بالتفريع والتعقيب ، وهذا النمط غير مشهور . أما النمط الثاني فقد قال بشأنه ابن معصوم : وسماه بعضهم النقي والجحود وهو أن يأخذ المتكلم في وصف فيقول : ما كذا ويصفه بمعظم أوصافه اللائقة به في الحسن أو القبح ثم يجعله أصلاً يفرّع منه معنى فيقول .. بأفعل من كذا وهو المعنى المشهور للتفريع ، ومثاله قول الأعشى : (ديوانه ق4 ب36ـ39) :

وما مزبد من خليج الفرا	ت جونٌ غواربه تلتطم
يكُب الخلية ذات القلا	ع قد كاد جوجؤها ينحطم
تكأكأ ملاحها وسطها	من الخوف كوثلها يلتزم
بأجود منه بما عونه	إذا ما سماؤهم لم تغم

والذي نراه أن النفي والجحود نمط من الأسلوب التصويري ينم عن دراية الشاعر بمواضع التأثير في نفس المتلقي ومواضع السحر في الشعر ، فمثل هذا النمط قادر على بث شحنات من الإيحاء تقرب صورة من يحب ثم يجلوها ويزينها ، وقد غلا في ذلك أبو ذؤيب الهذلي حتى لا تكاد تخلو منه قصيدة من قصائده[23] .

48 ـ أبو قابوس : النعمان بن المنذر ، الزأر : صياح الأسد .

(23) الصائغ ، د. عبد الإله ، الصورة الفنية معياراً نقدياً ، انظر مبحث النفي والجحود ، الفصل الخامس ص383 .

49 ـ والصفد العطية والمكافأة . أبيت اللعن : عبارة يُخاطب بها الملوك ومعناه أيها الملك أنت أبيت أن تأتي شيئاً تلعن عليه .

50 ـ هذا البيت يلخص همّ المعلقة ومعناه .. هذه القصيدة هي اعتذاري إلى الملك فإن لم يقبلها الملك فإن صاحب القصيدة أي النابغة سيضيع في الأرض .

10 ـ عَبِيد بن الأبرص (ت 565 ق . هـ / 605م)

هو عبيد (بفتح العين وكسر الباء) بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن مالك بن الحارث بن سعد بن ثعلبة بن دودان بن أسد على رواية ابن قتيبة ص166 وعبيد بن الأبرص بن حنتم بن عامر بن مالك .. بن أسد وصولاً إلى مضر على رواية الأصبهاني 84/19 والتبريزي ص323 .

وهو عبيد بن الأبرص بن عوف بن جشم بن عامر بن مالك وصولاً إلى مضر على رواية الشنقيطي ص143 .

وقد وضعه الجمحي ص78 في الطبقة الرابعة مع طرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة وعدي بن زيد .

وذكر جرجي زيدان 114/1 أن عبيد توفي (555م) وهو (من شعراء الطبقة الأولى) !! أما أبو زيد القرشي ص173 فقد وضعه ضمن شعراء المجمهرات ، وهو أولهم ، ويتلوه عدي بن زيد ، وبشر بن أبي خازم ، وأمية بن أبي الصلت ، وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب !! ويعني القرشي بالمجمهرات القصائد المحكمة السّبك ، واللفظة مأخوذة من الناقة المجمهرة وهي المتداخلة الخلق كأنها جمهور من رمل ، وترتيب أصحاب المجمهرات هو أنهم من الطبقة الثانية يأتون بعد شعراء المعلقات المنعمين بالطبقة الأولى ، وهم عند القرشي (امرؤ القيس وزهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم وطرفة) !! وكلما اختلف المؤرخون وعلماء الشعر في شاعر فإن ذلك يعني أهمية مقام الشاعر بين شعراء عصره وفي موازين النقد التي سادت في زمانه !!

يقول ابن قتيبة : وكان عبيد شاعراً جاهلياً قديماً من المعمرين وشهد مقتل حجر أبي امرئ القيس وهو القائل لامرئ القيس :

يا ذا المخوفنا بقتل أبيه إذلالاً وحَينا
أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذباً ومينا
هلا على حُجر بن أم قطام تبكي لا علينا
إنا إذا عضّ الثقاف برأس صعدتنا لوينا
نحمي حقيقتنا وبعض القوم يسقط بين بينا
هلا سألتَ جموع كندة يوم ولو أين أينا
أيامَ نضرب هامهم ببواتر حتى انحنينا

وقتله النعمان بن المنذر يوم بؤسه ، وحين رآه النعمان شيخاً فانياً مرعوباً قال له : هلا كان هذا لغيرك يا عبيد ، أنشدني شيئاً من شعرك فربما راقني شعرك ، فقال له عبيد وهو يرتجف : « حال الجريضُ دونَ القريض » ولم يتركه النعمان ، بل طلب إليه أن ينشده : (أقفر من أهله ملحوب) فأنشده عبيد فرقّ النعمان لحاله ومنحه حرية اختيار الطريقة التي يموت فيها !! وحين أدرك عبيد أنه ميت لا محالة التمس الملك أن يسقيه الراح حتى إذا ثمل وفقد وعيه يقطع له عرقاً في الأكحل فاستجاب النعمان لالتماسه ، وجمع دمه في طست ولطّخ به الغريين وموقعه في النجف ، وما زالت النجف تسمى حتى اليوم أرض الغري والغريان طرباً لأنّه كان يلطخهما النعمان بدماء ضحاياه يوم بؤسه ، وقد بناهما ليكونا نصباً تذكارياً فوق مثوى نديميه اللذين قتلهما في لحظة سكر ملعونة وحين أفاق ندم على فعلته وبكاهما مرّ البكاء وكانت الكآبة وذكراهما تعتاداه فيجعل يوم كآبته يوم بؤس وبدلاً من أن يكفّر عن جريمته ، نراه قد أمعن في القتل فأضاف إليهما جيشاً من الأبرياء .. كان عبيد واحداً من هذا الجيش ! ويرى الأصبهاني أن عبيداً فحل فصيح من شعراء الجاهلية ، ونقل خبراً عن أبي عمرو الشيباني : كان من حديث عبيد بن الأبرص أنه كان رجلاً محتاجاً ولم يكن له مال ، فأقبل ذات يوم ومعه

غنيمة له ومعه أخته ماوية ليوردا غنمها فمنعه رجل من بني مالك بن ثعلبة وجبهه ، فانطلق عبيد حزيناً مهموماً وشق عليه أن يهان أمام أخته حتى أتى شجيرات فاستظل تحتها فنام هو ونامت أخته إلى جانبه (فزعموا) أن المالكي نظر إلى عبيد وأخته ماوية إلى جنبه فقال :

ذاك عبيد قد أصاب ميا ـ ياليته ألقحها صبيّاً ـ فحملت فوضعت ضويّا فسمعه عبيد فرفع يديه إلى السماء ثم ابتهل وقال : اللهم إن كان المالكي ظلمني ورماني بالبهتان فانصرني عليه ، ثم عاد إلى النوم ثانية ولم يكن قبل ذلك قد قال الشعر ، فأتاه آت في الحلم وكبّ في فمه شعراً ثم أمره بالقيام فقام وهو يرتجز ، وأسمع المالكي رجزاً هجاه فيه أقذع الهجاء وأفحم المالكي فاعتذر له ولأخته ، ثم استمر بعد ذلك في قول الشعر ، وكان شاعر بني أسد غير مدافع .

وقد حيكت حول شاعريته حكايات عجائبية أخرى فقيل : إن عبيداً في واحدة من أسفاره رأى شجاعاً (أفعى) يتمعك على الرمضاء ، وكان مع عبيد فضلة من ماء ليس معه ماء غيرها فنزل فسقاه الماء عن آخره حتى روي وانتعش وانساب الشجاع في الرمل .. وقد اتضح أن هذا الشجاع واحد من شياطين الشعر فعقدت بين الاثنين صداقة متينة وصار الشجاع مثل (السوبرمان) ينجد عبيداً في اللحظات المهلكة ، ولا ندري أين كان هذا الشجاع حين قتل عبيد ؟!

وقيل في قتله كلام كثير ، يدل أكثره على تفاهه حياة الإنسان في العصر الجاهلي وتسلّط الحكام برقاب الناس ، أما شعره فأكثره قد ضاع وذكر جرجي زيدان ما يلي : « ولعبيد ديوان تحت الطبع على يد لجنة تذكار جيب بإنجلترة مع ديوان عامر بن الطفيل بتصحيح المستشرق LYALL » وقد طبع ديوان عبيد بن الأبرص مفرداً بتحقيق الدكتور حسين نصار عام 1957 بمصر مطبعة مصطفى البابي ، ولكن ديوانه المطبوع لم يتضمن سوى جزء من شعره ! يقول ابن سلام ص79 : وعبيد بن الأبرص

قديم عظيم الذكر ، عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله (أقفر من أهله ملحوب) ولا أدري ما بعد ذلك . ا . هـ .

وقد شكك د . طه حسين بعبيد وشعره « فالرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشيء يقبل الصدق إنما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات ، كان صديقاً للجن والسماء معاً .. ولعبيد مع الجن أحاديث لا تخلو من لذة وعجب ، ولكن كل ما نقرأ من أخبار عبيد لا يعطينا من شخصيته شيئاً ، ولا يبعث الاطمئنان إلا في أنفس العامة أو أشباه العامة »[24] .

ويلاحظ المتمعن في كلام طه حسين شيئاً من العجرفة التي لا تناسب الخطاب العلمي المستند إلى الأدلة العلمية فهو يتهم خصومه بأنهم من عامة النّاس أو أشباه العامة أي إنهم غير مثقفين فضلاً عن لهجة الاستعلاء التي درج عليها رجل من العامة حصل على الدكتوراه من باريس ، ولماذا لا يطمئن طه حسين مثلاً لمعلقة عبيد وهي مضطربة الوزن ، ولو رضينا عن اعتدادها من شغل الوضّاح لبلنتنا موزونة مثلاً !! والقدماء يقولون : إن (أقفر من أهله ملحوب) كانت خطبة ألقاها عبيد فاستقام وزنها ثم عدّل فيها ونقّح .

---

(24) حسين . د . طه ، في الشعر الجاهلي ، طبعة دار المعارف سوسة ـ تونس 1997 ، ص 163 .

☆ معلقة (أقفر من أهله ملحوب) . البحر : مخلّع البسيط . القافية : ب .

عدد الأبيات : 48

1-	أقفر من أهلـه ملحـوب	فـالقطّبيـاتُ فـالـذنـوب
2-	فراكس فثعيلبـات	فـذاتُ فرقين فـالقليب
3-	فعردةٌ فقفـا حِبِرّ	ليس بهـا منهم عريب
4-	وبـدّلت منهمُ وحـوشـاً	وغيّرت حـالهـا الخطـوب
5-	أرض تـوارثهـا شُعـوب	فكل من حلّهـا محروب
6-	إمـا قتيـلاً وإمـا هـالكاً	والشيب شين لمن يشيب
7-	عينـاكَ ومعُها سرُوبُ	كأن شـأنيها شعيب
8-	واهيـة أو معين معْن	من هضبـة دونهـا لَهُـوب
9-	أو فلـجٌ ببطن وادِ	للمـاءِ من تحتـه قسيب
10-	أو جـدولٌ في ظـلال نخـل	للمـاء من تحتـه سُكـوب
11-	تصبـو وأنى لـك التصـابي	أنى وقـد راعـكَ المشيبُ
12-	فـان يكن حـالَ أجمعُهـا	فـلا بـديٌّ ولا عجيب
13-	أو يـك أقفر منهـا جـوُّهـا	وعـادهـا المحلُ والْجُـدوب
14-	فكل ذي نعمـة مخلـوس	وكل ذي أمـلٍ مكـذوب
15-	وكل ذي إبـل مـوروث	وكل ذي سلب مسلـوب
16-	وكل ذي غيبـةٍ يـؤوب	وغـائبُ المـوت لا يـؤوب
17-	أعـاقِرٌ مثـلُ ذات رحْم	أو غـانم مثـلُ من يخيب
18-	مَن يسـأل النـاسَ يحرمـوه	وسـائِـلُ الله لا يخيبُ
19-	بـالله يُـدركُ كل خيرِ	والقـولُ في بعضِـهِ تلغيبُ
20-	والله ليس لـه شريـكٌ	عَـلاّمُ مـا أخفتِ القلِـوب
21-	أفلـح بمـا شئتَ فقـد يُبْلـغُ بـالـ	ـضَعْف وقـد يُخْـدعُ الأريبُ

22- لا يعِظُ الناسَ من لا يعظُ الدَّ هْرُ ولا ينفعُ التلبيبُ
23- إلا سجيّاتُ مِ القلوب وكم يُصيرنّ شانئاً حبيبُ
24- ساعِدْ بأرضٍ إن كنتَ فيها ولا تقل إنني غريب
25- قد يوصَلُ النازحُ النائي وقد يُقْطعُ ذو السُّهْمةِ القريبُ
26- والمرءُ ما عاشَ في تكذيبٍ طولُ الحياة له تعذيب
27- بل رُبّ ماءٍ وردْتُهُ آجنٍ سبيله خائفٌ جديب
28- ريشُ الحمامِ على أرجائه للقلبِ مِن خوفه وجيب
29- قطعتُه غُدوةً مشيحاً وصاحبي بادن خَبوبُ
30- عيرانةٌ مؤجَدٌ فَقَارُها كأنّ حاركها كثيبُ
31- أخْلَفَ بازلاً سديسٌ لاحِقّةٌ هي ولا نَيوبُ
32- كأنها من حمير عاناتٍ جوْنٌ بصفحته ندوب
33- أو شببٌ يرتعي الرُّخامى تلُطّهُ شمألٌ هَبوبُ
34- فذاك عصْرٌ وقد أراني تحملني نهدةٌ سُرْحُوب
35- مُضبّرٌ حلقُها تضبيراً ينشقُّ عن وجهها السبيبُ
36- زيتيةٌ نائمٌ عُرُوقُها ولَيّنٌ أسرُها رطيبُ
37- كأنها لقوةٌ طلوبٌ تيبّسُ في وكْرِها القلوب
38- باتت على إرْمٍ عذوباً كأنها شيخةٌ رقوبُ
39- فأصبحتْ في غداةِ قُرٍّ يسقطُ عن ريشها الضريبُ
40- فأبصرتْ ثعلباً سريعاً ودونَهُ سبسبٌ جديبُ
41- فنفّضت ريشها وولّتْ وهي من نهضة قريب
42- فاشتالَ وارتاع مِن حسيسٍ وفِعْلُه يفعلُ المذؤوبُ
43- فنهضت نحوه حثيثاً وحَرَدت حرْدَه تسيبُ
44- فدبّ من خلفِها دبيباً والعينُ حِملاقُها مقلوب

45ـ فـــأدركتْـــه فطرّحتْـــه والصيـــدُ من تحتهـــا مكروب

46ـ فجـــدّلتـــه فطرّحتْـــه فكـــدحت وجْهَـــهُ الجبـــوبُ

47ـ فعـــاودتْـــهُ فرفّعَتْـــه فـــأرسلتـــه وهـــو مكروب

48ـ يضغـــو ومخلبُهـــا في دَفّـــه لا بـــدَّ حيزومـــه منقـــوبُ

☆ معاني الكلمات

1 ـ أقفر : خلا . ملحوب : ماء لبني أسد . القطبيات : بالضم ثم التشديد ثم باء ثم ياء مشددة : اسم جبل . الذنوب : اسم موضع .

2 ـ راكس وثعيلبات : موضعان . القليب : البئر . ذات فرقين : هضبات متفرقة مثل الأسنمة .

3 ـ عردة : هضبة فيها ماء لكعب بن عبد بن أبي بكر . حبر : بكسرتين وتشديد الراء جبل بديار بني سليم . عريب ومعرب : أحد .

5 ـ شعوب : اسم للمنية . المحروب : المسلوب .

6 ـ والنصب في (قتيلاً وهالكاً) على تقدير ، إما أن يكون ذلك المحروب قتيلاً ، وإما أن يكون هالكاً . الشيب شين : الجاهليون يستحبون أن يموت الإنسان وفيه بقية قبل أن يزري به الكبر .

7 ـ سروب : يطلع دون إرادة . الشأن : مجرى الدمع . الشعيب : المزادة المنشقة .

8 ـ واهية : بالية . المعين : الذي يأتي على وجه الأرض من الماء فلا يردّه شيء . المعن والممعن : السريع . اللهوب مفردها لهب : شق في الجبل والمعنى : كأن دمعه ماء يمعن من هذه الهضبة منحدراً وفي أسفله شق !

11 ـ تصبو : تعشق من الصبوة . أنى لك : كيف لك بهذا . راعك : أفزعك .

12 ـ حال : تغيّر وانتقل . البدي : المبتدأ وأول الديار ، وتأتي بدي بمعنى غريب وعجيب وفري .

13 ـ الجو : الوسط . عادها : انتابها وأصابها وأصله من عيادة المريض . المحل والجدوب : واحد .

14 ـ المخلوس : المسلوب على غفلة منه . وكل ذي أمل مكذوب : الأمل الذي لا يُنال يشبه الكذب على النفس أو الآخر .

15 ـ كل من كان له شيء سلبه من غيره فهو يسلب يوماً ما .. وإن لم يسلبه أحد مثله فلسوف يسلبه الموت ..

16 ـ يؤوب : يعود .

17 ـ العاقر : المرأة التي لا تلد والرملة التي لا تنبت . ذات رحم : المرأة الولود .

19 ـ تلغيب : ضعف والسهم اللغب الذي لا يراهن عليه لتعرّجه وانتفاخه .

21 ـ أفلح : من الفلاح وهو البقاء ، أي عش كيف شئت فلاعليك فقد يدرك الضعيف بضعفه ما لا يدرك القوي . الأريب : العاقل وقد سئل الحطيئة من أشعر الناس ؟ قال الذي يقول أفلح بما شئت ..

22 ـ التلبيب : تكلف اللب أي العقل من غير طبع ولا غريزة .

23 ـ إلاّ سجيات : إلا أن يكون العقل سجية وليس ادعاء و (م) لغة في من ، والمعنى أن العقل سجية من القلب ، وليس ادعاء من اللسان . الشانيء : المبغض .

25 ـ النازح والنائي واحد . يقطع : يعق . السهمة : النصيب . والمعنى قد يقف الناس القريب ويصلون البعيد فاعلم ذلك أيها الغريب .

27 ـ الآجن : المتغيّر الطعم والرائحة . خائف : مخوف والعرب تريد أحياناً بصيغة الفاعل المفعول .

28 ـ أرجاؤه : نواحيه . الوجيب : الخفقان . ريش الحمام : كناية ذكية أراد بها أن الحمام يأتي الماء ليشرب فيجد من يختبئ له ويصطاده ويأكله فلا يبقى منه سوى الريش .. وريش الحمام استعارة تصريحية جميلة لمشبه محذوف هو ملابس وأمتعة الناس المقتولين الذي يأتون للحياة فكأنهم يأتون للموت !!

29 ـ قطعته : أي قطعت موضع هذا الماء المفخخ بالقتلة واللصوص وطلاب الثأر . مشيحاً : الحذر الجاد أو الذي لا يلتفت إلى الشيء حتى لا يراه . بادن : ناقة قوية البدن . خبوب : تخبّ في سيرها .

30 ـ العير : الحمار المتوحّش والأليف ، ووصف الناقة بحمار الوحش يشبه التقليد بما يؤسس قوة الناقة في الذهن .. لأنهم يرون إضفاء صفة الفحول على ناقة إشارة مهمة لقوتها .. فهي عيرانة

وجمالية . المؤجد : ناقة قوية موثّقة الخلف وأجد متصلة الفقار تراها كأنها عظم واحد . والأُجُد : اشتقاقه من الإجاد والإجاد هو الطاق القصير . الفقار : خرز الظهر . الحارث : المنسج . الكثيب : الرمل وهذه الصورة كناية عن ملاسة ظهر الناقة وقوته .

31 ـ أخلف : أتى عليها سنة بعد ما بزلت ، والسديس ينبت قبل البازل والسديس السن بعد الرباعية وذلك في السنة الثامنة . وفي الحديث : « إن الإسلام بدأ جذعاً ثم ثنيّاً ثم رباعياً ثم سديساً ثم بازلاً » .

حقة : الناقة ابنة الثلاث التي دخلت في الرابعة سميت بذلك لاستحقاقها أن يحمل عليها وأن ينتفع بها . الناب والنيوب : الناقة المسنّة سمّوها بذلك حين طال نابها وعظم .

32 ـ عانات : مدينة كأن بيوتها عانات أي قطع من الظباء ، وهي قرى مضمومة إلى هيت . لجون : أبيض وأسود . صفحته : جنبه . ندوب : آثار العض مفردها ندبة .

33 ـ الشبب : الذي قد تمّ شبابه وسنه . الرخامى : نوع من البقول مغبّر الخضرة له زهرة بيضاء لها عرق أبيض تحفره الحمر بحوافرها والوحش لتأكله فهو حلو وطيّب (كذا) . تلفه : يعني تلُف الثور واللف الإحاطة بالشيء . الشمأل : ريح الشمال . هبوب : الهابّة .

34 ـ عصر : زمان مضى . نهدة : فرس قوية . سرحوب : سريعة سمحة وقيل طويلة الظهر .

35 ـ مضبّر : موثّق والإضبارة إضامة من كتب . أو من صحف أو سهام وضبرت الشيء جمعته . السبيب : شعر الناصية ، يقول هي حادة البصر فناصيتها لا تستر بصرها .

36 ـ زيتية : لينة الركوب مريحته . نائم عروقها : ساكنة لصحّتها . ليّن : مرن . أسرها : خلقها وتكوينها . رطيب : مرن ولين ومتثن وقيل في (نائم عروقها) إنها ليست ناتئة العروق لأنها مكتنزة لحماً !!

37 ـ اللقوة : أنثى العقاب الخفيفة السريعة الاختطاف وقال أبو عبيدة : سميت لقوة لسعة أشداقها ، وقال التبريزي : لأنها سريعة التلقي لما تطلب . وقيل : اللقوة العقاب أنثى كان أو ذكراً . طلوب : لا تخطيء مطلبها . القلوب : هي قلوب الطير .

38 ـ الإرم : الجبل والمرتفع . العذوب : الذي لا يأكل شيئاً ولا يشرب . الرقوب : التي لا يبقى لها ولد والمعنى استناداً للتبريزي : باتت لا تأكل ولا تشرب كأنها عجوز ثاكل يمنعها الثكل من الطعام والشراب .

39 ـ الضريب : الجليد وضربت الأرض إذا أصابها الضريب .

40 ـ السبسب : الأرض المستوية القفرة البعيدة لا ماء بها ولا أنيس .

41 ـ النهضة : الطيران يقول التبريزي : يقول عبيد : حين رأت الصيد بالغداة وقد وقع عليها الجليد نشرت ريشها وانتفضت رمت بذلك عنها ليمكنها الطيران وإنما خص بها الندى والبلل ، لأنها أنشط ماتكون في يوم الطل ، وقيل : لأنها تسرع إلى أفراخها خوفاً عليها من المطر والبرد ، وصفها بأنها أصبحت والضريب على ريشها فطارت إلى الثعلب يقول : هي قريب أن تنهض إذا ما رأت صيدها .

42 ـ اشتأل : يعني الثعلب أي رفع ذنبه من حسيس العقاب . المذؤوب : الفزع بكسر الزاي وأصله من خوف الإنسان أو الحيوان من الذئب .

43 ـ نهضت : طارت . نحوه : أي الثعلب . حثيثاً : سريعاً . حرّدت : قصدت . تسيب : تنساب .

44 ـ دبّ : يعني الثعلب أي إن الثعلب دبّ حين رآها مقبلة نحوه دبيباً . الحماليق : عروق في العين (من الفزع انقلب حملاق عينه وقيل الحملاق جفن العين أو ماغطته العيون ، وقيل بياض العين أو العروق التي في بياض العين) .

46 ـ جدّلته : طرحته بالجدالة وهي الأرض . الجبوب : الحجارة أو الأرض الصلبة وقيل : الجدل شدة الفتل وجدل الشيء أحكم فتله ، والجديل : الزمام المجدول من الجلد ، والأجدل هو الصقر صفة غالبة من الجدل الذي هو الشدة . والمجادلة : المصارعة .

47ـ48ـ مكروب : محزون ومغموم ويائس . يضغو : الضغاء صوت الثعلب . المخلب : الظفر . دفه : جنبه . الحيزوم : الصدر (لا بد حين وضعت مخلبها في دفه أنه منقوب ولا بد معناها لا شك وقيل البد الفراق ، لا بد اليوم من قضاء هذا الأمر أي لا فراق منه) والمنقوب : المثخن بالجراح والثقوب .

الفصل السادس

الفروسية وشعراؤها

يتعذّر على دارس الحياة العربية قبل الإسلام وأدبها تجاوز ظاهرة الفروسية والاستغناء عن تحليلها ، لأنها ببساطة شديدة تمثّل القطب الذي دارت حوله مفردات الحياة وموضوعات الأدب ، فجلُّ موضوعات الشعر الجاهلي مثلاً تبدأ بها أو تمرّ أو تنتهي مثل الغزل والفخر والهجاء والرثاء والنجدة ، فالفارس سيد قبيلة وحلم الصبايا في الحجال وفي الخدور ؛ وهو الجدير بالفخر ، والمصدّق في الهجاء ، والفروسية هي الصفة التي يشرف بها الميت حين يرثيه الشاعر ، ولسوف نرى امتدادات الفروسية وقيمها في حيوات الناس .. فهي صفة تنطبق على ممتطي الفرس إذا كان شجاع القلب ، ولا يقال للجبان فارس وإن امتطى أشرف الخيول وامتلك أعزّها .. ثم تطوّرت دلالة الفروسية في حاضنتي الحرب والسلم فشملت الرجل ذا الخلق السامي ، وإن أمضى حياته راجلاً غير راكب !! وباتت الفروسية مزاجاً من الرأي والشجاعة والكرم والمروءة والسيادة بما هيأ للفارس مكاناً علياً في الضمير الجمعي الجاهلي ، وقد اندغمت دلالتا الفارس والفتى في نسق وحّد بين الحاملين ، وقد لاحظ المبرّد (ت 285) عدداً من النصوص التي تشاكل بين الفروسية والفتوة من خلال الفخر أو الرثاء ، واستنكر رغبة الراثي في أن يكون موت المرثي في المعركة (فهذا الشعر من أجفى أشعار العرب ، ينبئ صاحبه أن تقديره في المرثي أن تكون منيته قتلاً ، ويتأسّف من موته حتف أنفه ، ويقول في مدحه : وأمار يإرشاد وغي .

وشبيه بهذا قول لبيد في أخيه إربد لما أصابته الصاعقة وأصابت عامراً الغدة بدعوة

رسول الله ﷺ)[1] ثم أورد المبرد النص التالي ليعضد مقولته التي حصرناها بين قوسين :

قال أعرابي :

ألا لهف الأرامل واليتامى ... ولهف الباكيات على قصي

لعمرك ما خشيت على قُصيّ ... متالفَ بين حَجْر والسليّ

ولكني خشيت على قصي ... جريرةَ رمحه في كل حيّ

فتى الفتيان محلولٍ ممرٍّ ... وأمّارٌ بإرشاد وغي

وقد رثى لبيد أخاه لأمه إربد وقد مات بصاعقة إثر محاولته اغتيال النبي ﷺ ودعوة النبي عليه !!

أخشى على إرْبد الحتوفَ ولا ... أرهبُ نوءَ السماك والأسد

فجعّتني الرعد والصواعق بالـ ... ـفارسِ يوم الكريهةِ النجد

الحارِب الجابر الحريب إذا ... جاء نكيباً وأن يعد يعد

يعفو على الْجَهْد والسؤال كما ... أنزل صوب الربيع ذي الرّصد

لم يبلغ العين كلّ نهمتها ... ليلة تمسي الجياد كالقدد

يا عينُ هلا بكيتِ إرْبَدَ إذ ... قمنا وقام الخصوم في كبد

وعين هلا بكيت إربد إذ ... ألوت رياح الشتاء بالعضد

فأصبحت لاقحاً مصرّمةً ... حين تقضت غوابر المدد

إن يشغبوا لا يبال شغبهم ... أو يقصدوا في الحكوم يقتصد

حلو كريمٌ وفي حلاوته ... مرٌّ لطيف الأحشاء والكبد

الباعث النوح في مآتمه ... مثل الظباء الأبكار بالجرد

---

(1) المبرّد . أبو العباس محمد بن يزيد (ت285) ، الكامل في اللغة والأدب 324/2 ، طب مؤسسة المعارف بيروت (د : ت) .

وقال أيضاً :

يــا إربــدَ الخيرِ الكريمَ جــدودُه	أفردتني أمشي بقرن أعضب
إن الرزيــة لا رزيــة مثلهــا	فقــدان كلِّ أخٍ كضــوء الكــوكب
ذهب الـذين يعـاش في أكنـافهم	وبقيت في خلف كجلـــد الأجرب
يتـأكّلـون مغـالــة وخيـانــة	ويُعــاب قــائلهم وإن لم يشغب
ولقـــد أراني تـــارة من جعفر	في مثــل غيثِ الــوابــل المتحلّب
من كلّ كهــل كالسنـــان وسيـــد	صعْب المقـــادة كالفنيــق المصعب
من معشر سنّت لهم آبـــــاؤهم	والعــزُّ قـــد يـــأتي بغير تطلّب
فبرى عظــامي بعـــد لحمي فقـــدهم	والـدّهر إن عـاتبتُ ليسَ بُمعتب[2]

وقد ينفعنا في درسنا الفروسية تأصيل دلالاتها في اللغة لإضاءة جوانب الائتلاف والاختلاف بين مستويي الفروسية : الاصطلاحي الـذي رصدنـاه في التوطئـة واللغوي الـذي يرصـده الآتي : فرُسَ زيـدٌ ، بـالضم ، يفرُس فروســة . وفراســة إذا حــذق أمر الخيل ، والفَراسـة بـالفتح العلم بركوب الخيـل وركضهـا ، وهـذه دلالات متحـوّلـة عن الثابت اللغوي ، أو الجذر الدلالي للمفردة الذي ينشره الآتي . الفارس الحاذق في تصرّفـه أو تفكيره أو حزمته ، ومنه قولنا : زيد فارس النظر ثم : فرس السبع الشاة أي أخذهـا ودقّ عنقها وأكلها ، وهذه هي المعاني البدئية لمادة فرس ثم استيعرت للفرس وصاحبها ، وقـال ابن السكيت (ت 244 هـ) إذا امتطى الرجل فرساً أو بغلاً أو حمـاراً أو برذْونـاً فهـو فــارس ، واعترض عمـارة بن عقيـل (ت 239 هـ) على تــأويـل ابن السكيت ، وقال : إن راكب البغل هو البغّال بالغين المشددة ، وراكب الحمار حمّار ، أمـا الفروسيـة فهي فن امتطاء الخيل[3] .

---

(2) لبيد بن ربيعة العامري ، ديوانه ، النص الأول (قافيـة الـدال) ق 12 ص 49 وبعـدهـا ، النص الثـاني (قافية الباء) ق 5 ص 36 وبعدها ، طب دار صادر ـ بيروت (د : ت) .

(3) اللسان (فرس) .

وقد أفادتنا هذه المقاربات لنفهم أن الفروسية في دلالتها اللغوية الأولى هي الحذق والاستكناه وتمزيق الطريدة وأكلها ، ثم تطورت إلى معاني الحذق في امتطاء الخيل ، ثم تطورّت وفق متطلبات المصطلح فشملت المروءة والفحولة والقيم النبيلة ، وذلك ما تكفّلت به التوطئة مطلع هذا الدرس .

وتخبّيء الفرس في لا وعي النص الشعري مثالاً أعلى للوفاء والجمال والرشاقة والألفة ، فاقترنت صورة الفرس بصورة المرأة الحسناء ، وقد فات هذا الاقتران النقّاد القدامى ، فعابوا مثلاً على امرئ القيس أنه جعل شعر فرسه كثيفاً ، ولم يحاولوا كشف الصلة في مخيلة الشاعر بين الفرس والمرأة :

وأركب في الروع خيفانة ... كسا وجهها سعف منتشر

ولا ندري لماذا لم يلاحظوا الأبيات اللاحقة لهذا البيت في القصيدة نفسها :

لها حافر مثل قعب الوليـ ... ـد رُكّب فيه وظيف عجر
لو ساقان كعباهما أصمعا ... ن لحْم حمايتها منبتر
لها عجُز كصفاة المسيـ ... ـل أبرز عنها جُحافُ مُضر
لها ذنب مثل ذيل العروس ... تسدّ به فرجها من دبر
لها عُذَرٌ كقرون النسا ... ءِ ركّبن في يوم ريح وصِرّ
لها جبهة كسراة المجن ... حذّقه الصانِعُ المقتدر
وعين لها حدرةٌ بدرةٌ ... شُقّت مآقيها من أخرُ
لها وثباتٌ كوثب الظباء ... فوادٍ خِطاءٌ ووادٍ مَطِر[4]

وقد شغف عنترة بفرسه شغفاً كبيراً ، حتى أصبح شغفه شاهداً مهماً على عمق العلاقة بين الفارس الجاهلي وفرسه ، وقد فضل عنترة فرسه على زوجه في الطعام والشراب :

---

(4) امرؤ القيس . ديوان ق29 ص163 وبعدها ، وانظر كتابنا الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ، مبحث الفرس ص228 ففيه تفصيل للمستزيد .

لا تـــذكري فرسي ومـــا أطعمتـــه   فيكون جلـدُك مثـل جلـد الأجرب
إنّ الصبـوح لـــــه وأنتِ مسـوءةٌ   فتـــأوّهي مـــا شئتِ ثم تحـوّبي[5]

وقد التفت إلى أوجاع حصانه في أشدّ اللحظات هلعاً :

يــدعــون عنتر والرمــاح كأنهـــا   أشطـــــان بئر في لبـــــان الأدهم
فــازورّ من وقــع القنــا بلبـــانــه   وشكا إليّ بعبرة وتحمحم
لــو كان يعرف مــا المحَاورة اشتكى   ولكان لـــو علم الكـــلام مكلّمي

ومـا ارتبـاطهم بـالخيل في الجـاهليـة سوى دليـل أكيـد على معرفتهم لفضلهـا فهم يصبرون على الخمصـة واللأواء ولا يصبرون على جوع الفرس أو عطشهـا فيؤثرونهـا على الأهل والولد ، وقد سئل فارس عن بكاء الصبيان فأجاب (وأمـا بكاء صبيـاننـا فـإننـا نبدأ الخيل باللبن قبل العيال)[6]

وقـد نسب الأعشى طحن أعدائـه إلى (خيـل بكر) فكأن الخيـل وبكر حـالـة واحدة :

وخيـــل بكر فمـــا تنفـــك تطحنهم   حتى تـولـــوا وكاد اليـــوم ينتصف

وكذلك وحد عنترة بين الخيل والخيالة وهو يناجي عبلـة ، ويرسم صورة لمروءتـه مرة ولفرسه أخرى !!

هـلاّ سـألت الخيـل يـا ابنـة مـالــك   إن كنتِ جـاهلـــة بمـــا لم تعلمي
يخبرك من شهـــد الـوقيعـــة أنني   أغشى الـوغى وأعفّ عنـــد المغنم
إذ لا أزال على رحـــالـــة سـابـح   نَهْـــد تعـــاوره الكمـــاة مكلّم

(٥) عنترة . ديوانه ق 11 ص 272 تح سعيد مولوي ، مط المكتب الإسلامي 1970 . وانظر مقدمة ديوان الأعشى ص22 والمفضليات رقم 41 ب19 ب20 شعر الأخنس التغلبي .

(6) الأغاني (بولاق) 18/9 (م . س) . القيسي . د. نوري ، الفروسية في الشعر الجاهلي 140 ، طب دار التضامن بغداد 1964 .

طوراً يجرّد للطعان وتارة ... يأوي إلى حصد القسيّ عرمرم
مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم

إن وصف عنترة لفرسه القوي الذي يسبح في المعركة ورسمه لتفاصيل حركته عن قرب ، يذكّرنا بوصف امرئ القيس لفرسه الذي يمتطيه قبل صحوة الطير متلبثاً عند حركته ومرونتها :

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً ... كجلمود صخر هدّه السيل من عل

والفرس سياء شجاعة الفارس وعدته في الحرب ، وعبيد بن الأبرص لا يصبر البتة على فرسه :

ولا يفارقني ما عشت ذو حقب ... نهد القذال جواد غير ملواح
أو مهرة من عتاق الخيل سابحة ... كأنها سحق برد بين أرماح[7]

أما هند ابنة النعمان نهي توصي فارسها بضرورة الحفاظ على أصله (النفيس الأرفع) بالشجاعة وارتباط الخيل :

حافظ على الحسب النفيس الأرفع ... بسواعد موصولة لم تمنع
وسلاهب من خيلكم معروفة ... بالسبت عادية بكل سميدع[8]

شغف الفارس بالفرس أصيل عميق ، وليس شعوراً عابراً ، وقد أسبغ عنترة على فرسه مشاعر الإنسان الذي يعبّر بالنظرة والحمحمة عن عذابه ، وثمة نصوص أخرى فعلت الشيء نفسه مع الفرس بحيث صار الأمر ظاهرة :

1 ـ قيس بن زهير (شعره ب ، ص 41) :

فلأهبطن الخيل حرّ بلادكم ... لحق الأياطل تنبذ الأمهارا

---

(7) ابن الأبرص . عبيد ، ديوانه ص 50 ، تح حسين نصار ، مط مصطفى البابي ، مصر 1957 .

(8) الجباوي . محمد فتاح ، الموثبات ق 2 ص 336 ، رسالة ماجستير مطبوعة على الآلة الكاتبة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد 1981 .

2 ـ مهلهل (شعر المراقسة ق 27 ب 28 ص 272) :

تركنا الخيل عاكفة عليهم كأنّ الخيل تدحض في غدير

3 ـ المعقر البارقي (العقد الفريد 11/6) :

يفرّج عنا كل ثغر نخافه مسحّ كسرحان الفطيمة ضامر

وكل طموح في العنان كأنه إذا اغتمست في الماء فتخاء كاسر

4 ـ خداش بن زهير (الحماسة الشجرية 116/1 ق 83 ب 1 ب 2) :

جلبنا الخيل ساهمة إليهم عوابس يدّرعن النقع قودا

تباري في الأعنة مصغيات حداد الطرف يعلكن الحديدا

5 ـ لبيد (شرح ديوانه ق 3 ص 22) :

يحملن فتيان الوغى من جعفر شعثاً كأنهم أسود الغاب

6 ـ الشنفري (الطرائف الأدبية ، شعره ق ـ ح ـ ص 35) :

إذا انفلتت مني جواد كريمة وثبت فلم أخطر عنان جوادي

وكانت الفرس هاجس أم جندب حين احتكم إليها الغريمان زوجها امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة ، فاقترحت عليهما رسم صورة الفرس بالشعر وعلى قافية واحدة ..

فقال امرؤ القيس :

خليليّ مرّا بي على أم جندب لنقضي لبانات الفؤاد المعذّب

فللساقِ ألهوب وللسوط درّة وللزجر منه وقع أهوج مِنْعبِ

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوَهُ يمرٌّ كخذروف الوليد المثقب

وقال علقمة :

ذهبتُ من الهجرانِ في كلّ مذهب ولم يك حقاً كلّ هذا التجنّب

فولى على آثارهنّ بحاصب وغبية شؤبوب من الشّد ملهب

فأدركهنّ ثانياً من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلّب

وقد قرفت أم جندب من سلوك امرئ القيس الخشن مع فرسه الوديع فهو يركلها برجله ، ويلهبها بسوطه ، ويروعها بزجره . فأدرك شأوه بتعنيف الفرس وإيذائها .. بينا هي آنست إلى سلوك علقمة ورحمته بفرسه ، وقد أدرك شأوه ثانياً من عنان الفرس ، تاركاً له حرية الجري ، هكذا انتصرت أم جندب للفرس وتعاطفت مع غريم زوجها ، وفوّزته لحسن سلوكه مع الفرس ، ولا أظن أنها حزنت كثيراً حين طلقها امرؤ القيس ، واتهمها بحب علقمة ، لأنها ذكية تدرك خطورة قولها وأثره ونتائجه[(9)] ، والعربي حميم مع الفرس ويأنس للحديث الذي يقول : « خير الأموال فرس يتبعها فرس »[(10)] فظهرها حرز وبطنها كنز . وسميت بعض الخيول (أزواد الركب) نظراً للخير العميم الذي كانت تجلبه لفرسانها ، وزعم بعض الفرسان أنه يستطيع بوساطة النظر إلى الفرس المهقوع قياس وفاء زوجه له أو خيانتها حتى لو كان بعيداً عنها !! وكل الأخبار القديمة في الخيول تعبّر عن النظرة الخاصة إليها المقترنة دائمة بالمحبة والخير والإعجاب ، فلا غرابة من اقتران الفرس في الشعر الجاهلي بالرشاقة والمرأة والخير والمطر والأساطير ، وقد تخصص شعراء كبار بوصف الخيل وأبدعوا في صورها الفنية كما أفرطوا في حبّها[(11)] وقد انتقينا لوحة شعرية أنتجها طرفة بن العبد .. عرضت مشاهد قتالية أسفرت عن نصر معقود على نواصي الخيل :

1ـ سائلوا عنّا الذي يعرفنا	بقوانا يوم تحلاق اللمم
2ـ يومَ تبدي البيض عن أسوُقها	وتلفّ الخيلُ أعراج النعم
3ـ ونكرّ الخيل في أدبارها	يوم لا يعطف إلا ذو كرم
4ـ أجدرُ الناسِ برأس صلدم	حازم الأمر شجاع في الوغم
5ـ كاملٍ يحملُ آلاءَ الفتى	نَبِهٍ، سيّدِ ساداتٍ خضمّ

(9) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 130/1 وانظر العلوي ، ابن طباطبا ، عيار الشعر ص 96 .

(10) القشيري . أبو الحسين مسلم بن الحجاج ت 261 ، صحيح مسلم 1492/3 باب الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة . وانظر ابن قتيبة ، عيون الأخبار 153/2 ثم انظر ابن الكلبي ، أنساب الخيل ص 14 .

(11) الصائغ . د. عبد الإله ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ص228 وبعدها .

6- من بني بكر إذا مـــا نُسبــوا وبني تغلب ضرّابي البُهَم

7- حين يحمي النـــاسَ نحمي سربنــا واضحي الأوجـــه معروفي الكرم

8- بحســامــاتٍ تراهــا رُسّبــاً في الضريبـــاتِ، مترّاتِ العُصَم

9- وفحــولٍ هيكــلاتٍ وُقُــحٍ أعـوجيــاتٍ على الشــأوِ أُزُم

10- وقنــا جُرْد وخيــلٍ ضُمّرٍ شُزّبٍ من طــول تعــلاك اللُّجم

11- أدّت الصنعـــةَ في أمتنهــا فهي من تحت مُشيحــات الحُـزُم

12- تتقي الأرضَ بِرُحٍّ وُقُــحٍ وُرُقٍ، يقعرن أنبــاكَ الأكم

13- وتفرّي اللحم من تعــدائهــا وتغــالي فهي قبٌ كالعجم

14- خلــج الشّــدّ ملحّــاتٌ إذا شــالتِ الأيـدي عليهـا بـالجِـذم

15- قُــدُمــاً تنضــو إلى الــداعي إذا خلّـلَ الــداعي بـدعـوىً ثم عمّ

16- بشبــابٍ وكهــولٍ نُهُــدٍ كليــــوثٍ بين عرّين الأجم

17- نُمْسِــكُ الخيـل على مكروههــا حين لا يُمسِــــكُ إلا ذو كرم

18- تــذرُ الأبطــالَ صرعى بينهــا تعكف العقبــان فيهـا والرخم[12]

---

(12) ابن العبد . طرفة ، شرح ديوانه ص 87 وبعدها ، تقديم سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب ، طب دار مكتبة الحياة بيروت (د:ت) .

ب 1 : يوم تحلاق اللمم : اليوم معناه الحرب وسمّى مقترناً بتحلاق اللمم إشارة لنصر بكر على تغلب وقد أمر الحارث بن عباد بحلق رؤوس .

ب 2 ـ الصدر كناية عن الهرب . الأعراج : أكثر من خمسين وأقل من مئتين .

4 ـ الصلدم : الصعب الشديد . الوغم والوغى : القتال .

5 ـ الآلاء : العطايا . الخضم البحر كناية عن الكرم .

6 ـ البُهم : أقوياء القلوب الذين لا يخيفهم الموت .

8 ـ الضريبة : الموضع الذي يضربه السيف . المترات : القواطع . العصم : المعاصم .

9 ـ الهيكلات : الضخمة . الوقح : ذو الحافر الصلب . الأعوجيات نمط من الخيول الكريمة زعم أن جدها اسمه أعوج . الشأو : الغاية والمسافة . أزم : تعض اللجام .

10 ـ القنا : الرماح : جرد : ملساء . الشزب : العنامرة .

١٢ ـ رُحّ : متفخة . وقح : صلبة . ورق : سود . أنباك : مرتفعات .

☆ التماهي بين الفروسية والفتوة :

إذا كانت الفروسيةقد تماهت مع القيم النبيلة والأخلاق الجليلة بحيث يكون الرجل ذو البأس والمروءة فارساً وإن افتقد الفرس ، فإن مفهوم الفروسية في العصر الجاهلي قد تماهى مع مفهوم الفتوة !! ولا يمكن لهذا المبحث أن يكوّن صورة جادة وأكيدة عن الفروسية ، إذا غيّبت عنها صورتها التوأم (الفتوة) ! فالثنتان (الفروسية /الفتوة) تمتلكان قواسم مشتركة في الذهنية الشعرية الجاهلية وفي متخيّل جمهور الشعر عهد ذاك ..

الفروسية	الفتوة
1 ـ تحملِ معاني القوة واليفاعة والحذق في امتطاء الفرس .. ثم حملت معاني الخلق الحميد والتفوّق	1 ـ تحمل معاني القوة واليفاعة ثم حملت معاني الخلق النبيل والتفوّق
2 ـ قد يكون فارساً من لم يركب الفرس وليس كل من ركب الفرس فارساً !!	2 ـ قد يكون فتى من جاوز سنّ الفتوة وقد لا يكون الشاب فتًى حين يفتقد المروءة والطموح
3 ـ الفروسية ذات بعدين : حسي ويتوفرّ على الفرس والفارس ومعنوي ، ويتوفر على المروءة وصاحبها والشجاعة ومالكها ، والشهرة بين الفرسان	3 ـ الفتوة ذات بعدين : حسي ويتوفّر على شكل الوجه والجسد وصغر العمر ، ومعنوي ويتوفر على الخلق العربي القويم والشهرة بين الفتيان

وبين أيدينا مشهد للفتوة أسسه طرفة بن العبد قائم على سطوع الاسم والقول والفعل ، مندغم مع التفوّق على الأقران ونجدة الملهوف ومساندة الغريب ، والكرم ،

= 13 ـ القُب : الضوامر . العجم : النوى .

14 ـ الجذم : السوط .

16 ـ عرين : بيت الأسد .

والسفر، ومشاكسة الموت، وفق تضادات فنية دلالية قوامها الشجاعة والخوف، الكرم والشح، الحياة والموت، الكياسة والعبث !! الحب والمقت !!

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني ... عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ولستُ بحلاّل التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فإن تبغني في حلقة القوم تلقني ... وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد

وإن يلتقي الحيّ الجميع تلاقني ... إلى ذروة البيت الشريف المصمّد

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلها ... وأفرِدْتُ إفرادَ البعير المعبّد

ألا أيهذا الزاجري احضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنتَ لا تسطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ولولا ثلاثٌ هنّ من عيشةِ الفتى ... وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشربة ... كميتٍ ما تُعْلَ بالماءِ تزبد

وكرّي إذا نادى المضافُ محنّباً ... كسيد الغضا نبهته المتورد

وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ... ببهكنةٍ تحتَ الطراف العمّد

أرى قبر نحّام بخيل بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد

ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صمّ من صفيح منضّد

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدّد

أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلة ... وما تنقص الأيامُ والدهر ينفد

لعمركَ إن الموتَ ما أخطأ الفتى ... لكالطوّل المرخى وثنياه باليد

متى ما يشا يوماً يقده لحتفه ... ومن يك في حبل المنية ينقد

وإن أدع للجلى أكن من حماتها ... وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد

وإن يقذفوا بالقذع عِرضَك أسقهم ... بشرب حياض الموت قبل التهدّد

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهنّد

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه ... خشاش كرأس الحيّة المتوقّد

فآليت لا ينفك كشحي بطانة ... لعضب رقيق الشفرتين مهنّد
حسام إذا ما قمت منتصراً به ... كفى العود منه البدء ليس بمعضد
أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة ... إذا قيل مهلاً قال حاجزه قدي
إذا ابتدر القومُ السلاحَ وجدتني ... منيعاً إذا بلّت بقائمه يدي
فإن متّ فانعيني بما أنا أهله ... وشقّي عليَّ الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعليني كامرئ ليس همّه ... كهمّي ولا يغني غنائي ومشهدي
بطيء عن الجلّى سريع إلى الخنا ... ذلول بأجماع الرجال ملهد
فلو كنت وغلاً في الرجال لضرّني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الرجال جراءتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي
على موطن يخشى الفتى عنده الردى ... متى تعترك فيه الفرائص ترعد

وقد مرت بنا هذه المشاهد ضمن معلقة طرفة في فصل المعلقات ، وإنما : استعدنا بعضاً من الأبيات الخاصة بالفتوة لتعزيز القول بأن صورة الفروسية والفتوة حالة واحدة في المتخيّل الجاهلي الإبداعي ، أما دريد بن الصمة سيد بني جشم فهو يقدّم بين يدي حزنه مشهداً عريضاً نرى من قراءة تفاصيله صورة الفتى الفارس ، أو الفارس الفتى في إطار فني ودلالي واحد ، وهو الفارس الفتى رغم تجاوزه الثمانين ، وقد قاده إحساسه بالفتوة المعنوية إلى الإمعان في تبني الفتوة العمرية وقد غادرته ، فخطب شاعرة في سن بناته وهي تماضر ابنة الشريد (الخنساء) فاعتذرت له عن قبول اقترانها به بأدب جم ، حتى لا تجرح فيه إحساسه المرضي بالفتوة الطاغية فهجاها وجرّحها !! وإذا كان أخوه قد قتل في معركة غير متكافئة فلأنه فتى ، والفتى لا يفرّ في المعركة ولا يخشى الموت قدرة خشيته من مغبة الهزيمة ، وقد آسى أخاه بنفسه ولكن قومه خذلوه ، لأنهم لم يروا مثلما يرى دريد ، فأهملوا نصيحته في حينها وقد ندموا وأرادوا سماعها بعد فوات الأوان ومقتل أخيه عبد الله ، ولكن لماذا ترك دريد قومه (غزيّة) يمارسون الخطأ ؟ أما كان بإمكانه إسكات الأصوات المعارضة ، وهو القائد والسيد

والزعيم ؟! الجواب إن دريداً فتى فارس وأخلاق الفتيان لا تحبّذ للزعماء والقادة الاستعلاء على قرارات القبيلة التي أجمعت عليها ، وإن كانت هذه القرارات من وجهة نظره خاطئة ومضرّة ، دريد لم يتعال على قومه ، بل انحنى أمام إجماعهم وهو القادر على فرض رأيه بالسيف أو الذهب ، ولكن إيمانه بالحرية جعله في إطار السّرب ، فالقائد الفارس الفتى هو الذي يوحّد بين كرامته وكرامة جماعته ، فيكون مع الأكثرية ضد نفسه وقرارها !! أما أخوه عبد الله فقد قتل في المعركة فارساً فتى وآية ذلك :

1 ـ ليس وقّافاً ، أي لا يتردد لحظة اتخاذ القرار المنحاز للخير والقرار في المواقف الصعبة .

2 ـ لم يكن عبد الله طائش اليد ، وطيش اليد شيء من طيش العقل ، فهو هادئ وحكيم .

3 ـ كبير الهمّة عظيم الطموح بعيد عن الانحطاط الاجتماعي .

4 ـ طلاّع أنجد .. أي مغامر ثابت الجنان .

5 ـ قليل التشكّي حين تحل به المصائب .

6 ـ له وعي مناسب بالزمن فيوازن بين اليوم والغد ..

7 ـ خميص البطن (جائع) وهو القادر على التخمة والتكرّش ، لأن الفتيان ذوو همم عاليه فضلاً عن أنه يؤثر بزاده الآخرين ..

فقال دريد بن الصمة سيد جشم يرثي أخاه الفتى عبد الله وقد قتلته بنوعبس :

1ـ	أرث جديد الحبل من أمّ معبد	بعاقبة وأخلفت كلّ موعِد
2ـ	وبانت ولم أحمل إليك نوالها	ولم ترج فينا رِدّة اليوم أوغد
3ـ	من الخفراتِ لا سقوطاً خمارها	إذا برزتْ ولا خروج المقيّد
4ـ	وكل تباريح المحب لقيته	سوى أنني لم ألق حتفي بمرصد
5ـ	وأني لم أهلِك خُفاتاً ولم أمت	خفاتاً ، وكلاًّ ظنه بي عوّدي
6ـ	كأن حول الحيّ إذ تلع الضحى	بناصفةِ الشجناء عصبة مِذود

7- أو الأثأبَ العمَّ المحرَّمَ سوقُهُ بشابةَ لم يخبط ولم يتعضّد

8- أعاذلُ مهلاً بعض لومك واقصدي وإن كان علم الغيب عندك فارشدي

9- أعاذلتي كلّ امرئ وابن أمّه متاعٌ كزاد الراكب المتزوّد

10- أعاذل إن الرزءَ في مثل خالد ولا رزء فيما أهلك المرءُ عن يد

11- علانية ظنّوا بألفي مدجّج سراتهمُ في الفارسيّ المسرّدِ

12- وقلت لهم: إن الأحاليف أصبحت مطنبةً بين الستار فثهمد

13- فما فتئوا حتى رأوها مغيرة كرجل الدبى في كلّ ربع وفدفد

14- ولما رأيتُ الخيل قبلا كأنها جرادٌ يباري وجهة الريح مُغتدي

15- أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

16- فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأنني غيرُ مُهتدي

17- وهل أنا إلا من غزيةَ إن غوتْ غويتُ وإن ترشد غزيةُ أرشُد

18- دعاني أخي والخيل بيني وبينه فلما دعاني لم يجدني بقعدد

19- أخي أرضعتني أمه بلبانها بثدي صفاء بيننا لم يُجدد

20- فجئتُ إليه والرماح تنوشه كوقع الصياصي في النسيج الممدّد

21- وكنتُ كذاتِ البوّ ريعت فأقبلت إلى جلد من مسك سقب مقدد

22- فطاعنت عنه الخيلَ حتى تنهنهت وحتى علاني حالك اللون أسود

23- فما رمت حتى حرّقتني رماحهم وغودرتُ أكبو في القنا المتقصّد

24- قتالَ امرئ آسى أخاه بنفسه ويعلمُ أن المرء غيرُ مخلّد

25- تنادوا فقالوا: أردت الخيل فارساً فقلتُ: أعبد الله ذلكم الردي

26- فإن يكُ عبد الله خلّى مكانه فما كان وقّافاً ولا طائش اليد

27- ولا برماً إذا الرياح تناوحت برطب العضاه والهشيم المعضّد

28- كميش الإزار خارجٌ نصف ساقه صبورٌ على الجلاّء طلاّع أنجد

29- قليل تشكّيه المصيباتِ حافظٌ من اليوم أعقابَ الأحاديث في غد

30 ـ صبا ما صبا حتى علا الشيبُ رأسه ... فلما علاهُ قال للباطلِ ابعِد

31 ـ تراه خميصَ البطن والزاد حاضرٌ ... عتيد ويغدو في القميص المقدَّد

32 ـ وإن مسّه الإقواءُ والجهد زادَه ... سماحاً وإتلافاً لما كان في اليد

33 ـ إذا هبطَ الأرضَ الفضاءَ تزيّنت ... لرؤيتهِ كالمأتم المتبدد

34 ـ فلا يبعدنْكَ اللهُ حياً وميتاً ... ومن يعله ركنٌ من الأرض يَبْعَد

35 ـ رئيس حروب لا يزال ربيئةً ... مشيحاً على محقوقف الصُّلب ملبد

36 ـ وغارةٍ بين اليوم والأمس فلتةٍ ... تداركتُها ركضاً بسيدٍ عمرّد

37 ـ سليم الشظى عبل الشوى شنج النسا ... طويل القرا، نهد، أسيل المقلّد

38 ـ يفوتُ طويلَ القوم عقد عذاره ... منيفٌ كجذعِ النخلة المتجرّد

39 ـ وهوّن وجدي أنني لم أقل له ... كذبتَ، ولم أبخل بما ملكت يدي

40 ـ فإن تعقِب الأيامَ والدهرُ تعلموا ... بني قارب أنا غِضابٌ بمعبد[13]

وقد تمادينا في إيراد دالية دريد ، واخترنا أربعين بيتاً منها لتوصلنا إلى أنها نص نفيس يكشف بأمانة نظرة الشاعر الجاهلي للفتوة المتماهية مع الفروسية فثمة مقدّمة غزلية رمزية ترينا مكابدة الشاعر مع أم معبد ، الحبيبة الشريفة الجميلة التي شاءت من جهتها ترك الحبيب في أشدّ أيامه وأصعبها ، وكان عليها الوفاء معه وله ، ونرجّح أن (أم معبد) رمز لثلاثة مرموزات هي :

1 ـ المرأة بشكل عام وهي نظرة تقليدية جاهلية قاسية تجرّد المرأة من مزية الوفاء وبخاصة إذا شاب حبيبها أو وهنت قواه أو انتصر عليه أعداؤه .

2 ـ الشباب الذي يترك الإنسان في ذروة احتفاله به .

3 ـ الزمان المتقلّب .. والملاحظ أن حبيبته (أم معبد) كانت مطلع البيت الأول

(13) ابن الصمّة . دريد الجشمي ، ديوانه ق15 ص45 وبعدها . تح : محمد خيري البقاعي ، طب دار قتيبة 1981 . والقصيدة أنحاء مبثوثة كاملة ومنجّمة في الشعر والشعراء 507/2 ، والأغاني (كتبخانة) 2/9 ، وجمهرة أشعار العرب ص213 .

و (معبد) وهو اسم أخيه الفارس القتيل (عبد الله) وكان اسم معبد قريباً إلى نفس أهل عبد الله بما يشبه عندنا الآن (اسم الدلع) أو اسم التحبب .. فالقصيدة تبدأ بأم معبد وتنتهي بمعبد !! ثم إن دريداً لم يكن بكاء فقط ، ولم يهمل شأن فتوته وفروسيته وهو يرثي أحبّ الناس إلى نفسه ، بل فخر بنفسه ، التي لم يعرف قدرها رجاله الأقربون ، ثم تفجّع على مقتل أخيه الذي لم تترك الرماح والسهام موضعاً سليماً في جسده ، بعدها رسم لنا صورة دقيقة وقريبة لأخيه الفتى الذي جمع الشجاعة والمروءة في إهاب واحد .

وهكذا نجد أن الفتى الفارس معنيٌّ قبل سواه بحماية قومه والمنافحة عنهم ، وغالباً ما تكون حياة الفتى الفارس ثمناً لمجده وترسيخ منزلته في نفوس الأقربين والأبعدين معاً .

بل إن الفارس (ربيعة بن مكدّم الكناني) فعل أكثر من هذا !! فقد حمى أهله حياً وميتاً ، حتى صار مضرب الأمثال : « أحمى من مُجير الظعن » ، قال أبو عمرو بن العلاء : ما نعلم قتيلاً حمى الظعائن غير ربيعة بن مكدّم . ا . هـ .

وها نحن أولاء ننشر حكايته عن طريق أبي عبيدة بنصّها (خرج بنيشة السلمي غازياً فلقي ظعناً من كناية بالكديد فأراد أن يحتويها فمانعه ربيعة بن مكدم في فوارس وكان غلاماً له ذؤابة ، فشدّ عليه بنيشة فطعنه في عضده فأتى ربيعة أمّه وقال :

شدّي عليّ العصب أمّ سيّار فقد رزئتِ فارساً كالدينار

فقالت أمه :

إنا بني ربيعة بن مالك
نرزأُ في خيارنا كذلك
من بين مقتول وبين هالك

ثم عصبته ، فاستقاها ماء ، فقالت له اذهب فقاتل القوم فإن الماء لا يفوتك .

فرجع وكرَّ على القوم فكشفهم ورجع إلى الظعن . وقال : إني لمائت ، وسأحميكن ميتاً كما حميتكن حياً ، بأن أقف بفرسي على العقبة واتكيء على رمحي ، فإن فاضت نفسي كان الرمح عمادي ، فالنجاء النجاء فإني أردّ بذلك وجوه القوم ساعة من النهار ؛ فقطعن العقبة ووقف هو بإزاء القوم على فرسه متكئاً على رمحه ونزفه الدم ففاض والقوم بإزائه يحجمون على الإقدام عليه ، فلما طال وقوفه في مكانه ورأوه لا يزول عنه فرموا فرسه فقمص وخرّ ربيعة لوجهه ، فطلبوا الظعن فلم يلحقونهم . ا.هـ . وقد رثاه حفص بن الأحنف الكناني بعد أن وسّده بيديه وأمال عليه أحجاراً من الحرّة :

لا يبعدن ربيعة بن مكدّم ... وسقى الغوادي قبره بذنوب
نفرت قلوص من حجارة حرة ... بُنيتْ على طلْقِ اليدين وهوب
لا تنفري يا ناق منه فإنه ... شرّاب خمر مسْعِرٍ لحروب
لولا السفار وبعده عن مهمه ... لتركتها تحبو على العرقوب(14)

إذن يمكن لقصائد الرثاء توليد مؤشرات دقيقة نتلقى بوساطتها صورة الفارس الفتى والفتى الفارس في مرآة ذلك العصر المضطرب لأن قصيدة الرثاء حريصة على تعداد مزايا المرثي ، لتكون مزايا (الفتوة ـ الفروسية) في طليعتها إن لم تتوفر عليها كلها .. قالت الخرنق بنت بدر بن هفان أخت طرفة بن العبد ترثي زوجها بشر بن عمرو ورهطه الذين قتلوا معه في يوم قُلاب :

لا يبعدن قومي الذين هُمُ ... سُمّ الغداة وآفةُ الجُزْرْ
النازلون بكلّ معتركٍ ... والطيّبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نزلت ... والطاعنون بأذرع شُعْر
والخالطون نحيتهم بنضارهم ... وذوي الغنى منهم بذي الفقر

---

(14) الميداني ، مجمع الأمثال 275/1 .
الصائغ . عبد الإله ، الفارس ربيعة الكناني حمى قومه حياً وميتاً ، جريدة القادسية ـ بغداد ، العدد 258 ص6 في 1981/5/30 ، وانظر أيضاً بحثنا : الفتوة العربية (رؤية جديدة) ، جريدة الجمهورية ـ بغداد في 1985/8/23 .

إن يشربوا يهبوا وإن يذروا — يتواعظوا عن منطق الْهُجْرِ
قومٌ إذا ركبوا سمعت لهم — لغطاً من التأييه والزجْر
مِن غير ما فحشٍ يكون لهم — في منتج المهرات والمهر[15]

وقد كانت الخنساء ، أكثر الشعراء دقة ومهارة في رسم صورة الفارس الفتي ، إذ جمّعت كل الشمائل المحببة في الرجل لدى النساء والرجال معاً والأباعد والأقارب ، ومزجت ذلك بتجربتها الخاصة وحزنها الشخصي ورؤيتها للجمالين الخارجي والداخلي اللذين ينبغي توفرهما في الفارس الفتى !! وسنلاحظ توكيدها (الخنساء) على دلالات الفارس الفتى :

1- بكت عيني وعاودها قذاها — بعُوّار فما تقضي كراها
على صخر وأيَّ فتى كصخر — إذا ما النابُ لم ترأمْ طلاها
فتى الفتيان ما بلغوا مداه — ولا يكدي إذا بلغت كُدّاها
لئن جزعت بنو عمرو عليه — لقد رزئت بنو عمرو فتاها
له كفّ يُشدُّ بها وكفٌّ — تحلّبَ ما يجفُّ ثرى نداها
ترى الشُّمَّ الجحاجح من سُليم — يبلُّ ندى مَدامِعِها لحاها
على رجل كريم الخيم أضحى — ببطن حفيرة صخب صُداها
ليبكِ الخيرُ صخراً من معدٍّ — ذوو أحلامها وذَوو نُهاها
وخيلٍ قد لففتَ بَجْول خيل — فدارت بين كبشيها رحاها
ترفّعَ فضلُ سابغة دِلاص — على خيفانةٍ خفقٍ حشاها
وتسعى حين تشتجرُ العوالي — بكأس الموت ساعة مصطلاها
فمن للضيف إن هبّت شمالٌ — مزعزعةٌ تجاوبها صباها
وألجأ بردُها الأشوال حُدْباً — إلى الحجرات بادية كُلاها

(15) الخرنق بنت بدر ، ديوانها ق4 ص43 وبعدها ، تح : يسري عبد الغني ، طب دار الكتب العلمية - بيروت 1990 .

فلم املك غداة نعيِّ صخر | سوابق عَبرةٍ حلبت صراها
أطعمكُم وحاملكم تركتم | لدى غبراء منهدمٍ رجاها
حذيفة لاسقيت من الغوادي | ولا روّتك هاطلة نداها
كما أفجعتني بفتى كريم | إذا وزنت بنو عبس وفاها
ليبكِ عليك قومُك للمعالي | وللهيجاء إنك ما فتاها
وقد فقدتك (طلقةُ) فاستراحت | فليت الخيل فارسُها يراها[16]

2 ـ أعينيّ جودا ولا تجمدا | ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل | ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما | د سادَ عشيرته أمردا
إذا القومُ مدّوا بأيديهم | إلى المجد مدّ إليه يدا
فنال الذي فوق أيديهم | من المجد ثم مضى مصعِدا
ترى المجد يهوي إلى بيته | يرى أفضل الكسب أن يحمدا
وإن ذكِر المجدُ ألفيته | تأزّر بالمجد ثم ارتدى

3 ـ يا عين مالك لا تبكين تسكابا | إذ راب دهرٌ وكان الدهر ريّابا
فابكي أخاكِ لأيتام وأرملة | وابكي أخاك إذا جاوزت أجنابا
وابكي أخاك لخيل كالقطا عصباً | فقدن لما ثوى سيباً وأنهابا
يعدو به سابح نهد مراكله | مجلبب بسواد الليل جلبابا
هو الفتى الكاملُ الحامي حقيقته | مأوى الضريك إذا ما جاء منتابا
المجد حُلتُه والجود علته | والصدقُ حوزته إن قرنه هابا
خطّاب محفلةٍ فرّاج مظلمة | إن هاب معضلةً سنّى لها بابا
حمّال ألوية قطّاع أودية | شهّاد أنجية للوتْر طلاّبا
سمُّ العداة وفكاك العناة إذا | لاقى الوغى لم يكن للموت هيّابا[16]

---

(16) الخنساء . ديوانها ، النص الأول ص 96 ، والنص الثاني ص 35 ، والنص الثالث ص 22 ، تح عبد السلام الحوفي ، طبع دار الكتب العلمية بيروت (د : ت) !! =

ولقد حبّذت الشاعرة الفارعة بنت شداد اختصار معاني الفتوة والفروسيـة في نص قوامه أربعة أبيات ، فحـددت ذلـك بـ (جمـاع كلّ خصـال الخير) وهي إشارة بـالغة الأهميـة في مبحثنـا هـذا فـالفـارس التفى ليس المقاتل فقـط بل هـو المقـاتـل والكريم والشريف والأمين والحكيم والقادر على البناء والنّقض معاً ، والنفع والإيذاء معاً بيد أنـه ميال بطبيعته إلى التسامح والبناء والنفع قبل أي شيء آخر :

أبـــا زرارة لا تبعـــد فكل فتى	يـومـاً رهين صفيحـات وأعـواد
نعم الفتى ويمين الله قــد علمــوا	يحلو بـه الحي أو يغـدو بـه الغـادي
قـوّال محكمـة نقّـاض مبرمـة	فتّـاح مبهمـة حبّـاس أوراد
جمّـاع كل خصـال الخير قـد علمـوا	زين القرين نكال الظالم العـادي[17]

ولقد اختلط شعر الفروسية بكثير من فنون الشعر الجاهلي ، فـأنت واجـد الفـارس في الغزل ، والحبيبة لا تحب الجبان ، وتعشق الجريء الذي تشدو بذكره الركبـان ، وفي الفخر ، فإذا فخر الشاعر بنفسه ذكر مناقب الفـارس وشمائلـه ، وفي الهجـاء .. فـالمهجو عـادة ذو صفـات تصلح لأن تكون نقيضاً لصفـات الفـارس ، فهو أي المهجو جبـان في الحرب ، خؤون في العشرة ، بخيل في الشدّة ، صغير في نفسه وقومه . أما الرثـاء فهو كما رأينا أقرب أغراض الشعر الجاهلي إلى معاني الفروسية ، فالندّابات عـادة يعـدون مزايـا الميت ويمتدحنه ، أما الشعراء والشواعر ، فهم يكتبون عن الفقيد بحرارة قد لا نجدها في معظم أغراض الشعر ، وحين سئـل عن سرّ هـاتين الحرارة والمصـداقيـة في شعر الرثــاء أجاب : إننا نقول الرثاء وأكبـادنـا تتفطرّ ، ويظل المـديح سببـاً وجيهـاً لرؤيـة شمائل الفارس في الممدوح ، فهو جدير بصفات المرثي بيد أنه حي يرزق .. فكل خصـال الخير

= اللامي ، د. جبـار عبـاس ، شعر المرأة في العصر الجـاهلي ، انظر الفصـل الأول ص27 (الرثـاء في شعر المرأة) ، طب مركز عبادي للدراسات والنشر ـ صنعاء 1998 .

الصائغ . د . عبد الإله ، الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ، انظر الفصل الثاني البيان الثـالث ص 82 (صورة الفارس في ذهنية الحبيبة) ، طب المركز الثقافي العربي ـ بيروت / كازابلانكا 1997 .

(17) غريب . جورج ، شاعرات العرب في الجاهلية ص146 ، طب دار الثقافة بيروت 1984 .

والشجاعة والمروءة متوفرة في الممدوح .. ولنا أن نقترب من صورة سلامي ذي فائش في عيني الأعشى .. فالناس أجناس منتعل وحاف شحيح وكريم ، لكن الممدوح يعطي الكثير الكثير فهو يعطي دون منّة ، الفرس النهد ، والجواري ، والعبيد ، والإبل الضخام التي يتبعها أطفالها ، فإذا زاره ضيف أكرمه وأكرم مطيته ؛ جزاء لها بما عملت أخفافها وما لقيت من متاعب . فلو كان الممدوح ينبوعاً لاجتمع ماؤه وتكاثر حتى يرتوي الناس فهو الولد النجيب لأبوين نجيبين ، والممدوح يفخر بشجاعته كما يفخر بمروءته ، لأنه ليث لدى الحرب فاستحق المديح قلادة له أو وساماً :

والناس شتى على سجائحهم	مستوقحاً حافياً ومنتعلاً
بسيْر من يقطع المفاوز والـ	ـبُعْدَ إلى من يثيبُه الإبلا
يكرِمُها ماثوت لديه ويجـ	ـزيها بما كان خفُها عمِلا
أصبح ذو فائش سلامة ذو الـ	ـتفضال هشاً فؤاده جذِلا
أبيضُ لا يرهبُ الهزالَ ولا	يقطع رِحْماً ولا يخونُ إلا
يا خيرَ مَن يركبُ المطيّ ولا	يشربُ كأساً بكفّ من بخِلا
قلدتكَ الشِّعْر يا سلامة ذا الـ	ـتفضال والشيء حيثما جعلا
لو كنتَ ماءً عِدّاً جممتَ إذا	ما ورد القوم لم تكن وشلا
أنجبُ أيامِ والديهِ به	إذ نجّلاه فنعم ما نجلا
هل تذكرُ العهدَ في تنمّصَ إذْ	تضربُ لي قاعداً مثلا
ليثٌ لدى الحربِ أو تدوخَ له	قسراً وبذّ الملوك ما فعلا[18]

وقد وجدنا قواسم مشتركة بيّنه بين صورة الممدوح وصورة المرثي فالمديح تمجيد الحي ، والرثاء تمجيد الميت ، وفي كلا التمجيدين ثمة الرجل الاستثنائي الخارج عن القطيع ، الفارس الذي يحقق حلم قومه ، فهو يجمع السماحة والنجدة والحزم والقوة وهو الألمعي الذي يكون حدسه في الشخص البعيد عنه صادقاً كأنه رآه وسمعه فهو يتلف

(18) الأعشى . ديوانه ق 35 ص 285 وبعدها .

أمـوالـه ليخلف السمعة الحسنـة ، ولا شيء يكشف كرمـه أكثر من فصـل الشتـاء حين يستشري الجوع والمرض بسبب من البرد والثلج اللذين يمنعان الناس من مغـادرة بيوتهم ويقتلان الإبل والبقر .. فإذا الفتاة الكاعب الجميلة لا تجد ما تأكلـه فـإن وجـدت نسيت أناقتها وجمالها وأنوثتها وأقبلت على الطعام كما يقبل السبع على الفريسة !! هذا الفـارس الفتى الكريم هو قمر الليل وشمس النهار ، فإذا غاب بكاه الفتيـان والفتيـات وبكاه الحي جميعاً لأنهم لن يأمنوا الاعتداء عليهم بعد غيابه . قـال أوس بن حجر وهو يصبّر نفسه بعد أن خسر صديقاً عزيزاً كان مثالاً للفارس المحبوب !!

أيّتهـا النفس أجملي جـزعـاً	إنّ الـذي تحـذرين قـد وقعـا
إن الـذي جمـعَ السماحـة والنجـ	ـدة والحـزم والقُـوى جُمعـا
الألمعيّ الـذي يظن لـك الظـ	ـنّ كأن قـد رأى وقـد سمِعـا
والمُخلِفَ المتلفَ المرزّأ لم	يُمْتَـع بضعفٍ ولم يمت طبعـا
والحـافـظ النـاسَ في تحـوط إذا	لم يرسلـوا تحت عـائـذ رُبعـا
وازدحمت حلقتـا البِطـان بـأقـ	ـوامٍ وطـارت نفـوسُهم جـزعـا
وعـزّت الشمألُ الريـاحَ وقـد	أمسى كميعُ الفتـاة ملتفعـا
وشُبّـة الهيـدبُ العَبـامُ من الـ	أقـوامِ سقبـاً ملبّسـاً فرعـا
وكانتِ الكاعبُ المنعمـةُ الـ	حسنـاءُ في زاد أهلهـا سبعـا
أودى وهـل تنفـع الإشـاحـةُ من	شيء لمن قـد يحـاولُ البـدعـا
ليبكـكَ الشَربُ والمـدامـةُ والـ	ـفتيـانُ طراً وطـامِـعُ طمَعـا
وذاتُ هِـدْمٍ عـارٍ نـواشِرُهـا	تُصمتُ بـالمـاءِ تـولبـاً جـدِعـا
والحيُّ إذ حـاذروا الصبـاحَ وقـد	خـافـوا مُغيراً وسـائِراً تلِعـا[19]

والفارسُ إنسان ذكي ، نال نجوميته بذكائه ، فإذا مـات مـات كريماً ، وإذا عـاش

(19) ابن حجر . أوس ، ديوانه ق 26 ص 53 وبعدها ، تح : د . محمد يوسف نجم ، مط دار صـادر ـ بيروت 1960 .

عاش حميداً ، وإذا وجد الفارس أن الرأي أنفع من الحرب فضّل الرأي .. ومعظم هموم الفارس تتجلى في كيفية حفاظه على نسائه وعرضه ، فعنترة يدافع عن عرضه بحياته ، ولا ينسى ذلك حتى وهو يبالغ في شرب الخمرة !!

وإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافرٌ لم يكلم

أما عمرو بن معد يكرب الزبيدي يستشعر أحياناً أنه أضاع شبابه في الشهرة والفروسية ، فهو إنما يقاتل ليحفظ شرف سمعته وشرف حبيبته بيد أنه يفاجأ بأن الحرب قد ضغطت عليه ، وغيّرت ملامحه ، وعجلت في مشيبه :

أعاذل إنما أفنى شبابي ركوبي في الصريخ إلى المنادي
أعاذل شكتي سيفي ورمحي وكلّ مقلص سلس القياد
ولو لاقيتني ومعي سلاحي تكشّف شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد موتي عذيرك من خليلك من مراد
ويبقى بعد حلم القوم حلمي وينفد قبل زاد القوم زادي[20]

كان عمرو فارساً ، وابن فارس ، وحفيد فارس ، وقد فاتشه الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال له : ما الحرب ؟

فقال : مرة المذاق إذا قلّصت عن ساق ، من صبر فيها عُرِف ، ومن ضعف عنها تلف .

ثم سأله عمر عن السلاح ؟ فقال : الرمح أخوك وربما خانك ، والنبل منايا تخطئ وتصيب ، والترس هو المجن وعليه تدور الدوائر ، والدرع مشغلة للفارس متعبة للراجل ، وإنها لحصن حصين[21] .

(20) البصري . صدر الدين علي بن أبي الفرج ت659 ، الحماسة البصرية ق 77 (35/1) ، طب عالم الكتب ـ بيروت 1983 ، تح : مختار الدين أحمد .

(21) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء 240/1 .

ورجل فارس بمثل هذه الخبرة كان يتفادى الحرب ، لكنه يخوضها إذا اضطر إليها .. فهذه لميس حبيبته الجميلة وقد فضحها أعداؤه .. (وكان الأمر جدّا) !!

ليس الجمـــــــال بمئزر	فـــاختر وإن أرديت بردا
إن الجمـــــال معـــــادن	ومنـــاقب أورثن مجـــدا
.. لمـــا رأيت نســاءنـــا	يفحصن بـالمعـزاء شـدا
وبـــدت لميس كأنهـــا	بـدر الـزمـان إذا تبـدى
وبـدت محـاسنهـــا التي	تخفى وكان الأمر جـــدا
نـــــازلت كبشهم ولم	أرَ من نـزال الكبش بـــدا

ثم ينفثها أنّةً حرّى .. كيف جعلته الحرب يخسر أعزّ إخوانه وأصحابه ..

كم من أخ لي صـــالـــح	وسـدتـه بيـدىّ لحـدا
ذهب الـــــذين أحبّهم	وبقيت مثل السيف جلدا[22]

ولهذا السبب .. رفض هذا الفارس تحقير حبيبته له ؛ لأنه فرّ في واحدة من المعارك غير المتكافئة التي دارت بين قومه وبني عبس ، وكنّى لحبيبته بـ (أم الحصين) وقد أنصف أعداءه بأنهم أقوياء كأنهم يرتدون جلود النمور .. وقد خرّقوا ترسه ، وقتلوا فرسه فلمس الأرض ، وما العيب في أن يفرّ يوماً في حياته وهو الشجاع الذي شهد أمسه له بها ؟

أجـــاعلـــة أم الحصين خـزايـــة	عليّ فراري أن لقيت بني عبس
لقيت أبا شـأس وشـاسـاً ومـالكاً	وقيسـاً فجـاشت من لقـائهم نفسي
كأن جلـــــود النمر جيبت عليهم	إذا جعجعوا بين الإنـاخـة والحبس
أتـونـا فضمـوا جـانبينـا بصـادق	من الطعن فعل النار بـالحطب اليبس
ولمـا دخلنـا تحت فيء رمـاحهم	خبطت بكفي أطلب الأرض بـاللمس

---

(22) الزبيدي . عمرو بن معد يكرب ، ديوانه ص 68 وبعدها ، تح : هاشم الطعان ، طبعة بغداد 1970 .

فـأبت سليمـاً لم تمـزّق عمـامتي ولكنهم بـالطعن قـد خرقـوا ترسي

وليس يعـاب المرء من جبن يـومـه وقد عرفت منه الشجاعـة بـالأمس[23]

خصائص شعر الفروسية :

1 ـ التخفف من المقدمـات الطلليـة ، والاستعـاضـة عن وقفـة الأطلال بمخـاطبـة الحبيبة أو عتابها أو الفخر بالنفس أمامها ، وإشعارها أن الحروب التي يخوضها الفرسـان ويعرّضون فيها حياتهم للخطر إنما هي من أجل الحفاظ على شرف المرأة !!

2 ـ الإيجاز في القول وعدم الميل إلى التفاصيل الزائدة ، فثمة قيم عليا محـدّدة يـدور حولها الشعر ويعززها .

3 ـ سهولة العبارة ووضوحها مع اختيار إيقاعات قوية صـاخبـة للبحور والقوافي والحروف بما يعزز مقولة المشاركة الإيقاعية في جلاء الصورة والفكرة ..

4 ـ جل أغراض الشعر الجاهلي ممكن الاختراق من خلال فيض الفروسية والفـارس محبوب الرجال والنساء والعجـائز والصبيـان ، تتجلى صورتـه المشرقـة من خلال الغزل والفخر والمديح والرثاء والهجاء ..

5 ـ لم نجـد نصـاً واحـداً يعزّز فكرة الظلم والعتو ، فـالفرسـان بشر مشرقون ، وهم عادة يظلمون الظالم ، عمرو بن كلثوم حقر الملك عمرو بن هند .. هـذا الإنسـان المعتوه المغرور الغادر مثلاً .. والفرسـان يصفحون عن الضعفـاء وينجـدون الصريخ ويترفّعون عن الأسلاب والنظر في العورات !

6 ـ وشاع بين الفرسان فن الإنصـاف ، فـالمنصفـات قصـائـد أنصف فيهـا الشعراء خصومهم ، وذلك أدنى لمجدهم ، لأن الانتصـار على الجبـان ليس انتصـاراً وإنمـا الفخر أن ينتصر الفارس على البطل .. وهذا وعي إعلامي فيه الكثير من الفطنة .

---

(23) البصري . الحماسة البصرية 27/1 .

7 ـ التماهي الحاد بين دلالات الحماسة والفروسية والفتوة فهي الأثافي الثلاث التي يستقر عليها المثل الأعلى للفروسية ..

8 ـ اعتماد شعر الفروسية على تقنيات الصور الفنية ، فالشعر مولع بوصف المشاهد وكأننا نرى ونسمع ، ونذوق ، ونشم . كما حذق الشعر توصيف المشاعر الداخلية الفائرة ..

9 ـ الميل إلى المبالغة في المدح أو الهجاء أو الفخر أو الرثاء بما يجعل في ذهن المتلقي من الفارس مثالاً نادراً في الإقدام والمروءة .

10 ـ الاتكاء على آلية الحكاية في هتك مشاهد الحرب والصرخات والدم والرجال والسلاح والأسماء والمناخ من خلال الحركة والحدث والعقدة والمفارقة والحوار الواضح أو الحوار الذي يغيّب طرفه الآخر .

11 ـ الإمعان في وصف عدة الحرب الفرس والفارس والدرع والبيضة والسيف والرمح والقوس .. إلخ وإضاءة حركتها داخل المشهد .

12 ـ مساهمة المرأة الجاهلية الشاعرة في صناعة نصوص الفروسية والتغنّي بشمائل الفارس بما يشكّل ظاهرة تستحق الدراسة والتعليل ..

13 ـ أنسنة الحصان وإسباغ المشاعر الإنسانية عليه ، فهو يتوجّع من الجراح ، ويتعاطف مع الفارس ، ويحاوره بعينيه ، وغالباً ما ينسب الفعل للفرس والمقصود الفارس ، فالخيل تقتل ، وتطحن ، وتفكّر ، وتفر ، وتكرّ .. إلخ .

14 ـ نصوص شعر الفروسية أكثر عدداً من أي ضرب شعري آخر فثمة عشرات النصوص بل المئات ، كلها تتغنى بالفروسية والفتوة وتمجّد الخير . والدارس لهذه

النصوص الكثيرة يفاجأ بأنها تخبّيء رغبة أكيدة في السلام .. وغالباً ما يكون الموت من أجل الحياة[24] .

---

(24) كثيرة هي الكتب التي كرست كل فصولها لدراسة الفروسية ، أو الفتوة ، أو الحماسة ، أو كرست فصلاً أو مبحثاً .. نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر :

1 ـ ضيف . د. شوقي ، العصر الجاهلي ، طبع دار المعارف بمصر 1960 .

2 ـ القيسي . د. نوري ، الفروسية في الشعر الجاهلي ، طبع دار التضامن بغداد 1964 .

3 ـ البستاني . بطرس ، الشعر الجاهلي ، طبع دار العلم بيروت 1965 .

4 ـ الجبوري . د . يحيى ، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، طبع بيروت 1972 .

5 ـ القيسي . د . نوري ، ود . عادل البياتي ، ود. مصطفى عبد اللطيف ، تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، طبع دار الحرية بغداد 1979 .

6 ـ الحاج حسن . د. حسين ، أدب العرب في عصر الجاهلية ، طبع المؤسسة الجامعية بيروت 1984 .

7 ـ الصائغ . د. عبد الإله ، الصورة الفنية معياراً نقدياً ، طبع دار الشؤون الثقافية بغداد 1987 .
الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ، طبع المركز الثقافي العربي بيروت 1997 .

8 ـ اللامي . د. جبار عباس ، شعر المرأة في العصر الجاهلي موضوعاته وخصائصه الفنية ، طبع مركز عبادي للدراسات ـ صنعاء 1998 .

الفصل السابع

الصعلكة وشعراؤها

يلف ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي ضباب كثيف يحجب الرؤية أحياناً ، فقد درست بمناهج مختلفة ، اقتصادية ، واجتماعية ، وجغرافية ، وإيديولوجية ، وفنية ، فكان لكل منهج عيناته الشعرية والنثرية التي يختارها ويهمل ما سواها ، ووثائقه التاريخية التي تعنيه دون غيرها ، فباتت الصعلكة صعلكات ، فمن قائل : إن الصعاليك مجرّد لصوص جعلوا رزقهم في السرقات ! إلى قائل : إنهم قتلة وفتّاك ، يميلون إلى سفك الدماء البريئة ، ومن قائل : إنهم فئة ضالة ملعونة خلعتهم قبائلهم وطاردتهم وأهدرت دماءهم . إلى قائل : إنهم كوكبة تحلم بتوزيع الثروة والجاه بين الناس دون استثناء .. ومقاربتنا للصعلكة لا تدّعي أنها قادرة على مخالفة الآراء وتفنيدها وتجهيلها وذلك أمر لا ينسجم مع الأخلاقية العلمية ، بله منهجنا الفني . ولسوف نتجنب ـ قدر الإمكان ـ وضع القاعدة أولاً ثم اللهاث وراء الشواهد ؛ لتنهض بالتعزيز والتعضيد .. بل ما نحاوله هو النظر إلى الصعلكة كما هي لا كما حمّلت من الدلالات . جاء في معظم المعجمات العربية أن الصعلوك هو الفقير الذي لا مال له ، ولا اعتماد ، قال حاتم الطائي :

غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... فكلاً سقاناه، بكأسيها الدهر

فما زادنا بغياً على ذي قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

وتصعلكت الإبل ، أي خرجت أوبارها وانجردت وطرحتها ، ورجل مصعلك الرأس مدوره أو صغيره ، وصعاليك العرب ذؤبانها ، وكان عروة بن الورد يسمى عروة

الصعاليك ؛ لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه[1] .. ويبدو اقتران دلالة الصعلوك بالفقير والذئب ومصطلح (ذؤبان العرب يشير إلى صعاليكهم وشطّارهم . وقد ذؤب فلان ذآبة خبث كالذئب)[2] وهكذا قرّت . الصعلكة في ذهنية الجاهلية حالة من التمرّد على الفقر والقبيلة والأمن .. وغلبت صفة اللصوص عليهم ، وقد درس بلاشير الشعراء الصعاليك مثل الشنفرى ، وتأبط شراً ، والسليك بن السلكة السعدي ، والحارث بن ظالم المري ، وعروة بن الورد ، وفق عنوان (الشعراء اللصوص)[3] .

وقال جرجي زيدان : « الشعراء الصعاليك هم طائفة من الشعراء اشتهروا بالعدو والإغارة على القبائل للنهب ، أشهرهم الشنفرى (ت 510م) ، وتأبط شراً (ت 530م) والسليك بن السلكة (ت 605م) ، وعروة بن الورد (ت 596م)[4] .

أما بطرس البستاني فقد نظر إلى الصعاليك من منظور مختلف ، فمزجهم (الصعاليك) بالعبيد والفرسان فكان عنوان الفصل الذي درسهم فيه هو (العبيد والصعاليك والفرسان) ، ولم يجد في نشاط الصعاليك ما يعكرّ صفو الحياة الاجتماعية ، لأن الصعلكة واحدة من إفرازاتها . يقول بطرس البستاني : « فحرية الأفراد أقدس رمز في حرم القبيلة ، تؤلف منهم مجتمعاً اشتراكياً صغيراً ، تشد بعضه إلى بعض عصبية تعاونية نازلة من الأشراف إلى الصعاليك صاعدة من الفقراء إلى الأغنياء ».. فالسيادة لها حدود والفقراء من أبناء القبيلة غير مستعبدين وإنما يستبعد من كانت أمُّه أمَةً سوداء وإن كان أبوه من أشراف القبيلة ، فتعصب العرب للنسب الصريح وللون الأبيض جعلهم يسترقُّون كل أسود ، ويلقبونه بالغراب ، كما لقب عنترة والسليك ، وقد

---

(1) مثلاً انظر لسان العرب (صعلك) .

(2) الزمخشري . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538 هـ) ، أساس البلاغة (ذأب) ، تح : عبد الرحيم محمود ، طبع دار المعرفة ـ بيروت .

(3) بلاشير . د . ريجيس ، تاريخ الأدب العربي ص 315 وبعدها .

(4) تاريخ أدب اللغة العربية 141/1 .

استطاع السليك أن يحرر نفسه من رق العبودية بشجاعته مثلما استطاع عنترة ، عرف السليك فضل ربه ، وفضل شجاعته ، عندما رأى أولاد الإماء مستعبدين لا يعترف بهم آباوهم البيض إذا وجدوهم ضعافاً .. وكان السليك فارساً شجاعاً وشاعراً مجيداً ، كما كان شأن عنترة .. وهؤلاء العبيد والصعاليك لا يقلون فخراً واعتداداً بالنفس عن السادات والأشراف ، يغزون على الخيول وعلى الأقدام ، ويهاجون القوافل السائرة في بطن القفار ، فيفتكون ويغنمون ، مباهين بشجاعتهم وكرمهم ؛ لأنهم يبذلون ما بأيديهم من الغنائم للفقراء والجائعين »[5] .

ثم يسأل د. عبد الحليم حفني : من الصعلوك ؟ ويتردد في الإجابة ، فيمهد لها بالتوفّر على دلالات الصعلكة في اللغة والاصطلاح والذهنية الجاهلية ليجيب بعد عن هذا السؤال على هذا النحو : « إن تعريف الصعلكة بقولنا هي احتراف السلوك العدواني بقصد المغنم شامل لجوانب الصعلكة ، ومانع غيرها من مشاركتها في التعريف »[6] . ولا نريد الاسترسال في الإحالات ، لأن موقف الدارسين منقسم على نفسه ، بين محتقر للصعلكة ، وبين مقدّر ، وهذا الاختلاف حالة صحية ، فرضها اختلاف المناهج والإيديولوجيات ، ليستطيع الدارس المحايد النظر إلى الصعلكة على أنها حالة بين موقفين فثمة صعاليك أمعنوا في الغدر والإيذاء والسبي وإقلاق الأمن الاجتماعي مثل تأبط شراً ، وفي المقابل ثمة صعاليك ذوو مروءة ، فهم لا يغدرون ، ولا يظلمون ، حتى إن قبائلهم افتخرت بهم ، مثل عروة بن الورد ، وقولنا هذا ليس فتحاً علمياً .. فالنقائض سمة الحياة والحركة ففي كل مجموعة أو طبقة أو حرفة ، ثمة الإنسان الذي يؤثر الآخرين على نفسه والإنسان الآخر الذي يؤثر أطماعه على مصالح الآخرين ، فضلاً عن تعدد أساليب أولئك وهؤلاء نظافة أو اتساخاً !! لقد عرف العصر الجاهلي الصعلكة وشغل بحركتها بيد أنها لم تتبلور في ذهنيته وفق حدها النظري

---

(5) الشعر الجاهلي ص 69 .

(6) حفني . د. عبد الحليم ، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه ص 39 ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987 .

والفعلي ، وقد وجد من يمقتها ويعدها مروقاً عن القيم النبيلة وكسراً لتقاليد القبيلة ، وتحدياً للسلطان ، فأباح البرمون بالصعلكة لسكاكينهم نحر أي صعلوك يقع في قبضتهم ؛ لأن دماء الصعاليك مهدورة ، كما وجد من يتعاطف مع الصعاليك ويتفهم دوافعهم فيؤويهم أو يدافع عنهم .. ومن العمه القطع بشأن الصعلكة واعتدادها حالة واحدة ، والظن بأن كل الصعاليك كانوا مستهترين لصوصاً فقط ، أو أصحاب قضية ودعاة مساواة فقط ، نعم هناك من انخرط في الصعلكة ليعبث ويسرق ويسفك ، كما ينخرط نفر في حزبٍ مالدوافع ذاتية تخصه ولا تخص الحزب .. ويرى د. شوقي ضيف أن القبيلة الجاهلية كانت مؤلفة من ثلاث طبقات :

1 ـ أبناؤها وهم الذين يربط بينهم الدم ، والنسب وهم عمادها .

2 ـ العبيد وهم رقيقها المجلوب من البلاد الأجنبية المجاورة ، وخاصة الحبشة .

3 ـ الموالي وهم عتقاؤها ويدخل فيهم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم ونفتهم لكثرة جناياتهم وجرائمهم .

أما الخلع فكان معروفاً في تقاليد القبيلة التي تعلنه في الأسواق والنوادي والأحياء : « ومن هؤلاء الخلعاء طائفة الصعاليك ، وكانوا يمضون على وجوههم في الصحراء فيتخذون النهب وقطع الطريق سيرتهم ودأبهم .. على أن منهم من كان يظل في قبيلته لفضل فيه »[7] ، ومهما يكن الأمر فإن الصعلوك إنسان لا يستطيع الانسجام مع قيم القبيلة وأعرافها ، فيترك الناس ويهيم على وجهه في الفيافي والقفار ليواجه مصيره وحيداً[8] فهو الباحث عن حريته الشخصية وليس الباحث عن الحرية الاجتماعية ، وحريته الشخصية فوق حرية المجتمع وأغلى من حياته[9] ، والصعلوك إنسان مشاكس ، يستأنس بالوحشة ، ويستوحش من الناس ، وقد يشاكس الرحمة التي في أعماقه حتى

---

(7) العصر الجاهلي ص 97 .

(8) خليف . د. يوسف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ص 23 ، مط المعارف مصر 1959 .

(9) نالينو . كارلو ، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص72 ، لوبون . غوستاف ، حضارة العرب ص93 .

لا يلين ، واجداً هناءه في الذعر الذي يسببه للآخرين[10] فإذا ضاق مكان القبيلة ، فإن مكانه لا يضيق وإذا زمان الناس ، فللصعلوك زمانه ، قارن عروة بن الورد :

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرح ... عليه، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموتُ خير للفتى من حياته ... فقيراً، ومن مولى تدبّ عقاربه
وسائلةٍ: أين الرحيل؟ وسائل ... ومن يسألُ الصعلوك: أين مذاهبه
مذاهبه أن الفجاج عريضة ... إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلاأترك الإخوان ماعشت للردى ... كما أنه لا يترك الماءَ شاربه
ولا يستضامُ الدهر جاري ولاأرى ... كمن بات تسري للصديق عقاربه
وإن جارتي ألوت رياح ببيتها ... تغافلت، حتى يستر البيت جانبه[11]

وهذه الأبيات لا تقدّم بين يدي الدارس صورة عن الصعلكة منفردة ، فهي شيء من الصعلكة والفروسية والمروءة ، وتلك سمة ربما انفرد بها عروة ، ذلك الفارس الشاعر الذي رعى الصعاليك وقادهم ، وحاول ضبط حركاتهم ، وزرع القيم العربية في نفوسهم فكان قد جعل من نفسه قدوة للصعاليك ، بيد أن الصعلوك إنسان ذاتي ، لا يرى إلا حنقه وثاراته :

وإني امرؤ عافي إنائي شركة ... وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى ... بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد[12]

وأراد حاتم الطائي تأسيس منهج إغلاقي ثابت للصعلوك ، بحيث يغسل سمعته أمام الناس ، فهو كما سنرى في القصيدة اللاحقة ، يلوم عاذلتيه لأنهما نصحتاه بضرورة حفاظه على أمواله التي بدأ بإتلافها ، قائلاً لهما إن أخلاق الصعلوك ليست في إشباع

---

(10) أدونيس ، ديوان الشعر العربي 20/1 ، طب المكتبة العصرية - بيروت 1964 .

(11) ابن الورد ، عروة ، ديوانا عروة والسموءل ص 19 .

(12) نفسه ص 29 .

البطن ، وإكساء الجسد ، وكنز المال .. وإنما هي سبب مفضٍ إلى المجد والحمد مذكراً إياهما بأن الدهر لم يسالم أحداً من قبله ولا بعده :

وعاذلتين هبتا بعد هجعة ... تلومان متلافاً، مفيداً، ملوّما
تلومان، لّما غوّر النجمُ ضلة ... فتى لا يرى الإتلاف في الحمد مغرما
فقلت وقد طال العتاب عليهما ... ولو عذراني، أن تبينا وتصرما
فإنكما لا ما مضى تدركانه ... ولست على ما فاتني متندما
فنفسك أكرمها، فإنك إن تُهن ... عليكَ، فلن تلفى لك الدهرَ، مكرما
أهِن للذي تهوى التلاد، فإنه ... إذا متَّ كان المالُ نهباً مقسّما
ولا تشقين فيه، فيسعد وارث ... به، حين تخشى أغبرَ اللون مظلما
وما ابتعثتني في هواي لجاجةٌ ... إذا لم أجد فيها إمامي مقدّما
وذو اللب والتقوى حقيقٌ إذا رأى ... ذوي طبع الأخلاقِ أن يتكرّما
وعوراء، قد أعرضت عنها فلم يضر ... وذي أود قوّمته فتقوّما
وأغفرُ عوراء الكريم ادخاره ... وأصفح من شتم اللئيم تكرّما
ولا أخذل المولى وإن كان خاذلاً ... ولا أشتم ابن العم، إن كان مفحما
وليلٍ بهيم قد تسربلت هوله ... إذا الليل بالنكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك حمداً ولا غنى ... إذا هو لم يركب من الأمر مُعظما
يرى الخمص تعذيباً وإن يلق شبعةً ... يبتْ قلبُه، من قلة الهم مُبْهما
لحى اللهُ صعلوكاً مناه وهمُّه ... من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما
ينام الضحى حتى إذا ليلُه استوى ... تنبّه مثلوجَ الفؤاد، مورّما
مقيماً مع المثرين ليس ببارح ... إذا كان جدوى من طعام ومجثما
ولله صعلوكٌ يساورُ همّه ... ويمضي على الأحداث والدهر مقدما
فتى طلبات لا يرى الخمص ترحةً ... ولا شبعة إن نالها، عدّ مغنما
إذا ما رأى يوماً مكارمَ أعرضت ... تيمّم كبراهن ثمت صمّما

تری رمَحـــةُ ونبلـــه ومجنــــه وذا شُطب عضبَ الضريبة، مخذما
وأحنـــاءَ سرج فـــاتر ولجـامـــه عتـاد فتى هيجا وطِرفا مُسَوما[13]

هذه القصيدة قوامها أربعون بيتاً ، بـدأت غزليـة ظلليـة ، واستغرقت بـاستهلالها تسعة أبيات ، ثم اصطنع حاتم حواراً بينه وبين صاحبتيه ، لينهي إلينا أخلاق الصعلوك التي تجمع بين الكرم والشمم والفروسيـة وذلـك أمرٌ يحيلنـا إلى سؤال مهم وهو : هل عنى حـاتم أولئـك الصعـاليـك الـذين يسكنون بين المضـايق والكهوف والفجـاج ويقطعون الطرق على السـابلـة ؟ والجـواب : نعم ، ولكن !! هـو لم يمتدح الصعـاليـك ولكنـه ينصحهم بـالتخلّق بـأخلاق العرب في الكرم والمروءة والأمـانـة وذلـك جـانب تربوي ، فحـاتم وعروة وهمـا ليسـا فقيرين أو مخلوعين أرادا احتواء هـذه الكوكبة الغـاضبـة من الفتيان الشجعان وترسيم خطاهـا وتقويم شمائلهـا .. وفق نظرة تربويـة أبويـة .. وقـد لاحـظ أحمـد الشـايب هـذا التنـاقض بين مـا يفعلـه الصعلـوك من الأذى بـالآخرين وبنفسه ، وبين ما يزعمه في شعره من سجاياه وهمومـه الوجوديـة وأقرّ أن التنـاقض بين الفعـل والقـول ظـاهرة صعلـوكيـة[14] ، وهـذا الرأي مشـاكل ، ولا نقـول متـابـع لرأي غوستاف لوبون الـذي أورد فيما أورد رأي (ديفرجـة) الـذي يؤسس أن الصعلكـة جمع بين النقيضين الكرم والسرقة والمروءة والقتل فكأن الصعلوك مصاب بانفصام الشخصيـة بسبب القهر[15] .

الصعاليك فتية غاضبون ، وجدوا المسافة شاسعـة بين حلمهم وواقعهم ، بين نظرتهم إلى أنفسهم ونظرة قومهم الدونية إليهم ، فهم صرخةٌ احتجاج ضد زمن القبيلـة وقيمهـا ، فالصعاليـك على هـذا النحو ليسوا فقراء فحسب وآيـة ذلـك غنى بعضهم . وثراء فقرائهم بعد غزواتهم المباغتة للأحياء الثرية . وهذا الغنى لم يعدهم إلى زمان القبيلة أو مكانهـا أو

---

(13) الطائي . حاتم ، ديوانه ، حرف الميم ص 79 وبعدها ، تح : عادل سليمان ، مط المدني ـ القاهرة .

(14) الشايب . أحمد ، الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني ، طب السعادة بمصر 1976 .

(15) لوبون . غوستاف ، حضارة العرب ص 92 .

قيمها ، بل كان سبباً في الإمعان والمبالغة ، فهم في نظر أنفسهم شجعان أقوياء ذوو حس مرهف ، واستغلوا المبدأ العسكري ، وهو الإقلاق والاستنزاف لمعسكر القبيلة ، وبخاصة الأثرياء ، فكان الأثرياء يساومونهم ويمنحونهم التعويضات مقابل أمنهم وأموالهم ، وقد ساعد الصعاليك على الاستمرار في حركتهم طبيعة الجزيرة العربية ، من جبال وكهوف وبطاح وأحراش ومفازات ، فضلاً عن قدرات خاصة لدى هؤلاء الغاضبين من نحو سرعة الجري حتى كان الراكض الراجل منهم يلاحق الفارس وينزله عن فرسه ومن نحو الصبر على الجوع ، والعطش ، والمرض ، والخبرة بطرق الصحراء . فانعكس ذلك على شعرهم مما خلّق صوراً فنية عالية القيمة[16] ، وقد ينضم إلى فريق الصعالكة نفر من الفتيان الفاشلين ، والمنبوذين ، والمعوّقين . وليس بمقدور الدارس المتأني القول بأن الصعاليك ذوو برنامج إصلاحي أو فكر سياسي ، أو منهج تنويري ، فهذا القول مجانب لطبيعة الحياة العربية عهد ذاك .. وقفزاً فوق قوانينها الحضارية ، وربما راقت كلمة (صعلوك) لكثير من الشعراء حين تدل على الفقر والصبر والشطارة ، ولم يفكروا في أبعادها الحربية ، وهذه أبيات نشاهد من خلالها نزق الأعشى وتصابيه ، وقد جاوز الثمانين ، فهو يتشبه بالفتيان الصعاليك الذين لا يفكرون في العواقب ، وإنما يحصرون تفكيرهم في اللحظة التي يحيونها .. والأعشى يتكلم عن الخمرة مباهياً بخبرته في أوقاتها وأنه شربها غنياً وصعلوكاً بيد أنه أذكى من أن يلمس الأفعى بيده !!

لنا من ضحاها خبث نفس وكآبه ... وذكرى هموم ما تَغِبُّ أذاتُها

وعند العشيّ طيبُ نفس ولذة ... ومال كثيرٌ غدوةً نشواتها

على كلّ أحوال الفتى قد شربتها ... غنياً وصعلوكاً وما إن أقاتها

أبا مسمع إني امرؤ من قبيلة ... بنى لي مجداً موتها وحياتها

---

(16) الصائغ . د. عبد الإله ، الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام انظر مبحث (الهرب من أهل الزمان ورموزه نحو المغامرة) ص263 .
الحوفي . د. أحمد ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص 91 .
جياووك . د. مصطفى ، الحياة والموت في الشعر الجاهلي ص 52 ، طبع دار الحرية بغداد 1977 .

فلا تلمس الأفعى يداك تريدها ... ودعها إذا ما غيبتها سفاتها
كفى قومه شيبان أن عظيمه ... متى تأته تؤخذ لها أهباتها
إذا روّح الراعي اللقاح معجّلا ... وأمستْ على آفاقها غبراتها
أهنا لها أموالنا عند حقّها ... وعزّت بها أعراضنا لا نُفاتُها[17]

وقريب من الهم المركزي الذي بنى عليه الأعشى تائيته هم رائية حاتم ، وقد اكتشف الطائي أن الحوار مع المرأة التي تعذله على كرمه وصعلكته مما يهيئ له قول أشياء كثيرة ، ليفخر بنفسه ويزهو من جهة وليرسم لنا صورة لتلك العاذلة لا تبعد كثيراً عن قصر النظر والميل إلى الشحّ ... إذ هو يخاطب زوجه ماوية أو حبيبته .. مكرراً اسمها في روعنا !!

أماوي قد طال التجنب والهجر ... وقد عذرتني من طلابكم العذر
أماوي إن المال غاد ورائحٌ ... ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوي إني لا أقول لسائل ... إذا جاء يوماً حلّ في مالنا نزر
أماوي إمّا مانع فمبيّن ... وإما عطاء لا ينهنهه الزجر
أماوي ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت نفسٌ وضاق بها الصدر
أماوي إن يصبح صداي بقفرة ... من الأرض لا ماء هناك ولا خمر
تري أن ما أهلكت لم يك ضرّني ... وأن يدي مما بخلت به صفر
أماوي إني ربّ واحد أمّه ... أجرتُ ، فلا قتل عليه ولا أسر
غنينا زماناً بالتصعلك والغنى ... كما الدهر في أيامه العسر واليسر
كسينا صروف الدهر ليناً وغلظة ... وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأواً على ذي قرابة ... غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر[18]

---

(17) الأعشى . ديوانه ق10 ص 135 وبعدها .

(18) الطائي . حاتم ، ديوانه ص 50 وبعدها .

والصعلوك في أحسن أحواله عاتب على قومه وأهله ؛ لأنهم ضيّعوه ولم يعرفوا قدره ، وسواء في ذلك بنو أبيه أو بنو أمه ، فلماذا يرضخ لهؤلاء وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ، ويجد الشنفرى مرارة في حلقه وغصة حين يتذكّر أن الحيوانات أكثر وفاء من أهله ، فالحيوانات لا تهتك السّر ، ولا تخذل بعضها ، ثم يفخر بنفسه على طريقة الصعاليك في إغاظة خصومه أو أهليه :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم ... فإني إلى قومٍ سواكم لأميل
فقد حمّتِ الحاجاتُ والليلُ مقمرٌ ... وشُدّت بطياتٍ مطايا وأرحل
وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متعزّل
لعمرُك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ ... سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل
ولي دونكم أهلون : سيد عملّس ... وأرقطُ زُهلولٌ وعرفاءُ حيئل
همُ الأهلُ لا مستودعُ السّرِ ذائعٌ ... لديهم ولا الجاني بما جرّ يخذل
وإن مدّتِ الأيدي إلى الزّاد لم أكن ... بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجل
وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضّلٍ ... عليهم وكان الأفضل المتفضّل
وإني كفاني فقد من ليس جارياً ... بحسنى ولا في قربه متعلل
ثلاثة أصحابٍ : فؤادٌ مشيّعٌ ... وأبيضُ إصليتٌ ، وصفراءُ عيطل
أديمُ مطال الجوعِ حتى أميته ... وأضربُ عنه الذِكْرَ صفحاً فأذهل
وأستفُّ تُرْبَ الأرض كيلا يُرى له ... عليّ من الطولَ امرؤ متطوّل

ثم يغلب الطبع على التطبع ، فيعترف الشاعر بما جرّه من المصائب على الناس الذين غزاهم في الظلمة الممطرة ، فقتل الرجال وجعلت النساء أيامى ، وأيتم الأولاد :

دَعَسْتُ على غطش وبغشٍ وصحبتي ... سعارٌ وإرزيز ووجْرٌ وأفكلِ
فأيّمتُ نسواناً وأيتمتُ إلدةً ... وعدتُ كما أبدأتُ والليل أليل[19]

---

(19) العكبري . أبو البقاء عبد الله بن الحسين (ت 616 هـ) ، شرح لامية العرب ص 16 وبعدها ، تح : د. محمد الحلواني ، طب دار الآفاق الجديدة - بيروت 1983 .

وقد عنّ بعدها لتأبط شراً أن يرثي الشنفرى بشعره ، فهو موقن أن لا أحد سيبكي عليه أو يتذكر مزاياه فقال :

على الشنفرى ســـار الغمامُ فرائــح	غــزيرُ الكُلى وصيّبُ المــاء بــاكِرُ
عليكَ جزاءٌ مثل يومكَ بالجبا	وقد رعفتْ منكَ السيوفُ البواتِرُ
تجيــلُ سلاحَ المـوتِ فيهم كأنهم	لشـوكتـكَ الْحَـدّى ضئينٌ تـوافِرُ
فيكفي الذي يكفي الكريمُ بحزمه	ويصبرُ إن الحرّ مثلــك صــابر
فإن تك نفسُ الشنفرى حُمَّ يومُها	وراحَ لـه مـا كان منـه يحـاذر
فما كان بدعاً أن يصاب فمثله	أُصيبَ وأمّ المنجنـون الغـوادر
قضى نحبــه مستكثراً من جميلــه	مُقلاً من الفحشـاءِ والعرضُ وافرُ
يجمُّ جمومَ البحرِ طـال عبابُـه	إذا فـاضَ منـهُ أولٌ جـاش آخر
لئن ضحكت منك الإماءُ لقد بكت	عليك فـأعـولن النسـاء الحرائر
ومرقبــةٍ شماءَ أقعيت فوقهــا	ليغنم غــازٍ أو ليـدرك ثــائر
وإنـكِ لـو لاقيتني بعـدمـا ترى	وهـل يُلقين من غيبتـه المقـابر
وأجمـلُ مـوتِ المرء إذ كان ميتاً	ولا بـدّ يومـاً موتـه وهـو صـابر
وخفّض جـأشي أن كلّ ابن حرة	إلى حيثُ صرتَ لا محـالـة صـائر
فلا يبعـدنّ الشنفرى وسلاحـه الـ	ـحديـدُ وشـدٌّ خطْوه متواتِر[20]

وقد لاحظنا لوعته من ضحك النساء وشماتتهن حين سمعن بموت الشنفرى ، ودعاهن بالإماء ، لكي يرسم لنا صورة أخرى للحرائر اللواتي يعرفن قدره فيبكين عليه .

---

(20) الميمني . عبد العزيز ، الطرائف الأدبية (ديوان الشنفرى) ص28 ، طب دار الكتب العلمية - بيروت ، والقصيدة موجودة في ديوان تأبط شراً وأخباره ق10 ص78 وبعدها ، تح : علي ذوالفقار شاكر ، طب دار الغرب الإسلامي - بيروت 1984 .

وقد اضطردت فكرة مخاطبة الصعلوك للمرأة زاجرة أو مزجورة قالية أو موموقة ! قارن الشنفرى :

أ- دعيني وقولي بعدُ ما شئت إنني	سيغدى بنعشي مرة فأغيب
خرجنا فلم نعهد وقتل وصاتنا	ثمانيةً ما بعدها مستعتب
سراحين فتيان كأن وجوههم	مصابيحُ أو لونٌ من الماء مذهب
ب- لا تحسبيني مثلَ من هو قاعد	على عثة أو واثق بكساد
إذا انفلتت مني جواد كريمة	وثبتُ فلم أخطئ عنان جوادي
جـ- نأت أم قيس المربعين كليهما	وتحذر أن ينأى بها المتصيف
وإنك لو تدرين أن ربَّ مشرب	مخوفٍ كداء البطنِ أو هو أخوف
وردت بمأثور يمان وضالة	تخيّرتها مما أريش وأرصف
د- ألا هل أتى فتيان قومي جماعةً	بما لطمت كفُ الفتاةِ هجينها
ولو علمت تلك الفتاة مناسبي	ونسبتها ظلّت تقاصَرُ دونها
أليس أبي خير الأواس وغيرها	وأمّي ابنة الخيرين لو تعلمينها
إذا ما أرومُ الوُدَّ بيني وبينها	يؤمُّ بياضُ الوجه مني يمينها
هـ- إذا ما جئت ما أنهاكِ عنه	فلم أنكر عليك فطلقيني
فأنتِ البعل يومئذ فقومي	بسوطِك لا أبالكِ فاضربيني[21]

وقد أنجز الشنفرى تائية أودعها رؤيته لجمال المرأة ثم روى لنا لقاءه بأمية فأنفق في ذلك ثمانية عشر بيتاً ، وفي البيت التاسع عشر أشاد بصديق دربه تأبط شراً ، فشبهه بأم العيال .. والعيال هم الصعاليك ، أما جوّ القصيدة فقد ذكره المحققان في هامش القصيدة ولمن يريد الاستزادة قراءة ذلك ..

ألا أمَّ عمرو أجمعت فاستقلّت	وما ودّعت جيرانها إذْ تولّتِ
وقد سبقتنا أم عمرو بأمرها	وكانت بأعناق المطيّ أظلّتِ

(21) الطرائف الأدبية (ديوان الشنفرى) ص 32 ، ص 42 .

بعينيّ ما أمست فباتت فأصبحت ... فقضّت أموراً فاستقلت فولت
فواكبداً على أميمة بعدما ... طمعتُ فهبها نعمة العيش زلت
فيا جارتي وأنت غيرُ مليمة ... إذا ذُكرتْ ولا بذاتِ تفلّت
لقد أعجبتني لا سقوطاً قِناعها ... إذا ما مشت ولا بذاتِ تلفّت
تبيتُ بعيد النوم تهدي غبُوقها ... لجارتِها إذا الهديةُ قلّت
تحلّ بمنجاةٍ من اللوم بيتها ... إذ ما بيوتٌ بالمذمة حُلّت
كأن لها في الأرض نسْياً تقصُّهُ ... على أمّها وإن تكلّمك تبلتَ
أميمةُ لا يُخزي نثاها حليلها ... إذا ذُكر النسوانُ عفّت وجلّت
إذا هو أمسى آبَ قرةَ عينهِ ... مآب السعيد لم يسل أين ظلّت
فدقّت وجلّت واسبكرّت وأكملت ... فلو جُنّ إنسانٌ من الْحُسْنِ جُنّتِ
فبتنا كأن البيت حجّر فوقنا ... بريحانةٍ ريحتْ عشاءً وطُلّت
بريحانةٍ من بطن حلية نوّرت ... لها أرجٌ ما حولها غيرُ مسنت
وباضعةٍ حمْر القسيّ بعثتُها ... ومن يغزُ يغنم مرّةً ويشمّتِ
خرجنا من الوادي الذي بين مشعل ... وبين الجبا هيهات أنشأتُ سربتي
أمشّي على الأرض التي لن تضُرّني ... لأنكيَ قوماً أو أصادفُ حُمتي
أمشي على أين الغزاةِ وبُعدها ... يقرّبني منها رواحي وغدوتي
وأمّ عيال قد شهدت تقوتُهم ... إذا أطعمتهم أوتحت وأقلّت
تخاف علينا العيلَ إن هي أكثرت ... ونحن جياعٌ أي آلٍ تألّت
وما إن بها ضنٌّ بما في وعائها ... ولكنها من خيفة الجوع أبقت
مصعلكةٌ لا يقصرُ السّترُ دونها ... ولا تُرتجى للبيت إن لم تُبيّت
إذا ما أتتني ميتي لم أبالها ... ولم تذرْ خالاتي الدموع وعمّتي
ولو لم أرم في أهل بيتي قاعداً ... إذن جاءني بين العمودين حُمتي

وإني لحلوّ إن أريـدت حـلاوتي ومرٌّ إذا نفس العـزوف استمرّتِ
أبيٌّ لمـا آبى سريـعٌ مبـاءتي إلى كلّ نفس تنتحي في مسرّتي[22]

أما تأبط شراً ، فقد حيكت حول حياته ومغامراته الأكاذيب والمبالغات قارن أسماء إخوته (ريش لغب ، ريس نسر ، كعب جدر ، لا بواكي له) !!

أما حكاية لقبه فيذكرها الأصبهاني : « كان رأى كبشاً في الصحراء فاحتمله تحت إبطه فجعل يبول عليه طول طريقه فلما قرب من الحي ثقل عليه الكبش فرمى به فإذا هو غول ، فقال له قومه : ما تأبطت يا ثابت ؟ قال الغول : لقد تأبط شراً » . وحكاية أخرى تؤول اللقب : « ومضى فصاد أفاعي كثيرة من أكبر ما قدر عليه ، فأتى بهن في جراب متأبطاً به فألقاه بين يدي أمه ففتحته فتساعين في بيتها فوثبت ، وخرجت ، فقال لها نساء الحي ماذا أتاكِ به ثابت ؟ فقالت أتاني بأفاع في جراب ، وقلن لها وكيف حملها ؟ قالت لهن تأبطها ، فقلن : لقد تأبط شراً ، فلزمه تأبط شراً »[23] .

ويبدو أن تأبط شراً مغتبط بما أشيع حول لقبه ومغامراته فكان يزعم أنه يصادق نساء الغول ، أو يتزوجهن ، فكأنه يتباهى أمام صاحبته بأنه ما زال محبوباً ، وإن شاب شعره وبات يفنأ حوقلاً :

تقـول سليمى لجـاراتهـا أرى ثـابتـاً يفنـأ حـوقـلا
لهـا الـويـل مـا وجـدت ثـابتـاً ألفّ اليـدين ولا زمّـلا
ولا رعِشَ السـاق عنـد الجراء إذا بـادر الحملـة الهيضـلا
يفـوتُ الجيـادُ بتقريبـه ويكسـو هـواديهـا القسطـلا
وأدهمَ قـد جبت جلبـابَـه كما اجتـابتِ الكاعبُ الخيعـلا
إلى أن حـدا الصبحُ أثنـاءه ومـزّق جلبـابَـه الأليـلا

---

(22) الضبي . المفضل ، المفضليات رقم 20 ص 108 وبعدها .

(23) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 209/18 .

على شيم نـــارٍ تنـورّتهـــا فبتُ لهـــا مــدبراً مقبـلا
فـأصبحتُ والغـولُ لي جـارة فيـا جـارتـا أنتِ مَـا أهـولا
وطـالبتُّهـا بُضْعهـا فـالتوت بـوجـهٍ تهـوّلَ فـاستغـولا
فقلتُ لهـا يـاانظري كي ترِيْ فـولّتْ فكنتُ لهـــا أغـولا
فطـــار بقحْفِ ابنـــةِ الجن ذو سفـاسِفَ قـد أخلـق المِحمـلا
إذا كلَّ أمهيتُـــه بـــالصّفـــا فحـــدّ ولم أره صيقـــلا
عضـــاءةَ قفرٍ لهـــا حلتـــان من ورقِ الطَلْـح لم تغـزلا
فمن ســأل أين ثـوت جـارتي فـــإن لهـــا بـــاللـوى منزلا
وكنتُ إذا مـــا هممت اعتزمتُ واحرِ إذا قلتُ أن أفعـــلا[24]

وقال أيضاً :

أنـا الـذي نكـح الغيـلانَ في بلـد مـــا طـــلَّ فيـــه سماكيٌّ ولا جـــادا
في حيث لا يصمتُ الغـادي عمـايتَـه ولا الظليم بـــه يبغي تهبّـــادا
وقـد لهـوتُ بمصقـول عـوارضُهـا بكْر تنـــازعني كأســـاً وعنقـــادا
ثم انقضى عصرهـــا عني وأعقبـــه عصر المشيب فقل في صالح بـادا[25]

أما نونيته فقد بناها على آلية الحكاية وأدار صراعاً بينه وبين أنثى الغول !!

ألا مَن مبلـــغٌ فتيـــانَ فَهْمٍ بمـــا لاقيت عنـــد رحى بطـــان
بـــأني قـــد لقيت الغـولَ تهوي بسهْبٍ كالصحيفـــة صحصحـــان
فقلتُ لهـــا : كـلانـــا نضوُأين أخـــــو سفر فخلّي لي مكاني
فشـدّت شـدة نحـوي فـأهـوى لهـــا كفي بمصقـول يمـــاني
فـــأضربهـــا بـــلا دهش فخرت صريعـــاً لليـــدين وللجران
فقـالت : عُـد، فقلتُ لهـا رويـداً مكانـــك إنني ثبت الجنـــان

(24) تأبط شراً . ديوانه ق 27 ص 162 وبعدها .

(25) نفسه ق 9 ص 77 .

فلم أنفـــكُّ متكئـــاً لـــديهـــا لأنظرَ مُصبْحـــاً مـــاذا أتـــاني
إذا عينـــــان في رأس قبيـــــح كرأس الهرّ مشقـــوق اللســـان
وســاقــا مُخْــدَج وشــواةُ كلب وثــوبٌ من عبــاء أو شنــان[26]

ولم يكن السليك بن السلكة رقماً مهملاً في قائمة الصعاليـك والعدائين فهو ابن أمـة سوداء ، هي السلكة ، وهو أحـد العـدائين الـذين كانوا لا يلحقون ، ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا ، وهم السليك والشنفرى وتأبط شراً ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن براقة .

وكان السليك إذا جاء الشتاء استودع بيض النعام مـاء السماء ، ثم دفنـه فإذا جـاء الصيف وانقطعت إغارة الخيل بسبب شحة الماء أغار ، وفاجأ السابله أو الأحياء . وكان كما يقول الأصبهـاني (134/18) أدلّ من قطـاة . يجيء حتى يقف على البيضـة ، وكان لا يغير على مضر وإنما يغير على اليمن ، وكان يقـول حين ينـاجي ربـه : « اللهم إنـك تهيء مـاشئت لما شئت إذ شئت ، اللهم لـو كنت ضعيفـاً كنت عبـداً ولـو كنت امرأة كنت أمة ، اللهم إني أعوذ بك من الخيبة فأما الهيبة فلا هيبة » .

وقد رويت في احتماله القرّ والقيظ . حكايات عجيبـة ، وقـد ضجّت الأحيـاء من بطشه وفتكـه وكثرة غزواتـه ! وكان لـه صـديق اسمـه (صرد) ضلت نـاقتـه في جوف الليل ، فخرج في طلبهـا فلقيـه فرسـان من مراد وخثعم فـأسروه ومضـوا .. فـاعترضهم السليـك وأسرّ قـائـدهم (قيس بن مكشـوح) ، واستـولى على نعمهم وأمـوالهم وسبى أم صرف بنت عوف الخثعمية ، واستردّ صديقه صرداً ، وقد قسّم الغنائم بين أصحابـه من الصعاليك :

بكى صرد لمـــا رأى الحي أعرضت مهـــامـــه رمـل دونهم وسهـوب
وخـوّفـه ريب الـزمـــان وفقره بـلاد عـــدوّ حـــاضر وجـــدوب
فقلت لـه : لاتبـك عينـك إنهـا قضيـة مـــا يقضي لهـــا فتثـوب

(26) نفسه ق 44 ص 222 وبعدها .

رددت عليه نفسه فكأنما ... تلاقى عليه منسر وسروب
فما ذرّ قرن الشمس حتى رأيته ... مصاد المنايا والغبار يثوب
وضاربتُ عنه القوم حتى كأنما ... يصعّد في آثارهم ويصوب

وقد خطط كثير من الأحياء لمقتل السليك والتخلص من أذاه ورصدوا المال والرجال لهذه المخططات ، بيد أن السليك بذكائه ودهائه كان يفلت من الموت ويكبّد الكامنين له خسائر كبيرة .. إلى أن جاء يوم أغار فيه السليك على حي مالك بن ضبيعة فلم يجد عندهم شيئاً يغنم ، وفكّر فتيان الحي بمنازلته أو ملاحقته فقال لهم شيخهم : لا تفعلوا ذلك فهو إذا عدا لم يستطع أسرعكم اللحاق به ، دعوه حتى يرد الماء فإذا شرب وثقل لم يستطع العدو وظفرتم به ، فسمعوا كلام الشيخ ، وأمهلوا السليك حتى ورد الماء وشرب ففاجؤوه وأحاطوا به ، فلما أدرك أنه وقع في الفخ وأنه ميت لا محالة ابتسم في وجوههم ، ودخل أحد بيوتهم ليستنجد بأهل البيت . وعادة العرب أن يحمي صاحب البيت من استجار به . ولم يجد السليك أحداً سوى امرأة اسمها فكيهة ، فاستجار بها فقالت له : أبشر لن يمسك أحدٌ بسوء . وأدخلته تحت عباءتها وامتشقت السيف وناضلت دون السليك فكاثروها وأدركت أنهم خاذلوها وقاتلوه فكشفت شعرها وصدرها واستغاثت بإخوتها ودافعوا عن السليك إكراماً لأختهم ونجا السليك من القتل فقال :

لعمر أبيك والأنباء تنمى ... لنعم الجار أخت بني عوارا
من الخفرات لم تفضح أباها ... ولم ترفع لإخوتها شنارا
كأن مجامع الأرداف منها ... نقىً درجت عليه الريح هارا
يعاف وصالَ ذاتِ البذل قلبي ... ويتّبع المنعة النوارا
وما عجزت فكيهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخمارا

وذكر الأصبهاني (137/18) أنه سابق في شيخوخته أربعين شاباً وقد سبقهم مع أنه أثقل جسمه بالدروع الثقيلة إمعاناً في التحدي .

وقد بلغ الأمر بالسليك أنه استحقر الفرسان لقوته ، واستخفّ بطلبهم لدمه لأنه ماكر .. فأغار على حيّ .. وأراد العودة إلى مغارته في الجبل فلقي قافلة من خثعم وفيها شابة بضة فسألها عن الطريق فأخبرته فأراد أن يتسنمها (يعتدي عليها) فاستغاثت بقومها فهرب فلحقه (أسد الخثعمي) فأدركه فقتله وقال :

إني وقتلي سليكاً ثم أعقله كالثور يضرب لما عافت البقر
إني لتارك هامات بمجزرة لا يزدهيني سواد الليل والقمر
أغشى الحروب وسربالي مضاعفة تغشى البنان وسيفي صارم ذكر[27]

وقول السليك :

يعاف وصال ذات البذل قلبي ويتّبع المنعة النوارا

فيه قراءة لطبيعة السليك إن لم نقل لطبائع الصعاليك .. فالقول كناية حاذقة تكشف زهدهم بالحياة الرخية المطمئنة ، وولعهم بالحياة الصعبة التي يكتنفها الموت !! وقد رثته أمه مرّ الرثاء فقالت :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة أي شيء قتلك
أمريض لم تعد أم عدوٌّ ختلك
أم تولى بك ما غال في الدهر السُّلك
والمنايا رصد للفتى حيث سلك
أيُّ شيء حسن للفتى لم يك لك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك
إن أمراً فادحاً عن جوابي شغلك
ليت نفسي قدّمت للمنايا بدلك[28]

---

(27) الأغاني 137/18 وبعدها .

(28) التبريزي . أبو زكريا يحي بن علي (ت502) ، شرح ديوان الحماسة (378/1) ، تح : محمد =

لقد أرهق الصعاليك أنفسهم فهم مخيفون وخائفون ، فكان نومهم قليلاً واطمئنانهم ضئيلاً ، قال عمرو بن براق :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم
متى تطلب المال الممنّع بالقنا تعش ماجداً أو تخترمك المخارم
وكيف ينام الليل مَنْ جُلّ ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل إذا نام الخليُّ المسالم

وقد أعجب ذوّاقو الشعر بقصائد الصعاليك وحرارة صورها الفنية وجزالة أسلوبها ، وصدق تجربتها ، بيد أنهم كانوا لا يحبّذون قراءتها لصبيانهم ؛ لأنها تحبذ الاغتراب عن الأوطان فقد قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب لمعلم أولاده : لا تروهم قصيدة عروة التي يقول فيها :

دعيني للغنى أسعى فإني رأيت الناس شرّهم الفقير

فشعر عروة يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم[29] وقد أعجب عبد الملك بن مروان (ت 86) وهو في زعمنا في طليعة متذوقي الشعر ونقاده ، أُعجب بعروة وشعره معاً فقد قال : ما يسرني أن أحداً من العرب ممن ولدني لم يلدني إلاّ عروة ، لقوله :

وإني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني إن سمنت وأن ترى بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أفرّق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

وقال عبد الملك أيضاً : من زعم أنّ حاتماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد[30] ولماذا نبعد كثيراً .. فقد كان النبي الأمين ﷺ يقدّر حاتماً . وجاء في الأغاني أن سفّانة

= محيي الدين عبد الحميد ، طب حجازي مصر 1938 .
ابن منقذ . أسامة (ت 584) ، لباب الآداب 182 ، طب دار الكتب العلمية بيروت 1980 .

(29) الأغاني 184/2 .

(30) الأغاني 182/2 .

ابنة حاتم حين وقعت في الأسر واستعرض النبي الأسرى خاطبته قائلة : يا محمد ! هلك الوالد ، وغاب الوافد ، فإن رأيت أن تخلي عني فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإنني بنت سيد قومي ، كان أبي يفك العاني ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرّج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط أنا بنت حاتم طيء . فقال رسول الله ﷺ : يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق والله يحب مكارم الأخلاق[31] .

خصائص شعر الصعاليك :

1 ـ زهد الصعاليك باصطناع المقدمات الطللية والبكاء والاستبكاء وغاية ما يصطنعه الصعلوك في التقديم هو مخاطبة امرأة مغيبة ، وهذا لا ينفي وجود عدد ضئيل من قصائدهم استهل بالأطلال .

2 ـ وضوح العبارة وذكاء الإشارة ، وعمق المعنى ونباهة اللمحة .

3 ـ جمال الصور الفنية التي تحيل المقطعات والقصائد مشاهد تنبض فيها الحياة فكأننا جزء من الصورة ، ويمكن للرسامين التشكيليين استلهام صور الصعاليك التي رسموها للمغاور والكهوف والطرقات والوجوه لرسم لوحات عالية القيمة ، كما يمكن لكتاب الدراما إنتاج سيناريوهات عن حيوات الصعاليك المدهشة المسكونة بالمفارقة .

4 ـ العناية بالحوار دون أن يترك لنا الصعلوك سانحة سماع الطرف الآخر من الحوار ، وقد شاع الحوار مع المرأة المغيبة التي يخاطبها الصعلوك ، ويوبخها ويعلي شأنه عليها !!

5 ـ لم يكتف الصعاليك برسم المشاهد الخارجية ، بل التفتوا إلى مشاعرهم التي

---

(31) الأغاني 93/16 .

تعتمل في صدورهم فصوروها أدق تصوير فكأننا نسمع نبضات قلوبهم في الرهبة أو الرغبة وقد يشرك الصعلوك الطبيعة معه .. فهي تفرح لفرحه وتكفهر وتبكي لمصائبه .

6 ـ أغلب شعر الصعاليك متكئ على البحرين الطويل والبسيط وذلك لا يمنع من وجود قصائد ومقطعات مكتوبة على الوافر أو سواه .. أما القوافي فأكثرها الراء وتتلوها الدال .. وثمة عناية مقصودة أو غير مقصودة بالموسيقى الداخلية .. فكأن إيقاعات شعر الصعاليك محاكاة لحياتهم .. بل إن بعض الإيقاعات تسهم بشكل جزئي أو كلي في تصوير صليل السيوف وصرخات الموت .

الفصل الثامن

موضوعات الشعر الجاهلي

المعاني التي اقتسمت الشعر الجاهلي كانت موضع خلاف بين الدارسين قدامى ومحدثين ، فالقصيدة في وهلتها الأولى معنى يؤرّق الشاعر في الليل ، ويقلقه في النهار ، ثم يندلع المعنى من وجدان الشاعر نحو الناس ، متجلبباً بالشكل الذي يناسبه ، وهذه المعاني تحصل بثنائيات الحياة من رغبة ورهبة ، وحبّ ومقت ، وحياة وموت ، ومتكلّم ومخاطب ، وحاضر وغائب ، وسلم وحرب ، وعفة ومجون ، ومقدّس ومدنّس !! وقد يستطيع الدارس انتقاء ثنائية واحدة ليعمّمها قطباً تدور حوله الثنائيات الأُخرى مثل الرهبة والرغبة ، فيمكننا مثلاً وضع الهجاء والتثويب والاعتذار والشعر الديني في بابة الرهبة كما يمكننا بالمقابل وضع الحب والفخر والسلام والمديح في بابة الرغبة ، وقد نستطيع وضع المقدّس والمدنّس موضع الرغبة والرهبة ! وإذا سلّمنا بأثر اختلافات الرأي واجتهادات الدارسين في ترسيم حدود هذه الفنون واصطناع قرابات بينها أو عداوات فإن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فهناك طائفة من الدارسين جعلت المعاني التي تناولها الشعر الجاهلي خمسة فنون هي :

الغزل والفخر والهجاء والرّثاء والمديح .

وطائفة أخرى ادّعت أن المديح دائرة كبيرة يمكنها استيعاب الغزل واعتداده مديح الحبيبة ، والرّثاء واعتداده مديح الميت ، والفخر واعتداده مديح النفس !!

وطائفة ثالثة جعلت معاني الشعر في اثني عشر فنّاً وهي : 1 ـ الغزل . 2 ـ المديح . 3 ـ الارتزاق . 4 ـ الرّثاء . 5 ـ الاعتذار . 6 ـ الهجاء . 7 ـ الفخر . 8 ـ التوثيب . 9 ـ السلام . 10 ـ الحكمة . 11 ـ الدين . 12 ـ الوصف .

وطائفة رابعة اقترحت دراسة فنون الشعر من خلال نجومية الشعراء وشهرتهم وذلك ما نلاحظه في تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، فنفر هم :

شعراء المعلّقات (امرؤ القيس والنابغة وزهير وطرفة ولبيد وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة والأعشى وعبيد بن الأبرص) .

وثان هم الشعراء الأمراء : (الأفوه الأودي ، ومهلهل بن ربيعة ، وعبد يغوث ، وزهير بن جناب ، وعامر بن الطفيل ، وأبو قيس بن الأسلت ، والحصين بن الحمام ، وقيس بن عاصم) .

وثالث هم الشعراء الفرسان : (الأغلب العجلي ، وحاتم الطّائي ، وزيد الخيل ، وسلامة بن جندل ، وعلقمة الفحل ، وعمرو بن معد يكرب ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجلاح ، وجحدر بن ضبيعة ، وأفنون التغلبي ، وبسطام بن قيس ، والحارث بن طفيل ، وذو الأصبع العدواني ، والحارث بن عباد ، وسويد بن أبي كاهل ، وعمرو بن العجلان ، والفند الزماني) .

ورابع هم الشعراء الحكماء : (أمية بن أبي الصّلت ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو ، وقس بن ساعدة) .

وخامس هم الشعراء العشّاق : (المرقش الأكبر ، وعبد الله بن عجلان ، ومالك بن الصمصامة ، ومسافر بن أبي عمرو ، وعنترة ، ومسعود بن خراشة ، ومنظور بن زبان) .

وسادس هم الشعراء الصعاليك : (الشنفرى ، وتأبّط شرّاً ، والسّليك بن السلكة ، وعروة بن الورد) .

وسابع هم النِّساء الشواعر : (الخنساء ، وخزنق بنت بدر بن هفان ، وليلى بنت لكيز ، (العفيفة) ، وجليلة بنت مرة) .

وثامن هم الشعراء الهجاؤون : (الحطيئة ، وحسان بن ثابت) .

وتاسع وهم الشعراء الوصّافون للخيل : (أبو دؤاد الإيادي ، وطفيل الغنوي ، والنابغة الجعدي ، والشماخ بن ضرار ، وعبد بني الحسحاس) .

وزيدان ترسّم طريق أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ، وإن خالفه في أسباب النجومية وشعرائها ، فالقرشي قسم الشعراء إلى :

1 ـ أصحاب المعلّقات . 2 ـ المجمهرات . 3 ـ المنتقيات . 4 ـ المذهبات . 5 ـ المراثي . 6 ـ المشوبات . 7 ـ الملحمات !! أما الطائفة الخامسة فقد جعلت الشعراء ضمن مدرستين ؛ الأولى هي مدرسة الشعر المطبوع ، مثل امرئ القيس والأعشى وعنترة والمنخّل ، ومدرسة الشعر المصنوع مثل بشامة بن العذير ، وأوس بن حجر ، وزهير بن أبي سلمى ، والحطيئة ، وهذا التقسيم بعيد عن منهج الطائفة السادسة التي درست كل شاعر منفرداً وفق موهبته الخاصة وحذقه في تطوير فنِّه ؛ فالمهلهل هو أول من هلهل ألفاظ الشعر ، وعمرو بن سعد ، لقب بالمرقش الأكبر ، لأنه حسّن شعره ونمّقه ، ولقّبوا طفيل الغنوي بالمحبر ، لأنه بالغ في تزيين شعره . أما علقمة بن عبدة فقد احتاز لقب (الفحل) بعد أن تفوق على امرئ القيس بجودة شعره !! إن زوايا دراسة فنون الشعر الجاهلي كثيرة بسبب من تعدد الاجتهادات والمناهج ، والهموم العلمية ، فبلاشير مثلاً درس معاني الشعر الجاهلي وأغراضه من خلال أمكنة الشعراء وانتماءاتهم وولاءاتهم ، فنحن مثلاً قبالة شعراء بادية السماوة وإقليم البحرين واليمامة ، وشعراء أواسط الجزيرة

وتخوم الحجاز ، وشمالي اليمن ، وشعراء تيماء والطائف ومكة ويثرب ، والحيرة والغساسنة (تاريخ الأدب العربي) فضلاً عن محاولات دراسة الشعراء وفق قبائلهم كشعراء كندة ، وهذيل ، وتميم !! ولسنا ميّالين إلى تفضيل منهج على آخر . لعلمنا بأن لكل منهج مسوغاته ومزاياه مع إيماننا بحرّية الاجتهاد وأهمية تعددية الأسباب التي يوكل إليها كشف الحقائق الشعرية . وقد رأينا مناسبة المنهج الأول لهموم كتابنا وطموحاته . ويمكن من خلاله وضوح اجتهادنا وجهدنا في إيصال أغراض الشعر الجاهلي إلى القراء والدارسين من خلاله فاقتضت الإشارة !

1 ـ الغزل :

أ ـ فنّ يعتمد العواطف سبيلاً للتعبير عن الحبّ الذي يستشعره الشاعر نحو المرأة ، أو تستشعره الشاعرة نحو الرجل ، وقد شاع هذا الفن في الشعر الجاهلي بشكل يدعو إلى التأمل والتأويل ، فأكثر أغراض الشعر الجاهلي تحبّذ الابتداء بالغزل ، فإذا كان لنا أن نحلل السبب ، فهو أحد اثنين :

الأول أن الشاعر واجد في الغزل مفتاحاً لمغالق القصيدة ، فضلاً عن أن الغزل يفتح نفس الشاعر لقول أبيات كثيرة ومثيرة حقاً ! فالمخيلة تكون أكثر نشاطاً وتحليقاً حين يشبّب الشاعر بحبيبته .

أما الثاني فهو ربحية سوق الغزل ، فأكثر جمهور الشعر ميّال إلى الغزل ، ومفارقاته وتهويماته ، الفتيان يجدون فيه تعبيراً ساخناً عن مشاعرهم ، والشيوخ ينقّبون فيه عن شبابهم الداثر ، وزمانهم الغابر ، كان الشعر الغزلي بحقّ فخّاً لأوسع عدد من المتلقّين ، وسبباً لاحتوائهم وضمان انحيازهم للقضية المركزية للقصيدة التي يسعى الشاعر إلى توكيدها ؛ فلو أن شاعراً وقف على مرتفع في سوق ما وقرأ شعراً في الفخر ، أو الهجاء ، أو الرثاء ، لما وجد أحداً ينتبه إليه ، أو يضيّع وقته في سماع أمور لا تهمّ المتلقي ، فقد يضيق المتلقي بشاعر يفخر بنفسه ، ويتهيأ له أن الشاعر يسبغ على نفسه

أمجاداً كاذبة ، كما يضيق المتلقي بشاعر يهجو عدوّه ، ويسبغ عليه كلّ خطايا الآخرين وذنوبهم ، ولهذا يبدأ الشاعر بالغزل لأنه القاسم المشترك بين الشاعر والمتلقي ، ولا ينبغي الظن أن كل القصائد الغزلية تعبّر عن تجربة أكيدة صادقة عاشها الشاعر ، فقد يصطنع الشاعر قصة حبّ بينه وبين الحبيبة المزعومة إذ لا أحد يطالب الشاعر بالوثائق الثبوتية ، بل إن ضرباً من الغزل شبّ أواره في العصر الجاهلي لا يعكس عاطفة نبيلة البتة ، ونعني به الغزل الكيدي (ويسمّى الغزل السياسي غلطاً) ، فالشاعر اللئيم إذا أراد هجاء قبيلة أرسل عيونه (جواسيسه من النساء) ، لتأتيه باسم ابنة زعيم القبيلة أو فارسها أو حكيمها ، ومن ثم يكتب قصيدة غزلية كيدية يذكر فيها اسمها ومكانها وربما اسم أبيها وأمّها ، ويختلق مغامرات زاعماً أنها حدثت بينهما في غفلة من عيون الكاشحين ، وأن هذه الحبيبة منحته كل ما يصبو إليه العاشق من معشوقته ، وهذا الغزل ضرب من الخبث والمكر اللذين يترفّع عنهما العربي ، فالعاشق إذا أدرك أن ذكر اسم حبيبته مؤذ لها غيّره واصطنع اسماً موهوماً لها مثل رباب وليلى وزينب وفاطمة ... إلخ . فالمجتمع الجاهلي يحرّم كلّ أنواع الحبّ بين الرجل والمرأة ، حتى إن بعض الشعراء الذين أحبّوا وتورّطوا في ذكر أسماء حبيباتهم نكبوا ، أو نكبت حبيباتهم ، وإذا عرف الشاعر بحبّ امرأة معيّنة حرمت عليه ، فلن يستطيع خطبها مهما بالغ في المهر .. كما أن هناك ضرباً آخر من الغزل وهو الغزل الرمزي فالحبيبة معادل استعاري (تصريحي) للقبيلة التي حرمته نائله ، أو الزعيم الذي فضّل عليه من هم أقل قيمة منه ، أو الدنيا التي أرته العسل وأذاقته العلقم ، نحو نونية المثقب العبدي التي يعاتب فيها حبيبته التي وعدته مواعيد كاذبات .. فهي لا تحمل صفات الحبيبة حقّاً .. فكأنها صورة لصاحبه الذي أراده أخاً ، فخاب ظنّه فيه كما خاب ظنّه في فاطمة !!

أفاطمَ قبل بينك متّعيني ومنعكِ ما سألتُ كأن تبيني
فلا تعدي مواعد كاذبات تمرُّ بها رياحُ الصيف دوني
فإني لو تخالفني شمالي خلافكِ ما وصلت بها يميني

إذن لقطعتهـــــا ولقلتُ بيني	كـــذلـــك أجتـوي من يجتـويني
لمن ظُعنٌ تطـــالـــع مِن ضبيب	فمـــا خرجت من الـــوادي لحين
وهنَّ كـــذاكَ حين قَطَعْن فلجـــاً	كأن حمـــــــولهنّ على سفينِ
وهنَّ على الرّجـــائـزِ واكنـــاتٌ	قـــواتـــلُ كلّ أشجـــع مستكين
كغـزلان خـذلن بـذات ضـالٍ	تنـوشُ الـدّانيـات من الغصـون
ظهرنِ بكلّـــة وســدلن أخرى	وثقّبن الـوصـــاوص للعيـون
فسـلِّ الهمَّ عنـك بـذاتِ لـوث	عـــذافرةٍ كمطرقـــةِ القيـون
بصـــادقـــةِ الـوجيف كأن هرّاً	يبـاريهـا ويـأخـذ بـالـوضين
إذا مـــا قمت أرحلهـــا بليـل	تـــأوّهُ آهـــة الرجـل الحـزين
تقـــولُ إذا درأتُ لهـــا وضيني	أهـــذا دينـــه أبـــداً وديني
أكلَّ الـــدهر حـــلٌّ وارتحـــالُ	أمـــا يُبقي عليّ ومـــا يقيني
ثنيت زمـــامهـــا ووضعت رحلي	ونمرقـــة رفـــدت بهـــا يميني
إلى عمرو ومن عمرو أتتني	أخي النجـــدات والحلم الرصين
فـــإمـــا أن تكـون أخي بحـقّ	فـــأعرف منـــك غثي أو سميني
وإلا فـــاطّرحني واتّخـــذني	عـــدوّاً أتقيـــك وتتّقيني
ومـــا أدري إذا يممتُ أمراً	أريـــــد الخير أيها يليني
أألخير الـــذي أنـــا أبتغيـــه	أم الشّرّ الـــذي هـــو يبتغيني[1]

وقصيدة (ذو الإصبع العدواني) رمزيـة أيضاً كما تـزعم فحبيبتـه (أم هـارون) وابن عمه حالة واحدة ، وهما والدهر حالة واحدة ، فأصبح حبّ أم هارون شجناً وكان قبل فرحاً ، وأم هارون (أو ابن عمه أو الدهر) تحسده وخالته دونها وهي دونه !!

يـا من لقلب شـديـد الهمّ محزون	أمسى تـذكّر ريـــا أم هـــارون
أمسى تـذكّرهـا من بعدمـا شحطت	والـدهرُ ذو غلـط حينـاً وذو لين

(1) الضّبي . المفضّليات . رقم 76 ص 288 وما بعدها .

فإن يكن حبُّها أمسى لنا شجناً ... وأصبح الوأيُ منها لا يواتيني
فقد غنينا وشمل الدار يجمعنا ... أطيع ريا وريا لا تعاصيني
نرمي الوشاة فلا نخطي مقاتلهم ... بخالص من صفاء الودّ مكنون
ولي ابن عم على ما كان من خلق ... مختلفان فأقليه ويقليني
أزرى بنا أننا شالت نعامتنا ... فخالني دونه بل خلته دوني
يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي ... أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
لاه ابنُ عمك لا أفضلتَ في حسب ... عني ولا أنت دياني فتخزوني
إني لعمركَ ما بابي بذي غلقٍ ... عن الصديقِ ولا خيري بممنون
عفٌّ يؤوس إذا ما خفتُ من بلد ... هوناً فلستُ بوقّافٍ على الهون
كل امرئ راجع يوماً لشيمته ... وإن تخلَّق أخلاقاً إلى حين
ماذا عليّ وإن كنتم ذوي رحمي ... أن لا أحبّكم إن لم تحبّوني[2]

ب ـ وتتداخل مفردتا (النسيب / التشبيب) مع الغزل ، فكأن الثلاث نقاط في دائرة واحدة ، فالغزل هو حديث الفتيان والفتيات واللهو بينهم والتغزّل تكلُّف الغزل والنسيب هو التشبيب بالنساء في الشعر ، والعرب تقول هذا الشعر أنسب من هذا ، أي أرقّ نسيباً ، والنسيب هو رقيق الشعر في النساء : أما التشبيب فهو النسيب بالنساء ، وتشبيب الشعر ترقيقه بذكر النساء[3] ، ومن هذا يتّضح عدم وجود حدود حقيقية بين هذه المفردات سوى أن الغزل مصطلح منفتح على الشعر والنثر الفني والنثر الاعتيادي ، أما النسيب والتشبيب فهما قاصران على الشعر وسوى ذلك فالكلمات الثلاث تنصرف من حيث الدلالة إلى محادثة النساء والتودُّد إليهن أو وصفهنّ وما إلى ذلك من المفردات المعروفة وما يقال عن مشاعر الرجل نحو المرأة يمكن أن يقال مع شيء من الاحتراز عن مشاعر المرأة نحو الرجل !

---

(2) المصدر السابق 31 ص 160 وبعدها ، وأكملناها من كتاب الأغاني (كتبخانة) 8/3 .

(3) لسان العرب (غزل / نسب / شبب) .

جـ - وأبدع الشاعر الجاهلي حقاً في وصف عواطفه نحو المرأة ، فشاع ضربان من الشعر الغزلي : الأول : الهادئ العفّ ، والآخر الصاخب الماجن . وقد حفظت لنا مصادر الشعر قصائد ماجنة لامرئ القيس والأعشى والمنخل اليشكري والنابغة ، تبدو المرأة من خلالها دمية ، تقتنى ويعبث بها ، فتصف القصائد فتنتها الجسدية ، وغالباً ما يصوغ الغزلون المجّان قصائدهم في قوالب قصصية ، ويجرون حواراً بينهم وبينَ الحبيبات ، ثم يذكرون أمكنة الوصل وأزمنته ، أما الشعراء المتعففون في غزلهم فهم الأكثرية : عنترة وزهير ، وحسان ؛ والمرقّش الأكبر ، وعروة بن الورد ، وحاتم الطائي ، والسموءل ، هؤلاء يقفون على الأطلال باكين أو مستبكين ، ويسألون الآثار عن الوجهة التي ذهبت إليها الحبيبة ، ثم يندبون حظّهم العاثر وشبابهم الذي ولّى ، ونعيمهم الذي زال .. كل ذلك بعبارة رقيقة أنيقة تعلي منزلة الحبيبة فكأنها صورة أخرى للحياة . قال المرقش الأكبر :

قل لأسماء أنجزي الميعادا ... وانظري أن تُزودي منك زادا

أينما كنتِ أو حللتِ بأرضٍ ... أو بلادٍ أحييتِ تلك البلادا

إن تكوني تركتِ ربعَكِ بالشّا ... مِ وجاوزتِ حِميَراً ومُرادا

فارْتَجي أن أكونَ منكِ قريباً ... فاسألي الصّادرينَ والوُرّادا

وإذا ما رأيتِ ركباً مخبّيـ ... نَ يقودونَ مقرباتٍ جيادا

فهمُ صُحبتي على أرحل الميـ ... س يزجّون أينقاً أفرادا

وإذا ما سمعتِ من نحو أرضٍ ... بمحبٍّ قد ماتَ أو قيل كادا

فاعلمي غير علم شكٍّ بأنّي ... ذاكَ ، وابكي لِمُصْفَدٍ أن يُفادى[4]

---

(4) الضّبّي . المفضّليات ق و 12 ص 431 وبعدها .

2 ـ المديح :

فنّ التقرُّب إلى الممدوح بإظهاره فضله وإشهار شمائله ، ولسنا مع الزاعم أن المديح إنما استحدث للارتزاق والتكسُّب ، فمثل هذا القول يلغي نزعة الخير في الإنسان ! لقد أسّس الشعراء من خلال المديح قواعد للأخلاق والقيم النبيلة ، فإذا أراد الشاعر أن يمدح إنساناً ، فإنه يصفه بأوصاف تزيّنه بأعين الناس ، وتؤكّد شرفه ومصداقيته ، فهو فارس كريم وصادق رحيم ، يحترم الجار ، ولا يقرب الفاحشة ! وكم من مديح أحرج الممدوح فجعله حريصاً على أن يكون بمستوى الصورة التي رسمتها له قصيدة المديح . والمديح كما نراه (ونعني الصادق منه) ، دعوة لنشر الفضيلة بين الناس وتكريسها في الممدوح ؛ لأن المديح في أغلبه منصرف إلى الصفة قبل الموصوف ، إنه أنشودة تمجّد الخير ، ومن كان بمستوى المديح فهو جدير به ، وقولنا ليس استغفالاً للواقع لعلمنا أن جرثومة الكذب لن تترك المديح بسلام ، ولكننا نعرف أن هذه الجرثومة لم تستطع نشر وبائها .. فزهير بن أبي سلمى امتدح الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ؛ لأنهما أوقفا دولاب الدّم بين العشيرة ، والأعشى امتدح المحلّق وهو الفقير المِئناث لأنه كريم النفس ، وها نحن نذكر دالية أوس بن حجر في مدح حليمة بنت فضالة بن كلدة ، وفاءً لها وتنويهاً بذكرها ، فحين سقط من ناقته على الصخر نزف دمه ، وأمضى ليلته وحيداً بين الإغماء والصّحو والموت والحياة ، فعثرت عليه حليمة ، وكانت قد بكّرت في الصباح لتسبق صويحباتها في اجتناء الكمأة ، فحدبت عليه وضمّدت جراحه وهرعت إلى أبيها وإخوتها ، وجاؤوا معه وأنقذوه من موت محقق ، وقد لبث أياماً وحليمة تقوم بخدمته :

لعمركَ ما ملّت ثواءَ ثويّها   حليمة إذا ألقتْ مراسيَ مقعد
ولكن تلقّت باليدين ضمانتي   وحلَّ بشرج م القبائل عوّدي
وقد غبرت شَهْرَيْ ربيع كليهما   بحمل البلايا والحِباء الممدّد
ولم تُلْهِها تلكَ التكاليفَ إنها   كما شئتَ من أكرومةٍ وتخرّد

هي ابنَـــةُ أعراقٍ كرامٍ نمينهـــا ... إلى خلـقٍ عفٌّ برازتُــــهُ قــدِ

سـأجزيـكِ أو يجزيـكِ على مثـوّب ... وقصركِ أن يثنى عليـكِ وتحمـدي

فـإن يُعـط منّـا القـوم نصبر ونـنتظر ... منى عَقب كأنهـــا ظِمءٌ مَــوْرد

وإن هـطَ لا نجهل ولا ننطـق الخنـا ... ونجـزِالقروضَ أهلهـا ثم نقصـد

فـلا تظهرن ذمّ امرئٍ قبـل خُبره ... وبعـدَ بـلاءِ المرء فـاذمم أو احمـد[5]

وبين أيدينا حالة من المديح تستحق التَّلبُّث عندها مليّاً ، كان بشر بن أبي خـازم قد بالغ في هجاء سعدى بنت حصن الطائية أم الفارس السيد أوس بن حـارثـة وأفحش في هجائها ، فنذر أوس لئن قبض عليه ليحرقه ، ولم يبال بشر واستمر في هجاء سعدى ، وقذف شرفها ، وكان أن أعلن أوس أنه خصص مئتي بعير هـدية لمن يلقي القبض عليـه أو يدلّـه على مكانـه ، وكان لـه مـا أراد ، فـأصبح بشر في رحمة ابن سعـدى ، ولم يشأ إحراقه وقتله دون أن يعذّبه فأدخلـه في جلـد بعير حين سلخـه وتركـه حتى جفّ عليـه فصار فيـه كأنـه عصفور ، فبلـغ ذلـك أمـه سعدى بنت حصن فخرجت إليـه فقـالت لولدها : ما تريد أن تصنع ببشر ؟ فقد أحرقه هذا الذي شتمنا ، وقال فينـا مـا لا يقـال (فقـالت : قبّح الله قومـاً يسوّدونـك أو يقتبسون من رأيـك ؛ والله لكأنما أخـذت بـه رهْدناً ، أما تعلم ما منزلته في قومه ، خلّ سبيلـه وأكرمـه فـإنـه لا يغسل عنـك مـا صنع غيره ، وأيمُ الله لو فعلت ما استقلتها أنت ولا قومـك) . وأفهمت ابنهـا (والشـاعر بشر يسمع وهو داخل جلد البعير) إن الهجاء الكاذب لن يمحوه غير المديح الصادق ، فامتثل أوس لكـلام أمـه ، وأخرجـه وكلّف الخدم بغسـل جسمـه ، ثم داوى جراحـه ، وكسـاه وأطعمه !

ونقل ابن الشجري (ت 542 هـ) : « قال أوس لبشر : هجوتني ظالماً فـاختر بين قطع لسـانـك وحبسـك في جلـد بعير حتى تموت وبين قطع يـديـك ورجليـك وتخليـة سبيلك ، ثم دخل على أمه سعدى ، وقد سمعت كلامه فقالت : يـا بني لقـد مـات أبوك

---

(5) ابن حجر . أوس . ديوانه ق 12 ص 26 وبعدها .

فرجوتك لقومك عامة سيّداً فأصبحتَ والله لا أرجوك لنفسك ، أزعمت أنك قاطع رجلاً هجاك وهجاني فمن يمحو إذن ما قال فيك ؟ قال : فما أصنع به ؟ قالت : تكسوه حلّتك الخاصة ، وتحمله على راحلتك دون سواها ، وتأمر له بمئة ناقة ، حتى يغسل مديحه هجاءه ففعل) ، وقال الأخفش (ت 215 هـ) : « مدح بشر أوساً وأهل بيته مكان كل قصيدة هجاهم بها قصيدة ، وكان هجاهم بخمس فمدحهم بخمس) : قال بشر :

كفى بالنّأي من أسماء كاف ... وليس لحبّها إذ طال شاف

بلى إن العزاء له دواء ... وطول الشوق ينسيك القوافي

فيالكِ حاجةً ومطالَ شوق ... وقطعَ قرينةٍ بعد ائتلاف

وإنكِ لو رأيتِ غداةَ بنتم ... خشوعي للتفرُّق واعترافي

إذن لرثيتِ لي وعلمتِ أني ... بوُدّي غيرُ مطرّفِ التصافي

فسلّ طلابَها وتعزّ عنها ... بناجيةٍ تخيّلُ بالرّادف

إلى أوس بن حارثةِ بن لأمٍ ... لربكِ فاعملي إن لم تخافي

فما صَدَعٌ بخبةَ أو بشرجٍ ... على زُلَقٍ زوالقَ ذي كهاف

تزلّ اللقوة الشغواءُ عنها ... مخالبُها كأظرافِ الأشافي

بأحرزَ موئلاً من جار أوس ... إذا ما ضيمَ جيرانُ الضعاف

وما ليث تعثّر في غريف ... تغنّيه البعوضُ على النطاف

مغبٌّ ما يزال على أكيل ... يناغي الشمس ليس بذي عِطاف

بأبأس سورةً بالقرن منه ... إذا دعيت نزال لدى النقاف

وما أوسُ بن حارثةَ بن لأم ... بغمرٍ في الأمور ولا مضاف[7]

---

(6) ابن الشجري . أبو السعادات هبة الله . ت 542 . مختارات ابن الشجري ص 24 وبعدها . تح محمود حسن زناتي ، طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1980 . الرهْدن : طائر أصغر من العصفور .

(7) المصدر نفسه ص 28 . الصدع : الوعل الفتي الذي تحمي قرونه وجهه . خبة وشرج : جبلان أملسان . اللقوة : العقاب . الشغواء : الجارحة التي يركب منقارها الأعلى منقارها الأسفل ، وذلك أدعى لفتكها .. وصورة الوعل القوي ذي القرون المشتجرة على جبل أملس كناية عن أن هذا الوعل لا ينال =

3 ـ الارتزاق :

ضرب من شعر المديح يعتمد الصنعة ، والنفاق الاجتماعي ، وقد شاع في العصر الجاهلي ، ووجد له سوقاً تروّج بضاعته ، واستمر حتى لبط في عصرنا الحديث مدججاً بكل تقنيات الانحطاط !! والارتزاق أن يمتدح ذو الجاه أو السلطان أو الثراء بما ليس فيه لكسب ودّه وماله ، فالمديح للممدوح ليس لأنه فارس مرهوب ، أو زعيم مرغوب ، أو فتى محبوب ، أو كريم معروف ، فقد يقال لِمُسْعر الحروب إنك داعية سلام ، وللقاتل المعتدي إنك رحيم ذو مروءة ، واللّص إنك أمين ، فالغاية هي نيل الجائزة أو دفع الأذى ، ويا طالما حقق الشاعر المرتزق أحلامه بشعر لا يصدقه أحد ، أما الممدوح الذي ملأ أكياسه بالذهب وحظائره بالإبل وبيوته بالجواري والعبيد ، فهو مستعدّ ليهدي شيئاً مما يملك لأي شاعر يرتزق بشعر فيعلي مقامه ، وإنما كان يفعل ذلك لكي يغسل سمعته المتّسخة وأمواله المسروقة وتحسين صورته المنبوذة ، والشعر يصنع الأعاجيب ، فهو يرفع بيوتاً حقّها أن تخفض ، ويخفض بيوتاً حقّها أن ترفع ، وقد كلّفنا الارتزاق كثيراً ، فهو أحد أسباب ضياع القيم وفشو النفاق وتبلبل الأفئدة ، وقد يردّد الركبان والمغنون شعراً يمتدح الظالم ، وإذا كانت الأسواق العربية القديمة مثابات حصينة ومنابر أمينة ، فقد داهمها شعر الارتزاق وأحرج القائمين بأمرها ، فاضطروا بسبب من الضغوط إلى تعليق بعض القصائد الارتزاقية على جدران الأسواق ليطالعها الناس ، ومنهجنا لا يحبّذ وضع الشعر الارتزاقي في خانة شعر المديح لاختلاف المبادئ والدوافع .

= منه أحد حتى العقاب الطائر .. الموئل : الملجأ . الغريف : الشجر الكثيف . النطاف : قلهل الماء . مغب : يصيد يوماً ويحجم آخر . يناغي الشمس : يرقب غيابها ليخرج . العطاف : المعطف أو الملحفة . أبأس : أشد . النقاف : المضاربة بالسيوف على الرؤوس . الغمر : غير المجرّب . المضاف : الخائف .

4 ـ الرّثاء :

الرثاء أصدق فنون الشعر لغة ، وأقربها إلى الحقيقة الشعرية ، وقلما نجد شعراً في الرثاء مبنياً على المجاملة أو النفاق ، وإنما راج سوق الرثاء بسبب قسوة الحياة الجاهلية ، فالجاهلي إما غاز أو مغزوّ ، فكثر القتل ، والفقد ، فبات مألوفاً ظهور طبقة من الشواعر الندابات اللواتي يقلن شعراً شفاهياً أو يصغن شعرهن على قوالب جاهزة ومعان مكرورة ، وطبقة من الشعراء النّدابين ، ورحم الله الذي سئل عن سبب اللوعة في شعر الرثاء فقال : لأننا نقول الشعر وأكبادنا تتفطّر ..

والعرب تقول : دين بدين حتى دمعة العين . فكان على المعارف والأصدقاء الحضور إلى المأتم والبكاء على الميت ، وقد اعترف شاعر جاهلي بقسوة كبده وعدم وفائه بدين الدمعة :

يُبكى علينا ولا نبكي على أحد ... لنحن أغلظ أكباداً من الإبل

والشاعر عادة يرثي أخاه أو أباه أو ابنه أو حبيبته أو زعيمه أو ولي نعمته ، والرثاء صنو المديح والفخر والفروسية في أشياء كثيرة . ولأن الشاعر يصف مشاعره أولاً بفقد العزيز ، وهي مشاعر مأساوية تبعث على الكآبة ، ثم يعدد الشاعر مزايا الميت ، وهي لن تبعد عن الشجاعة والنجدة والسخاء واحترام حقوق الجار ومشاعره ، وقد رددت العرب شعر الخنساء في الرثاء وعينية أبي ذؤيب الهذلي وعينية أوس بن حجر ، وقد أوردنا نماذج كثيرة للرّثاء في مباحث متعددة حين سلّطنا الضوء على قيم الفروسية والفتوة .. وها نحن ننتقي يائية عبد يغوث بن وقّاص الحارثي التي يرثي فيها نفسه :

ألا لا تلوماني كفى اللومَ ما بيا ... وما لكما في اللوم خيرٌ ولا لِيا
ألم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل ، وما لومي أخي من شماليا
فيا راكباً إمّا عرضت فبلغن ... نداماي من نجران أن لا تلاقيا

أبـــا كرب والأيهمين كـلاهمـــا وقيسـاً بـأعلى حضرمـوت اليمانيـا
جزى الله قـومي بـالكُلاب ملامـةً صريحَهُمُ والآخرينَ المـــواليـــا
ولـو شئتُ نجتني من الخيـل نهـدةٌ ترى خلفهـا الحُوَّ الجيـاد تـواليـا
ولكنني أحمي ذمــــــار أبيكم وكان الرمـاحُ يختطفن المحـاميـا
أقـول وقـد شـدّوا لسـاني بنسعـةٍ أمعشرَ تيم أطلقـوا من لســانيـا
أمعشر تيم قــد ملكتم فـأسجحـوا فـإن أخـاكُم لم يكن مِن بـوائيـا
أحقّـاً عبـادَ اللهِ أن لستُ سـامِعـاً نشيـدَ الرعـاء المغربينَ المتـاليـا
وتضحـك مني شيخـةٌ عبشميـة كأن لم ترَ قبلي أسيراً يمــانيـا
وظـلَّ نسـاء الحيِّ حـولي ركّـداً يراودنَ مني مـا تريـدُ نسـائيـا
وقـد علمت عرسي مليكـــةُ أنني أنـا الليث معـدواً عليَّ وعـاديـا
وقـد كنتُ نحّار الجزور ومعمـل الـ مطيّ ، وأمضي حيث لا حيٌّ ماضيا
وأنحر للشرب الكرام مطيتي وأصـــدع بين القينتين ردائيـــا
وكنتُ إذا مـا الخيـلُ شمّعهـا القنـا لبيقـاً بتصريف القنـاة بتـانيـا
وعـاديـةٍ سَـوْم الجراد وزعْتهـا بكفّيْ وقـد أنحـوا إليّ العـواليـا
كأني لم أركب جـــواداً ولم أقــل لخيلي كرّي نفّسي عن رجـاليـا
ولم أسبــأ الـزقّ الرويّ ولم أقــل لأيسار صدق : أعظموا ضوء ناريا(8)

والرّثاء فضلاً عن أنه بكاء وتفجُّع ، وذكرٌ لمزايا المرثي ، فهو سانحة للتأمل في الحياة والموت والاستعبار ، فأين أصحاب الممالك والمسالح والقصور .. كل شيء زائل والباقي فقط هو الله ، والذّكْر الطيب الذي يعطِّر المجالس ، والشاعر علقمة ذو جدن الحميري يخاطب حبيبته (أجتني) لتبكي معه عليها أو عليه ، في عينية تهيئ للدارس أنها ليست في رثاء ميت حبيب على نفسه ، وإنما هي في رثاء الحياة !!

(8) المفضليات ق 30 ص 55 / وبعدها .

لكل جنب (أجتني) مضجـــــعْ　　　والمـوتُ لا ينفـعُ منــــه الجـزَعْ

والنفسُ لا يحـزنـــكِ إتـلافُهـــا　　　ليسَ لهـــا من يـومهـــا مرتجـعْ

والمـوتُ مـــا ليس لــه دافــع　　　إذا حميٌ عن حميمٍ دفـــــــعْ

لــوكان شيء مفلتـــاً حينَـــه　　　أفلتَ منــه في الجبــالِ الصـدع

أو مـــالــكُ الأقـوال ذو فــائشٍ　　　كان مهيبـاً جـائـزاً مـــا صنـع

أو تبّـعٌ أسعـــــدُ في ملكــــه　　　لا يتبـعُ العـــالَمَ بــل يتبـع

وقبلــــه يهتز ذو مـــأورٍ　　　طـارت بــه الأيـام حتى وقـع

وذو جليـــل كان في قــومــــه　　　يبني بنـــاء الحـــازمِ المضطلـع

مـــــا مثلهم في حمير لم يكن　　　كمثلهم والٍ ولا متّبــــــــع

فســلْ جميـعَ النـــاس عن حمير　　　مَن أبصرَ الأقـــوال أو من سمـع

يخبرك ذو العلم بـــأن لم يــزل　　　لهم من الأيـــام يـوم شنـع

لهم سماء ولهم أرضــــــــه　　　من ذا يُعـــالي ذا الجـلال اتضـع

اليـوم يجـزون بـــأعمــالهم　　　كل امرئ يحصـد مـــا قـد زرع

صـــاروا إلى الله بـــأعمـــالهم　　　يجـزئ من خـــان ومن ارتـــدع

أو مثـل (صرواح) ومــا دونهـــا　　　ممـا بنت (بلقيس) أو (ذو تبـع)

فكيف لا أبكيهم دائبـــــــاً　　　وكيف لا يُـــذهِبُ نفسي الهلـع

من نكبــة حـلَّ بنــا فقـدُهــا　　　جرعنـــا ذا المـوت منهـــا جرع

إذا ذكرنـــا من مضى قبلنـــا　　　من ملـك نرفـع مــاقــد رفـع

فـــانقرضت أمــلاكُنـــا كلهم　　　وزايلـــوا ملكهم فـــانقطـع

بنــــو لمن خَلّف من بعــــدهم　　　مجـــداً لعمر اللهِ مـــا يقتلـع

إن خرّقَ الـدّهرُ لنـا جـانبـاً　　　ســدّوا الــذي خرّقــه أو رَقَـع

ننظر آثــــارهم كلمـــا　　　ينظرهـا النـاظر منـــا خشـع

يعرف في آثـــــارهم أنهم　　　أربــابُ مُلـكِ ليس بـالمبتـدع

تشهـد للمـاضين منـا بمـا ... نـالـوا من الملـك ونقب القلـع
هـل لأنـاس مثـلُ آثـارهم ... بمـأرب ذات البنـاء اليفـع
لا مـالحيّ مثلهم مفخر ... هيهـاتَ فـازوا بـالعلا والرفـع[9]

وقد رثى الأعشى قصراً من قصور اليمن اسمه (ريمان) كان في ظفار وكان هذا القصر آية في المعمار ، وريمان هو من نفس مخلاف بعدان وهو الجبل الشامخ الذرى الذي تربض على سفحه مدينة إب[10] .

يـات مَن يرى ريمـان أمـ ... سى خـاويـاً خربـاً كعـابـه
أمس الثعـالبُ أهلـه ... بعـد الـذين همُ مـآبـه
من سـوقـةِ حَكَمٍ ومِن ... ملِـكٍ يُعَـدُّ لـه ثـوابـه
بكرتْ عليـه الفُرس بَعـ ... د الحبش حتى هـدَّ بـابـه
فتراه مهـدوم الأعـا ... لي وهـو مسحـول ترابـه
ولقـد أراه بغبطـةٍ ... في العيش مخضراً جنـابـه
فخـوى ومـا من ذي شبـا ... ب دائم أبـداً شبـابُـه[11]

5 ـ الاعتذار :

فنّ جميل ، مثل حاجة المجتمع الجاهلي لإصلاح ذات البين بين الأحبّة ، والشاعر فارس ، والفارس لا يستحي من الاعتراف بخطئه ، وإذا أخطأ اعتذر ، وقد شهد العصر حالاتٍ كثيرةٍ للاعتذار ، ولعل أشهر شاعر أنجز شعراً مهمّاً في الاعتذار كمّاً ونوعاً هو نابغة ذبيان الذي غضب عليه النعمان بعد أن فتح بلاطه للوشايات والحسد ، فاتّهم

(9) القرشي . جمهرة أشعار العرب (المراثي) ص 257 وبعدها الأقوال مفردها قيل وهو الملك من ملوك حمير . الحين : الهلاك . الصدع : الوعل الفتي . أسعد : ملك من التبابعة . ذو مأور : ملك . يجزئ : يجازي . أملاكنا : ملوكنا . نقب القلع : دكّ الحصون . مأرب سد مشهور في اليمن . اليفع : العالي .

(10) الهمداني : صفة جزيرة العرب انظر هامش ص 197 .

(11) الأعشى . ديوانه ق 54 ص 339 وبعدها .

النابغة بالمتجردة زوج الملك النعمان ، وهرب النابغة إلى بلاط الغساسنة ليحمي رأسه ، ثم حزّ في نفسه أن ينال منه الحسّاد فكتب من هناك اعتذارياته إلى النعمان ، وكانت آية في اللوعة والصدق ، وقبل النعمان اعتذاره ، وأعاده إلى سابق مكانته في بلاطه .. أما حسّاده فقد انكشف أمرهم واتّضح أنهم رموا النابغة بأفعالهم .. وكان على رأس الحسّاد الشاعر المنخل اليشكري ، وقد قتله الملك بعد أن ثبت له بالدليل أن المنخل كان على صلة آثمة بزوج النعمان ، وهذه اعتذارية للنابغة يكذب فيها تقارير الجواسيس عنه ، ويوضّح موقفه من الغساسنة ، فمديحه للغساسنة يقتضيه وفاؤه لمن أجاره ، وليس معناه أنه مدح الغساسنة ليغيظ المناذرة :

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني	وتلك التي أهتم منها وأنصب
فبتٌّ كأن العائداتِ فرشنني	هراساً ، به يعلى فراشي ويقشب
حلفت فلم أترك لنفسي ريبةً	وليس وراءَ اللهِ للمرء مذهب
لئن كنتَ قد بلّغت عني خيانة	لمبلغُك الواشي أغشّ وأكذب
ولكنني كنت امرأ لي جانب	من الأرض فيه مستراد ومذهب
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتهم	أحكّم في أموالهم وأقرّب
كفعلكَ في قوم أراكَ اصطنعتهم	فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا
فلا تتركني بالوعيد كأنني	إلى الناس مطليّ به القار أجرب
ألم تر أن الله أعطاك سورةً	ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذب
فإنك شمسٌ والملوك كواكب	إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمّه	على شعث أيُّ الرجال المهذّب
فإن أكُ مظلوماً فعبد ظلمته	وإن تكُ ذا عتبى فمثلك يعتب[12]

ويمكن وضع معلقة الحارث بن حلزة اليشكري في خانة الاعتذار إذا نظرنا إلى ظروف ارتجالها (كما زعم) والمعاني التي تضمّنتها .

(12) الذبياني . النابغة . ديوانه ص 27 وبعدها .

أما اعتذار زهير بن أبي سلمى لحبيبته وزوجه (أم أوفى) فهي ضرب من البكاء على زمن جميل مع أم أوفى لم يدم ، وقد ذكرت الأخبار أن أم أوفى كانت تغار على زهير ، وتمنعه من التحدث إلى النساء أو التغزُّل بهن ، وقد ضاق بها مرة وضاقت به ، فطلبت إليه الطلاق ، فوافق على الفور ، ثم ندم أشدّ الندم ، ولم تندم أم أوفى ، ولم تقبل اعتذاره . وعادت إلى بيت أهلها .. وأقسمت أنها لن تسمح له برؤيتها حتى يواريها القبر .. وبرّت بقسمها .. وهذه نفثة من نفثات زهير :

لعمركِ والخطوبُ مغيّراتٌ	وفي طول المعاشرة التّقالي
لقد باليتُ مظعن أمّ أوفى	ولكن أمّ أوفى لا تبالي
فأما إذْ ظعنت فلا تقولي	لذي صهرٍ : أذلْتُ ولم تذالي
أصبتُ بنيَّ منكِ ونلتِ مني	من اللذاتِ والْحُلَلِ الغوالي[13]

ومأساة الأعشى مع زوجه التي طلقها لا تقل أسى عن مأساة زهير ، فقد كبر الأعشى ، وذهب معظم بصره ، وبقي الغنى فيه كما كان ، وكانت زوجه صغيرة السّن ، تندب حظّها لأنه أوقعها في أصلع عجوز بعمر أبيها ، ويبدو أن شاباً غريباً كان يزورها ويعدها بالزواج منها إذا تخلَّصت من الأعشى ، فطلبت الطلاق ، وكان الأعشى قد لاحظ عليها تبدُّلاً في طباعها وطموحاتها ، فوافق على طلاقها لأنها كانت راغبة بالاقتران بفتى طويل أبيض من قبيلتها هزّان ، فطلّقها بالثلاث ، فذهبت إلى أهلها ، أما الرجل الغريب فقد خذلها وكذب عليها واختفى من حياتها بعد أن صدقته ، فبعثت إلى الأعشى طالبة العودة إليه ، فامتنع وذكَّرها برغبتها بالزواج من أحد فتيان قومها وزعمها بأن أي شابة لن ترضى به ، وقد تزوَّج من شابّة فعلاً على سبيل التَّحدي !! بيد أنه امتدح شرفها واعترف بحبّه لها :

يا جارتي بيني فإنك طالقة	كذاك أمور الناس غاد وطارقة

(13) ابن أبي سلمى . زهير . شرح شعره ق 43 ص 257 .

وبيني فـإن البين خير من العصـا — وإلا تـزالُ فـوق رأسـك بـارقـة

ومـا ذاكَ من جرم عظيم جنيتِـه — ولا أن تكـوني جئتِ فينا ببـائقـة

وبيني حصـان الفرج غير ذميمـة — ومـوموقـة فينـا كـذاكَ ووامقـة

وذوقي فتى قـومٍ فـإني ذائـق — فتـاةَ أنـاسٍ مثل مـا أنتِ ذائقـة

فقـد كان في شبّان قـومـك منكـح — وفتيـانِ هِـزّان الطـوال الغرانقـة(14)

6 ـ الهجاء :

ضرب من الشعر ، مسكون بـالعتوّ والغطرسـة ، وربمـا الكـذب والفحش وهتـك الأعراض ، بيد أنه على الجهة الأخرى ينفّر الناس من أخلاق الهاجي قبل المهجو ، لأنها أخلاق تأباهـا القيم العربيـة ، فـالمهجو بعيـد عن الشجـاعـة والكرم والنجـدة والأمـانـة والصدق ومراعاة الجوار ، فهو جبان وبخيل ومتقاعس وخـائن كاذب مؤذ لجاره ، وقـد سعّر الهجاء حروباً مدمّرة بين الأفراد والقبـائل والمـدن ، ولم ينج منـه حتى أولاد العم ، وجمهور الشعر لا يميل إلى الهجاء ، فإذا استظرف بيتاً في الهجاء فليس لأنه هجاء ، وإنما لأنه قال شيئاً جديداً ، وربما مضحكاً ، وهم لا يشجعون الشاعر عليه إلا أنـه (الهجـاء) كان سلاحاً جاهليّاً فتّـاكاً بسبب اعتمادهم عليـه حربـاً دون إراقـة دمـاء .. فثمة الحسـد والتنافس بين الفتيان والأحياء والقبـائل يشبّـه خبثـاء لا يحيون إلا في أجواء الوشـايـة والخصومة والذهنيـة القـديمـة تتطيّر من الهجـاء ، فهم يعـدّونـه شكيل السحر ، ولعلنـا نتذكّر فعلة لبيد حين هجا الربيع بن زياد في بلاط النعمان ، وقد ارتـدى لبيـد ملابس مغرّبة وتقلّد بقلادتين من ودع وأخرى من سبوت قديمـة ، وصبغ نصف وجهـه بـالقـار والرمـاد وحلق جـانبـاً من شعره وحـاجبـاً واحـداً .. وقـد بلغ الأمر بـالربيع أنـه كان يرتجف وهـو يصغي إلى الهجـاء .. بـل إن النعمان لم يتـورع عن طرد صـديقـه وأقرب الناس إليه ، وقد كان هجاء لبيد للربيع سبباً لتندّر العرب بالربيع ، فقد جعلـه الهجـاء أضحوكة بين الناس ، وهو الفارس السيد !! وقد اقتبسنا همزية زهير مثـالاً على الهجـاء

(14) الأعشى : ديوانه ص 41 ص 313 وبعدها . غرانقة مفردها غرنوق : الشاب الأبيض الجميل .

المؤذي الذي يسلب المهجو كلّ فضائله ، ويحبسه في القصيدة بحيث لا يقوى على مغادرتها !! وقد بدأ بالمقدمة الطللية التي توحي للدارس مكابدة الشاعر وعناءه ، فكأن هذه المقدمة تمهيد للصراع الدموي بين حمار الوحش والطبيعة ، بعدها يمتدح أصدقاءه ليداهم آل حصن بهجائه :

1ـ عفا من أهل فاطمة الجواءُ فيُمن فالقوادمُ فالحساء
فلما أن تحمّل أهلُ ليلى جرت بيني وبينهم الظّباء
جرت سنحاً فقلت لها أجيزي نوى مشمولةً فمتى اللقاء
لقد طالبتها ولكل شيء إذا طالت لجاجتُه انتهاء

2ـ فصرّم حبْلها إذ صرّمتْه وعادَكَ ، أن تلاقيها العَداءُ
بآرزةِ الفقارةِ لم يخنها قِطاف في الرِّكابِ ولا خلاء
كأن الرحل منها فوق صعل من الظلمات ، جؤجؤه هواءُ
أذلك أم أقبُّ البطن جأبٌ عليه من عقيقته عِفاء ؟
تربّع صارة حتى إذا ما فنى الدحلان عنه والإضاء
فأوردها حياضَ صنيعبات فألفاهنّ ليس بهنّ ماء
فشجّ بها الأماعز وهي تهوي هُويّ الدّلو ، أسلمها الرِّشاء
فليس لحاقه كلحاقِ إلفٍ ولا كنجائها منه نجاء
يفضله إذا اجتهدَت عليه تمام السِّنّ منه والذكاء
كأن سحيله في كلّ فجر على أحساء يمؤودٍ دُعاء
فآض كأنه رجل سليب على علياءَ ليس له رداء
فليس بغافل عنها مضيعٍ رعيته إذا غفلَ الرِّعاء

3ـ وقد أغدو على شرب كرام نشاوى واجدينَ لما نشاء
لهم راخ وراووق ومسك تعلُّ به جلودهمُ وماء
أمشي بين قتلى قد أُصيبت نفوسُهُمُ ولم تقطر دماء

يجرّون البرودَ وقــــــد تمشّت حميــــا الكأس فيهم والفنـــاء

4ـ ومــا أدري وسـوف إخـال أدري أقــومٌ آلُ حِصْن أم نســاء

فــإن تكنِ النســاءُ مخبّــآتٍ فَحُــقٌ لكلّ محصنــةٍ هِــداء

وإمــا أن يقـولَ بنـو مصـادٍ : إليكم إننــا قــومٌ براء

وإمــا أن يقـولـوا : قـد أبينـا وشرٌّ مـواطنِ الحسبِ الإبـاء

وإمــا أن يقـولـوا قـد وفينـا بـذمّتنـا ، وعـادتنـا الـوَفـاء

فــإنــهُ الحـقُّ مقطعـه ثـلاث يمين أو نفـــارٌ أو جـــلاء

سيـــأتي آلَ حصن أين كانـوا من المثلات ، مـا فيهـا ثنـاء

فلم أرَ معشراً أسروا هــديــاً ولم أرَ جــارَ بيتٍ يستبــاء

وجــارُ البيتِ والرجـلُ المنـادي أمــامَ الحيِّ ، عهـدهمـا سواء

فــإني لـو لقيتــكَ واتّجهنــا لكان لكلِّ منكرةٍ كِفــاء

فـأبرئَ مـوضحـات الرأس منـه وقــد يشفي من الجرب الهنــاء

تَلَجْلَـج مضغــةً فيهـا أنيض أصلّتْ فهي تحت الكشــح داء

غصِصْت بنيئهـا فبشمتَ عنهـا وعنــدك لـوأردتَ لهـا دواء

فهـلاّ آل عبـــد الله عـــدّوا مخــازي لا يُـدبُّ لهـا الضّراء

أرونـا سُنّـــةً لا عيبَ فيهــا يُسـوّي بيننـا فيهـا السّواء

فـإن تـدعـوا السـواءَ فليس بيني وبينكمُ بني حِصن بقـــاء

ويبقى بيننــا قَــذَعٌ وتُلفـوا إذا قـومٌ بـأنفسَهم أســاؤوا

وتـوقـدْ نـاركمْ شرراً ويرفَـعْ لكمْ في كلِّ مجمعـــةٍ لِــواء

وتذكر الأخبار أن آل حصن ، بعثوا وفداً إلى زهير ليسترضيه ومعه إبل كثيرة ، وطلبوا إلى الوفد أن يعتذر لزهير نيابة عنهم ، وقد ندم زهير على هجاء آل حصن . وقال : « إني والله لقد عجلتُ إذ فعلتُ وايمُ اللهِ لا أهجو أهل بيت من العرب أبداً ،

ما خرجت بليل قط إلا خشيت أن يصيبني عـذابٌ من السماء بظلم أهل بيت من العرب كرام »[15] .

7 ـ الفخر :

العربي بطبيعته إنسان فخور ، يحبُّ نفسه أولاً ثم أشقّاءه ثم أبناء عمه ، ثم قبيلتـه ، ولكنه في السّلم ميّال إلى الإيثار ، وقـد تنـافس الفرسـان في المجـد ، حتى ينـالوا السمعـة الحسنـة ، فيفخر الشـاعر الفـارس بنفسـه وفعـالـه وقومـه ..، أمـا مقومـات الفخر فهي مقومات الفروسية نفسها والفتوة كذلك ، يفخر الشاعر بشرفه وشرف قومه فهو شجـاع مرهوب ، وفتي مرغوب ، وكريم ذو نـار لا تطفـأ . يقول بـلاشير : « من العسير إيجـاد مرادف مقبول لكلمة الفخر ، ولا تثير الكلمـة في الـذهن فكرة النوع الأدبي ، بل موقفـاً يدفع الشاعر إلى التميُّز من قبيلتـه أو الانتصـاب تجـاه العـدوّ ذاكراً محـاسنـه وصنـائعـه الفردية أو مآثر أسرته أو عشيرته ، فيصبح الشاعر لمدة وجيزة مركز عالمه الـذاتي »[16] . وكلما شعر الشاعر بالحيف والظلم كلما انتفخت ذاته وأعلى قدرها فوق أقدار الآخرين ، وقد وجدنا الصعاليك يفخرون بأنفسهم ويهجون أعـداءهم ، واكتشفنـا أن التَّبجُّح حـاق بمديح بعضهم والكذب وسم هجاء بعضهم الآخر ! والفخر مؤسسة إعلامية تروّج لسيـادة القبيلة على القبائل الأخرى والفرد على القبيلة ، وهـذا يفسّر سعـادة القبيلـة بـالشـاعر حين ينبـغ من بين بيــوتهـا ، فتنحر الجــزور وتــدعى الــوفــود ، ويرقص الفتيــان والفتيات ، وينفخون بـالمزاهر ، وينقرون الصنوج ، وقـد تستمر الاحتفـالات أيـامـاً ! والفخر مولع بالمبالغة حين يحاول إيصال أطروحاتـه ، ويبـدو أن المجتمع يقبل الفخر من الشاعر ويستثقله من الناشر ! وكان المتلمّس خال طرفة قد مكث بين أخواله بني يشكر حتى كادوا يغلبون على نسبه ، فسأل الملك عمرو بن هنـد ، وهو مضرّط الحجـارة لشـدة ملكة وقوة بأسه وحبّه للدماء وهو المحرّق أيضاً لأنـه أحرق تسعـة وتسعين شـابّـاً من بني دارم ووحداً من البراجم ، الحـارثَ بن التوأم اليشكري عن المتلمس وعن نسبـه ، فـأراد

(15) ابن أبي سلمى : زهير . شرح شعره ص 52 ـ 75 .

الحارث أن يدّعيه ، ثم إن المتلمس يزعم أنـه من ضُبيعـة وأحيـانـاً من بني يشكر ، فقـال الملـك عمرو بن هنـد : مثـل المتلمّس مثـل السـاقـط بين الفراشين فبلـغ ذلـك المتلمّس فاستشاط غضباً وقال يفخر بنسبه :

يعيّرني أمي رجـــالٌ ولا أرى ... أخـا كرم إلا بـأن يتكرّمـا
ومن كان ذا عرض كريم فلم يصن ... لـه حسبٌ كان اللئيم المـذممـا
أحـارثُ إنـا لـو تشـاط دمـاؤنـا ... تـزايلن حتى لا يمسُّ دمٌ دمـا
أمنتفيـاً من نصر بهثـةُ خلتني ... ألا إنني منهم وإن كنت أينما
ألا إنني منهم وعرضي عرضهم ... كـذي الألفِ يحمي أنفـه أن يصلمـا
وإن نصـابي إن سـألت وأسرتي ... من النـاس حيٌ يقتنـون المـزنّما
وكنـا إذا الجبـارُ صعّر خـدّه ... أقمنـا لـه من خـدّه فتقـوّمـا
لذي الحلم قبل اليوم مـا تقرع العصا ... ومـا عُلّمَ الإنسـان إلا ليعلمـا
ولـو غيرُ أخـوالي أرادوا نقيصتي ... جعلتُ لهم فـوق العرانين ميسما
وهـل لي أمٌ غيرُهـا إن تركتُهـا ... أبى اللهُ إلا أن أكـونَ لهـا ابنما[17]

أما أبو قيس صيفي بن الأسلت فله في فخره حكاية طريفـة ، فقـد أولتـه الأوس قيادتها في حرب بعـاث ، ودامت الحرب أشهراً حتى شحب وتغيّر ، وحين انطفـأت نـار الحرب بين الأوس والخـزرج عـاد إلى بيتـه ليلاً فـدقّ البـاب ففتحتـه امرأتـه ، وهي كبشة بنت ضمرة ، فاقترب منها مسلّماً فدفعته وأنكرته فقال لهـا : ويحـك أنـا أبو قيس فاعتذرت ، وقالت : والله مـا عرفتَـك حتى تكلّمت . فقـال هـذه القصيـدة يفخر بـأن شحوبه وتغيُّر أحواله بسبب قيادته للفرسان .

قـالت ولم تقصـد لقيـل الخنـا ... مهـلاً فقـد أبلغتَ أسماعي
أنكرتِـه حين تـوسّمتِـه ... والحرب غـولٌ ذات أوجـاع

---

(16) بلاشير . تاريخ الأدب العربي ص 466 .

(17) ابن الشجري . مختارات ابن الشجري ص 27 ص 28 .

من يَذق الحرب يجد طعمها ... مُرّاً ، وتحبسه بجعجاع

قد حصّت البيضةُ رأسي فما ... أطعمُ غمضاً غيرَ تهجاع

أسعى على كلّ بني مالكٍ ... كل امرئ في شأنه ساع

أعددت للأعداء موضونةً ... فضفاضةً كالنهى بالقاع

أحفِزُها عني بذي رونق ... مهنّدٍ كالملحِ قطّاع

صدْقٍ حسامٍ وادقٍ حدُّه ... ومجنأ أسمرَ قرّاع

بزُّ امرئٍ مستبسلٍ حاذرٍ ... للدهر ، جلد غير مجزاع

لا نألمُ القتل ونجزي به الـ ... أعداء كَيْلَ الصاعِ بالصاع

نذودهم عنا بمستنةٍ ... ذات عرانينَ ودفّاع

هلا سألتِ الخيلَ إذ قلّصت ... ما كانَ إبطائي وإسراعي

هل أبذلُ المالَ على حُبّه ... فيهم وآتي دعوةَ الداعي

وأضربُ القونس يوم الوغى ... بالسيفِ لم يقصّر به باعي

وأقطعُ الخرقَ يُخافُ الرّدى ... فيه على أدماءَ هلواع

أقضي بها الحاجات إن الفنى ... رهنٌ بذي لونين خدّاع(18)

ويظل لفخر السموءل بن عاديا مذاق مختلف ، فهو يفخر بالشمائل العربية وأهمها الترفُّع عن دنس العرض ، والنأي عن الجزع ، ومن ثم التَّحلّي بالقيم التي يعتزُّ بها كل عربي ، والسموءل يهودي ديناً عربي دماً ولحماً وانتماءً ، والعربي منذ الجاهلية يشترط الولاء ، فكان منهم الحنيفي والمسيحي واليهودي والصابئي .. وهذا مثال آخر على أن العرب ليسوا عنصريين ، فكانوا يفخرون بالسموءل ويضربون بوفائه الأمثال ، وكان السموءل يفخر بقومه العرب !

إذا المرءُ لم يدنّس من اللؤم عرضُه ... فكلُّ رداءٍ يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها ... فليس إلى حسْن الثناء سبيل

(18) المفضّليات ث 75 ص 284 وبعدها . القونس : عظم وسط الجمجمة .

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدُنا فقلت لها : إن الكرام قليل
وما قلَّ من كانت بقاياهُ مثلنا شبابٌ تسامى للعلى وكهول
وما ضرّنا أنّا قليل وجارنا عزيزٌ وجار الأكثرين ذليل
لنا جبلٌ يحتلُّه مَن نجيره منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليل
رسى أصلُه تحت الثرى وسما به إلى النجم فرعٌ لا يُنالُ طويل
هو الأبلقُ الفردُ الذي شاعَ ذكره يعزُّ على من رامهُ ويطول
وإنا لقومٌ لا نرى القتلَ سُبّةً إذا ما رأتهُ عامرٌ وسلول
يقرّب حبُّ الموتِ آجالَنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما ماتَ منا سيد حتف أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تسيلُ على حدِّ الظُّبات نفوسُنا وليست على غير الظّباتِ تسيل
صفونا فلم نكدُرْ وأخلصَ سرَّنا إناثٌ أطابتْ حملنا وفحول
فنحن كماء المُزن ما في نصابنا كهامٌ ولا فينا يُعدُّ بخيل
وننكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينكرون القول حين نقول
إذا سيدٌ منا خلا قام سيدٌ قؤولٌ لما قال الكرامُ فعول
وما أُخمدتْ نارٌ لنا دون طارقٍ ولا ذمّنا في النازلينَ نزيل
سلي إن جهلتِ الناس عنا وعنهم فليس سواءً عالم وجهول[19]

8 ـ التوثيب :

الموثبات قصائد كتبها الشعراء ليبثوا الحماسة في نفوس الناس لكي يحاربوا أعداءهم[20] ، وكان الشاعر الجاهلي حاذقاً في توثيب الناس فيدعوهم للحفاظ على شرف النساء وسمعة القبيلة ، والقيم النبيلة والأموال ، ثم يذكّرهم بمجد السلف ومضاء الخلف ، وجدارة الأسلحة ، وقد أدّت القصائد التثويبية دوراً مخرّباً في المجتمع الجاهلي إذ أوغرت

---

(19) ديوانا عروة بن الورد والسموءل ص 90 ، طب دار صادر ، بيروت ، تح كرم البستاني .

(20) الجباوي . محمد فتاح . الموثبات في الشعر الجاهلي .

الصدور ، وزيّفت الحقائق والوقائع وتسبّبت في إراقة الدماء البريئة ، وسبي الحرائر المنّعة ، وهلاك الزرع والضرع كما يقال .. فهي (الموثبات) تشبه إعلام الحرب في زماننا هذا ، فإعلام الحرب قائم على المزاعم وفكرة أنا الأشرف ، وأنا الأقوى ، وأنا الأحق ، وإن العدو معتد ومخاتل وجبان ، وإنه طامع بالأرض والعرض والمال والحلال . وللدارس أن يستثني عدداً من القصائد النبيلة المكتوبة بروح عروبية ، فقد نبّه عدد من الشعراء ذوي النظرة العروبية المبكرة إلى المخاطر الحقيقية التي تمثلها الدولتان العظميان : الأكاسرة والقياصرة فضلاً عن الخطر الآتي من الحبشة ، حتى إن لقيطاً بن يعمر الإيادي دفع حياته ثمناً لموثباته ، أما الأعشى فيكفيه شرفاً أنه هجا أكبر زعيم عربي عهد ذاك ، وهو قيس بن مسعود الشيباني ، ولم يبال بالمخاطر التي يمكن أن تناله بسبب هجائه لقيس ، وتحريض العرب عليه ، وقد اتّهم الأعشى قيس بن مسعود بالخيانة العظمى ؛ لأنه زار أعداء العرب والحرب قائمة ، ناسياً الدماء التي سفكت والمصائب التي حلّت[21] ، ومن يقرأ أيام العرب في العصر الجاهلي سيتوفر على نصوص كثيرة في التوثيب !

أما المنصفات فهي قصائد مهمة أنصف فيها الشاعر الفارس عدوّه[22] ، فوصفه بالشجاعة والخبرة والسماحة ، ولا يستغرب من الفارس مثل هذه الأخلاق ، فالفارس ذكي فإذا امتدح خصمه وقال : إنه شجاع ، ثم انتصر على هذا الشجاع كان فخره أعمق ونصره أوضح ، وقد عنَّ لنا إيراد موثبتين للقيط بن يعمر الإيادي يحرّض فيهما العرب ، وبخاصة إياد التي تجمّع حولها العرب لملاقاة الجيوش القادمة لغزوهم ، ويفصّل برنامجه الذي يقترحه للنصر .. ولا نريد التفصيل فالموثبتان بليغتان ولا تحتاجان لمزيد من الإيضاح :

---

(21) الصائغ . د . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية . الفصل السابع ص 261 وبعدها ، مكرّس للموثبات العروبية في العصر الجاهلي .

(22) الملوحي . عبد المعين . المنصفات . جمع وتحقيق ، طب دمشق 1967 .

الموثبة الأولى (قطعة) .

سلام في الصحيفــة من لقيــط ... إلى من بــالجــزيرة من إيــاد
بــأن الليث كِسرى قــد أتــاكم ... فــلا يشغلكم ســوق النقـــاد
أتـــاكم منهم ستـــون ألفـــاً ... يــزجّــون الكتــائب كالجراد
على حتفٍ أتينـــاكم فهـــذا ... أوان هــلاككم كهلاك عـــاد

الموثبة الأخرى (طويلة) :

يـــا دار عمرة من محتلهـــا الجرعـــا ... هــاجت لي الهم والأحزان والـوجعـا
تــامت فؤادي بـذات الجـزع خرعبـةٌ ... مرّت تريـد بـذاتِ العـذبـةِ البيعـا
جرت لمـا بيننـا حبـلُ الشُّمـوس فـلا ... يـأسـاً مبينـاً ترى منهـا ولا طمعـا
فمـــا أزال على شحـــط يـؤرقني ... طيفٌ تعمّــد رَحلي حيثمـا وُضِعـا
بـل أيهـا الراكب المُزجي مطيتـه ... نحـو الجــزيرة مرتـــاداً ومنتجعـا
أبِلــغ إيـــاداً وخلّـــلْ في سراتهم ... إني أرى الرأي إن لم أعص قـد نصعا
يـــا لهفَ نفسي إن كانت أمـوركُم ... شتى وأُحكِم أمر النـاس فـاجتمعـا
ألا تخــافـون قـومــاً لا أبـــا لكم ... أمسـوا إليكم كأمثـال الـدَّبـا سُرُعـا
أبنـــاءُ قـومٍ تـــأوْوكم على حنــقٍ ... لا يشعرون أضرَّ اللهُ أم نفعــــا
فهم سراعٌ إليكم بين ملتقـــــط ... شـوكاً وآخر يجني الصّـاب والسّلعـا
لــوأن جمعكم رامـوا بهـــدّتــــه ... شُمَّ الشماريخِ من ثهلانَ لانصدعـا
في كل يـــوم يسنـــون الحراب لكم ... لا يهجعـون إذا مـا غـافـل هجعـا
لا الحرث يشغلهم بـــل لا يرون لهم ... من دون بيضتكم رِيّـاً ولا شِبعـا
وأنتم تحرثــون الأرضَ عن سفـــه ... في كلِّ معتمـلٍ تبغَـونَ مـزدرعـا
وتلقحـون حيـالَ الشـول آونــةً ... وتنتجـونَ بـدار القُلعـةِ الرُّبعـا
أنتم فريقـان : هــذا لا يقـومُ لــه ... هصْرُ الليـوث وهـذا هـالـك صقعـا

وقـــــد أظلكمُ من شطر ثغركم ... هـولٌ لـه ظُلَمٌ تغشـاكمُ قِطعـا
مـالي أراكم نيـامـاً في بُلهنيــة ... وقد ترون شهابَ الحرب قد سطعا
فـاشفـوا غليلي برأي منكم حَسَنٍ ... يُضحي فؤادي لـه ريان قد نقعا
ولا تكونوا كمن قد بات مكتنعا ... إذ يقـال لـه امـزج غمـة كنعـا
صونـوا جيـادكمُ واجلـوا سيـوفكم ... وجـددوا للقسيّ النُّبـل والشِّرعـا
واشروا تـــلادكمُ في حرز أنفسكم ... وحرز نسـوتكم لا تهلكـوا هَلَعـا
ولا يـدع بعضكم بعضاً لنـائبـة ... كما تركتم بـأعلى بيشـة النخعـا
يـا قـومُ بيضتكم لا تُفجعُنَّ بهـا ... إني أخـافُ عليهـا الأزلَمَ الجـذعـا
يـا قـومُ لا تـأمنـوا إن كنتمُ غُيُراً ... على نسـائكم كِسرى ومـا جمعـا
هـو الجلاءُ الـذي يجتث أصلكم ... فمن رأى مثـل ذا رأيـاً ومن سمعـا
فقلّـــــــــدوا أمركم لله درّكم ... رحْبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا
عبْـل الـذراع أبيّـاً ذا مـزابنـةٍ ... في الحرب لا عاجزاً نكساً ولا ورعـا
مستنجـداً يتحـدى النـاس كلهم ... لـو قـارعَ النـاسَ عن أحسابهم قرعـا
لقـد بـذلتُ لكم نصحي بلا دخـل ... فـاستيقظـوا إن خير العلم مـا نفعـا
هـذا كتـابي إليكم والنـذيرُ لكم ... لمن رأى منكم رأيـاً ومن سمعـا[23]

ومما يحزُّ في نفس الباحث أن بعض الدارسين الذين يعممون في أحكامهم .. ظنّوا أن الشعر التوثيبي الذي كتبه الشعراء في الحروب الطاحنة القذرة بين أبناء الأمـة الواحدة شعرٌ قومي ولا ندري أيّ قومية هذه تلك التي تنمو في الحرب الأهلية التي تدور رحاها بين الأشقاء وأولاد العمّ .. وقد تنبّه زهير المزني فشجّع ذادة السلام ، وكتب فيهم قصائد المديح لأنهم يرأبون الصدع بين العربي وأخيه .. أما الفند الزماني فقد

(23) ابن يعمر . لقيط . ديوانه ص 35 ـ 51 ، تح د . عبد المعين خان ، طب مؤسسة الرسالة ـ بيروت . 1987

الصائغ . عبد الإله . صحيفة لقيط (تحليل نص) مجلة الطليعة الأدبية ، بغداد ، شباط (فبروري) . 1979

حاول بكل ما يمتلك من وعي وصبر أن لا يكون سبباً في إشعال الفتنة بين الإخوان ، ولكن دائماً ثمة أولئك الذين لا يهنأ لهم بال إلا بتخليق المصائب ..

أقيــدو القــومَ إن الظلـ ـمَ لا يرضـــاهُ ديّــان
وإن النـــار قـــد تصبـ ـح يــومـــاً وهي نيران
وفي العـــدوان للعـــدوا ن تـــــوهينٌ وإقران
وبعضُ الحلمِ يـــومَ الجهـ ـلِ للـــذِّلّـــةِ إذعـــان
صفحنـــا عن بَني ذهـــل وقلنـــا القـــوم إخـوان
عسى الأيـــامُ أن يرجعـ ـنَ قـومـاً كالـذي كانـوا
فلمـــا صرّح الشّرُّ بـــدا والشّرُّ عريـــان
أنـــاس أصلنـــا منهم ودنّـــا بـــالـــذي دانـوا
وكنـــا معهم نرمي فنحنُ اليـــومَ أحـــدان
وفي الطـــاعـةِ للجـــاهـ ـلِ عنـــد الْحَرّ عصيـــان
فلمـــا أبي الصلـــحُ وفي ذلـــك خـــذلان
شـــددنـــا شـــدّة الليث غـــدا والليث غضبـــان
بضربٍ فيـــه تـــأثيم وتفجيـــعٌ وإرنـــان
وقـــد أدْهَنُ بعضَ القـوم إذ في البغي إدهـــان
وقـــد حـــلّ بكل الحيّ بعـــد البغي إمكان
بطعن كفم الـــــزِّق غـــدا والـــزّق مـــلآن
وفي الشّرّ نجـــاةٌ حيـ ـن لا ينجيـــك إحســـان
ودان القـــــومُ إنْ لقـ ـيتِ الفتيـــانَ فتيـــان[24]

---

(24) البغدادي . محمد بن المبارك ت 589 . قصائد نادرة من كتاب مُنتهى الطلب من أشعار العرب ص 70 ، تحقيق د . حاتم صالح الضامن ، طب مؤسسة الرسالة ، بيروت 1983 .

9 ـ السلام :

لا أحد يحبُّ الحرب ، حتى أولئك الذين أشعلوها ، وجعلوا البشر وقودها ! فالكل يدّعي أنها سبب الدّمار والحرب والموت ، وقد تجد قيماً نبيلة لفرسان الحرب أمثال عنترة ، وعامر بن الطفيل ، والفند الزماني ، وسواهم من نحو النجدة والعفو عن المستسلم ، وعدم الإجهاز على الجريح والتّرفُّع عن طعن المدبر في قفاه ، والحفاظ على شرف النساء ، والزهد بالغنائم ، وما إلى ذلك من أخلاق الفرسان ، لكن الدعوة للسلام ينبغي أن تكون واضحة ، فداعية السلام غيره داعية الإعدام ، وإن زعم هذا الأخير أنه يعدم الآخرين في الحرب دفاعاً عن الحياة أو ردّاً للاعتبار ، وقد عرفت الجاهلية شعراء يدعون للسلام بين الشمال والجنوب أو القبائل المتخالفة أو المتحالفة ، صوناً للعرض وحفاظاً على المال الذي تثمره الزراعة والرّعي والصناعة والتجارة والعبادات ، وهذه أمور لن تنمو إلا في زمن السّلم ، وعرف زهير مثلاً داعية سلام ، وعرف الفند بأنه داعية ضبط النفس ! وقد رسم امرؤ القيس صورة كابوسية للحرب تشبه صورة (درايكولا) في عصرنا الحديث :

الحربُ أولُ ما تكونُ فتية	تسعى بزينتها لكلّ جهول
حتى إذا استعرّت وشبَّ ضرامُها	عادَتْ عجوزاً غير ذات حليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكّرت	مكروهة للشمّ والتّقبيل[25]

ثم قارن احتفاء زهير برجلي السلم ، ثم وصفه المقزّز للحرب !!

سعى ساعياً غيظ بن مرة بعدما	تبزّل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمتُ بالبيتِ الذي طاف حوله	رجالٌ بنوه من قريش وجرهم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما	تفانوا ودقّوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما : إن ندرك السلمَ واسعاً	بمالٍ ومعروفٍ من الأمر نسلم

(25) امرؤ القيس . ديوانه . ق 96 ص 353 .

فأصبحتما منها على غير موطن | بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عُليا معدٍ هُديتما | ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم
وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتم | وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً | وتضرَّ إذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرّحا بثفالها | وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم[26]

10 ـ الحكمة :

الحكمة لغة العقل والتجربة ، وقد وجدت لها في الحياة الجاهلية جمهوراً عريضاً لا يقلُّ أهميةً وكمّاً عن جمهور الغزل أو الفروسية ، وكان هذا الجمهور فعّالاً في صياغتها ، بمعنى أنه يشجّع ضرباً من الحكمة يجعل الشاعر مضطراً أحياناً لتلبية رغبة الناس ، فالحكمة حكمات ، وفنّ الحكمة قريب الأرومة من الشعر الديني وإن تباينت الأساليب والأهداف ، فشعر الحكمة يحذّر الناس من عواقب الجور والظلم والغدر ، والسرقة والغطرسة . يحذّرهم من إزعاج الجار ، أو الانهاك في الملذّات ، ثم يضرب الأمثال تلو الأمثال بالأمم الغابرة التي سادت ثم بادت بسبب الجور والعتو ، وللأمثال العربية مركزية بيّنة في شعر الحكمة ؛ لأنها أي الأمثال تصطنع تناصّاً بين أحداث حاضرة وأحداث غابرة فتستحضر الحدث الغابر ، وتغيّب الحدث الحاضر إمعاناً في التشويق والترغيب والترهيب ، وغالباً ما يدعو شعر الحكمة إلى صون اللسان عن الكذب ، واليد عن الأذى ، والاسم عن الفحشاء ! وقد يلجأ الشاعر إلى الحكمة وهو يرثي عزيزاً عليه ، أو حين يحذّر قريباً أو يهدّد معتدياً ، وأكثر شعر الحكمة مقترن بالشيخوخة والتجربة وكثرة الأسفار ، فالشاعر الذي يطعن في السّن ولا يجد ما يقوله في الغزل أو الفروسية أو الهجاء أو الفخر يجد الكثير الذي يقوله في الحكمة ، فيدعو الناس إلى مكارم الأخلاق والتأمل في الحياة والخلق ، ويبدو أن الحكمة كانت لسان الميزان بين رغبات الجسد

(26) ابن أبي سلمى . زهير . شرح شعره ص 24 .

وطلبات العقل ، بين اندفاع الشباب وتردُّد الشيوخ ، فهي (الحكمة) تعيد التوازن إلى أشياء كثيرة ، قال زهير :

سئمتُ تكاليف الحيــاة ومن يعِش ... ثمانين حـولاً لا أبا لـكَ يسـأم
رأيت المنايا خبـط عشواء من تصب ... تمتــــه ومن تخطئ يعمّر فيهرم
وأعلم مـا في اليـوم والأمس قبلـه ... ولكنني عن علم مـا في غـد عمي
ومن لا يصـانـع في أمـور كثيرة ... يضرّس بـأنيـاب ويـوطـأ بمنسم
ومن يـك ذا فضـل ويبخـل بفضلـه ... على قـومـه يستغن عنـه ويـذمم
ومن يجعل المعروف من دون عرضـه ... يفره ومن لا يتّــق الشتم يشتم
ومن لا يـذد عن حـوضـه بسلاحـه ... يهـدّم ومن لا يظلم النـاس يظلم
ومن هـاب أسبـاب المنـايـا ينلنـه ... ولـو نــال أسبــاب السماء بسلّم
ومن يعص أطراف الـزجـاج فـإنـه ... يطيـع العـوالي ركبت كل لهـذم
ومن يوف لا يـذمم ومن يفض قلبـه ... إلى مطمئن البرّ لا يتجمجم
ومن يغترب يحسب عـدوّاً صديقـه ... ومن لا يكرّم نفســـه لا يكرّم
ومهما تكن عنـد امرئ من خليقـة ... وإن خـالهـا تخفى على النـاس تعلم
وكائن ترى من صـامت لـك معجب ... زيـــادتـــه أو نقصـــه في التكلم
لســان الفتى نصف ونصف فـؤاده ... فلم يبـق إلا صـورة اللحم والـدم
وإن سفــاه الشيـخ لا حلم بعـده ... وإن الفتى بعـد السفـاهـة يحلم
سـألنـا فـأعطيتم وعـدنـا فعـدتم ... ومن أكثر التسـآل يـومـاً سيحرم

وجاء في معجم البلدان (368/4 وبعدها) أن خالـد بن الوليـد حين فتح الحيرة ، دخل دير هند بنت النعمان بن المنذر المعروفة بالحرمة ، فوجـدهـا وقـد أسنّت ، فقـال لها : أخبريني بشيء أدركت . فقالت : ما طلعت الشمس بين الخورنق والسدير إلا على ما هو تحت حكمنا فما أمسى المساء حتى صرنا خولاً (خدماً) لغيرنا ، ثم أنشأت تقول :

فبينا نسوس النـاس والأمر أمرنـا إذا نحن منهـا سـوقـة نتنصّف
فتبّـاً لـدنيـا لا يـدوم نعيمهـا تقلّب تـارات بنـا وتصرّف إ.هـ

وهنـاك في دير هند الصغرى آثار قبر النعمان ، أمـا دير هند الكبرى وهـو على طرف النّجف ففية مسلّة عالية كتب عليها :

إن بني المنـذر عـام انقضوا بحيث شـاد البيعـةَ الراهب
تنفـح بـالمسـك ذفـاريهم وعنبر يقطبـه القـاطب
والقـزّ والكتّـان أثـوابهم لم يجب الصـوفَ لهم جـائب
والعـزّ والملـك لهم راهن وقهـوة نـاجـودهـا سـاكب
أضحـوا ومـا يرجوهم طـالب خيراً ولا يرهبهم راهب
كأنهم كانـوا بهم لعبـةً سـار إلى أين بهـا الراكب
فـأصبحـوا في طبقـات الثرى بعـد نعيم لهم راتب
شرُّ البقـايـا من بقى بعـدهم قـلٌ وذلٌ جـدُّه خـائب إ.هـ

أما حكمة أحيحة بن الجلاح ، فهي خاصة بالمال ، فقد وجد بعد طول تجربة أن المال عند الناس مفتاح لأكثر مغالقهم !!

استبقِ مـالـك لا يغررك ذو نشب من ابن عم ولا عم ولا خـال
فلن أزال على الـزوراء أعمرهـا إن الحبيب على الإخـوان ذو مـال
كل النـداء إذا نـاديت يخـذلني إلا نـدائي إذ نـاديت يـا مـالي[27]

وميزة الحكمة أنها تعبّر عن تجربة الشاعر مع الناس والزمن ، أو عن رغبة النـاس في سماع نصائح ذات منحى معين ، وقد يجد الشاعر جمهوراً عريضـاً مثلاً في وقت لضرب

(27) البصري . الحماسة البصرية 42/2 ق 108 .

من الحكمة ولا يجده في الوقت الآخر ، فأيام الحرب لها حكمها وأيام السّلم لها حكمها أيضاً ، أما المثقب العبدي فإن حكمته تمثل فلسفته الأخلاقية في الحياة :

لا تقولن إذا ما لم ترد	أن تتم الوعد في شيء (نعم)
حسنٌ قول (نعم) من بعد (لا)	وقبيح قول لا بعد نعم
إن لا بعد نعم فاحشةٌ	فبـ (لا) فابدأ وإن خفت الندم
فإذا قلت نعم فاصبر لها	بنجاح القول إن الخلف ذم
واعلم أن الذَّمّ نقص للفتى	ومتى لا يتّق الذّم يذم
أكرمُ الجارَ وأرعى حقّه	إن عرفانَ الفتى الحقَّ كرم
لا تراني راتعاً في مجلس	في لحوم الناس كالسَّبع الضّرم
إن شرَّ الناسِ من يكشر لي	حين يلقاني وإن غبتُ شتم
وكلامٍ سيئٍ قد وقُرت	أذني عنه وما بي من صمم
فتعزَّيتُ خشاة أن يرى	جاهل أني كما كان زعم
ولبعضُ الصفح والإعراض عن	ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم
إنما جاد بشأسٍ خالدة	بعدما حاقت به إحدى الظلم
من منايا يتخاسينَ به	يبتدرن الشخص من لحم ودم
مترع الجفنة ربعي الندى	حَسَن مجلسه غيرُ لُطم
يجعل المنّ عطايا جمةً	إن بعض المال في العرض أمَم
لا يبالي طيبُ النفس به	تلفَ المال إذ العرض سلم
أجعل المال لعرضي جُنّةً	إن خيرَ المال ما أدى الذمم[26]

وقد جعل الأمير أسامة بن منقذ باباً في لباب الآداب أسماه (باب في الحكمة) نقتبس منه نتفاً من الشعر الجاهلي الذي قيل في الحكمة :

---

(28) المفضّليات . رقم 77 ، ص 293 وبعدها .

1 ـ قال شاعر قديم :

وكيف تريد أن تدعى حكيماً ... وأنتَ لكلِّ ما تهوى ركوب

2 ـ قال عمرو بن معديكرب :

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

3 ـ قرئ على باب مقبرة :

ربَّ قوم قد غنوا في نعمة ... برهةً والدهر ريّانُ غدق

صمت الدهرُ زماناً عنهم ... ثم أبكاهم دماً حين نطق

4 ـ قال لبيد :

وأكذبِ النّفس إذا حدّثتها ... إن صدقَ النّفس يزري بالأمل

5 ـ سمع كعب الأحبار رجلاً ينشد للحطيئة بيتاً في الحكمة فقال : والذي نفسي بيده إن هذا مكتوب في التوراة (!!) :

من يفعل الخيرَ لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرفُ بين الله والناس

6 ـ قال تميم بن مقبل (مخضرم) :

لا يُحرز المرءَ أحجاءُ البلاد ولا ... تُبنى لها في السماوات السلاليم

ما أطيب العيشَ لو أن الفتى حجرٌ ... تبنو الحوادث عنه وهو ملموم

7 ـ قال أبو ذؤيب الهذلي :

والنفس طامعة إذا رغّبتها ... وإذا تردُّ إلى قليل تقنع

8 ـ وقال المرقش الأصغر :

فمن يلقَ خيراً يحمد الناسُ أمره ... ومن يغوَ لا يعدم على الغي لائما

9 ـ قال طرفة بن العبد :

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلاً ... ويأتيكَ بالأخبار من لم تزوّد

10 ـ قال النابغة الذبياني :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه	على شعث أيُّ الرجال المهذّب[29]

ويمكن القول أن الأعشى حال متميزة في صناعة شعر الحكمة ، فهو يصوغ تجربته من حاصل مزج بين زمنه الحاضر وزمن الناس الغابر ، بين السعادة والشقاء ، والمثال الجميل والواقع الخشن ، ضارباً الأمثلة برموز تاريخية قادرة على تعزيز رؤيته للحكمة ، وهو الشيخ المتصابي قارن :

أرقتُ وما هذا السّهاد المؤرّق	وما بي من سقم وما بي معشق
ولكن أراني لا أزال بحادث	أغادي بما لم يمسّ عندي وأطرق
فإن يمس عندي الشيبُ والهم والعشى	فقد بنَّ مني والسلام تغلّق
فما أنت إن دامت عليك بخالد	كما لم يخلد قبل ساسان ومورق
وكسرى شهنشاهُ الذي سار ملكه	له ما اشتهى راح عتيق وزنبق
ولا عاديا لم يمنع الموتَ مالُه	وحصنٌ بتيماء اليهوديّ أبلق
بناه سليمانُ بن داود حقبةً	له أزجٌ عالٍ وطيٌّ موثق
يوازي كبيداءَ السماء ودونه	بلاطٌ ودارات وكلس وخندق
له درمكٌ في رأسه ومشارب	ومسكٌ وريحان وراح تصفّق
وحورٌ كأمثال الدُّمى ومناصف	وقِدر وطبّاخ وصاع وديسق
فذاك ولم يعجز من الموتِ ربه	ولكن أتاه الموت لا يتأبق
ولا الملك النعمانُ يوم لقيته	بإمته يُعطي القطوطَ ويأفق
ويجبى إليها السيلحونَ ودونها	صريفونَ في أنهارها والخورنَق
ويقسم أمرَ الناس يوماً وليلة	وهم ساكتون والمنية تنطق
ويأمر لليحموم كلَّ عشية	بقتٌّ وتعليق وقد كاد يسنق
يُعالى عليه الجلّ كل عشية	ويرفعُ نُقلاً بالضحى ويعرّقُ

(29) ابن منقذ . الأمير أسامة ت 584 . لباب الآداب ص 420 ، طب دار الكتب العلمية ، بيروت 1980 .

فـذاك ومـا أنجى من المـوت ربَّـه بسـابـاط حتى مـات وهـو محرزق
جماعُ الهوى في الرشـد أدنى إلى التقى وترك الهـوى في الغي أنجى وأوفـق
إذا حـاجـة ولتـك لا تستطيعهـا فخـذ طرفـاً من غيرهـا حين تسبـق
فـذلـك أدنى أن تنـالَ جسيمَهـا وللقصـــدُ في المسير والحـقُ[30]

ثم قارن للأعشى أيضاً :

بـانت سعـادُ وأمسى حبلُها انقطعا واحتلَّت الغمْرَ فـالجدَّين فـالقرعـا
وأنكرتني ومـا كان الـــذي نكرت من الحـوادث إلا الشيبَ والصلعـا
قـد يتركُ الـدهرُ في خلقـاءَ راسيـة وهيـا وينزلُ منهـا الأعصمَ الصَّدعـا
بانت وقد اسأرت في النفس حاجتها بعـد ائتلاف وخيرُ الـودّ مـا نفعـا
وقـد أرانـا طِـلابـاً همٌّ صـاحبـه لـو أن شيئـاً إذا مـا فـاتنـا رجعـا
وكان شيءٌ إلى شيء ففرّقـــــه دهْرٌ يعـودُ على تشتيت مـا جمعـا
ومـا طِـلابُـك شيئـاً لستَ مـدركـه إن كان عنك غراب الجهل قـد وقعـا
تقـول بنتي وقـــد قرّبتُ مرتحـلا يا ربِّ جنِّب أبي الأوصابَ والوجعا
واستشفعت من سراة الحي ذا شرف فقـد عصاهـا أبـوهـا والـذي شفعـا
مهـلاً بنيَّ فـــإن المرء يبعثـــه همٌّ إذا خـــالـط الحيزومَ والضلعـا
عليكِ مثلُ الـذي صليتِ فـاغتمضي يـومـاً فـإن لجنب المرء مضطجعـا
واستخبري قـافلَ الركبـانِ وانتظري أوبَ المسافر إن ريثـاً وإن سرعـا
كـوني كمثـل التي إذ غـاب وافـدهـا أهـدت لـه من بعيـد نظرة جزعـا
ولا تكـوني كمن لا يرتجى أوبـــةً لـذي اغتراب ولا يرجـو لـه رجعـا
مـا نظرت ذاتُ أشفـار كنظرتهـا حقّـاً كما صـدق الـذئبي إذ سجعـا
وقلّبت مقلـــةً ليست بمقرفـــة إنسـانَ عين ومـؤقـاً لم يكن قمعـا

---

(30) ديوان الأعشى ، ق 33 ، ص 267 وبعدها . ومعاني الكلمات والأبيات مبثوثة في الهوامش فاقتضت الإشارة .

قالت أرى رجلاً في كفه كتف / أو يخصف النعل لهفي أيةَ صنعا
فكذبوها بما قالت فصبّحهم / ذو آل حسّان يُزجي الموت والشرعا
فاستنزلوا أهل جوّ من مساكنهم / وهدّموا شاخص البنيان فاتضعا[31]

11 ـ الدين

الشعر الديني واقع ماثل ، تشهد له نصوص الشعر الجاهلي وأهميتها كمّاً ونوعاً ، وقد تهيأ لنا أن نضع هذا الغرض رغم صعوبة إقحامه وتواضع الدارسين على أن الشعر الديني كان ضعيفاً ، وربما كان منحولاً .. والذي نراه أن الشعر الديني ليس فرضية دون أساس أو قاعدة دون أمثلة ، فلقد كان الشعور الديني قويّاً لدى الجاهليين . ومعلوم أن اصطناع الأصنام لم يكن (تاريخياً) معروفاً عند العرب ، فقد اصطنعها عمرو بن لحي قبيل الإسلام ، وجلبها من بلاد الشام ليتاجر بها ، وليجرّب بضاعتها في الأسواق ، وحين انتشرت الأصنام لم نجد من كان يعبدها ، وإنما كان الجاهليون يتقرّبون بها إلى الله سبحانه الذي لا شريك له ولا ندّ ، وقد ورد هذا المعنى في القرآن الكريم .

ثمة شعراء كانوا يدينون بالحنيفية ، وقد شوهد زيد بن عمرو بن نفيل يبكي عند الكعبة ويلطم وجهه قبيل المبعث النّبوي ويقول : يا قوم لم يبق على دين إبراهيم أحد غيري .

وثمة الشعراء اليهود مثل السموءل الذي يقول :

إن امرأ أمِن الحوادثَ جاهلٌ / يرجو الخلودَ كضارب بقداح
من بعد عاديّ الدهور ومأرب / ومقاولٍ بيض الوجوه صباح
مرّت عليهم آفة فكأنها / عَفّت على آثارهم بتاح
ياليت شعري حين أندب هالكاً / ماذا تؤبنني به أنواحي[32]

---

(31) ديوان الأعشى . ق 13 ، ص 151 وبعدها .

(32) ديوانا عروة والسموءل بن عاديا ص 86 .

وثمة شاعر اسمه (سعية بن العُرَيض اليهودي) انفرد بالأصمعية رقم (22) ، وهو كما يقول أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون محققا المفضّليات : « شاعر متقدّم مجيد ، وهو من بني بهدل » قال سعية :

ألا إني بليتُ وقـــــــد بقيتُ — وإني لن أعــــــــودَ كما غنيت
وأجتنبُ المقــــاذعَ حيث كانت — وأترك ما هويت لما خشيت إ.هـ

ويبدو أن اليهود كانوا يبشّرون بدينهم ، وكانوا يستثمرون حاجة الجاهليين للخمرة فيقدّمونها لهم ، ثم يدعونهم إلى اليهودية ، إلا أن طبيعة العربي لا تنسجم مع الطقوس اليهودية .. المرقش الأكبر

ثوت في سباء الدنّ عشرين حجة — يطــانُ عليها قرمــد وتروّح
سباها رجالٌ من يهود تباعدوا — لجيلانَ يدنيها من السوق مربح[33]

وقال الأعشى :

وصهباءَ طاف يهود بها — وأبرزها وعليها خُتم[34]

وقد أنشد المفضل لشاعر يهودي جاهلي قصيدة بائية احتازت رقم (37) ، وفيها حديث عن القضاء والقدر ، فقد يخطب الرجل امرأة ويتزوج غيرها ، وقد ينال مناه الرجل غير الذكي ، ويعجز الرجل الأريب ، كل شيء له (آمرٌ قادرٌ) :

سلا ربةَ الخدر ما شأنُها — ومن أيّ ما فاتنا تعجبُ
فلسنا بأوّل من فاته — على رِفقه بعضُ ما يطلب
فكائن تضرّع من خاطب — تزوّج غير التي يخطب
وزوجها غيرُه دونه — وكانت له قبلهُ تحجب
وقد يدرك المرءَ غيرُ الأريب — وقد يصرَعُ الحوّلَ القلّبُ

(33) المفضّليات . رقم 55 . ص 242 .

(34) ديوان الأعشى . ق 4 . ص 85 . ب 10 .

ألم ترَ عُصْم رؤوس الشظـــا إذا جـاءَ قـانِصُهـا تُجلب
إليــه ومــا ذاك عن إربــةٍ يكـون بهـا قـانص يـأرب
ولكن لهـــا آمرٌ قـــادر إذا حـاول الأمر لا يغلب[35]

يقول الأستاذ عبد الله سالم مليطـان : « أشـارت كثير من المصادر التـاريخية إلى استيطان اليهود في أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً ، واتّخـاذهم من يثرب وفـدك وخيبر ووادي القرى وتيماء منـازل لهم وهم عـدة قبـائل منهم بنو عكرمـة ، وبنو ثعلبـة ، وبنو محمر ، وبنو زعورا ، وبنو قنيقـاع ، وبنـو زيـدة ، وبنـو النضير ، وبنـو قريظة ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، وبنو ماسلة . وكان لهـذه القبـائل من الناحية العقلية والدينيـة وضع معين قبل بعثـة النّبي ﷺ وهجرتـه إلى يثرب ، فهم أهل كتاب استطاعوا بميراثهم الديني والثقافي أن يكتسبوا نوعاً من الوجاهة الفكرية بين العرب ، بما لديهم من قصص الأنبياء والملوك الأقدمين وحكايات بدء الخليقة .. »[36] .

أمـا الشعراء النصـارى فكان عـددهم غير قليـل في العصر الجـاهلي ، حتى إن الأب لويس شيخو صنع كتاباً لإحصاء عددهم وتوثيق قصـائـدهم[37] ، أمـا الشعراء الأحنـاف فقد وجدوا من يعنى بـأفكارهم وتقـاليـدهم وقصـائـدهم من البـاحثين العرب ، فقـد أنجز الدكتور يحي الجبوري بحثاً في حركة الأحناف[38] ، وأنجز الدكتور عـادل البيـاتي بحث في شعر الأحناف[39] ، وقد ذكر أمية بن أبي الصلت (دين الحنفية) :

---

(35) المفضليات . ق 37 . ص 179 وبعدها .

(36) مليطان . عبد الله سالم . التفكير الأسطوري في الإسرائيليات ص 65 وبعدها . طب دار مداد . ليبيا 1998 .

(37) شيخو . لويس . شعراء النصرانية ، مط الكاثوليكية ـ لبنان 1990 .

(38) الجبوري . د . يحي . حركة الأحناف في الجاهلية ، مجلة المعارف عدد 9 ، أيلول (سبتمبر) 1962 ص 53 .

(39) البياتي . د. عادل . شعر الأحناف / دراسة وتحليل مجلة آداب المستنصرية العدد 5 سنة 1980 .

إن آيــات ربّنــا بــاقيــاتٌ   مــا يمــاري فيهنّ إلا الكفــور

خلــق الليــلَ والنهـــار فكلٌّ   مستبينٌ حســابــه مقــدور

ثم يجلــو النهـــار ربٌّ كريمٌ   بمهــاةٍ شعــاعُهــا منشــور

حبس الفيــل بـــالمغمّس حتى   ظــل يحبــو كأنـــه معقــور

حــولـه من ملوك كنــدة أبطــا   لٌ مــلاويثُ في الحروب صقــور

خلّفــوه ثم ابــذعرّوا جميعــاً   كلهم عَظْمُ ســاقــه مكســور

كلُّ دين يــوم القيـــامـــة عنـــد الله إلا دين الحنفيـــة زور[40]

وقد عرف أمية بن أبي الصلت بـالتزامـه الـديني ، فهو في شعره يـدعو إلى الإيمـان بالله ، والتّفكُّر في خلق السماوات والأرض ، حتى ليمكننا القول : إن جلّ ديوانـه يـدور حول المعاني الدينية الشائعة في العصر الجاهلي ، قارن للمثال قوله :

والأرضُ نـوّخهـا الإلـه طروقـةً   للمـــاء حتى كلُّ زنـــد مُسْفَــد

والأرض معقلنــا وكانت أمّنـــا   فيهــا مقــابرنــا وفيهــا نــوأد

فبنى الإلـــه عليهم مخصــوفـــة   خلقـــــاء لا تبلى ولا تتـــأوّد

فــأتمّ ستّــاً فــاستـوت أطبــاقهــا   وأتى بســـابعـــةٍ فــــأنى تــورد

كزجاجة الغسول أحسن صنعها   لمـــا بنـــاهـــا ربّنـــا يتجرّد

لمصفّـــدين عليهم صـــاقــورة   صماءُ ثــالثـــة تمــاعُ وتجمــد

فيهـا النجوم تطيـع غيرَ مراحـة   ما قال صـدّقها المليـك الأرشـد

رسخ المها فيهـا فـأصبح لـونها   في الــوارســات كأنهنّ الأثمــد

شـدّ القطوع على المطـايـا ربنـا   كلٌّ بنعماء الإلـــــه مقيّــــد

ملـــك على عرش السماء مهيمن   تعنـو لعـزتـه الـوجـوه وتسجـد

والشهر بين هـلالــه ومحـاقـــه   أجـلٌ لعلم النـاس كيف يعـدّد

---

(40) ابن أبي الصلت . أمية . شرح ديوانه . طب مكتبة الحياة ، بيروت ، تح الأخوين كاتب : سيف الدين وأحمد عصام . ص 47 .

لا نقص فيــه غير أن خبيئــه ... قمر وسـاهـور يُسـلُّ ويغمـد
مستخفيـاً وبنـات نعش حـولـه ... وعن اليمين إذا يغيب الفرقـــد
والشمس تطلـع كل آخر ليلــة ... حمراءَ يصبـح لـونهـا يتـورّد
لا تستطيـع بـأن تقصّرَ سـاعـة ... وبـذاك تـدأبُ يـومهـا وتشرّد
ولسـوف ينسى مـا أقـول معـاشر ... ولسوف يـذكره الـذي لا يزهـد
فــاغفر لعبـد إن أول ذنبـــه ... شربٌ وأيسارٌ يشاركها دد[41]

ونقل المسعودي : أنه قدم على النّبي الأمين ﷺ وفـد قبيلـة إيـاد فسألهم عن قس فقالوا : هلك يا رسول الله ، فقال : رحمه الله كأنني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أحمر ، وهو يقول : أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا من عاش مات ، ومن مات فـات ، وكل ما هو آتٍ آت .

أما بعد : فـإن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً ، نجوم تمور ، وبحـار تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، أقسم قسّ بالله لا حانثـاً ولا آثمـاً إن لله دينـاً هو أرضى من دينٍ أنتم عليه ، ما لي أراهم يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا فنـاموا ؟ سبيل مؤتلف وعمل مختلف ... وقال أبياتاً لا أحفظها فقام أبو بكر رضي الله عنه وأنشدها :

في الـــــذاهبين الأولين من القرون لنــــا بصــــائر
لمـــا رأيتُ مــوارداً ... للمـوت ليس لهـا مصـادر
ورأيت قـومي نحـوهـــا ... تمضي الأوائـــل والأواخر
لا يرجـع المــاضي ولا ... يبقى من البـاقين غــابر
أيقنت أني لا محـــالـــة ... حيث صـار القـوم صـائر !

فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله قسّاً إني لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده »[42] .

(41) المصدر نفسه . ص 27 وبعدها .

(42) المسعـودي . أبـو الحسن علي بن الحسين ت 306 . مروج الـذهب 83/1 . تـح محمـد محي الـدين عبد الحميد . طب السعادة . مصر 1964 .

وكان زهير بن أبي سلمى متألهاً ، يرى قدرة الله في كل شيء يراه وهو يرى آيات الله ويتمنى أن يراها الناس مثله !!

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى ... من الأمر أو يبدو لهم ما بدا ليا
بدا لي أن الناسَ تفنى نفوسُهم ... وأموالُهم ولا أرى الدهر فانيا
وإني متى أهبط من الأرض تلعة ... أجد أثراً قبلي جديداً وعافيا
أراني إذا ما بتُّ على هوى ... فثُمَّ إذا أصبحت أصبحت غاديا
إلى حفرة أهوي إليها مقيمةٍ ... يحثُّ إليها سائقٌ من ورائيا
كأني وقد خلفت تسعين حجة ... خلعتُ بها عن منكبيَّ ردائيا
بدا لي أني عشت تسعين حجة ... تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا
بدا لي أن الله حقٌّ فزادني ... إلى الحقّ تقوى الله ما قد بدا ليا
بدا لي أني لستُ مدركَ ما مضى ... ولا سابقي شيءٌ إذا كان جائيا
وما إن أرى نفسي تقيها كريمتي ... وما إن تقي نفسي كريمة ماليا
ألا لا أرى على الحوادث باقياً ... ولا خالداً إلا الجبالُ الرواسيا
ولا السماءَ والبلادَ وربّنا ... وأيامنا معدودة والليالیا
أراني إذا ما شئتُ لاقيت آية ... تذكّرني بعض الذي كنت ناسيا
ألم تر أن اللهَ أهلكَ تبّعاً ... وأهلك لقمان بن عاد وعاديا
وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى ... وفرعون أردى جنده والنجاشيا
ألا لا أرى ذا إمّةٍ أصبحت به ... فتركه الأيامُ وهي كما هيا
ألم تر للنعمان كان بنجوة ... من العيش لو أن امرأ كان ناجيا
فغيَّر عنه رُشد عشرين حجة ... من الدهر يومٌ واحدٌ كان غاويا
فلم أرَ مسلوباً له مثلَ قرضه ... أقلَّ صديقاً معطياً ومواسيا[43]

(43) شرح شعر زهير بن أبي سلمى . ق 23 . ص 207 وبعدها .

وقال لبيد العامري :

بلينـا ومـا تبلى النجومُ الطـوالـع ... وتبقى الجبـالُ بعـدنـا والبـلاقـع
وقـد كنت في أكتـاف جـار مضنّـة ... ففـارقني جـار بـأربـد نـافـع
فـلا جـزعٌ إن فرّق الـدهرُ بيننـا ... وكل فتى يـومـاً بـه الـدهر فـاجع
فـلا أنـا يـأتيني طريفٌ بفرحـة ... ولا أنـا مما أحـدث الـدهر جـازع
ومـا النـاس إلا كالـديـار وأهلهـا ... بهـا يـوم حلّوهـا وغـدواً بلاقـع
ومـا المرء إلا كالشهـاب وضـوؤه ... يحورُ رمـاداً بعـد إذ هـو سـاطع
ومـا البرّ إلا مضمرات من التقى ... ومـا المـال إلا معمراتٌ ودائـع
ومـا المـال والأهلـون إلا وديعـة ... ولا بـد يـومـاً أن تُردّ الـودائـع
أليس ورائي إن تراخت منيتي ... لـزومُ العصا تحنى عليها الأصابع
أخبّر أخبـارَ القرون التي مضت ... أدبّ كأني كلمـا قمت راكـع
فـأصبحتُ مثـل السيف غيّرَ جفنـه ... تقـادُمُ عهـد القين والنصـل قـاطـع
فـلا تبعـدن إن المنيـة مـوعـدٌ ... عليـك فـدانٍ للطلـوع وطـالـع
أتجزعُ مما أحـدث الـدهرُ بـالفتى ... وأيُّ كريم لم تصبـه القـوارع
لعمرك مـا تـدري الضوارب بـالحصى ... ولا زاجرات الطير مـا الله صـانـع
سلـوهنّ إن كـذبتمـوني متى الفتى ... يذوق المنايـا أو متى الغيث واقع[44]

هذه الأمثلـة وسواهـا تعزز القول بـأن الشعر الـديني غرض مهم من أغراض الشعر الجاهلي ، حتى إن جلّ الشعراء الجاهليين قالوا فيه شعراً .. ولك أن تلاحظ الميل لتأمل الحياة والموت والزمن ، وكثرة الأيمان بلفظ الجلالة ، وقد غيّب أصحاب نظريـة الشـك هذا الفن ، وقالوا : إن الشعر الذي يدخل في خانة الدين ضئيل ، ثم اكتشفوا أنـه كثير وكثير جداً .. فبدّلوا تأويلاتهم وقالوا : إنه منحول وفيه صبغة إسلامية !!

---

(44) ديوان لبيد العامري . ق 30 . ص 66 وبعدها .

12 ـ الوصف :

وهو فن الفنون الشعرية ، وهل الشعر سوى الوصف ؟ وصف المشاعر ، والمشاهد البصرية ، والأصوات ، وجمهور الشعر في رأينا كان يوازن بين الشعراء ويفاضل استناداً إلى معيار الوصف ، الشعر الجاهلي شعر وصف ، وأسمّي شعر الوصف شعر الصورة ، فإذا أفرغت القصيدة من الصورة فكأنك أفرغتها من المعنى والمبنى ، فهذه الثنائية قائمة على الصورة ، وقد شهر عدد من الشعراء بالوصف الذي اختصّ به ، امرؤ القيس والأعشى ، وصفا المرأة ، ونوادي اللهو ، وعامر بن الطفيل برع في وصف الفرس ، وعنترة برع في وصف الحرب ، والصعاليك برعوا في وصف الصحراء والذئاب ، والشعراء السود برعوا في وصف مشاعرهم الحزينة بسبب من نظرة الاحتقار التي يواجههم بها البيض والسادة ، وقيل في تسمية المرقّش : إنه كان يرقّش شعره أي ينمّقه ، وأهم حالات الوصف وأجملها مبثوثة في المعلقات ، حتى قيل : إن أهم ما ميّز المعلقات وفوّزها هو الوصف الدقيق الجميل المبتكر ، بل إن معلقة لبيد : (عفت الديار) لا تحمل همّاً حقيقيّاً سوى همّ الوصف ، فلا هي في الغزل ، ولا الرثاء ، ولا الفخر ، ولا ولا .. وإنما هي مكرّسة للوصف .

نعم تضمّنت بعض الأغراض الجزئية ، ولبثت تلك الأغراض جزئية وغائمة وظهر الوصف سيد الشعرية في المعلقة ! أما أهم الصور التي شغلت الشعر الجاهلي بوصفها فهي :

المرأة ، الأطلال ، الأنواء ، الناقة ، الفرس ، السلاح ، الحرب ، الحيوانات ، الصحراء ، الينابيع ، الرحلة ، الفارس ، الفصول الشتاء والصيف والربيع والخريف ، الأشجار القلاع والحصون والقصور ، الأسواق ، الملابس .

وحين يستقرئ دارس الشعر الجاهلي أساليب الشعراء في الوصف ، فإنه سيفاجأ بأن عدداً من الأساليب تقاربت ثم تشابهت ، ثم تداخلت ، فشكّلت قالباً يمكن

تـأشيره ، وهو مـا نسمّيـه السلوك الوصفي في القصيـدة الجـاهليـة ، وقولنـا هـذا لا يعني إطلاقـاً كلّ الشعر الجـاهلي ، وإنمـا هو ينصرف إلى الجـل أو الكم الـذي يشكّـل ظـاهرة فنّية .. وها نحن أولاء نشرّح نموذجاً مفترضاً للقصيدة الجاهلية .

1 ـ يبدأ الشاعر ببيت مصرّع لاستثمـار طـاقتـه النغميـة ، ونجـاح القصيـدة يبـدأ بالبيت الأول !!

2 ـ يقف على الأطلال ؛ وهي الآثار التي بقيت من بيت الحبيبة والأثاث المستغنى عنه من ملابس قديمة ممزّقة وأخفاف من الجلد ، وبعر الحيوانات وفضلاتها ، والحجـارات الثلاث التي يستقر عليها القدر ، وبعض الرماد والخشب ..

3 ـ يبكي الشاعر من هول ما يرى ، وربما طلب من أصدقائه مشاركته في البكاء .

4 ـ يسأل الشاعر الأحجار والآثـار عن الحبيبـة ، وأين اتجهت ؟ وكيف حـالهـا ، ويعجب لأن سؤاله يعود إليه صدى فالأحجار لا تجيب ..

☆ أحياناً يكون الشاعر شاهداً على رحلة الحبيبة ، فيقف وراء الكثبـان أو سمرات الحي (الأشجار) وينظر إلى أهلها يضعون الأحمال فوق الإبل فيتجرّع العلقم .

5 ـ يستعيـد الشـاعر شريـط الـذكريـات ، من خـلال قـوالب تعبيريـة من نحـو (ألا رُبّ) (وقد) (ويوم) .. إلخ . فيتذكّر لقاءاتـه مع الحبيبـة ، وعيون الكاشحين والحاسدين والحرس الذين يحيطون بـالحي أو البيت .. وكيف أنـه يستغل الظلام ونوم النـاس للوصول إليهـا .. وربمـا استغلّ العواصف والـزمـازم والأمطـار ، ويجري حـواراً معها ، فهي تخاف عليه من القتل وتخاف على نفسها من الفضيحة ..

6 ـ يصف الشاعر ملابسها وجسدها ، وريقها ، وصوتها ، وشعرها ، ورقّتها .

7 ـ يأسى الشاعر لذهاب ذلك العهـد ، وذهـاب شبـابـه معـه ، ويتيقن أن ذلـك العهد لن يعود مهما ذرف من الدمع ..

8 ـ ينتفض الشاعر ويزجر نفسه وينهاها عن التَّذكُّر والحنين والبكاء بعبارات مثل : (دع ذا) (عدّ) (اصرّم) (إنسَ) ..

9 ـ ويجعل السفر بديلاً للبكاء .. وتكون الناقة محور اهتمامه فيصف قوتها وهزالها من شدة السفر وصبرها وأنها ناقة أمون تشبه قنطرة الرومي ، أو بناء الصيدلاني أو القصر ، أو الكثيب ، أو التابوت .

10 ـ فجأة يشبه ناقته بحيوان مثل الظلم ، أو القطاة ، أو ثور الوحش ، أو بقرته ، أو حمار الوحش ، أو أتانه ، أو الظبية ، ولنأخذ ثور الوحش مثلاً ، فهو المشبه به للناقة ، يمشي بين أبقار جميلات كأنهن نساء ، ويطردهن حين ينحرفن عن السبيل بحوافره ، ويطرد عنهن أي ثور آخر متطفل فهو غيور عليهن غيرة الرجل على نسائه ، والأبقار يطعن ثور الوحش لأنه الفحل الوحيد ، المكتمل ، الذكي ، القوي ، وهو الذي سيقودهن إلى النّبع .

11 ـ الطريق إلى النبع طويلة ومحفوفة بالمخاطر ، ولكن الثور وأبقاره لا يبالون بذلك ، فعطشهم أنساهم التعب من أجل الماء .

12 ـ يصلون إلى الماء ، فإذا بصياد ماكر مختبئ وراء شجرة أو أحجار ، يطلق كلابه المطوّقات باتِّجاه الثور فقط ، فتهرب الأبقار حتى تنجو من الهلاك والمكيدة ، وتترك الثور وحيداً .

13 ـ يسلِّم الثور بالواقع ، ويتهيأ للمعركة غير المتكافئة ، فالكلاب مدرَّبات ، وجائعات ، وضاريات ، قسم ينهش قفاه ، وآخر ينهش صدره ، وثالث يرتقي ظهره ، ورابع يغرز مخالبه في عيون الثور .

يقول الجاحظ (ت 255 هـ) إن القصيدة إذا كانت في المديح فإن الثور ينتصر ويقتل أحد الكلاب فتفرُّ البقية ، ويسلّم الصياد بالهزيمة ، وإن كانت القصيدة في الرثاء فإن الكلاب هي التي تقتل ثور الوحش .

☆ نتلبث عند قصيدة المديح ..

14 ـ ينتصر الثور ، ولكن الليل يداهمه فلا يدري موقع النبع ولا في أي مكان تبيت أبقاره ، فيشعر بالوحشة والخوف من الليل وتبدأ جراحه بالنزف فيتألم ولكنه لا يبالي .

15 ـ ثم ينهمر المطر ، وتشتعل السماء بالبرق ، فيبدو الثور حين يسطع عليه البرق لثوان مثل كوكب .. وتبدأ سيول الماء ..

16 ـ يتلمس الثور طريقه ويختار مكاناً مرتفعاً ينقذه من سيول الماء .. ويستقر تحت أرطاة (شجرة) لتمنع عنه المطر .. ويلبث على حاله حتى يطل الصباح .

17 ـ تشرق الشمس وكأن الثور يحلم بالنبع حين تضاء الطبيعة وبالعثور على أبقاره ، ولسوف يسامحهن .. لكنه ويا للأسف يرى وهو بتمام وعيه صياداً آخر مع كلابه ، وتدور معركة أخرى أشد ضراوة .. ولسوف ينتصر الثور فيها هذه المرة لأن القصيدة في المديح .

18 ـ يكتفي الشاعر بهذا المقطع ويقول بمثل هذا الثور شبهت ناقتي ، فكأن الشاعر قد جعل من الناقة معادلاً رمزياً للشاعر ، وما لاقته من الأهوال كناية عما لاقاه الشاعر من الأهوال ، وهو في طريقه إلى الممدوح ، فمثل هذه الصور تحرج الممدوح وتضطره لأن يدفع أكثر مما كان قد هيأه للشاعر .

وقد يرسم الشاعر صورة للصراع بين الحيوانات باعتدادها حالة مفردة لا علاقة لها بالنمط الذي وضعناه بين يدي الدرس .. وهذا زهير يشبّه ناقته بقطاة النبع ، ثم يدير صراعاً دموياً بين القطاة والصقر .. على هذا النحو :

كأنها من قطا الأجباب حان لها ... وِرد وأفرد عنها أختها الشبك
جونية كحصاة القسم مرتعُها ... بالسّيّ ما تنبتُ القفعاء والحسك

حتى إذا مـا هـوت كفَّ الغـلام لهـا طـارت وفي كفِّـه من ريشهـا بتـك
أهـوى لهـا أسفـع الخـدين مطّرقٌ ريشَ القـوادم لم تنصب لـه الشّرك
لا شيء أجـود منهـا وهي طيبـة نفسـاً بمـا سـوف ينجيهـا وتترك
دون السماء وفـوقَ الأرض قـدرهمـا عنـد الـذنـابى فـلا فـوتٌ ولا درك
عنـد الـذنـابى لهـا صـوت وأزْملـة يكاد يخطفهـا طـوراً وتهتلـك
ثم استمرت إلى الـوادي فـألجـأهـا منه وقـد طمع الأظفـار والحنـك
حتى استغـاثت بمـاء لا رشـاء لـه من الأباطـح في حـافـاتـه البُرك
مكلـل بـأصـول النجم تنسجـه ريح خريف تضاحي مـائـه حبـك
كما استغـاث بسيٍّ فـزّ غيطلـةٍ خـافَ العيونَ فلم ينظر بـه الحشـك
فـزلّ عنهـا وأوفى رأس مرقبـة كمنصب الصقر دمّى رأسه النُّسك(45)

وقد مرَّت بنا لوحات عديدة لصور الصراع بين المشبّـه بـه للنـاقـة وكوكبـة الموت (الصيـاد وكـلابـه) ، وسنحـاول التقـاط بعض الصـور التي تفنّن فيهـا الشعراء ، وهم يرسمون المرأة وكأنها (موديل) ماثل أمامهم .. قال الأعشى :

يـا جـارتي مـا كنتِ جـاره بـانت لتحـزنـنـا عُفـاره
ترضيـك من دلّ ومن حُسْن مخـالطـة غراره
بيضـاءُ ضحـوتُهـا وصفـ راءُ العشيـةِ كالعرارة
وسبتـكَ حين تبسّمت بين الأريكـةِ والستـارة
بقـوامهـا الحسن الـذي جمع المـدادة والجهـاره
كتميّـل النشـوان لير فـل في البقيرة والإزاره
ويجيـد مغـزلـة إلى وجـه تـزيّنـه النضـاره
ومهـا ترفّ غروبـه يشفي المتيّم ذا الحراره
كـذرى منـوّر أقحـوا نِ قـد تسـامـق في قراره

(45) شرح شعر زهير بن أبي سلمى ، ق 9 ، ص 131 وبعدها .

وغــــــدائرٍ ســـودٍ على　　　كفـلٍ تـزيِّنـه الـوثـاره
وأرتـك كفّــاً في الخضــا　　　ب ومعصماً مـلء الجبـاره
وإذا تنــازعــك الحــديـ　　　ث ثنت وفي النفس ازوراره
وتثيب أحيـــانــــاً فتَطـ　　　مِـعُ ثم تــدركهــا الغراره
بتلتـــــــك ثمتَ لم تنلـ　　　ك على التجمل والـوقـاره
.. إلا هــوانـــك إذ رأت　　　من دونهــا بــابــاً وداره
ورأت بــأن الشيب جــا　　　نبـه البشـاشـة والبشـاره
فـاصبر فـإنـك طـالمـا　　　أعملت نفسك في الخسارة[46]

وقال الأعشى يصف امرأة حسناء يغار عليها زوجها :

وليس بمـانعهـا بـابُهـا　　　ولا مستطيـع بهـا أن يطيرا
فبــانَ بحسنـــاءَ برّاقـــةٍ　　　على أن في الطرف منهـا فتـورا
مبتلّـــة الخلـق مثـل المهـا　　　ةِ لم ترَ شمســـاً ولا زمهريرا
وتبرد برد رداء العرو　　　س رقرقت بالصيف فيه الصبيرا
وتسخن ليلـــةَ لا يستطيـع　　　نبـاحـاً بهـا الكلبُ إلا هريرا
ترى الخـزَّ تلبســه ظـــاهراً　　　وتبطن من دون ذاك الحريرا[47]

أما عمرو بن كلثوم الذي أنتج قصيدة غاضبة وبـدأهـا على غير عـادة الشعراء بـأمر فج لنائمة بأن تهب وتسقيه كل الخمور ، ثم تركهـا قبل أن تلبّي رغبتـه ، وبطش بعـدوه من خلال كلمات ناريـة ، هـذا الشاعر لم ينس أن المرأة مركز القصيـدة ، وأن الوصف عنوان المهارة فقال في المعلّقة ذاتها :

قفي قبـل التّفرّق يــاظعينـــا　　　نخبّرْك اليقين وتخبرينــــــــا
بيـوم كريهـــة ضربـاً وطعنـاً　　　أقرّ بــه مـواليـك العيـونـا

(46) ديوان الأعشى ، ق 30 ، ص 203 وبعدها .

(47) نفسه . ق 12 ، ص 145 وبعدها .

قفي نسألك هل أحدثت صرماً ... لوشكّ البين أم خنتِ الأمينا

تريكَ إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا

ذراعي عيطل أدماءَ بكر ... تربَّعتِ الأجارع والمتونا

وثدياً مثل حق العاج رخصاً ... حصاناً من أكفّ اللامسينا

ومتني لدنة طالت ولانت ... روادفها تنوء بما يلينا

ومأكمة يضيق البابُ عنها ... وكشحاً قد جننت به جنونا

فما وجدت كوجدي أم سقب ... أضلّته فرجّعتِ الحنينا[48]

(48) الشنقيطي . أحمد بن الأمين ت 1331 . المعلّقات العشر وأخبار شعرائها ، طبع دار الكتب العلمية . بيروت 1997 .

الفصل التاسع

خصائص الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي نتاج عالي القيمة لمبدعين كبار ، استطاعوا بانتائهم للشعر والحياة معاً تأسيس تقاليد مهمة للشعر ، حتى اعتدت هذه التقاليد عمود الشعر وسبباً لشعريته (جاذبيته) ، ومن خرج عن هذه التقاليد فقد خرج على عمود الشعر ! أي خرج من الشعر ، ودخل في اللاشعر !!

أما عمود الشعر (شعريته وقوانينه) فهو أمرٌ لم يصطلح عليه الجاهليون ، وإن كانوا متمثّلين تماماً لاشتراطاته ، وربما قال شاعر لشاعر إذا أراد الانتقاص من قيمة شعره : « شعرك مثل خيمة بلا عمود » ، أو « إن شعرك خارج عن العمود » . ثم استقرأ علماء الشعر ... القصائد والمقطعات الجاهلية . ثم اتفقوا على ترسيم حدود هذا المصطلح .

« الواجب أن يتبيّن ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميّز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث ، ولتعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه ، ومراسم إقدام المزيفين على ما زيّفوه ؛ ويعلم أيضاً فرق ما بين المصنوع والمطبوع ، وفضيلة الأتيّ السمح على الأبيّ الصعب » .

وهو سبع خصائص : شرف المعنى ، وصحته ، وجزالة اللفظ ، واستقامته ، والإصابة في الوصف ، والمقاربة في التشبيه ، والتحام أجزاء النظم والتئامها على تخيّر

من لذيذ الوزن ، ومناسبة المستعار منه للمستعار له ، ومشاكلة اللفظ للمعنى ، وشدة اقتضائهما للقافية ، حتى لا منافرة بينهما[49] .

ولم نجد اختلافات واضحة بين الدارسين في خصائص الشعر الجاهلي ومميزاته ، فأهم الخصائص والأصول أمر متفق عليه تقريباً ، أما الاختلاف في الترقيم والفروع والتقديم والتأخير فأمر لا بد من حدوثه ؛ لاختلاف الاجتهادات والمرجعيات والنوايا أيضاً !!

ومما لا شك فيه هو أن مبحث الخصائص يمثل بؤرة الدرس ، فهو تلخيص للفصول وتوصيف لطرائقها في التناول وتقعيد للشواهد والأمثلة ، فإذا عرفت خصائص الظاهرة أدركت أسبابها وآفاقها ، وثابتها ، ومتحولها !

الخصائص مبدأ وجودي وتربوي ! وعلى الإنسان معرفة خصائص نفسه وغيره ، وزمنه ، وأحبابه ، وأعدائه ، وإذا تعذّر عليه ذلك وقع في المحظور ، لكل خصائصه : الشعر ، والنثر الفني ، والغناء ، والحرب والسلم ، والرجال والنساء ، ولن يوفّق دارس الشعر الجاهلي مهما حذق وتمحّل إذا قفز فوق الخصائص ، وسوّغ لقرّائه ذلك ! أما خصائص الشعر الجاهلي فهي كثيرة وقد تتماهى (أحياناً) مع أغراضه وفنونه التي تكفّل بها المبحث الأول .. وها إننا مقبلون على رصدها :

1 ـ وحدة الإيقاع : تحتاز القصيدة الجاهلية مسوّغات بنائها من خلال التزامها بإيقاعاتها قبل أفكارها وصورها ، ولم يتسامح الشعراء ولا النُّقاد في شأن آلية الإيقاع ، ويبدأ الإيقاع بالبحر ، وقد وجد أن إيقاعات الطويل والكامل والبسيط اقتسمت أكثر من ثلثي الشعر الجاهلي ! أما كيفية اختيار الشاعر للبحر فهذا أمر لم يتضح بعد ، وكل ماقيل فيه يمثل فرضيات ليس أكثر ، ونفترض أن ذكاء الشاعر الحادّ كان عونه ودليله

---

(49) المرزوقي . أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن ت 421 . شرح ديوان الحماسة ص 8 وبعدها . نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ، مط لجنة التأليف ـ القاهرة 1967 .

وهبة مجدي . وكامل المهندس . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ص 261 ، طب مكتبة لبنان . بيروت 1984 .

في انتقاء البحر الذي يناسبه ، مع أنه لا يعرف للبحور اسماً ! كل الذي يعرفه هو القوالب النغمية التي شاعت بعد شهرة عدد من القصائد ! ومن كلام الوليد بن المغيرة فهمنا أن العرب تميّز الرجز من القصيد ، وأوّل البعض انتشار عدد من الإيقاعات الجاهلية أن هذه الإيقاعات مأخوذة من توقيع سير الجمل ، فإذا قطّع الناقد النغمي واحداً من تلك البحور اكتشف أن إيقاعات البحر موافقة لوقع خطى الناقة ، والرجز مثلاً كان حيلة قائد القافلة في حثّ الجمال على السير ، وربما السرعة ، وقد جعل الجاهليون مقابلات بين الأوزان (القوالب) وبين عدد من أنماط الغناء والحداء ، ثم تطور الأمر فصار للرثاء وزن ، وللحماسة وزن ، فالنصب غناء الركبان والفتيان ، ويقال له الجنابي اشتقه رجل من عصب اسمه جناب ، وهو يخرج من أصل الطويل ، أما السّناد فهو الغناء ذو الترجيع الكثير النغمات ، والهزج هو الغناء الخفيف الذي يصاحب الرقص[50] . « كان الشاعر يتقيّد في قصيدته بالنغمة الأولى ، وما زالوا يصفّون في نغم القصيدة حتى استوى استواءً كاملاً ، سواء من حيث اتّحاد النغم أو اتّحاد القوافي وحركاتها ، وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة ، وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في رائية المنخل اليشكري »[51] .

وعرف الجاهليون الإقواء حتى اتّفق جمهور الشعر أن النابغة وبشر بن أبي خازم كانا يقويان !! وشاعت كلمات إيقاعية أخرى مثل : السند والإيطاء والإصراف ، وتدخل هذه المصطلحات تحت اسم الإكفاء[52] ، وجاء في اللسان (كفأ) : أكفأ في الشعر خالف بين ضروب إعراب قوافيه ، أو المخالفة بين هجاء قوافيه ، أو المخالفة بين

(50) زيدان . جورجي . تاريخ آداب اللغة العربية 55/1 ، وانظر ابن رشيق . العمدة 241/2 .

(51) ضيف . شوقي . العصر الجاهلي ، ص 227 ، وانظر :
المقالح . د . عبد العزيز . أصوات من الزمن الجديد ، ص 137 يرى الدكتور المقالح أن قوام الفنّ هو التصوير والموسيقى والرقص ويعتدها قواسم مشتركة بين البشر ..

(52) القيسي . د . نوري وصاحباه . تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص 135 .

هجاء قوافيه إذا تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت . وقيل : إن الإكفاء هو الإقواء أو الفساد في آخر البيت . إ.هـ . أما وزن البيت فهو وفق هذا المخطط .

حشو + عروض = حشو + ضرب

والتصريع كان شائعاً أيضاً وهو :

حشو + عروض آخره حرف معين = حشو + ضرب آخره الحرف نفسه ، أي إن للبيت الواحد قافيتين متشابهتين الأولى نهاية العروض والأخرى نهاية الضرب !!

كما شاعت مفردتا الجناس والطباق ، فالجناس هو تشابه اللفظين في النطق مع اختلافهما في المعنى ، أما الطباق فهو الجمع بين الضدّين أو المعنيّين المتقابلين مثل (الحياة والموت والكرّ والفرّ) ، زد على ذلك إيقاعات التكرار ، فإذا كانت إيقاعات الجناس والطباق إيقاعات معنوية فإن إيقاعات التكرار معنوية ونغمية فقد يتكرر المعنى أو الجملة أو الكلمة أو الحرف ، والشعر الجاهلي مغتبط تماماً بالتكرار ، فلا تكاد تخلو قصيدة واحدة منه !

وينبغي أن تكتب القصيدة كاملة على بحر واحد ونسيج إيقاعي واحد ، كذلك القافية ، فإن القصيدة الجميلة هي التي تنتقي لخواتيم أبياتها قافية مأنوسة ، فإذا كانت غزلاً فالقوافي قريبة من العناء والمكابدة ، وإن كانت القصيدة هجاء أو فخراً أو توثيباً فقوافيها مجلجلة ، ولم تخرج القصيدة الجاهلية عن وحدة القافية إلا قليلاً ، وذلك القليل تمثّل في المسمّطات التي اصطنعها عدد من الشعراء بينهم امرؤ القيس : والسمط أن يبتدئ الشاعر ببيت مصرّع ثم بأربعة أشطر بقافية مختلفة ثم شطر بقافية البيت المصرّع الأول ! قارن امرأ القيس :

توهمتُ من هند معالم أطلال عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي
مرابع من هند خلت ومصائف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيّرها هوج الرياح العواصف وكلٌّ مسفٌّ ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السّماكين هطّال

والشعراء الجاهليون حريصون على وحدة البحر والقافية في قصائدهم لعلمهم أن هاتين الآليتين هما نسغ الإيقاع بيد أنهم لم يهملوا إيقاعات الحروف ، فقد تتكرر السينات واللامات وسواهما لمسوّغات تتصل بوصف المشاهد أو المشاعر ، وذلك ما أسميناه ظاهرة تداعي الحروف(53) .

ومسك الختام في وحدة الإيقاع أردناه في مقام الركباني ، وهو مقام اعتمده الحادون في تنهيض الإبل وتسريع سيرها ، وقد يكون اللحن الوحيد الذي بقي من العصر الجاهلي ، بعد أن انقرض الكثير من الألحان التي ساعدت الشعراء زمنها في ضبط إيقاعات قصائدهم ، كان الشاعر المقبل على كتابة قصيدة ، يتشبّث بالركباني على جهة المكاء (التصفير) أو التّرنّم أو النّقر أو التخفيت (الغناء الخافت) ، وأشهر الإيقاعات التي اشتغل عليها الشعراء الجاهليون هي الطويل / البسيط / الكامل / الرّجز / الخفيف / الوافر / السريع / المتقارب ! وسوى ذلك تكتنفه معضلات نغمية تحول دون الإفادة من الركباني ! وما زالت مدينة النجف في العراق تحتفظ بهذا المقام وتردّده حناجر المنشدين في المآتم الحسينية التي تستغرق ثلاثين يوماً هي المحرم وعشرة أيام من الشهر اللاحق (صفر)

1 ـ (الطويل) ـــ فعولنمفا + عيلنفعو + لنمفاعلن × 2 = 01101011 + 0110101 + 01101101

2 ـ (البسيـــط) ـــ مستفعلنفـــا + علنمستف + علنفعلن × ٢ = 010110101 + 0101011 + 0111011

3 ـ (الكامل) ـــ متفاعلن + متفاعلن + متفاعلن × ٢ = 0110111 + 0110111 + 0110111

(53) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنية ، انظر الفصل الأول من الباب الثاني ص 169 ، وعنوانه (شعرية الصورة وإيقاعات تداعي الحروف) ، وانظر :
فخر الدين . جودت . الإيقاع والزمان ص 29 (حول مفهومات الإيقاع والوزن) .

4 ـ (الرّجـز) ـــ مستفعلن + مستفعلن + مستفعلن × 2 = 0110101 + 0110101 + 0110101 +
0110101

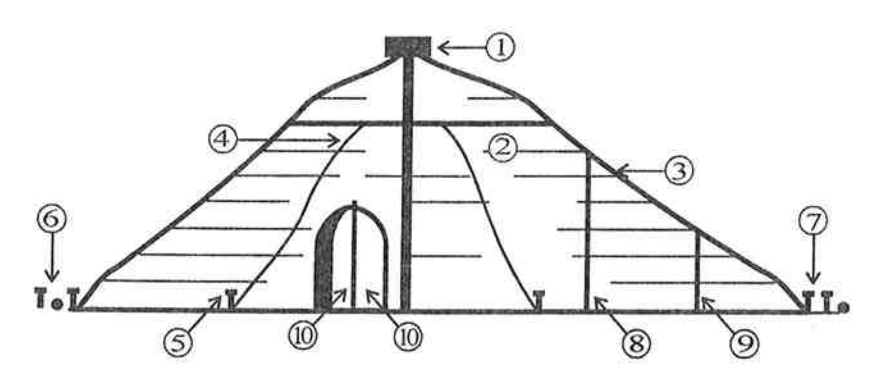
5 ـ (الخفيف) ـــ فـاعلاتن + مستفعلن + فـاعلاتن × 2 = 0101101 + 0110101 +
0101101

6 ـ (الـوافر) ـــ مفـاعلتن + مفـاعلتن + فعـولن × 2 = 0111011 + 0111011 +
01011

7 ـ (السريـع) ـــ مستفعلن + مستفعلن + فـاعلن × 2 = 0110101 + 0110101 +
01101

8 ـ (المتقـارب) ـــ فعـولنفعـو + لنفعـو + لنفعـو × 2 = 01101011 + 01101 +
01101

2 ـ وحـدة البيت : القصيـدة قـائمة على الإيقـاع ، والإيقـاع قـائم على الكلمـات والجمل ، فلابـدّ أن تبـدأ القصيـدة من البيت لأنهـا حـاصل جمع الأبيـات ، ويـلاحـظ الدارس استعارة بيت الشَّعر (فتح الشين) لعبـارة بيت الشِّعر (كسر الشين) ، لوجود تقارب بين البنائين في الذهنية الإبداعية الجاهلية ، وربما يوضح الرسم الآتي الفكرة التي بسطناها :



1 ـ عمود الخيمة (بيت الشَّعر)	عمود القصيدة (بيت الشِّعر)
2 ـ قماش الخيمة	نسيج القصيدة
3 ـ حبل طويل لشدّ الخيمة	سبب ثقيل 11
4 ـ حبل قصير لشدّ الخيمة	سبب خفيف 10
5 ـ مسمار خشبي (وتد)	وتد
6 ـ مسماران خشبيان بينهما حجارة	وتد مفروق 101
7 ـ مسماران خشبيان متتاليان بعدهما حجارة	وتد مجموع 110
8 ـ قطعة من القماش أو الجلد تفصل شطراً مهماً من الخيمة لجلوس النساء	فاصلة كبرى 11110
9 ـ قطعة من القماش أو الجلد تفصل شطراً صغيراً من الفاصلة الكبرى لخزن الطعام أو السلاح أو لجعلها مخدعاً أو مضجعاً أومخبأ	فاصلة صغرى 1110
10 ـ مصراع الباب . أحد جزأيه (للباب مصراعان)	بيت الشِّعْر له مصراعان

ووجه الاستعارة بيّن ، فكما أن بيت الشعر الخيمة لن يؤمن عيشه دون أن يتوفّر على أسباب الحياة من رسوخ في الأرض واعتماد في القوت على تموين يكفي أشهراً ، وخزين من الماء ، وصنوف من السلاح ، بحيث يستغني بيت الشعر عن البيوت الأخرى التي تسبقه في الترتيب أو تلحقه أو تجاوره ، وبيت الشعر مكتف بذاته جمالياً ودلالياً وغير محتاج إلى البيت الذي يسبقه أو يلحقه .. لكن هذا القول لا يطّرد دائماً فثمة الاستثناء .. قال النابغة مخالفاً وحدة البيت :

وهم وردوا الجفار على تميم   وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواطن صالحات   وقفن لهم بحسن الظن مني

وقال امرؤ القيس مخالفاً وحدة البيت أيضاً :

فقلت له لما تمطّى بصلبه   وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي   بصبح وما الإصباح منك بأمثل

والقار في ذلك أن البيت الشعري الواحد مكتف بنفسه إيقاعاً ومعنى ودلالة . حتى قالت العرب : أغزل بيت ، وأهجى بيت ، وأشعر بيت ، وأخنث بيت .

1 ـ قالت الخنساء في أرثى بيت اتفقت عليه العرب :

يذكّرني شروق الشمس صخراً   وأذكره بكل غروب شمس

2 ـ أنصف بيت قالته العرب ورد لعمرو بن كلثوم :

كأن سيوفنا منا ومنهم   مخاريق بأيدي لاعبينا

3 ـ قال الأعشى أخنث بيت عرفته العرب :

قالت هريرة لما جئت زائرها   ويلي عليك وويلي منك يا رجل

وإذا توفر البيت على وحدته الدلالية والجمالية فذلك معناه أن الشاعر موفق في ابتكار جاذبية شعره ، إلا أن الجاذبية لن تستكمل بهاتين ، فوحدة البيت تتطلب أيضاً

الانسجام بين دلالتي الصدر والعجز بحيث يعبّر شطرا البيت عن سياق واحد ، وقد عابوا على طرفة قوله :

ولست بحلال التِّلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فالعجز لا يكمل معنى الصدر ، ولا يساعدنا على ردّه للصدر ..

وكذلك عابوا قول امرئ القيس إرباك بيتين من شعره في مضايق التقديم والتأخير :

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزقّ القديم ولم أقل ... لخيلي كرّي كرةً بعد إجفال

وزعموا أن وحدة البيت تقضي بأن يقول :

كأني لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلي كرّي كرّة بعد إجفال
ولم أسبأ الزّقّ القديم للذّةٍ ... ولم أتبطّن كاعباً ذات خلخال

3 ـ وحدة الموضوع : القصيدة الجاهلية وحدة متجانسة من بيت الاستهلال الأول إلى بيت الخاتمة الأخير ، فهي تشتغل على غرض مركزي واحد مثل المديح أو الرّثاء أو الغزل .. ولن توصلنا النظرة الحولاء للوحدة الموضوعية إلى نتيجة علمية ، فنحن نقرأ مثلاً أن عينية الشاعر (س) مهلهلة ، تتنازع أغراض متعددة ، وتكتنفها صورة غير مترابطة ، بدأها الشاعر بالغزل ، ثم ترك الغزل فجأة ، وانشغل بوصف الناقة ثم نسي الناقة واشتغل على ثور الوحش ! ثم خرج عن النّسق وأدار صراعاً بين الثور والكلاب على مشهد من الصّياد ومقربة من الغدير .. ثم عاد إلى الغزل لينتقل إلى المديح أو الرثاء !! إن الدراسة التي تستقرئ الشعر الجاهلي لا تجد الأطروحات التي أشرنا إليها دليلاً على تشرذم الوحدة الموضوعية وتفككها ، فوحدة القصيدة تشبه وحدة الحي أو القبيلة ، ووحدة القبيلة قائمة على القواسم المشتركة من الرهبات ، والرغبات ،

والأمزجة ، والمرجعية ، والرجال والنساء ، والشيوخ والأطفال ، والبيوت والمياه ، والأنعام والحرف .. هذه مفردات مختلفة تشكل بالمنظور الفنّي وحدة القبيلة ، وكما يحرص أمير القبيلة أو ملكها على شدّ أطراف القبيلة إلى المركز فإن الشاعر لكذلك . فهو يشدّ أجزاء القصيدة إلى الغرض المركزي ، دون أن يتسرّب الملل إلى أفئدة جمهوره الشعري ، فاصطنع قوالب فنية لقصيدته وجدت تقبُّلاً مفرحاً لدى الجمهور ، وندري أن جمهور الشعر في الزمن الجاهلي كان صعباً ملولاً ، لا يعرف المجاملة أو المهادنة ، فقد يترك الجمهور شاعره وحيداً ، وقد يطلب إليه الكفّ عن الكلام ، وقد يعيّره فيقول له : إن هذا المعنى سبقت إليه ، أو أنك يا شاعر أقل مهارة من شاعر يصغرك في العمر أو التجربة ! من هنا حرص الشعراء على اصطناع جاذبية في شعرهم تغري جمهور الشعر ، وتجعله مسحوراً بهموم القصيدة الجمالية والدلالية ، وقد مرّ بنا سلوك القصيدة الجاهلية ابتداء من الوقوف على الأطلال والبكاء عليها إلى : (دع ذا) إلى امتطاء الناقة ، ثم تشبيهها بـ (حيوان صحراوي) إلى اصطناع صراع دموي بين الحيوان (المشبه به) من جهة والصياد وكلابه من جهة أخرى ، إلى الوصول بعد قوله (بهذا شبّهت ناقتي) إلى الغرض المركزي ، وينبغي التوكيد على أن الشاعر لا يواجه حزنه مثلاً وحيداً ، ولا يعبّر عنه بالخطاب المباشر ! فهو ـ على عادة الشعراء ـ يشرك الطبيعة معه ، فالسماء تبرق ، والشاعر يشيم البرق ليعرف أين يسقط المطر ، ومن خلال البرق يتنوّر الشاعر وجه حبيبته وهي البعيدة ، فكأن البرق والمطر نقلة فنية من حاضر الشاعر إلى ماضيه في إطار القصيدة ، فالصور تنثال عليه والذكريات حين يذكر المطر أو يوم الدجن ، فالمنخّل اليشكري يلتقي الفتاة الكاعب في اليوم المطير الذي يذهل الناس عن تسلّل الغرباء إلى الحيّ ..

ولقد أمرّ على الفتاة الخِدْرَ في اليوم المطير

الكاعب الحسناء ترفل بالدمقس وبالحرير

فدفعتها فتدافعت مشي القطاة إلى الغدير

ولثمتها فتنفّست كتنفس الظّبي الهبير
ورنت وقالت يا منخّل ما بجسمك من فتور

وكذلك هو حال طرفة بن العبد ..

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدّك لم أحفل متى قام عوّدي
فنهن سبقي العاذلات بشربه كميت ما تُعْلَ بالماء تزبد
وكرّي إذا نادى المضاف مجنّباً كسيد الغضا نبهته المتورّد
وتقصيرُ(يوم الدجن) والدجن معجب ببهكنةٍ تحت الطراف المعمّد

والصور المطرية كثيرة في الشعر الجاهلي ومتواترة ، فالطبيعة مرجعية كبيرة لأوصاف القصيدة وحركتها ، فهي (الطبيعة) تبكي مع الشاعر وتضحك وتحزن وتغضب ، ولنا أن نتذكّر ليل امرئ القيس أكان حقّاً طويلاً ؟ أم أن الشاعر رسم لنا مشاعرهَ من خلال بطء الليل الذي تهيأ للشاعر أن نجومه كانت مشدودة بحبال قوية بجبل يذبل ..

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطّى بجوزه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل

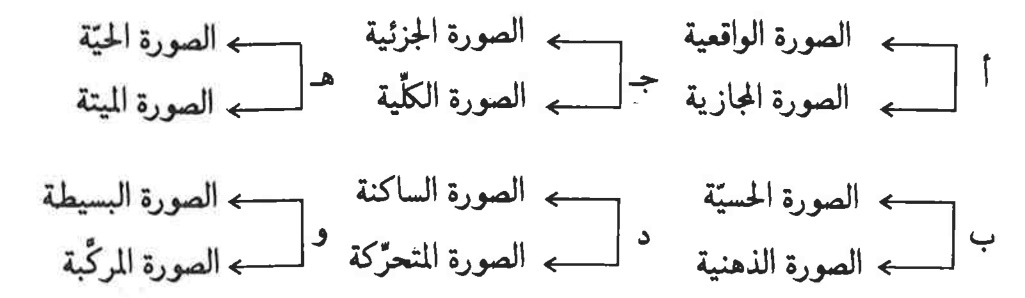
حركة الليل ترجمت لنا حركة النفس ، فالشاعر أسقط إحساسه بالزمن على الليل ، فلو كان الشاعر سعيداً لوجد أن الليل قصير ، وأن الفجر والشروق يأتيان ، وهو لم يروّ ظمأه من السعادة كما ينبغي ..

الشاعر من خلال البرق والليل والمطر إنما هو يشرك الطبيعة في مشاعره ، ويقول من خلال الأنواء كلاماً يناسب ذائقة الجمهور ومزاجه ..

ولأن الشاعر لا يقول مشاعره بوساطة الخطاب المباشر ، فهو كما قلنا يعبِّر عنها من خلال لوحات فنِّية ، وقد لاحظنا كيف كانت الناقة (القوية الأمون التي أهزلها السفر) مشبهاً به للشاعر ، وكيف أن هذا المشبه به (الناقة) أصبح مشبهاً ، واحتاج إلى مشبه به فكان ثور الوحش ، أو حمار الوحش ، أو القطاة . والصراع الذي يدور بين هذا الحيوان المتعب من جهة والصياد وكلابه من جهة أخرى يعكس لنا إحساس الشاعر بصراعه مع الزمن والسلطة ، وهو صراع غير متكافئ ، احتمالات الخسارة فيه كبيرة .

والخلاصة : إن تعددية اللوحات الفنية .. والأغراض الجزئية في القصيدة ، فضلاً عن الاستطرادات ، كل ذلك لا يلغي وحدة الموضوع وإنما يعزِّزه ويؤكِّده ويجمِّله ، فالشاعر ليس خطيباً .. وإنما هو فنان يعرف كيف يوظف المجاز ومهاراته في صناعة قصيدة تعجب الجمهور فيصفِّر لها ، ويصفق ، وربما انهالت هدايا المعجبين على الشاعر وهو يقرأ ، وبعض الهدايا ، وبخاصة هدايا الأمراء والموسرين تعادل ثمن مئة سيارة فخمة جديدة !!

٤ ـ الصورة الفنِّية : اتَّفق المعنيون بدراسة الشعر الجاهلي على أن أهم ما يميِّز الشعر الجاهلي هو جمال صوره الفنِّية وشدّة أسرها ؛ وقد برع الشعراء في رسم أدقّ التفاصيل ، وصورهم الجميلة الموحية مأخوذة من واقع حياتهم أو طموحاتهم ، مع أنهم لم يعرفوا حدود مصطلح الصورة الفنِّية كما يعرفه الدارسون المعاصرون ، ولكنهم بالتأكيد اكتشفوا أثره في جمال القصيدة ، فمرة يدعون الصورة صورة ، وأخرى وصفاً ، أو رسماً ، أو تنميقاً ، أو ترقيشاً ، أو تزييناً ، فما أكثر المصطلحات التي تتماهى مع مصطلح الصورة ، والصورة مبنية على ثنائيات يمكن ترسيمها على الشكل الآتي :



والصورة الفنية بشكل عام تمتح من المزج (السحري العجائبي) بين هذه الثنائيات ، فتتجلّى من مكنونات التخييل استعارات القصيدة وكناياتها وتشبيهاتها[54] بأسلوب يدعو إلى الإعجاب بحذق الشاعر الجاهلي الذي ابتكر تكوينات جديدة من الصور ، حتى إن جلّ النقاد الجاهليين قد شغفوا بالصورة وتصالحوا عليها ميزاناً ذهبياً لا يخطئ .

فالنابغة اعتمد معيار الصورة في أحكامه العكاظية ، وكذلك أم جندب التي وازنت بين صورة الفرس التي رسمها امرؤ القيس وفرس غريمه علقمة ، وفضلت صورة الفرس التي أنتجها علقمة لأنه ابتكر لها مميزات محببة ، وكذلك اعتراض طرفة بن العبد ، وكان صبياً ، على الصورة التي رسمها خاله المتلمّس للجمل ، فقد انتبه إلى أن خاله نسي أنه يتحدث عن الجمل فرسم له صورة ناقة ، فضحك طرفة حتى استلقى على قفاه وهذه عادة جاهلية وقال : « استنوق خالي الجمل » ! أما البيت فهو :

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره   بناج عليه الصيعرية مكدم

---

(54) حاولنا في كتابنا (الصورة الفنية معياراً نقدياً) التنويه بجهود الأساتذة الزملاء الذين أنجزوا كتباً في الصورة الفنية الجاهلية أو فصولاً ، ونذكّر بعدد منها :

أ . عصفور . د . جابر أحمد . الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي .

ب . عبد الرحمن . د . نصرت . الصورة الفنية في الشعر الجاهلي .

جـ . البطل . د . علي . الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري .

د . حسن . محمد صادق . خصوبة القصيدة الجاهلية ومعانيها المتجددة .

والأمثلة كثيرة ربما زادت عن حاجة الدارس إليها : ولسوف نختار صورة كلية توفرت عليها ميمية الحطيئة ، قوامها عشرات الصور الجزئية والقصيدة إلى هذا (نانوراما) ترينا أيضاً الصور الواقعية والمجازية والحسيّة والذهنية والساكنة والمتحركة والحيّة والميتة في إطار من الحكي (الصوفني) :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل	ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما
أخي جفوة فيه من الأنس وحشة	يرى البؤس فيها من شراسته نعمى
تفرّد في شِعْب عجوزاً إزاءها	ثلاثة أشباح تخالهمُ بُهما
حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملّة	ولا عرفوا للبُرّ مذ خلقوا طعما
رأى شبحاً وسط الظلام فراعه	فلما بدا ضيفاً تشمّر واهتمّا
وقال: هيا رباه ضيفٌ ولا قرى	بحقك لا تحرمه تاالليلة اللحما
فقال ابنه لما رآه بحيرة:	هيا أبتِ اذبحني ، ويسّر له طعما
ولا تعتذر بالعدْم علّ الذي طرا	يظن بنا مالاً، فيوسعنا ذما
فروّى قليلاً ثم أحجم برهة	وإن هو لم يذبح فتاه فقد همّا
فبينا هما عنّت على البعد عانة	قد انتظمت من خلف مسجلها نظما
عطاشاً تريدُ الماء فانساب نحوها	على أنّه منها إلى دمها أظما
فأمهلها حتى تروّت عطاشُها	فأرسل فيها من كنانته سهما
فخرّت نحوصاً ذات جحش سمينة	قد اكتنزت لحماً وقد أطبقت شحماً
فيا بشرَه إذ جرّها نحو قومه	ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى
فباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم	وما غرموا غرماً وقد غنموا غنما
وبات أبوهم من بشاشته أباً	لضيفهمُ والأمُّ من بشرها أمّا[55]

هذه الصورة الكلية رسمت لنا محنة رجل عجوز معدم وسط صحراء مهلكة ، وقد

(55) الحطيئة . ديوانه (قافية الميم) شرح ابن السكيت والسجستاني . تح نعمان أمين طه مط . مصطفى البابي الحلبي وأولاده 1958 .

نزل عنده ضيوف حفاة عراة جياع وهو لا يملك ما يطعمهم أو يسقيهم فجن جنونه لأن العربي (القح) يقري ضيفه مهما كان حالـه من العسر والضيق ، فبلغ بـه جنون الكرم وخشية العار حدّ التفكير بذبح ابنه الوحيد ، ليوفّر طعاماً للضيوف ! ويبـدو أن الابن قرأ معا في رأس أبيـه فنـادى أبـاه دون تردّد : هيـا أبت اذبحني فـذلـك أسهل علينـا من العار .. وبينا هما كذلك شهداً قطيعاً من الظباء الظمأى إلى الماء ، وكان المـاء (كنـايـة عن الصياد) إلى دمها أظمأ !! ولا ينبعي التهوين من شأن الإشارة الرفيعـة (فـأمهلها حتى تروّت عطـاشها) فهي بـؤرة المروءة في الصـورة .. ولا نحبّـذ الاستطراد ، فهـذه اللوحة الكبرى (ميمية الحطيئة) تمتلك تقنيات عالية لضروب الصورة الاثني عشر .

5 ـ الواقعية : ولا نرمي بها المدرسة الواقعية المعروفة لدى نقّـاد الأدب الحـديث ، وإنما الذي نرمي إليه هو أن الشعر الجاهلي عبّر عن الواقع بقدرة فائقـة ، فهو لم يستورد التجارب أو يدّعيها ، وإنما هي تجاربه وحياتـه يعبّر عنهما بشعور صـادق ونظر ثـاقب وخيال واسع ، ولن تجد قصيدة جاهليـة واحـدة استعلت على الواقع وتـأسلبت بوسيلـة لا يفقهها الناس ، على حين أن الشعر الجـاهلي كان بجـدارة شعراً عـالي الشفـافيـة ، كل الجاهليين يستمعون إليه ويفهمونه ويحفظونـه ويردّدونـه ؛ الرجل في الحلقـة ، والمرأة في الخباء ، والصبيان في الباحة ، الكل يسهر معه حول الموقد في ليالي الشتاء ، ويسمر بـه ليالي الصيف المقمرة ، الشاعر معبّر أمين عن عواطف الناس ورغباتهم وأحلامهم ، فضلاً عن أنـه يقبس لغتــه من كـلام النــاس في البيت والـزقـاق والحي والسـوق ، ويصف بتفصيل غريب الحرف والفنون والأندية والغدران والأحيـاء والملابس والبضـائع المحليـة أو المستوردة ، وطقوس الزواج ، أو الطلاق والأعراس والمواليـد ، والموت والمـآتم ، ولن يغفر أي قارئ لأي كاتب في الحياة الجاهلية ووقائعهـا إذا لم يكن الشعر من أهم وثـائقـه المعتمدة !

ورحم الله القائل : « الشعر ديوان العرب » . فهو الجدير قبل سواه بترجمـة حيـاة العرب كما هي ، فالشاعر لم يكن ضيفاً على الأحداث ، بل كان شاهد عين وأذن ، وربما

كان أحد صانعيها فهو المتكلم عن قرب لا عن بعد .. وملحمة جلجاش تمجّد الشاعر : « هو الذي رأى كل شيء .. فغني بذكره يا بلادي » .

الشعراء الجاهليون لم يكتبوا قصائدهم داخل غرف فارهة ، ووراء مكاتب الأبنوس . ولم ينظروا إلى مجتمعاتهم من وراء الزجاج المستورد ، فالمحارب الجاهلي هو الذي يكتب قصيدة الحرب ، والعاشق هو الذي يصنع قصيدة الغزل ، والمفجوع بالميت هو الذي ينجز قصيدة الرثاء ، الشاعر مخلوقٌ وصّاف ، وسبيله إلى الوصف عيناه وأذناه وعقله وقلبه ، كيف كان بإمكاننا الحديث عن مواسم العرب وأسواقها وأحلافها ومعاهداتها وأسفارها وساداتها وصعاليكها وملونيها لو لم يتعهّد الشعر الجاهلي بالحديث المفصّل المؤصّل عنها وبأمانة .

والواقعية الشعرية الجاهلية واقعيتان ، واقعية فنّية تهتم بالدلالات الموحية واللمحات الجمالية وواقعية ذاتية تهتم بقول الحوادث والمشاعر كما هي دون زيادة أو نقصان .. ولسوف ننتقي نصّين للشاعر أوس بن حجر .

الأول يصف فيه السماء ملبّدة بالغيوم والرطوبة والرياح بما يجعلنا موقنين أن المطر قادم بين هنيهة وأخرى !!

أما الثاني ففيه يعترف الشاعر بأنه هرب في المعركة ، وأنه استشعر (الجبن) ، ويحزن لأن (أم الحصين) صاحبته قالت له : أخزيتنا يا أوس . ومن منا اليوم قادر على أن يعترف لحبيبته بفشله أو إحباطه أو حتى لحظات الخوف والجبن التي يستشعرها !!

١- دعِ العجوزينِ لا تسمع لقيلهما	واعمد إلى سيدٍ في الحي جحجاح
كان الشبابُ يلهّينا ويعجبنا	فما وهبنا ولا بعنا بأرباح
إني أرقتُ ولم تأرق معي صاحي	لمستكفٍّ بُعَيْد النومِ لوّاح
قد نمتَ عني وبات البرق يُسهرني	كما استضاء يهوديٌّ بمصباح

يـا من لبرقٍ أبيتُ الليلَ أرقبُـه ... في عـارضٍ كمضيء الصبح لمّـاح

دانٍ مسفٌّ فويق الأرض هيدبُه ... يكادُ يدفعـه من قـام بالراح

كأنّ ريقه لمّا علا شطبا ... أقرابُ أبلق ينفي الخيل رمّاح

هبّت جنوبٌ بأعلاه ومال به ... أعجاز مُزن يسحُّ الماء دلّاح

فالتجّ أعلاه ثم ارتجّ أسفله ... وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح

كأنما بين أعلاه وأسفله ... ريطٌ منشّرةٌ أو ضوء مصباح

ينزعُ جلد الحصى أجش مبترِكٌ ... كأنه فاحصٌ أو لاعبٌ داحي

فمن بنجوته كمن بمحفِلِه ... والمستكنُّ كمن يمشي بقرواح

كأن فيه عشاراً جلةً شُرُفاً ... شُعثاً لهاميمَ قد همّت بإرشاح

هُدْلاً مشافِرها بُحّاً حناجرها ... تُزجي مرابيعها في صحصح ضاحي

٢ـ أجاعلةٌ أمّ الحصينِ خزايةً ... عليّ فراري أن لقيت بني عبس

ورهط بني عمرو وعمرو بن عامر ... وتيماً فجاشت من لقائهم نفسي

كأن جلود النمر جيبت عليهمُ ... إذا جعجعوا بين الإناخة والحبس

لقونا فضمّوا جانبينا بصادق ... من الطعن حشّ النار في الحطب اليبس

ولما دخلنا تحت فيء رماحهم ... خبطتُ بكفّي أطلبُ الأرض باللمس

فأبتُ سليماً لم تمزّق عمامتي ... ولكنهم بالطعن قد خرقوا ترسي

وليس يعاب المرء من (جبن) يومه ... وقد عرفت منه الشجاعة بالأمس[56]

6 ـ الإحساس الحاد بالزمكان : والزمكان حاصل نحت (الزمان ، المكان) ، وذلك إحساس شديد على الرغم من شفافيته ؛ فالزمان ماض وحاضر ومستقبل ، وغالباً ما يكون المستقبل أو الغد سبباً لحيرة الشاعر وخوفه ، فالشاعر الجاهلي لا يحب المجهول قارن زهير :

---

(56) ابن حجر . أوس . ديوانه القصيدة رقم 1 قطعة 5 ، ص 14 وبعدها . والقصيدة رقم 2 قطعة 25 ، ص 51 وبعدها ..

وأعلم مـا في اليوم والأمس قبلـه ... ولكنني عن علم مـا في غـد عمي

وقارن قراد بن الأجدع :

فإن يك صدر هذا اليوم ولّى ... فـإن غـداً لنـاظره قريب

وقارن طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

والجاهلي يخاف الزمن ، ويحسبه عدوّه ، ويسبغ عليه صفات الغدر والخيانة ، وربما نسب إليه كل ما يصيبه من الويلات ، فشتمه وبالغ في تحدّيه أحياناً ، فالزمن هو الدهر والمنية والمجهول وهو كل الأشياء ، جاء في القرآن الكريم : ﴿ وقَالوا ما هِيَ إلاّ حَياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيا وَما يُهْلِكُنا إلاّ الدَّهْرُ ﴾[57] [الجاثية : ٢٤/٤٥] .

وجاء في الحديث الشريف : « لا تسبُّوا الدَّهرَ فإنّ الله ، عزّ وجلّ ، قال : أنا الدّهر ، الأيام والليالي لي ، أجددها وأبليها ، وآتي بملوك بعد ملوك »[58] .

والقصائد الجاهلية تحدد لك الوقت الذي وعب الحركة من نحو :

وقد أغتدي والطير في وكناتها .

إشارة إلى الفجر .

وإذا ما الثريا في السماء تعرّضت

إشارة إلى منتصف الليل ، ونحاول إعطاء دليل سريع لآنات النهار والليل :

☆ **الفجر** (امرؤ القيس) :

وقد أغتدي والطير في وكناتها ... بمنجرد قيد الأوابد هيكل

---

(57) انظر صحيح البخاري (الجاثية) 166/6 .

(58) القشيري . مسلم . صحيح مسلم . رقم الكتاب 40 . انظر باب النّهي عن سبّ الدهر 1762/4 .

(أبو دؤاد الإيادي) :

هـل ترى من ظعـائن بـاكرات كالعــدولي سيرهنّ انقحــام

☆ **الصباح** (عنترة) :

يـا دار عبلـة بـالجـواء تكلّمي وعمي صباحـاً دار عبلـة واسلمي

☆ **الضحى** (المرقش الأكبر) :

أضحت خـلاء نبتهــا ثئــد نـوّر فيهــا زهـوه فــاعتمّ

☆ **الغدوة** (كعب بن سعد الغنوي) :

هوت أمـه مـا يبعث الصبحَ غـاديـا ومـاذا يـؤدّي الليـلُ حين يـؤوب

☆ **الظهيرة** (طرفة) :

إن تنـوّلــه فقــد تمنعــه وتريــه النجم يجري بــالظهر

☆ **القيلولة** (المثقب العبدي) :

علـون ربـاوة وهبطن غيبـاً فلم يرجعن قــائلــة لحين

☆ **العصر** (لبيد) :

فبـات وأسرى القـوم آخر ليلهم ومـا كان وقّـافـاً بـدار معصّر

☆ **العشية** (الأعشى) :

بيضــاء ضحـوتهـا وصفـ راءُ العشيــــة كالعرارة

☆ **الأصيل** (عمرو بن كلثوم) :

وراجعتُ الصبـا واشتقت لمـا رأيت حمولهـا أُصُلاً حُـدينـا

☆ **الغروب** (علقمة) :

فجــالـدتهم حتى اتّقـوك بكبشهم وقـد حـان من شمس النهـار غروب

☆ المساء (ذو الأصبع العدواني) :

يا من لقلب شديد الهمّ محزون أمسى تذكّر ريّا أمّ هارون
أمسى تذكُّرها من بعدما شحطت والدهرُ ذو غلظة حيناً وذو لين
فإن يكن حبُّها أمسى لنا شجناً وأصبح الوأيُ منها لا يواتيني

☆ السَّحَر (امرؤ القيس) :

يعلّ به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر

(المرقش الأكبر) :

بأن بني الوخم ساروا معاً بجيش كضوء نجوم السَّحر

☆ البيتوتة (الشّنفرى) :

تبيت بعيد النوم تهدي غبوقها لجارتها إذا الهديةُ قلّت
فبتنا كأن البيت حجّر فوقنا بريحانةٍ ريحت عشاء وحلّت
مصعلكة لا يقصر السّتر دونها ولا ترتجى للبيت إن لم تبيّت

☆ أيام الأسبوع تبدأ بأوّل وهو الأحد وتنتهي بشيار وهو السبت ! قال الشاعر :

أؤمّل أن أعيش وأن يومي بأوّل أو بأهون أو جبار
أو المردى دبار فإن أفته فمؤنس أو عروبة أو سيار

وقد صنعنا كتابنا الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام ووضعنا فيه تقسيمات الوقت ، فمن أراد الاستزادة فذلك له !

ولا يقل الإحساس بالمكان عن الإحساس بالزمان في الشعر الجاهلي ، فأنت مع المكان في معظم استهلالات القصائد ، وقد بالغ الشعراء في تتبُّع الأزمنة فهي عزيزة عليهم حدّ البكاء .. قارن للمثال السريع :

١ ـ امرؤ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بـ (سقط اللوى) بين (الدخول) فـ (حومل)

فـ (توضح) فـ (المقراة) لم يعف رسمها ... بما نسجتها من جنوب وشمأل

2 ـ عنترة :

وتحل عبلة بـ (الجواء) وأهلنا ... بـ (الحزن) فـ (الصمان) فـ (المتثلّم)

3 ـ زهير :

أمن أمّ أوفى دمنة لم تكلّم ... بـ (حومانة الدراج) فـ (المتثلّم)

4 ـ طرفة :

لخولة أطلال بـ (برقة ثهمد) ... تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

5 ـ لبيد :

عفتِ الديار محلها فمقامها ... بـ (منى) تأبّد (غولها) فـ (رجامها)

6 ـ عمرو بن كلثوم :

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقي خمور (الأندرينا)

7 ـ الحارث بن حلزة :

بعد عهد لها بـ (برقة شما ... ء) فأدنى ديارها (الخلصاء)

فـ (المحياة) فـ (الصفاح) فأعلى ... (ذي فتاق) فـ (عاذب) فـ (الوفاء)

فـ (رياض القطا) فـ (أودية الشر ... بب) فـ (الشعبتان) فـ (الأبلاء)

8 ـ الأعشى :

ما روضة من (رياض الحزن) معشبة ... خضراءَ جاد عليها مُسبِلٌ هطِل

وقد غدوت إلى (الحانوت) يتبعني ... شاو مشلٌّ شلول شلشل شول

9 ـ النابغة :

يا دار مية بـ (العلياء) فـ (السند) أقوت وطال عليها سالف الأبد

10 ـ عبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله (ملحوب) فـ (القطبيات) فـ (الذنوب)

فـ (راكس) فـ (ثعالبات) فـ (ذات فرقين) فـ (القليب)

فـ (عردة) فـ (قفا حبّر) ليس بها منهم عريب

وقد يطيل الشاعر النظر إلى مكان الحبيبة الذي كانت فيه والذي أضحت ، أو حدود القبيلة أو المياه أو الريف أو الصحراء بشكل يؤكّد شدة حساسيته مع المكان .. وينقل لنا الأعشى أسماء البلدان التي زارها ، ليشفى غليله بتذكُّرها ويستحضر صورها في متخيله .. وحذق الأعشى جنّبه المباهاة بأسفاره ، وإنما جعل ابنته وهي شاعرة تبكي أمامه خائفة عليه من كثرة أسفاره وتخشى أن يهلك فتصبح يتيمة :

أرانا إذا أضرتك البلا د نجفى ويقطع عنا الرحم

أفي الطوف خفت عليّ الردى وكم من ردّ أهله لم يرِم

وقد طفتُ للمال آفاقه عمان فحمص فأوريشلم

أتيتُ النجاشيَّ في أرضه وأرضَ النبيط وأرضَ العجم

فنجران فالسّرو من حمير فأيّ مرام له لم أرم

ومن بعد ذاك إلى حضرموت فأوفيت حيناً وحيناً أهم

7 ـ استثمار آليات القصة ، وكثيرة هي القصائد التي تنقل إلينا قصة شائقة تصف لنا وقفة الشاعر وراء الكثبان والأشجار ليراقب بعينين دامعتين حركة قوم الحبيبة ، وهم يجمعون أثاثهم فوق ظهور الإبل ، وقد نووا الرحيل ، وينظر إلى هودج الحبيبة ، وقد ثقّبت قماشه لتنظر إلى محنته وإليه ، ثم يسترجع ذكرياته معها من خلال اصطناع

حوار بينه وبينها ، أو خطاب يزجيه الشاعر لها .. أو استدعاء نهار بعينه أو ليلة بعينها ، ويتجه الشاعر إلى الأسلوب القصصي في شعره بوعيه أو لا وعيه ، لأنه الأسلوب الأقرب إلى نفس الشاعر وجمهوره معاً ، وحياة الشاعر مجموعة قصص تشكل رواية العمر ، وقد لجأ الشعراء أحياناً إلى استثمار آلية الحلم ليعادلوا به (الحلم) خشونة الواقع ، فهم يزورون الحبيبة في الحلم أو تزورهم بمنأى عن أعين الرقباء وشروط الزمان والمكان والأعراف ، فالحبيبة تأتيه كيفما يتمنى ، وقد يصطنع الشاعر حواراً مع المرأة ، يعاتبها وتعاتبه ، على الهجر واللامبالاة ، ويصف الأجواء المحيطة بالحبيبة ، وكأنه في واقع أكيد وليس في حلم هشّ ، وقد كثر الشعر الحلمي حتى تساءلنا في أكثر من مناسبة عن السبب الذي زهّد أصحاب الحماسات به فلم يفردوا له باباً ، أو يعتدوه غرضاً[59] .

قال سويد بن كاهل اليشكري (مخضرم) :

بسطتْ رابعةُ الحبل لنا	فوصلنا الحبل منها ما اتّسع
هيجَ الشوق خيال زائر	من حبيب خفر فيه قدع
شاحط جاز إلى أرحلنا	عصب الغاب طروقاً لم يرع
وكذاك الحب ما أشجعه	يركب الهول ويعصي من وزع
خبلتني ثم لما تشفني	ففؤادي كلَّ أوب ما اجتمع
ودعتني برقاها أنها	تنزل الأعصم من رأس اليفع[60]

وتمتلك القصة الشعرية قوة الأثر الاستثنائي في جمهور الشعر وجمال القصيدة فضلاً عن أنها قادرة على توسيع التخييل ، وترقيق التعبير . امرؤ القيس :

ويا ربّ يوم قد لهوت وليلةٍ	بآنسةٍ كأنها خط تمثال
لطيفة طيّ الكشح غير مفاضة	إذا انفلتت مرتجة غير متفال

(59) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية . الفصل الأول) صورة الحبيبة في الطيف الزائر) ص 29 وبعدها .

(60) المفضليات . ق 40 ، ص 191 وبعدها .

تنـوّرتهـا من أذرعـات وأهلهـا ... بيثرب أدنى دارهـا نظر عـال
نظرت إليهـا والنجـوم كأنهـا ... مصـابيـح رهبـان تشبُّ لقفـال
سمـوت إليهـا بعـدمـا نـام أهلهـا ... سمـوّ حبـاب المـاء حـالاً على حـال
فقـالت سبـاك الله إنـك فـاضحي ... ألستَ ترى السمّـار والنـاس أحـوالي
فقلت يمينَ الله أبرح قـاعـداً ... ولـو قطعـوا رأسي لـديـك وأوصـالي
حلفت لهـا بـالله حلفـةَ فـاجرٍ ... لناموا فما إن من حـديث ولا صـال
فلمـا تنـازعنـا الحـديث وأسمحت ... هصرت بغصن ذي شماريـخ ميـال
وصرنـا إلى الحسنى ورقّ كـلامنـا ... ورُضْت فـذلت صعبـةٌ أيّ إذلال
فـأصبحتُ معشـوقـاً وأصبح بعلهـا ... عليـه القتـام سيّء الظن والبـال
يغـط غطيـط البكر شـدّ خنـاقـه ... ليقتلني والمرء ليس بقتـال
أيقتلني والمشرفي مضـاجعي ... ومسنـونـة زرق كأنيـاب أغـوال
أيقتلني وقـد شغفتُ فـؤادهـا ... كما شغف المهنـوءة الرجـل الطـالي
وبيت عـذارى يـوم دجن ولجتـه ... يطفن بجماء المرافـق مكسـال[61]

.. والأعشى يصف محنة السموءل الذي قتل ابنه أمام عينيه وأعين أهل بيته خارج حصن الأبلق ، حين خيّره الحارث بن ظالم بين أن يسلّم ودائع امرئ القيس أو يقتل ابنه الذي كان في مشوار صيد ، وعاد ليجد باب القلعة مغلقاً ، وجيش الحارث يحيط بالقلعة إحاطة السوار بالمعصم ! ففكّر السموءل وأهل بيته في الخيارين ، وكان القرار هو أن الحفاظ على الأمانة أهم من حياة الابن .. وقد نفّذ الحارث تهديده فقتل الابن البريء أمام أعين والديه ثم مثّل به !!

كن كالسموءل إذ سـار الهمام لـه ... في جحفـل كسـواد الليـل جرار
بـالأبلـق الفرد من تيماء منزلـه ... حصن حصين وجـار غير غـدار
إذ سـامـه خطتي خسف فقـال لـه ... مهما تقلـه فـإني سـامـع حـار

---

(61) امرؤ القيس . ديوانه . ق 2 ، ص 27 وبعدها .

فقــال ثكل وغـــدرٌ أنت بينهما　　فــاختر فمــا فيها خــط لمختــار
فشـــكّ غير قليــل ثم قــال لـــه :　　اذبـح أسيرك إني مــانــع جــاري
وســوف يعقبنيــه إن ظفرت بـــه　　ربٌّ كريمٌ وبيض ذات أطهـــار
لا سرّهن لــدينــا ضــائــع مــذق　　وكاتمــات إذا استــودعن أسراري
فقــال تقــدمــة إذ قــام يقتلــه　　أشرف سموءل فـانظر للـدّم الجاري
أأقتــل ابنــك صبراً أو تجيء بـــه　　طــوعــاً فــأنكر هـــذا أيّ إنكار
فشكّ أوداجــه والصــدر في مضض　　عليــه منطــويــاً كاللــذع بــالنــار
واختــار أدراعـــه أن لا يسبّ بهـــا　　ولم يكن عهــده فيهــا بختــار[62]

ولنـا أن نـذكّر بثلاث لوحـات تتجلى من خـلالهـا القصـة الشعريـة بشكل يعـزّز الاطمئنان إلى هذه الخصيصة .

١ ـ قراءة الشعر الذي قيل في أيام العرب : حروبها ، فهو يتحـدّث عن المشاهـد والاشتبـاكات والغبـار ، والقتلى ، ومنظر الصقـور وهي تقتلـع الحـواجب والعيـون ، والضباع وهي تقوم بحركات شنيعة مع الرجال المقتولين الـذين انتفخت أجسامهم تحت الشمس ، ومنظر النساء المقاليت اللواتي لا يعيش لهن طفل وهن يؤدين طقوساً سحرية مع الميت ..

2 ـ قراءة الشعر الـذي يصـور الرحلـة ، ومشـاهـد القتـال التي تحـدثنـا عنهـا بين الحيـوانـات مرة ، وبين الحيـوانـات والإنســان ، فمــا أقسى منظر البقرة وهي ترى إلى الضباع تفترس ابنها أمام ناظرها ، فإذا انصرفت الضباع عادت لتشمّ مـا تبقى من دمـه وأشلائـه فكأنهـا أم رؤوم وليست بقرة ، وقـد مرّ بنـا صور ثور الـوحش وهـو يـواجـه مصيره في دراما مثيرة أبطالها الصياد وكلابه من جهة والثور من جهة أخرى .

---

(62) ديوان الأعشى . ق 25 ، ص 229 وبعدها . وانظر مبحث الحكايـة في شعر الأعشى بكتـابنـا : الصورة الفنية معياراً نقدياً ص 275 وبعدها .

3 ـ لوحة لقاء الحبيب بحبيبته وما يكتنف ذلك اللقاء من المخاطر والمباهج .

8 ـ أثر البيئة والنشأة والطبقة في شعر الشاعر : ومن خلال الشعر نستطيع تمييز شعراء الصحراء من شعراء المدينة ، وشعراء الريف من شعراء الثغور ، الشعراء الصحراويون يستعملون إيقاعات صاخبة وكلمات خشنة ، وصوراً تشاكل قسوة الصحراء ؛ ليل بهيم ، ذئاب تعوي ، أفاع تفح ، سماء صافية مطرّزة بالنجوم !

شعراء المدينة ذوو إيقاعات هادئة رتيبة ، وكلمات هينة لينة ، وصور تحاكي نعيمهم ورقيهم ، فتصف النوادي وبيوت اللهو والأسواق ، ودور العبادات ، حضارة الشعر صورة لحضارة المجتمع ، والشعر الجاهلي يصف بصبر جميل مفردات الحضارة عهد ذاك أدورد ثايلر : « الحضارة هي الكلّ المعقد من الرغبات ، والرهبات ، والعقائد ، والطقوس ، والمواسم ، والفنون ، والحرف ، والتجارة ، والزراعة ، والرّعي ، وتقاليد الناس ، ومشاعر التقديس ، والتدنيس » .

وهذه الأمور عبّر عنها الشعر الجاهلي بفنّيه جلية ، فهو ، الشعر ، نتاج البيئة يؤثر فيها ويتأثر بها ..

9 ـ وضوح المعاني ودقة التعابير : الشاعر لا يتنطّع وإنما هو مشغول بالتعبير عن همومه المعنوية والجمالية ، ومن ثم التأثير في جمهوره الذي ينتظره بفارغ الصبر ، ويفاخر به جماهير الشعراء الآخرين ، وقد ساعدهم في ذلك صدقهم الفنّي ، والشاعر معني بالفكرة العامة ، والحقيقة الأمّ ، والحدث المركز ، فيبذل جهده للتعبير عن خلجاته ، وربما سهّل الأمر على الجمهور ، والشعراء معاً اشتراكهما في مرجعية واحدة ، فالمعاني مشتركة بين الشعراء ، وكل شاعر يحاول تطوير أدواته في التناول ويؤول ذلك د . شوقي ضيف لنفهم أن هذه النزعة في الشعر الجاهلي جعلته لا يحلّل خواطره ولا عواطفه إزاء ما يتحدّث عنه من حبّ أو غير حبّ ، فهو لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ، ولا في أعماق الأشياء الحسّيّة ، وتتضح هذه النزعة في خياله وتشبيهاته

للمرأة ، فهو يشبهها بالشمس والبدر ، والبيضة ، والدرة ، والدمية ، والرمح ، والسيف ، والغمام ، والبقرة ، والظبية . وشبّه أسنانها بالأقحوان ، وبنانها بالعنم ، وثغرها بالبلور ، وخدها وترائبها بالمرآة ، وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ، ووجهها بالدينار ورائحتها بالمسك والأترجة ، وريقها بالخمر والعسل ، وعينها بعين البقرة والغزال ، وعجزها بالكثيب ، وساقها بالبردية[63] .

وهذه الصور وغيرها مألوفة لدى الجمهور والشعراء معاً ، وكذلك اللغة التي يكتب بها الشاعر قصيدته هي لغة قريش الشائعة في المدن والأسواق والمجالس ، والشاعر الفحل هو الذي لا يعاضل في تعبيراته ، ولا يتشادق في إنشاده ، ولا يتفيهق في معلوماته وخبرته مع قدرة متميزة في تخليق جاذبية سحرية لتعبيراته تستحوذ على عواطف الناس وإعجابهم .

10 ـ الجدل الحاذق بين الذاتية والغيرية ، فالشاعر الجاهلي أساساً إنسان ذاتي يعشق نفسه ، ويرى قدره فوق مقامات الآخرين ! فهو المعشوق الذي تتنافس على حبّه عذراوات القبيلة أو الحي ، والمحبوب المهيوب بين الفتيان ، والمرهوب عند الفرسان . قوله القول ، وفعله الفعل . فإذا هجا جرّد خصمه من الفضائل ، وإذا فخر نسب كل الفضائل إلى نفسه ، وغالباً ما يصور نفسه وشعره محور الكون ، بيد أن الشاعر أيضاً إنسان (غيري) فإذا احتاج قومه إليه تخلى عن ذاتيته وأقبل إليهم عارضاً شعره ونفسه ، وقد يتماهى الأنا والنحن في القصيدة الواحدة ، فلا ندري أيفخر الشاعر بنفسه أم بقومه ؟!

والجواب : إن الشاعر الجاهلي ـ أحياناً ـ لا يرى مسافة بينه وبين قومه ، وربما تهيأ له أنه سفير قومه ، والمعبّر الوحيد عنهم ! وهذه خصيصة مهمة في الشعر الجاهلي ، وحتى في أعمق أعماق ذاتية الشاعر نجده ممجداً بشكل غير مباشر ، قيم قومه ، ومثلهم

---

(63) العصر الجاهلي . ص 221 .

مفكّراً بعقليتهم ، وإن استعمل ضمير المتكلم ، ومن هنا فأنت مع غنائية الشاعر الجاهلي .. هذه (الغنائية) لا تعمي عينية عن (الموضوعية) والذوبان في الجماعة ، وشأن الشاعر في قومه شأن بيت الشعر المفرد داخل القصيدة ، فكل منهما (بيت الشّعر / الشاعر) مكتف بذاته ، وكل منهما جزء من كلّ ! البيت جزء من القصيدة ، والشاعر جزء من القبيلة ، قارن دريد بن الصّمة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا النُّصح إلا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى ... غوايتهم وأنني غير مهتدي
وهل أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد[64]

وقد يخفي الشاعر عواطفه ومشاعره حتى لا يحزن الصديق ويشمت المبغض ، فالشاعر معلم على نحو ما .. وهو قدوة .. في قوته وضعفه .. أبو ذؤيب الهذلي

حتى كأني للحوادث مروة ... بصفا المشرّق كل يوم تقرع
وتجلدي للشامتين أُريهمُ ... أني لريب الدهر لا أتضعضع
والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع
ولئن بهم فجع الزمان وريبُه ... إني بأهل مودّتي لمفجَّع[65]

---

(64) ديوان دريد بن الصّمة . ق 15 . ص 47 .

(65) المفضّليات . رقم 126 . ص 422 وبعدها .



الأطروحة الثالثة

النثر الفني الجاهلي

مقدمة : مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي .

تمهيد : أوراق النثر الفني .

أضرب النثر الفني

أولاً ـ الخطابة .

ثانياً ـ الأمثال .

ثالثاً ـ سجع الكهّان .

رابعاً ـ المنافرة .

خامساً ـ الحكاية .

سادساً ـ الوصايا .

سابعاً ـ المعاهدات والأحلاف .

ثامناً ـ الرسائل .

تاسعاً ـ الوصف .

خصائص النثر الفنّي الجاهلي .

مقدّمة

(مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي)

الشعر والنّثر الفنّي الجاهليان ، توأمان وُلِدا ملتصقين ثم نضجا كلٌّ منهما متمتّعاً بصفاته المورفلوجية والداخلية ، فكان المنطق أن ينفصلا ، فانفصلا ، وبدأا شوطاً من المنافسة لم ينته حتى الآن ، ولم تخمد جذوته .. فحتى يومنا هذا (النصف الأول من 1999) تختلج قنوات الإيصال المسموعة والمرئية بتصريحات كل فريق ، فكتّاب النّثر فرحون هذه الأيام زاعمين أن زمن الشعر قد انتهى ، وبدأ زمان النّثر . والشعراء يبتسمون قائلين لفريق النثر ، أن لا زمان للشعر ولا مكان ، فكل الأزمنة وكل الأمكنة هي قماشة الشعر . وهذه المنافسة الحارّة أضافت الكثير من الجماليات لنصوص كلا الفريقين !!

أما العصر الجاهلي ، فكان شاهداً على ظهور عدد من المبدعين (الشاملين) ، فقد يلقي الشاعر قصيدته ويقطعها بديباجة نثرية تتكفل بتوضيح آفاق الشعر وخباياه ، فكثافة الشعر محتاجة إلى فساحة النثر ، وقد يلقي الخطيب مثلاً خطبته ثم يزوّقها بأبيات شعرية كدأب الإيادي قس بن ساعدة ، وقد مرّ بنا في فصل المعلقات ، الأطروحة الأولى ، أن عبيد بن الأبرص ألقى خطبة فاستقامت قصيدة من مخلع البسيط وروي الباء :

أقفر من أهلـه ملحوب   فالقطبيات فالذنوب

مما ييسّر لنا تسويغ الانفلاتات العروضية التي اعتورت معلقته !! ومرّ بنا أن الحارث بن حلزة وقد ألجأته الإقامة في منازل عمرو بن هند ، الملك الأهوج المتقلّب المزاج ، وقد تأجج الموقف بين قوم الشاعر (المغضوب عليهم) وبين الملك عمرو بن هند الذي بدّد أمواله وجهده ومملكته على حاشية السوء التي تنقل إليه (تقارير السوء عن الناس ، فيوقع فيهم قتلاً وتنكيلاً .. وقد كان الشاعر الحارث بمستوى المحنة ، فارتجل معلقته ليدفع بها الشّر عن قومه ويطفئ نار الحقد في صدر الملك ، يقول التبريزي : « وقام الحارث بن حلزة وهو أحد بني كنانة بن يشكر فارتجل قصيدته ارتجالاً » . ويبدو أن الحارث كان في أشدّ حالات الاستنفار لطاقاته الإبداعية والتخيلية بحيث اتّكأ على قوسه فاخترق طرف القوس راحته وخرج من ظهر كفّه ، وهو لا يشعر بذلك ! يقول التبريزي : « فارتجل قصيدة ارتجالاً وتوكأ على قوسه فزعموا أنه انتظم بها كفه وهو لا يشعر من الغضب » !!

والمعروف أن الارتجال منحى صعب يضيّق الهوة كثيراً بين آليات الشعر وآليات النّثر فضلاً عن استدعائه حالة من التّماهي بين تقنيات كلٍّ منهما !! ولماذا نجري بعيداً ؟ فالدراسات المعمقة توصلت إلى أن حلقة مفقودة بين السَّجْع الجاهلي وفنّ الرجز ، وفقدان هذه الحلقة لم يمنع الدراسات تلك من القول : إنها (الرجز ، السجع) من أرومة واحدة ، حتى ميّزت العرب بين القصيد والرّجز .. بل وتوصّلت دراسات معمقة أخرى إلى أن الرجز ليس شعراً ، وإذا أخذنا بهذا التوصّل (جدلاً) فنحن مضطرون إلى اعتداد الرجز جنساً (مخنثاً) بين الشعر والنثر ، واستعانت تلك الدراسات بمعجمات اللغة التي حددت الرجز مرضاً يصيب عجيزة الناقة أو الجمل !!

وإذا كان المستشرقون الفرنسيون ميّالين إلى أن الشعر أكثر التصاقاً بعواطف البشر من النثر ، وأن الشعر سبق النثر الفني في الظهور ، ثم تابعهم د . طه حسين مستلذّاً بآرائهم فإن ذلك يعني ضرباً من الشعر مختلفاً عن الشعر الذي نضج فيما بعد ، وقرّت له القواعد والحدود . ذلك الشعر الذي بدأ مع الإنسان الأول قبل نضوج النثر الفنّي ، كان

ضرباً من الرقص الإيقاعي والحركات التي تنهد بها الأيـدي والأرجل ، والإشـارات التي ترسمهـا مـلامـح الـوجـه ، والغرغرات والغمغمات المكررة التي تـواقت وتنـاغم الرقص والإشارات ، وإذا صحت هذه الفرضية ، فإن الشعر ذاك .. كان حالة ثالثـة بين اللغـة واللالغة / الشعر والنثر / الإيقاع السمعي والبصري . وهذه الحـالـة تعزّز القول بوحـدة الأرومـة بين الشعر والنثر ، زد على ذلـك حكايـات السِّير التي تـوشّـج بين الشعر والنثر مثل سيرة الزير سالم ، وسيرة عنترة ، وسيرة ليلى العفيفة ، كذلـك الأقـاصيص القصيرة أو الطويلـة حسب المقام ، فهي مضطرة للشعر اضطرارهـا للنثر .. بـل إن ضربـاً من الشعر وصل إلينا بلهجات متعددة وروايات متعددة ، وبخاصة شعر السِّيَر ، والقصص ، والأمثال ، بما يؤثّل في مساحة الدرس العلمي أن (الشفـاهيـة) ليست نظريـة عـاديـة يمكن ردّها بيسر ، كنظرية النحل التي احتفظت تحت أديمها بـأسبـاب قوتهـا وضعفهـا معاً ، كما احتفظت بأسباب حياتهـا وموتهـا !! ولكن الشفـاهيـة هـذه التي حللت النص الإبداعي الجاهلي وأوّلته ؟

(مصطلـح الشفـاهيـة كما تشكّـل لـدى بـاري ولـورد في دراستهما عن الشعر اليوغسلافي ، وقياسهما له على ملحمة الإلياذة ، يعني أنه شعر نمطي (Formulaic) ، والقصيدة الشفاهيـة لا تقوم على نص ثـابت ، وهي نص متغيّر ومتبـدّل على لسـان كل منشد ، وكل منشد يغيّر في كلماتها وجملهـا وفي أبيـاتهـا ، ولـه الزيـادة فيهـا أو الحـذف منها . ويدخل فيها عناصر جديدة ويلقي منها أخر ، مع كل حـالـة إنشـاد . بل ربما غيّر المنشد القصيدة تغييراً كاملاً . ولذا فإن الشعر الشفاهي سائب التكوين ، ويتجـدد إبداع القصيدة على لسان كل منشد ، والمنشد الشفاهي لا يحتـاج إلى حفـظ القصيـدة في ذاكرته . وليس للحفظ مكان لدى الشفاهيين . ومهارة الشفاهي لا تعتمد على ذاكرتـه ، ولكن على إتقانه لمجموعة من الصِّيَغ الهيكلية والنّمطيات القولية ، ومجموعـات من الأسماء والأحـداث ، وتشكّل لـه هـذه إطـاراً شكليّاً يحشوه بما يلائم موقف الإنشـاد . ومن ثم فليس هنـاك إبـداع فردي ، وليس هنـاك نص معين لشـاعر معين !! والنصوص تكوّن

نشاطاً قولياً شفاهياً مشاعاً كممارسة إنشادية دائمة التغيير والتّبدّل . والشفاهي إذن نص نمطي مشاع)[1] .

وقد نشر (J. Monroe) بحثاً معمقاً في مجلة الأدب العربي التي تصدر بالإنجليزية عام 1972 (Oral Compositionin in pre-islamic poetry) أضاء كثيراً من العتمات التي اكتنفت مسيرة الإبداع الجاهلي ، وكشف على نحوما العلاقة الأولى بين السّجع والشعر ، ولنا أن نلخّص أهم فقار هذا البحث .

أ ـ ثمة آصرة بين دلالة شعر ودلالة نثر الكهّان الذي تتفق أواخر كلماته بإيقاعات متشابهة مكرورة تشبه القوافي في الشعر .

ب ـ الموقف الصارم للإسلام من الشعر الجاهلي أدّى إلى اختفاء المنشد الذي يحذق أسرار الإنشاد .

جـ ـ ولبنيات القصيدة قوالب موروثة استعان بها الشعراء لضبط المعاني والإيقاعات والإمساك بتلابيب المتلقّي .. وقد وصلتنا السبائك (القصائد) ولم تصلنا القوالب ، والمنطق العلمي يصرّ على وجود هذه القوالب .

د ـ لهجة قريش ليست اللغة التي كتب فيها الشعراء الجاهليون قصائدهم كما تهيأ لأصحاب نظرية الشّك وخصومهم .. بل ثمة لغة قريبة من تلك اللهجة .. هي اللغة الإبداعية المفهومة لدى العرب كافة ، ولم تأنف هذه اللغة من استعمال مفردات غير قرشية ..

هـ ـ ربّما حوّر المدوّنون المسلمون للشعر الجاهلي كلمة (اللات) واستبدلوها بلفظ الجلالة (الله) .. وذلك أدعى للقبول بسبب من التناظر النغمي بين إيقاعي

---

(1) الغذامي . د : عبد الله . القصيدة والنّص المضاد . ص 11 . طبعة المركز الثقافي العربي . بيروت 1994 . وانظر :
الصكّر . حاتم . مرايا نرسيس . ص 216 . طب المؤسسة الجامعية للدراسات . بيروت 1999 .

الكلمتين .. وبسبب اقتران مفردة اللات بالذهنية الجاهلية ومفردة الله بالذهنية الإسلامية .

و ـ تشكيك التبريزي شارح المعلّقات العشر بالأسماء الجغرافية التي وردت في قصيدة عمرو بن كلثوم !!

ز ـ أخفق أصحاب نظرية الشك في تقويم ظاهرة الشعر الجاهلي النمطي ، كما أخفق أصحاب نظرية اليقين .

ح ـ القصائد المنحولة إنما هي منحولة وثائقياً ، بيد أنها صحيحة نسقياً ، فهي مؤسسة وفق عمود الشعر ، (التقاليد الموروثة) ، وإن ضاعت تلك التقاليد ولبثت آثارها جليّة في القصائد !!

أما نظرية باري ولورد في الشعر الشفاهي فقد كشفت آلياتها لمعرفة نمطين من القوالب :

الأول دلالي ينحصر في المقولات الشائعة المتداولة في العصر الجاهلي مثل ديباجات القصص والحكايات والرسائل والعقود والمعاهدات والأمثال والمناظرات وأسجاع الكهّان وسوى ذلك ، فالأفكار متداولة ومهمة المبدع الشفاهي هي التحوير والتبويب والتلاعب بالألفاظ والسياقات ..

والآخر صياغي ويدخل في إطاره الإيقاع .. فثمة صياغات وقوالب جاهزة متداولة يبني عليها المبدع الشفاهي نصه القديم المتجدد ، وإلا كيف نفسّر طاقات الشعراء الخارقة على الارتجال وطاقات الخطباء والقصّاص والكهّان على الارتجال ! فالنصوص متوارثة ومتداولة ، وربما أشار الشعراء الجاهليون إلى قصائد قديمة نسجوا على منوالها كإشارة امرئ القيس إلى ابن خذام ! ولا يمكن تصوُّر النصوص الشفاهية بمعزل عن الغناء والإنشاد .. وتنفعنا في ذلك الإشارات إلى أن المبدعين القدماء ..

ناثرين وشعراء .. كانوا يستعملون العصا أو الرمح أو السيف أو القوس خلال الإلقاء ، وما كان ذلك ليكون لو لم تكن لهذه الأدوات وظيفة مسطرة المايسترو ، وهو يقود الآلات والمنشدين إلى حالة من التناغم بين الوقت والعزف . حتى قيل : إن المبدع العربي كان يحجم عن الإنشاد إذا لم تكن بيده عصا أو قناة .. وربما أسهمت الربابة والبربط والدفوف في ضبط إيقاعات القصائد ، أو الخطب ، أو الحكايات[2] .

فلا غرابة إذن من أن يكون الشاعر خطيباً ، والقاصّ شاعراً مثلاً ، فالمعاني كما يقول الجاحظ مبذولة للقاصي والدّاني وإنما العبرة بالنظم .. والنظم إن هو إلا القوالب المتداولة ، وقد يمتاز مبدع عن آخر بأسلوبه الخاص في استثمار تلك القوالب والتفنُّن في صياغة السبائك وتزويقها .. وإنما تكرّس الشعر في الذائقة العربية القبسلامية ؛ لأن الطبيعتين كانتا مسوّغ التكريس ، فطبيعة العربي مجبولة على عشق الكلمة الجميلة الموسقة ذات المنهج العجائبي ، وطبيعة الشعر التي تموسق العواطف ، وتكثف العبارات ، وتوجّج الإشارات ، فالتقت الطبيعتان ليكون الشعر ديوان العرب ، أي الدفتر الذي ضمّ بين دفتيه جلّ مفردات الحضارة عهد ذاك ، وذلك لا يعني إطلاقاً .. أن النثر الفني ليس ديوانَ العرب ، فهو الآخر ديوان العرب ، بيد أن النثر الفني عصيٌّ على الحفظ والتذكّر ، سهل التبدد والضياع . أما الشعر فهو سهل الحفظ والتذكر وفرص ضياعه نادرة . وهنا يكمن مأزق النثر الفني القبسلامي ، وكتب تاريخ الأدب تنبئنا أن جمهور النثر الفني لم يكن بأقل من جمهور الشعر كماً ونوعاً .. ولنا أن نتذكر كيف كان الجمهور العريض يتحلّق حول قس بن ساعدة الإيادي وهو يلقي خطبه التأملية ، ونتذكر كيف كان الجمهور الواسع يتحلّق في الأسواق حول عبيد بن شرية الجرهمي ، وهو يروي بأسلوب خلّاب حكايات الأمم الغابرة .. مثل عاد وثمود ، وروايات زرقاء اليمامة وابنة الساطرون .. بل ينبغي أن نتذكّر هنا جمهور المنافرة التي

---

(2) J. Monroe. Oral Composition in pre-islamic Poetry. Journal of Arabic literature. Vol. III 1972. Brill-Leiden.

شبّت بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة ، فقد نصبت الجماهير خيامها على عدوة فرس حول بيت هرم بن سنان .. بانتظار إصدار الحكم .

ومن المؤسف حقاً ، أن يتجنب المعنيون بالأدب القبسلامي الخوض في تفاصيل النثر الفني ، ناسين أن صورة الإبداع تبدو ناقصة تماماً حين نلتفت إلى الشعر ونشيح نظرنا عن النثر ، حتى إننا وزعنا استبيانات على طلبة الجامعات (أقسام اللغة العربية) في العراق والأردن واليمن وليبيا وتونس والمغرب ، فأحالتنا الإجابات على أن أساتذة الأدب الجاهلي يكرسون 75٪ من ساعات الأدب الجاهلي و 25٪ للنثر الفني الجاهلي ، وأطرف الإجابات وردتنا من (بعض الطلبة) جاء فيها .

(انتهت السنة الدراسية ونحن ندرس الشعر الجاهلي فسألنا الأستاذ ومتى ندرس النثر الجاهلي ، فبهت الأستاذ ، وفهمنا أنه نسي النثر .. وقد فات الأوان) إننا نتمنى على زملائنا أساتذة الدراسات العليا في أقسام اللغة العربية تشجيع الطلبة على دراسة النثر الفني الجاهلي ، فهو قارة واسعة وخصبة ومغدقة ، فالنثر يقول أشياء مهمة كثيرة لا يستطيع الشعر قولها . وها نحن أولاء نلخص أسباب السبق التي تحصّل عليها الشعر دون النثر .

1 ـ العرب أمة الشعر ، فهو ديوانها الذي أودعته جل رغباتها ورهباتها ولم يكن النثر سوى حلقات ربط بين الشعر والشعر ، وسوى ذلك فإنه يقال في حينه ، ولا يعلق منه في الذاكرة شيء يذكر !

2 ـ طبيعتا الشعر والنثر ، الشعر بما يمتلك من إيقاعات ومشوقات وإيماءات وجماليات يقرُّ في الذاكرة دون عناء ، أما النثر فإن طبيعته التي تغري بالإطناب المملّ (أحياناً) والإيجاز المخل ، ونأيه عن الإيقاعات المأنوسة وجماليات الشعر وإغراءاته مما أسهم في إقصائه عن الذاكرة ومراكز الاهتمام !!

3 ـ ندرة العناصر التي تتقن القراءة والكتابة في العصر الجاهلي ، فكان المعوّل الرئيس على الذاكرة ، والذاكرة البشرية أقدر على حفظ الشعر من النثر فضلاً عن أن الرواة كانوا يلبّون الحاجة الاجتماعية ويمالئون ذائقة الأكثرية ، لأسباب تتصل بالنجومية والوجاهة والارتزاق .. ويبدو أن حاجة الأميّين للشعر أكثر بكثير من حاجة أولئك الذين يقرؤون ويكتبون .. وما زال الأمر حتى يومنا هذا .. فجمهور الشعر جمهور كمي وجمهور النثر جمهور نوعي ، وإذا أراد الجاهلي استثمار القلة من الكتبة ، فهو يستثمرهم في كتابة الشعر ، يقول أبو حاتم الرازي :

١ ـ كان عند آل المنذر ديوان فيه شعر الشعراء الفحول وما مدح به النعمان وآل بيته ، فصار ذلك إلى بني مروان .

ب ـ كانت الشعراء في الجاهلية بمنزلة الأنبياء في الأمم[3] .

4 ـ قال ابن رشيق :

أ ـ وقد اجتمع الناس على أن المنثور في كلامهم (العرب) أكثر ، وأقل جيداً محفوظاً وأن الشعر أقل وأكثر جيداً محفوظاً ، لأن في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيد المنثور ، وكان الكلام كله منثوراً فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها وذكر أيامها الصالحة وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهتزّ أنفسها إلى الكرم ، وتدلّ أبناءها على حسن الشّيم ، فتوهموا أعاريض ، جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً ؛ لأنهم شعروا به . أي فطنوا . وقيل : ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره .

ب ـ ومن فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الملك باسمه ، وينسبه إلى أمه ويخاطبه

---

(3) الرازي . أبو حاتم . أحمد بن حمدان ت 322 . كتاب الزينة ص 96 ، وثم 105 . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1994 .

بالكاف كما يخاطب أقل السوقة فلا ينكر ذلك عليه ، بل يراه أوكد في المدح وأعظم اشتهاراً للممدوح . والكاتب (الناثر) لا يفعل ذلك إلا أن يفعله منظوماً غير منثور ، وهذه مزية ظاهرة وفضل بيّن .

جـ ـ ومن فضائله (الشعر) أن الكذب الذي اجتمع الناس على قبحه حسن فيه ، وحسبك ما حسّن الكذب واغتفر له قبحه .

د ـ وقيل ليس لأحد من الناس أن يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة إلا أن يكون شاعراً .

هـ ـ إن كعب الأحبار قال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقد ذكر الشعر : يا كعب ، هل تجد للشعراء ذكراً في التوراة ؟ فقال كعب : أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل ، أناجيلهم في صدورهم ، ينطقون بالحكمة ويضربون الأمثال ، لا نعلمهم إلا العرب[4] .

5 ـ التصاق هموم النثر بالأمور العابرة والمشاغل اليومية بما يقرنه بالمناسبات ، فإذا دال أثر المناسبة زال أثر النثر ، أما الشعر فكانت موضوعاته في أغلبها تدور حول المرأة والمشاعر الذاتية بما يجعل أثره مستمراً ، والشعر يأنس للذات بينا يأنس النثر للموضوع !!

6 ـ يرى طه حسين أن الشعر أسبق ميلاداً من النثر الفنّي ؛ لأن الشعر لغة الإحساس والمشاعر البدائية والإشارة والإيقاع والرقص . والنثر لغة الشعور والعقل والرتابة والنضج ، والإنسان أول عهده مخلوق حسّي يفهم الحياة من جهة حواسه الخمس ، ورغباته المكبوتة ! أما نضج الإنسان فهو مرحلة لاحقة ، ولهذا فإن التعلّق بالشعر أدخل في الفطرة والطبيعة من التعلّق بالنثر .

---

(4) القيرواني . أبو علي الحسن بن رشيق 456 . العمدة في محاسن الشعراء وآدابه ونقده 20/1 وبعدها إلى ص 25 . طب دار الجيل ـ بيروت . طبعة رابعة 1972 .

☆ لقد ذكر في مبتدأ (مأزق الخطاب النثري الفني القبسلامي) وجهة نظرنـا التي تهيـأ لنـا مقـاربتهـا للمنطق العلمي ، ثم ذكرنـا غب ذلـك ست نقـاط مثلت مسوّغـات الشارع الثقافي قديماً وحديثاً لنصرة الشعر على النثر ، والشارع الثقافي دائمـاً يجري خلف المألوف والسائد ومن العسير عليه تغيير ثوابته وقناعتـه ، فـاقتضى النصف العلمي ، ذكر أطروحات الفريقين .. الشعر والنثر !!

تمهيد

(أوراق النثر الفنّي)

اعتمد الإبداع الجاهلي الموهبة سبيلاً لتجلياته ، والدّربة مختبراً لجماليات الصياغتين الدلالية والجمالية ، بما أثّل لدينا أن هذا الإبداع الباذخ كان ثمرة الطبيعة والعاطفة قبل أن يكون ثمرة التكنيك والعقل ، وكانت الشعرية (بؤرة الجمال الموثر والمتأثر في النص) هاجس المبدع ، فلم يدر بخلد المبدع (الشعبي) التأثير في جمهوره العريض بالأفكار والقيم ، وإنما الذي حصل هو أن جماليات النص كانت سبيل المنتج الجاهلي إلى التأثير ، والمعضلة العلمية هي أن النقد الجاهلي لم يرق إلى مدارج السموق التي بلغها الإبداع ، فالناقد كان ملحقاً بحاشية الشاعر ، وربما ارتضى الناقد بوظيفة الراوي أو الصحيب أو النديم ، فإذا قيل لنا : ألم يكن الشعراء ملحقين بحاشية النابغة الذبياني (الناقد) في سوق عكاظ مثلاً ؟ فإن الجواب يسير ، هو أن النابغة كان شاعراً ، وإنما احتكم إليه الشعراء لنبوغه وافتراض المروءة فيه ، والنابغة الشاعر الذي ارتدى قناع الناقد في مواسم عكاظ ومجنّة لم يسلم من ثورات الشعراء على أحكامه ، فقد ناكفه حسان بن ثابت ، وأوّل نقده لقصيدته (لنا الجفنات الغرّ يبرقن في الضحى) قائم على الحسد بين الشعراء ، فردّ عليه النابغة بهدوئه المعهود : ولكنك يا ابن أخي لا تستطيع أن تقول مثلي : (وإنك كالليل الذي هو مدركي) . أما الخنساء فقد أغضبها تقويم النابغة لمنزلتها الشعرية فشاكسته وقالت له : (بل أنا أشعر منك ومن أبيك وجدك) إذن النابغة كان في حكومة عكاظ : شاعراً يقول رأيه في زملائه .

الحصيلة : ليس ثمّة نقد موضوعي في العصر الجاهلي ، ولم تتشكّل أي نظرية أدبية عهد ذاك ، سوى نظريات مهلهلة بسيطة من نحو الشعر المصنوع والشعر المطبوع ،

والسرقات الشعرية ، والألفاظ والمعاني ، والتوافق بين المشبه والمشبه به ، وتطابق الوصف .. أما التنظير فهي مرحلة لم يألفها العصر الجاهلي !! الجاهليون يعرفون أشياء كثيرة ، ولكنهم لم ينظروا أو يقعّدوا !! نعم كانوا يميزون بين القصيد والرجز ويميزون الإقواء والإيطاء ويعرفون المسافة بين الشعر والنثر .

أما نظرية الأجناس ، فلم تكن معروفة عهد ذاك ، وفق أبعادها المعروفة الآن ، كانوا يقولون أن هناك فنين هما فن الشعر وفن النثر ، وهم بذلك لم يبلغوا في التجنيس شأوَ اليونانيين[5] وربّما وضحت الفروق بشكل أدق في العصر العباسي فوضع عدد من نياقدة الأدب حدوداً بين الشعر والنثر بما يقرّب تلك الحدود من طبيعة التجنيس فانبرى سهل بن هارون (ت 215 هـ) والجاحظ (ت 255 هـ) ، وابن أبي عون (ت 322 هـ) ، والفارابي (ت 239 هـ) والسجستاني (ت 380 هـ) وابن هند الكاتب (ت 420 هـ) والتوحيدي (ت 421 هـ) وابن الأثير (ت 637 هـ) ، والحاتمي (ت 388 هـ) وعبد الكريم النهشلي (ت 403 هـ) والمرزوقي (ت 421 هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) وأبو القاسم الكلاعي (ت 543 هـ) ، انبرى هؤلاء وسواهم لدراسة الشعر والنثر والنظر في أوجه الائتلاف والاختلاف بينهما . واستمرت جهود النياقدة العرب في تأصيل نوعي الشعر والنثر حتى بعد سقوط الدولة العباسية عام (656 هـ) فتصدّى ابن خلدون لهذه الإشكالية ففصل فصلاً تاماً بين الشعر والنثر[6] ولم تسلم فكرة التجنيس من الخلط واللبس حتى وقتنا هذا فثمة جنس (genre) ونوع (Kind) ونمط (type) وشكل (Form) فأيّ من هذه المصطلحات يمثل الأصل وأي منها يمثل الفرع ، هل الجنس أكبر من النوع ؟ أو النوع أكبر من الجنس ؟

(5) البقاعي . د . شفيق . الأنواع الأدبية ص 255 وبعدها طب مؤسسة عز الدين - بيروت 1985 .

(6) الجوزو . د . مصطفى . نظريات الشعر عند العرب الجاهلية والعصور الإسلامية طب دار الطليعة . بيروت 1981 وقد أفرد الأستاذ الجوزو الفصل الثاني لرصد (التفريق بين الشعر والنثر) وتلبث تلبّث العالم عند آراء جمهرة من نياقدة الأدب وهم يجهدون لمعرفة الحدود بين الشعر والنثر .

يقول د . حاتم الصكَر : « لكننا نميل إلى التسلسل الآنف لكون الشعر جنساً قسيماً للنثر في أصلهما الأدبي ، ثم انقســام الشعر إلى أنــواع بحسب المهيمنــة المــوضــوعيــة والأسلوبية » .

ثم يقسم الصكَر الأدب جنسين هما النثر والشعر (انظر المشجرة ص 22) . ويفرِّع من هـذين الجنسين أنواعـاً متمايزة[7] ، ويقول (فـان تيغم) : « ويمكننـا أن نطلق على دراسة الأنواع الأدبية لفظة ـ جنولوجيا ـ أما دراستنـا لهـذه الأنواع فستتنـاول الأنواع النثريـة ، الأنواع الشعريـة ، الأنـواع المسرحيـة ، ثم فن القريض الـذي يشكل وحـده موضوعاً قائماً بذاته ، وسنعالج أخيراً الاقتباسـات في الأسلوب ولم يكن للأنواع النثريـة وحتى في أوج أيام الكلاسيكيـة مكانـة الأنواع الشعريـة وأهميتهـا ، ولم يكن لبعضهـا ، ولا سيما المقدسة منها قديماً وللوهلة الأولى أي تأثيرات عالميـة . جـد واضحـة ومع ذلـك فإنها جديرة بالدراسة والبحث شأن التاريخ (الإيلوكانس) وهو من الأنواع القـديمـة ، المحاورة أو (الديالوج) ، وهو نوع خاص بشرح الأفكار أو مناقشتهـا . وفي هـذا النوع سار مقلدو أفلاطون ولوسيان المحدثون على نهج بعضهم ، ثم (المحـاولـة) أو النوع الـذي ابتكره (مونتينيه) والذي نعلم القيمة التي كانت له في إنجلترة .. وهذه التأثيرات العالميـة تظهر في بعض الأنواع النثريـة الأخرى بسهولـة ووضـوح ... إن القـول بـالنـوع الأدبي يعني بعث صدى ضئيل بين جميع القراء الـذين لا يعلمون من الأدب إلا الأدب القـائم ، والذين لا يثير فيهم الأدب القـديم إلا ذكريـات الصفوف والكتب المـدرسيـة المضجرة ، وحتى النُّقاد فإنهم لا يستعملون تعبير النوع الأدبي إلا في الحالات الشاذة النادرة ، وحتى الـذين لا يعيشـون إلا في الأدب الحــالي ، فــإن تعـداد الأنـواع الأدبيــة لا يثير فيهم إلا سلسلــة من الأشبــاح ، وإن عرض تــاريـخ الأدب القــديم ابتــداء من التمييز بين الأنواع ، يعني التَّعرُّض لانتقادات شديدة . وما زالت فرنسة تعاني ألم الذكرى السيئة ،

---

(7) الصكَر . د . حـاتم . مرايـا نرسيس ص 20 وبعـدهـا . طب المؤسسة الجـامعيـة للـدراسـات . بيروت . 1999

ذكرى نظرية (برونيتيير) في تطور الأنواع ، تلك النظرية القائمة على قاعدة نظامية ، المطلقة والمبنية على وحدة ذاتية يشوبها التمويه ، قائمة بين الأنواع الأدبية والأنواع أو الأجناس البشرية . كما وإن إظهار فائدة نوع أدبي معين بدراسته دراسة تاريخية وبتحديد تحويلاته يعني الابتعاد عن (برونتيير) ، وهذا ما حمل بعض النقاد في إيطالية وألمانية ألا يروى في الأدب إلا عدداً من الطاقات والمواهب الشخصية التي تعبّر عن ذاتها بحرّية مطلقة ..)[8] . ويوضّح د . عبده عبود إشكاليات التجنيس ضمن سياقي التاريخ وحدود المصطلح ، فيقول :

« ومن الظواهر الأدبية التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتلقي المنتج الأجناس الأدبية ، تلك الأشكال الأدبية الثابتة نسبياً ، التي تظهر بداية في أدب قومي ما ؛ ثم ما تلبث أن تنتقل إلى الآداب القومية الأخرى وتنتشر فيها بمساعدة التّلقي المنتج المؤدي إلى تأثر إبداعي .. إن علماء الأدب يميزون بين ثلاثة أجناس أدبية أساسية هي : الأدب الملحمي أو السّردي والأدب الدّرامي أو المسرحي والشعر الغنائي . وهم يقسمون كلاًّ من هذه الأجناس الأساسية إلى أجناس أدبية فرعية .

ففي الأدب الملحمي أو السردي كما أصبحنا نقول حديثاً ، نجد الملحمة الشعرية القديمة والرواية والأقصوصة والقصة القصيرة ، ومن الأجناس الفرعية في الأدب المسرحي : المأساة والملهاة والدراما والمسرحية الغنائية والمسرحية الشعرية والمونودراما ..

والشعر الغنائي ينقسم بدوره إلى أجناس فرعية متعددة وفقاً لشكله الفني أو أغراضه كشعر الغزل والهجاء والمدح والقصة الشعرية ، ومسألة الأجناس مسألة على درجة كبيرة من الأهمية في الأدب العربي . فهذا الأدب لم يشهد حتى أواسط القرن (19) ظهور أجناس أساسية كالأدب المسرحي بأجناسه الفرعية كافة والأجناس

---

(8) تيغم . ب . فان . الأدب المقارن ص 64 ـ 67 . تعريب سامي الحسامي . طب المكتبة العصرية ـ بيروت (د : ت) !!

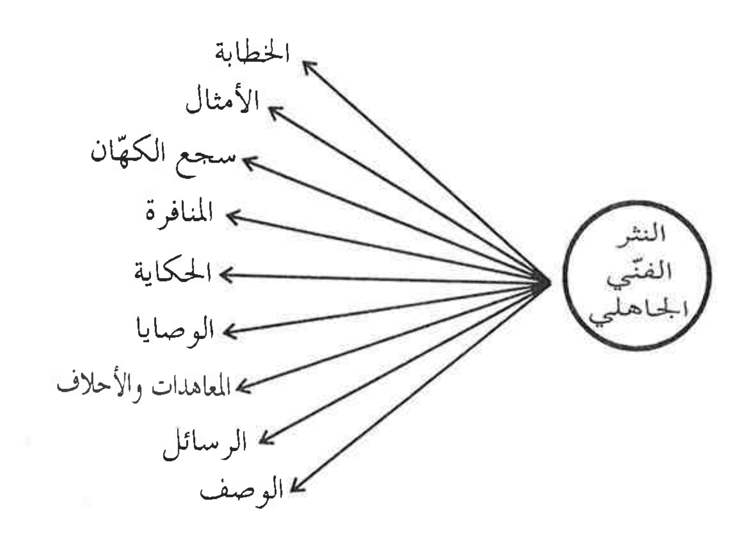
السردية المتطورة عن رواية ، وقصة قصيرة ، وأقصوصة . ولم يعرف الأدب العربي الأجناس الدرامية أو المسرحية لأسباب تاريخية حضارية معروفة ، وإن كان التراث الشعبي قد سجل نشوء بعض الظواهر المسرحية كالأراجوز وخيال الظل ، إلا أنه لم يسجل ظهور أدب مسرحي في شكله المتطور الذي عرفته الثقافات والآداب الأوربية ! ولعل إحجام العرب عن استقبال المسرح اليوناني القديم إبان العصر الذهبي الأول لحركة الترجمة دليل قاطع على أن نشاطات الاستقبال الإبداعي تخضع لحاجات الثقافة المستقبلة في الدرجة الأولى ، أما على صعيد الأجناس القصصية أو السردية فقد شهد الأدب العربي القديم ظهور فنّ المقامة فيه ، وهو شكل جنيني من أشكال القصة القصيرة .. ومن ظواهر الأدب السردي التي ظهرت عند العرب في وقت مبكر قصص الحيوان والملاحم الشعبية والحكايات الشعبية وقصص ألف ليلة وليلة .. »[9] .

لقد اقتبسنا أعلاه عدداً من الآراء لعلها تبلّ ظمأنا لتجنيس الأدب العربي وبخاصة الأدب الجاهلي ، فلم نعثر على جهد مكرّس لدراسة هذه المعضلة العلمية ، أيمكن القول أن الإبداع الجاهلي كان معوّقاً أو مخنّثاً ؟ ويبدو أن المعضلة ستستمر ، فالنُّقاد العرب لم يتفقوا بعد على دلالات صارمة ومحددة لمقولات الجنس والنوع في أدبنا الحديث فكيف يتفقون على دلالات (صارمة ومحددة) تتصل بدائرة الإبداع الجاهلي (إن الوعي بهذه الأجناس على مستوى النقاد العرب والقراء العرب والكتاب العرب لم يبلغ بعد درجة مرضية وكافية للإقدام على تحديث هذه الأجناس ، فالنقاد العرب المعاصرون لم يستطيعوا بعد ترسيخ مفاهيمها ، ومحاولاتهم في هذا الاتجاه ما زالت محاولات مدرسية بسيطة متواضعة : محمد مندور ، عز الدين إسماعيل ، خلدون شمعة ، بالإضافة إلى محاولات كل من الأستاذين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم وما يجمع بين هذه المحاولات خلا الشمعة هو إصرارها على نعت الجنس الأدبي بالفن الأدبي الأمر الذي أدى

---

(9) عبود . د . عبدة . الأدب المقارن / مدخل نظري ودراسات تطبيقية ص 227 وبعدها . طب مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية . سورية 1992 .

إلى زعزعة مفهوم الجنس الأدبي في ذهن القارئ)[10] ، وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك من الخلط بين مفهومات الجنس والنوع والفرع لدى النُّقاد الأجانب بله النُّقاد العرب . فضلاً عن متاهات الأدب الجاهلي في مفازات التجنيس ولسوف نركّز على جنس الشعر والنثر ، وقد مرَّ بنا جنس الشعر في الأطروحة الأولى ، لنتفرع في الأطروحة الثانية إلى جنس النثر وفروعه ! وينبغي التركيز على مصطلح النثر الفنّي (artistic prose) حتى نحترز عن إدخال النثر غير الفني الذي لا ينضوي تحت سقيفة الإبداع !! والنثر الفني جنس (genre) يحيلنا إلى تسعة أنواع (kindes) وفق الآتي :



(10) اصطيف . عبد النبي . نظرة في تحديث الأجناس الأدبية ص 36 وبعدها . مجلة الناقد ـ لندن ـ العدد الثامن ـ شباط فبراير 1989 السنة الأولى .

1 ـ الخطابة :

وهي أمّ الفنون النثرية الجاهلية ، فقد ولـدت وحضنت فنونـاً نثريـة عـديـدة من نحو الأمثال والمناظرات والوصايا ... إلخ .

وتستند الخطابة إلى خصائص مهمة تبتغي وفرتها في الخطيب وخطابه نذكر منها :

1 ـ الموهبة ، والاستعداد الفطري ، ومن ذلـك ذكاء الخطيب ، وسرعـة بـديهتـه ؛ حتى يفهم المساحة التي تؤثّر في خطابه وتتأثر به ، والجمهور الذي يخـاطبـه ، والمنـاسبـة التي تطلبت خطابه ، وحضور البديهة شيء من الذكاء ، بيد أن لها وظيفـة متميزة تنقـذ الخطيب من المواقف غير المتوقّعـة ، ومشـاكسـات الجمهور كـلاًّ أو بعضـاً ، واعتراضـات الزعماء والنابهين على فقار وردت في الخطاب ..

2 ـ قدرة الخطيب على شدّ انتباه جمهور الخطابة (الصعب) إلى موضوعـه ، ولكل خطيب وسيلته الخاصة المبتكرة في تحشيد الانتباه لصالح موضوعه ، فضلاً عن التقاليـد الناجزة المتّبعة ..

3 ـ قوة شخصية الخطيب ومنزلته في أفئدة المتلقّين ! والخطابة شيء من السيادة ، فطبيعة المتلقّين الصعبة لا تقبل أطروحات الخطيب ، ولا تمحضـه الإصغـاء مـا لم يكن الخطيب حبيباً إلى الأفئدة ، قريباً إلى العقول ..

4 ـ هيئة الخطيب وجرأته ، وقدراته ، ومطـاوعـة صوتـه وإشـاراتـه للمعـاني التي تشغل خطابه وتقتسمه ، والمحبّذ هو أن يكون شكل الخطيب مقبولاً لخلوّه من العاهـات كالعور والعرج والبرص والقصر المفرط والطول الملفت ، والهيئـة لا تشفع للخطيب حتى ينجح مـا لم يشفع لـه صوت جهوري رخيم حميم يتلوّن وفـق المعـاني والـدلالات ، ومن نافلة القول أن يكون نطقه مبرّءاً من أسقام التّلفظ كالتمتـة والمتمتـة والفـأفـأة والغمغمـة والعي والتـأتـأة والثـأثـأة[11] ، والخطيب اللبيب يستثمر جوارحـه في تقريب المعنى إلى

(11) وأن لا يكون ألثغ ولا فأفاء ولا ذا رتّة ولا تمتاماً ولا ذا حبسة ولا ذا لفف (نقد النثر 112) .

الأفهام مثل حركات العين والحاجبين والشفتين والرقبة والأطراف والجذع . ويستعمل العصا أو القوس أو الرمح أو السيف في الإشارة اللمحاحة فكان الخطيب يضبط إيقاع خطبته وإصغاء جمهوره بهذه الأدوات (العصا وسواها) .

5 ـ جرأة الخطيب في قول ما يشاء وقت يشاء وكيف يشاء ، فقد تتقاطع مقولاته مع أهواء الجمهور أو همومه أو انتماءاته ومصالحه .. دون أن يؤسس في يقين الجمهور احتراف الخطابة ، أو احتقار إرادة الآخرين ، والجرأة ليست معبراً لاحتواء الجمهور بالجلافة والوقاحة ، فمثل هذه الأمور قادرة على إعطاء نتائج عكسية تجرُّ على الخطيب وخطابه مصائب لا تحصى ..

6 ـ ثقافة الخطيب الملوّنة بعلوم زمانه من نحو : أيام العرب وأشعارهم وأمثالهم وقصصهم وأنسابهم ومقاماتهم ومواطنهم ، زد على هذه المعرفة بتعبير الرؤيا والفراسة وأساليب المجادلة ..

7 ـ يسعى الخطيب إلى التأثير في المخاطبين ، كأن يدعوهم إلى حرب أو سلم أو معاهدة ، أو نقض حلف ، أو مقاطعة ، ولن تكفي الحجة وحدها لإقناع الجمهور الصعب ذي الأهواء المختلفة والمصالح المعقدة ، ما لم يعتن الخطيب بجماليات خطبته من جهة إبهارهم بمنطلقات خطابه الموشّى بالسّجع غير المتكلّف والمجازات المرموقة والتشبيهات المبتكرة والإسهاب غير الممل والإيجاز غير المخل ، الخطيب الناجح قادر على صناعة نصّ خطابي جميل بحيث يكون الأثر الجمالي سبيلاً للأثر الوجداني ، وينقل الجاحظ (ت 255 هـ) باقة من القناعات المتصلة بمزايا الخطيب (تخليص المعاني رفق ، والاستعانة بالغريب عجز ، والتشادق بغض ، والنظر في عيون الناس عي ، ومسّ اللحية هلك ، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب ... رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخيّر اللفظ ؛ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه)[12] .

(12) الجاحظ . البيان والتبيين 56/1 (م . س) .

خطباء العرب

قس بن ساعدة الإيادي ، وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل ، وأكثم بن صيفي ، وحاجب بن زرارة ، والحارث بن عباد ، وقيس بن مسعود ، وعمرو بن الشريد ، والحارث بن ظالم ، وعمرو بن معديكرب ، الزبيدي ، وعامر بن الظّرب العدواني ، وقبيصة بن نعيم الأسدي ، وكعب بن لؤي ، وهاشم بن عبد مناف ، ولؤي بن غالب ، وعبد المطلب بن هاشم ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، وعبيد بن الأبرص ، والحارث بن حلزّة اليشكري ، وعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن عمار الطائي ، وضمرة بن ضمرة ، وربيعة بن حذار ، وخويلد بن عمرو ، وعبيد الجرهمي .. وسواهم كثير ..

أ ـ قس بن ساعدة الإيادي :

يقول الجاحظ : « ولإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس ، وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه ، وأظهر من تصويبه ، وهذا إسناد تعجز عنه الأماني وتنقطع دونه الآمال ، وإنما وفق الله ذلك الكلام لقس بن ساعدة لاحتجاجه بالتوحيد ولإظهار معنى الإخلاص ، وإيمانه بالبعث ، ولذلك كان خطيب العرب قاطبة »[12] .

ويقوّم الأستاذ عمر رضا كحالة شخصية قس على هذا النحو « من أشهر خطباء العرب ، فكان يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة والحكمة ، فقد اعتنق النصرانية فآمن بها ، وكان يدعو في خطبه إلى نبذ الأوثان والأصنام ويدعو إلى عبادة الله . وكان أسقف نجران ، ويفد على قيصر ويحادثه ، وكان الناس يتحاكمون إليه في خصوماتهم ، فيقضي بينهم بالحق والخير ، وكان بليغ القول ، سهل الأسلوب ، متخيّر الألفاظ ، كثير

---

(13) م . ن 64/1 .

الحكمة والمثل ، سجعه قصير غالب على خطاباته ، وكلامه على إيجاز بعيد عن اللغو والفضول والحشو »[14] .

وقناعة الأستاذ كحالة أن قساً مسيحي وأسقف معاً ، يحيلنا إلى آراء الأب لويس شيخو بأن جلّ مبدعي الجاهلية نصارى !! ولسنا هنا في معرض نفي النصرانية عن قس ، ولكننا نذكّر بنبوءة قس التي وردت في خطبته المشهورة ، التي ترسّخ فكرة أن لله ديناً هو خير من دين الناس السائد ، وأن نبيّاً سيظهر وقد آن أوانه وأظل زمانه !! ويذكر ابن حبيب أن قس بن ساعدة : « حرم في الجاهلية الخمر والسكر والأزلام »[15] .

خطبة قس :

أيُّها الناس : اسمعوا وعوا ؛ وإذا سمعتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ ما هو آت آت ، آياتٌ محكمات ، مطر ونبات ، وآباء وأمّهات ، وذاهب وآت ، ضوء وظلام ، وبِرٌّ وآثام ، لباس ومركب ، ومطعم ومشرب ، ونجوم تمور ، وبحور لا تغور ، وسقف مرفوع ، ومهاد موضوع ، وليل داج ، وسماء ذات أبراج ، مالي أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم حبسوا فناموا ؟ يا معشر إياد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ أين المعروف الذي لم يشكر والظلم الذي لم ينكر ؟ أقسم قسٌّ قسماً بالله إن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا .

في الذاهبين الأوّلين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها تمضي الأكابر والأصاغر

---

(14) كحالة . عمر رضا . الأدب العربي في الجاهلية والإسلام ص 173 . مط التعاونية . دمشق 1972 .

(15) ابن حبيب . أبو جعفر محمد الهاشمي ت 245 . المحبّر ص 238 . تح د . إيلزة ليخن شتيتر . طب المكتب التجاري بيروت .

لا يرجـع المـــاضي ولا يبقى من البــاقين غــابر
أيقنتُ أني لا محــــالة حيث صار القوم صائر[16]

ب ـ خطبة النعمان بن المنذر في بلاط كسرى :

أصلح الله الملك ، حقّ لأمة الملك أن يسمو فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها ، إن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير ردّ عليه ولا تكذيب له ، فأما الأمم التي ذكرت فأيّ أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها بعزّها ومنعتها ، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها ، وحكمة ألسنتها وشدة عقولها ، وأنفتها ووفائها ، فأما عزّها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ، ووطدوا الملك ، وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل ، حصونهم ظهور خيولهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجُنتهم السيوف وعدّتهم الصبر إذ غيرها من الأمم عزّها الحجارة والطين وجزائر البحور .. وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنخرمة والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشّرة ، وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب إلا ويسمّي آباءه أباً فأباً ، فحفظوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ، وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حولته وشبعه زريه ، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر ، وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه وزنة قوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس ، ثم إن خيلهم أفضل الخيل ، ونساءهم أعفّ النساء ، ولباسهم أفضل اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبلهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ على مثلها

---

(16) الجاحظ . البيان والتبيين 293/1 (م.س) .

سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر ، وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه حداً أن لهم أشهراً حرماً وبلداً محرّماً وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى[17] ..

جـ - وخطب أبو طالب بن عبد المطلب لرسول الله ﷺ في تزوُّجه خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) فقال :

الحمد لله الذي جعلنا من ذرّية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلداً حراماً وبيتاً محجوجاً ؛ وجعلنا الحكّام على الناس ، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي ، من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برّاً وفضلاً وكرماً وعقلاً ومجداً ونبلاً ، وإن كان في المال قَلّ فإنما المال ظِلّ زائل وعارية مسترجعة ، وله في خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصّداق فعليّ[18] .

☆ أغراض الخطبة الجاهلية ومساحتها :

كثيرة هي الأغراض التي تتكفَّل الخطبة بتحقيقها (منها التحريض على القتال ، والدعوة إلى السلام والوئام ، وهذا كثير عند العرب في جاهليتهم لكثرة حروبهم وكثرة ما كان بينهم من خلافات وخصومات ، ومن أغراضها : التبشير بدين جديد !! ومحاربة الفوضى والرذائل والوثنية التي سادت في العصر الجاهلي .

ومنها التعزية في عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم .

ومنها وفادتهم على الملوك والرؤساء للتهنئة والاستنجاد أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة أو التعزية أو سواها ، والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك .

(17) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنية ص 261 وبعدها . الفصل السابع / وقد وثّقنا الخطبة وأثبتنا الإحالات وذكرنا نصوصاً كثيرة من خطب العرب .

(18) المبرّد . أبو العباس محمد بن يزيد ت 285 . الكامل في اللغة والأدب 303/2 . طب مؤسسة المعارف - بيروت .

ومنها الدعوة إلى الصلح ، وفضّ الخصومات ، وجمع الكلمة .

ومنها الخطب في المحافل حين الولادة أو ما شاكل ذلك ، ومنها المفاخرة والمباهاة بعزّ العشيرة ، وشرف المحتد ، وجلال الأصل . ومنها التوصية بفعل جميل أو أدب حميد »[19] .

أما مساحة الخطبة ضيقاً أو اتّساعاً فأمرها متصل بالغرض الذي ترمي إليه الخطبة ، فيطيل الخطيب في موضع ويوجز في آخر ويتوسّط في ثالث . جاء في (نقد النّثر) :

أ ـ لا يتمثّل في الخطب الطوال التي يقام بها في المحافل بشيء من الشعر ، فإن أحبّ أن يستعمل ذلك في الخطب القصار والمواعظ والرسائل فليفعل ..

ب ـ أن يكون الخطيب عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصّر عن بلوغ الإرادة ، وألا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز فيتجاوز مقدار الحاجة إلى الإضجار والملالة .

جـ ـ إذا رأى من القوم إقبالاً عليه وإنصاتاً لقوله فأحبّوا أن يزيدهم زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم ، وإذا تبين منهم إعراضاً عنه وتثاقلاً عن استماع قوله خفّف عنهم .

د ـ الإيجاز ينبغي أن يستعمل في مخاطبة الخاصة وذوي الأفهام الثاقبة الذين يجتزئون بيسير القول عن كثيره ، وبجمله عن تفسيره ، وفي المواعظ والسُّنن التي يراد حفظها ونقلها .

هـ ـ الإطالة في مخاطبة العوام ومن ليس من ذوي الأفهام[20] .

---

(19) كحالة . الأدب العربي ص 172 (م.س) . وانظر حسن . د . حسين . أدب العرب في عصر الجاهلية ص 241 (م.س) .

(20) ابن جعفر . أبو الفرج قدامة ت 337 . نقد النثر ص 96 وبعدها ، والكتاب منسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أيوب . طبع المكتبة العلمية ـ بيروت 1980 .

2 ـ الأمثال :

ترد مادة (مثل) في معجمات اللغة على نحو يؤكّد حالة من التشابه بين طرفين .

فقولنا : مَثَلَ (فتح الميم والثاء) ، ومِثْل (كسر الميم وسكون الثاء) يعني المشابهة ، والعرب تقول : ماثل الشيء أي شابهه ، ولا تكون المماثلة إلا بين المتشابهين . ومَثّل (تشديد الثاء) الشيء بالشيء تمثيلاً وتمثالاً شبهه به وقدّره على قدره ، وتمثّل الشيء تصوّر مثاله ، قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوْحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيّاً ﴾[21] [مريم : ١٧/١٩] . والْمَثَل والمِثْل (فتح الميم والثاء / كسر الميم سكون الثاء) عبارات موجزة دالّة مجتزأة من كلام العرب ، تشير إلى حكاية غنية الأهمية وسيعة الانتشار اتخذتها العرب مضرباً للمثال ، تستحضرها حين يستجد جديد فيعقدون له مثلاً لوجود مشابهة بين حكاية المثل ودلالته والمستجد من الأمر ودلالته ، وقد حرص الموثّقون العرب على صيانة الأمثال الجاهلية ، وقد ألّف عيّاش العبدي وعبيد بن شرية كتباً في الأمثال[22] ، وذكر الميداني اسم الأئمة والأعلام الذين وضعوا كتباً في الأمثال : « فطالعت من كتب الأعلام ما امتدّ في تقصّيه نفس الأيام مثل كتاب أبي عبيدة ، وأبي عُبيد ، والأصمعي ، وأبي زيد ، وأبي عمرو ، وأبي فيد ، ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد ، والمفضل بن سلمة ، حتى لقد تصفحت أكثر من خمسين كتاباً ونخلت ما فيها فصلاً فصلاً وباباً باباً .. »[23] .

وينسب إلى قدامة بن جعفر هذا القول : « فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال ويبينون للناس تصرّف الأحوال ، بالنظائر والأشباه والأشكال ، ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلباً ، وأقرب مذهباً .. لأن الخبر في نفسه إذا كان

(21) اللسان (مثل) .

(22) ابن النديم . الفهرست ص 118 ص 130 (م.س) .

(23) الميداني . أبو الفضل أحمد بن محمد ت 518 . مجمع الأمثال 16/1 ضبط وتعليق سعيد محمد اللحام . طبع دار الفكر / دار نوبليس ـ بيروت 1992 .

ممكناً فهو يحتاج إلى ما يدلُّ عليه وعلى صحته ، والمثال مقرون بالحجّة ؛ فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دوّنته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ، ونطقت ببعضه على ألسن الوحش والطير »[24] .

وقال الجاحظ : « كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثّلوا بها إلا لما فيها من الانتفاع »[25] . وقد التفت البلاغيون إلى المثل ودوره في إضفاء الجمالين على الكلام : جمال المعنى وجمال البناء ، فاجترحوا له باب الاستعارة التمثيلية ، سمّاها القزويني المجاز المركب ، وقال : « وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه ، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين أو أمور بالأخرى ، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه » ا.هـ .

وقال السيوطي : هي أن يكون وجه الشبه فيها منتزعاً من متعدد . ا.هـ .

ومن هذا اللون قوله تعالى : ﴿ والأَرْضُ جَميعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيامَةِ ﴾ [الزُمر : 67/39] . إذ المعنى أن مَثَل الأرض في تصرُّفها تحت أمر الله وقدرته مثل الشيء يكون في قبضة أخذ له منا ، والجامع يده عليه .. والاستعارة التمثيلية لم تجر في لفظ مفرد من ألفاظ العبارة ، وإنما أجريت في التركيب كله ، وهذا هو - التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيئك به على حدّ الاستعارة - ومتى فشا هذا اللون في الاستعمال سمّي مثلاً ، ولذلك لا تغير الأمثال)[26] ، ولسوف نشرّح مثالاً جاهلياً لنتبيَّن مدى مناسبته للاستعارة التمثيلية :

---

(24) نقد النثر ص 66 (م.س) .

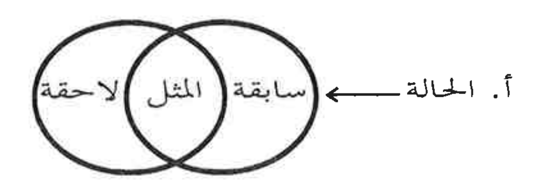
(25) البيان والتبيين 280/1 (م.س) . حرب . د . طلال . أولية النص (المثل الشعبي 142) . طب المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت 1999 .

(26) مطلوب . د . أحمد . معجم المصطلحات البلاغية وتطوُّرها ص 94 ، طبعة ثانية 1996 ، (مكتبة لبنان / ناشرون) بيروت .

أ ـ (المثل) : الصيفَ ضيعتِ اللَّبن .

ب ـ (المستجد) : إنك ادَّخرت صديقك للزمان الصعب ، فإذا احتجتَ إليه خذلك .. وعندها تتذكَّر المثل وتردِّده تعزية بنفسك فصديقك يصلك في السَّراء ويقطعك في الضَّرّاء .

جـ ـ (المضرب) : وجه الشبه بين المثل ومضربه يتجلّى في أن صاحب المثل افتقد شيئاً عزيزاً حين احتاج إليه ، فافتقاد اللبن في الصيف يشبه افتقاد الوفاء في الشدّة ! قارن :



ب ـ الاستعارة التمثيلية ـــ تساوي ـــ← المثل (مشبه به ظاهر) + الحالة اللاحقة : المستجدة (مشبه مستتر) .

جـ ـ القرينة المانعة ـــ تساوي ـــ← دلالة اللبن المستعمل ـ ماهية اللبن (المهمل) .

ويمكن القول : إن كتاب (مجمع الأمثال) للميداني هو أوفر حظّاً من كتبُ الأمثال الأخرى رغم اختلاط الأمثال الجاهلية بالإسلامية .. نظراً لسهولة العقور فيه على المثل المطلوب .. فلو أردنا العثور على مثل : (إن الشّقي وافد البراجم) أو أيّ مثال آخر .. فلسوف نهتدي إلى ضالّتنا بحسب هذا التدبير (قارن الجزء الأول) .

أ ـ فيما أوّله همزة .

ب ـ فيما جاء على أفعل من هذا (وهو لاحق بالأحرف كافة) .

جـ ـ المولدون .

د ـ فيما أوّله باء .

هـ ـ فيما أوله تاء .

و ـ فيما أوله ثاء .

ز ـ فيما أوله جيم .

ح ـ فيما أوله حاء .

ط ـ الحكاية التي أثمرت المثل يجعلها الميداني لاحقة لجلّ الأمثال ، ومن خللها نعرف موضوع المثل وزمانه .

ي ـ ترد أسماء الأعلام والأمكنة والأزمنة في ثنايا المثال أو حكايته فنستطيع تحديد زمن المثال من خلال معرفة الاسم .

ك ـ روح المثل وهمّه المركزي ، فالأمثال الجاهلية مثلاً فيها دعوة للثأر وتحذير من الناس وتذكير بتقلُّب الزمان .. والأمثال الإسلامية تتضمّن دعوة للتأمل في خلق الله والحياة والموت ، والترغيب بالجنة والترهيب من النار .. قارن المثال السابق (إن الشَّقيّ وافد البراجم) ، ومن حقّنا أن نعرف انتماء هذا المثل إلى أي عصر ؟ بعد أن نعثر على موضعه في (مجمع الأمثال) ، ولنا أن نقترح الحركة التالية :

أ ـ المثال يبدأ بـ (إن) فمكانه إذن الباب الأول (فيما أوله همزة) .

ب ـ نستعرض الأمثلة التي تبدأ بالهمزة عامة وإن خاصة ، فإذا وصلنا إلى 24/1 وجدنا المثل محتفظاً برقم 6 .

جـ ـ يقول الميداني في الحكاية « قاله عمرو بن هند الملك ، وكان سويد بن ربيعة التميمي قتل أخاه وهرب ، فأحرق به مئة من تميم : تسعة وتسعين من بني دارم وواحداً من البراجم ، فلقِّب بالمحرّق ، وستأتي القصة بتمامها في باب الصاد ، وكان الحارث بن عمرو ملك الشأم من آل جفنة يدعى أيضاً بالمحرِّق (راء مشددة مكسورة) لأنه أول من

حرّق العرب في ديارهم ، ويدعى امرؤ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي محرّقاً أيضاً ..

يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً » .

المثال الثاني : إيّاك أعني واسمعي يا جارة . (أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري ، وذلك أنه خرج يريد النعمان بن المنذر .. يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره 69/1) .

المثال الثالث : أينما أوجّه ألقَ سَعْداً (كان الأضبط بن قريع سيّد قومه فرأى منهم جفوة ، فرحل عنهم إلى آخرين ، فرآهم يصنعون بساداتهم مثل ذلك ، فقال هذا القول ، ويروى : في كلّ واد سَعْد 74/1) .

المثال الرابع : أشأم من البسوس (هي بسوس التميمية خالة جسّاس بن مرة الشيباني قاتل كليب ، وكان من حديثه أنه كان للبسوس جار من جَرْم يقال له سعد بن شمس ، وكانت له ناقة يقال لها سراب ، وكان كليب قد حمى أرضاً من أرض العالية في أنف الربيع فلم يكن يرعاه أحد إلا ... 461/2 قارن الباب 13 فيما أوله شين / ما جاء على أفعل) .

المثال الخامس : عند الرهان يعرف السوابق (يضرب للذي يدّعي ماليس فيه 40/3) .

المثال السادس : ما يقعقع لي بالشّنان (والشّنان القرب الخالية يحركونها إذا أرادوا حثّ الإبل على السير لتفزع فتسرع ، قال النابغة :

كأنك من جمال بني أقيش ... يقعقع خلف رجليه بشنّ

يضرب لمن لا يتّضع لما ينزل به من حوادث الدهر ، ولا يروعه ما لا حقيقة له 305/4) .

☆ أمثلة جاهلية :

تجدر الإشارة إلى أن تداخلاً (يحدث أحياناً) بين الشعر والنثر في الأمثال الجاهلية استدعته طبيعة كلٍّ منهما ، وحاجة كلٍّ منهما إلى الآخر ، ورغبة الناس في هذا التداخل ، وقد نقرأ شعراً هو في أصله مثل نثري صيغ وفق قوالب شعرية ، وقد نجد مثلاً نثرياً أنتجه شاعر ، فحوَّلته قوانين التداول اللهجي من جنس الشعر إلى جنس النثر ، لكن الذي لا مراء فيه هو أن المثل أقرب أرومة إلى النثر وأدخل في بابته لأسباب بنيوية ..

+ على نفسها جنت براقش .
+ أحشفاً وسوء كيل .
+ أعطِ القوس باريها .
+ تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .
+ آكل لحمي ولا أدعه لآكل .
+ المرء بأصغريه قلبه ولسانه .
+ اليوم خمر وغداً أمر .
+ خلالك الجو فبيضي واصفري .
+ إن لم يكن وفاق ففراق .
+ أجع كلبك يتبعك .
+ رمتني بدائها وانسلَّت .
+ ربَّ رمية من غير رام .
+ الرباح مع السماح .
+ سبق السيف العذل .
+ بلغ السيل الزّبى .

+ زوج من عود خير من قعود .

+ العتاب قبل العقاب .

+ القول ما قالت حَذامِ .

+ الإناء يرشح بما فيه .

+ لكل جواد كبوة ، ولكل صارم نبوة .

+ لكل ساقطة لاقطة .

+ الإمارة ولو حجارة .

+ يدك منك وإن كانت شلاّء[27] .

3 ـ سجع الكهّان :

نوع آخر منتم لجنس النثر الفني ، وهو الكلام المقفّى غير الموزون ، وجاء في الموروث البلاغي حوار لَمّاح نصّه : ما السَّجع ؟

ما خفّ على السمع .

مثل ماذا ؟

مثل هذا .

والكاهن مدّع يزعم العلم بالغيب ، وسجع الكهّان ضرب من القول المزوّق الذي يعتمد الصدمة والإبهار وعجائبية الأسلوب لصناعة أثر في النفس يدعو السامع إلى تصديق ترهات الكاهن وهذيانه ، وقد حرّم الإسلام الكهانة ، فجعل حلوان الكاهن بمنزلة دية الكلب ، ومهر البغي[28] ، (وحياة العرب قبل الإسلام مسكونة باحتمالات مفزعة مثل الغزو والقحط والوباء والسيول وانجراف التربة والعواصف مما جعل قراءة المجهول وهتك الأسرار حاجة نفسية تشعر الجاهلي ببعض الاطمئنان الموهوم ، والكهنة

---

(27) الإبشيهي . شهاب الدين محمد بن أحمد ت 850 . المستطرف (ص 44 وبعدها .. الباب السادس ـ في الأمثال السائرة .. وفيه فصول) ، طبع دار مكتبة الحياة ـ بيروت (د : ت) .

(28) مسلم . صحيح مسلم . كتاب السلام (باب تحريم الكهانة وإتيان الكاهن) 1748/4 (م.س) .

يدّعون أنهم يأخذون علمهم من الرئي أو النجوم أو العفاريت ! وهم أناس غريبو الأطوار والأشكال والطقوس كطريفة وسطيح وشق وعوف بن ربيعة والزرقاء ابنة زهير والزبراء الرئامية)[29] .

ويلف سجع الكهان والكهّان ضباب كثيف ، أسهم في ضياع كثير من أخبارهم ونصوصهم وآثارهم وأدوارهم في الحرب أو السلام ! يقول الجاحظ : « وكان الذي كره الأسجاع بعينها وإن كانت دون الشعر في التكلف ، والصنعة أن كهّان العرب الذين كان أكثر أهل الجاهلية يحتكمون إليهم ، وكانوا يدّعون الكهانة ، وأن مع كل واحد منهم رئياً من الجن مثل حازي جهينة ، ومثل شق ، وسطيح ، وعزّى سلمة ، وأشباههم ، وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع »[30] .

وشق كما تذكر الأخبار كاهن جاهلي عاصر سطيح الذئبي ، وقد عمّر طويلاً ، أما هيئته فيبدو من خلالها نصف إنسان .. له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، وتوفي (55ق.هـ) .

أما سَطيح فهو كاهن جاهلي آخر معمّر من بني مازن .. كان لحماً دون عظم ، يطويه أهله مثل البساط إذا ارتحلوا !! وهذه الأخبار وسواها تحيلنا إلى التداخل بين الواقع والخيال ، وقد أورد د. أحمد مطلوب معلومات لغوية وتاريخية مهمة تتصل بالسجع وسجع الكهان نقتطف منها :

أ ـ سجع يَسْجَع سجعاً : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضاً ، والسجع الكلام المقفّى ، والجمع أسجاع وأساجيع . وسجع يسجع سجعاً وسجّع تسجيعاً : تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن وصاحبه سجّاعة ، وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه ، كأن كل كلمة تشبه صاحبتها ، قال ابن جني : سمّي سجعاً لاشتباه أواخره

---

(29) الصائغ . عبد الإله . الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام (الكهانة ص 30) .

(30) الجاحظ . البيان والتبيين 278/1 (م.س) .

وتناسب فواصله وسَجَع الحمام : هدل على جهة واحدة ، وسَجْع الحمامة موالاة صوتها على طريق واحد وربط الخليل السجع بالفواصل فقال : سجع الرجل إذا نطق بكلام له فواصل كقوافي الشعر من غير وزن . ا.هـ .

وقال السّكاكي : الأسجاع وهي في النثر كما القوافي في الشعر ا.هـ .

والسجع من أوصاف البلاغة في موضعه وعند سماحة القول فيه ، وأن يكون في بعض الكلام لا كلّه ، فإنه في الكلام كمثل القافية في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها في الشعر القديم ، والسجع مستغنى عنه . وقال ابن وهب : فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته ، فذلك جهل من فاعله وعي من قائله . ا.هـ .

ب ـ وقد ذمَّه بعضهم لأن الرسول ﷺ ذمّ سجع الكهان حينما قال لبعضهم منكراً عليه وقد كلَّمه بكلام مسجوع : « أسجعاً كسجع الكهّان ؟ » ا.هـ .

وعلَّل الجاحظ النَّهي : فوقع النَّهي في ذلك الدهر لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيتها في صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .. »[31] .

☆ سجع الكهان / ستة نصوص نموذجاً :

١ ـ قال عوف بن ربيعة لبني أسد : « ياعبادي !! قالوا لبّيك ربنا ! قال : مَن الملكُ الأصهب ، الغلاّب غير المغلّب ، في الإبل كأنها الرّبرب ، لا يعلق رأسه الصخب ؛ هذا دمه ينثعب ، وهذا غداً أوّل من يُسْلَب ، قالوا : من هو يا ربنا ، قال : لولا أن تجيش نفسٌ جاشية ؛ لأخبرتكم إنه حجر ضاحية »[32] .

2 ـ قالت الزرقاء ابنة زهير لبني قضاعة : « سعف وإهان ، وتمر وألبان ، خير من الهوان ... مقام وتنوخ ، ما وُلِد مولود وأنفقت فروخ ، إلى أن يجيء غرابٌ أبقع ،

---

(31) مطلوب . د . أحمد . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ص 311 وبعدها (م.س) .

(32) الأصبهاني . الأغاني 82/9 .

أصمع أنزع ، عليه خلخالا ذهب ، فطار وألهب ، ونعق فنصب ، يقع على النخلة السحوق بين الدور والطروق ، فسيروا على وتيرة ، ودونكم الحيرة »[33] .

3 ـ وقالت الزّبراء لبني رئام قومها : « واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصبح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، إن شجر الوادي ليأدوا ختلاً ويحرق أنياباً عصلاً ، وإن صخر الطود لينذر ثُكلا ، لا تجدون عنه معلا وإن وطئتم سهلا »[34] .

4 ـ قال عزّى سلمة (ونسبت لغيره) : « والأرض والسماء ، والعقاب الصقعاء ، واقعة ببقعاء ، لقد نفر المجد بني العشراء ، للمجد والسناء »[35] .

5 ـ وقال سطيح الذئبي : « عبد المسيح ، على جمل يسيح ، إلى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان . رأى إبلاً صعاباً تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها ، ياعبد المسيح : إذا كثرت التلاوة وبعث صاحب الهراوة ، وفاض وادي السماوة وغاضت بحيرة ساوة ، وخمدت نار فارس ، فليست الشام لسطيح شآما ؛ يملك منها ملوك وملكات ، على عدد الشرفات ، وكل ما هو آت آت »[36] .

6 ـ وقال شق بن صعب : « نعم ، رأيت جمجمة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روض وأكمة ، فأكلتْ منها كل ذات نسمة ، أحلف بما بين الحرَّتين من إنسان ، لينزلنّ أرضكم السودان ، فليغلبن على كل طفلة البنان ؛ وليملكن ما بين أبين إلى نجران ، بل بعدك بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم ذو شأن ، ويذيقكم أشدّ الهوان ، غلامٌ ليس بدنيّ ولا مدنّ ، يخرج من بيت ذي يَزن ، بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه إلى يوم الفصل ، يوم يجزى

---

(33) نفسه 81/13 .

(34) الجاحظ . البيان والتبيين 104/3 .

(35) نفسه 278/1 .

(36) الطبري . أبو جعفر محمد بن جرير ت 310 . تاريخ الطبري 459/1 (م.س) .

فيـه الولاة ، يـدعى من السماء بـدعوات ، يسمع منهـا الأحيـاء والأموات ، ويجمع فيـه النـاس للميقـات ، يكـون فيـه لمن اتقى الفـوز والخيرات ، أي وربّ السماء والأرض وما بينهما من رفع وخفض ، إن ما نبأتك لحق ما فيه أمض »[37] .

4 ـ المنافرة :

حربٌ بين شخصين أو جماعتين ، سلاحُها الكلمات تقتضي وجود قـاض مرضيٍّ عنـه من المنافرين ، مشهود له بالمروءة والعدل والدربة والخبرة ، وتجري المنافرة في مسـاحـة من الأرض تكفي لجمهـورهـا العريض ، بينـا يقف المتنـافرين على مكان من الأرض مرتفع ومن تقاليد المنافرة ، القبول بحكم القاضي ، وعدم الاعتراض عليه ، وقد ينسحب أحد المتنافرين معترفاً بخسارتـه قبل انتهائهـا .. إذا شعر المتنـافر المنسحب أن حجتـه ضعيفة وبيانه قصير وقدرته على الهجو والفخر لا ترقى إلى قدرة غريمه !

والمنـافرة لغـة من نَفَرَ (ثلاث فتحـات) نفْراً (سكون الفـاء بعـد فتح النـون) ، ونفـوراً أي هجر مكانـه وضرب في الأرض ؛ ونـافره خـاصمـه ، وتنـافى القـوم تخـاصمـوا وتفـاخروا ؛ والنُّفّـارة بتشـديـد الفـاء ، هو مـا يـأخـذه الحكم أو الغـالـب من المغلوب ! (اللسان / نفر) .

وقد شاعت المنافرة واستفحل ضررها قبيل الإسلام ، فـإذا جـاء الإسلام نهى عنهـا وحرَّمها ؛ وكانت العادة أن يتنافس شخصان (معروفان غـالبـاً) على أمر يـدّعيـه كل منهما لنفسه أو ينفيه عنه ، وربمـا تنـافر الرجلان على زعـامـة القبيلـة أو ملكيـة أرض أو مـاء أو خطبـة فتـاة ، أو إثبـات أمر مـا ... إلـخ ، فيتفـق الاثنـان على المبـارزة بالكلمات ، أما مكان المنافرة وميقاتها والحكَّم فيها ، فهذه أمور لها تقـاليـدهـا المتَّبعـة ، فمكان المنافرة مثلاً يشترط أن يكون على أرض محايدة ، وميقاتها يتصالح عليـه الخصمان متى شـاءا ، شريطـة أن يكون الميقـات في الأشهر الحرم ، وربمـا حـدد الحـاكم كَمّ الجمهور وعدده ، وفق موازنة بين جمهور هـذا المتنـافر وذاك ، ويفترض عـدم تـدخُّل الجمهور في

(37) نفسه 431/1 .

المنافرة ويكتفي بالإصغاء أو المكاء (الصفير) أو التصدية (التصفيق) ، وأحياناً يخل الجمهور بقواعد المنافرة ، فتنتقل عدوى المنافرة إليه ، فيحدث الشغب وأحياناً القتل !! وينادي المنادي (ذو الصوت الجهوري والجسد الطويل العريض) ، وهو يضرب على الطبل أو الصنج أو المزهر (أيها الناس ، حاضركم يبلغ غائبكم إن منافرة ستجري بين فلان وعلان في أرض ... يوم ...) ، فيهرع الناس إلى المكان المحدد في الوقت المحدد .. والجمهور غالباً ما يجد في المنافرة سبيلاً لتبديد أوقات الفراغ وقهر الملل ، والضحك حدّ الاستلقاء على الظهر ، وكان العقلاء وذوو المروءة والرؤية العروبية في العصر الجاهلي يمقتون المنافرة ، ويتشاءمون منها ، فقد تقود المنافرة إلى حرب عمياء بين قبيلتي المتنافرين ، أو بين أبناء القبيلة الواحدة والبيت الواحد !! فينهون عنها ، ويحذّرون منها ؛ محاولين إصلاح ذات البين بين المتنافرين ، يقول أبو حاتم الرازي (ت 322 هـ) : « فقد تنافر علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريان وتحاكما إلى هرم بن قطبة الفزاري ، فاحتجز عن الحكومة بينهما ، وتوقَّى القول فيهما ، وقد ساق كل واحد منهما إبلاً لينحرها عند الحكومة ، ومع عامر أعشى قيس ولبيد بن ربيعة العامري ، ومع علقمة الحطيئة ، وقد حضروا ليقول كل امرئ في صاحبه عند النفورة ؛ ويذكر فضله ليخلد على الدهر ، فلما امتنع هرم عن الحكومة انتدب الأعشى وكان أدهى من الحطيئة وأشدّ تحنكاً فقال قصيدة نفَّر فيها عامراً على علقمة ، قال فيها :

علقم لا لستَ إلى عامر ... الناقم الأوتار والواتر
سدتَ بني الأحوص لم تعدهم ... وعامرٌ سادَ بني عامر
حكّمتموه فقضى بينكم ... أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة في حكمه ... ولا يُبالي غبن الخاسر

فقام أصحاب عامر إلى الإبل فنحروها ، وقالوا نُفِّر عامر ، وطارت لعامر على علقمة بقول الأعشى من غير أن يحكم بينهما هرِم . وقال الحطيئة بعد ذلك في علقمة :

فما ينظر الحكّام بالفضل بعدما ... بـدا واضـحٌ ذو غُرّة وحجـول

وقال فيه أيضاً :

يا عام قد كنتَ ذا باع ومكرمة ... لـو أن مسعـاةَ من جـاريْتَـه أمَمْ

جاريتَ قرماً أجاد الأحوصانِ به ... ضخْمَ الـدسيعـةِ في عرنينـه شمم

فلم يغن ذلك عنه شيئاً لما سبقه إليه الأعشى !! »[38] .

والمنافرة كما أشرنا نوع ينتسب إلى جنس النّثر الفني ، وهذه الإشارة غير مانعـة من توشية النثر بالشعر ، فقد تدخّل الشعر ليحسم الموقف بعد أن طال المقام بـالمتنـافرين ، وجمهور المنافرة ، وقد أحـالتنـا روايـة الرازي إلى ترميم النثر بومضـات الشعر ، ولسوف نتلبّث عنـد روايـة الأصبهـاني على طولهـا ، لتكون الصورة أوضـح في طمـوح الـدارس وأقرب إلى واقع حال المنافرة ..

قال الأصبهاني : « أول ما هاج النّفار بين عـامر بن الطفيل بن مـالـك بن جعفر وبين علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص ، وأم عامر كبشـة بنت عروة الرجـال بن عتبة بن جعفر ، وأمها أم الظّباء بنت معاوية فارس الهرار بن عبادة بن عقيل ، وأمها خالدة بنت جعفر بن كلاب ، وأمها فاطمة بنت عبد شمس بن عبد منـاف ، وأم أبيـه ـ الطفيل ـ أم البنين بنت ربيعـة بن عـامر بن صعصعـة ، وكانت أم علقمـة ليلى بنت أبي سفيان بن هلال بن النخع سبية ، وأم أبيه مـاويـة بنت عبـد الله بن الشيطـان بن بكر بن عوف بن النخع مهيرة ، وذكر أن علقمـة كان قـاعـداً ذات يوم يبـول (كـذا) فبصر به عامر ، فقال : لم أر كاليوم عورة رجل أقبح ، فقال علقمة : أما والله مـا وثبت على جاراتها ولا نازلت كناتهـا ، يعرّض بعـامر . فقـال عـامر : ومـا أنت والقروم واللهِ لفرس أبي حيـوة أذكر من أبيـك ولفحـل أبي غيهب أعظم ذكراً منـك في نجـدٍ . وكان فرسه فرساً جواداً نجا عليه يوم بني مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان ، وكان فحلـه فحلاً

(38) الرازي . كتاب الزينة ص 103 وبعدها (م.س) .

لبني حرملة بن الأشعر ، وهو الأشعر بن صرمة ، وسمّي صرمة غيهباً لسواده ، فاستعاره منهم يستطرقه فغلبهم عليه ! فقال علقمة : أما فرسكم فعاره ، وأما فحلكم فغدرة ، ولكن إن شئت نافرتك فقال : قد شئت . فقال عامر : والله لأنا أكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً . فقال علقمة : لأنا خير منك ليلاً ونهاراً . فقال عامر : لأنا أحبّ إلى نسائك أن أصبح فيهن منك . فقال عامر : أنافرك على أني أنحر منك للقاح ، وخير منك في الصباح ، وأطعم منك في الليلة الشياح . فقال علقمة : أنت رجل تقاتل ، والناس يزعمون أني جبان ولأن تلقى العدوّ وأنا أمامك أعز لك من أن تلقاهم ، وأنا خلفك ، وأنت جواد والناس يزعمون أني بخيل ، ولستُ كذلك ولكن أنافرك أني خير منك أثراً وأحدّ منك بصراً وأعزّ منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً . فقال عامر : ليس لبني الأحوص فضل على بني مالك في العدد ؛ وبصري ناقص وبصرك صحيح ، ولكني أنافرك على أني أنشر منك أمّة وأطول منك قمة ، وأحسن منك لَمّة ، وأجعد منك جمة ، وأبعد منك همّة .

قال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قصيف ، وأنت جميل ، وأنا قبيح ولكني أنافرك بآبائي وأعمامي ، فقال عامر : آباؤك أعمامي ، ولم أكن لأنافرك بهم ، ولكني أنافرك أني خير منك عقباً وأطعم منك جدباً . قال علقمة : قد علمت أن لك عقباً في العشيرة وقد أطعمت طيئاً إذ سارت السنة ، ولكني أنافرك أني خير منك وأولى بالخيرات منك ، وقد أكثرنا المراجعة منذ اليوم . فخرجت أم عامر وكانت تسمع كلامهما فقالت : يا عامر نافره أيكما أولى بالخيرات . فقال عامر في مراجعته : والله لأنا أركب منك في الحماة وأقتل منك للكماة ، وخير منك للمولى والمولاة . فقال له علقمة : والله إني لبرّ ، وإنك لفاجر ، وإني لوفي وإنك لغادر ففيم تفاخرني يا عامر ؟ فقال عامر : والله إني لأنزل منك للقفرة ، وأنحر منك للبكرة ، وأطعم منك للهبرة ، وأطعن منك للثغرة ، فقال علقمة : واللهِ إنك لكليل البصر ، نكد النظر ، وثّاب على جاراتك بالسّحر . فقال بنو خالد بن جعفر ، وكانوا يداً مع بني الأحوص على بني مالك بن

جعفر : لن نطيق عامراً ولكن قل له : أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات وخذ عليه بالكبر . فقال علقمة كما قالوا . فقال عامر : عير وتيس وتيس وعنز (فذهب مثلاً) .. نعم على مئة من الإبل إلى مئة من الإبل يعطاها الحكم أينا نفر عليه صاحبه أخرجها . ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدي رجل من بني الوحيد فَسُمّي الضمين إلى الساعة وهو الكفيل . وخرج علقمة ومن معه من بني خالد وخرج عامر فيمن معه من بني مالك ، وقد أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك وهو أبو براء ، فقال : يا عماه أعنّي . فقال عمه : يا ابن أخي سبّني ! فقال عامر : لا أسبّك وأنت عمي ! قال فسبّ الأحوص ؛ فقال عامر : ولا أسبّ والله الأحوص وهو عمي . فقال دونك نعلي فإني قد ربعت بها أربعين مرباعاً فاستعن بها في نفارك . فجعلا (عامر وعلقمة) منافرتهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئاً وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما . وقال : أنتما كركبتي البعير الأدرم . قالا : فأينا اليمين ؟ فقال كلاكما يمين ، وأبى أن يقضي بينهما . فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام فأبى أن يحكم بينهما . فوثب مروان بن سراقة بن قتادة بن عمر بن الأحوص بن جعفر فقال :

يال قريش بيّنوا الكلاما ... إنا رضينا منكم الأحكاما
فبيّنوا إن كنتم حكّاما ... كان أبونا لهمُ إماما
وعبد عمرو منع الفئاما ... في يوم فخر مُعْلماً إعلاما
ودعلج أقدمهم إقداما ... لولا الذي أجشمهم إجشاما
لاتّخذتهم مذحجٌ نعاما

فأبوا (قريش) أن يقولوا بينهما شيئاً . وكانت العرب تحتكم إلى قريش . فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة فأبى أن يقول بينهما شيئاً . فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي فردّهما إلى حرملة بن الأشعر المرّي فردّهما إلى هرم بن قطبة بن سنان بن عمرو الفزاري فانطلقا حتى نزلا به وقد ساقا الإبل معهما حتى أشتت وأربعت لا يأتيان أحداً

إلا هاب أن يقضي بينهما !! فقال هرم : لعمري لأحكمن بينكما ثم لأفصلن ثم لستُ أثق إلى أحد منكما فأعطياني ميثاقاً أطمئن إليه وهو أن ترضيا بما أقول ، وتسلّما لما قضيت بينكما (فوافقا وأعطياه الميثاق) ، فأمرهما بالانصراف ، ووعدهما ذلك اليوم إلى يوم قابل . فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليه ، فخرج علقمة ببني الأحوص فلم يتخلّف منهم أحد ، ومعهم القِباب والجزر والقدور ، وينحرون في كل منزل ويطعمون . وجمع عامر بني مالك فقال إنما تخاطرون عن أحسابكم فأجابوه وساروا معه ولم ينهض أبو براء معهم ، وقال لعامر : والله لا تطلع ثنية إلا وجدت الأحوص منيخاً بها ، وكره أبو براء ما كان من أمرهما . فقال عامر فيما كان من منافرتهما ، ودعا عامر إياه أن يسير معه :

أأومر أن أسبّ أبا شريح ... ولا واللهِ أفعل ما حييت
ولا أُهدي إلى هرم لقاحا ... فيحيي بعد ذلك أو يميت
أكلّف سعْي لقمان بن عاد ... فيا لَ أبي شريح ما لقيت

وأبو شريح هو الأحوص ، فكره كل واحد من البطنين ما بينهما ، فقال عبد عمرو بن شريح بن الأحوص :

لحا الله وفدينا وما ارتحلا به ... من السوءة الباقي عليهم وبالها
ألا إنما بُردي صفاقٌ متينة ... أبى الضيم أعلاها وأثبت حالها

فسار عامر وبنو عامر على الخيل مجنبي الإبل ، وعليهم السلاح ، فقال رجل من بني عامر : ما صنعتَ أخرجت بني مالك تنافر بني الأحوص ومعهم القباب والجزر ، وليس معك شيء تطعمه الناس ؛ ما أسوأ ما صنعت . فقال عامر لرجلين من بني عمه : أحصيا كلّ شيء مع علقمة من قبة (خيمة) أو قدر أو لقحة (ناقة) ففعلا . فقال عامر : يا بني مالك إنها المقارعة عن أحسابكم فاشخصوا بمثل ما شخصوا به ففعلوا ، وثار مع عامر لبيد بن ربيعة والأعشى ومع علقمة الحطيئة وفتيان (شعراء شباب) من بني

الأحوص منهم السندري بن يزيد بن سريح ، ومروان بن سراقة بن قتادة بن عمرو بن الأحوص ، وهم يرتجزون . فقال لبيد :

يا هرم وأنت أهل عدل ... إن نفر الأحوصُ يوماً قبلي
ليذهبن أهله بأهلي ... لا يجمعن شكلهم وشكلي
ونسلُ آبائهمُ ونسلي

إني امرؤ من مالك بن جعفر ... علقم قد نافرتَ غير منفر
نافرتَ سقباً من سقاب العرعر

فقال قحافة بن عوف بن الأحوص :

نهنه إليك الشعرَ يا لبيد ... واصدد فقد ينفعك الصدود
ساد أبونا قبل أن تسودوا ... سؤددكم مطرّف زهيد
إني إذا أكنّني الخباء ... وضاع يومَ المشهد اللواء
أنمى وقد حق لي النماء ... إلى كهول ذِكْرُها سناء
إذ لا يزال جلة كوماء ... مبقورة لسقبها رغاء
لم ينهنا عن نحرها الصفاء ... لنا عليكم سورة ولاء
المجد والسؤدد والعطاء

أنتم عزلتم عامر بن مالك ... في سنوات مضر الهوالك
يا شرّنا حيّاً وشرّ هالك

وقال السّندري شعراً ورفع صوته فقيل : من هذا ؟ فقال :

أنا لِمن أنكرَ صوتي السّندري ... أنا الفتى الجعد الطويل الجعفري
من ولد الأحوص أخوالي غني

فقال عامر بن الطفيل : أجبه يا لبيد . فرغب لبيد عن إجابته ، وذلك لأن السندري كانت جدته أمة اسمها عيساء .. فقال لبيد :

ولما دعاني عامر لأجيبه أبيتُ وإن كان ابن عيساء ظالما
لكي لا يكون السّندري نديدتي وأشتم أعماماً عموماً عماعما
وأنشر من تحت القبور أبوةً كراماً همُ شدّوا عليّ التمائما
لعبتُ على أكتافهم وحجورهمُ وليداً وسمّوني وليداً وعاصماً
ألا أينا ما كان شرّاً لمالك فلا زال في الدنيا ملوماً ولائما

ثم وثب الحطيئة فقال :

يا عام قد كنتَ ذا باع ومكرمة لو أن مسعاة من جاريته أمم
جاريت قرماً أجاد الأحوصان به سمحَ اليدين وفي عرنينه شمم
لا يصعب الأمر إلا ريث يركبه ولا يبيت على مال له قسم
هابت بنو مالك مجداً ومكرمة وغاية كان فيها الموتُ لو قدموا
وما أساؤوا فراراً عن مجلحة لا كاهن يمتري فيها ولا حكم

وأقام القوم عنده (هرم بن قطبة) أياماً ، وأرسل إلى عامر فأتاه سرّاً لا يعلم به علقمة . فقال : يا عامر قد كنت أرى لك رأياً وإن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتنافر رجلاً لا تفخر أنت ولا قومك إلا بآبائه ؟ فما الذي أنت به خير منه ؟ قال عامر : ناشدتك الله والرحم أن لا تفضّل عليّ علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبداً ، هذه ناصيتي فاجززها واحتكم في مالي فإن كنتَ لا بد فاعلاً فسوِّ بيني وبينه . قال هرم : انصرف فسوف أرى رأيي ، فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه ينفّر علقمة عليه !! ثم أرسل هرم إلى علقمة سرّاً لا يعلم به عامر ، فأتاه فقال له : يا علقمة والله إن كنتُ لأحسب فيك خيراً ، وإن لك رأياً وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتفاخر رجلاً هو ابن عمك في النسب وأبوه أبوك وهو مع هذا أعظم قومك غناء وأحمدهم لقاء . فما الذي أنت به خير منه ؟ فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفّر عليّ عامراً ، اجزز ناصيتي واحتكم في مالي ، وإن كنت

لا بد أن تفعل فسوّ بيني وبينه ، فقال : انصرف فسوف أرى رأيي ، فخرج وهو لا يشك أنه سيفضل عليه عامراً ..

وقال هرم لعامر حين دعاه : يا عامر كيف تفاضل علقمة ؟ فقال عامر ، ولِمَ يا هرم ؟ قال له : لأنه أنجل منك عيناً في النساء ، وأكثر منك نفيراً عند الدعاء . قال عامر : وهل غير هذا ؟ قال : نعم ، هو أكثر منك نائلاً في الثّراء ، وأعظم منك حقيقة عند الدعاء . وقال لعلقمة : كيف تفاضل عامراً ؟ قال : ولِمَ يا هرم ؟ قال : هو أنفذ منك لساناً وأمضى منك سناناً . قال علقمة : فهل غير هذا ؟ قال : نعم هو أقتل منك للكماة وأفكّ منك للعناة . ثم إن هرماً أرسل إلى بنيه وبني أبيه : إني قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر وينحرها عن علقمة ويطرد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر وفرقوا بين الناس ، لا تكون لهما جماعة . وأصبح هرم فجلس مجلسه وأقبل الناس وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقام لبيد وقال :

يا هرم ابن الأكرمين منصبا ... إنك قد وليت حكماً معجبا
فاحكم وصوّب رأس من تَصَوّبا ... إن الذي يعلو عليها رتبا
لخيرنا عمّاً وأمّاً وأبا ... وعامر أدنى لقيس نسبا

فقام هرم فقال : يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي ، وأنتما كركبتي البعير الأدرم ، تقعان إلى الأرض معاً ؛ وليس فيكما أحدٌ إلا وفيه ما في صاحبه ، كلاكما سيد كريم . ثم عمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم عن علقمة عشراً وعن عامر عشراً ، وفرقوا الناس فلم يفضل هرم أحداً منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل وهما ابنا عم فيجلب بذلك عداوة ويوقع بين الحيين ، وعاش هرم حتى أدرك عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فسأله عمر : يا هرم أيّ الرجلين كنت مفضلاً لو فضّلت ؟ فقال هرم : لو قلت ذلك يا أمير المؤمنين لعادت ، جذعة ولبلغت شعاف هجر . فقال

عمر : نعم مستودع السّر ومسند الأمر إليه أنت يا هرم ، مثل هذا فليسدّ العشيرة وإلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم ، وقد أدرك علقمة بن علاثة الإسلام فأسلم .. »[39] .

وإذا كان هرم قد تحرّج في منافرة عامر على علقمة وعلقمة على عامر فإن نفيل بن عبد العزى الذي تنافر إليه عبد المطلب وحرب بن أمية قد نفَّر عبد المطَّلب على حرب ، فترك ذلك جرحاً عميقاً في نفوس الأمويين حين نفَّر نفيل عليهم هاشماً . فلبثت الضغناء بين الفريقين[40] .

وقال الجاحظ : إن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قطبة ، والأقرع بن حابس ، ونفيل بن عبد العزى ، كانوا يحكمون وينفّرون بالأسجاع[40] . ولم تقتصر المنافرة على الرجال ، فقد تنافرت النساء أيضاً !! قارن هذه الديباجة : خرجت العجفاء بنت علقمة السعدي وثلاث نسوة من قومها ، فاتّعدن بروضة يتحدثن فيها ؛ فوافين ليلاً في قمر زاهر ، وليلة طلقة ساكنة ، وروضة معشبة خصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالليلة ليلة !! ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحاً ولا أنضر ؛ ثم أفضن في الحديث فقلن : أي النساء أفضل ؟

قالت إحداهن : الخرود الودود الولود ؛
قالت الأخرى : خيرهن ذات الغناء وطيب الثناء وشدّة الحياء ؛
قالت الثالثة : خيرهن السموع الجموع النفوع غير المنوع .
قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة .
قلن : فأيّ الرجال أفضل ؟
قالت إحداهن : خيرهم الحظيّ الرّضيّ غير الحظال ولا التّبال .
قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ذو الحسب العميم ، والمجد القديم .
قالت الثالثة : خيرهم السّخيُّ الوفيُّ الذي لا يُغير الحرة ولا يتّخذ الضّرة .

(39) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 50/15 وبعدها .
(40) الجاحظ . البيان والتبيين 289/1 . ثم انظر 278/1 .

قالت الرابعة : وأبيكن إن في أبي لنعتكنَّ كرم الأخلاق ، والصدق عند التّلاق والفلج عند السباق ويحمده أهل الوفاق ؛

قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة . وقالت إحداهن : إن أبي يكرم الجار ، ويعظم النار ، وينحر العِشار بعد الحوار ، ويحل الأمور البار .

فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر منيع الوَزَر ؛ عزيز النفر ؛ يُحْمَدُ منه الورد والصّدر .

فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان كثير الأعوان يروي السنان عند الطعان ،

قالت الرابعة : إن أبي كريم النّزال منيف المقال كثير النوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال . ثم تنافرن إلى كاهنة معهن في الحي فقلن لها اسمعي ما قلنا واحكمي بيننا ؛ واعدلي ؛ ثم أعدن عليها قولهن ؛ فقالت لهن : كل واحدة منكن ماردة ؛ على الإحسان جاهدة ؛ لصويحباتها حاسدة ؛ ولكن اسمعن قولي : خير النساء المبقية على بعلها ، الصابرة على الضّراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ، فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ، فتلك الكريمة الكاملة ، وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سأله الرجل ألفاه قليل العلل ، كثير النفل ، ثم قالت الكاهن لهن : كل فتاة بأبيها معجبة[41] .

وهذه المنافرة الأنثوية ، الناعمة تعكس لنا استشراء فن المنافرة في المجتمع الجاهلي ، إلى الحد الذي يحدو بالصديقات اللواتي يخرجن للنزهة إلى التفاخر فيما بينهن ، ثم التعويل على رأي كاهنة ارتضينها حكومة للمنافرة ، كي تقول : أيهن الفائزة في المنافرة ، وانسجاماً مع الطبيعة الأنثوية ومناسبة المنافرة ، فإن الفتيات لم يلجأن إلى الهجاء والشتائم الموجعة ، فاكتفين بالفخر المستند إلى تجاربهن الخاصة ، وقيم المجتمع السائدة ، والصور المتداولة عن أفضل النساء في نظر النساء والرجال ، وأفضل الرجال في نظر الرجال والنساء معاً !! وإذا كان الأمر كذلك من الهدوء والاتّزان فإن الكاهنة

(41) الميداني . مجمع الأمثال 157/3 .

التي حكّمت بينهن لم تنفّر الواحدة على الأخريات ، بل غيّمت أحكامها ، وساوت بين المتنافرات بالأسجاع ، ولم تنس رأيها فيا رأين !!

تعتمد المنافرة ـ كما مرّ بنا ـ الفخر والهجاء معاً ، من خلال جدلية قوامها التناقض بين الخير والشّر ، الشجاعة والجبن ، الأمانة والخيانة ، احترام الجوار وهتك حرمته ، سمّو النسب وانحطاطه .. ومهمة كل منافر هي إثبات الحقيقة له ونفيها عن غريمه ، ولا تشترط المنافرة الصدق في القول ، بل طول اللسان والقدرة على المناورة والمكر إلى جمال العبارة وذكاء الإشارة ، والمصابرة والمطاولة ، ورباطة الجأش وإثخان الخصم بنصال الكلمات المسمومة ، وقد لا يصل الخصمان إلى نتيجة حاسمة في جولة واحدة ، فتطول المنافرة ، ويدبُّ الملل ، وتضجّ النساء بالبكاء لما نالهن من التعريض مثلما يضجّ الشيوخ بالشكوى ، فقد هدّمت المنافرة ما بنوح من ألفة ومجد ، والمفرح حقّاً تلك النظرة العروبية عند وجهاء القوم المرشحين للتحكيم ، وقد ذكر الأصبهاني سبعة منهم رفضوا تماماً تشجيع عامر وعلقمة على التنافر حتى لا يتشتت الشمل ، ولا تهتك الأعراض ، وتنمو الضغائن ، وهؤلاء السبعة هم هرم الفزاري ، وعامر بن مالك ، وأبو سفيان بن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، وعيينة بن حصن ، وغيلان بن سلمة الثقفي ، وحرملة بن الأشعر المري ، بل إن عامر بن مالك (عم عامر بن الطفيل) خذل ابن أخيه وقال له ما معناه : أنا عمك وسوف أفضحك وأقول لهم إني لم أستبدل نعالي منذ أربعين سنة ، وأفهمه أن منافرته لعلقمة هي شتيمة للطرفين !! وقد شجّعت المنافرة قيام ضربٍ من السجع الارتجالي ، فالخصمان يتنافران بالأسجاع والحكم يحكم بالأسجاع ، كما شجعت المنافرة ضرباً من الشعر الذي يقال على الهامش ، بما يشبه الارتجال . والملاحظة الجديرة بالذكر هي أن المتنافر لا يقول الشعر وإن كان شاعراً وإنما يكون وكده ومعوّله على النثر الفني ، فعامر يقول الشعر وعلقمة كذلك ، ولكنهما اقتتلا بالنثر ولم يقتتلا بالشعر ، فالمنافرة (المتن) نصٌّ منتمٍ إلى النثر الفني ، وربما انتصر المتنافر على خصمه بجماليات الكلام المستند إلى كسر التّوقُّع والإبهار وانتظام الجمل

وتتابعها وفق نسقية تتوالى فيها الكلمات المنتهية بإيقاعات نغمية متشابهة ، فضلاً عن ابتكار المثلبة من المتنافر ، وابتكار محقها من المتنافر الآخر ، وانتقال المتكلّم من موقع المهجو إلى موقع المفتخر مع تبادل في الأدوار ، وقد يعترف الغريم لغريمه بالفضل ليذهله عن اللاحق من القذف والإفحاش .

أما صبرنا على إيراد رواية الأصبهاني بنصّها ، فلرغبتنا في أن تتشكّل صورة المنافرة الجاهلية معزولة عن تدخلنا ، لكن ذلك لا يمنعنا من القول بوجود حالة من (الفبركة) بحيث يتسلّط أسلوب الحكاية على ترتيب الأحداث والمقولات ، زد على ذلك وجود تارات من تقديم ما حقّه التأخير وتأخير ما حقّه التقديم بسبب تعدُّد الروايات والأمالي ..

5 ـ الحكاية :

تحيلنا دلالة الحكاية اللغوية إلى دائرة تقترب من دائرة المثل دون أن تتداخل معها ، قارن : حكى فعله وحاكاه إذا فعل مثله . والمحاكاة المشاكلة ، وإذا قيل : هند تحكي الشمس حسناً وتحاكيها فذلك يعني أن هنداً تشاكل الشمس في الوضاءة . وحكى الشيء حكاية أتى بمثله وشابهه . (اللسان / حكى) ، أما الدلالة الاصطلاحية للحكاية فتدخلها في السّرد فهي « لفظ عام يدل على قصة متخيَّلة أو على حدث تاريخي خاص يمكن أن يلقي ضوءاً على خفايا الأمور أو على نفسية البشر كما يدل على أي سرد منسوب إلى راو »[42] ، والحكاية تستدرج المتلقي إلى الماضي البعيد ، أو الماضي الملاصق للحاضر ، وهي لا تلتزم حرفية ما وقع وإلا عُدّت خبراً ، لأنها تمتح من الخيال المتنقّل بين ثلاث دوائر (الراوي ، مادة الحكاية ، المتلقي) فثمة حكاية تنهل من التاريخ وأخرى من الواقع ، وثالثة من الخرافة ، ورابعة من التّوقُّع في إطار التغريب والرمز والإبهار والتخييل ، وإيهام المتلقي بحدوثها أو إمكان حدوثها ، وقد نقل الزمخشري

(42) وهبة . مجدي وكامل المهندس . معجم المصطلحات الأدبية في اللغة والأدب 152 (م.س) .

(ت 538 هـ) أن العرب كانت تسمّي راوي الحكاية (حكّـاء) بـالكاف المشـددة بعـد الحاء المفتوحة[43] ، وتخضع الحكاية بأنواعها ، إلى نسقيـة (تحمل مضمونـاً يمثل أحـداثها المتعاقبة[43] ، أو متنها السّردي وتتشكل بطريقـة خـاصـة يظهر خلالهـا الحكي بتسلسل خـاص ... كالاستبـاق ، والتقـديم ، والتـأجيل ، والتـأخير ، والتوقفـات ، والفواصـل السردية ، والاستهلال ، والخاتمة ، والاسترجـاع ، أو تسريع السّرد ، حسب متطلبـات البرنامج السردي للحكاية وأسلوب مقدمها »[44] .

والجدل بين الحكاية والمثل قائم على التبادل بين الحامل والمحمول ، فقـد يكون المثل الحامل حاضنة الحكاية ، وقـد يحصل العكس .. أن تولـد الحكايـة بوصفهـا حـاملاً ، ثم تكون حاضنة للمثل ، ولنا أن نتصفح أي كتـاب في الأمثـال (مجمع الأمثـال للميـداني) مثلاً ، لنكتشف جدل الحكاية المثل أو المثل الحكاية !! والذي لا مراء فيـه هو أن العصر الجاهلي الذي فرض على الناس نمطاً صعبـاً من الحيـاة ورتيبـاً أيضـاً ، حبب إلى النـاس الحكاية وأشاعها بينهم فكانت ملاذاً أو متنفسـاً يخفف عنهم ضغوطـاً كثيرة ، فلا غرابـة أن يكون لكل قبيلة حكاؤها الذي يحفظ أخبـارهـا ، وينقل إليهـا أخبـار الآخرين .. معاصرين أو غابرين بأسلوب ممتع يساعد المتلقي على التواصل والإصغاء ! ويزداد دور الحكّاء أهمية في الظروف العصيبة التي تدهم القبيلة أو المدينة أو الحي ، والحكّاء مرغوب مطلوب في السلم والحرب ، والأحلاف ، والمـآتم ، والأعراس ، ومواسم الأسـواق ، وقلمـا يصغي النـاس للحكاء في النهـار ميقـات العمل والجـد ، فثمـة متّسع كاف يـوفره الليـل الطويل للساهرين ، ويكون من نافلة القول أن الصيف ليس فصلاً للحكاية فهو دورة السبات بالنسبة للحكاء وجمهوره ، إلا فيما ندر ، وتزداد نجومية الحكّاء سطوعاً في ليـالي الشتاء حين يتحلّق القوم حول مواقد النيران في سرادقات كبيرة ! والحكاية فن شفـاهي

(43) الزمخشري . جار الله محمود بن عمر . أساس البلاغة (ح ك ى) ، ص 92 . تح عبد الرحيم محمود . طب دار المعرفة . بيروت (د : ت) .

(44) الصكر . د. حاتم . مرايا نرسيس . ص 247 . طب المؤسسة الجامعية بيروت 1999 .

يمتلك قوالبه ومراميه دون أن يدّعيه مدع لنفسه ، فتطول الحكاية أو تقصر وفق متطلبات الحالة ، ويزداد أبطالها أو ينقصون استناداً إلى همومها الدلالية والجمالية ، وقد يعترك حكاءان بوسيلة غير مباشرة فالحكّاء (س) ينسج الأساطير حول بطولات قومه ، والحكّاء (ط) ينسج الأساطير ويتفنن في الأساليب ليهوّن من شأن قوم (س) .

وثمة دواع أخرى للحكايات مثل الرحلات الطويلة ، فالحكّاء يبدد عن القافلة الملل والسأم والخوف من احتمالات الخطر . ومثل اكتظاظ الأسواق في المواسم وتقصير الشعر . والخطابة عن شغل الوقت الفائض لدى زوار الأسواق أو نزلائه ، فنَفَس الشعر قصير ، ولا يستغرق وقتاً طويلاً وكذلك الخطابة .. أما الحكاء فهو قادر على سدّ أوقات روّاد الأسواق الفائضة ، تسعفه في ذلك تجربته العريضة ، ومعرفته بالناس ، ومتطلبات أمزجتهم ، وسعة خياله ، وتحكمه بطبقات صوته وحركات وجهه ويديه ..

وكثيرة هي الحكايات التي أنتجها الذهن الإبداعي الجاهلي ، فثمة حكايات مزجت الأسطورة بالواقع ، والخيال بالحقيقة من نحو حكايات عاد وثمود ، وخراب مأرب ، ونهاية دولة الحضر ، وأيام العرب (حروبها) ، ومغامرات الصعاليك ، وعجائبيات الجنّ ، وما أكثر الحكايات الجاهلية المختلقة من نحو مغامرات الغيلان والسعالي ، والعشّاق الفرسان ، واللصوص والعبيد فضلاً عن الحكايات التي تمتلك ثوابت في الواقع ، بيد أن طبيعة الفن الحكائي استدعت الحذف والإضافة والتعديل لتكون الحكاية جذابة خلاّبة .. من نحو حكاية المرقش وأسماء ليلى العفيفة والبسوس ووفاء السموءل وجزاء السنمار والنسناس والحيّة والكنز .. ومشكلة الحكاية كما مرَّ بنا أنها فنّ شفاهي مجهول المالك تأثّر وأثّر بالخيال الجمعي إضافة وحذفاً فضلاً عن أن كل قبيلة كانت تنتقي للحكايات الشائعة أبطالاً من رجالها ونسائها ، فالنص الحكائي معتمد ذاكرة الراوي قبل اعتماده على ذاكرته هو : « ولكن النص لا يعطي قيادة بسهولة تلقائية ، إن كل نص هو بالضرورة نص شرود .. ومن هنا فإن النص يتراوح ما بين الكشف والإظهار

وبين الشرود ، فيظهر منه سطح بسيط ويغور منه أعماق معقدة ؛ ولهذا فإن الدخول إلى العمق يحتاج مخاتلة النص والتّحايل عليه ، وطريقنا في ذلك هو أن نضعه بين محاور ثلاثة ، تدور حول فعل هذه الحكاية بوصفها نصّاً شاعريّاً ـ ولم أقل شعريّاً ـ وهي بذلك فعل مغاير ومختلف عن التأليف النثري ، وتدور المحاور ـ ثانياً ـ حول سؤال الأداة الفاعلة داخل الحكاية ؛ ثم سؤال الهدف المتجلي فيها .. فهو ليس نصّاً يحدث من مؤلف فرد ، ويتجه إلى جمهور مطلق ؛ ولكنه نص يحدث بالمباشرة ؛ مباشرة الخطاب ومباشرة الاستماع ؛ وهذا الاستماع ليس استماعاً سالباً واستهلاكياً ، ولكنه شرط لحدوث النص وتناميه مع تبادل الأدوار فيما بين الإنشاء والاستماع ؛ فالمنشئ يصبح مستمعاً والمستمع يتحوّل إلى منشئ في الوقت نفسه الذي تحدث فيه الحكاية ، والمبدع هنا يخاطب مبدعاً مثله .. إذ ليس لدينا مؤلف يختلف عن المتلقي ، ذاك لأن كل واحد منهما هو مؤلف ومتلق في آن واحد)[45] . وقد دوّنت الحكايات الجاهلية في النصف الأول من القرن الهجري الأول فأحسن المدونون الإسلاميون صنعاً حين اعتمدوا حكّائين جاهليين ويأتي في طليعة الحكّائين (عبيد بن شرية الجرهمي ت 67 هـ) ، ثم دوّن الكثير من الحكايات في النصف الثاني من القرن الأول .. والقرون اللاحقة ، وكان هاجس التدوين الاحتفاظ بحرفية الحكاية وقوالبها وهمومها دون تدخُّل « فدوّنوها تدويناً منظماً على نحو ما هو معروف عن أبي عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق ؛ وتوالى من بعده التأليف فيها والعناية بها .. مما نجده مبثوثاً في تاريخ الطبري أو في السيرة النبوية لابن هشام »[46] .

وكتاب الأمثال للميداني والروض الأنف للسهيلي ومعجم البلدان لياقوت الحموي ..

---

(45) الغذامي . د . عبد الله . القصيدة والنص المضاد 124 وبعدها . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1994 .

(46) ضيف . د . شوقي . العصر الجاهلي ، ص 399 (م.س) .

☆ **حكايات جاهلية :**

١ ـ الحيّة والكنز : يحكى أن أخوين ، خرجا مسافرين ، فنزلا في ظلّ شجرة بجنب صفاة ، فلما دنا الرّواح ، خرجت لهما من تحت الصفاة حية تحمل ياقوتة فألقتها إليهما ؛ فقالا إن هذه لمن كنز هنا ؛ فأقاما ثلاثة أيام ، وهي في كل يوم تخرج لهما ياقوتة !! فقال أحدهما للآخر : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونحفر هذا الكنز فنأخذه ؛ فنهاه أخوه وقال له : ما تدري لعلك تعطب ، ولا تدرك المال ؛ فأبى عليه وأخذ فأساً ورصد الحيَّة حين خرجت فضربها ضربة جرحت رأسها ولم يقتلها ، فبادرت إليه الحية فقتلته ، ورجعت إلى جحرها . فدفنه أخوه وأقام حتى إذا كان الغد ؛ خرجت الحية معصوباً رأسها وليس معها شيء ! فقال : يا هذه ؛ والله ما رضيت ما أصابك ؛ ولقد نهيت أخي عن ذلك فلم يقبل ؛ فهل لك أن تجعلي الله بيننا على أن لا تضريني ولا أضرّك ؛ وترجعين إلى ما كنتِ عليه أولاً ؟ فقالت الحية : لا . قال : ولِمَ ؟ قالت : لأني أعلم أن نفسك لا تطيب لي أبداً ؛ وأنت ترى قبر أخيك ؛ ونفسي لا تطيب بك أبداً وأنا أذكر هذه الشّجّة(47) !

2 ـ الغريّان : كان المنذر بن ماء السماء ، قد نادمه رجلان من بنيّ ؛ فأغضباه في بعض منطقهما ؛ فأمر بأن يحفر لكلّ واحدٍ منهما حفيرة بظهر الحيرة ، ويجعلا في تابوتين ؛ ويدفنا في الحفرتين ؛ فَفَعِلَ ذلك بهما .. ، حتى إذا أصبح سأل عنهما !! فأخبر بهلاكهما ! فندم على ذلك واغتمّ ؛ ثم ركب المنذر حتى نظر إليهما ، فأمَرَ ببناء الغريين عليهما ، فبني ، وجعل لنفسه يومين في السنة ، يجلس فيهما عند الغريين ؛ يسمّي أحدهما يوم النعيم ، والآخر يوم البؤس ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مئة من الإبل سوداً ؛ وأوّل من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظَرِبان أسود(48) ، ثم يأمر به

---

(47) الدّميري . حياة الحيوان الكبرى 356/1 .

(48) الدُّميري . حياة الحيوان الكبرى 7/2 (الظَّرِبان) بفتح الظاء مثل القطران : دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة الفسو (كذا) ، وقد عرف الظربان ذلك من نفسه فجعل ذلك سلاحاً له ، يقصد =

فيذبح ويغرى بدمه الغريين ، فلبث بذلك برهة من دهره ، ثم مرَّ به رجل من طيئ هو حنظلة بن أبي عفر ؛ فقال للمنذر وهو يطلب دمه : أبيت اللعن ؛ أتيتك زائراً ؛ ولأهلي من خيرك مائراً ؛ فلا تكن ميرتهم قتلي !! فقال المنذر : لا بدَّ من ذلك ، فاسأل حاجتك أقضها لك . فقال : تؤجلني سنة أرجع فيها إلى أهلي ، وأحكم من أمرهم ماأريد ، ثم أصير إليك لتنفذ فيَّ حكمك ؛ فقال : ومن يكفلك حتى تعود ؟! فنظر حنظلة في وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو .. فأنشد يقول :

يا شريك يا ابن عمرو ما مِن الموت محالة
يا شريك يا ابن عمرو يا أخا مَن لا أخا له
يا أخا شيبان فكّ الـ يوم رهناً قد أناله

فوثب شريك وقال : أبيت اللعن ؛ يدي بيده ودمي بدمه إن لم يعد إلى أجله ؛ فأطلقه المنذر ؛ فلما كان من العام القابل جلس في مجلسه ينظر حنظلة أن يأتيه ، فأبطأ عليه فأمر بشريك فقرّب ليقتله ، فلم يشعر إلا براكب قد طلع عليهم ، فتأمّلوه فإذا هو حنظلة قد أقبل متكفّناً متحنّطاً ، ومعه نادبته تندبه ، وقد قامت نادبة شريك تندبه ؛ فلما رأى المنذر ذلك أُعجب من وفائهما وكرّمهما ، فأطلقهما ؛ وأبطل تلك السُّنّة[49] .

3 ـ زكانة العرب :.. وذلك أن نزاراً لما حضرته الوفاة ؛ جمع بنيه ؛ مضر وإياداً وربيعة وأنماراً . فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء (وكانت من أدم) لمضر ؛ وهذه الفرس الأدهم والخباء الأسود لربيعة ؛ وهذه الخادم (وكانت شمطاء) لإياد ؛ وهذه البَدْرة والمجلس لأنمار يجلس فيه ؛ فإن أشكل عليكم كيف تقتسمون فأتوا الأفعى

= جحر الضّب ، وفيه حسو له وبيضه ، فيأتي أضيق موضع فيه فيسدّه بذنبه .. حتى يغشى على الضّب (لنتانة الظربان) فيأكله ثم يقيم في جحره حتى يأتي على آخر حسو له . وتزعم الأعراب أن أحدهم إذا صادها فلا تذهب رائحته حتى يبلى الثوب !!

(49) الأصبهاني . الأغاني (كتبخانة) 86/19 .

الجرهمي بمنزله بنجران ! فتشاجروا في ميراثـه ؛ فتوجهوا إلى الأفعى ؛ فبينـا هم في مسيرهم إليه إذ رأى مضر أثر كلأ قد رُعِي . فقال : إن البعير الذي رعى هـذا لأعور !! قال ربيعة : إنه لأزور . قال إياد : إنه لأبتر . قـال أنمـار : إنـه لشرود ؛ فسـاروا قليلاً فإذا هم برجل يَنْشُدُ جمله !! فسألهم عنـه ، فقـال مضر : أهو أعور ؟ قـال : نعم ! قـال ربيعة : أهو أزور ؟ قال : نعم ! قال إيـاد : أهو أبتر ؟ قـال : نعم ! قـال أنمـار : أهو شرود ؟ قال : نعم . وهذه والله صفة بعيري فدلّوني عليه . قـالوا : مـا رأينـاه ! قـال : هذا والله الكـذب ؛ وتعلّق بهم ، وقـال : كيف أصـدّقكم وأنتم تصفون بعيري بصفتـه ؟! فساروا حتى قدموا نجران ؛ فلما نزلوا نادى صاحب البعير : هؤلاء أخـذوا جملي ووصفوا لي صفته ، ثم قالوا : لم نره !! فـاختصموا إلى الأفعى وهو حكم العرب . فقـال الأفعى : كيف وصفتمـوه ولم تروه ؟ فقـال مضر : رأيتـه رعى جـانبـاً وترك جـانبـاً فعلمت أنـه أعور ! وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثـابتـة الأثر والأخرى فـاسـدتـه ؛ فعلمت أنـه أزور !! لأنه أفسده بشدة وطئه لازوراره ! وقال إياد : علمت أنه أبتر بـاجتماع بعره ! ولو كان ذيّالاً لمصع به . وقال أنمار : عرفت أنـه شرود لأنـه كان يرعى في المكان الملتفّ نبتـه ؛ ثم يجـوزه إلى مكان أرقّ منـه وأخبث نبتـاً ، فعلمت أنـه شرود ! فقـال الأفعى للرجل : ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه .. ثم سـألهم : من أنتم ؟ فـأخبروه ؛ فرحَّب بهم ثم أخبروه بما جاء بهم ؛ فقال : أتحتاجون إليَّ وأنتم كما أرى !!؟ ثم أنزلهم فذبح لهم شـاة ، وأتاهم بالخمر ، وجلس لهم الأفعى حيث لا يُرى وهو يسمع كلامهم ! فقال ربيعـة : لم أر كاليوم لحماً أطيب منه لولا أن شاتـه غـذيت بلبن كلبـة ! فقـال مضر : لم أر كاليوم خمراً أطيب منـه لولا أن حبلتهـا نبتت على قبر ! فقـال إيـاد : لم أر كاليوم رجلاً أسرى منـه لولا أنه ليس لأبيه الذي يُدعى له !! فقال أنمـار : لم أرَ كاليوم كلامـاً أنفع في حـاجتنـا من كلامنا ؟ وكان كلامهم بأذنه . فقال : مـا هؤلاء إلا شيـاطين !! ثم دعـا القهرمـان فقال : ما هذه الخمرة وما أمرها ؟!قـال لـه : هي حبلـة غرستهـا على قبر أبيـك لم يكن عنـدنـا شراب أطيب منهـا ! وقـال للراعي : مـا أمر هـذه الشاة ؟ قـال : هي عنـاق

أرضعتها بلبن كلبة ؛ وذلك أن أمّها كانت قد ماتت ، ولم يكن في الغنم شاة ولدت غيرها !! ثم أتى أمّه فسألها عن أبيه ، فأخبرته أنها كانت زوجاً لملك كثير المال ؛ وكان لا يولد له !! فخفت أن يموت ولا ولد له ! فيذهب الملك فأمكنت من نفسي ابن عمّ له كان نازلاً عليه ! فخرج الأفعى إليهم فقصَّ القوم عليه قصتهم وأخبروه بما أوصى به أبوهم ؟ فقال : ما أشبه القبة الحمراء من مال فهو لمضر . فذهب بالدنانير والإبل الحمر فسمّي (مضر الحمراء) لذلك ، وقال : وأما صاحب الغرس الأدهم والخباء الأسود فله كل شيء أسود ! فصارت لربيعة الخيل الدّهم . فقيل (ربيعة الغرس !) ، وما أشبه الخادم الشمطاء فهو لإياد فصار له الماشية البُلْق من الحبلّق والنقد فسمّي (إياد الشّمطاء) ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل فسمّي (أنمار الفضل) . فصدروا من عنده على ذلك ، فقال الأفعى الجرهمي : إن العصا من العصية ، وإنَّ خُشَيْنا مِن أخشن ، ومساعدة الخاطل تعدٌّ من الباطل(50) .

4 ـ شنٌّ وطبقة : كان رجل من دهاة العرب وعقلائهم يقال له شنّ ، فقال (في نفسه) : واللهِ لأطوّفن حتى أجد امرأة مثلي أتزوّجها ، فبينا هو في بعض مسيره إذ وافقه رجل في الطّريق ، فسأله شنٌّ : أين تريد ؟ فقال : موضع كذا ، يريد القرية التي يقصدها شنّ ، فوافقه ، حتى إذا أخذا في مسيرهما ؛ قال له شنّ : أتحملني أم أحملك ؟ فقال له الرجل : يا جاهل أنا راكب وأنت راكب ، فكيف أحملك أو تحملني ؟ فسكت عنه شنٌّ وسارا حتى إذا قربا من القرية إذا بزرع قد استحصد ؛ فقال شنٌّ : أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا ؟ فقال له الرجل : يا جاهل ترى نبتاً مستحصداً فتقول : أُكِلَ أم لا ؟! فسكت عنه شنٌّ ؛ حتى إذا دخلا القرية لقيتهما جنازة فقال شنٌّ : أترى صاحب هذا النّعش حيّاً أو ميتاً ؟ فقال له الرجل : ما رأيت أجهل منك ، ترى جنازة تسأل عنها أميت صاحبها أم حي ؟ فسكن عنه شنٌّ ؛ فأراد مفارقته ؛ فأبى الرجل أن يتركه

---

(50) الميداني . مجمع الأمثال 30/1 ، والعصا : اسم فرس ، والعصية : اسم أمّه ! وخشين وأخشن : جبلان أحدهما صغير والآخر كبير (م.س) .

حتى يصير به إلى منزله ؛ فمضى معه ، فكان للرجل بنت يقال لها : طبقة ، فلما دخل عليها أبوها سألته عن ضيفه ؛ فأخبرها بمرافقته إياه ؛ وشكا إليها جهله ؛ وحدّثها بحديثه ، فقالت : ياأبت ما هذا بجاهل ؛

أما قوله : (أتحملني أم أحملك) فأراد أتحدّثني أم أُحدّثك حتى نقطع طريقنا ؟

وأما قوله : (أترى هذا الزرع أُكِلَ أم لا) فأراد هل باعه أهله فأكلوا ثمنه أم لا ؟

وأما قوله في الجنازة ، فأراد هل ترك عقباً يحيا بهم ذكره أم لا ؟

فخرج الرجل فقعد مع شنٍّ فحادثه ساعة ، ثم قال عنه : أتحبُّ أن أفسّر لك ماسألتني عنه ؟ قال : نعم فسّره ، ففسّره ! قال شنٌّ : ماهذا من كلامك ؛ فأخبرني عن صاحبه ؛ قال : ابنة لي ، فخطبها إليه ؛ فزوّجه إياها ؛ وحملها إلى أهله ؛ فلما رأوها قالوا : وافق شنٌّ طبقة[51] .

5 ـ جزاء النضيرة بنت الضّيزن : لما افترقت قضاعة ، سارت فرقة منهم إلى أرض الجزيرة ، وعليهم ملك يقال له : الضّيزن القضاعي ، وكان ملك الجزيرة كلها إلى الشام ، فنزل مدينة الحضر ، وهي مبنية بالحجارة المهندمة بيوتها وسقوفها وأبوابها ، وفيها ستّون برجاً كباراً ، وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار بإزاء كل برج قصر وإلى جانبه حمام ، ويمرُّ بها نهر عظيم على جوانبه قرى وجنان ، وتصب فيه أودية كثيرة ، وكانت السفن تجري فيه ، وكانت الحضر قد بنيت وتطلسمت أن لا يقدر على فتحها ولا هدمها إلا بدم حمامة ورقاء مع دم امرأة زرقاء عارك ، فأقام الضّيزن فيه مدة ملكاً يغير على بلاد فارس ، وما يقرب منها ، وكان يخرج كل امرأة زرقاء عارك من المدينة إلى موضع قد جعله لذلك في بعض جوانبها خوفاً (من افتضاح أمر الطّلسم) . ثم إنه أغار على السواحل (فسبى) ماه أخت سابور الجنود بن أردشير ، فقصد سابور الجنود الحضَر غيظاً على صاحبه (ملك الحضر) لاستجرائه على أسر أخته (ماه) فنزل عليه

---

(51) الميداني . مجمع الأمثال 422/4 .

بجنوده سنتين لا يظفر بشيء منه حتى عركت النضيرة بنت الضَّيزن ؛ فأخرجها أبوها إلى الموضع الذي جعل لذلك وكان إلى جنب السّور ؛ وكان سابور قد هم بالرحيل ؛ فنظرت الضَّيزن ذات يوم إليه ونظر إليها سابور فعشق كل واحد منها صاحبه ، فوجّهت إليه تخبره بحالها ، ثم قالت : مالي عندك إن دللتك على فتح هذه المدينة ؟ فقال سابور : أجعلك فوق نسائي ، وأتخذك لنفسي ، قالت : فاعمد إلى دم امرأة زرقاء عارك ، واخلط به دم حمامة ورقاء ، واكتب به واشدده في عنق وَرَشان (طائر شبه الحمامة) فأرسله فإنه يقع على السّور فيتداعى ويتهدّم !! ففعل سابور ذلك ؛ فكان كما قالت ، فدخل المدينة ، وقتل من قضاعة نحو مئة ألف رجل وأفنى قبائل كثيرة ، ثم سار سابور منها إلى عين التمر ؛ فعرّس بالنضيرة هناك ، فلم تنم تلك الليلة ، وتململت على فراشها ، فقال لها سابور : أي شيء أمرّك ؟ قالت : لم أنم قط على فراش أخشن من فراشك ! فقال لها : ويلك وهل نام الملوك على أنعم من فراشي ، فنظر فإذا في الفراش ورقة آس ، فقال لها سابور : يا نضيرة بِمَ كان أبوك يغذوك ؟ قالت : بشهد الأبكار من النحل ، ولباب البرّ ، ومخ الثّنيات ! فقال سابور : أنتِ ما وفيتِ لأبيك مع حسن هذا الصنيع ! فكيف تفين لي أنا ؟ ثم أمر ببناء عال فبني وأصعدها إليه ! وقال لها : ألم أرفعك فوق نسائي ؟ قالت : بلى . فأمر بفرسين جموحين فربطت ذوائبها في ذنبيهما ثم نُفّرا فقطّعاها ... وقد أشار الشاعر عدي بن زيد إلى ذلك فقال :

والحضر صُبَّتْ عليه داهيةٌ شديدةٌ أيدٌ مناكِبها
ربيبةٌ لم تُوَقّ والِدَها لحبّها إذا ضاعَ راقِبُها
فكان حظّ العروسِ إذ جشر الـ صبحُ دماءً تجري سبائبها[52]

6 ـ طُرفة (التكاذب) : تكاذب أعرابيان ، فقال أحدهما : خرجت مرة على فرس لي فإذا بظلمة شديدة فيممتها حتى وصلت إليها فإذا هي قطعة من الليل لم تنتبه ، فما زلت أحمل بفرسي عليها حتى أنبهتها فانجابت . فقال الآخر : لقد رميت ظبياً مرة

(52) الحموي . معجم البلدان (الحضر) 2/55/ (م.س) .

بسهم فعدل الظَّبي يمنة فعدل السهم خلفه فتياسر الظَّبي فتياسر السهم خلفه ، ثم علا الظَّبي فعلا السهم خلفه ؛ فانحدر فانحدر عليه حتى أخذه[53] .

6 ـ الوصايا :

فنّ نثري شاع في العصر الجاهلي لحاجة المجتمع عهد ذاك إليه ، مع وجود كَمٍّ متراكم من الوصايا أثّلها الشِّعر ، والخطابة ، والأمثال ، والحكايات ، وكان من تقاليد ذلك الزمان أن ينهي العارف إلى قومه وصيّة إثر كل حدث يعتور قومه ، أو غبّ مجلس ضيافة أو سمر . والعارف متعدد الوجوه ، فقد يكون زعيم القبيلة أو كاهنها ، أو خطيبها ، أو معمّرها ، أو حكيمها !! وربما أوصى الأب ابنه والأُمّ ابنتها ، والأخ الأكبر إخوته !! وكان للوصايا سوق ناشط في عكاظ ، وذي مجنة ، وعدن أبين ، والشحر ، يجتمع الناس حلقات حلقات حول صاحب الوصية ، وقد تتضمن خطبة الخطيب أو رواية الحكّاء أو الأمثلة عدداً من الوصايا ، على نحو ما فعله قسٌّ في سوط عكاظ !! والأمثلة وفيرة !! ويختلط الشعر بالنَّثر في فنّ الوصيّة أو النَّثر بالشِّعر ضمن بناء يلجأ فيه المنتج إلى التكثيف ، والتلميح ، والتمليح ، والتكرار ، والإشارة إلى مصائر الملوك وأقوامهم وقصورهم ، لتكون العبرة أوضح والغاية أقرب ..

1 ـ وصيّة النعمان بن ثواب الشَّنّي لابنه : يا بنيَّ إنَّ الصّارم ينبو ؛ والجوادَ يكبو ، والأثر يعفو ، فإذا شهدتَ حرباً فرأيت نارها تسعر وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر ، وجبانها يجسر ؛ فاقلل المكث والانتظار ؛ فإن الفرار غير العار ؛ إذا لم تكن طالب ثار ؛ فإنما ينصرون هم ، وإياك أن تكون صيدَ رماحها ونطيح

(53) المبرّد . الكامل في اللغة والأدب 357/1 .

وانظر : الغذامي . د . عبد الله . القصيدة والنص المضاد ص 146 وبعدها ، ويدعو د . الغذامي إلى اعتداد التكاذيب جنساً أدبياً (ص 149 وإن كان لكل جنس وظيفة ، حسب مفهوم آيزر عن وظيفة الإشارة مما يسبب وجودها ؛ فإن التكاذيب تحمل وظيفتها ومسبب نشوئها من حيث إنها نص يفصح ويكشف وفي الوقت ذاته نص يعبّر عن حاجة إنسانية للإبداع والتَّجلي من خلال اللغة ... ويتحقق ذلك من كون اللغة استنطاقاً للمسكوت عنه ، وتشجيعاً للنفس المكسورة كي تصلح كسرها بالنّص) .

نطاحها ... يا بني لا يبخل الجواد ؛ فابذل الطارف والتّلاد واقلل التّلاح ؛ تذكر عند السماح وابل إخوانك فإن وفيّهم قليل ، واصنع المعروف عند محتمله ؛.. يا بني إن كثرة الشراب تفسد القلب ، وتقلل الكسب ، وتجد اللعب ، فأبصر نديمك ، واحم حريمك ، وأعن غريمك ، واعلم أن الظمأ القامح خير من الرّي الفاضح ، وعليك بالقصد فإن فيه بلاغاً[54] .

2 ـ وصية أم لابنتها : إن الفتى يغيّرك وإن الشيخ يميّرك ، وليس الكهلُ الفاضل ، الكثير النائل كالحديث السّن الكثير المنّ .. أي بنيّة إن الفتى شديد الحجاب كثير العتاب ... ثكلتك أمُّك ، تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها[55] .

3 ـ وصية عامر بن الظّرب إلى خطيب ابنته صعصعة بن معاوية : يا صعصعة ؛ إنك أتيتني تشتري مني كبدي ، وأرحم ولدي عندي ، أبغيتك أو رددتك ، والحسيب كفء الحسيب ، والزّوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك أفرّ من السّر إلى العلانية ، أنصح ابناً وأودِع ضعيفاً قوياً . يا معشر عدوان ، خرجت مِن بين أظهركم كريمتكم من غير رهبة ولا رغبة ؛ أقسم لولا قَسْم الحظوظ على قدْر الجدود ما ترك الأول للآخر ما يعيش به[56] .

4 ـ الملك المنذر يوصي ابنه النعمان : إيّاك واطّراح الإخوان ، واطّراف المعرفة ؛ وإياك وملاحاة الملوك وممازحة السفيه ؛ وعليك بطول الخلوة ؛ والإكثار من السّمر ، والبس من القِشْر ما يزيّنك في نفسك ومروءتك ؛ واعلم أن جماع الخير كله الحياء ،

---

(54) الميداني . مجمع الأمثال 95/1 .

(55) نفسه 56/1 .

(56) الجاحظ . البيان والتبيين 442/2 .

السجستاني : المعمرون والوصايا ص 48 ، قال عامر بن الظّرب لملك الغساسنة : « إن لي كنز علم وإن الذي أعجبك من علمي ، إنما هو من ذلك الكنز أحتذي عليه ، وقد خلّفته خلفي .. فأذن لي كي أرجع إلى بلادي فآتيك به » .

فعليك به ، وتواضع في نفسك ، وانخدع في مالك ، واعلم أن السكوت عن الأمر الذي يعنيك خير من الكلام ، فإذا اضطررت إليه فتحرَّ الصدق والإيجاز تسلم[57] .

5 ـ نصيحة أكثم بن صيفي : إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ساداتها ، وأفضل السادة أعمقها نفعاً ، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذاب مهواة ، والشَّر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطيء ، وآفة الرأي الهوى .. شرّ البلاد بلاد لا أمير بها ؛ وشرّ الملوك من خافه البريء ، أحقُّ الجنود بالنصر من حسنت سريرته ، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل ، حسبك من شرّ سماعه ، الصّمت حكم وقليل فاعله[58] .

ويذكر ابن هشام أن بعض الجاهليين توفروا على مجلة لقمان المتضمّنة عدداً من الوصايا وإذا صحّ ذلك ، فإن سوق الوصايا كان ماتحاً من التجربة والمدوّنات معاً !! (قدم سويد بن صامت مكة حاجّاً فتصدى له رسول الله ﷺ ، فدعاه إلى الإسلام فقال له سويد : فلعلَّ معك الذي معي ، فقال الرسول ﷺ : وما الذي معك ؟ قال : مجلة لقمان . فقال رسول الله ﷺ : اعرضها عليّ ، فعرضها عليه . فقال له : إن هذا لكلام حسن ، والذي معي أفضل من هذا ؛ قرآن أنزله الله تعالى عليّ . وقال : إن هذا لقول حسن ، ثم انصرف عنه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج)[59] .

وقد تخفف الوصية عن قلب المفجوع أو الجازع شيئاً من أعباء الفجيعة والجزع حين تتداخل الوصية مع الحكمة .

فقد حكي أن بعض المتقدّمين من الملوك فجع بولده الوحيد الذي هيّأه ليحلَّ

---

(57) الجاحظ . البيان والتبيين 1031/4 .

(58) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية ص 273 .
السجستاني : المعمرون والوصايا ص 17 وبعدها . كتب ملك هجر إلى أكثم بن صيفي أن ينصحه ويوجز . فكتب إليه : « إن أحق الحمق الفجور وأمثل الأشياء ترك الفضول » .

(59) هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام ص 92 . (م.س) .

محلّه ، فاستعان بالعارف كي يقول شيئاً ، فقال له العارف : « أيها الملك إن أنصفت عقلك من نفسك فقد علمت أن التعزية كانت في نفس التهنئة به ، أما قيل لك : طوّل الله عمره لعلمهم بقصره وإن طال ! أما قيل لك : جعله الله خلفاً صالحاً ؟ والخلف لا يكون إلا لتلف عن تالف ، متى رأيت عيشاً إلى دوام ، وفرحاً إلى تمام ؟ أيّ غنىً لم يخف معه العدم ، وبناءٍ لم ينله الهدم ؟ وأيّ فرحة لم تمزج بتَرحة ؟ متى رأيت مسرّة لم تتبعها مضرّة ؟ إن الدنيا نادت فأسمعت ، وبيّنت فأوضحت ، لأن سرورها بشرورها ، مزحت وغرّت وخدعت ، وأرضعت ففطمت !! متى رأيت شيئاً من مليحها هذّبته عن قبيحها ؟ هل دخلت قصراً إلا كانت كنُفُه قبل غرفه ؟ وبلدة إلا تلقاك قبورُها قبل دورها ؟ متى رأيت ضاحكاً لم يعد باكياً ؟ وشاكراً لها لم يعد شاكياً ؟ أُفٌّ لعقل حجبته الشهوات ، وخدعته الشُّبهات » .

وقال الحكيم : « العاقل مَن عقل لسانَه ، والجاهل من جهِل قدره . إذا تمّ العقل نقص الكلام »[60] .

7 ـ المعاهدات والأحلاف .

8 ـ الرسائل :

إذا كان التاريخ قد حدّثنا بالتفصيل عن أحلاف الجاهليين ، ومعاهداتهم والرسائل المتبادلة ، فتلبث عند العهود بين القبائل والأسواق والمدن ، كما تلبّث عند الأسباب التي سوّغت تدوين المعاهدات والأحلاف والرسائل والظروف التي سبقت ذلك أو رافقته أو لحقته ! إلا أن التاريخ لم يدقّق في النصوص لتركيزه على دلالة النص قبل حرفيته ، ونحن هنا معنيون بحرفية النص قبل دلالته ، فآثرنا الإشارة إلى هذه الإشكالية ، ولم نشأ ذكر النصوص بعد أن تأيّد لنا اهتمام مدوّنيها بدلالتها قبل حرفيّتها كما أشرنا ..

(60) ابن منقذ . الأمير أسامة ت 584 . لباب الآداب ص 461 . طب دار الكتب العلمية . بيروت . 1980 .

وللباحث عن نصوص المعاهدات والأحلاف والرسائل ، فهي مبثوثة في كتب الأدب وها نحن أولاء نذكر مقطعاً من المصادر والمراجع المتصلة بإشارتنا هذه :

1 ـ ابن الكلبي (ت 204 هـ) : أ ـ الأصنام . ب ـ الخيل .

2 ـ أبو عبيدة (ت 209 هـ) : أ ـ أيام العرب . ب ـ العققة والبررة .

جـ ـ النقائض .

3 ـ ابن هشام (ت 218 هـ) : السِّيرة النَّبوية .

4 ـ ابن حبيب (ت 245 هـ) : أ ـ المحبر . ب ـ المغتالون .

5 ـ السِّجستاني (250 هـ) : المعمرون والوصايا .

6 ـ الجاحظ (ت 255 هـ) : البيان والتبيين .

7 ـ البخاري (ت 256 هـ) : صحيح البخاري .

8 ـ مسلم (ت 261 هـ) : صحيح مسلم .

9 ـ ابن قتيبة (ت 276 هـ) : أ ـ المعارف . ب ـ الأنواء .

10 ـ المبرّد (ت 285 هـ) : الكامل .

11 ـ المسعودي (ت 306 هـ) : مروج الذهب .

12 ـ الطَّبري (ت 310 هـ) : تاريخ الرسل والملوك .

13 ـ ابن عبد ربه (ت328 هـ) : العقد الفريد .

14 ـ الأصبهاني (ت 356 هـ) : أ ـ الأغاني . ب ـ مقاتل الطالبيين .

15 ـ القالي (ت 356 هـ) : الأمالي .

16 ـ المرزوقي (ت 421 هـ) : الأزمنة والأمكنة .

17 ـ السهيلي (ت 581 هـ) : الروض الأنف .

18 ـ ابن الأجدابي (ت 650 هـ) : الأزمنة والأنواء .

19 ـ ابن خلكان (ت 681 هـ) : وفيات الأعيان .

20 ـ ابن منظور (ت 711 هـ) : لسان العرب .

21 ـ الفيروزأبادي (ت 816 هـ) : القاموس المحيط .
22 ـ محمود الآلوسي (ت 1342 هـ) : بلوغ الأرب .
23 ـ كتب الأحاديث النَّبوية الشَّريفة وكتب
23 ـ كتب تفاسير القرآنِ الكريم ، وكتب الأحاديث النَّبوية الشَّريفة .
24 ـ د . جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام .
25 ـ د . ناصر الدين الأسد . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ..
26 ـ د . سعيد الأفغاني : الأسواق العربية .

9 ـ الوصف :

الوصف فنّ نثري راق ، اهتمّ به المبدع الجاهلي وجمهوره اهتماماً كبيراً ؛ فمن خلال هذا الفنّ ، توفرنا على أثمن المعلومات المتصلة بالعصر الجاهلي ، واقتربنا من ذائقة العصر وحساسيته !

فنّ الوصف أجابنا عن أسئلة كثيرة ، بعضها شائك !!

كيف تتشكّل العبارة ؟ وتتخلّق الصورة ؟

وبأي الوسائل والمرجعيات كانوا ينظرون إلى الجمال والقبح ، والخضرة والغبرة ، والقصور والقباب والتزويق ؟!!

وما العناصر التي تضمن استفزاز عواطف الجاهلي ورضاه أو نفوره ؟!

كل ذلك في عبارة جزلة واضحة ، تستثمر السّجع الهادئ التلقائي وتستحضر الشعر المعزّز اللّماح ... ولم نعثر على نصوص وصفية طويلة ، فنحن غالباً قبالة نصوص ضيقة المساحة تقول المعنى الكثير في اللفظ القليل ، وربما طال اللفظ وضاق المعنى ، وما كان ذلك ليكون بمعزل عن الدواعي الجمالية ..

1 ـ أعرابي يصف رجلاً : « كان صغير القدر ؛ قصير الشبر ، ضيق الصدر ، لئيم النجر ، عظيم الكِبر ، كثير الفخر ..)[61] .

2 ـ جليلة تصف مأساتها : « ثكْل العدد ؛ وحزن الأبد ؛ وفقْد حليل ، وقتل أخ عن قليل ؛ وبين ذين غرْس الأحقاد ، وتفتّت الأكباد »[62] .

3 ـ الخاطبة تصف جمال ابنة عوف بن محلم لملك كندة : « جبهة كالمرآة الصقيلة ؛ يزينها شعر حالك ؛ إن أرسلته خلته السلاسل ؛ ومع ذلك حاجبان كأنهما خطّا بقلم ؛ قد تقوّسا على مثل عين العبهرة التي لم يرعها قانص ؛ في بياض محض كالجمان ، شقّ فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غرّ تبدو كالدر وريق له نشر الروض بالسّحر ؛ تحت ذاك عنق كإبريق الفضة ركّب في صدر تمثال ، دمية يتّصل به عضدان ، ممتلئان لحماً مكتنزان شحماً ؛ وذراعان ليس فيهما عظم يحسّ ولا عرْق يُجسّ »[63] .

4 ـ وصف البرد : « ريح جربياء في طلّ عماء في غبّ سماء »[64] .

5 ـ وصف الحرّ : « إذا طلعت الجوزاء ، حميت المعزاء ، واكتنست الظّباء ، وانتصبت العود في الحرباء »[65] .

6 ـ حاجب بن زرارة يصف العرب : « إن العرب أمة غلظت أكبادها ، واستحصدت مرّتها ؛ ومنعت درّتها ، وهي العلقم مرارة ، والصّاب غضاضة ، والعسل حلاوة ، والماء الزلال سلاسة »[66] .

7 ـ قال المنذر الأكبر يصف جارية : « .. معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر ؛

(61) الجاحظ . البيان والتبيين 273/1 .

(62) جاد المولى وأصحابه . أيام العرب في الجاهلية ص 149 .

(63) ابن عبد ربه . العقد الفريد 104/7 .

(64) الجاحظ . البيان والتبيين 284/1 .

(65) قطرب . الأزمنة وتلبيات الجاهلية 24 .

(66) الصائغ . عبد الإله . الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية ص 273 .

بيضاء قمراء وطفاء ، كحلاء دعجاء حوراء عيناء قنواء شماء ؛ برجاء زجاء ؛ أسيلة الخد ، شهية المقبل ، جثلة الشعر ، عظيمة الهامة ، بعيدة مهوى القُرط ؛ عبطاء ، عريضة الصدر ، كاعب ، ضخمة حشاش المنكب والعضد ، حسنة المعصم ؛ لطيفة الكفّ ، سبطة البنان ، ضامرة البطن ، خميصة الخصر ، غرثى الوشاح ؛ قطوف المشي ، مكساب الضحى ، سموع للسيد ، ليست بخنساء ولا سعفاء ، رقيقة الأنف عزيزة النفر ، لم تغذ في بؤس ؛ حيية رزينة ؛ حليمة ركينة ، كريمة الخال ، قد أحكمتها الأمور في الأدب ، صناع الكفَّين قطيعة اللسان ؛ رهوة الصوت ساكنته ، تزين الولي وتشين القصي »(67) .

8 ـ قال مهلهل لقومه : « وقد أتت على حربكم أربعون ، وما لمتكم على ما كان من طلبكم بوِتْركم ؛ فلو مرّت هذه السّنون في رفاهية عيش لكانت تُمل من طولها ، فكيف وقد فني الحيّان وثكلت الأُمهات ، ويُتّم الأولاد ، وربّ نائحة لا تزال تصرخ في النواحي ؛ ودموع لا ترقأ ؛ وأجساد لا تدفن ؛ وسيوف مشهورة ؛ ورماح مشرعة ، وإن القوم سيرجعون إليكم غداً بمودّتهم ومواصلتهم ، وتتعطف الأرحام حتى تتواصلوا .. »(68) .

9 ـ شيخ يصف حاله : « يسبقني من أمامي ويدركني مَن خلفي ، وأذكر القديم وأنسى الحديث ، وأنعس في الملا ، وأسهر في الخلا ، وإذا قمت قربت الأرض مني ، وإذا قعدت تباعدت عني »(69) .

10 ـ رجل يصف النساء : « النساء أربع ؛ فمنهن معمع لها شيئها أجمع ، ومنهن تبع تضرّ ولا تنفع ، ومنهن صدع تفرّق ولا تجمع ، ومنهن غيث همع إذا وقع ببلد أمرع »(70) .

---

(67) جاد المولى وأصحابه . أيام العرب في الجاهلية 200 .

(68) نفسه ص 164 .

(69) الجاحظ . البيان والتبيين 96/2 .

(70) ابن قتيبة . عيون الأخبار (كتاب النساء) 3/1 .

خصائص النّثر الفنّي الجاهلي

ثمة دائماً خصائص تستنبط من النّص الإبداعي بوصفه فعلاً استثنائياً ، تتمحور حول الهمَّيْن الدّلالي والجمالي ، لتميّز جنسه ونوعه ، ولا يمكن افتراض جنس أدبي أو نوع دون خصائص . والنثر الفني على تعدُّد أنواعه جنس متميّز بخصائصه ، وللدارس ملاحظة خصائص كلّ نوع مثل : الخطابة ، الأمثال ، سجع الكهّان ، المنافرة ، الحكاية ، الوصايا ... إلخ ، أو ملاحظة خصائص النثر الفنّي بعامة ، وذلك يمثل المقترحات التي وصلنا إليها ، وكانت بهيئة خصائص تميّز النّثر الفني الجاهلي بعامّة :

1 ـ وحدة الموضوع : فالنّص ينطلق من الموضوع إليه ، ليرسب في وجدان المتلقّي الجاهلي الصعب !! وصعوبة المتلقّي ناجمة عن روحه الفرداني واضطراب نزوعاته وتناقص قدراته على الإصغاء ، كلما طال النّص أو تشعّبت أجزاؤه ، والنّص النّثري حريص تماماً على كسب انحياز المتلقّي لأُطروحته ..

2 ـ قصر النّص بشكل عام إذ لا تزيد الخطبة الطويلة أو الوصية المتشعّبة أو السجع المتواصل مثلاً عن أربع صفحات (فولسكاب) ، وفي هذا دراية مناسبة لطبيعة الحياة الجاهلية ومشاغلها ، وذلك لا يعني عدم وجود نصوص طويلة ، إذ لا بدّ من افتراض استمرار الحكاية من المساء إلى ساعات طويلة ، أو استمرار الخطبة في مناسبات معينة لوقت طويل وكذلك الشأن مع المنافرة ، لكن الاتجاه العام للنثر الفني هو الاختصار وقصر النص بسبب من طبيعتي : النّثر الفنّي الجاهلي ومتلقّيه .

3 ـ قصر الجملة داخل النّص النّثري ، وتماسك الوشائج بين أجزائها ، وقيامها على التّقابل والتّضاد والسّجع وتناغم مخارج الحروف ، بغية شدّ انتباه المتلقّي المتميّز بالشّرود والنّفور ..

4 ـ الدعوة إلى الاعتبار بمصائر الأولين ، الذين سادوا وتجبّروا ، ثم بـادوا . فلبثت آثـارهم تـدلُّ عليهم ، وإن الأعمـار مهما طـالت فهي قصيرة ومستعـارة ، والأيـام مهما ابتسمت فهي غادرة ، لا يأتمنها عاقل ، والغـايـة الأم من ذلـك هو تحبيب القيم النبيلـة (الأمانة ، الصدق ، الرحمة ، النظافـة ..) فضلاً عن أن الإشـارة إلى الأوّلين مما يشدّ انتباه المتلقّي ، الذي يمرّ بآثارهم ويتجوّل فيها مبهوراً ..

5 ـ المبالغة في الوصف لإظهـار الهمّ المركزي للنص ، فكلّ صغير يكبر ، وكل كبير يصغر من جهة تظهير المعـالم الغـاطسـة واستثمـار مرجعيـات المتلقّي المحـدودة واستنفـار مواجعه وطموحاته ، والمتلقّي الجاهلي ميّال للمبالغة ؛ لأن ذائقته معتـادة على أسـاليب الشعر ، ومنحـازة إلى الشعر ، فـولاؤه للشعر ، ولن يعطي شيئـاً من ولائـه للنّثر دون مسوّغات تقنعه ..

6 ـ تطريـز النّص النّثري الفنّي بـالشّعر ، بـاعتـداد الشّعر الفنّ الأكثر سطـوعـاً وشيوعاً ، زِد على هذا أن أكثر مبـدعي النّثر الفنّي هم شعراء أو نظّـامون مـاهرون ، مع وجود جـاهزيـة لقوالب الشّعر والنّثر ، متـداولـة بين المبـدعين ؛ والمتلقّي عنصر فـاعل يسهم في إنتاج النّص النّثري ، وإذا كان الأمر كذلـك ، فهو لا يغفر للنّـاثر الـذي يغفل دور الشعر في طيّ المنشـور ، ونشر المطـوي ، وشـدّ أجـزاء النّص النّثري إلى همـومهـا المركزية .

7 ـ استثمار جاذبية الصورة الفنّية لإيقاظ الـذاكرة الجمـاليـة للحواس ، فثمّـة ألوان وروائح وأنغام وذائقات ، والنّص حريص على أن لا يقع في المألوف والمكرر ، والمنافسة بين مبدعي النّثر شديدة ، والمبـدع المنتصر المتفوّق هو المبـدع الـذي يمتـد على مسـاحـة واسعة من الجمهور ..

8 ـ ميل النّص النّثري إلى الإدهاش والإبهـار ، من خلال الادّعـاء بقراءة المجهول ، وكشف المستور ، والتعبير عن مشاغل الناس وما التقابل والتّضاد ، والمفارقـة والمعلومـة

الجديدة ، والسجع ، وأسلوب الحكاية ، والاستعانة بالشعر أو الأساطير ، إلا رغبة أكيدة يختزنها النّص النّثري لإدهاش المتلقّي بعجائبية المعنى والشكل معاً ..

9 ـ ورود بعض تفصيلات البحور الصافية من نحو فاعلاتن الرمل ومستفعلن الرّجز ومفاعيلن الهزج ...! ويلاحظ ذلك مثلاً في خطبة الإيادي (أيها الناس اسمعوا) (إنه من عاش مات) !!

وفي الأمثال من نحو : (وافق شنٌّ طبقة) ، و (الصَّيف ضيَّعت اللبن) . وفي سجع الكهّان والأمثلة كثيرة !! ونعلّل هذه الظاهرة بطبيعة اللغة العربية ، فهي لغة إيقاع ، يبث الانسجام في الجمل والكلمات والحروف والدلالات . حتى قيل : إن رجل الشارع لو نادى بائع الفجل (يا بائع الفجل أقبل) فقد اتَّبع ميزان المجتثّ دون أن يتقصّد ذلك فضلاً عن أن بعض الأمثال المنثورة إنما هي صدور أو أعجاز من أبيات شعرية ، وقد ينسى البيت ، ويلبث المثل ، زِد على ذلك التاريخ المشترك من حيث البدايات والنشأة بين الشعر والنثر .. ولا نحسب أن الذاكرة الشعبية التي أنتجت المثل كانت قد خططت لتفعيل (من التفعيلة) الفنون النّثرية ، وإنما هي الجاهزية والقوالبية التي مرَّت بنا في الحديث عن الشّفاهية .

مصادر الأدب الجاهلي ومراجعه
(تأصيل وإضاءات)
جريدة المصادر والمراجع

أولاً ـ مصادر الأدب الجاهلي ومراجعه (تأصيل وإضاءات) :

يتعذّر على الدارس الإفادة المباشرة من دلالتي (صدر) و (رجع) في المعجمات العربية وهو يؤصّل المصدر والمرجع !! فالإبل مثلاً كانت ترد المياه في المورد والواردة ، ثم تترك الغدير أو النّبع ، وتصدر عنه إلى موضع آخر !!.. وصدر الأمر صدْراً (سكون الدال) وصدوراً أي وقع وتقرر ، ونشأ وصدر عن كذا أي استمدّ منه ؛ وصدر عن الماء وعن البلاد من باب نصر وأصدره فصدر : أي رجّعه فرجع ، والموضع مصدر ؛ ومنه مصادر الأفعال . والصدر أول كل شيء وأعلى مقدمه حتى إنهم ليقولون : صدر النهار والليل . قال الأعشى :

وتشرق بالقول الذي قد أذعته ⠀⠀⠀ كما شرقت صدر القناة من الدم

والصدر الطائفة من الشيء .

قال ابن الأعرابي : المُصَّدر برفع الميم وتشديد الصاد المنصوبة من الخيل هو السابق ! قال الطُّفيل الغنوي في فرسه :

كأنه بعدما صدّرن من عرق ⠀⠀⠀ سِيدٌ تمطّر جنح الليل مبلول

والتّصدير : حزام الرحل والهودج ، والصدر نقيض الورد والعجز .. وقوله تعالى : ﴿ حَتّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ ﴾ [القصص : ٢٣/٢٨] ، معناه حتى يصدر الرّعاء

إبلهم ، ثم حذف المفعول ، والصَّدَر بالتحريك : رجوع المسافر من مقصده ، والشاربة من الورد ؛ وفي الأمثال : « ماله صادر ولا وارد » ، أي : ماله شيء . وطريق صادر معناه أنه يصدر بأهله عن الماء ، والصدور الانصراف عن الورد وعن كل أمر ، والصدر هو اليوم الرابع من أيام النَّحر لأن الناس يصدرون فيه عن مكة إلى أماكنهم ، صدروا عن المكان : رجعوا عنه ، وصدروا إلى المكان صاروا إليه[1] ، فمادة صدر إذن تتمحور حول الأولية والعلو والانطلاق من ..!!

أما مادة (رجع) فتعني الانصراف إلى ...!! قوله تعالى : ﴿ إنَّ إلى رَبِّكَ الرُّجْعى ﴾ [العلق : ٨/٩٦] . أي الرجوع والمرتجع ؛ والإرجاع العودة ، قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ارْجِعونِ ☆ لَعَلِّي أعْمَلُ صالِحاً ﴾ [المؤمنون : ٩٩/٢٣ ـ ١٠٠] ، أي ردّوني إلى الدنيا ؛ وترجيع الصوت ترديده ، ورجْع (سكون الجيم) الواشمة خطّها ، قال لبيد :

أو رجع واشمة أُسِفَّ نؤورُها   كففا تعرّض فوقهن وشامها

ويقال للإياب من السفر : سفر رجيع . وراجعه الكلام مراجعة ورجاعاً أي حاوره إياه ؛ والمراجعة المعاودة ؛ وكل شيء مردَّد فهو رجيع !!

قال الأعشى :

وفلاةٍ كأنّها ظهْر ترس   ليس إلا الرّجيع فيها عِلاق

والرّاجعة : الغدير يتردد فيه الماء ، والرّجع محبس الماء والمطر أيضاً لأنه يتردد قوله تعالى : ﴿ والسَّماء ذاتِ الرَّجْعِ ﴾ [الطارق : ١١/٨٦] ، فمادة رجع[2] تفيد التّردد على ..!!؛ وموضع للماء يتردَّد عليه والعودة إلى ..

وهكذا يتّضح من مادّتي (صدر ، رجع) أنهما متقاربتان في المستوى الدّلالي ، مع أن للمادة الواحدة انحرافات كثيرة عن تمحورها الدّلالي ، وهذه الانحرافات لا تتضادّ مع الأسس !! فإذا كان الأمر كذلك من الاختلاط الدّلالي ؛ فإن ثمة إشكالات أخرى

---

(1) اللّسان (صدر) .

(2) نفسه (رجع) .

لحقت مفردتي (مصدر ، مرجع) على الصعيد الاصطلاحي ، وقد شكا كثير من الدارسين من هذا الخلط والتماهي والانزياح .. وقد أهمل الأساتذة أحمد حسن الزّيات ومحمد علي النَّجار وإبراهيم مصطفى وحامد عبد القادر مفردة (مصدر) في معجمهم الوسيط تماماً !! واكتفوا بالقول في (المرجع : ما يرجع إليه في علم أو أدب من عالم أو كتاب .. محدثة !!)[3] .

والدكتور ناصر الدين الأسد لم يؤصّل مصطلح (مصادر) على الرغم من أنه عنوان كتابه ، ولم يشر في العنوان إلى المراجع ، فكأن (مصدر) تتضمَّن (مرجع)[4] !!

أما معجم المصطلحات العربية فقد تغافل عن (مرجع ، مصدر) كأنها مصطلحان غير مهمَّين[5] !!

وقد ابتدأ د . عز الدين إسماعيل (الباب الأول - في المصادر والمراجع) تأصيله بإيراد رأيين ، الأول لمحمد عجاج الخطيب اقتبسه من كتابه : (المكتبة والبحث والمصادر) ص 122 ، والآخر للطاهر أحمد مكي اقتبسه من كتابه : (دراسة في مصادر الأدب) ص 102 . ولم يشأ د . إسماعيل محاورة الرأيين ، واكتفى بالقول : « ومع أن الحدود بين المصدر والمرجع تبدو - على هذا النحو - واضحة وحاسمة ، فإن هناك حالات يصعب فيها تقرير ما إذا كان الكتاب مصدراً أم مرجعاً » .

ثم نتساءل كيف بدت الحدود بين المصدر والمرجع (واضحة وحاسمة) . وقد ألحق عبارته بقوله : « فكتب الطبقات ومعاجم اللغة تعدُّ عند علماء المكتبات من المراجع في حين تحتوي هذه الكتب على كثير من المادة الأصلية . فهل هي مراجع ومصادر في وقت واحد ؟ ومن جهة أخرى فإن كتاباً مثل شرح ديوان الحماسة الذي صنعه

(3) إبراهيم مصطفى وآخرون . المعجم الوسيط (رجع / صدر) ، طبعة دار الدعوة / تركيا .

(4) الأسد . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية (م.س) .

(5) وهبة . مجدي وصاحبه . معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (انظر حرفي الرّاء والصادّ) .

أبو تمام ، وهو مادة أصلية ، وشرح المرزوقي ؛ وهو بمثابة تفسير لهذه المادة ، فهل يعدُّ هذا الكتاب مصدراً أم مرجعاً أم مصدراً ومرجعاً معاً ؟ »[6] .

ويحسن في هذا المقام إيراد الرأيين اللذين اعتمد عليهما د . عز الدين إسماعيل ، وبنى أحكامه مقاربة لهما .

الرأي الأول للأستاذ محمد عجاج الخطيب (المصدر هو كل كتاب تناول موضوعاً وعالجه معالجة شاملة عميقة ، أو هو كل كتاب يبحث في علم من العلوم على وجه الشمول والتّعمّق ، بحيث يصبح أصلاً لا يمكن لباحث في ذلك العلم الاستغناء عنه ، كالجامع الصحيح للبخاري وصحيح مسلم ، هما أصلان ومصدران في الحديث النّبوي ، بينما تعدُّ كتب الأحاديث المختارة ، كالأربعين النّووية ، من المراجع في ذلك . وككتاب الكامل للمبرّد ، وصبح الأعشى للقلقشندي ، فهي أصول ومصادر في الأدب ، وغيرهما مما أخذ عنها مرجع . ومثل هذا نقول في تاريخ الطبري وسيرة ابن هشام ، كلها أصول ومصادر في بابها أو استمدّ منها مرجع في بابه)[7] .

الرأي الآخر للأستاذ الطاهر أحمد مكي (فالمصدر أصدق ما يكون حين يطلق على الآثار التي تضمُّ نصوصاً أدبية ، شعراً أو نثراً ، لكاتب واحد أو مجموعة من الكتاب ، لشاعر فرد أو لطبقة من الشعراء أو لخليط من كتّاب وشعراء وخطباء ، رويت هذه الآثار شفاهاً أو دوّنت في كتب ، أو نقِشت على الأبنية ، ووصلتنا دون تعليق على النص أو تفسير له دون تمهيد له أو تعليق عليه .. أما المرجع فهو يساعد على فهم النص الأدبي وتوضيحه وتفسيره وتقويمه)[8] . أما الدكتورة حكمت كشلي فقد صنعت

---

(6) إسماعيل . د . عز الدين . المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي ص 53 وبعدها .

(7) الخطيب . محمد عجاج . المكتبة والبحث والمصادر ص 122 نقلاً عن د . عز الدين إسماعيل . المصادر الأدبية واللغوية ص 53 .

(8) مكي . الطاهر أحمد . دراسة في مصادر الأدب ص 102 نقلاً عن د . عز الدين إسماعيل . المصادر الأدبية واللغوية ص 54 .

لطلبتها ملزمة جعلت عنوانها : (المصادر الأدبية واللغوية) معتمدة على كتابيها[9] ، وكتاب آخر هو : (المصادر الأدبية واللغوية) د . عز الدين إسماعيل ، ولم تشأ إبداء رأي في مصطلحي (المصادر والمراجع) وهي الأستاذة القديرة ، وإنما أوكلت الأمر للآراء التي أوردها د . عز الدين إسماعيل من خلال توليفه لآراء عدد من المختصين ، وإنما يتحرَّج المختصون من وضع حدود بين مصطلحي (مصدر ، مرجع) بسبب من التداخل والاختلاط ..

ونحن لا نزعم أننا سنحسم الأمر ، ونقول شيئاً قصَّر عنه سوانا أو أحجم ، فمثل هذا الزعم بعيد تماماً عن المروءة العلمية التي وضعناها منهجاً لأعمالنا ، وحبراً لقلمنا ، وإنما هي مقترحات نضعها بين يدي المصطلحين رغبة في تظهير الحدود ، وتمييز الوظائف المصدر : المؤسسة الأم التي تتضمَّن معلومات أساسية تتصل بشغل الباحث ، ونقول شغل الباحث ، لنحترز بهذا القول ، فإذا اعتمد شغلك على كتاب ، فذلك هو مصدرك ، وقد يكون مصدرك ثانوياً في شغل سواك ، فعندها لن يكون مصدرك مصدراً له ..

والمصدر إما أن يكون كتاباً أو إجازة أو إملاء أو مخطوطة أو كاسيت فيديو ، أو كاسيت ريكوردر ، أو دسك كمبيوتر ، أو صفحة في الأنترنيت .. وهذه أهم سمات المصدر التي نقترحها :

1 ـ أن يكون الكتاب الأمّ ذا المعلومات الرئيسة .

2 ـ أن يكون أقرب عهداً للشاعر أو النّاثر أو الحادثة أو الظاهرة .

3 ـ سعة المعلومات وعمقها وصدقها .

4 ـ أن يكون محور شغل الباحث أو الدارس .

---

(9) فواز . د . حكمت كشلي . لسان العرب لابن منظور ، دراسة وتحليل ونقد . طبعة دار الكتب العلمية . بيروت .
فواز . د . حكمت كشلي . كتاب العين للخليل الفراهيدي دراسة معجمية لغوية ، طب دار الكتب العلمية . بيروت .

فإذا أردنا دراسة امرئ القيس مثلاً .. فديوانه المصدر الأول وكتاب الأغاني المصدر الثاني ، وهذا الحال لا يختلف في دراسة بدر شاكر السّياب مثلاً .. فالمصدر هو دواوينه الشعرية وكتاباته ودراسة الدكتور إحسان عباس لبدر هي المصدر الثاني .

والمرجع : مؤسسة أقل أهمية من المصدر ، تتوفر على معلومات مساعدة تضيء عتمات المصادر ، وتحاور تعددية الآراء القديمة أو المحدثة في شأن من شؤون المصدر ، والمرجع قد يكون كتاباً مطبوعاً أو مخطوطة أو إجازة أو إملاء ، أو كاسيت فديو ، أو كاسيت ريكوردر ، أو دسك كمبيوتر ، أو صفحة في الأنترنيت .

وإذا أردنا دراسة الأعشى الكبير مثلاً ، فديوانه مصدر ، وكتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير شرح ثعلب تحقيق رودولف حاير مصدر . أما كتابا : أساليب الصناعة في شعر الخمرة والناقة بين الأعشى والجاهليين / د . محمد محمد حسين . وكتاب الأعشى الأكبر / فؤاد أفرام البستاني ، فهما مرجعان .. وإذا أردنا دراسة الشاعرة الرائدة فدواوينها وكتاباتها مصادر . أما كتاب د . عبد الرضا علي : نازك الملائكة الناقدة وكتاب د . بدوي طبانة : أدب المرأة العراقية في القرن العشرين ، وكتاب يوسف الصائغ : الشعر الحرّ في العراق منذ نشأته حتى (1958) فهي مراجع .. وربما انقلبت الآية .. فإذا كان الباحث مشتغلاً على منهج نازك الملائكة في قراءة النّص الشّعري فسيكون كتاب د . عبد الرضا علي مصدراً ، وإذا أردنا دراسة الشعر الحرّ في العراق فسيكون كتاب يوسف الصائغ مصدراً .. والأمر موكول كما رأينا بماهية الكتاب وصلته بموضوع البحث .

ثانياً ـ جريدة المصادر والمراجع (إشارات) :

1 ـ جلّ الجريدة هو مظانّ الأدب الجاهلي (الشعر والنثر) مصادراً ومراجع وما تبقى ، وهو ضئيل كتب مساعدة وما الغرابة في ذلك ؟ فما بكتب الأدب الجاهلي وحدها يمكن دراسة الأدب الجاهلي !! فثمة كتب نافعة من نحو مقدمة في أدب العراق القديم وملحمة جلجامش والأدب السومري وكتب الإيقاع والأدب الحديث العراقي أو المصري أو اليمني أو أي قطر عربي آخر وكتب قراءة العقل والحضارة والأساطير .. هذه الكتب تبدو على السطح غير ذات صلة بالأدب الجاهلي ، بيد أنها تسهم في توضيح أمور جزئية للكاتب والقارئ معاً ، وتعمل على رسم المشهد العام لجهد الباحث وأمانته في ردّ الفضل إلى أهله ، ومن خلال المقايسة والموازنة والمجاورة والمحاورة يمكننا إضاءة عتمات كثيرة ..

ثانياً : لم نعزل مظانّ الشعر عن مظانّ النثر ، لوجود التداخل الذي أشرنا إليه غير مرة في كتابنا هذا ، فكتاب البيان والتبيين (مثلاً) أطروحة مهمة في الشعر الجاهلي والنثر الجاهلي معاً !! وكذلك كتاب الأغاني ومجمع الأمثال والشواهد كثيرة ، والباحث المختصّ والقارئ المتوسّط قادر على الفرز والعزل من خلال فهارس الموضوعات في الكتب والدوريات ، ومن خلال إحالاتنا التي تعقب المتن الشعري أو المتن النثري .

ثالثاً : ثمة تقليد جليل دأب عليه الدارسون وهو وضع رموز تكشف النقص في معلومة الكتاب مثل د : ت = دون تاريخ . د : مط = دون ذكر المطبعة . د : مك = دون ذكر اسم المكان وقائمة الرموز طويلة ، وقد حاولنا الاستغناء عن ذكر هذه الرموز وسواها مستندين إلى ذكاء القارئ ، فإذا لم نذكر التاريخ فذلك يعني أن الكتاب غفل من ذكر التاريخ ، وإذا لم نذكر اسم المطبعة أو الطبعة فهذا يعني أن الكتاب خال من ذكرهما .. وما يقال عن ذلك يمكن أن يقال عن اسم المحقق أو المترجم أو الناشر .. فلا مسوّغ في رأينا إلى وضع هذه الرموز لتثقل الكتاب وتزيد من مساحة

الكتـاب ، وشغلنـا هو كتـابـة المتـوفر من المعلـومـات فقـط ، ونستصرخ من هـذا المنبر المؤلفين والمحققين والناشرين وندعوهم إلى ذكر المعلومات الخاصـة بـالكتـاب الصـادر من اسم المطبعـة أو دار النشر ، ومكان الطبـع وتـاريخـه ورقم الطبعـة أو أي معلـومـة تغني صحيفة المصـادر والمراجع ، إن ظهور أي كتـاب مطبوع دون ذكر اسم المطبعـة والمكان والتاريخ يعني أول ما يعني أن إمكان الفـائـدة من المطبوع ضئيل حتى لا يكاد يرى !! فـالبحث العلمي غير قـادر على الاستفـادة من الكتـاب الـذي أهمـل هـذه المعلـومـات المهمة !!

رابعاً : نحن ميّالون إلى الطريقة العربية في الإحالـة وتوثيق الكتـاب ! وهي ذكر اسم الكتـاب ثم الكاتب فـالمهم هو اسم الكتـاب وليس الكاتب ، والإحـالـة منصرفـة إلى الكتاب بوصفه خزانة معلومات ، وما الكاتب إلا تبع للكتاب ، بيد أننا مضطرون إلى كبح ميلنا انسجاماً مع التقليد العالمي في صناعة الكتاب ، وهو إيراد المعلومة الخـاصـة بالكاتب قبل الكتاب ، فنبتـدئ بـالشهرة أو اللقب ، أو الكنيـة ، ثم الاسم ، ثم الوفـاة (إن كان الكاتب ميتـاً) ثم اسم الكتـاب ورقم الصفحـة بعـد الجزء (إن كان الكتــاب أجزاءً) ، ثم الطبعة والتاريخ والمكان ، وهذا التقليد العـالمي الـذي اعتمـدتـه اليونسكو مقتبس من نظـام مكتبـة الكونجرس الأمريكي الشهيرة التي نعمت بمـديرين ذوي شهرة عالمية من نحو الشـاعر الأمريكي إرشيبـالـد مكليش صـاحب : لا شيء يحدث / لا أحـد يجيء / يـاللهول ؛ وإذا صنـع الكتـاب وفـق هـذا التقليـد أمكن تخزينـه في دسكات الكمبيـوتر فضلاً عن إمكان حفظـه في منظـومـة الأنترنيت ، واخترنـا الأرقـام العربيـة (1 . 2 . 3 . 4 ..) بدلاً من الأرقام الهندية (١ . ٢ . ٣ . ٤ ...) للسبب نفسه .

خامسـاً : لم نعزل الكتب القـديمـة عن الجـديـدة ، ولم نعزل الكتب المطبوعـة عن الكتب المخطوطة ، بل لم نعزل الكتب عن المجلات والدوريات إتماماً للفـائـدة واستنـاداً إلى الفقرة (رابعاً) ، بل تمادينا إلى الحد الذي سمحنا فيه لأنفسنا بدمج الكتب العربيـة مع غير العربية ، فـالكاتب (J. Monroe) وضعنـاه في حرف الجيم وفق هـذا الترتيب

(جيـ . مونرو) فجاء بعد الجندي ، والكاتبة (Giffen Lois Anita) وضعناها في حرف الجيم وفق هـذا الترتيب جفن فجاءت بعـد الجرجاني وقبل الجمحي .. فاقتضت الإشارة .

سادساً : يرد ـ أحياناً ـ اسم المؤلف ، ثم يجد القارئ تكرارنا لاسم الكتاب فيحار في الأمر !! والمسوّغ هو أن شغلنا يضطرنا إلى الاستفادة من طبعتين للكتاب الواحد ، أو تحقيقين أو ترجمتين للعثور على الضّالة ؛ فكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ـ مثلاً ـ خرج بعدة طبعات ونسخ وتحقيقات من نحو طبعة بولاق وطبعة الكتبخانة !! وقد اعتمدنا على هاتين الطبعتين لأسباب بحثية ، وكذا الحال مع كتاب البيان والتبيين للجاحظ !! أما الدواوين فحالها لا يختلف عما ذكرنا ، ديوان عنترة الذي اشتغلنا عليه نسختان ؛ الأولى بتحقيق محمد سعيد مولوي والأخرى بتحقيق الأخوين كاتب .

ثالثاً ـ جريدة المصادر والمراجع (المظانّ) :

+ الإبشيهي . شهاب الدين . محمد بن أحمد (ت 850 هـ) . المستطرف في كل فنّ مستظرف . طب دار مكتبة الحياة . بيروت .

+ ابن الأبرص . عبيد . ديوانه . تح حسين نصّار . مط مصطفى البابي ـ مصر ـ 1957 .

+ ابن أبي خازم . بشر . ديوانه . تح د . عزة حسن . مط محمود هاشم الكتبي . دمشق 1972 .

+ ابن أبي سلمى . زهير . شرح ديوانه . صنعة ثعلب (ت 291 هـ) . طب الدار القومية ـ القاهرة . 1964 .

+ ابن أبي الصّلت . أمية . أ ـ حياته وشعره . تح بهجت عبد الغفور . مط العاني . بغداد 1975 . ب ـ شرح ديوانه . تح سيف الدين كاتب وأحمد عصام كاتب . طب مكتبة الحياة ـ بيروت .

+ ابن أبي طالب . الإمام علي (رضي الله عنه) (ت 40 هـ) . نهج البلاغة . تح الشيخ محمد عبده . طب دار المعرفة . بيروت .

+ ابن الأثير . مجد الدين المبارك بن محمد (ت 606 هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر . تح طاهر الزاوي وصاحبه . طب إحياء الكتب العربية . مصر 1963 .

+ ابن الأجدابي . أبو إسحاق . إبراهيم بن إسماعيل (ت 650 هـ) . تح عزة حسن . مط دار سمير . دمشق 1964 .

+ ابن الأزرق . نافع الحروري (ت 65) . سؤالات نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن عباس . تح إبراهيم السامرائي . مط المعارف . بغداد 1968 .

+ ابن إسماعيل . يوسف (ت 635 هـ) . عنترة بن شداد (سيرة شعبية) . طب دار الكتب الشعبية ـ بيروت 1981 .

+ ابن جعفر . أبو الفرج قدامة (ت 337 هـ) . نقد النثر (الكتاب منسوب إلى أبي عبد الله محمد بن أيوب) . طب المكتبة العلمية ـ بيروت 1980 .

+ ابن جنّي . أبو الفتح عثمان (392 هـ) . الخصائص . تح محمد علي النّجار . طب دار الهدى ـ بيروت .

+ ابن حبيب . أبو جعفر محمد (ت 245 هـ) . المحبّر . تح د . إيلزة شتيتر . طب المكتب التجاري . بيروت .

+ ابن حجر . أوس . ديوانه . تح . د . محمد يوسف نجم . طب صادر ـ بيروت ـ 1960 .

+ ابن خلدون . أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) ـ مقدمة ابن خلدون . طب مؤسسة الأعلمي ـ بيروت .

+ ابن خلّكان . أبو العباس أحمد بن محمد (ت 681 هـ) . وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . تح . د . إحسان عباس . طب دار صادر ـ بيروت 1977 .

+ ابن زهير . قيس . شعره . صنعة عادل البياتي . مط الآداب . النّجف 1972 .

+ ابن الشجري . أبو السعادات . هبة الله (ت 542 هـ) . مختارات ابن الشجري . تح محمود حسن زناتي . طبع دار الكتب العلمية ـ بيروت 1980 .
+ ابن شداد . عنترة . أ ـ شرح ديوانه . تح سيف الدين الكاتب ـ أحمد عصام الكاتب . طبع دار مكتبة الحياة ـ بيروت . ب ـ ديوانه . تح محمد سعيد مولوي . مط المكتب الإسلامي 1970 .
+ ابن الصّمة . دريد الجشمي . ديوانه . تح محمد خير البقاعي . طبع دار قتيبة . دمشق 1981 .
+ ابن الطفيل . عامر . ديوانه . تح كرم البستاني . طبع دار صادر ـ بيروت 1963 .
+ ابن عادياء . السموءل . أ ـ ديوانه . تح الشيخ محمد حسن آل ياسين . مط المعارف ـ بغداد 1955 . ب ـ ديوانا عروة بن الورد والسموءل . تق كرم البستاني . طبع دار صادر ـ بيروت .
+ ابن عبدة . علقمة الفحل . شرح ديوانه للأعلم الشنتمري . تح د . جنا نصر . طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت 1993 .
+ ابن العبد . طرفة . أ ـ ديوانه . تح درية الخطيب ولطفي الصّقّال . طبع مجمع اللغة العربية ـ دمشق 1975 . ب ـ ديوانه : تق سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . طبع دار مكتبة الحياة ـ بيروت .
+ ابن عبد ربه . أحمد بن محمد (ت 328 هـ) . العقد الفريد . تح محمد سعيد العريان . طبع دار الفكر .
+ ابن علي . حسن . الشاعر العراقي عبد الإله الصائغ يقول : طه حسين اعتسف الشعر الجاهلي ـ مقابلة منشورة في جريدة الأخبار التونسية يوم 1992/1/11 .
+ ابن قتيبة . أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت 276 هـ) .
1 ـ الشعر والشعراء . طبع دار إحياء العلوم ـ بيروت 1987 .
2 ـ المعارف . تح د . ثروت عكاشة . مط دار المعارف ـ مصر 1969 .

3 ـ عيون الأخبار . طب المؤسسة المصرية للتأليف . القاهرة 1963 .
4 ـ الأنواء في مواسم العرب . طب حيدرآباد الدكن في الهند . 1956 .
+ ابن الكلبي . أبو المنذر هشام بن محمد السائب (ت 204 هـ) .
أ ـ الأصنام . تح أحمد زكي . طب الدار القومية . مصر 1965 .
ب ـ أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها . تح أحمد زكي (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب) . طب الدار القومية للطباعة . مصر 1965 .
+ ابن مرداس . العباس . ديوانه . تح يحي الجبوري . طب بغداد 1968 .
+ ابن مقبل . تميم . ديوانه . تح د . عزة حسن . طب إحياء التراث . دمشق 1962 .
+ ابن النديم . أبو الفرج محمد بن إسحاق (ت 385 هـ) . الفهرست . تح الشيخ إبراهيم رمضان . طب دار المعرفة . بيروت 1997 .
+ ابن منظور . أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرّم (ت 711 هـ) . لسان العرب . طب ثالثة ـ دار صادر ـ بيروت 1994 .
+ ابن منقذ . أسامة (ت 284 هـ) . لباب الآداب . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1980 .
+ ابن الورد . عروة .
أ ـ ديوانه . تح عبد المعين الملوحي . طب وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ، 1966 .
ب ـ ديوانا عروة والسموءل . تق كرم البستاني . طب دار صادر بيروت .
+ ابن يعمر لقيط . ديوانه . تح د . عبد المعين خان . طب مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1987 .
+ أبو ريان . د . محمد علي . تاريخ الفكر الفلسفي .
+ أبو شريفة . د . عبد القادر حسين وحسين لافي قزق . مدخل إلى تحليل النص الأدبي . طب دار الفكر ـ عمان ـ 1963 .

+ أبو العلا . محمود طه . جغرافية شبه الجزيرة العربية . طب القاهرة ـ 1956 .
+ أحمد . د . إمام إبراهيم . تاريخ الفلك عند العرب . مط دار القلم ـ مصر ـ 1960 .
أدونيس . ديوان الشعر العربي . طب المكتبة العصرية ـ بيروت ـ 1964 .
+ الإرياني . مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني 1990 .
+ الأزرقي . أبو الوليد . محمد بن عبد الله (ت 250 هـ) . أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار . طب دار الأندلس ـ بيروت 1969 .
+ الأسد . د . ناصر الدين . مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية . طب دار الجيل . بيروت 1988 .
+ الأصبهاني . أبو الفرج . علي بن الحسين (ت 356) .
أ ـ الأغاني . طب روائع التراث ـ بيروت 1970 . (بولاق) . 20 جزءاً .
ب ـ الأغاني . طب مؤسسة عز الدين ـ بيروت (كتبخانة) .
+ اصطيف . عبد النبي . نظرة في تحديث الأجناس الأدبية . مجلة الناقد . لندن . العدد الثامن . شباط ـ فبروري 1989 ـ السنة الأولى .
+ الأصمعي . أبو سعيد . عبد الملك بن قريب (ت 216 هـ) . الأصمعيات . تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . طب دار المعارف . مصر 1964 .
+ الأعشى (ميمون بن قيس) . ديوانه . تح د. محمد محمد حسين . طب دار النهضة العربية . بيروت 1974 .
+ أليوت . ت . س . الأرض اليباب (الشاعر والقصيدة) . تر . د . عبد الواحد لؤلؤة . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت 1995 .
+ امرؤ القيس . ديوانه . تح محمد أبو الفضل إبراهيم . طب دار المعارف . مصر 1969 .
+ أمين . أحمد . ضحى الإسلام . طب لجنة التأليف . القاهرة 1964 .
+ الأنباري . أبو بكر . محمد بن القاسم (ت 338 هـ) ، شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . تح . عبد السلام هارون . طب دار المعارف مصر .

+ بافقيه . محمد عبد القادر . تاريخ اليمن القديم . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت 1985 .

+ باقر . طه :

أ ـ ملحمة جلجامش (تروتق) . طب دار الحرية ـ بغداد 1980 .

ب ـ مقدمة في أدب العراق القديم . طب دار الحرية ـ بغداد 1976 .

+ البحتري . أبو عبادة . الوليد بن عبيد (ت 284 هـ) . الحماسة . تح لويس شيخو . طب دار الكتاب العربي ـ بيروت 1967 .

+ البخاري . محمد بن إسماعيل (ت 256 هـ) . صحيح البخاري 54/5 . طب دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

+ بدوي . د . عبده . الشعراء السّود وخصائصهم في الشعر العربي . طب الهيئة المصرية . القاهرة 1973 .

+ بريل . ليفي . العقلية البدائية . تر د . محمد القصاص . طب مكتب مصر ـ القاهرة .

+ البستاني . بطرس (ت 1969 م) . الشعر الجاهلي . طب دار المعلم . بيروت 1965 .

+ البستاني . فؤاد إفرام .

أ ـ دائرة المعارف . مط الأدبية ـ بيروت 1887 .

ب ـ الشعر الجاهلي . مط الكاثوليكية ـ بيروت 1958 .

+ البصري . صدر الدين علي بن أبي الفرج (ت 629 هـ) . الحماسة البصرية . تح مختار الدين أحمد . طب عالم الكتب ـ بيروت 1983 .

+ البطل . د . علي . الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري . طب دار الأندلس 1980 .

+ البطليوسي . أبو بكر . عاصم بن أيوب (ت 494 هـ) . شرح الأشعار الستة الجاهلية . تح ناصيف عواده . مط دار الحرية ـ بغداد 1979 .

+ البغدادي . عبد القاهر بن عمر (ت 1093 هـ) . خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب . تح عبد السلام . محمد هارون . طب دار الكتاب العربي ـ القاهرة 1967 .
+ البغدادي . محمد بن المبارك (ت 589 هـ) . قصائد نادرة من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب . تح . حاتم صالح الضامن . طب مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ 1983 .
+ البقاعي . د . شفيق . الأنواع الأدبية مذاهب ومدارس . طب مؤسسة عز الدين . بيروت 1985 .
+ بكر . د . منذر . مساهمة العرب في التراث اليوناني قبل الإسلام . مجلة المورد العراقية . مجلد 8 . عدد 2 . سنة 1979 .
+ البلاذري . أحمد بن يحي بن جابر (ت 279 هـ) . فتوح البلدان . طب مكتبة مصر 1956 .
+ بلاشير . د . ريجس . تاريخ الأدب العربي . تر . د . إبراهيم الكيلاني . طب دار الفكر ـ دمشق 1984 .
+ بنت بدر . الخرنق . ديوانها . تح يسري عبد الغني . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1990 .
+ البهبيتي . نجيب محمد . المعلقات (سيرةً وتاريخاً) . طب دار الثقافة . الدار البيضاء . المغرب 1982 .
+ بروكلمن . كارل . تاريخ الأدب العربي . تر د . عبد الجبار النجار . طب دار المعارف بمصر 1977 .
+ البياتي . د . عادل .
أ ـ شعر الأحناف دراسة وتحليل . مجلة آداب المستنصرية ـ بغداد ـ عدد 5 ـ سنة 1980 .

ب ـ تحديد مصطلح الجاهلية والأُمّية في التراث العربي والإسلامي . مجلة كلّية الآداب . جامعة بغداد . عدد 27 . سنة أولى 1979 .
+ تأبّط شرّاً . ديوانه . تح علي ذو الفقار شاكر . طب دار الغرب الإسلامي ـ بيروت 1984 .
+ التبريزي . أبو زكرياء . يحي بن علي (ت 502 هـ) .
أ ـ شرح القصائد العشر . تح . د . فخر الدين قباوة . طب المكتبة العربية ـ حلب 1973 .
ب ـ ديوان الحماسة . طب بولاق (1296 هـ) . تح محمد محي الدين عبد الحميد . مط حجازي ـ مصر 1938 .
+ التهانوي . محمد علي بن علي . كشاف اصطلاحات الفنون . طب شركة خياط ـ بيروت .
+ تيغم . ب . فان . الأدب المقارن . تعريب سامي الحسامي . طب المكتبة العصرية ـ بيروت .
+ الثعالبي . أبو منصور . عبد الملك بن محمد (ت 429 هـ) . التمثيل والمحاضرة . تح عبد الفتاح الحلو . طب دار إحياء الكتب ـ القاهرة 1961 .
+ ثعلب . أحمد بن يحي (ت 291 هـ) . مجالس العلماء . تح عبد السلام هارون . طب دار المعارف ـ مصر 1369 .
+ الجاحظ . أبو عثمان عمرو بن بحر (ت 255 هـ) .
1 ـ البيان والتبيين . تح حسن السندوبي . طب دار إحياء العلوم ـ بيروت 1993 .
2 ـ الحيوان . تح عبد السلام هارون . طب مصر 1938 .
الحيوان . تح فوزي عطوي ـ بيروت 1968 .
+ الجادر . د . محمد . شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين . طب دار الرسالة ـ بغداد 1979 .

+ جاد المولى . محمد أحمد وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . أيام العرب في الجاهلية . طب المكتبة العصرية . صيدا ـ بيروت .
+ الجباوي . محمد فتاح عبد . الموثبات في الشعر العربي قبل الإسلام . رسالة ماجستير ـ كلّية الآداب . جامعة بغداد 1981 .
+ الجبوري . د . يحيى .
1 ـ حركة الأحناف في الجاهلية . مجلة المعارف . عدد 9 ، أيلول سبتمبر 1962 .
2 ـ الإسلام والشعر . طب بغداد 1964 .
3 ـ الشعر الجاهلي وخصائصه وفنونه . طب جامعة قار يونس ـ بنغازي ـ ليبيا 1993 .
+ الجرجاني . عبد القاهر . (ت 471 هـ) . دلائل الإعجاز . تح محمد رضوان الداية وصاحبه . طب مكتبة سعد الدين ـ دمشق 1987 .
GIFFEN. LOIS. ANITA. THEORY OF PROFANE LOVE AMONG THE ARABS. THE DEVELOPMENT OF THE GENRE. NEW YORK. UNIVERSITY. PRESS. ND.
+ الجمحي . أبو عبد الله . محمد بن سلام (ت 232 هـ) . طبقات الشعراء . تح د . عمر فاروق الطباع . طب دار الأرقم ـ بيروت 1997 .
+ الجندي . د . عبد الحميد سند . زهير بن أبي سلمى شاعر السّلم في الجاهلية . طب الدار القومية . القاهرة .
+ الجودي . شاكر . إلمامة بالرجز في الجاهلية . مط العاني ـ بغداد 1966 .
+ الجوزو . د . مصطفى . نظريات الشعر عند العرب ـ الجاهلية والعصور الإسلامية . طب دار الطليعة ـ بيروت 1981 .
+ جياووك . د . مصطفى عبد اللطيف . الحياة الموت في الشعر الجاهلي . مط دار الحرية بغداد 1977 .

J. MONROE. ORAL COMPOSITION IN PRE-ISLAMIC POETRY. JOURNAL OF ARABIC LITERATURE. VOL. III. 1972. BRILL-LEIDEN.

+ الحاج حسن . د . حسين . أدب العرب في عصر الجاهلية . طب المؤسسة الجامعية للدراسات ـ بيروت 1984 .

+ حتّي . فيليب وآخرون .

1 ـ تاريخ العرب . طب دار غندور ـ بيروت 1974 .

2 ـ العرب تاريخ موجز . طب دار العلم للملايين ـ بيروت 1946 .

+ حرب . حمدي مصطفى . قصة الزمن . مط الثقافية ـ مصر 1970 .

+ حسنين . د . سيد حنفي . الشعر الجاهلي . مراحله واتّجاهاته الفنّية . مط الثقافية ـ مصر 1971 .

+ حسين . د . طه .

1 ـ في الشعر الجاهلي . طب دار المعارف ـ سوسة ـ تونس 1997 . مصورة عن دار الكتب المصرية .

2 ـ في الأدب الجاهلي . طب دار المعارف ـ مصر 1927 .

+ الحطيئة . ديوانه . شرح ابن السّكيت والسّجستاني . تح نعمان أمين طه . مط مصطفى البابي الحلبي 1958 .

+ حفني . د . عبد الحليم . شعر الصعاليك منهجه وخصائصه . طب الهيئة المصرية العامة للكتاب 1987 .

+ الحموي . ياقوت . شهاب الدين أبو عبد الله (ت 626 هـ) . معجم البلدان . طب إحياء التراث العربي ـ بيروت 1997 .

+ الحوت . محمود سليم . في طريق الميتالوجيا عند العرب . طب مؤسسة خليفة ـ بيروت 1979 .

+ الحوراني . يوسف . البنية الحضارية في الشرق المتوسطي الآسيوي القديم . طب دار النهار ـ بيروت 1978 .
+ الحوفي . د . أحمد .
1 ـ أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي . مط الرسالة ـ مصر 1958 .
2 ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلي . طب الهيئة المصرية العامة ـ القاهرة 1972 .
+ خليف . د . يوسف . الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي . مط دار المعارف ـ مصر ـ 1959 .
+ الخنساء . ديوانها . تح عبد السلام الحوفي . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت .
+ الدّباغ . سالم . أدب المعدمين في كتب الأولين . مط اللواء ـ بغداد 1971 .
+ الدّميري . كمال الدين محمد بن عيسى (ت 808 هـ) . حياة الحيوان الكبرى . طب دار الألباب .
2 ـ الهجاء والهجّاؤون في الجاهلية . طب دار النهضة ـ بيروت 1970 .
+ مرتاض . د . عبد الملك . شعرية القصيدة قصيدة القراءة . طب دار المنتخب العربي . بيروت 1994 .
+ المرتضى . الشريف علي بن الحسين العلوي (ت 436 هـ) . أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) . تخ محمد أبو الفضل إبراهيم . طب دار الكتاب العربي . بيروت 1967 .
+ المرزباني . أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 384) .
1 ـ الموشح في مآخذ العلماء على الأدباء . تح علي محمد البجاوي . طب لجنة البيان العربي 1965 .
2 ـ أشعار النّساء . تح سامي مكّي العاني وهلال ناجي . مط دار الرسالة ـ بغداد 1976 .

+ المرزوقي . أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت 421 هـ) .

1 ـ الأزمنة والأمكنة . طب مجلس دائرة المعارف ـ الهند ـ حيدرآباد الدكن 1332 هـ .

2 ـ شرح ديوان الحماسة . تح أحمد أمين وعبد السلام هارون . طب لجنة التأليف والنشر . القاهرة 1967 .

+ المسعودي . أبو الحسن علي بن الحسين (ت 306 هـ) . مروج الذهب . تح محمد محي الدين عبد الحميد . مط السعادة . مصر 1964 .

+ مطلوب . د . أحمد . معجم المصطلحات البلاغية وتطورها . طب مكتبة لبنان ناشرون . بيروت 1996 .

+ المعري . أبو العلاء أحمد بن عبد الله (ت 449 هـ) . رسالة الغفران . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1990 .

+ المقالح . د . عبد العزيز .

أ ـ مقدمة (انظر مطهر علي . نقوش مسندية وتعليقات) .

ب ـ البحث عن طفولة بلقيس في قرية سحر . جريدة الثورة اليمنية 1998/11/24 .

جـ ـ أصوات من الزمن الجديد (دراسة في الأدب العربي المعاصر) . طب دار العودة ـ بيروت 1980 .

د ـ البدايات الجنوبية . طب دار الحداثة ـ بيروت 1986 .

+ المقتطف . مجلة مصرية . عدد مارس 1933 .

+ الملوحي . عبد المعين . المنصفات . جمع وتحقيق . طب دمشق 1967 .

+ مليطان . عبد الله سالم . التفكير الأسطوري في الإسرائيليات . طب دار مداد ليبيا 1998 .

+ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1986 .

+ مهران . د . محمد بيومي . دراسات في تاريخ العرب القديم . طب دار المعرفة الجامعية ـ مصر 1993 .
+ الميداني . أبو الفضل أحمد بن محمد (ت 518 هـ) . مجمع الأمثال . ضبط وتعليق سعيد محمد اللحام . طب دار الفكر ودار نوبليس ـ بيروت 1992 .
+ الميمني . عبد العزيز الراجاكوتي . الطرائف الأدبية (شعر الأفوه الأودي والشنفرى وتسع قصائد نادرة) . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت .
+ هارون . عبد السلام محمد . تهذيب سيرة ابن هشام . طب مكتبة السنة ـ مصر 1989 .
+ الهاشمي . د . علي . المرأة في الشعر الجاهلي . مط المعارف . بغداد 1960 .
+ الهمداني . لسان اليمن . الحسن بن أحمد (ت 334 هـ) . صفة جزيرة العرب . تح محمد بن الأكوع . طب مكتبة الإرشاد ـ صنعاء 1990 .
+ الذبياني . النابغة . ديوانه . تح عباس عبد الساتر . طب دار الفكر العلمية ـ بيروت 1984 .
+ الرازي . أبو حاتم . أحمد بن حمدان (ت 322 هـ) . كتاب الزينة . تح حسين الهمداني الحرازي . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1994 .
+ رومية . وهب . الرحلة في القصيدة الجاهلية . طب اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين 1975 .
+ الزبيدي . عمرو بن معديكرب . ديوانه . تح هاشم الطعان . طب بغداد 1970 .
+ الزجاجي . أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق (ت 339 هـ) . مجالس العلماء . تح عبد السلام هارون . مط المدني ـ مصر 1983 .
+ زكي . د . أحمد كمال . شعر الهذليين في العصرين الجاهلي والإسلامي . طب دار الكاتب العربي ـ القاهرة 1969 .
+ الزمخشري . أبو القاسم جار الله محمود بن عمر (ت 538 هـ) . أساس البلاغة . تح عبد الرحيم محمود . طب دار المعرفة ـ بيروت .

+ الزوزني . أبو عبد الله الحسين بن أحمد (ت 486 هـ) . طب دار الحكمة . دمشق . 1980 .

+ زيدان . جرجي . تاريخ آداب اللغة العربية . طب دار الهلال ـ مصر .

+ السامرائي . د . عبد الله سلوم . الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية . طب دار الحرية ـ بغداد 1980 .

+ سبينوزا . رسالة في اللاهوت والسياسة . تر . د . حسن حنفي . طب الهيئة المصرية للتأليف 1971 .

+ السجستاني . أبو حاتم سهل بن محمد (ت 255 هـ) .

1 ـ سؤالات أبي حاتم السجستاني للأصمعي . تح . د . عبود أبو جري . طب المكتبة الثقافية الدينية 1994 .

2 ـ المعمَّرون والوصايا . تح عبد المنعم عامر . طب إحياء الكتب ـ القاهرة . 1961 .

+ السدوسي . أبو فيد . مؤرج بن عمرو (ت 195 هـ) . الأمثال . تح د . رمضان عبد التّواب . مط الثقافية ـ مصر 1971 .

السندوبي . حسن . أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام . مط الاستقامة ـ القاهرة 1959 .

+ السهيلي . عبد الرحمن بن عبد الله (ت 581 هـ) . الروض الأنف في شرح السيرة النّبوية لابن هشام . تح عبد الرحمن الوكيل . حلب دار النصر . مصر 1970 .

+ سوسة . د . أحمد . حضارة العرب ومراحل تطورها . طب دار الحرية بغداد . 1979 .

+ السيوطي . جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين (ت 911 هـ) .

1 ـ تاريخ الخلفاء . تح قاسم الرفاعي ومحمد العثماني . طب دار الأرقم . بيروت .

2 ـ المزهر . تح محمد جاد المولى وصاحبيه . طب دار إحياء الكتب ـ مصر .

3 ـ الوسائل إلى مسامرة الأوائل . تح د . أسعد طلس . مط النجاح ـ بغداد 1950 .
+ الشايب . أحمد . تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني . مط السعادة . مصر 1976 .
+ الشرجبي . عبد السلام . من شريط ذكريات التاريخ العربي . جريدة الجمهورية اليمنية . الخميس 1998/12/31 .
+ الشنتمري . يوسف بن سليمان بن عبس (ت 476 هـ) . أشعار الشعراء الستة الجاهليين . تح محمد عبد المنعم خفاجي . طب المشهد الحسيني ـ القاهرة 1963 .
+ الشنتقيطي . أحمد بن الأمين (ت 331 هـ) . المعلقات العشر وأخبار شعرائها . طب دار الكتب العلمية ـ بيروت 1997 .
+ الشهرستاني . أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت 548 هـ) . الملل والنِّحل . تح محمد سيد كيلاني . طب دار المعرفة ـ بيروت 1975 .
+ شيخو . الأب لويس اليسوعي (ت 1927 م) . النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية . طب المكتبة اليسوعية ـ بيروت 1933 .
+ الصائغ . د . عبد الإله .
1 ـ الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنّية (الحداثة وتحليل النّص) . طب المركز الثقافي العربي ـ بيروت 1999 .
2 ـ الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية (القدامة وتحليل النص) . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1997 .
3 ـ الصورة الفنّية معياراً نقدياً . طب دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1987 .
4 ـ الإبداع العربي الجاهلي بين الواقع والتوقع . طب الموسوعة الصغيرة ـ بغداد 1988 .
5 ـ الفتوة العربية رؤية جديدة . جريدة الجمهورية ـ بغداد 1985/8/23 .

6 ـ صحيفة لقيط (تحليل النص) . مجلة الطليعة الأدبية ـ بغداد . شباط فبروري 1979 .

7 ـ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام . طب كويت تايمس ـ الكويت 1982 .

8 ـ ربيعة الكناني حمى قومه حياً وميتاً . جريدة القادسية ـ بغداد 1981/5/30 .

+ الصائغ . يوسف . الشعر الحرفي العراق منذ نشأته حتى عام 1958 . مط الأديب البغدادية 1978 .

+ الصكَر . د . حاتم . مرايا نرسيس . طب المؤسسة الجامعية للدراسات ـ بيروت 1999 .

+ الضبّي . المفضل محمد بن يعلى الكوفي (ت 178 هـ) . المفضّليات . تح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون . طب دار المعارف ـ مصر 1992 .

+ الضبعي . المتلمس . ديوان شعره . تح حسن كامل الصيرفي . طب معهد المخطوطات العربية ـ القاهرة 1968 .

+ ضيف . د . شوقي . العصر الجاهلي . طب دار المعارف ـ مصر 1960 .

+ الطائي . حاتم . ديوانه وأخباره . تح د . عادل سليمان جمال . مط المدني . القاهرة .

+ طبانة . د . بدوي . معلقات العرب . طب الرسالة ـ مصر 1958 .

+ العاكوب . د . عيسى علي . التفكير النقدي عند العرب . طب دار الفكر ـ دمشق 1997 .

+ العامري . لبيد بن ربيعة . ديوانه . طب دار صادر ـ بيروت .

+ عبد الباقي . محمد فؤاد . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . طب دار الكتب المصرية 1945 .

+ عبد الله . د . يوسف محمد . ترنيمة الشمس (نقش القصيدة الحميرية صورة من الأدب في اليمن القديمة) . طب مركز الدراسات والبحوث اليمني . صنعاء 1989 .

+ عبود . د . عبدة . الأدب المقارن مدخل نظري ودراسات تطبيقية . طب مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية . سورية 1992 .

+ عثمان . د . أحمد . الأدب اللاتيني ودوره الحضاري . طب عالم المعرفة ـ الكويت . 1989

+ عصفور . د . جابر . الصورة الفنّية في التراث النقدي والبلاغي . طب دار الثقافة ـ مصر 1974 .

+ العقاد . عباس محمود . الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين . طب دار القلم ـ مصر .

+ العكبري . أبو البقاء . عبد الله بن الحسين (ت 616 هـ) . شرح لامية العرب . تح د . محمد الحلواني . طب دار الآفاق الجديدة ـ بيروت 1983 .

+ العلوي . محمد أحمد بن طباطبا . (ت 322) . عيار الشعر . تح عباس عبد الساتر . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1982 .

+ علي . د . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام . طب دار العلم للملايين . بيروت 1971 .

+ علي . د . عبد الرضا .

أ ـ نازك الملائكة الناقدة . طب المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت . 1995

ب ـ موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه . طب دار الشروق . عمان 1997 .

+ علي . د . فاضل عبد الواحد . عشتار ومأساة تموز . مط الجمهورية . بغداد . 1973

+ عنتَرة .
1 ـ ديوانه . تح محمد سعيد مولوي . مط المكتب الإسلامي 1970 .
2 ـ شرح ديوانه . تح سيف الدين الكاتب وأحمد عصام الكاتب . طب دار مكتبة الحياة . بيروت .
+ الغذامي . د . عبد الله . القصيدة والنص المضاد . طب المركز الثقافي العربي . بيروت 1994 .
+ غريب . جورج . شاعرات العرب في الجاهلية . طب دار الثقافة . بيروت 1984 .
+ فادي . ج . ك . الغزل عند العرب . تر . د . إبراهيم الكيلاني . طب وزارة الثقافة . دمشق 1979 .
+ فاضل . عبد الحق . تاريخهم من لغتهم . طب دار الحرية . بغداد 1977 .
+ فخر الدين . جودت . الإيقاع والزمان . طب دار المناهل ودار الحرف العربي ـ بيروت 1995 .
+ الفرزدق . (ت 110 هـ) ديوانه . شرح علي فاعور . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1987 .
+ فريزر . سيرجيمس . (ت 1941 م) . الغصن الذهبي (The Golden Bough) تر . أحمد أبو زيد وآخرين . مط الثقافية . مصر 1971 .
+ القرشي . أبو زيد بن الخطاب (من رجال القرن 3 هـ) . جمهرة أشعار العرب . طب دار صادر . بيروت .
+ القزويني . زكرياء بن محمد (ت 682) . آثار البلاد وأخبار العباد . طب دار صادر . بيروت .
+ القشيري . أبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري . (ت 261 هـ) . صحيح مسلم . تح محمد فؤاد عبد الباقي . طب إحياء التراث العربي . بيروت .
+ قطرب . محمد بن المستنير (ت 206) . الأزمنة وتلبيات الجاهلية . تح . د . حنا جميل حداد . طب مكتبة المنار ـ الزرقاء ـ الأردن 1985 .

+ القيرواني . أبو علي الحسين بن رشيق (ت 456) . العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . تح محمد محي الدين عبد الحميد . طب دار الجيل . بيروت 1972 م .

+ القيسي . د . نوري .

1 ـ الفروسية في الشعر الجاهلي . طب دار التضامن . بغداد 1964 م .

2 ـ وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية . طب دار الكتاب . جامعة الموصل 1974 م .

+ القيسي . د . نوري ود . عادل البياتي ود . مصطفى عبد اللطيف . تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام . طب دار الحرية . بغداد 1979 م .

+ كحالة . عمر رضا .

1 ـ أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام . مط الهاشمية . دمشق 1959 م .

2 ـ الأدب العربي في الجاهلية والإسلام . مط التعاونية . دمشق 1972 م .

+ كشلي فواز . د . حكمت .

1 ـ كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1996 م .

2 ـ لسان العرب لابن منظور دراسة وتحليل ونقد . طب دار الكتب العلمية . بيروت 1996 م .

+ اللامي . د . جبار عباس . شعر المرأة في العصر الجاهلي . طب مركز عبادي للدراسات والنشر . صنعاء 1998 م .

+ لوبون . غوستاف . حضارة العرب . تر عادل زعتير . طب إحياء التراث . بيروت 1979 م .

LODGE. DIVID. 20 TH CENTURY LITERARY CRITICISIM (LONG-MAN) GROUP LIMITED. LONDON 1972.

+ مارجليوث . أصول الشعر العربي . تر . د . يحي الجبوري . طب مؤسسة الرسالة . بيروت . 1978
+ المبرد . أبو العباس . محمد بن يزيد (ت 285) . الكامل . طب دار المعارف . بيروت 1985 م .
+ المجذوب . د . عبد الله الطيب . المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها . طب دار الفكر . بيروت 1970 م .
+ محمد حسين . د . محمد .
1 ـ أساليب الصناعة في شعر الخمرة والناقة بين الأعشى والجاهليين . طب دار نشر الثقافة 1960 م .

الدكتور عبد الإله الصائغ المؤلفات المطبوعة

أ) كتب تحليل النّص (نقد وبلاغة) :

1) الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام . الطبعة الأولى ـ مطبعة كويت تايمس ـ الكويت ـ 1982 ـ الطبعة الثانية ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1986 م ـ الطبعة الثالثة ـ دار عصمي ـ القاهرة 1996 م .

2) الصورة الفنّية في شعر الشريف الرّضي (خطاب البلاغة وبلاغة الخطاب) طبعة دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1984 م .

3) الصورة الفنّية معياراً نقدياً ـ الطبعة الأولى ـ دار الشؤون الثقافية ـ بغداد 1987 م ـ الطبعة الثانية ـ هيئة النشر المشترك ـ القاهرة ـ 1988 م ـ الطبعة الثالثة ـ طبعة دار عصمي ـ القاهرة ـ 1996 م .

4) الإبداع الأدبي العربي بين الواقع والتوقع ـ طبعة الموسوعة الصغيرة ـ بغداد ـ 1988 م .

5) الخطاب الإبداعي الجاهلي والصورة الفنّية (القدامة وتحايل النّص) ـ طبعة المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ كازابلانكا ـ 1997 .

6) الخطاب الشعري الحداثوي والصورة الفنّية (الحداثة وتحليل النص) ـ طبعة المركز الثقافي العربي ـ بيروت ـ كازابلانكا ـ 1998 م .

7) إشكالية القصة وآلية الرواية ـ طبعة دار النخلة ـ طرابلس ـ ليبيا ـ 1998 م .

8) بكائيات على مقام العشق النزاري (بالاشتراك مع الدكتور سعدون السويح) ـ طبعة مكتبة طرابلس العالية ـ ليبيا 1998 .

ب) الكتب الإبداعية :

1 ـ ديوان (عودة الطيور المهاجرة) ـ طبعة الغري ـ النجف ـ العراق ـ 1970 م .

2 ـ قصص أطفال (حالم بابلي) ـ طبعة دار المعري ـ بغداد ـ العراق ـ 1974 م .

3 ـ ديوان (هاكم فرح الدماء) ـ طبعة دار الساعة ـ بغداد ـ العراق ـ 1974 م .

4 ـ ديوان (مملكة العاشق) ـ طبعة دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ العراق ـ 1980 م .

5 ـ ديوان (أغنيات للأميرة النائمة) ـ طبعة دار الشؤون الثقافية ـ بغداد ـ العراق ـ 1990 م .

6 ـ ديوان (سنابل بابل) ـ طبعة دار الشروق ـ عمان ـ رام الله ـ 1997 م .

المحتوى

الأطروحة الثالثة

النثر الفني الجاهلي ٤٧٩